تاريخ
الامبراطورية الرومانية
السياسي والحضاري

دكتور

سيد أحمد علي الناصري

أستاذ التاريخ القديم

كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

الطبعة الثانية منقحة ومزودة

١٩٩١

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

القاهرة

Bibliotheca Alexandrina

0007773

تاريخ
الامبراطورية الرومانية
السياسى والحضارى

د. سيد أحمد على الناصرى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

١٩٩١

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت
القاهرة

Cras amet, qui nunquam amavit ; quique amavit, cras amet

غدا قد يعشق من لم يعشق

حتى الذى عشق، غدا قد يعشق!

شاعر مجهول عاش فى عصر ماركوس أوريليوس (١٦١ – ١٨٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

واخيرا تحققت الأمنية الدفينة فى نفسى الا وهى كتابة تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ قيام نظامها عام ٢٧ ق.م ، حتى سقوطها فى الغرب عام ٤٧٦ ميلادية . ولقد حرصت على ان اقدم هذا العمل كاملا لايمانى بأن التاريخ وحدة غير قابلة للتجزئة ، فضلا على أن الفائدة من دراسات تجارب الشعوب السياسية هى الدروس المستفادة من التاريخ سواء كانت اخلاقية أم سياسية . وكيف يمكن استخراج هذه الدروس ما لم ندرس الموضوع من بدايته الى نهايته مهما اثقل ذلك على الباحث والقارىء ؟

ان تاريخ الامبراطورية الرومانية تجربة رائدة وفريدة فى تاريخ الحضارة الانسانية وهى لا تهم الباحث لتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى والعصور الحديثة فحسب ، بل لكل من يريد ان يبحث فى اصول التراث الحديث للانسانية ، ومن الجدير بالذكر أن الامبراطورية الرومانية شملت فى طياتها كل ما يعرف الآن بعالمنا العربى من حدود أيران شرقا حتى موريتانيا غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا حتى اسوان جنوبا . ووحدت بين شعوب هذه المنطقة العريقة من ناحية ثم ربطت بينها وبين النصف الجنوبى من القارة الأوربية برباط سياسى وحضارى متين استمر ما يقرب من سبعة قرون من الزمان ، وعلى هذا فان دراسة تاريخ الامبراطورية أمر مطلوب لدراسة تاريخنا القومى خلال فترة ليست بالقصيرة ، بل ومهمة لتبيان جذور الصراع الأبدى بين الشرق بتراثه الفكرى والانسانى ، وبين الغرب بفكرة المادى ورغبته فى السيطرة والتوسع .

وجدير بالذكر ايضا ان تراث الامبراطورية الرومانية لم يكن من خلق الشعب الرومانى وحده ولا من خلق الفكر والتراث الهللينستى فحسب ، بل هو مساهمه بين التراث الاغريقى الرومانى وتراث الشرق الأوسط القديم بدولة ذات التجارب العريقة والرائدة فى مجال السياسة والفكر

الحضارى . وأن روما فى عصر الامبراطورية استوعبت كل هذه التجارب واستفادت منها لتفرض السلام الرومانى العالمى . فمثلا كان أمام الامبراطورية الرومانية تجربة مصر التى اوجدت أول وحدة سياسية فى وادى النيل عرفها التاريخ وذلك حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م . كما وجدت أمامها تجربة هذا البلد فى انشاء الامبراطورية التى اكتملت وتدهورت ابان الالف الثانى قبل الميلاد ، ومن حضارات بلاد ما بين النهرين (سومر ، بابل وآشور) تعلمت روما كيف تقام الامبراطوريات بين القوميات والأجناس واللغات المختلفة دون تدخل فى الوجود العنصري أو القومى أو الدينى لهذه القوميات . ولا يمكن أن نتصور أن الفكر القانوني الروماني لم يأخذ من فكر الشرق الأوسط التشريعى أو على الأقل من موسوعة حمورابى القانونية والتى هى أول موسوعة تشريعية نظمت شئون الادارة والمالية فى بابل القديمة (١٧٩٢ ق.م — ١٧٥٠ ق.م) وأول موسوعة تشريع عرفتها الانسانية جمعاء . كما أن الحيثيين قدموا للامبراطورية الرومانية نموذجا يحتذى به فى كيفية تنظيم الدولة داخليا عن طريق تنظيم فرض السلطة على كافة أجزائها . ومن الواضح أن روما استفادت أيضا من التجربة الاشورية فى التنظيم العسكرى للامبراطورية ، وجدير بالذكر كان الاشوريون أول من قسم الامبراطورية الخاصة بهم الى ولايات قومية صغيرة مستقلة ذاتيا لكن ترتبط بالسلطة المركزية عن طريق شبكة ضخمة من الطرق العسكرية . كما قدم الفرس تجربتهم فى كيفية وضع التشريع العادل والانسانى من أجل اسعاد شعوب الامبراطورية خاصة ابان عهدى قورش الأكبر ودارا .

وخلاصة القول استطاعت روما فى عصر الامبراطورية أن تستوعب كل تجارب شعوب الشرق الأوسط السياسية والحضارية ثم مزجتها بتراثها الاغريقى الرومانى . وأضافت اليه كل ما استطاعت ان تصل اليه عن طريق ابتكاراتها الخاصة ليخرج فى النهاية من هذا كله التجربة الرومانية للامبراطورية العالمية النزعة فكرا وتطبيقا ، شكلا وتراثا ، فلسفة وحضارة .

اننا لن نغالى لو قلنا انه لا يوجد تجربة انسانية شغلت بال مفكرى العالم الحديث بقدر ما شغلتهم قيام الامبراطورية الرومانية وأفولها . وتصارعت فى ذلك الآراء الفلسفية والايديولوجية ، كل تحاول تفسير هذه الظاهرة من خلال وجهة نظرها . ولم يغب ذلك على بال المفكرين القدماء الذين نقل آراءهم أصحاب حركة احياء التراث الكلاسيكى (Humanists) ابان القرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ وعن هؤلاء الاخيرين نقل مفكرو القرن الثامن عشر النظرية القائلة بأن تدهور وسقوط الامبراطوريه

الرومانية هو تدهور سياسى فى المقام الأول ادى الى تحلل حضارى للتراث الفكرى وليس نتيجة لغزوات الجرمان على الامبراطورية . وكان جيبون أول من قاد هذا الاتجاه فى كتابه الخالد تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية » والذى صدر عام ١٧٧٦ وقد عالجنا تفسير جيبون ورد المعترضين على نظريته فى الفصل الأخير من هذا الكتاب .

وبقدوم القرن التاسع عشر ، ازدادت حدة الجدل وتشعبت الآراء والنظريات وتصارعت الايديولوجيات نتيجة لتقدم مناهج التفكير السياسى والتاريخى والاجتماعى ؛ ونتيجة لتراكم المعرفة عن التفصيلات الدقيقة عن الامبراطورية الرومانية بعد ازدياد الوعى الأثرى والنشاط الملحوظ فى مجال التنقيب والبحث عن الآثار والتراث ؛ وجمع ذلك ودراسته وتحليله . وانحصر الصراع الفكرى بين المحللين حول ثلاثة قضايا هى : هل كان تدهور وسقوط الامبراطورية الرومانية نتيجة للتدهور السياسى والتحلل الحضارى وزوال التراث الوثنى بسبب اجتياح المسيحية لولايات الامبراطورية بل لايطاليا ذاتها ؟ أم أنها سقطت بفعل عدوان القبائل الجرمانية البربرية وقبائل الهون القادمة من مناطق الثلوج والظلام وتآمر الشعوب الغير لاتينية وتعاونهم مع العدو الخارجى ضد الامبراطورية ؟ أم هل سقطت الامبراطورية نتيجة للصراع الطبقى الاقتصادى والاجتماعى الذى عصف بالامبراطورية خاصة خلال القرون الثلاثة الاخيرة من تاريخها وأدى الى انهيار مركز المدينة الحضارى والفنى وطغيان الفكر الريفى الساذج نتيجة لسيادة نظام الاقطاع والذى عبر بالامبراطورية من التاريخ القديم الى ظلام العصور الوسطى ؟

وكما قلت سابقا ، لقد أدلى كل فريق بدلوه من وجهة نظره ؛ فاصحاب نظرية المادية التاريخية القائلة بأن تنظيم وسائل الانتاج هو القوة الحتمية المحركة للتاريخ ، فسروا سقوط الامبراطورية بأنه انتقال من مجتمع الرق الى مجتمع الاقطاع ، مما أدى الى انتقال الحضارة من عصر الى آخر ؛ من القديم الى الوسيط . ويقول المؤرخون الماركسيون أن تحول الامبراطورية من عصر المجتمع القديم الى عصر المجتمع الوسيط جاء نتيجة للصراع الطبقى Conflict of Classes الذى ساد الامبراطورية فى طورها الأخير ؛ ويبررون نظريتهم بأن مجتمع الرق الذى هو مصدر الطاقة الانتاجية فى بداية عصر الامبراطورية تدهور خلال القرون الثلاثة الأخيرة من تاريخها . ولم يحاول الرومان ملء ذلك الفراغ بقوى عاملة من بينهم . لأن الرومانى كان يحتقر الا مال اليدوية والحرف الانتاجية ، ... ثم تدهورت الصناعة وتحجرت الوسائل الانتاجية حتى فى مجال الزراعة فتدهور الانتاج وبالتالى أفلس الاقتصاد .

وكما يلاحظ المفكر جوزيف ڤوجت Joseph Vogt (١) ان المؤرخين السوفيت الذين تناولوا تاريخ الامبراطورية الرومانية يحاولون اقحام ثورات العبيد كعامل من عوامل الاضمحلال والانهيار بالرغم من انهم يدركون ضآلة حجم هذه الثورات التى لم تكن بالقدر الكافى لاسقاط الامبراطورية وذلك لتبرير الفكر الماركسى ، ثم عادوا فعدلوا من آرائهم فقالوا ان سقوط الامبراطورية هو نتيجة لتحالف العبيد والمستعبدين من الفلاحين (Coloni) فى جبهة واحدة مع الغزاة الأجانب ضد نظام الامبراطورية . وهذا الرأى يقترب من آراء وولبانك Walbank والتى عرضناها فى الفصل الأخير من الكتاب وفحواها أن سقوط الامبراطورية سببه الشلل التكنولوجى technological paralysis الذى سببه تدهور مؤسسة الرق وهى القوة الديناميكية الانتاجية فى مجالات الزراعة والصناعة والاقتصاد ، وسائر وسائل الانتاج الأخرى . لقد بنت الامبراطورية الرومانية اقتصادها — منذ وقت مبكر يرجع الى ما قبل العصر الامبراطورى — على هذه المؤسسة نظرا لرخص ثمن الأيدى العاملة فيها . فالعبيد كانوا يساقون بالآلاف من حروب روما التوسعية ليباعوا بأثمان بخسة فى أسواقها ليقوموا بدور القوة العاملة الانتاجية كالآلات فى المصانع والمزارع فى عصرنا الحديث . وبمرور الزمن أصبح العبيد هم خلاصة التكنولوجيا الانتاجية والتى بتدهورهم تدهورت ، والخطأ الجسيم الذى ارتكبته الامبراطورية هو انها لم تحاول تربية طبقة بديلة للعبيد تحل محلهم فى الانتاج ووسائله . او على الأقل لم تحاول الاستعاضة عن ذلك بوسائل تكنولوجية تعوضهم عن الأيدى العاملة البشرية لانهم لم يكونوا يتوقعون نضب مصادر الرقيق بعد توقف الحروب وتطور الفكر التشريعى نحو النزعة الانسانية .

وعلى الجانب الآخر نجد مدارس مختلفة فى الغرب حاولت تفسير سقوط الامبراطورية بمفاهيم انثروبولوجية ، مثل أزمة القوى البشرية ، أو تدهور العنصر الرومانى المبدع والخلاق نتيجة لطغيان العنصر الشرقى بفكرة ودياناته ؛ أو اختفاء القيادة الحكيمة المتمثلة فى مؤسسة السناتو التى استئصلت ابان الحروب الاهلية وابان الصراع بينها وبين الاباطرة ، واستيلاء قيادات دون المستوى من الرجال ذوى كفاءة ضئيلة او معدومة وتسيطر عليهم عقلية العبيد والعتقاء ، هؤلاء الرجال هم الذين ورثوا قيادة الامبراطورية فساروا بها الى الزوال . أو كما يقول المؤرخ سيك Seek ان تطور المجتمع الرومانى كان يسير نحو مبدا استئصال الافضل Extermination of the best بعكس ما يقول دارون أن البقاء كان للاصلح .

---

(١) Joseph Vogt, The Decline of Rome, (English edition) Weidenfeld and Nicolson, 1965, p. 11 ff.

(٢) O. Seek : Geschicht des untergangs der antiker welt, (Berlin 1920). P. 220 - 225.

ومن الملاحظ أن معظم الذين تناولوا سقوط الامبراطورية بالتحليل كانوا من المفكرين الألمان ، ومن ثم وقفوا يدافعون بشراسة عن الاتهام القائل بأن سقوط الأمبراطورية كان نتيجة لعدوان الشعوب الجرمانية عليها ، ويتزعم هذا الرأى المؤرخ النمسوى دوبسيش Dopsech الذى يرى أن الغزوات الجرمانية لم تكن ابدا سببا فى انهيار الامبراطورية وأن ما حدث لا يعدو أن يكون سوى عملية اعادة توزيع للاراضى الرومانية على نطاق أوسع من العنصر الرومانى ، وان ذلك التوزيع لم يؤد ابدا الى عودة الاقتصاد الرومانى الى البدائية أو عودة التجارة الى التاسور ؛ ثم راح يعدد محاسن الجرمان وما قدموه من خدمات عسكرية للامبراطورية مستشهدا بمديح المؤرخ الرومانى تاكيتوس للجرمان (١) .

ومن بين المفكرين الأوروبيين الغربيين من يرون أن سقوط الامبراطورية هو نتيجة منطقية تتماشى مع القانون الازلى الطبيعى الذى يحكم كل شيء . وان المجتمع مثله مثل النبات والحيوان والانسان لابد ان يخضع لهذا القانون الذى يسير به من الطفوله الى الشباب ثم الشيخوخة والموت ، ويمثل هذا الرأى أوزوالد شبنجلر وآرنولد توينبى بالرغم من أن الأخير أعاد صياغة هذه النظرية بشكل جديد . وقد تعرضنا لذلك أيضا فى نهاية الكتاب .

وأخيرا نجد فريقا من المفكرين تركوا الجدل وركزوا على البحث عن الجسور الحضارية التى تربط بين الأمبراطورية الرومانية وحضارة العصر الحديث عبر العصور الوسطى لاثبات ان الأمبراطورية لم تمت ، ولكن تقمصت خلقا جديدا متمثلا فى دويلات أوروبا . وعلى راس هؤلاء يجىء المؤرخ فوستيل دى كولانج Fustel de Coulanges مؤلف الكتاب الخالد المدينة العتيقة La Cité Antique ؛ وقد انتهى الأستاذ دى كولانج من بحثه الى أن دولة الفرنجة ورثت عن الامبرطورية الرومانية نظام الملكية المطلقة والمقدسة ، ونظام الاقطاع .

كل هذه الآراء المتصارعة عرضاها للقارىء بأمانة ودقة ، مبينين

---

(١) A. Dopsech : Wirtscaftliche und Soziale Grundlagen der europaischen Kulturenwicklung Von Caesar bis auf Karl der Grossen. (Wien 1918). A. Momigliano : The Conflict between paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford 1936) p. 5 f.

(٢) Fustel de Coulanges : La Cité Antique, Etude sur le culte, le droit, les institutions de la Grèce et de Rome, Paris 1875.

وقد ترجم هذا الكتاب الأستاذان عباس بيومى بك وعبد الحميد الدراخلى — ادارة الترجمة لوزارة المعارف عام ١٩٥٠ .

مناطق الضعف والقوة لكل منها مما ينمى عقلية الطالب وفكرة التاريخى ويعرفه بالايديولوجيات التى تتصارع فى عالمه المعاصر ، حتى يكون رايا سليما ناضجا . يتقدم من خلاله الاحداث العالمية . لكن هناك سؤال قد يطرح نفسه لماذا اخترت الجانب السياسى والحضارى لتاريخ الامبراطورية ؟

ما من شك فى أن الجانب السياسى هو الهيكل الاساسى لتاريخ الامبراطورية ، كما أن الدروس المستفادة هى سياسية فى المقام الأول . وهناك كثير من المفكرين الذين يرون أن السياسة هى التى تشكل الى حد كبير جوهر ثقافتنا ومشاكلنا الاجتماعية والاخلاقية، بل واقتصادنا ،وليس الصراع الطبقى الاجتماعى ؛ لان الطبقات المتصارعة فى مجتمع ما تنسى خلافاتها وتتحد فى جبهة واحدة اذا ما تعرضت الدولة لخطر خارجى أو ازمة قومية. كما أن العامل السياسى يفوق فى تأثيره حتى العامل الاقتصادى؛ نعلى حد قول برتراند رسل Bertrand Russel فيلسوف العصر «أن قوة الاقتصاد تنوم على قوة الوضع السياسى فى الدولة وليس العكس» ، حتى القوة العسكرية تخضع لعامل السياسة أكثر منه لعامل الاقتصاد . ولو ضربنا مثلا على ذلك لاخترنا نموذجين من التاريخ القديم أولهما الاسكندر الأكبر وانتصاره على الفرس ، وثانيهما روما نفسها وانتصارها على هانيبال . ولا نحتاج الى ادلة كثيرة لنثبت أن مقدونيا وروما كانتا اضعف اقتصاديا بكثير من بلاد الفرس الغنية وقرطاجة سيدة التجارة فى البحر المتوسط ، اى أن العامل العسكرى الحاسم فى المعارك يخضع للقوة السياسية أو على الاقل يسير معها جنبا الى جنب ، فالقوة السياسية للاسكندر وروما غطت على الضعف الاقتصادى لبلادهم ، بل وجعلتهما يتغلبان على عدوهما ذى الاقتصاد القوى . كما ان الحروب التى شكلت جزءا كبيرا من تاريخ العالم القديم لم تكن صراعا بين طبقات المجتمع بل كانت صراعا بين قوى سياسية متنافسة مثل الصراع الذى نشب فى العصور الوسطى بين البابوات والاباطرة . وما السياسة الا علم التاريخ الحديث وما التاريخ سوى علم السياسة فى الماضى .

اما عن الجانب الحضارى الذى يشمل التراث الفكرى والفنى والادبى والمهنى ، فهو المعيار الحقيقى لما وصلت اليه حضارة الامبراطورية . وهو تجسيد للمناخ الذى كان يشكل عقليات وتفكير القادة والمواطنين فى تلك الفترة ، بل أن الاحداث السياسية كثيرا ما نبعت من مسببات غير سياسية . ولهذا فان منهج تدريس التاريخ فى العصر الحديث لم يعد وقفا على الاحداث السياسية كالحروب والعلاقات والمعاهدات ، بل أصبح يشمل الجانب الفنى والادبى والتكنولوجى لانه لا يمكن فصل الأفكار السياسية عن المناخ الفكرى العام الذى نبعت منه .

واخيرا أرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم عمل راق من الناحية الاكاديمية ومبسط من ناحية العرض ، فالباحث الذى يريد أن يتعمق سوف يجد كل المراجع التى استطعت أن أجمعها . ومن توضيحى لمصادر كل فترة ؛ كما بينت من أن آخر الموضوعات الجانبية التى مازالت تحتاج الى توضيح وتصلح لان تكون موضوعات بحث ودراسات جديدة ، أما القارىء الذى يريد المعرفة المباشرة سوف يجد سردا مبسطا وبعيدا عن التعقيد .

وفى نهاية المطاف أود أن اقدم عظيم شكرى وامتنانى لكل الذين ساعدونى فى اعداد هذا البحث من أساتذة أفاضل علمونا ونذين لهم بجميل ابدى ، ومن زملاء أفاضل خاصة زملائى أعضاء هيئة التدريس بفرع الخرائط بقسم الجغرافيا الذين ساعدونى فى اعداد الكثير من الخرائط التوضيحية التى تضمنها هذا الكتاب ؛ ولا يفوتنى أن أقدم شكرى لزوجتى العزيزة التى وفرت لى الراحة والهدوء اللازمين لانجاز هذا العمل . وفى الخاتمة أشكر أسرة مكتبة دار النهضة العربية وحسن تعاونهم وأسرة مطبعة جامعة القاهرة الذين تحملوا كثرة المراجعة والتصحيح ولولاهم لما خرج هذا العمل بهذا الشكل الى الوجود .

وفوق كل ذى علم عليم

المؤلف

ليلة القدر من شهر رمضان المعظم عام ١٣٩٤ هجرية
الموافق الثانى عشر من شهر اكتوبر سنة ١٩٧٤ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

ثلاث سنوات مضت منذ ان صدرت الطبعة الأولى ، ويالها من سنوات حافلة بالتجربة العلمية والتعرف على الجديد والتحاور مع العلماء والمختصين من مصريين واجانب ؛ بل ومع الطلاب ، كلها افادت فى تطوير هذا الكتاب فى صورة جديدة عرفت فيها ما هو جدير بالتعمق وما هو واجب حذفه وتبسيطه ، لأن الهدف - كما قلت فى تقديم الطبعة الأولى - هو ان يكون هذا العمل فى خدمة القارىء والباحث على السواء .

ولقد كان سرورى عظيما ان الكتاب قد ملأ بالفعل فراغا كبيرا فى المكتبة العربية ، ووفر على المتحدثين بلغة الضاد البحث عن المؤلفات والمقالات والابحاث التى كتبت بلغات عديدة فى اماكن متفرقة من العالم ؛ بل ساهمت بالجديد الذى وصلنا اليه خلال تنقيبى فى مصر اغنى ولايات الامبراطورية بالوثائق والآثار .

ولقد سعدت أيضا أن رفاق البحث العلمى أثنوا عليه خاصة الزملاء المتخصصون فى الدولة البيزنطية وتاريخ اوروبا فى العصور الوسطى وأذكر منهم زميلى ورفيق طريقى الوعر الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع والاستاذ الدكتور على الغمراوى .

أما الذين نقلوا عن كتابى دون أن يشيروا اليه فى مؤلفاتهم فيكفينى انهم تأثروا به واستفادوا منه ، وهو غاية المرام ، لأن هذا الكتاب لم يعد ملكا لى بل ملكا لكل باحث ؛ والله وحده هو الذى يكافىء « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

والله أسأل الهداية والرشاد

المؤلف

الفصل الأول

المصادر الأدبية والتاريخية

قد يدهش الباحث عندما يعرف أن أهم عصور الامبراطورية الرومانية ازدهارا وهى الفترة ما بين عام ٢٧ ق م و٢٣٥ ميلادية اقلها مصادر بالنسبة للتراث التاريخى الضخم الذى خلفه الرومان وراءهم .

فمثلا يجىء على راس المصادر الخاصة بقيام الامبراطورية الرومانية مؤلف كاسيوس ديون (١) عن « التاريخ » ولكن أهمية هذا المؤلف تتلاشى عندما نجد أن الاجزاء الخاصة بالموضوع ناقصة أو موجزة مثل الجزء الخاص بالفترة ما بين ٩ ق.م و٤٦ بعد الميلاد (الكتب ٥٥ ـ ٦٠) ويزداد اسفنا عندما نجد الاجزاء التى تتناول الفترات التالية لذلك عديمة الجدوى تماما لانها عبارة عن شذرات من هنا وهناك حاول المؤرخون جمعها ولكنها لا تزال الفجوات تملؤها ويسودها التناقض والغموض .

كذلك تلعب الحوليات (Annales) للمؤرخ الرومانى تاكيتوس

---

(١) وأحيانا يعرف باسم ديوكاسيوس كوكيانوس Dio Cassius Coceiantis وهو اغريقى من آسيا الصغرى ولد بمدينة نيقية (Nicaea) بمقاطعة بيثينيا بآسيا الصغرى عام ١٥٥ بعد الميلاد . ثم هاجر الى روما بصحبة والده الذى كان أحد حكام ولايات آسيا الصغرى وهناك تلقى تعليمه ودرس القانون ثم دخل مجلس السناتو عام ١٨٠ ميلادية واصبح برايتورا قضائيا عام ١٩٣ ميلادية فى عدد من الولايات الامبراطورية فى آسيا الصغرى . ولما كان متشددا فى تطبيق القانون والعدالة فقد حقد عليه القضاة الآخرون لدرجة أنهم طالبوا برأسه . ولما تولى الامبراطور الكسندر سيفيروس اختاره شريكا معه فى القنصلية عام ٢٢٩ ميلادية . ولكن « كاسيوس ديون » آثر أن يتقاعد ويعود الى موطنه الأصلى ليعكف على كتابة موسوعة التاريخ الرومانى باللغة اليونانية مدعيا أن هاتفا أمره بذلك فى نومه وبعد عشرين عاما من العمل الشاق خرج عمله الضخم الذى يتناول تاريخ الامبراطورية منذ أسطورة اينياس الطروادى حتى عام ٢٢٩ ميلادية . وجاء ذلك فى ثمانين مجلد مقسمة حسب عصور الامبراطورية المختلفة معطيا الأهمية لعصر الامبراطورية وخاصة الفترة التى عاصرها . ويرى البعض انه حذى حذو بوليبيوس Polybius الاغريقى وتيتوس ليفيوس الرومانى سواء فى المادة أو المنهج .

ويعاب على كاسيوس ديون ايمانه بالخزعبلات والخرافات وتملقه لحكام عصره ومحاباته للعصر الامبراطورى وحقده على أبطال العصر الجمهورى من أمثال شيشرون وبروتوس وكاسيوس . ولكن كل هذا النقد لا يقلل أبدا من حيوية وصفه ووضوح هدفه ودقة عباراته .

Tacitus دورا هاما فى تغطية أحداث هذه الفترة خاصة ما بين ١٤ و٦٦ ميلادية برغم الفجوات التى تتخللها ، ولحسن الحظ ترك لنا نفس المؤلف مؤلفا اخر اسماه بالتواريخ Historiae وهو يغطى أحداث عام ١٩ ميلادية وجزءا كبيرا من أحداث عام ٧٠ ميلادية (١) .

ويدعم هذه المصادر مؤلف سويتونيوس Suetonius (٦٩ — ١٤٠ ميلادية) عن سير الاباطرة (De Vita Caesarum) ابتداء من قيصر أغسطس حتى دوميتيانوس وهو مرآة تعكس نفسية وأسرار الاباطرة وطباعهم (٢) .

هذا بالاضافة الى العديد من المؤلفات التاريخية وكتب السيرة المتنوعة خاصة كتاب فيلايوس باتركولوس (٣) Velleius Patereulus (١٩ ق.م — ٣١ ميلادية) الذى ينظر اليه المؤرخون على أنه من عمل رجل هاو متزلف ومتملق عديم الدراية بالفكر والمنهج التاريخى ولكنه بالرغم من هذا صورة بيضاء لحياة تيبريوس التى جعلها أغلب المؤرخين سوداء قاتمة .

---

(١) لقد اعتمدت طبعات متعددة لمؤلفيه الحوليات والتاريخ وعن حياته وأسلوبه التاريخى اشير على المتعمق بالاطلاع على المراجع التالية :

G. Boissier, Tacite (English ecdition 1906) ; M.L.W. Laistner The Greater Historians. Tacitus, 1947 : B. Walker, The Annales of Tacitus, a study in the writing of History, (1952) ; C.W. Mendell Tacitus, The Man and his work, (1958).

ويجىء على رأس هذه المراجع المؤلف الهام :

R. Syme : Tacitus, 2 vols (1958). وعن تاكيتوس أنظر ص ٢٢٥ .

(٢) هو جايوس سويتونيوس ترانكويللوس Gaius Suetonius Tranquillus ولد حوالى عام ٧٥ ميلادية وعمل معلما للقانون والخطابة فى عصر الامبراطور تراجان وكان صديقا حميما للكاتب بلينيوس الأصغر . وقد اختاره الامبراطور هادريان كاتما لأسراره . ولكنه اعتزل فى عام ١٢١ وكرس نفسه للبحث والتاريخ وربما مات قرب منتصف القرن الثانى الميلادى ، الجدير بالذكر أن ماكسيموس فى عصر الكسندر سيفيروس أكمل مؤلف سويتونيوس وذلك ابتداء من سيرة الامبراطور نيرفا حتى الامبراطور ايلاجابالوس . ومن مؤلفات سويتونيوس الأخرى كتابه « من مشاهير الرجال De Viris illustribus من شعراء وادباء وخطباء ونحويين ومؤرخين حتى عصر دوميتيانوس .

(٣) ولد ماركوس فيلايوس باتركولوس حوالى عام ١٩ ق.م وخدم فى الجيش وتدرج فى سلك المناصب حيث تولى البرايتورية القضائية فى عصر اغسطس وتيبريوس وفى عام ٢٩ — ٣٠ م انتهى من كتاب موجز التاريخ الرومانى فى جزئين Historiae Romanae libri duo ولكنه مؤلفه جاء على عجل لأنه جندى محترف ومؤرخ هاو ولهذا فهو ينقصه التعمق والتحليل . فضلا عن تزلفه لتيبريوس ولآل البيت الامبراطورى وللارستقراطيين ، لكنه بالرغم من ذلك أمدنا بمعلومات قيمة عن الأحداث التى وقعت ما بين ١٦٨ ق.م و ٣٠ ميلادية .

ولا يفوتنا ابدا مؤلف الجغرافى الاغريقى استرابون Strabon لانه وصف بعض الولايات الرومانية وصف شاهد عيان . ومن المحتمل أن يكون سترابون قد كتب مؤلفه هذا فى الفترة ما بين ١٧ — ١٨ ميلادية (١) .

المصادر الأثرية والوثائقية : —

ولو تركنا مؤلفات المؤرخين وكتاب السير الى الوثائق المباشرة عن الامبراطورية والاباطرة خاصة أكداس النقـوش اللاتينية والاغريقية التى جمعها العلماء والاثريون من كافة انحاء الامبراطورية ويجىء على رأسـها تلك الوثيقة التاريخية الهامة «سجل منجزات المؤله أغسطس» Res Gestae Divi Augusti التى وصفها سيخ مؤرخى التاريخ الرومانى مومسن Mommsen بأنها ملكة النقوش اللاتينية Queen of Latin Inscriptions لما اثارته من مناقشات حادة سواء عند تحقيقها أو تفسيرها والتى تعرف باسم أثرة انقرة Monumentum Ancyranum وهذه الوثيقة تسرد انتصارات المؤله أغسطس التى أخضع بها العالم وتبين أصلاحاتـه الادارية والاموال التى انفقها على الشعب الرومانى (٢) .

---

(١) ويكتب باللاتينية سترابو Strabo ولد لأسرة ميسورة الحال فى بلدة أماسايا Amasacia فى بنطوس على البحر الأسود عام ٦٣ ق.م . وهناك درس الفلسفة ثم تخصص فى كتابة التاريخ على ضوء الجغرافيا ومن أجل ذلك قام برحلات الى آسيا الصغرى ومصر التى تعمق فى جنوبها حتى حدود النوبة ، كما زار بلاد اليونان وايطاليا وتردد على مدينـة روما . ومن اشهر مؤلفات سترابون كتابه الجغرافيا Geographica الذى وصل لدينا منه سبعة عشر كتابا والذى انتهى منه حوالى عام ٢٣ ميلادية وهو أول مؤلف عن الجغرافيـا الطبيعية لأوروبا وأفريقيا وآسيا يصل الى أيدينا .

(٢) من المعروف أن الامبراطور قيصر أغسطس كان قد أودع عند راهبات الربة العذراء فستا وثائق الدولة ومن بينها سجل اعماله الذى أوصى بنشره على الشعب الرومانى بعـد مماته وذلك بنقشه على عمودين من النحاس يقاما أمام ضريحه كما ذكر المؤرخ سويتونيوس (Suetonius, Augustus, 4) ، وقد عثر على نسخة كاملة من هذا السجل منقوشة على حائط معبد « روما واغسطس » فى مدينة أنقره Anchyra بمقاطعة جلاتيا بآسيا الصغرى ومن ثم عرف باسم أثر انقرة . ومن الجدير بالذكر أن النقش اللاتينى جاء مشفوعا بترجمة اغريقية . كما عثر على أجزاء من هذا الخطاب فى كل من أبولونيـا وانطاكيـة فى مقاطعـة بيسيديا Pisidia بآسيا الصغرى . ويتضح من لهجة اغسطس أنه أراد أن يوجه حديثه الى الشعب الرومانى فى المقام الاول ويتلخص الخطاب فى ثلاثة نقاط هى : الوظائف الرسمية والالقاب الشرفية التى تمتع بها اغسطس اثناء حكمه ، والنفقات التى انفقها على الدولة سواء من حسابها أو من حسابه الخاص ؛ وأخيرا أعماله فى السلم والحرب . ولحسن حظ الدارسين أن أستاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على قد قام بترجمة هذه الوثيقـة الى العربية وعلق عليها بدقة تدعو للاعجاب والدهشة وللمزيد عن هذا النص وأهميته أنظر
Mommsen : Res Gestae Divi Augusti p. 149 - 151 ; Nephtali Lewis and Meyer Reinhold, Roman Civilization vol. 2. The Empire, (New York Columbia University Press 1955) pp. 9 - 19.

وبالاضافة الى هذه الوثيقة جمع المؤرخون اعمال اغسطس وكل ما كتب عنه وعن أعماله (١) . الى جانب المصادر الاثرية كالمسكوكات (٢) .

وكما اضاءت مصر العالم الهللينستى بفضل رمالها التى حفظت الآلاف من الوثائق البردية سواء الرسمية او الشخصية ، فانها أمدت الدارس بوثائق سياسية وادارية لاغنى عنها ، تضع بين يدى الباحث مرآة صادقة للناس وللحياة ومشاكلها فى احدى ولايات الامبراطورية كما تكشف الحفائر الاثرية خاصة فى اقليم الفيوم سواء فى كرانيس أو باخياس . ان هذه الوثائق والآثار لا تلقى الضوء على مصر فحسب بل ان بعضها يلقى الضوء على الامبراطورية بكل عصورها وفتراتها (٣) .

وبفضل المصادر القديمة امكن للمؤرخين الاوربيين من عمل الكثير من الدراسات التاريخية والحضارية عن الامبراطورية الرومانية . وهذه المؤلفات كثيرة ومتعددة خاصة المقالات التى تتناولها الحوليات

---

(١) من أشهر هذه الاعمال :

H. Malcovati, Caesaris Augusti Operum Fragmenta (3rd edition 1948) ; V. Ehrenberg and A.H.M. Jones, Documents illustrating the reigns of Augustus and Tiberius (2nd edition 1955).

(٢) من أهم مصادر المسكوكات عن الامبراطورية :

H. Mattingly : British Museum Catalogue of the Coins of The Roman Empire, vol. I, II ; H. Mattingly and Others : The Roman Imprial Coinage, I (1923) ; also of Roman Coinage, Essays Presented to H. Mattingly, (Oxford 1956).

بالاضافة الى :

C.H.V. Sutherland, Coinage in Roman Imprial Policy (1951).

(٣) انظر :

M.I. Rostovtzeff, Economic and Social History of the Roman Emprie (Oxford 1926).

بالاضافة الى كتاب :

J.G. Winter : Life and Letter in the Papyri (University of Michigan Press 1933), part I, pp. 7 - 45.

وقد أعطيته اهمية خاصة لأنه لمس الناس والحياة بطريقة حولت التاريخ الى واقع حى . كذلك فان كتاب أستاذنا الدكتور عبد اللطيف احمد على عن « مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية » يعتبر وثيقة أساسية لدراسة ما تلقيه المصادر المصرية من أضواء على الامبراطورية الرومانية وعلاقتها بمصر .

والدوريات (١) المخصصة لدراسة التاريخ الرومانى . ولكن هنـاك بعض المؤلفات الحديثة التى وصلت الى درجة عالية من المادة التاريخية مماميزها عن غيرها وارتقى بها الى درجة المصادر الاصلية ذاتها (٢) .

---

(١) وانصح الباحث بالاطلاع على سلسلة المقالات المختلفة التى تناولها مجلة

Journal of Roman Studies (Issued by Society for the Promotion of Roman Studies, London).

وكذلك الاطلاع على ما يجىء فى مجلة Latomus, Brussels).

لأنها أكثر المجلات تخصصا فى دراسة الامبراطورية الرومانية خاصة الولايات الغربيـة . فضلا عما ينشر من وثائق من آن لآخر فى مجلة

Journal of Egyptian Archaeology. (Egyptian Exploration Fund, London).

وله علاقة بالامبراطورية الرومانية ومظاهر حكمها فى مصر

(٢) من أشهر المؤلفات الحديثة عن الامبراطورية الرومانية :

J.B. Bury ; A History of Roman Empire From its Foundation to the Death of Marcus Aurelius 27 B.C. — 180 A.D. (London, 1900).

M. Grant, From Imperium to Auctoritas (1946) ; T. Rice Holmes The Architect of the Roman Empire, vol. II, (1931) ; R. Syme, The Roman Revolution, (1934) ; J. Buchan, Augustus Caesar (1937) ; H.H. Scullard, From the Gracchi to Nero (1963) ; A. Boak & W. Sinnigen. A History of the Romans To 565 (1965) ; F.C. Bourne : A History of the Romans, (1966). Fritz M. Heichelheim & Cedric Yeo, History of the Roman People, 1962.

كما أننى أزكى بشدة مجموعة المقالات التى تضمنها كتاب

Fergus Miller and Others : The Roman Empire and its Neigbours Weiderfield & Nicolson, English edition (1967).

فضلا من المصادر الاخرى التى أشترت اليها فى حواشى الكتاب فى أماكن متفرقة .

الفصل الثانى

قيصر اكتافيوس يقيم دعائم النظام الامبراطورى
(٢٧ ق.م ـ ١٤ م)

أكتيوم وفترة التحول العظيم (من ٣١ ق.م ـ ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م)

لقد صدق السير جون هامرتون عندما وصف معركة أكتيوم بأنها احدى المعارك الفاصلة فى تاريخ العالم (١) . وبالرغم من أن تفاصيل المعركة لا تزال غامضة حيث لا نعرف شيئا عن أطوارها ولا طبيعتها ولا عن الوقت الذى استغرقته ـ الا انها بالقطع لم تكن بالحجم القتالى المروع ـ كما زعم الشعراء الرومان (٢) واجهزة دعاية اغسطس المنتصر ، بل لم تعد ان تكون اشتباكا بحريا هزيلا بين سفن انطونيوس تسانده كليوباترا من ناحية ، وبين سفن أوكتاڤيوس من ناحية أخرى ، وذلك بالقرب من شواطىء بلاد اليونان الغربية عند اكتيوم . ونقول معركة بحرية لأن الجيوش البرية للجنرالين المتقاتلين لم تشتبك على الاطلاق ، وعلى أى حال فقد انهار انطونيوس على الفور قبل أن تنتهى المعركة .

لقد كان وضع انطونيوس هزيلا ، وكانت قواته منهارة معنويا بسبب ظهور كليوباترا وسطهم وتدخلها فى رسم الخطط العسكرية وخنوع قائدهم لها مما أذهب عنه سحر القيادة ، فضلا عن التفكك فى قيادته العليا . كما أن دعاية أكتاڤيوس ـ الموجهة الى جنود انطونيوس ـ كانت قوية ومؤثرة ـ بأنهم يرفعون السلاح من أجل ملكة شرقية مكروهة بين الرومان لصلفها . فضلا عن اعلانه الصفح عن الجنود الذين يعودون الى صوابهم ويتركون معسكر انطونيوس ليعودوا الى معسكره . هذه الدعاية كانت السبب فى هروب عدد كبير من جنود انطونيوس الى معسكر اكتاڤيوس .

واغلب الظن أن ڤبسانيوس اجريبا Vepsanius Agrippa رفيق اكتاڤيوس وساعده الأيمن كان يعلم جيدا الأحوال فى معسكر انطونيوس

---

(١) السير جون هامرتون ـ موسوعة تاريخ العالم ـ الجزء الثالث ص ١٥ ٥.

(٢) عبد اللطيف أحمد على ـ مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ـ دار النهضة العربية (١٩٧٢) ص ٢٠ ـ ٤٠ .

وكليوناترة ، من ثم اشار على سيده ضرب الحصار البرى حول انطونيوس وقطع المؤن والامدادات عنه لأن هذا كاف باسقاطه ، وبالفعل كان الحصار مدمرا اذ ادى الى النقص فى الطعام وانتشار الوباء وانهيار الروح المعنوية .

ولعل من أكبر الأخطاء العسكرية التى ارتكبها انطونيوس هو انه قامر بكل مستقبله فى تلك المعركة البحرية ربما اعتمادا على قوة اسطول الاسكندرية واعتدادا منه بضعف منافسه فى القتال البحرى ، ولكن أكتافيوس كان قد تعلم كثيرا من معاركه البحرية ضد سكستوس بومبى فى صقلية واصبح لديه قوة وخبرة لا بأس بها فى القتال البحرى ، وعلى اى حال فقد كان لأنطونيوس فرص أحسن فى القتال البرى خاصة أن كان له ماضى مجيد فى العسكرية الرومانية . كذلك فات أنطونيوس أن الجنود اذا طال انتظارها فى الخنادق هبطت معنويتها ولياقتها القتالية وهذا ما حدث لقواته البرية التى تركها فريسة للسأم والانتظار الممل تحت ظروف صعبة ومن ثم راحوا يهجرونه ذرافات ووحدانا .

بدأ الالتحام البحرى فى صيف عام ٣١ ق.م عند اكتيوم قرب الشاطىء الغربى لبلاد اليونان وخلال اعنف مراحل القتال تسللت كليوباترة يتبعها الأسطول المصرى عائدة الى الاسكندرية ولا يزال الباحثون يتحرون السبب وراء هذا الانسحاب المفاجىء . فقد قال الشعراء الرومان ان الملكة المصرية ولت هاربة مذعورة (١) من هول بأس أكتافيوس وقال آخرون أن الملكة تخلت عن غريمها فجأة عندما ثبت عدم جدواه ، ولكن أغلب الظن أن مستشاريها نصحوها بعدم الاقدام على دخول هذه المغامرة الخاسرة .

وارتكب انطونيوس خطأ افدح عندما ترك المعركة برمتها وانسحب فى اثر مليكته تاركا قواته بلا قائد فقدم النصر هدية الى اكتافيوس ، وكان نصرا كاملا بأدنى خسارة . ولأول مرة فى تاريخ المعارك الحربية تقرر معركة بحرية مصير بلد بعيد يقبع وراء البحار على بعد آلاف الأميال أعنى مصر وممتلكاتها والأسرة الحاكمة عليها الا وهى اسرة البطالسة الذين حكموا مصر زهاء ثلاثة قرون من الزمان .

لقد أدرك اغسطس بعد اكتيوم أن مصر قد سقطت فى حجرة وأن النصر على مرمى البصر ولهذا فلم يتعجل دخولها بل اثر أن يستجم ويريح

---

(١) Vergilius, Aen, VIII, 707—710 ; Propertius III, 11, 52—54.

انظر عبد اللطيف أحمد على — المرجع السابق ص ٣٢ ، ص٣٦ .

جنوده بينما يعود هو الى روما ليعالج بعض المشاكل التى سببها بعض الجنود المسرحين أثناء غيابه وللاطمئنان على سلامة ايطاليا .

وفى ألفاتح من اغسطس عام ٢٠ ق . م دخلت قوات اكتافيوس الاسكندرية واستولى عليها دون مقاومة ، واحتراما للمدينة وتاريخها أمر جنوده بعدم التعرض للناس ولالأموالهم (١) والقى خطابا بالاغريقية الركيكة ابدى فيه احتراما وتقديرا وزار قبر الاسكندر المؤسس وخلع عليه تاجه ووفاه ما يستحق من التبجيل ولما عرض عليه زيارة قبور ملوك البطالمة رفض (٢) وربما كان ذلك بمثابة اعلان انهاء عصر البطالمة وعدم الاعتراف بهم ملوكا وبأنه ورث الاسكندرية مباشرة عن الاسكندر الأكبر .

وفى أثناء الاحتفال بانتصاره جاءته الأنباء بأن أنطونيوس قد انتحر . وكان على كليوباترة ان تختار بين أمرين اما الموت الكريم واما أن تساق أمام عربة أكتافيوس « وتدخل روما فى ثياب الذل والعار ويحدجها جمهور شامت متهكم من على اليمين واليسار سوف يطالب برأسها نظير ما سببت لروما . واختارت الملكة المصرية الموت الذى يليق بملكة تنحدر من سلالة كلها ملوك ، وبطريقة تتناسب مع مظهرها كوريثة لعرش الفراعنة وتظهرها كقديسة أمام المصريين ، وربما رمزا للمقاومة ضد الرومان (٣) ، اختارت الملكة المصرية حية الكوبرا رمز التاج المصرى لتموت بها كرسالة وداع للمصريين بأنها عاشت وماتت مصرية . وبموت الملكة آلت الاسكندرية ومصر الى حوزة روما واعلن اكتافيوس للشعب الرومانى على ظهر عملة تذكارية خاصة سكها احتفالا بهذه المناسبة « أن مصر قد سقطت » (Aegypto Capta)

هكذا لم تكن اكتيوم بالمعركة ذات الأهمية الخاصة من الناحية العسكرية الا أن نتائجها السياسية كانت خطيرة للغاية . فقد قلبت النظام الجمهورى القديم رأسا على عقب . فقد أصبح أكتافيوس وحيدا لا ينافس وانتهى قرن من الحروب الأهلية بدأ منذ عام ١٣٣ ق.م وبدأ عصر من السلام . وبضم مصر الى حوزة الولايات الرومانية نجحت روما فى ضم جميع اقطار البحر الأبيض المتوسط — الذى أضحى بحيرة رومانية (Mare Romanum) — فى بناء سياسى وحضارى واحد دام فترة تزيد عن خمسة قرون من الزمان هى التى نسميها الامبراطورية الرومانية .

---

(١) Dio Cassius LI, 16, 3-5.

(٢) Suetonius, Divus Augustus, XVIII, 1.

(٣) عبد اللطيف أحمد على — المرجع السابق ص ٢٩ .

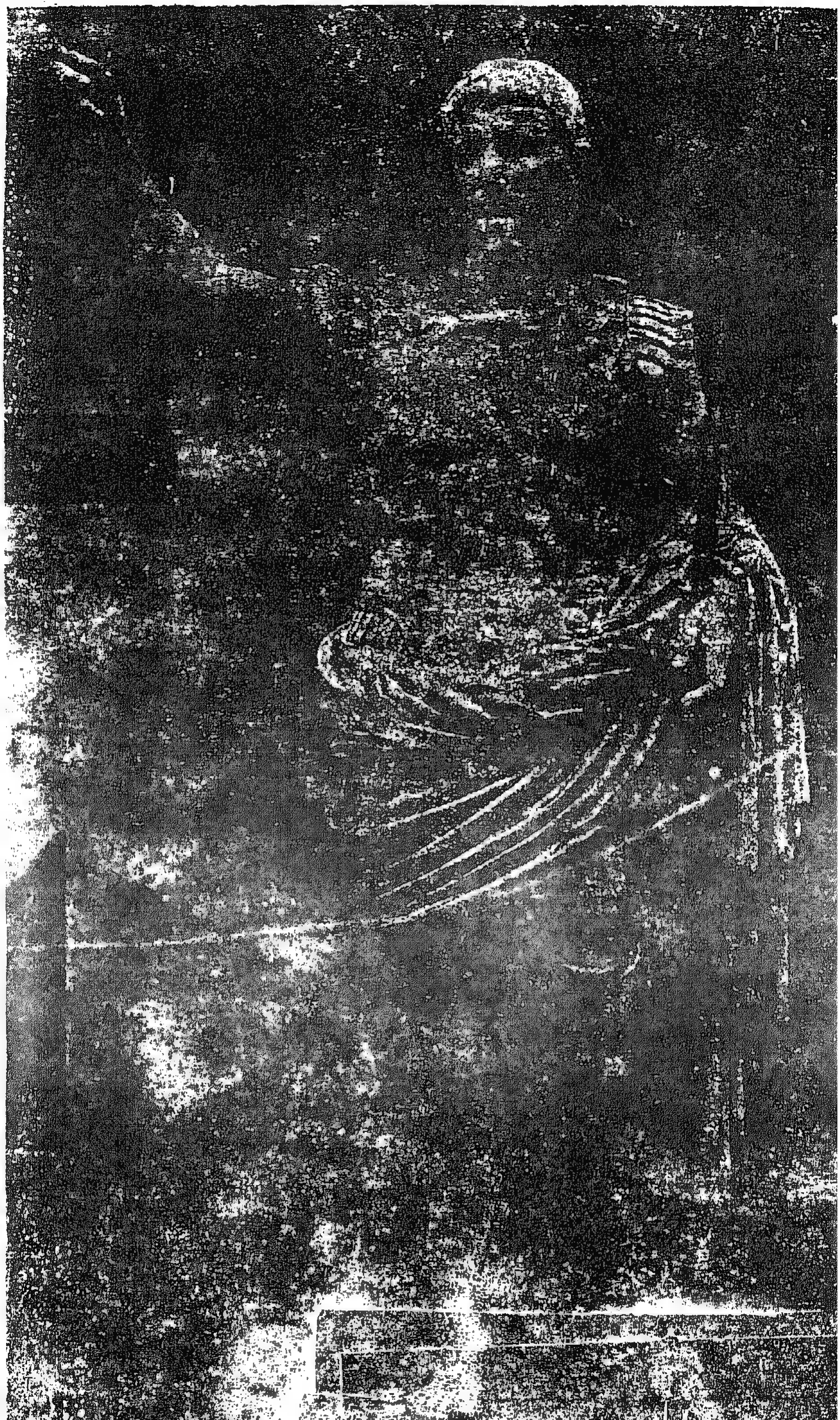

اغسطس مؤسس الامبراطورية الرومانية (هدية من متحف الفاتيكان)

هكذا كان ضم مصر نقطة التحول من عصر الجمهورية الرومانية الى عصر الامبراطورية الجديد .

أكتافيانوس يرسي دعائم الحكم الامبراطورى :

هكذا شاء القدر لهذا الشاب النحيل البنيـة ، الفولاذى الإرادة ان يكون المخطط والمنفذ لعالم روما الجديد وحاكمها وسيدها لمدة اربع وأربعين عاما . لقد تشكك الناس فى قدرته على ذلك أول الأمر لاعتلال صحته وضعف بنيته ، ولكن التصميم والعزم الذى لاينثنى ، واللذان اتصف بهما منذ أول عهده بالسياسة والحرب ـ غيرا نظرة الناس اليه .

فعن طريق التبنى كان اكتافيانوس يتمتع بلقب «قيصر» السحرى وبحقه فى المطالبة بأنه وريث ذلك الراحل العظيم ، والى جانب ذلك أحاط اكتافيانوس نفسه بفريق من الأصدقاء المخلصين الذين آمنوا به ايمانا مطلقا وكانوا على استعداد للتضحية من اجله .

كما دعم اكتافيانوس نفسه عن طريق المصاهرة والنسب فأصبح بعد زواجه من ليفيا ممثلا لأسرتين من أعرق أسر الرومان هما : آل ليفيوس Livii وآل كلاوديوس Claudii ، بالاضافة الى ذلك فقد تفاخر بأنه ابن الشعب وعلى وجه التحديد ابن مقاطعة Velitrae (١) الايطالية . ولذا استطاع أن يتفهم عقلية ابن الريف ويكسبه الى جانبه . وبذلك نجح فيما فشل فيه قيصر . كما أتاح له ذلك القدرة على تفهم مشاكل الولايات لأنه كان ايطالى النظرة والتفكير ، يفهم الأمور جيدا من كل جوانبها .

وبالنسبة لمشكلة الحكم ادرك هذا الثورى العنيف صاحب اجهزة الدعاية القوية الجبارة ان أمامه بعد اكتيوم ـ طريق واحد لا سواه ـ وهو طريق التجربة والخطأ . لقد كشفت له الخبرات الطويلة والمريرة أن وجه الدكتاتورية قبيح ولذا رفضها عندما عرضها عليه السناتو والشعب الرومانى ثلاثة مرات لأنها على حد تعبير ديوكاسيوس « تتنافى مع سنة السلف » ، كما علمته احداث القرن السابق عليه انه من باب المغامرة والجنون أن يعيد حكم البلاد الى حظيرة السناتو والطبقة الأوليجارخية المتزمتة او الى حكم دهماء المدينة وترابنة العامة الديماجوجيين .

وابان الصراع مع غريمة كان اكتافيانوس كان اغفى نفسه من عضوية

---

(١) وهى مدينة تقع فى مقاطعة ڤولوسيكا ومكانها الآن فيليترى Veletri على الطريق المؤدى الى نابلى .

الائتلاف الثلاثى الثانى الذى كان قد أقيم دستوريا بالاشتراك مع أنطونيوس ولبيدوس بحجة انقاذ الجمهورية ، لأننا نجده يحكم البلاد فى العام التالى لموقعة اكتيوم كقنصل منتخب من الشعب يشاركه زميل موال له ، كما اننا نجد مركزه مدعما بنتيجة الاستفتاء الشعبى Consenus Italiae الذى أجرى بين الايطاليين عام ٣١ ق.م قبل بدئه رحلة « النصر أو الموت » ضد انطونيوس وكليوباترة . وكان السناتو قد كال له الكثير من المناصب والسلطات الدستورية والشرفية تعيد الى الاذهان ما كاله السناتو من قبل ليوليوس قيصر وادى الى تحوله الى دكتاتور مطلق ولهذا رفض أن يستجيب للغوغاء ويصبح دكتاتورا لأنه كان أذكى من أن يقبل ذلك .

اكتافيوس يتنازل عن سلطاته الاستثنائية : ١٣ يناير ٢٧ ق.م

لم يغب عن بال اكتافيانوس ان جشع السلطة هو الذى أودى بحياة قيصر ولذا اعلن فى خطبه درامية القاها امام السناتو فى ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م انه متنازل عن كافة السلطات الاستثنائية وغير الاستثنائية التى وضعها السناتو بين يديه ابان الحرب ضد ملكة مصر . وأعلن انه يضع الدولة وممتلكاتها بين يدى السناتو والشعب الرومانى . ولكن لم يكن ذلك يعنى عودة النظام الجمهورى القديم بوسائله واجهزته أو تنازل اكتافيانوس ورغبته فى ترك كرسى الحكم لانه كان يعلم انه لو فعل ذلك فان المآسى والفوضى التى اعقبت تنازل سوللا المفاجىء عن حكم البلاد — سوف تتكرر وانه وحده سوف يكون المسئول عن الدماء التى سوف تراق .

وعلى اى حال فقد أدرك اكتافيانوس أن عقلية المواطن الرومانى تميل الى التمسك بالتقاليد السياسية والأخلاقية (١) . ولذا لم يتردد فى تطبيق النظام الجمهورى القديم بقدر ما هو مفيد وعملى ونافع .

ولذا جاءت اصلاحاته اعلانا من نهاية عصر الحكم بقوة السلاح وبداية عصر جديد Novus Status يكون الحكم فيه عن طريق السلطات الدستورية التى يمنحها السناتو والشعب او بمعنى آخر حكم دستورى شكلا وانفرادى فعلا على حد تعبير كاسيوس ديون .

---

(١) Ronald Syme, The Roman Revolution, Oxford Clarendon Press (1939), p. 324 ; cf also F.B. March, The Founding of The Roman Empire, London (1931) ; also M. Hammond ; The Augustan Principate (1933).

(٢) Suetonius, Divus Augustus, XXVIII, [illegible] ; cf Ronald Syme, op. cit., p. 320 and 324.

وقد وصف لنا ديو كاسيوس (١) احساس أعضاء السناتو ازاء هذه الخطبة بين مصدق وغير مصدق . فهؤلاء الذين صدقوه وصفقوا طويلا له كانوا يعرفون نواياه الكامنة فى قاع نفسه ، أو هؤلاء الذين خدعهم بكاؤه على الجمهورية المنهارة وقلقه على احيائها ، ومن الذين سرهم مـا فعـل اولئك الذين كانوا قد يئسوا مما جرته ديموقراطية الجمهوريين على البلاد من حروب وبلاء وفقدهم الثقة فى أى جدوى منها وهناك فريق صفقوا له خوفا ورعبا منه ، حتى الذين لم يصدقوه ما كانوا ليجرؤا على معارضته بل اغلقوا فواههم والشكوك والأسى تعصف بأفئدتهم .

من الجدير بالذكر ظهر فريق من أعضاء السناتو ممن كانوا يطالبون بحكومة « الرجل القوى » حتى ولو كانت ملكية وهؤلاء كانوا من الحالمين بأيام يوليوس قيصر . ووجدوا فى بطل اكتيوم قيصرا جديدا ومن ثم طالبوا بمضاعفة أجر جنود الحرس الخاص به حتى يشددوا الحراسة عليه لأنه الزعيم الذى يمكن ان تتحقق فيه أفكارهم .

وبهذا الاعلان اجبر اكتاڤيوس السناتو والشعب الرومانى على اعادة النظر فى النظام الجمهورى القديم من اسـاسـه . ولـكى يظهـر امـامهم ديموقراطيا زاهدا فى السلطة أعلن أنه يضع الجمهورية وممتلكاتها بين يدى الشعب والسناتو ، وانه يضع نفسه أيضا تحت تصرفهم بصفته خبيرا فى ادارة شئون البلاد ، وخاصة بعض الولايات الرومانيـة التى يتوجب أن تكون تحت ادارته نظرا لوضعها الحرج سواء من الناحية العسكرية أو من ناحية الاستقرار الحضارى والاندمـاج فى الامبراطـورية . ومن ثم قسم ولايات الامبراطورية بينه وبين السناتو ، فأعطى السناتو حق الاشراف على حكم الولايات المستكينة التى يكون فى استطاعة السناتو أن يجنى ثمارها بدون خوف من التمرد أو الثورة خاصة وانه لم يعد يملك زمام الجيوش .

وبهذا المنطق منح السناتو والشعب الرومانى حق الاشراف على ولاية افريقيا ، ونوميديا (الجزائر) ، وولاية آسيا ، وبلاد اليونان ، بالاضافة الى ابيروس الملحقة بها وكذلك دالماتيا ، ومقدونيا ، وصقلية ، وكريت ، وبرقة (قورينى) . والأراضى الليبية الواقعة حولها ، وبنطوس ، وأراضى بيثينيا Bithynia ، الواقعة حولها وسردينيا ، وبايتيكا (Baetica) فى جنوب اسبانيا .

---

(١) Dio Cassius LIII, 11-12, 16-22, 30-32.

اما اكتافيوس فقد احتفظ لنفسه بما تبقى من أجزاء الامبراطورية ويشمل ما يتبقى من اسبانيا ، وكل بلاد الغال وما حولها ، وبلجيكا ، والمانيا حتى حدود الراين ، وفى الشرق احتفظ قيصر اغسطس لنفسه بولاية سوريا الكبرى ، (سوريا لبنان وفلسطين الحالية) وفينيقيا (ساحل لبنان) وكيليكيا بآسيا الصغرى ، وقبرص ، بالرغم من انه أعاد قبرص وجزءا من بلاد الغال النربونية فيما بعد الى سلطة السناتو مقابل دلماتيا) ، بالاضافة بالطبع الى مصر التى جعلها ملكا خاصا بالامبراطور لوضعها الفريد .

لقد تحكم اكتافيوس فى هذه الولايات تحكما كاملا لأنه كان يملك القيادة العسكرية العليا فيها والخزانة الخاصة بها ايضا لانه فصل بين الخزانة العامة للدولة والخزانة الخاصة بولاياته . اذا كان نصف ملك من الناحية الفعلية .

ولنتساءل الآن ما هى السلطات التى حكم أكتافيوس بمقتضاها بعد ١٣ يناير عام ٢٧ ق.م .

١ — الامبريوم العسكرى Imperium :

لقد كان رد الفعل لتنازل اكتافيانوس عن كافة سلطاته الاستثنائية حادا وعنيفا ، فقد أدرك نبلاء المجتمع الرومانى Nobiles ان لا فائدة من مقاومة هذا البرجوازى الجديد homo novus . لقد عرف اكتافيانوس على الفور مناطق الضعف فى جهاز الدولة وهو الجيوش الخاصة التى كان يجندها الجنرالات لحسابهم ويملون بواسطتها اراداتهم على الدولة منتهزين ضعف السناتو وعدم قدرته على فرض سلطته عليهم . عندئذ قرر بصفته حاميا للسلام وللدستور ان السلطة العسكرية يجب أن تكون فى يده وحده فقط .

كان ذلك فى الثالث عشر من يناير عام سبع وعشرين قبل الميلاد عندما اصدر السناتو والجمعية العامة قرارهما بمنحه سلطة الامبريوم العسكرية لادارة الولايات التى كان السلام لا يزال صعب تحقيقه فيها مثل اسبانيا وبلاد الغال وسوريا وكافة المناطق التى سيطر عليها كراسوس وبومبى وقيصر من قبل : انضف الى ذلك مصر التى اصبحت بعد الفتح الرومانى عام ٣٠ ق.م ولاية رومانية Provincia Romana ذات وضع فريد وكانت المدة التى منحت لسريان هذا الامبريوم عشر سنين قابلة للتجديد .

ولكننا لا نستطيع الحسم عما اذا كان اكتافيانوس قد تمتع بسلطة الامبريوم البرقنصلي Imperium Proconsulare في حكم هذه الولايات أم حكمها بالأمبريوم الذى كان يتمتع به القنصل imperium Consulare (١) .

---

(١) اهتم مؤرخون القرن التاسع عشر وعلى الاخص مومسن Mommsen بالبحث عن الحيثيات والأسس القانونية التى حكم اغسطس بمقتضاها مما أدى الى اغراق أنفسهم فى القانونيات (excessive legalism) والخلافات القانونية ؛ يرى مومسن أن الهيكل القانونى لنظام الحكم الذى اقامه اغسطس كان حكما ثنائيا (dyarchy) يقوم عليه وعلى السناتور الذى شاركه السلطات . أما الأستاذ بيورى Bury فيرى ان سلطات اغسطس العليا تكمن فى حصوله على الامبريوم البروقنصلى الذى منح له عام ٢٧ ق.م لمدة عشر سنوات ثم راح يجدده الى أن مات ويقول الأستاذ بيورى ان هذا الامبريوم البروقنصلى كان هو عينه الذى منح الى بومبى بمقتضى قانون جابينوس Lex Gabinia وانه لايسرى الا خارج ايطاليا extra urbem ولما كان اغسطس يريد ان يحد داخل ايطاليا intra urbem وخارجها فقد لجأ الى بدعة هى مزج الامبريوم القنصلى الذى لا يسرى الا داخل الدولة بالامبريوم البروقنصلى الذى لا يسرى الا خارج الدولة ولهذا السبب يقول بيورى أنه حرص على تولى القنصلية منذ عام ٢٧ ق . م ولمدة أربع سنوات متتالية ، ثم تنازل عن القنصلية حتى لا يعطى الفرصة لاعدائه باتهامه باحتكار الحكم مستعيضا عن سلطاتها بالامبريوم الاعلى Imprium maius من ناحية ، والسلطة التربيونية tribunica potestas التى حصل عليها عام ٢٣ ق . م من ناحية أخرى ، ولهذا يعتبر بيورى أن هذا هو التاريخ الفعلى لقيام النظام الامبراطورى . وبالرغم من هذا لم يترك اغسطس القنصلية بل شغلها من آن لآخر مثلما حدث عام ١٩ ق . م كذلك سلح نفسه ببعض حقوق وسلطات القنصلية مثل حق دعوة السناتور الى الاجتماع ius primae relationis وحق الجلوس بين القنصليين وحق السير مسبوقا ومتبوعا بحملة شارا الامبريوم Fasces ويضيف بيورى الى ذلك احتمال حق اصدار القرارات العليا ius edicendi انظر :

Death of Marcus Aurelius 27 B.C. — 180 A.D. (London 1900) pp. 12-15.

J.B. Bury, A History of the Roman Empire from its Foundation to the

اما مؤرخو القرن العشرين فقد انتقدوا سابقيهم بالاغراق فى المتاهات القانونية Excessive legalism بالرغم من انهم استفادوا من هذا التراث القانونى وبجىء على رأس هؤلاء جونز (Jones) الذى يرى ان جماهير اغسطس التى اعتمد عليها فى ثورته كانت الطبقة المتوسطة ذات العواطف والمشاعر الجمهورية القديمة ولهذا سلح نفسه بالسلطة التربيونية tribunicia من اجل حماية ورعاية الطبقة الوسطى ad tuendam pleben ومن اجل انذار الارستقراطية بأنه سوف يستخدم هذه السلطات اذا ما حاولوا الخروج عن طاعته . ويقول جونز أن اغسطس لكى يحصل على هذه السلطة عام ٢٣ قام بتمثيلية كبرى عندما تظاهر بالانسحاب من الحكم فى وقت عصيب وهو يعلم مدى حاجة السناتو اليه وانه قام بهذه التمثيلية السياسية لسببين الاول هو أن يتخلص من الاتهام بأنه يهدف الى السيطرة الكاملة على السلطة مما قد يؤدى الى تدبير المؤامرات للتخلص منه مثلما فعلوا مع أبيه بالتبنى يوليوس قيصر ، وثانيهما لكى يعود وهو فى مركز اقوى يستطيع منه انتزاع المزيد من =

بهذا الاجراء اقسم اكتافيانوس الولايات الرومانية بينه وبين السناتو، ومن الناحية النظرية لم يكن لديه حق استخدام الامبريوم فوق الولايات التابعة للسناتو ، لكنه من الناحية العملية والواقعية كان يتدخل فى شئون ادارتها عن طريق السلطة المدنية Auctoritas (١) وهكذا قضى اكتافيانوس على الجيوش الخاصة بتركيز السلطة العسكرية بين يديه مستخدما سلطات استثنائية ما أمكن حاذيا حذو الذين فعلوا ذلك امثال الجنرال الرومانى لوكوللوس Lucullus وبومبى وقيصر . ولكن اكتافيانوس دعم من سلطاته العسكرية حتى أضحى القائد الأعلى والأوحد لجيوش الامبراطورية.

= السلطات . وهذا ما تم بالفعل . ويقول جونز أن الحكم الداخلى هو الذى كان مشكلة اغسطس وليس حكم الولايات البعيدة والتى كان يتحكم فيها بمقتضى حق الامبريوم الاعلى — انظر :

A.H.M. Jones, The Imperium of Augustus, Journal of Roman Studies, 41 (1951), pp. 112-119.

أما سالمون فانه يعتقد ان السلطات القانونية التى تمتع بها أغسطس حصل عليها منذ وقت طويل وواحدة تلو الاخرى وعن طريق الصفقات مع السناتو والشعب فى وقت الازمات لانه كان انتهازيا بطبعه ولديه مخطط طويل المدى للاستيلاء الهادىء والتدريجى على الدولة . ويختلف سالمون مع جونز فى أهمية السلطة التربيونية فى حكم أغسطس لانه وصف هذه السلطة بانها سلطة سلبية (يقصد دفاعية) ولا يرى فيها بديلا عن سلطة القنصلية ذات السلطات الايجابية ومنذ تنازل أغسطس عن القنصلية وهو يستعيض تدريجيا عنها ويسلح نفسه تدريجيا بسلطاتها وانه بدأ هذه السياسة منذ عام ٢٣ ق . م وفى عام ١٩ ق . م حصل على المزيد من سلطات القنصل بعد رفض « القنصلية الابدية » بل انه تولى القنصلية بنفسه من آن لآخر مثلما حدث عام ٥ وعام ٢ ق . م ليس فقط من أجل اعلانه تزكية حفيديه للحكم بل لاعادة الوقار والهيبة الى القنصية بعد ان سلبها مجدها القديم حيث لم يعد يتولى القنصلان الحكم لمدة عام بل ستة أشهر تبدأ من الاول من يناير وينتهى فى آخر يونيو بصفتها Consules Ordinarii بينما يتولى قنصلان اخران Consules Suffecti من اول يوليو وحتى الانتخابات الجديدة وان آخر سلطة حصل عليها اغسطس هى ابو الوطن عام ٢ ق . م وهى وان كانت شرفية الا انها توجت سلطاته واصبح فى المركز المتاز Optimus Status الذى لا يقل عن مركز الملك ، انظر :

E.T. Salmon, The Evolution of Augustus' Principate, Historia, VI (1956), pp. 456-459 ; 470-478.

وقد لخص لنا دونالد كل هذه المناقشات انظر :

Donald Kagan, Problems in Ancient History, Volume Two, The Roman World. Macmillan Company, London, New York, 1966, pp. 311-330.

ومن المزيد من المناقشات حول نوعية الامبريوم الذى حكم به أغسطس أنظر :

Scullard op. cit., p. 425 note 5.

(١) لشرح معنى وحقوق هذه الكلمة انظر مقالة :

G.E.F., Chilver, Historia, (1950), p. 420. ff.

٢ — لقب اغسطس (المهيب) :

وفى ١٦ يناير عام ٢٧ ق.م انعم السناتو على اكتاڤيانوس بلقب اغسطس Augustus وهو لفظ اشتق من الفعل اللاتينى Augeo (١) وبعنى المهيب وترجمته باليونانية سيباستوس Sebastos كما يعنى الاسم أيضا « المختار بحسن الطالع » (٢) .

وكان هذا اللقب يضفى على أكتاڤيانوس هيبة خاصة لأنه كان يطلق أساسا على الآلهة . وقد قدم له هذا اللقب عندما اهدى اليه « اكليل من الغار ودرع تعبيرا واعترافا بشجاعته واقدامه وعدله وتقواه Pietas ومن اجل عفوه عن اعدائه » (Ob cives servatos) .

لقد بلغت الولايات التى كان يحكمها اغسطس من الاتساع ما جعله غير قادرعلى حكمها بمفرده. ولذاناب عنه ممثلين شخصيين Legati لحكمها ولم يكن هذا يحدث لأول مرة لأنه سبق للسناتو أن منح بومبى حق حكم أسبانيا من ٥٤ — ٤٩ ق.م . وهو مقيم فى روما عن طريق مندوبيه .

لقد ترك اغسطس (٢) الولايات القديمة للسناتو بالرغم من أن بعض الولايات السناتورية كان حديث العهد بالنظام والثقافة الرومانية مثل مقدونيا وافريقيا مما تطلب وجود قوات رومانية على استعداد لقمع الثورات ، الا أن معظم الجيش الرومانى كان يعسكر فى الولايات التابعة لأغسطس لتصبح تحت سيطرته وتصرفه .

وهكذا تحكم أغسطس فى الفرق الرومانية legiones والتى كان يتراسها ضباط حرص اغسطس أن يختارهم من بين الأسر الصغيرة والمتوسطة التى كان يحظى بتأييدها .

٣ — لقب الامبراطور Imperator :

كتب اغسطس فى اعماله مفاخرا « لقد نودى بى قائدا اعلى Imperator

---

(١) على أساس ازدياد المهابة (auctus) . مثل avium gustus

(٢) كان اغسطس يتحرق شوقا فى ا يلقب باسم (روموليوس Romulus) المؤسس الاسطورى لمدينة روما وكان من أجل ذلك قد بنى قصر « البلاتيوم » Palatium فوق تل البلاتين فى المكان الذى ذكرت الاساطير ان روموليوس قضى ليلته ينتظر الفال لبناء مدينته ولكن اغسطس عاد وغير من رأية حتى لا يعطى الفرصة لأعدائه بانه يهدف أن يكون ملكا لان روموليوس كان ملكا على روما . ومن ثم قبل لقب اغسطس عندما اقترحه موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus بعد الموافقة على طلبات اغسطس انظر :
Homard, op. cit., p. 210.

(٣) واحتفاء به بعد انتصار اكتيوم أطلقوا هذا اللقب على الشهر الثامن من السنة الرومانية وهو تاريخ سقوط مصر ولا يزال هذا الشهر فى السنة الافرنجية وهو شهر أغسطس .

واحدا وعشرين مرة Appellatus Sum Viciens Imperator ، وكانت من عادة الجنود — منذ أيام الجمهورية — ان يهللوا لقائدهم اذا ما أحرز لهم انتصارا رائعا ويهتفون به امبراطورا — أى قائدا مظفرا وكانت اول مرة لقب فيها اغسطس بالامبراطور بعد انتصاره فى معركة موتينا Mutina فى غاله القريبة فى ١٦ ابريل سنة ٤٣ ق.م وعلى طريقة يوليوس قيصر حول اغسطس هذا اللقب الى صفة دائمة ، بل اتخذه كاسمه الأول Praenomen فى عام ٣٨ ق.م .

وبعد عام ٢٧ ق.م . استخدم هذا اللقب بطريقتين اى كاسمه الأول وكلقب شرفى يدل على عدد الانتصارات التى أحرزها هو بنفسه أو أحرزها له ضباطه نيابة عنه واصبح لقب امبراطور حقا مكتسبا له بصفته قائدا أعلى لجيوش الامبراطورية وصاحب الأمر والنهى فى ولايات الامبراطورية . وقد وضح الاغريق معنى لقب امبراطور عندما ترجموه فى لغتهم الى — اوتوقراطور autokrator — أى الحاكم بأمره . وعلى اى حال سار الخلف على نهج السلف واصبح كل حاكم رومانى يعرف نفسه بالامبراطور .

٤ — **السلطة التريبونية** Tribunicia potestas :

الى جانب الانفراد بالسلطة العسكرية فى ولا يات الامبراطورية كان اغسطس يتمتع بالقنصلية ويجدد انتخابه لها تبعيا كل عام منذ ٢٧ ق.م. حتى عام ٢٣ ق.م وقد حدث فى ذلك العام أن غادر اغسطس ايطاليا فى حملة تأديبية ضد بعض القبائل الأسبانية التى اعتادت اثارة الشغب والقلاقل فى الشرق والجنوب من هذه البلاد ولكن وطأة المرض اشتدت عليه وهو فى ميدان القتال فرجع الى روما . وكأن القدر قد ناداه ليكتشف خيوط مؤمرة حاكمها بعض النبلاء الذين حقدوا عليه لاستئثاره الدائم بالقنصلية التى كانوا يعتبرونها وظيفة من حق رجال السناتو فقط كما كانت فى الأيام الخوالى . وما أن علم اغسطس بأسماء المتآمرين حتى نسى الرحمة والعفو وعمل فيهم فتكا وقتلا وقد آلمه كثيرا ان يجد بين المتآمرين صديقه الحميم وحليفه القديم وشريكه فى القنصلية فارو مورينا Varro Maurena (١) وكان ذلك فى عام ٢٣ ق.م هو عام الأزمة بالنسبة لحكم اغسطس اذ اطبق عليه المرض الشديد والمؤمرة الكبرى والانشقاق الحزبى حول تعيين خليفة له . فأدرك انه لابد من اتخاذ خطوة جريئة يهز بها النظام لاسقاط العناصر الرجعية ، فاستقال من منصب القنصلية لأنه كان يعتقد

---

(١) عن هذه المؤامرة مقاله .
K.M.T. Atkinson, Historia (1960), p. 440 ff.

أن شغله الدائم لهذا المنصب مغاير للتقاليد الرومانية ويحجب الفرصة عن بعض العناصر المخلصة من رجال السناتو لتولى هذا المنصب الكبير ، فضلا على أن ذلك قد يظهره بمظهر المتكالب على السلطة وقد يؤدى الى تدبير المؤامرات لازاحته كما حدث مع يوليوس قيصر .

وتعويضا عن ذلك منح اغسطس فى صيف عام ٢٣ ق.م حقوق تريبون العامة من السناتو والشعب وهى سلطة عملية بالنسبة للحاكم . وكان أغسطس قد بدأ فى تسليح نفسه تدريجيا بسلطات التريبون منذ وقت سابق وحرص على الاحتفاظ بها مدى الحياة .

فمثلا منذ عام ٣٦ ق.م كان قد حصل على حق القداسة والمناعة ضد أى عقوبة أو اعتداء جسمانى أو معنوى (ius sacrosancititas) ، وفى عام ٣٠ ق.م كان قد اصبح يتمتع بحق تقديم المساعدة auxilium لمن يطلبها منه والحماية لمن يلوذ به .

وأكثر من هذا وذاك فقد تمتع بحق الاعتراض Intercessio وحق دعوى الجمعية القبلية الى الانعقاد الفورى (Ius agendi cum plebe) للتشاور معها ، وحصل على حق سن القرارات rogatio وحق دعوة السناتو للانعقاد ius senatus consulendi (١) .

وباختصار كان أغسطس يتمتع بسلطات التريبون دون أن يكون تريبونا ، وبالطبع لم يكن اغسطس مؤهلا لهذه السلطة الشعبية لأنه كان ينحدر بحق التبنى من سلالة اسرة يوليوس وينتمى بحق المصاهرة الى اسرة كلاوديوس الارستقراطية . وبالرغم من هذا فقد أعطى حق التمتع بخصائص تريبون العامة منذ الأول من شهر يوليو عام ٢٢ ق.م وصار يجددها الى ان مات .

وخلاصة القول اصبح اغسطس يتمتع بحقوق وسلطات لا حد لها مثل دعوة الجمعية الشعبية والسناتو الى الاجتماع وتراس جلساتهما ، وحق سن القوانين ، وحق الاعتراض على اى مشروع أو قانون . والتمتع بالقداسة السياسية الممنوحة لشخص التريبون او نقيب العامة . وأصبح

---

(١) وقد اصبح تقليدا متبعا لخلفائه من بعده ان يتسلحوا بسلطتين اساسيتين هما الامبريوم الاعلى Imperium maius والسلطة التريبونية ويقول جونز انه قلما احتاج الى استخدام هذه السلطة لانه كان ينفذ كل شىء عن طريق سلطة النفوذ المدنى auctoritas وهى سلطة شرفية فقط لكن تأثيرها كبير . أنظر :

Jones, Loc. cit., p. 115.

فى أعين الطبقات الرومانية الكادحة حاميها وناصرها (Defendor Plebis) من جور الارستقراطية القديمة .

وبذلك تخلص اغسطس من حرج الاتهام باغتصاب هذا المنصب والاحتفاظ به ومن حرج قبول قنصل آخر يشاركه فى النفوذ . وقد شغل منصبى القنصلين اللذان خليا باختفاء فارو مورينا بعد المؤمرة وبعد تنازل اغسطس عن هذا المنصب اثنان من المؤيدين له . وظل تقليدا عاما أن يشغل رجال الامبراطور المخلصين هذا المنصب حتى تدهور هذا المنصب واختفائه .

■ — **سلطة الامبريوم الأعلى** Imperium Maius :

يتنازل اغسطس عن سلطات القنصلية اصبح مجردا من سلطة الامبريوم القنصلى داخل اسوار العاصمة Intra Pomerium ولكى يستعيض عن فقدان هذا الامبريوم فقد منح حق الامبريوم البروقنصلى الذى كان يمنح لحكام الولايات الذين كانوا قناصلة سابقين Imperium Proconsulare مع حق دخول العاصمة دون التجرد من هذا الامبريوم وكان وكان ذلك فى عام ٢٢ ق.م .

ولتمييز هذا الامبريوم الخاص عن الامبريوم التقليدى الذى كان يتمتع به القناصل وحكام الاقاليم سمى بالامبريوم (١) الأعلى maius اى انه أعلى من اى امبريوم آخر كما يعنى وضع حكام الولايات الأخرى تحت اوامره وتصرفه .

وقد حرص اغسطس على الا يسلم هذه السلطة على الاطلاق فعندما كادت مدة سريانها أن تنفذ فى عام ١٨ ق.م جددها لمدة خمس سنين أخرى وكرر ذلك مرة أخرى فى عام ١٣ ق.م ثم أصبح يجدد منتهها كل عشر سنوات الى أن مات .

---

(١) cf. J.G.C. Anderson, Journal of Roman Studies, 1927, p. 33 ff.

وتؤكد خمسة نقوش عثر عليها فى ولاية برقة Cyrene فى ليبيا ان اغسطس حصل على مثل هذه السلطة . انظر :

F. de Vischer, les edits d'Auguste decouverts à Cyrene, Paris 1940.

وكذلك انظر مقالة الاستاذ لاست :

Journal of Roman Studies, 1945, p. 93 f.

وكذلك انظر :

Ehrenberg. and Jones, op. cit., (document no. 311).

٦ — وظائف شرفية اخرى :

كذلك دعم اغسطس نفسه فى ذلك الوقت بعدد من الامتيازات نظرا لقيمتها السلطوية اذ حصل على حق اولوية التحدث فى اجتماعات السناتو Ius Primae Sententiae وحق اعلان الحرب وعقد معاهدات السلام وربما حق اصدار القرارات العليا Ius edicendi .

وفى عام ١٩ ق.م . منح حق حمل الشعار القنصلى Insignia الذى كان يحمله اثنتا عشرة ياورا (lictores) يسيرون امامه وخلفه . كما كان يتمتع منذ عام ٤٣ ق.م بالأولوية عند الاقتراع على المشروعات أو كما يقول هو نفسه فى وثيقة أثر انقرة :

Consulatem Iocum Sentantiae Dicendae Tribuens et Imperium mihi dedit.

« ومنحنى (أى السناتو) مرتبة قنصلية عند الاقتراع وأعطانى سلطة الامبريوم » ، وكان اغسطس قد رفض منصب الدكتاتور عندما عرض عليه هذا المنصب عام ٢٢ ق.م . وكذلك منصب القنصل الدائم وكان قد صدر قرارا بهما تحت الحاح دهماء المدينة بالرغم من انه مارس سلطات الرقيب على السناتو عند اختيار الأعضاء الجدد ابان السنوات ٢٩ ، ١٩ ، ١٢ ق.م .

٧ — سلطة الرئيس Princeps :

هكذا بتجميع السلطات السابقة واحدة تلو الأخرى وضحت الشخصية السياسية لأغسطس وكما يتضح فقد كانت هذه السلطات انعاما من مجلس السناتو ومن الشعب الرومانى Sentatus Populusque وتختلف عن أى من السلطات التى منحت للزعماء الذين سبقوه . لأنها كانت شاملة وسارية المفعول ما دام صاحبها حيا يحكم .

وقد حرص اغسطس على أن يحصل على كل سلطة منفردة عن الأخرى ويوجد لها سندا دستوريا أو سابقة عرفية ترتكز عليه . أضف الى ذلك أن أغسطس تمتع بمزايا عرفية لا حد لها نابعة من سلطة الهيبة والوقار Auctoritas الذى كان يتمتع به أعضاء مجلس الشيوخ العاديين فما بالك ببطل أكتيوم ومنقذ الجمهورية ومحقق السلام (١) .

---

(١) cf.Jones, Journal of Roman Studies, loc. cit., p. 115 f.

وباختصار فان سلطات أغسطس لم تكن محدودة بل فاقت كافة السلطات التي تمتع بها من سبقوه ومن عاصروه (١) ولما كان لا يوجد منصب معين يتسع لكل هذه السلطات فلم يكن أمام اغسطس الا أن يصوغ اسما ومنصبا جديدا — لا يعلى عليه لهذا الغرض ؛ ومن ثم فقد قاده فكره الى أن يطلق على نفسه اسم مواطن الرومان الاول Princeps Civium Romanorum أو رئيس المواطنين الرومان .

وفي الحقيقة لم يكن لفظ Princeps جديدا على الرومان فقد تردد أيام الجمهورية ، اذ لقب الناس بعض البارزين من الشخصيات السياسية وعلى رأسهم بومبى (٢) العظيم باسم Princeps ومن هذا الاسم اشتق في العصور الحديثة لقب Prince أى امير ولفظ Principate أى امارة لكن لفظ Princeps الذى تمتع به اغسطس لم يكن مماثلا في وزنه السياسى للفظ الذى حمله بعض القادة من قبل .

لذلك — لم يتمتع بمزاياه أحد ممن سبقوه بل كان جديدا فى معانيه أعم شمولا فى سلطاته واكثر ثقلا فى وزنه السياسى حتى أن المؤرخين اتفقوا على أن يكون لقب Princeps مميزا لأغسطس دون غيره بصرف النظر عن الذين تمتعوا به من قبل .

ولقد كان آخر منصب توج به اغسطس منصب ابو الوطن Pater Patriae وكان ذلك فى العام الثانى قبل الميلاد ، وهو أعلى منصب شرفى يمكن الانعام به على شخصية سياسية (٣) ، ومن المعروف أن شيشرون منح هذا اللقب عقب احباطه مؤامرة كاتيلينا . وقد قدم هذا

---

(١) وقد عبر تاكيتوس عن ذلك بقوله :
«legiones, classes, provincias inter se conexa»
« الفرق والأساطيل والولايات كلها تشابكت فيما بينها فى شخص أغسطس » انظر :
Ronald Syme, op cit., pp. 520-524.

(٢) فى رأى الأستاذ سكالارد Scullard انه برغم ان هذا اللقب له جذور منذ عصر الجمهورية الا أنه ليس هناك مايثبت أن اكتافيوس استعاره من كتابات شيشرون السياسية ، بينما يرى ما ير أن شيشرون اقترح مثل هذا اللقب والمنصب على بومبى وذلك فى كتابه عن الجمهورية De Republica الذى رسم فيه تخيلاته للنظام الجديد للجمهورية وأن كل ما فعله اغسطس هو انه نفذ هذا المخطط بحذافيره ثم أضاف عليه ما يتناسب وبذلك وضع أساس النظام الامبراطورى انظر :
Scullard, op. cit., p. 218, 425 also cf Edward Mayer : Caesars Monarchie und das principat des Pompeius, 3rd edition (Munchen 1923).

(٣) يرى سالمون انه بهذا المنصب وصل الى قمة المناصب وأصبح من الناحية الفعلية يتمتع بسلطات الملك انظر :
E.T. Salmon, loc. cit., p. 275.

الاقتراح باسم أنصار بروتوس من الجمهوريين والذين حاربوا ضده فى موقعة فيليبى Philippi

ولهذا القرار أهميته السياسية اذ يعنى استسلام آخر حصن من حصون الارستقراطية القديمة وتحقيق المصالحة الوطنية الشاملة ونهاية عصر دامى تطاحنت فيه طبقات المجتمع الرومانى ودفعت فيه الأمة ثمنا غاليا .

اصلاحات اغسطس وجهوده لبناء المجتمع العظيم :

أولا — اصلاحاته فى مجال الجهاز السياسى :

ورثت الامبراطورية عن الجمهورية نظامها الطبقى الدقيق وارتباط الوظيفة السياسية بالطبقة الاجتماعية ، وكان لكل طبقة اجتماعية معينة حدود فى الآمال والطموح السياسى لاتتعداه كما جرت التقاليد الرومانية . خالقة حالة من الوفاق بين الطبقات (Concordia Ordinum) .

ولما كان اغسطس يسعى جل جهده الى احياء الجمهورية وليس الى هدمها فقد التزم بهذا الهرم الاجتماعى ولم يحاول هدمه . وبهذا وضع حكم المواطن الأول Principatus حدود الوظائف السياسية لكل طبقة اجتماعية فلرجل السناتو مزايا التمتع بحق الترشيح وشغل الوظائف القنصلية وحكم الولايات الرومانية وكذلك شغل الوظائف الادارية والعسكرية العليا magistratus .

اما رجال طبقة الفرسان Equites فقد تمتعوا بوظائف جديدة فى مجال الادارة والشئون العسكرية خاصة فيما يخدم المواطن الأول مباشرة ؛ وكان هؤلاء يكونون فريقين فريق الفرسان العسكريين الذين يخدمون فى الجيش وفريق الفرسان التجار ورجال الأعمال ، ونظرا لأن اغسطس كان عسكريا ثوريا فقد اعتمد على الفريق الأول (١) .

اما الطبقات الدنيا للمجتمع الرومانى فقد فتح امامها المجال للعمل كجنود Milites فى جيوش الامبراطورية وضباط فى سلك الجيوش .

لقد ظهرت عبقرية التغيير السحرى فى عهد اغسطس بسماحه للنابغين

(١) انظر :

Ronald Syme, op. cit., p. 354 f.

من الطبقات الدنيا بتخطى الحدود السياسية لطبقاتهم الاجتماعية والارتقاء الى وظائف أعلى ؛ ومن الشخصيات النابغة من كان فى الأصل عبدا وحرر لأن أغسطس وضع الكفاءة قبل الأصول الاجتماعية فى نفس الوقت الذى حافظ فيه على الهندسة الطبقية لتولى الوظائف .

(أ) اغسطس وطبقة رجال السناتو :

كانت طبقة رجال السناتو تعنى أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى وأسرهم ، وكانوا يتميزون بعباءة فضفاضة يزينها خط أرجوانى عريض وتعرف باسم Tunica laticlavia . وكان أولاد أعضاء مجلس الشيوخ يتمتعون بحق ارتداء هذا الزى بينما لا يستطيع رجال الفرسان ارتداء هذا الرداء الا بقرار من المواطن الأول Princeps ، وكان الأعضاء الذين لا يستوفون شروط مجلس الشيوخ يصبحون تلقائيا أعضاء فى طبقة الفرسان . وقد اشترط ألا تقل ملكية المرشح لمجلس الشيوخ عن مليون ستركيس رومانى (أى ما يوازى خمسين ألف دولار أمريكى) . وكان المرشح لعضوية السناتو يبدأ حياته عادة فى الجيش الرومانى كمفوض عسكرى او نقيبا للفرق الرومانية Tribunus Militum أو كقائد Praefectus لتشكيل من فرسان القوات المساعدة Auxilliarii وعندما ينتهى المرشح من ذلك يتقدم لشغل وظيفة مدنية صغيرة وعادة تكون عضوية مجلس العشرين (Vigintiviratus) ويصبح بذلك عضوا فى مجلس العشرين Vigintiviri ، وعندما يصل المرشح الى الخامسة والعشرين يتقدم لشغل وظيفة الكوايستور Quaestor وهى من كبريات الوظائف الرومانية ، ومهمة الكوايستور هى الاشراف على الأموال العامة (Publica Pecunia) ومراقبة انفاقها ؛ كما كان الكوايستور يشترك فى المحاكمات المالية كممثل لصالح الجمهور ، وكانت هذه الوظيفة هى المجاز الأول للوظائف العليا، وينخرط بعد ذلك عضو مجلس الشيوخ فى سلك العديد من الوظائف الكبرى مثل الايديلية وهى وظيفة خاصة بالاشراف على الأشغال والمرافق العامة والتموين مثل بناء المعابد والمحاريب والحمامات وقنوات المياه والطرق الكبرى وتحديد اسعار المواد التموينية فى الاسواق واعتماد الموازين والمعايير والاشراف على قطاع الأمن والنظام وخفر المدينة . وكذلك المهرجانات والتجهيزات الجنائزية الرسمية.

وبعد تولى الايديلية يصبح من حق المرشح أن يتقدم لشغل البرايتورية Praetura ليصبح برايتورا Praetor أو الرئيس القضائى الذى يساعد القنصل .

ويتوج عضو مجلس الشيوخ تاريخه الوظائفى بالقنصلية . وكان القناصلة بعد انتهاء خدمتهم يجدون وظائف أخرى فى انتظارهم فمثلا كانوا يعملون حكاما للولايات بدرجة بروقنصل اى قنصل سابق ؛ او مفوضا

Legatus لقيادة جيش أو ادارة امبراطورية أو امينا Curator للجنة لتقصى حقائق أو لدراسة مشكلة داخل روما أو ايطاليا .

لقد كان السناتو هو مركز الادارة أيام الجمهورية وأراد له اغسطس أن يكون كذلك ابان عصر الامبراطورية . اذ ان معظم الرجال المحنكين سياسيا خرجوا من مدرسة السناتو الذين عن طريقهم أمكن ملء كافة الوظائف التى هى دولاب العمل الحكومى .

أدرك اغسطس هذه الحقيقة كما أدرك أن السناتو هو روما ماضيها ومستقبلها ولذا اكتفى بتطهيره من الشوائب ومن العناصر المندسة فيه والتى تسللت الى تلك المؤسسة السياسية الكبرى أثناء الحروب الأهلية . ولذا أصدر اغسطس عام ٢٨ ق.م قائمة جديدة لأعضاء مجلس السناتو حذف منها مائتين ممن ارتأى أن مستواهم لا يليق بمجلس الشيوخ فى الامبراطورية . كما جاء فى أعلى القائمة اسم اغسطس كرئيس للسناتو Princeps Senatus ، وتلى ذلك اعلانه قائمة ثانية طهرت بعض أعضاء مجلس الشيوخ صدرت فى عام ١٨ ق.م وثالثة صدرت فى عام ١٢ ق.م

وكان من نتيجة هذه القوائم ان انحسر عدد الشيوخ من الف الى ستمائة . وكان السناتو يضم اليه كل عام العشرين برايتورا الذين انقضت مدة خدمتهم ليصبحوا أعضاء فيه تلقائيا (Ipso Facto) .

ولكى يسيطر على السناتو (١) . أمسك اغسطس بالوظائف المؤدية الى عضويته وحرص على أن يرشح لها المخلصين من رجاله دون غيرهم . كما لجأ الى حيلة ماكرة وهى ترشيح ومساعدة رجال من أصول غير ارستقراطية ومدهم بالأموال اللازمة اذا اقتضى الأمر أى من الطبقات الوسطى والدنيا فى المجتمع الرومانى لكى يشغلوا الوظائف القيادية المؤدية الى عضوية مجلس الشيوخ مثل البرايتورية وغيرها .

وبهذه الطريقة دخل الفرسان لأول مرة مجلس الشيوخ واصبحوا أعضاء فيه وبذلك لم يعد السناتو مغلقا على نفسه كما كان فى الأيام الخوالى

---

(١) بالرغم من هذا كان اغسطس يبدى سعة صدر ازاء النقد الذى كان يوجه اليه من بعض الأعضاء مثلا ذات مرة صاح أحدهم فى وجهه قائلا : « أنا لم أفهمك ! (non intellexi)

وقال له رجل آخر « سوف أعترض عليك لو قدر لى ان أسنل ... !
(contra dicerem tibi, si locum haberem)

ويذكر سويتونيوس أن اغسطس ... يقول دائما « لكل واحد وجهة نظره .
(... locum habere ; cf. Suetonius, Divus Augustus, 54.

هذا من ناحية ؛ أما من الناحية الأخرى فقد عمل أغسطس على زيادة أهمية السناتو بالقاء الكثير من المسئوليات عليه ، فقد أعطى السناتو سلطة لكى يتحول الى محكمة دستورية عليا يترأس اجتماعاتها القنصلان لمحاكمة اعضاءه ممن يقترفون أو يرتكبون المخالفات القانونية الهامة مثل الخيانة العظمى Proditio Patriae

كما بدأ السناتو فى سلب السلطات الدستورية والتشريعية من المجالس الشعبية ليصبح فى النهاية هيئة تشريعية بعد أن سلبه الامبراطور سلطاته السياسية والتى كان يسير بها دفة الدولة وعلاقاتها الخارجية (١) .

كما حرص أغسطس على أن يجعل المجلس منهمكا فى أعمال داخلية حتى لا يجد الفرصة للتمرد عليه . كما كان الامبراطور يرجع الى استشارة السناتو ومشاركته وليس الى اتباع أوامره فيما يختص بالقضايا الهامة .

فقد أنشأ أغسطس ما بين اعوام ٢٧ و ١٨ ق.م لجنة سيناتورية استشارية (Consilium) (٢) مكونة من كبار المسئولين ومن القنصلين مضافا اليهم خمس عشرة سيناتورا يختارون بالقرعة .

وكانت هذه اللجان الاستشارية تتكون عادة من أصدقاء المواطن الأول amici principis وتجتمع به بانتظام فى أوقات محددة للنظر فى الشئون التشريعية وكانت هذه اللجان هى فى الحقيقة همزة الوصل بين المواطن الأول ومجلس السناتو ؛ كما كان المواطن الأول يحرص على تغيير أعضائها حتى يتعامل مع أكبر قدر من الشيوخ ويتعرف على معظم وجهات نظرهم ، كما كانت هذه اللجنة تشرف على الشئون الخاصة بالسناتو وتعدل جدول أعمال جلسات السناتو ، وفى عام ١٣ ميلادية حل محل هذه اللجنة القانونية والبرلمانية لجنة الوصاية والتى كانت مهمتها تنحصر تماما فى عملية تسهيل نقل السلطة من أغسطس الى تيبريوس Tiberius الذى كان قد أصبح وقتئذ شيخا كهلا .

---

(١) لمناقشة هذا انظر : J.A. Crook, Consilium Principis, (1955).

وكذلك : A.H.M. Jones, Historia, 1955, p. 464.

(٢) وقد نشر الأستاذ اريك تيرنر جزءا وثيقة بردية وجدت فى البهنسا أوكسيرنخوس القديمة . قرب بنى سويف . تتحدث عن استقبال وفد من هذه اللجنة السيناتورية الاستشارية قادما من الاسكندرية لزيارة هذه العاصمة الاقليمية فى عام ١٣ ميلادية ضمن برنامج زيارته لمصر .
E.G. Turner, Oxyrhynchus Papyri, Tome. XXV. no. 2435.

والى جانب هاتين اللجنتين الدائمتين كانت هناك العديد من اللجان الغير رسمية حيث يلتقى الامبراطور برجاله أو أصدقائه السياسيين للتشاور فى أمور متعددة سواء تشريعية أو ادارية أو سياسية .

كما حرص اغسطس على أن يضع الحروف (EX.S.C.) أى Ex-Senatus consulto «بناءعلى نصيحةالسناتو»فى نهايةاى قراريتخذه وعلى المبانى العامة وحتى على النقود التى سكت فى عهده توكيدا لحقوق السناتو ومسئوليته فى هذه الأمور ، كما اخذ السناتو لأول مرة يصدر القرارات التنظيمية الخاصة بالشئون الادارية والتشريعية .

هكذا نجح اغسطس فيما فشل فيه قيصر وهو جعل السناتو يرضخ راغبا لحكم الفرد ، بل ويوفق بين النظامين المتناقضين تماما . لقد نجح اغسطس لانه كيف نفسه مع الامر الواقع وهو أن رجال السناتو هم ثمرة الخبرات الطويلة للسياسة الرومانية وأن لا غنى عنهم ، وادرك ان كل ما يبغيه هؤلاء الشيوخ وهو أن يحفظ عليهم وقارهم Dignitas ويعيد اليهم مناصبهم الشرفية والعليا دون اى مساس .

وقد فعل اغسطس ذلك حتى يكسب السناتو الى جانبه (١) . ومن الواضح أن اغسطس كان حذرا للغاية مع تعامله مع الأسر النبيلة اذ انه كان يشجع الرجال الجدد ويدفعهم الى الأمام لمنافسة هذه الأسر خاصة فى وظيفة القنصلية ؛ ولكننا نجده فيما بعد — اى فى اواخر حكمه (ما بين ١٨ ق.م و ٤ ميلادية) يشجع بعض العناصر الارستقراطية وأبناء الأسر النبيلة لكى يشغلوا هذه الوظيفة وهذا دليل على تغير كبير طرأ على افكاره وعلى تصالحه مع الارستقراطية وحصوله على تأييدها .

ومهما يقال فقد بدا السناتو مقلم الأظافر أمام سلطات اغسطس اما فى أعين رجاله الذين ملأوا مقاعد تلك الهيئة المحافظة فقد كان اغسطس هو الزعيم الصالح والمدافع عن كرامة السناتو ، كما بدا اغسطس لأعين

---

(١) كان أغسطس يحرص على كسب رضا السناتو رغم حذره الشديد منهم . فعندما أصدر السناتو قراره فى العام الثانى ق . م بمنحه لقب ابو الوطن Pater Patriae تقدم اغسطس الى المنصة وعيناه مغرورقتان بالدموع (lacrimans) وخاطب الاعضاء قائلا :

«Compos Factus Aotorum meorum, patres et conscripti, quid habeo aliud deos immortales precari, quam ut hunc consensum vestrum ad ultimum finem, vita mihi preferre liceat ? (Suetonius, ibid, 58, 2).

وترجمتها : والآن أيها الآباء المختارين وقد حققت جهودى مادا فى استطاعتى سوى ان أرجو الآلهة الخالدة ان تهبنى تأييدكم لى لآخر رمق فى حياتى ؟

الشيوخ خيرا من القادة الذين سبقوه اذا ما قارنوا سلوكه بسلوك الآخرين من أمثال الأخوين جراكوس والجنرال ماريوس والحكومات الثلاثية المتعددة ودكتاتورية يوليوس قيصر .

(ب) اغسطس وطبقة رجال الفرسان : Ordo Equester

وجد اغسطس نفسه فى حاجة ماسة الى مساعدين للاشراف على مصالحة الخاصة ومصالح الدولة العامة (١) . فقد كان اغسطس فى حاجة ماسة الى مفوضين عسكريين بسلطات خاصة لقيادة فرقة المعسكرة فى الولايات الامبراطورية المختلفة . ووجد أنه من غير المناسب أن يتجه الى شيوخ السناتو لهذا الغرض ولكنه اثر أن يبتعد عن ذلك حفاظا على هيبة السناتو من ناحية وتجنبا لشرورهم من ناحية اخرى . واذا كان اغسطس قد خاف ان يستخدم رجال السناتو للاشراف على مصالحه الخاصة فقد عاف كذلك استخدام رجال الطبقات الدنيا سواء من الاحرار او المحررين او الذين كانوا لا يزاولون عبيدا كنواب عنه لادارة شئون ولاياته الخاصة . ومن ثم لم يجد اغسطس امامه سوى طبقة الفرسان ليجند منها رجاله ويأتى منها بالرجال الأكفاء لشغل الوظائف المدنية المختلفة (٢) .

لقد ادرك اغسطس ان هذه الطبقة من المجتمع الرومانى عريقة الدراية بالمال وأنهم كانوا يقومون بأعمال الوكلاء الماليين للدولة منذ قديم الزمن فاستغل خبرتهم واعتمد عليهم فى ادارة اجهزة الدولة المختلفة . وكان ذلك بحق هو قلب الثورة الأوغسطية التى هدفت الى تطوير مرافق الدولة وتطهيرها عن طريق عناصر ديناميكية وقادرة .

وفى الحقيقة أفاد الفرسان الامبراطورية كثيرا بخبرتهم وسرعة تحركهم وبتهم فى الأمور بما هو فى صالح الامبراطور والامبراطورية .

نعلى العكس من طبقة السناتو كانت طبقة الفرسان مفتوحة امام أى فرد من أفراد الشعب الرومانى للانضمام اليها بشرط أن يكون قد بلغ الثامنة عشر من عمره ، وأن يكون حر المولد ذا شخصية قوية واضحة وان يكون متمتعا برأس مال صغير يبلغ فى المتوسط ٤٠٠,٠٠٠ سسترکيس رومانى اى ما يعادل عشرين الف دولار امريكى .

---

(١) P. A. Burnt, Journal of Roman Studies (1961), p. 71 f.

(٢) عن علاقة اغسطس بالفرسان ووضع هذه الفئة فى مخططه السياسى أنظر مقالة :
cf. R. Syme op. cit., p. 364, and p. 372.

وكان الامبراطور هو الذى يوافق على انضمام الأعضاء الى هذه الطبقة عندئذ يرتدى الفارس وشاحا أرجوانيا رفيعا فوق عباءته tunica ويتسلم جوادا من الدولة رمزا لأحقيته وتأهيله لوظائف الدولة المدنية والعسكرية (وربما لا يزال هذا التراث قائما فى بعض الدول الأوربية الحديثة عندما تنعم الدولة على البارزين من رجالها بنوط الفرسان) .

كما أحيا أغسطس مهرجان استعراض الفرسان بجيادهم سنويا حيث يقوم هو بنفسه بتفقدهم . وكان أكبر المهرجانات التى أدخلت البهجة والسرور على قلوب سكان العاصمة والتى أهملت لمدة طويلة ابان الصراعات الاجتماعية التى عصفت بالأمة الرومانية .

واذا كان أغسطس لم ينحاز لطبقة السناتو الا أنه نفخ فى صورة طبقة الفرسان فوضع لها سلكا وظائفيا Cursus honorum يعمل فيه الفارس تماما كالسناتو سواء فى الجيش أو الادارة . ولكنه أتخذ حيطته من البارزين منهم (١) .

ففى الجيش كان الفارس يتنقل فى الوظائف مثل وظيفة النقيب العسكرية tribunus militaris فى قوات الحلفاء سواء الراجلة « المشاة » او الراكبة « الفرسان » أو تربيونية فرسان المدينة (Cohortes) الذين كانوا يقومون بأعمال حفظ الأمن والنظام داخل العاصمة .

وكذلك تولى الفرسان تربيونية الفرق الرومانية . اما فى الوظائف المدنية فقد كان الفارس مؤهلا لوظيفة أمين الخزانة Procurator وهى كما يتضح من الاسم خاصة بالشئون المالية فى الولايات الرومانية ، وبعد أن يتنقل الفارس من ولاية لأخرى فى خدمة شئونها المالية كان يتوج باحدى الوظائف الكبرى مثل البرايفكتيه Praefectura سواء لحرس المدينة أو فى الحرس الجمهورى أو الخاصة بحيازة القمح وتوزيعه وجمعه من الولايات Praefectus annonae أو والياعلى ولاية مصر Praefectus Aegypti ويجوز للامبراطور ترقية اى فارس الى مرتبة سيناتور مكافأة له عند اعتزاله العمل .

وبالرغم من أن سلك وظائف الفرسان كان أقل مرتبة من سلك وظائف أعضاء السناتو لأنهم رجال جدد ليس وراءهم التراث والمهابة والدم النبيل الذى كان يجرى فى عروق رجال السناتو، الا أنهم كانوا عمليين مجددين

---

(١) مثلا حرم دخول مصر على أعضاء السناتو والبارزين من طبقة الفرسان فى نفس الوقت . ولما تضخمت شخصية والى مصر كورنيليوس جاللوس (من ٣١ — ٢٤ ق.م) بعد انتصاراته هناك — وكان من طبقة الفرسان — استدعاه اغسطس وجرده من سلطاته وصادر أمواله ثم نفاه ولم يتحمل الوالى المسكين الصدمة فانتحر .

موالين للامبراطور وأمناء على رفاهية الامبراطورية وسعادتها وعلى أكتافهم قام نظام أغسطس . فقد انتشروا فى كافة انحاء ولايات الامبراطورية يشرفون على جمع الضرائب بطريقة انسانيّة عادلة ويقتلعون المستغلين من جذورهم ويستمعون الى أقوال المتظلمين ويعاقبون الظالمين وكأنهم جنود الحق والعدالة اللذان يتمثلان فى شخص الامبراطور وفى العهد الجديد .

كما حرص الامبراطور على حمايتهم وتشجيعهم والدفع برجال منتقين من الطبقات الدنيا لتجديد شباب هذه الطبقة . وهكذا كان اغسطس يبحث عن الكفاءة حتى ولو استدعى الأمر الى تحرير عبد وتشجيعه ليصل الى المركز الذى اهلته له قدارته العقلية والنفسية . وتلك هى عظمة أغسطس (١) .

(جـ) أغسطس والتنظيمات الشعبية :

لقد بذل أغسطس عبثا جل جهده لتوعية الطبقات الدنيا من الشعب الرومانى ، وكان يتمنى أن يصل بهم يوما بالوعى الفكرى والتشريعى الى حد مناقشة تشريعاته ذاتها التى كان يتقدم بها اليهم طالبا موافقة مجالسهم عليها . كما كان يتمنى أن يجعلهم يحسون بخطورة المسئولية الملقاة على عاتقهم عند انتخاب القناصل وكبار الموظفين ، بالرغم من هذا حرص اغسطس على املاء مرشحيه عليهم وصاية منه على الشعب لأنه رفض أن يقامر بوضع « طاقات الأمة » ومركز اعصابها رهنا للغوغاء الانانية ذات المزاج المتقلب والغير مدركة لصالحها الحقيقية (١) . ولكى يضمن اغسطس للكفاءات المختلفة شق طريقها الوعر عبر أمزجة الجماهير قام بوضع العراقيل أمام انتهازيى الطبقة الدنيا حتى يعوقهم عن منافسة الكفاءات التى تحتاجها الامبراطورية فى عصرها الجديد . فمثلا حدد عدد وظائف الدولة الصغيرة والتى تأتى أسفل درج الوظائف العامة فبعد ان كانت ست وعشرين وظيفة أصبحت عشرين ، وبذلك بدأ فى تسمية الموظفين والمرشحين لوظائف أعلى مما شجع على التنافس واظهار القدرات . ولكى يضرب للجماهير الأهمية السياسية الكبرى التى تقع فى عملية الانتخابات نقد تعود أن ينزل بنفسه الى ساحة مارس Campus Martius ويدعو لرجاله ويشترك فى حفلات انتخابية من أجل نصرتهم . وبلغ بأغسطس الحرص على اتاحة الفرص أمام الكفاءات ، والأخذ بيدها حتى لا تغرق وسط بحر الجماهير المجنونة أن عين لجنة من الشيوخ لاختيار هذه العناصر

---

(١) كان أغسطس يتبع تركيته للعناصر الصالحة بما فى ذلك المرشحين لخلافته بعبارة [illegible] بذلك «Si merebuntur !»

انظر كذلك : A.H.M. Jones, JRS. 1949, p. 38 ff.

الطيبة ورعايتها ، هكـذا لم يحاول اغسطس أن يلغى او يحل التنظيمات الشعبية ولكنها لم تعد تمثل أمزجة وعواطف الجماهير الرومانية ، لقـد احتفظت هذه المجالس بحقوقها التشريعية وسلطاتها فى ترشيح المتقدمين لشغل الوظائف العامة ولـكن الامبراطور حـد من دائرة عملهـا واصبح من يزكيـه الامبراطـور هو الذى ينتخب فقط ، كما تحـكم الامبراطـور بمقتضى سلطته التربيونية فى القوانين قبل عرضها على المجالس الشعبية للموافقة عليها ، اى ان هذه المجالس اصبحت شكلية فقط .

وفى العام الخامس الميلادى اجرى اغسطس تعـديلات طفيفـة على الجمعية المئوية Comitia Centuriata عندما عهـد الامبراطـور الى عشرة لجان كل منها يتكون من مائة سيناتور وفارس يختارون من المحاكم واللجان القضائية لاختيار المرشحين لوظائف القنصلية والبريتورية ، وقد شكلت هذه اللجان المئوية العشر بمناسبة ذكرى وتـكريم حفيـدى الامبراطـور الراحلين « اولاد ابنته جوليا وهما جايوس قيصر ولوكيوس قيصر » ولقد فضل اغسطس الفرسان على النبلاء ، لأن الفرسان كانوا يأتون من كافة الطبقات فى ايطاليا كلها وليس من روما وحدها مثل السناتو ، وبذلك حطم اغسطس احتكار مدينة روما وعائلاتها لشئون ايطاليا كلها لأول مرة ، وكانت هذه اللجان تعد القوائم للعناصر الطيبة مدعمة بتاريخ حياتها ثم تتقدم بها للامبراطور حيث يترك له وحده حق اختيار من يراه ، واكثر من هذا سمح اغسطس لأعضاء المجالس البلدية فى المقاطعات الرومانية بالادلاء بأصواتهم فى شئون الامبراطورية عن طريق صناديق مغلقة ترسلّ الى روما لفرزها .

ومهما بذل اغسطس لارضاء الطبقات الدنيا من الشعب الرومانى فقد ثبت أن نقطة الضعف فى أعمال الامبراطور هى الطبقات الدنيا التى تعودت على التكاسل وتسلم القمح من الدولة بأثمان رمزية ، والتسلى بالألعـاب والمهرجانات والعروض المسرحية والرياضية بالمجان رافضين تحمل المسئولية السياسية التى ارادها لهم اغسطس ، وفى كثير من الأحيان علت صيحات الغوغاء مطالبة اغسطس بأن يصرح لهم علانية بما يريد . ففى عام ٢٢ ق.م اندلعت حوادث الشغب اثناء الاقتراع على الانتخابات ورفض الامبراطور ان يتدخلّ لفضها وتكرر ذلك عام ١٩ ق.م وبلغ من شـدة ضراوة هـذا الشغب أن كسر الامبراطور عزلته وتدخل بنفسـه وعين قنصلا كما تدخل الامبراطور لوقف الصراعات السياسية والقبلية بين الجماهير عامى ٧ ، ٨ ميلادية . لقد كان الرومانى العادى اسوا مواطن بالنسبة لغيره اذ أنه عاف أن يلتزم بمتطلبات المواقف السياسية . مما تسبب عنـه ثغرة فى بنـاء

أغسطس السياسى وتحطم حلمه فى اقامة تعاون دائم بين الشعب والحكومة ، وبالرغم من هذا رفض أن يعترف بفشله فى هذا المجال تاركا المشكلة برمتها لخليفته تيبريوس Tiberius واتجه الى المقاطعات الايطالية يجند منها قوادا لفصائله . وخاصة قواد المئة Centurion لقد كان هؤلاء القواد هم المسئولون عن سيادة الأمن والنظام فى الداخل والخارج وهم الذين كثيرا ما كوفئوا بترقيتهم الى « طبقة الفرسان » بأمر الامبراطور .

ثانيا ـ الاصلاح العسكرى :

عندما عاد الامبراطور من فتوحاته فى الشرق عام ٢٩ قبل الميلاد

---

(١) اهتم المؤرخون الالمان والانجليز بدراسة الجيش الرومانى وبالذات فى عصر الامبراطورية ومن أهم هذه الكتب كتاب تشيزمان الذى برغم قدمه لا يزال المرجع الأول انظر :

G.L. Cheesman, The Auxila of the Roman Imperial Army (1914).

ويلى ذلك كتاب باركر :

H.M.D. Praker : The Roman Legions (first published in 1928 New Corrected edition 1958).

ومن الملاحظ أن الكتابين السابقين يركزان اهتماما كبيرا على حياة الجندى الرومانى خاصة الكوادر الدنيا والتى هى بحكم العدد أغلبية كما أنها كانت تقضى جزءا كبيرا من حياتها فى ثكنات الجيش وقد اهتم المؤلفان السابقان بالنواحى التدريبية مثل عملية التجنيد والتدريب واللياقة ثم المناورات والتكتيك ولم يهتما بالنواحى التنظيمية واعداد الضباط والكوادر العليا كما لم يهتما بمعالجة المشاكل التى كان يعانيها الجندى مثل الترقيات والتفرقة فى الرواتب والجزاء والمكافأة، فضلا عن المشاكل المعنويه الاخرى مثل العقائد الدينية داخل المعسكرات ومشكلة الزواج أثناء الخدمة والتوطين بعد التسريح من الخدمة وكلها موضوعات لا يمكن فصلها عن الجيش الرو[illegible] . ومن الكتب الجيدة عن الجيش الرومانى كتاب ماكمالن :

Ramsay MacMullen : Soldier and Civilian in the Later Roman Empire, (Cambridge 1963).

وهو كتاب جيد يركز على العلاقات المدنية للجيش الرومانى فى زمن السلام أو دور الجنود فى الحياة المدنية . ومن الكتب الحديثة فى هذا الموضوع :

(G.R. Watson, The Roman Soldier, (Thomas and Hudson 1969).

وهو يعالج حياة الجنود ولكن بطريقة أكثر شمولا ممن سبقوه اذ يتناوله كما يقول المؤلف نفسه من ساعة التجنيد حتى لحظة التسريح (P. 11) مركزا على الجيش الرومانى منذ عهد أغسطس حتى عصر دقلديانوس ، وبالرغم من أنه حذى حذو سابقيه فى استهلال مؤلفه بدراسة [illegible] الجنود الا أنه غطى [illegible] أهملت فى المؤلفات التى سبقته فعالج مثلا [illegible] . كما أنه لم يحدد بحثه [illegible] والوحدات المساعدة بل شمل الحرس الامبراطورى [illegible] الحفراء والاطفاء كما عالج [illegible] . كما درس الأسلحة واستراتيجية توزيع الوحدات على الحدود . ومما يميز هذا [illegible] المصادر التى استقى منها معلومات [illegible] Vegetius المعروف باسم عن =

وجد تحت يده جيشا يكاد يبلغ فى تعداده نصف مليون جندى . وادرك الامبراطور أن العالم قد استسلم تحت قدميه ؛ وليس هناك حاجة الى هذه الجحافل وكان عليه أن يسرح هذا الحشد العسكرى ويحل مشاكله قبل ان يبدأ اصلاحات عهد السلام والرفاهية على أن يحتفظ تحت يده بقوة رادعة لحماية سلطان روما على الولايات .

ولذا نجد عدد الفرق الرومانية يتناقص الى أن اصبح ثمان وعشرين فرقة بعد أن كان ستين فرقة .اذ انه استطاع تسريح ٣٠٠ر٠٠٠ جندى وتوطنيهم فى مستعمرات أو ارجاعهم بعد مكافأتهم الى مواطنهم التى جندوا منها ، وتفاخر اغسطس بأنه وطن جنوده المسرحين فى أرض مشتراه من ماله الخاص وليست مصادرة بقوة السلاح ، وليس من المستبعد ان يكون قد صادر فعلا بعضا من الأراضى التى تخلى عنها أصحابها الذين كانوا قد فروا الى معسكر أنطونيوس ، ولكنه من المؤكد أنه فعلا قد اشترى مساحات شاسعة من الأراضى سواء فى ايطاليا أو خارج ايطاليا لتوطين الجنود . كما تخلص الامبراطور من نسبة كبيرة من الجند باقامة المحميات فى المناطق الاستراتيجية على طول الامبراطورية وانشاء قاعدتين للأسطول الرومانى فى كل من ميسينوم Misenum ورافنا Revenna كما انشأ

= شئون العسكرية De re militari ، كما استخدم فى دراسته التشريعات العسكرية (codes) بالاضافة الى العديد من النقوش والوثائق البردية التى أمدته بفيض من المعلومات الهامة خاصة رسائل الجنود الى ذويهم . ومن الكتب الجيدة أيضا التى صدرت حديثا :

S. Daris, Documenti per la storia dell, esercito romano in Egitto (Milano Chester 1969).

ولم يسعد نا الحظ بقراءته وربما لم يخرج كثيرا عن كتابه الأول فى نفس الموضوع ومصر The Roman Army (Chester) 1956

ومن الملاحظ أن المصادر المصرية فى العصر الرومانى تلعب دورا أساسيا فى دراسة الجيش الرومانى فى عصر الامبراطورية . واود ن اشير مثلا الى النقش الذى نشره استاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على واحدث جدلا كبيرا بين العلماء أنظر .

A.A. Ali, A latin Inscription from Alexandria about the Roman Army Annales, Faculty of Ein Shams, 1952, pp.

وقد جمع داريس هذه الوثائق فى مؤلفه :

S-Daris, Documenti per la storia dell, esercito romano in Egitto (Milano 1964).

وقد عرضه دافيز Davis فى مجلة الدراسات الرومانية

Journal of Roman Studies (1966) p. 242 f.

وهناك كتب أخرى عالجت بعض فروع الجيش أشرت اليها آنفا فى مذيلات الموضوع .

اغسطس خدمة بريدية Cursus Publicus على طول الطرق الكبرى وعلى الممرات المائية الهامة لنقل الرسائل ولتحريك القوات بسهولة ولضمان توصيل المؤن والعتاد اليها .

وجدير بالذكر أن مستوطنات اغسطس العسكرية كانت عسكرية خالصة وقفا على الجنود فقط بعكس مستوطنات قيصر التى كانت خليطا من العسكريين والمدنيين ، ولدينا أدلة مادية كافية عن وجود ثمان وعشرين مستوطنة فى ايطاليا وخمس فى صقلية وواحدة فى سردينيا وأربع عشرة فى اسبانيا وثمان فى بلاد الغال وأربع عشرة فى منطقة البلقان واحد عشرة فى آسيا والشرق الأوسط وسبع عشرة فى أفريقيا . وكتب اغسطس متفاخرا بأنه انفق ثمانمائة وستين مليون سستركيس رومانى من أمواله الخاصة لتعضيد اقامة هذه المستوطنات العسكرية وأنه ضمن بذلك ولاء جنوده فى المناطق الاستراتيجية الهامة عبر أجزاء الامبراطورية .

كما اقام اغسطس بعضا من المستوطنات بقصد حراسة الموانى والطرق التجارية الهامة او حماية مستوطنات جديدة من خطر السكان الوطنيين ؛ كما أراد أغسطس لهذه المستوطنات أن تكون منارات اشعاع للثقافة والفكر الرومانى ولطبع حوض البحر الأبيض المتوسط بطابع الحضارة الرومانية . وبهذا يعيد الى اذهاننا أحلام يوليوس قيصر .

لقد بدأ أغسطس سياسة التسكين العسكرى (١) وذلك لأن قرنا من الحروب الأهلية الطاحنة ترك فى الدولة الواحدة عديدا من الجيوش . ووجد اغسطس انه من المحتم أن يسرح هذه الجيوش المختلفة ليبقى جيشا واحدا نظاميا هو جيش الامبراطور . وابقى على نظام « التطوع » فى التجنيد بالرغم أنه اضطر الى الزام الناس على الانخراط فى الجيش فى بعض الاحيان .

كما غير اغسطس من طريقة اختيار الضباط فقد كانت هذه الوظيفة تملأ بعناصر شرسة ذات أصل وضيع تنبعث من قلب الطبقات الدنيا فى الفرق الرومانية وتعيث فى الجيش فسادا وانتهازية ، فألغى اغسطس هذه الطريقة واستبدلها بطريقة اعداد الضباط المحترفين المدربين والمختارين من عناصر قادرة وسليمة اجتماعية . فرفع بذلك مستوى الضباط

---

(١) ألقى الأستاذ كورنمان (Kornemann) اللوم على اغسطس لتلك السياسة وذكر بأنها كانت سببا فى تدهور الامبراطورية الرومانية فيما بعد انظر :

Kornemann, Das Problem des Untergangs der antiken Welt, [illegible] und Gewesen Wart. XII (1922) pp. [illegible] & pp. [illegible]

كما أحسن اختيار نقباء الفرق من الفرسان والمتواضعين من طبقة الشيوخ . كما حرص اغسطس على الفصل بين الجيش والسياسة وحرص على أن يكون الجيش للعسكرية والمدنيين للسياسة . مما أدى الى ارتفاع القدرة القتالية للقوات الرومانية وتأمين البلاد من شر بعض العناصر العسكرية ، كما ابقى أغسطس على تكوين الجيش من جزئيه التقليديين وهما الفرق الرومانية Legiones والقوات المساعدة Auxilii .

الفرق الرومانية والقوات المساعدة :

كانت الفرق الرومانية تشمل الجنود الرومان سواء من داخل ايطاليا أو من المقيمين فى ولايات الامبراطورية أو من المناطق التى يمنح سكانها الجنسية الرومانية Civitas Romana ؛ وكانت كل فرقة تتكون من ستة آلاف جندى منهم ماية وعشرين راكبا والباقى من المشاة واحيانا كانت الفرق غير كاملة العدد بسبب ازدياد خسائرهما والتباطؤ فى تجنيد غيرهم . وكما قلنا اصبح عدد الفرق الرومانية عام ١٣ ق.م ثمان وعشرين فرقة تقف على استعداد لأى امر يصدر من الامبراطور . وبعد ذلك فقد الجيش الرومانى ثلاث فرق كاملة أبيدت فى المانيا ولم يحاول اغسطس استبدالها (١) . وبذلك أصبح عدد الفرق خمس وعشرين فرقة اى ما يعادل ماية وخمسين الفا من الجنود (٢) .

اما القوات المساعدة auxiliares فقد كانت تجند من الشعوب والقبائل الغير رومانية التى تقع فى حوزة الامبراطورية الرومانية وكان تعدادهم يوازى تعداد الفرق الرومانية تقريبا ؛ وبدا اغسطس فى تطبيق النظم العسكرية الحديثة عليهم فقسمهم الى آلايات مشاة (٣) . مفردها (ala) وجمعها (alae) ؛ والى وحدات من الخيالة cohortes يتراوح عدد كل منها ما بين ٩٦٠ و ٤٨٠ رجلا ؛ كما حدد اغسطس مدة الخدمة فى هذه القوات ، وحرص على أن يكون ضباطهم من الجيش الرومانى ، ولكن هذا النظام لم يطبق تطبيقا شاملا الا بعد انقضاء وقت طويل لأن الكثير من القوات المساعدة كانت تجند محليا وتحت اشراف زعماء القبائل فى أوطانهم الأصلية ، كما كانت مدة خدمتهم تختلف باختلاف الظروف وعند تسريح الجنود المساعدين كانوا يمنحون الجنسية الرومانية لهم ولأسرهم مكافأة لخدمتهم .

(١) G.R. Watson, op. cit., p. 23.

(٢) Ibid., p. 23.

(٣) يشرح واتسون معنى الآلاى alae التى تعنى « جناح » فى اللغة اللاتينية — فى الجيش الرومانى بأنها القوات التى توضع على جانبى القوات الأصلية حماية لها وذلك يجعلها تبدو كالأجنحة alae وهى ما تعنيه الكلمة : انظر Watson, op. cit. p. 24, and p. 16.

قوات الحرس البرايتورى : Praetoriani

يجىء الحرس الامبراطورى بعد القوات النظامية أو الفرق الرومانية Legiones وبعد القوات المساعدة من حيث العدد والكفاءة القتالية ، ولكنها لعبت دورا كبيرا وهاما فى مجرى الأحداث السياسية التى شهدتها الامبراطورية فقد كانت هذه القوات فى الأصل قوات تساعد الامبراطور بصفته القائد العام لقوات الجيوش الامبراطورية . وكانت مشابهة فى تنظيماتها لقوات الحراسة فى القيادات العليا المختلفة للجيش الرومانى . ولما كانت هذه القوات لا تخرج من ايطاليا او على وجه التحديد من العاصمة فقد كان تأثيرها فى السياسة اقوى من القوات النظامية المرابطة فى مختلف الولايات البعيدة (١) .

قسم اغسطس قوات الحرس البرايتورى الى تسع (٢) وحدات من الخيالة Cohortes يتكون كل منها من ألف راكب ، وكان يقود قوات الحرس نقيبان من طبقة الفرسان Praefecti Praetorio ، وكان جنود الحرس البرايتورى يختارون خصيصا من الايطاليين ، ويتقاضون رواتب عالية ويقضون مدة خدمتهم أقصر من زملائهم من الجنود الآخرين .

كما كان الامبراطور يشرف على قوات الأمن وفرق اطفاء النيران والحرائق وكانت تخضع للجيش فى نظامها وتمريناتها وتخضع لقيادة اغسطس العليا .

كانت سياسة أغسطس أن يضمن ولاء الجيش له ولآل بيته ، وحرص دائما على ارضاء الجند اتقاء لشرهم ، فأدخل عام ١٣ ق.م نظام المكافأة المالية بدلا من منح الجندى المسرح قطعة أرض معينة . كما حدد فى العام الخامس الميلادى مدة الخدمة بست عشرة عاما لجنود الحرس البرايتورى وعشرين عاما لجنود القوات النظامية ، وخمس وعشرين عاما لجنود الفرق المساعدة auxilia ، وكان جندى الحرس البرايتورى يتسلم عند تسريحه من الخدمة مكافأة قدرها خمسة آلاف دينار رومانى denarii (اى ما يعادل الف دولار امريكى ، اما جندى الفرقة فكان يتسلم ثلاثة آلاف دينار (اى ما يعادل ٦٠٠ دولار امريكى) الى جانب قطع من الأرض الزراعية . وكانت الجنود المسرحة Veterani توطن فى المستوطنات المنتشرة فى الولايات التابعة للامبراطورية . وفى عام ٦ ميلادية انشأ اغسطس الخزانة العسكرية aerarium militare (٣) لكى تتولى دفع

---

(١) Waston, op. cit., p. [illegible]

(٢) M. Durry, Les Cohortes pretoricenne Paris (1938).

(٣) cf. Starr op. cit., p. 114 . cf. Suetonius, ibid, 28.

الرواتب والمكافآت للجنود وكانت تستمد ميزانيتها مما يتبرع به الامبراطور من أمواله الخاصة ، ومن دخل ضريبتين فرضتا على المواطنين هما ضريبة الارث vicesima hereditatium ومقدارها ٥ ٪ من كل تركة وتفرض على المواطنين الرومان بلا استثناء ، والأخرى وهى ضريبة البيع centesime rerum venalium ومقدارها واحد فى المائة من قيمة الأشياء المباعة . وقد قصد أغسطس من انشاء هذه الخزانة احساس الجندى الرومانى بأن ينظر الى الدولة وليس الى قائده من أجل المكافأة ، ولكى يحارب للدولة وليس لجنراله الذى كان يعده فى الماضى بالمكافأة اذا ما انتصر ويستخدمه فى أغراضه السياسية وانقلاباته العسكرية .

البحرية والأسطول الرومانى :

ادرك اغسطس اهمية تأمين وحراسة الشواطىء لايطاليا وتأمين البحار من خطر القراصنة فأنشأ قوة بحرية دائمة ، وجعل قيادتها فى مدينة رافنا وميسينوم Misenum (١) ، ولكن سر قوة الجيش الرومانى كانت تكمن فى قواته المسلحة البرية وليس البحرية ، ولذا سمح اغسطس بأن يجند جنود الأسطول من سكان ولايات الامبراطورية المختلفة بالرغم من أن جنود الأسطول شملوا فى بعض الأحيان مواطنين من روما . وفى حالة الحملات العسكرية كان يحدث تنسيق بين القوات البرية والقوات البحرية خاصة عند نقل الجنود الى الأجزاء البعيدة عن الامبراطورية ، وكانت قطع الأسطول الرومانى Classis تتكون من القطع الحربية naves longae ذات الثلاث طوابق من المجدفين (ثلاثة جماعات من المجدفين ، واحدة فى مقدمة السفينة والثانية فى الوسط والثالثة فى المؤخرة حيث يحرك كل ملاح مجدافا واحدا مسطحا ومصنوعا من البرونز الثقيل يصل وزنه أحيانا الى مائة وسبعين رطلا) ، ويجىء المجدفون remiges فى أسفل الدرج العسكرى ، وكانوا عادة يجندون من العبيد والمستعبدين من الشعوب ، يليهم البحارة nautae الذين كانوا يجندون من الطبقات الدنيا من الشعب الرومانى أو من ابناء المستعمرات الرومانية الواقعة قرب الموانىء

---

(١) قدر « ستار » عدد قوات اسطول رافنا بـ خمسة آلاف رجل بينما قدر عدد قوات ميسينوم بضعف هذا العدد انظر :

cf. C.G. Starr, The Roman Imperial Navy (2nd edition 1960), p. 14 f.

— الى جانب ذلك كانت هناك وحدات حراسة بحرية تحولت الى قواعد بحرية فى اجزاء مختلفة من العالم مثل الأسطول السكندرى

Classis Augusta Alexandrina

op. cit., 147 ; also cf. Suetonius, Divus Augustus, 23.

والبحار والجزر أو من الحلفاء ويطلق عليهم الحلفاء البحريون socii navales ؛ وقد سمح اغسطس للأجانب الذين يرغبون فى الحصول على الجنسية الرومانية بالخدمة ست وعشرين سنة للعمل كمجندين فى الأسطول من اجل الحصول على الجنسية الرومانية . وبالرغم من أهمية الأسطول الرومانى الى انه اعتبر أحط أنواع الخدمة العسكرية من ناحية المعاملة والنظرة العامة وكذلك الرواتب . كما كانت فرص الترقية قليلة أمام ضباطه لأن القوات البرية كانت تستأثر بالنصيب الاكبر منها . كما سمح فى بعض الأحيان باستخدام جنود الأسطول فى شق الطرق وتنظيف القنوات داخل ايطاليا وفى العاصمة الرومانية .

أن نظرة شاملة على تنظيمات الجيش الرومانى فى البر والبحر تبين مدى اهتمام اغسطس فى الاحتفاظ بقوة ايطاليا والايطاليين على شعوب الامبراطورية المتعددة ، فالضباط والقوات النظامية كانوا يجندون من أبناء الرومان او الولايات التى صبغت تماما بالعنصر والثقافة والحضارة الرومانية . فكما حفظت الوظائف المدنية لرجال السناتو والفرسان حفظت المناصب العسكرية العليا لهم ايضا . وهكذا وضع اغسطس خطاً يميز الرومان عن غير الرومان . ولكن اغسطس توسع فى نفس الوقت فى منح الجنسية الرومانية لسكان العديد من المناطق بعد تسكينها بالجنود وعلى الأجانب وأبناء الولايات اذا ما خدموا فى الجيش المدة المقررة .

ثالثا — اصلاح الادارة والأمن فى العاصمة وفى الولايات :

(أ) العاصمة :

قبل ان يدرك اغسطس اهمية ضمان الأمن والسلام فى الولايات التابعة للامبراطورية ، وضمد الجراح التى لحقت بها بسبب الحروب الأهلية المتعاقبة وبسبب استهتار الجيوش الرومانية وعبثها ، أدرك أن العاصمة هى الأخرى مهددة بأخطار جسيمة بسبب سوء الادارة والنقص فى الخدمات العامة وخاصة الأمن الذى هو أساس الحياة المدنية . ومن الطبيعى أن يبدأ اغسطس بالعاصمة روما ، وكان حريصا فى كل خطوة يخطوها لأنه كان يدرك ان العاصمة هى مملكة السناتو ومنطقة نفوذه وتحت مسئوليته بالرغم من أن السناتو اهملها . ادرك اغسطس أن هناك حاجة ماسة لتوطيد الأمن داخل العاصمة . كما استفاد أغسطس من تجربة « الايديل » اجناتيوس روفوس Egnatius Rufus الذى كان ايديلا عام ٢٦ ق.م واستطاع أن يطهر شوارع روما من اللصوص وعصابات المجرمين مستخدما اتباعه من العبيد فأمن المدينة تماما . ونتيجة لذلك اكتسب شعبية عارمة بين الجماهير ضايقت حكومة أغسطس وأحرجتها

وجعلتها تخاف من ازدياد نفوذ اجناتوس روفوس ، فقررت التخلص منه بتنفيذ حكم الاعدام فيه بتهمة الاشتراك فى مؤامرة لقلب نظام الحكم . وكان ذلك عام ١٩ ق.م لقد أيقظ نجاح روفوس أفكار اغسطس بخصوص اعداد قوة لاطفاء الحرائق داخل العاصمة وكان روفوس قد استخدم قوة من عبيده الخاصة يقدر عددهم بنحو ٦٠٠ عبد ليستخدموا كرجال لمكافحة الحرائق التى تنشب فى أحياء العاصمة عام ٢١ ق . م (١) .

لقد ادرك اغسطس عام ٧ ق . م ضرورة اعادة تنظيم الحكومة المحلية فى روما بحيث تضمن الطمأنينة والامن للمواطن ولكن يسود النظام فيها . فتسم العاصمة الى أربع عشرة قسما ووضع كل قسم تحت اشراف مسئول اما تربيونا (عسكرى) أو ايديلا أو برايتورا بشرط أن يختار بالقرعة . ثم قسم كل قسم بدوره الى ٢٦٥ حيا سكنيا ينتخب كل حى ممثلا عنهم هو شيخ الحى Vicomagister يكون مسئولا عن تسجيل المواطنين فى قيود السجلات والابلاغ عن الحرائق واتخاذ اللازم بشأن اطفائها ومنع نشوب أى حريق . وقد قصد أغسطس بذلك القضاء على اللامبالاة التى سادت بين الناس وتجنب حدوث انفصام بين الشعب والحكومة ، واشعال نار الغيرة على المصلحة العامة . كما دفع نشوب عدد من الحرائق الكبرى أغسطس الى انشاء هيئة للحراسة ومكافحة النيران والحرائق وعهد بها الى نائب Praefectus urbi من طبقة الفرسان (٢) . وكانت هذه القوة تتكون من سبعة فرق من الفرسان Cohortes بلغ تعدادها الفا تقوم أيضا بحراسة المدينة أثناء الليل .

وفى عام ٢٢ ق . م احس أغسطس بقلق ازاء مشكلة تموين الغلال الى العاصمة . فعهد بذلك الى مسئول آخر بدرجة نقيب cura annonae ~~Praefectus~~ . واستصدر قانونا يعاقب بشدة كل من يتعرض لقوافل الغلال وهى فى طريقها الى العاصمة . وفى نفس العام عين « سيناتورين » يختاران من بين « البرايتوريين » السابقين ليشرفا على توزيع الغلال بالمجان على

---

(١) تم ذلك فى خلال اصلاحاته العسكرية عام ٦ ميلادية عندما جندت قوة من المحررين دربت على النظام العسكرى بالرغم أنها لم تعتبر من الناحية الرسمية قوة عسكرية وبدليل أن المؤرخ تاكيتوس اسقطها من عرضه لجيوش الامبراطورية عام ٢٣ م (Ann. IV, 5) وقسمت هذه القوة الى سبعة وحدات (Cohortes) يبلغ عدد كل منها ألف رجل وأصبحت كل وحدة تحرس حيين من أحياء روما الاربعة عشر

Watson, op. cit., p. 19.

(٢) انظر البحث القيم عن هذا المنصب :

G. Vitucci, Ricerche Sulla Praefectura Urbi in imperiale (Roma 1956).

فقراء وبروليتاريا المدينة . ولما كانت مهمة توزيع الغلال احدى مسئوليات السناتو فقد تلقى هذان المسئولان راتبيهما من الخزانة العامة . ولما أدرك اغسطس أن قوائم المتمتعين بأحقية شراء القمح المسعر قد زادت عن الحد الذى أراده يوليوس قيصر لها اضطر الى مراجعة القوائم مرة أخرى وتحديد عدد هؤلاء المتمتعين الى مائتين الف فقط واشترط على كل مستفيد أن يقدم اثباتا بأن أصله Origo من بروليتاريا المدينة وليس نازحا من الريف . وقد أدى انخفاض معدل المواليد فى العاصمة الى تجميد هـذا العـدد .

ومن بين الاصلاحات العامة فى مرافق العاصمة مشروع الجنرال أجريبا بانشاء مساقى وقنوات لمد العاصمة بالميـاه ، كما اهتم بترميم مجارى المياه فوق القناطر aqueducts ، وكان عددها ثلاثة أضاف اليهم اثنتين . كما أشرف على تعيين فريق لادارة شبكة المياه ، وعندما مات أجريبا عام ١٢ ق.م. عهد اغسطس بادارة مرفق المياه الى لجنة سيناتورية يشرف عليها ثلاثة أمناء curatores يخضعون لاشراف السيناتو . كما أضيف الى هذه اللجنة مهمة الاشراف على المعابد والمرافق العامة الاخرى وترميم ما يؤول للسقوط منها . كذلك ابدى أغسطس اهتماما كبيرا باصلاح وتعبيد الطرق ، ويروى ديو كاسيوس انه عندما وجد حالة الطرق خارج العاصمة قد ساءت أمر أعضاء السناتو باصلاحها على نفقتهم الخاصة واختار هو طريق فلامينيوس لينفق عليه من ماله الخاص .

وفى السنوات الاخيرة من حكمه أنشأ اغسطس قوة من ثلاثة فرق من الفرسان urbanae cohortes يبلغ تعدادها ثلاثة آلاف راكب يقودها نائب الخفراء Praefectus vigilum (٢) يختار من رجال السناتو أو القناصلة السابقين . وقد اعتبرت هذه القوة جزءا من الجيش الرومانى تخضع له فى الادارة والتمويل . كما ساعد الحرس البرايتورى فى تطبيق الأمن خارج العاصمة وفى أجزاء ايطاليا المختلفة .

---

(١) cf. Dio Cassius LIII, 16-32.

كان طريق فلامينيوس أحد الطرق الرئيسية الثلاث التى تقطع ايطاليا وكان يربط بين طريق ابيا الذى يبدأ من طرف الحذاء الجنوبى الشرقى حتى جنوب كايرى Caere حيث يبدأ طريق فلامينيوس صوب الشمال حتى يلتقى بطريق ايميليوس الذى يتجه نحو الشمال الغربى من ايطاليا وقد سمى هذا الطريق على اسم جايوس فلامينيوس الرقيب الذى أنشأه عام ٢٢٠ ق.م .

(٢) أنظر :

P.K. Baillie-Reynolds, The Vigiles of Imperial Rome (1926).

ب ـ الولايات :

ادرك اغسطس ان السلام ليس معناه تأمين العاصمة واصلاح المرافق فيها فحسب ، بل هو اصلاح وتأمين ولايات الامبراطورية التى تدر كل عام الضرائب والأموال والغلال لكى يستمتع بها المجتمع الرومانى العظيم ، ولذا رأى أنه يجب أن تؤمن من كل تهديد أو خطر . لقد وضع قادة العصر الجمهورى حدود روما العظمى وارتضى أغسطس بهذا الحدود ، ولكنه ادرك ان اى حدودة لا يجب أن تضم الا اذا كانت مناطق استراتيجية يسهل بواسطتها حماية الاراضى الرومانيـة بأقل التكاليف العادية والمجهودات الحربية ولحماية المستوطنين الرومان من ثورات الوطنيين فى هذه المناطق وحماية سكان بعض الولايات من سكان بعض الولايات ، لأنه كان ضد سياسة التوسع لذات التوسع .

وعلى العموم فان اغسطس لم يحبذ التوسع فى جبهتى آسيا والشرق الاوسط وفضل أن يحقق اغراضه فى هذه المناطق عن طريق « الدبلوماسية الوقحة » وسياسة التهديد والارهاب باستخدام القوة مثلما فعل مع البارثيين ، كما اعتمد على انشاء دويلات عميلة تقوم بعمل كلاب الحراسة buffer states وكنقاط متقدمة للجيش الرومانى وهو نظام عرفته السياسة الرومانية منذ عصر الجمهورية والتى سارت على مبدأ « قسم وأحكم » Divide et impera

وبالرغم من أن اغسطس ـ كما سبق أن ذكرنا ـ كان قد قسم بمقتضى اتفاق عام ٢٧ ق.م الامبراطورية الى ولايات تابعة له شخصيا وولايات تابعة للسناتو ، الا أنه لم يراع هذا الفارق فيما يختص بالامن القومى . وذلك لأن اغسطس احتفظ لنفسه بسلطة الامبريوم الاعلى Imperium maius وهى تفوق سلطة الامبريوم التى كان يتمتع به حكام الولايات من القناصل السابقين Pro-consules الذين كان السناتو يعينهم حكاما على الولايات التابعة له ، كما كان اغسطس يسيطر على السناتو ، وكان هذا الاخير لايقدر على بهاظة الثمن الذى قد يدفعه اذا ما فكر فى مخالفة الامبراطور . وهذا واضح من سلوك اغسطس عندما تدخل لاصلاح الظلم الاجتماعى الذى تسبب عن حكم الجمهوريين لولايتى كريت وقورينة عام ٧ ق.م واللتان كانتا ولايتين تابعتين للسناتو . ثم أصدر فى عام ٤ ق.م قرارا نشر فى ولاية قورينة بليبيا أوعزهبنفسه للسناتو يؤيد فيه اصلاحاته للظلم الذى وقع على ولاية قورينة معلنا تسهيل اجراءات مقاضاة الناس ضد اى مسئول رومانى يحاول ابتزاز أموالهم ظلما وعممه على كل الولايات الرومانية ، وخصص لجنة برلمانية من السناتو للتحقق فى مثل هذه القضايا وتقصى الحقائق بخصوص حوادث الابتزاز من جانب الولاة وعاملى الخراج الرومان ، واعلن اغسطس قراره لكى يعلم سكان الولايات جميعا مدى الصعوبات التى يتعلمها السناتو والامبراطور حتى لا يقع أحد من رعايا الامبراطورية ضحية الظلم أو

ابتزاز . هذه الكلمات التى صدرت من فم الامبراطور نفسه تعبر عن جوهر الحكم الجديد وعن سياسته ازاء الولايات ، لقد كانت الفكرة فى راس اغسطس هو أن يجعل الاستعمار الرومانى استعمارا مستنيرا ينمى ولا يخرب يجز ولكن لا يسلخ . وبناء على ذلك فقد أعاد اغسطس النظر فى كافة أنواع الضرائب ، ولكى يكون عادلا فى تقدير الضرائب فقد امر باجراء احصاء كل اربعة عشر عاما لاعداد المواطنين وممتلكاتهم على ضوئه تفرض الضرائب بطريقة نسبية » وعهد الى صديقه وجنراله أجريبا للاشراف على تلك الهيئة ووضع جدولا ضريبيا يراعى عند فرض الضرائب .

الولايات والامبراطورية والولايات السيناتورية :

سبق أن أشرنا الى أن الولايات الامبراطورية ـ اى التابعة للامبراطور هى الولايات التى كان يعسكر فيها القوات الرومانية ، والولايات السيناتورية

---

(١) بفضل ثراء المصادر الاثرية ـ خاصة المكتوبة منها ـ والتى اكتشفت فى بعض ولايات الامبراطورية الرومانية امكن للعالم الكبير ميخائيل روستوفترف أن يؤلف عمله الضخم الذى أصدره فى عام ١٩٢٦ وهو

Social and Economic History of the Roman Empire.

والذى صدرت الطبعة الثانية منه عام ١٩٥٧ . وبالرغم من أن هذا العمل لا يزال المصدر الأول للباحث عن الأحوال السياسية والاجتماعية فى الامبراطورية الرومانية الا أن الاكتشافات الاثرية بفضل مجهودات علماء الآثار خاصة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتى غطت تقريبا معظم المناطق التى كانت ولايات الامبراطورية الرومانية « فيما عدا اسبانيا » غيرت المفهوم الاكاديمى للباحثين اذ بدا الاتجاه نحو دراسة العلاقة بين الحضارة الاغريقية الرومانية وبين حضارات الشعوب المحلية فى هذه الولايات وكان هذا واضح فى أعمال المؤتمر الثامن لعلماء الآثار الاغريقية الرومانية المنعقد فى باريس عام ١٩٦٣ . أنظر :

Huitème congrès international d'achréologie classique (Paris 1963) : Le rayonnement des civilizaton grecque et romaine sur les cultures périphériques, Paris 1965.

ومن الدراسات الحديثة التى سارت فى هذا الخط مجموعة الابحاث التى تضمنها الكتاب الثانى .

Fergus Millar (with D. Berciu, R. Frye, G. Kossack and Tamara Tablot Rice), The Roman Empire and its Neighbours, Weidenfield & Nicolson Universal Library (English edition 1967).

هذا بالاضافة الى المراجع القديمة التى لا تزال مفيدة مثل :

Theodore Mommsen, The Provinces of the Roman Empire (1909) ; V. Chapot : The Roman World (1928) ; A.H.M. Jones, Citites of the Eastern Roman Emiper (1937).

أما الكتب الاخرى التى عالجت بعض ولايات الامبراطورية بالتفصيل فقد اشرت اليها عندما تعرضت لهذه الولايات .

هى الولايات التى لم تحتاج الى قوات عسكرية لتأمينها ، ولكن فى بعض الظروف كان اغسطس يحرك جيوشه الى ولايات السناتو لاتمام عمليات عسكرية مثلما فعل فى ولايات مقدونيا والليريكوم وافريقيا ، كما سلم اغسطس الولايات التى هدأت تماما وتشربت بروح الثقافة الرومانية الى السناتو مثلما فعل بولاية الغال القريبة Gallia Narbonensis التى حولتها عمليات الاستيطان المضطرد الى أشبه بجزء من ايطاليا وليس ولاية رومانية ، وكذلك فعل باقليم باتيكا Baetica الاسبانى ، كما فصل اقليم البيلوبونيسوس فى جنوب بلاد اليونان وجعله ولاية مستقلة تابعة للسناتو وسماه ولاية اخيا Achaia. الذى كان قسما تابعا لمقدونيا ، كما استولى اغسطس على ولايات كانت تابعة للسناتو بسبب الطوارىء والظروف فمثلا انتزع من السناتو فى عام ١١ ق.م ولاية الليريكوم التى كان يحلم قديما باكمال فتحها قبل نشوب الحرب ضد انطونيوس وكليوباترة . وكانت هذه المنطقة اليوغوسلافية تشتهر برجال قبائلها المقاتلين والذين كانوا يقومون بأعمال المقاومة المستمرة ضد المحتلين الرومان (١) . كما استولى اغسطس على ولاية كيليكيا ثم استولى فى عام ٦ ميلادية على جزيرة سردينيا . كما كان اغسطس يحتفظ لنفسه بالمقاطعات التى يفتحها رجاله وجنوده . وهكذا كان السناتو شريكا اسما وليس من الناحية الفعلية — للامبراطور فى حكم الولايات .

وبين الحين والاخر سمح اغسطس لبعض المقاطعات بالاستقلال المحلى فى اطار الامبراطورية (٢) . فمثلا كانت هذه المقاطعات او المدن حرة فى تسيير شئونها الداخلية وغير ملزمة بدفع ضرائب لروما ولكن من ناحية الدفاع والسياسة الخارجية فقد كانت تتبع الامبراطورية وكانت هذه الامارات ملزمة بالمساهمة فى الحملات العسكرية اذا اقتضى الامر ، وكثيرا ما كانت حكومات هذه الامارات « عميلة » لا يبقيها فى الحكم شىء سوى قوة السلطة الرومانية ، وكان استقلالها صوريا وينطبق ذلك على موريتانيا Mauretania وتراقيا Thracia . ومقاطعة يهوذا فى فلسطين Judaea ، وكذلك جالاتيا Galatea ، وكابادوكيا Cappadocia ، وارمينيا الصغرى ، واخيرا ارتأى اغسطس تحويل مقاطعة يهوذا ومقاطعة جالاتيا الى ولايات رومانية دعما للسلام الرومانى .

---

(١) من هذه الولاية قدر لسلسلة من رجالها ابتداء من كلوديوس القوطى حتى دقلديانوس وقسطنطين ان يتولوا عرش الامبراطورية وينقذوها من التصدع وذلك ابان القرن الثالث الميلادى وعرفوا باسم الأباطرة الالليريين .

(٢) يتطبق ذلك على ولايات الشرق الافريقية الحضارة والتى كانت فى الأصل ممالك تقودها مدن هللينستية وكان زمام الحكم فى هذه المدن يقع فى ايدى طبقة مثقفة برجوازية تربطها صلات قوية بالطبقات الحاكمة فى روما

انظر :

G. W. Bowersock, Augustus and the Greek World, (Oxford 1962), p. 122.

اصلاح حكم الولايات :

ظلت السلطـــة الرومانية تفرض نفسهـــا على الولايات فى العصر الامبراطورى بنفس الصورة التى كانت عليه ابان العصر الجمهورى . فقد كان حكام الولايات يختارون بالقرعة من بين المرشحين لهذا المناصب من القناصل والبريتوريين السابقين ، وكان يشترط أن يكون قد مضىّ على القنصل عشر سنوات منذ تركه للوظيفة وعلى البرايتور خمس سنوات حتى يصبحان مؤهلين لشغل هذا المنصب ، وكان حاكم الولاية يسمى برو قنصل Pro-consul سواء سبق له تولى القنصلية فعلا أم لا ، بالرغم من انه كان يشترط على حكام ولايتى اسيا وافريقيا أن يكونا بالفعل قنصلين سابقين . وكانت مدة سريان المنصب عام واحد ، وكان يساعد البروقنصل هيئة يوافق على اختيارها الامبراطور وتتكون من الكوايستور (المفتش المالى) وثلاثة مندوبين قضائيين بروبرايتوريين) . أما فى الولايات التابعة للامبراطور فقد كان قائد قواته فيها يعتبر مندوبا Legatus عنه فى حكم الولاية والتزم بذلك اسما ووظيفة . اما اذا كانت الولاية هامة وتقتضى عناية خاصة عندئذ كان الامبراطور يعين نوابا عنه بدرجة بروبرايتور Legati Augusti Propraetoriani يختارون من رجال السناتو الذين سبق لهم التمتع بسلطة القنصلية أو البرايتورية دون النظر الى شرط انقضاء فترة معينة ما بين تركهم هـــذه السلطة وترشيحهم للوظيفة الجديدة . واستثنى من ذلك نوابه لحكم مصر لأنهم كانوا يختارون من طبقة الفرسان ويتمتعون بلقب والى مصر Praefectus Aegypti وكان تحت تصرف والى مصر ثلاث فرق رومانية . اما باقى الولايات الصـــغرى التابعة للامبراطـــور فكان يحرسـها حاميات من القوات المساعدة ويحكمها الوالى أيضا ولـكن غير اســمه فيما بعـــد فأصـــبح « الامين » Procurator فى الولايات الكبرى كانت تعسكر الفرق الرومانية يقود كل منها آمر فرقه legatus legionis (١) وكان امر الفرقه خاضـعا لنائب الامبراطور تماما كما كان يخضع للامناء Procurators ، وكان كل من الولاة والامناء يعينون شخصيا بقرار من الامبراطور ولا يخضعون لأى سلطة غير سلطته الشخصية . كما كان نواب الامبراطور وأمناؤه لا يخضـعون للمدة المحددة التى تحددها الوظائف الاخرى ، بل كانوا يمارسون عملهم ما دام الامبراطور راضيا عنهم وما لم يحتاج اليهم فى مهمات تقتضى مغادرتهم الولاية . ولما كان الامبراطور هو الذى يعينهم كان الامبراطور هو هو الذى يقيلهم . وهو الذى يصرف الرواتب لحكام الولايات ســـواء الامبراطورية أو السيناتورية وبذلك قضى على دوافع النهب والاستغلال

---

(١) فضلت أن أترجم لفظ legatus legionis بآمر الفرقة وهى أصـدق ترجمة فى نظرى وحتى نفرق بين هذه الرتبة وبين الوظيفة السياسية لنفس الكلمة وهى منـدوب الامبراطور لحكم ولاياته .

خريطة الإمبراطورية الرومانية
ودولتيها الشرقية والغربية
(القرن الثالث الميلادي)
بحر الشمال
بريطانيا
Baltic Sea
القبائل الجرمانية
Sarmatians
السرماتيون
مملكة بوسبورا
(تحت النفوذ)
داكيا
البحر الأسود
القوقاز
أرمينيا
تحت النفوذ الروماني
بارثيا
Parthia
بحر قزوين
سوريا
تيصرية
مشبه جزيرة العرب
كورسيكا
سردينيا
مقدونيا
غاليا
بلجيكا
إقليم برقة
ليبيا
موريتانيا
غلاطيا

التى عانت من جرائها شعوب الامبراطورية الويل والعذاب (١) وأصبح حاكم الولاية عرضة للحساب العسير أمام الامبراطور .

وقبل ان ننهي الحديث عن ولايات الامبراطورية يجب ان نضيف أن اغسطس لم يكن عبقرية عسكرية بقدر ما كان عبقرية تنظيمية ، وبالرغم من أنه كان مستنيرا ومتحكما فى أطماعه الا أنه لم يقاوم اغراء التوسع الذى تقتضيه العظمة الرومانية Gloria وخاصة وانه كان يعتقد بأنه أعظم من حكم روما وهو محق فى ذلك فلا نعرف حاكما أضاف الى الامبراطورية بلادا جديدة مثلما أضاف أغسطس . واذا كان أغسطس يدعى فى كل غزوة يقوم بها بأنه يقوم بعمل مشروع Bellum iustum لانه دفاعى ، كما أن شعراء البلاط الاوغسطى هللوا وكبروا بالتوسع واعتبروه عظمة روما فكشفوا نواياه الحقيقية . ونستطيع أن نصف سياسة أغسطس بأنها سياسة استعمارية توسعية ولكنها سياسة ذكية تعرف حدودها التى لا يجب أن تتعداها . وعلى ذلك نستطيع ان نوجز « العمليات الدفاعية » فى الولايات الرومانية كما يلى :

١ — مصر :

كانت مصر اغنى ولايات الامبراطورية الرومانية وأهمها استراتيجيا وتجاريا ، فقد كانت هى و ولاية افريقية تمد الامبراطورية بحوالى خمسة ملايين مكيال رومانى من القمح وهو ما يعادل ثلث الكمية التى يستهلكها الشعب الرومانى سنويا .

وكان امل روما فى الاعتماد على القمح المصرى كبيرا ، فقد ذكر أوريليوس فكتور Aurelius Victor المؤرخ الذى كان يشغل وظيفة حاكم بانونيا عام ٣٦٠ ميلادية والذى كتب تاريخ الامبراطورية من اغسطس حتى قسطنطين الثانى — أن روما كانت تحصل من مصر فى بداية عصر اغسطس على ما يعادل مليون أردب قمح بالمعيار المصرى سنويا ، بل ان اعتماد روما على القمح المصرى بدأ منذ أيام البطالمة ، وقد أدى تدفق القمح المصرى الجيد والرخيص الى كساد زراعة القمح فى ايطاليا حيث لجأ الفلاحون الايطاليون الى استبدال مزارع القمح بمزارع الكروم ، ولهـــذا كتب المؤرخ تاكيتوس بأسلوب ساخر عن انتهاء عصر اعتماد ايطاليا على ما

---

(١) cf. H.D. Meyer, Die Ausserpolitik des Augustus and die , Augusteische Dichtung, München (1958), pp. 130 off.

وقد ذكر سوسيتونيوس أن اغسطس [illegible] ولايات الامبراطورية فيما عدا سردينيا وولاية افريقية لانه لم يجد الفرصة لزيارتهما .

Suetonius, Divus Augustus, 25.

also. cf. : [illegible] pear and L.K. Gewcke. Augustus and the Reconstruction of the Roman Goverment and Society, Madison [illegible]

تنتجه من القمح وبداية الاعتماد على القمح المصرى وقال بالحرف الواحد «ان ايطاليا لم يصبها الجدب ، لكننا نفضل استغلال افريقيا ومصر ، لقد أصبحت حياة الشعب الرومانى رهنا بالسفن » (١)

وبالنسبة لغيرها من الولايات كانت مصر ولاية هادئة ، لم يحدث فيها ما يعكر صفو السلام الرومانى اللهم الا بعض الثورات الصغيرة التى قامت فى الجنوب وبعض القتال قرب الحدود الاثيوبية ، اذ تعرضت مصر لبعض الغزوات من جانب الاثيوبيين خلال عام ٢٩ ، ٢٥ ، ٢٢ ق.م ، وقد قام كورنيليوس جاللوس ، أول وال عينه أكتافيوس اغسطس على مصروهو من الم رجال الفرسان وكان شاعرا وصديقا لفرجيل أمير الشعراء الرومان — بحملة تأديبية ضد النوبيين فى عام ٢٩ ق. م الذين حرضوا مدينة طيبة على الثورة ، وبعد سحق الثورة فى طيبة قرر الوالى أن يؤمن حدود مصر وحدود الامبراطورية فى افريقيا ، فسار حتى اسوان ثم الى جزيرة فيلة (قصر انس الوجود) وقبل عقد اتفاق مع ملكة النوبة بجعل منطقة عازلة ما بين مصر والنوبة ويبلغ مساحتها تقريبا ٢٣٣ كيلو مترا وتقع ما بين الشلال الأول والثانى ، واشترط أن تكون هذه المنطقة العازلة تحت النفوذ والحماية الرومانية . وقد ترك كورنيليوس جاللوس أخبار اعماله فى طيبة والنوبة منقوشة على حجر من الجرانيت عثرنا عليه فى جزيرة فيلة مكتوب باللغات المصرية واللاتينية واليونانية ومؤرخ فى ٢٠ من برمودة الموافق الخامس عشر من ابريل عام ٢٩ ق.م وهو العام الأول لحكم الرومان ، وتفاخر بأنه أول والى رومانى يعين على مصر بعد فتحها ، وتباهى بأنه قمع الثورة فى طيبة التى كانت مصدر ازعاج للملوك السابقين(٢) وركب الغرور الوالى فنسى نفسه ونسى حدوده فسمح بأن تقام له التماثيل وأن تنقش أعماله على واجهة المبانى العامة بل وعلى الأهرامات ، وبالرغم من أن لهجته لا تحمل أى مساس بالأمبراطور أو توحى بالتمرد عليه ، الا أن اوكتافيوس اغسطس كان يعرف مدى الخطورة لو ترك الوالى يسلك هذا السلوك ، اذ كان يخشى على مصر من الأنفصال عن الأمبراطورية وهى الصومعة التى يعيش عليها الرومان ، ومن ثم استدعى كورنيليوس جاللوس الى روما وأوعز للسناتو أن يكيل له الاتهامات ، فعزل من منصبه وصودرت ممتلكاته ثم نفى من البلاد ، ولم يتحمل الوالى هذه الصدمة فأخذ حياة بيده فى عام ٢٧ ق.م حيث رثاه فرجيل صديقه الحميم .

وكان الوالى الثانى يدعى أيليوس جاللوس وهو لا يمت بأى صلة قرابة الى الوالى الأول ، وقد شغل نفسه بمشروع فتح اليمن وفى أثناء غيابه هناك استغل النوبيون خلو مصر من الفرق العسكرية وعاودوا الهجوم على حدود مصر الجنوبية ناقضين بذلك الاتفاق الأول ، وهزموا الكتائب الثلاث التى كانت تقوم بحراسة الحدود الجنوبية ، واستولوا على سيلة وأسوان والفانتين ونهبوا اموال وممتلكات الناس وسرقوا تماثيل أغسطس وحملوها معهم . عندئذ اصدر اغسطس اوامره الى أحد قواده من الفرسان

(1) Tacitus, Amales, XII, 43.

انظر مصطفى العبادى : مصر الاسكندر الى الفتح العربى الانجلو المصرية ١٩٦٦ ص ١٤٣ .

(٢) أنظر عبد اللطيف أحمد على ، المرجع السابق ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

واسمه جايوس بترونيوس بالتعامل مع النوبيين نظرا لانشغال الوالي فى حرب اليمن ، وقاد بترنيوس حملتين الأولى قام بهـا فى عام ٢٧ ق.م والثانية عام ٢٢ ق.م طارد فيها النوبيين جنوبا حتى السودان واستولى على نباتا عاصمة النوبيين (جبل البرتل) ودمرها ، وهنا طلبت الملكة النوبية — أو الكنداكه — عقد السلام مع الرومان ، وأوفدت رسولا قابل الامبراطور اغسطس فى جزيرة ساموس فى شتاء عام ٢١ — ٢٠ ق.م وابدى الامبراطور استعداده لحل المشكلة النوبية وقبل سحب قواته من جنوب النوبة والاكتفاء باحتلال المنطقة الواقعة ما بين أسوان ومدينة الحرقـة (هيرا سيكا مينوس) وجعلها منطقة عازلة ، واصبح بذلك حـدود الامبراطورية هو الشلال الأول . وبقيت حدود مصر آمنة لما يقرب من ثلاثة قرون من بعده ، حيث أقام الامبراطور حامية رومانية وبنى تحصينات دفاعية حفظت السلام فى الجنـوب .

وقد بلغ الخوف بأغسطس أن ترك فى مصر ثلاثة فرق رومانية واحدة فى الاسكندرية والثانية فى منف والثالثة فى طيبة ، فضلا عن عدد من فصائل الخيالة التى تركها لحماية حدود مصر الشرقية والغربية وعند مدخـل الفيوم وفى مدينة الأشمونين ولحراسة الطرق المـؤدية الى موانى البحـر الأحمر . وقد بلغ حجم القوات الرومانية فى مصر حوالى ٢٢٫٨٠٠ جندي وهو يفوق بكثير متطلبات الموقف ويعكس القلق السياسى الذى كان يسيطر على الامبراطور خوفا من أن تستغل مصر او يستقل بها احد ولاتها ومن ثم حرم على رجال السناتو ومشـاهير رجال طبقة الفرسان تولي الوظائف فيها أو حتى دخولها الا باذن خاص منه . وسرى هذا الحظر حتى على آل البيت الأمبراطوري ذاته ، وظل سارى المفعول يطبق كما أراده اغسطس حتى القرن الثالث الميلادى عندما بدأ خير مصر يقل ولم تعد الصومعة التى تعيش منها الرومان ، وعندما بدأت شمال افريقيا تحل محلها كمصدر بديل للقمح .

ولم يشأ الأمبراطور اغسطس أن يدمج مصر ادماجا كاملا فى الأمبراطورية الرومانية نظـرا لمشاكلها الكثيرة وللتركيب الغـريب لمجتمعها السـكانى والعنصرى ، بل ايضا خوفا من أن تصبح مطمعا لجباة الضرائب من رجال الفرسان الذين يتحرقون شوقا منذ أيام يوليوس قيصر واواخر عصور البطالمة الى نهبها لما سمعوه عن خيراتها وتراثها وقمحها ، ومن ثم اراد اغسطس أن يكون النهب من جانب واحد يشرف هو بنفسه عليه بحيث يكون النهب منظما وعاقلا تماما مثـل نظرة صاحب الضيعة الى ضيعته ، وبالرغم من أن مصر كانت ولاية Provincia حسب التعـريف القـانونى الروماني أو ايبارخيا Eparchia وهو اللفظ المقابل فى اللغة الاغريقية التى كانت لغة الدواوين ولغة الشعب فى مصر منذ فتح الاسـكندر حتى الفتح العربى ، وكان بها قوات عسكرية ويستغل خيرها لصالح الشعب الروماني ، ولكن بعكس سائر الولايات جعل واليها من طبقة الفرسان الموالية للأمبراطور رغم أنه ليس من حقها تولي المناصب الادارية العليا ، ومن ثم منح الامبراطور واليها سلطات مؤقتة تزول بزوال السبب ليحكم مصر نيابة عن الأمبراطور ، بل كانت مصر هي الولاية الوحيدة التي منحت حق سك

نقودها التى لا تجرى الا فيها فقط منعا لاستنزاف اقتصادها ، وفى نفس الوقت عادل العملة السكندرية من فئة الاربعة دراخمات بالدينار الرومانى تسهيلا لتقدير الضرائب وللتجارة المتبادلة ، وظل هذا الحق ساريا حتى الغاه ديوقلديانوس عام ٢٩٥ ميلادية عندما أدمج مصر ادماجا كاملا وشاملا فى الأمبراطورية .

وقد صاحب عملية تأمين مصر القضاء على الثورات فيها وتكبيلها بثلاثة فرق كاملة وعددا من فصائل الفرسان وهو يفوق الحاجة ، ثم تقسيم مصر الى ثلاثة أقسام ادارية كبرى هى الدلتا ومصر الوسطى واقليم طيبة وجعل على راس كل منها نائبا للوالى لحكمها واشترط أن يكون هذا النائب رومانيا او حاصلا على على الجنسية الرومانية تماما مثل الوالى وقاضى القضاه وأمين الخزانة وامين الحسابات الطارئة والذين كانوا جميعا يقيمون فى الاسكندرية ولا يغادرونها الا فى دورات تفتيشية ، وكان هدف الأمبراطور من هذا التقسيم الادارى القضاء على حركات الانفصال فى الوادى والتى سادت طوال تاريخ مصر الفرعونية والبطلمية ، ومن أجل هذا قلم أظافر المعابد واشرف على ميزانياتها وزراعة أو تأجير اقطاعياتها وسلب منها حق منح الحماية لمن يلوذ فرارا من دين أو عقاب .

ولما كانت الزراعة قد اهملت فى أواخر عصر البطالمة حيث ردمت المصارف والترع والرياحات وجارت الصحراء على الارض الخضراء مما أدى الى ضعف الانتاج الزراعى ، فقد بدأ اغسطس ثورة زراعية وامر جنوده بالعمل فى مشروعات الرى والصرف والاصلاح كصاحب الضيعة التى ورثها مهملة ويريد اصلاحها ليستغلها بأقص درجة ممكنة .

كذلك أراد اغسطس أن يستغل وضع مصر الاستراتيجى لخدمة التجارة بين الشرق والغرب والتى تعود بالنفع على أهل الاسكندرية التى كان يعمل اغلبهم بالتجارة ، ومن ثم انشأ أسطولا يعمل بانتظام بين الاسكندرية وايطاليا ، وفى نفس الوقت ربط بين التجارة القادمة من الهند وسيلان عبر المحيط الهندى ثم الى البحر الأحمر ثم تنقل التجارة برا عن طريق القوافل سواء فى وادى الحمامات الى الموانىء النيلية عند « قفط » لتنقل بالمراكب الشراعية الضخمة حتى الاسكندرية وهكذا لأول مرة فى تاريخها سيطرت مصر على التجارة بين الشرق والغرب وقد ساعد تقدم العلوم البحرية والمناخية على تشجيع الملاحة فى البحر الأحمر الذى تحول الى بحيرة نشطة بعد أن كان بحرا مهجورا وبدأ التجار ينقلون منتجات الهند وأفريقيا مثل التوابل والعطور والعاج وريش النعام والذهب الخ الى ايطاليا عن طريق الاسكندرية ، وأصبحت هذه المدينة مقرا لكبار التجار وحيث تجرى فيها صفقات التصدير والاستيراد بل تكونت شركات دولية فى بعض الأحيان لهذا الغرض . وقد عاد هذا النشاط التجارى بالرخاء على الاسكندرية .

ولم يحاول اغسطس أن ينشر اللغة اللاتينية أو يقيم فيها مدنا على النظام الايطالى مثلما فعل فى شمال أفريقيا أو بلدان الشرق لانه ادرك قوة المقاومة الحضارية سواء الفرعونية الخالصة أو المصرية الاغريقية ، واكتفى بأن تكون العلاقة بين مصر وروما علاقة استغلالية كعلاقة الفلاح بالبقرة لا يهمه لونها أو جمالها بقدر ما يهمه كمية اللبن التى تدرها ، ولهذا فرضت الضرائب بكل أنواعها فكان منها ضرائب مباشرة مثل ضريبة حيازة الأرض ومقدارها خمس المحصول تقريبا ، وضريبة الراس او الجزية التى فرضت بالكامل على الفلاحين المصريين وخفضت الى النصف بالنسبة لانصاف الاغريق القاطنين فى عواصم الاقاليم بينما أعفى منها اهل الاسكندرية تماما ، ودفعها اليهود المصريين مخفضة ، وضريبة المهن والحرف ، ثم سخرة تطهير القنوات وتقوية السدود وكانت مدتها خمسة أيام من العمل أو أجر هذه الأيام ، أما الضرائب الغير مباشرة فهى ضريبة البيع والجمارك والمكوس فرضت على التجار وكان أ.لبهم من الأغريق وكانت تتراوح ما بين ١٠ و ٢٠٪ من قيمة البضاعة المستوردة أو المصدرة ، محلية الصناعة او مستوردة وكانت ضريبة الملح والنطرون nitrike من أهم هذه الضرائب ، ثم الضرائب على البضاعة المنقولة عبر النيل ، وكذلك رسوم القضايا وتسجيل العقود والغرامات .

كما فتح أغسطس الطريق للحصول على الجنسية الرومانية للحاصلين على حقوق المواطنة فى مدينة الاسكندرية أو للمتطوعين فى القوات المساعدة الرومانية خاصة فى الأسطول بعد قضاء ما يقرب من خمس وعشرين عاما وهو ثمن باهظ مات قبل أن يحققه الكثيرون وكان للجنسية الرومانية مزايا مادية مثل الاعفاء من ضريبة الرأس والسخرة والتمتع بحماية القانون والوضع الممتاز والتسامى النفسى ، هكذا بقيت مصر فى وضع معزول وبقيت الاسكندرية — التى اعتبرها الرومان مجاورة لمصر وليست مصرية — عاصمة للولاية كما اراد لها الاسكندر الأكبر وخلفاؤه من ملوك البطالمة ؛ بل أصبحت أيضا المركز العلمى والحضارى والثقافى وهاجرت اليها الحضارة من بلاد اليونان بعد أن تدهور حالها هناك ؛ بل قامت الاسكندرية بدور الوسيط بين الحضارة المصرية ذات الأسرار المطوية وبين الحضارة العالمية الاغريقو رومانية ، وبفضل الاسكندرية تعرف العالم الرومانى على أسرار المصريين وانتشرت بينهم دياناتهم مثل عبادة ايزيس وسيرابيس وهاربوقراطيس ، فضلا عن السحر وتفسير الاحلام .

أما الوادى أو «الخورا» وهو الشريط الضيق الطويل من الارض الزراعية ... تمتد من خارج الاسكندرية حتى أسوان جنوبا ، فقد كان يسكنه الفلاحون المصريون باستثناء عواصم المدن المصرية أو المدن الاغريقية — حيث يسكن طبقة ثرية من الاغريق المستوطنين تملك الأرض والمال لكنهم كانوا مختلطين بالمصريين سواء من ناحية زوجاتهم أو أمهاتهم ولهذا اعتبرهم الرومان انصاف اغريق تدفع نصف ضريبة الراس ، أما ... ذهبوا للعيش فى الريف المصرى بعيدا عن المدن فقد ذهبوا

تماما مع الفلاحين المصريين مكونين حلقـة تجميع بين خصائص الشعبين الفكرية واللغوية والسلوكية .

لقد كانت « الخورا » هى مصر الحقيقية ، حيث الحضارة الفرعونية العريقة والتى تمتد عبر ثلاثة آلاف سنة قبل مجىء الاغريق ، لم يؤثر فيها الغزو الحضارى الاغريقى كثـيرا ، بل على العكس دعم من كبريائها ومسئوليتها ، بل دخلت معهم فى دور التحدى من أجل البقاء .

ولهذا نرى التناقض واضحا بين آثار مدينـة الاسـكندرية وبين الآثار التى نعثر عليها فى الأجزاء الأخرى من الوادى ، صحيح أن الحضارة المصرية طعمت فى بعض الجوانب بالحضارة الاغريقية لـكنها بقيت مصرية خالصة روحا وجوهرا ، حتى فى المدن والتجمعات الاغريقية فى الوادى نجد الطابع والتأثير المصرى يغلب عليها ويصبح الفن الاغريقى صورة باهتة تبتعد تدريجيا عن الروح الاغريقية الخالصة ، بل وصل تيار التمصـير الى بعض أحياء الاسكندرية ذاتها .

لكن بقيت الاسكندرية ينبوعا للحضارة والثقافة الاغريقية الراقية ، التى امتدت حتى الى الكتابات الدينية التى كتبها اليهود وآباء الكنيسـة المرقسية ، فقد كتب فيلون باللغة الاغريقية الراقية موضوعات يهودية بحته وذلك فى النصف الأول من القرن الأول الميلادى ، فقد ترجم فيلون التوراة (العهد القديم) بلغة اغريقية مبسطة ، لـكن تشـوبها الروح الفلسفيـة الأفلاطونيـة الأصيلة لكى يخاطب بها قومه اليهود الذين كانوا لا يتكلمـون العبرية ، بل ايضا لكى يخاطب السكندريين أنفسهم .

ومنذ اواخر القرن الثانى بدات الاسكندرية تبرز كمركز للدراسات اللاهوتية الكنسـية ممثلة فى كتـابات القـديس كليمنت St. Clement ، والقديس اوريجينس Origines ، ورسائل ديونيسيوس أسقف الكنيسة السكندرية (٢٤٧ – ٢٦٤ م) وهى التى بنى عليها يوسيبيوس Eusebius مؤلفه الكبير « التاريخ الكنسى historia Ecclesiastica » .

فضلا عن هذا فقد ساهمت مصر فى الكشف عن تاريخ الامبراطورية الرومانية بالآلاف من الوثائق البردية . التى نعثر عليها فى أكوام النفايات خارج القرى المصرية القديمة أو فى المنازل والمقابر ، أو نجدها فى موميات التماسيح المقدسة واحيانا فى موميات البشر ونرفع هذه الوثائق وتفـرد وتعالج كيمائيا ثم تقرأ ، وتعكس هذه الثروة الوثائقية صورة رائعة لمجتمع مصر تحت حكم الرومان بل وتضىء جوانب عديدة من تاريخ الامبراطورية ذاتها ، انها وثائق كثيرة ومتنوعة وحية ، تغطى كل جوانب الحياة ، ابتداء من روائع الأعمال الأدبيـة الكلاسـيكية والتى يجىء على راسـها الي اذة هوميروس وتراجيديات المسرح الأغريقى وبعض الكوميديات وأعمال بعض الفـلاسفة والخطباء والمؤرخـين والتى كان يقرؤها الـ..ـلة المثقفة من الارستقراطيين سواء من الاغريق المصريين أو المصريين المتأغـرقين ، كما

نعثر أيضا على بعض الأعمال الأدبية المكتوبة باللاتينية ولكنها لا يمكن أن تقارن أبدا بحجم التراث الاغريقى .

اما الوثائق غير الأدبية فهى كثيرة ومتنوعة منها التمارين والواجبات التى يقوم بها التلاميذ الصغار والموضوعات الانشائية التى يكتبها الكبار ، والمراسلات والخطابات التى يرسلها الناس لأصدقائهم حيث كان المسافرون يقومون بدور سعاة البريد للآخرين ، وهذه المراسلات طريقة تكشف عن أسرار الناس ومشاكلهم وهمومهم ومشاغلهم ، كما تشمل الوثائق عقود الزواج والطلاق ، والشكاوى أو البلاغات التى يتقدمون بها ضد بعضهم البعض ، وبراءات دفع الضرائب ، وعقود العمل وعقود البيع والرهن والايجارات ، وقوائم السخرة وملفات الضرائب ، والقرارات الرسمية واللوائح القانونية ، وشهادات الميلاد ودعاوى العشاء والأفراح ، كلها تعطينا صورة مباشرة وحية للناس وللادارة الرومانية ، وللواقع الاجتماعى والنفسى الذى عاشته الآلاف من الكادحين الذين عرفوا وكدوا لكى يستمتع الرومان بنتائج أعمالهم وماتوا وهم يجدفون فى أساطيلهم وفى تكنات جيوشهم للدفاع عن امبراطوريتهم ، انها وثائق عفوية وبسيطة وصادقة وبعيدة عن حذلقة المؤرخين والمتفلسفين والمزورين للتاريخ ، انها وثائق تعكس دراما الحياة بحلوها ومرها فى شعب مقهور وفى لحظات مظلمة من تاريخه المجيد .

هذه الوثائق المكتوبة باللغة الاغريقية المصرة هى أثمن ما قدمت مصر للمهتمين بتاريخ الامبراطورية الرومانية ، وهناك عدد محدود من الوثائق مكتوبة باللغة اللاتينية خاصة ما يتعلق بالجيش الرومانى فى مصر أو القانون والتشريعات ، وقليل منها أعمال أدبية لاتينية التى كان يقرؤها ابناء الجالية الرومانية . أو جاءت مع الجنود الرومان أو التجار أثناء تحركاتهم بين ولايات الامبراطورية المختلفة .

والى جانب ذلك فهناك الآلاف من قطع العملة التى تروى التاريخ الاقتصادى لمصر وتكشف عن الأحداث الهامة والشخصية فى حياة الأباطرة الرومان والأمانى الدفينة فى نفوس المشرفين على سك هذه العملة ، وبعضها قطعا نادرة لأباطرة لا يعرف عنهم المؤرخون الكثير .

وهناك أيضا شواهد القبور التى نعثر عليها فى الدلتا والصعيد وخاصة فى مقبرة الطرانة (مركز كوم حمادة محافظة البحيرة) والتى كانت مدينة هامة مصدرة للنطرون وللاحجار ، وشواهد القبور تعكس الوضع الاجتماعى والثقافى لحياة السكان ومتوسط العمر الذى يعيشه الفرد والمهن والمستوى الاجتماعى لهذه المهن حسب نوعية القبر وعندما ننتهى من دراستها سوف نقدم معلومات جديدة تكون فى خدمة الباحثين (١)

وهناك أيضا النقوش التى كشفت عن سلوك الرومان ازاء سيرة البطالمة ، وعرفت المعابد والآلية التى أقيمت من اجلها وهناك ايضا الاف الشقافات المكتوبة التى كانت تستخدم كبراءات لتسديد الضرائب ، وفى

(1) S.A. El-Nassery, G. Wagner, New Stelai from Kom abu Bellou, BIFAO, 1977. (under print)

كل اليوم يكشف الستار عن المزيد من هذه الأدلة ولن تتوقف المصادر المصرية أبدا عن العطاء (١)

والى جانب الوثائق المكتوبة باليونانية الدارجة ، هناك الوثائق المكتوبة باللغة المصرية سواء بالخط الهيروغليفى المصور على جدران المعابد التى بناها البطالمة واكملها الرومان او بنوها لأنفسهم ، والوثائق المصرية من العصر الرومانى كثيرة وتعكس العلاقة الوثيقة بين الكهنوت المصرى والسلطات الحاكمة ، وآخر نقش هيروغليفى يرجع الى عام ٢٩٦ ميلادية فى عصر ديوقلديانوس ، والى جانب النقوش الهيروغليفية هناك الوثائق المكتوبة بالخط الهيراطيقى الذى استخدم لكتابة النصوص الدينية على اوراق البردى ، وكذلك الخط الديموطيقى الذى استخدم بكثرة خاصة على الشقافات المتعلقة بدفع الضرائب وعقود الزواج وغيرها من المعاملات والعقود التى تمت بين السواد الأعظم من المصريين المتمسكين بلغة الأجداد ، بل ظهرت اعمالا ادبية بالخط الديموطيقى مثل تفسير الاحلام والنبوءات والأساطير القومية .

ومنذ نهاية القرن الأول الميلادى تظهر أولى المحاولات التى قام بها المصريون المتاغرقون أو ابناء الجيل المهجن لكتابة اللغة المصرية بالحروف الأبجدية الاغريقية ، خاصة تعاويذ السحرة التى تحتاج الى نطق دقيق وصوتيات معينة لاتقدر الأبجدية المصرية تحقيقها لأنها تخلو من الحروف المتحركة . وفى مطلع القرن الثالث الميلادى عندما بدات المسيحية تنتشر بين المصريين نجد نصوصا من العهد القديم مكتوبة بالاغريقية لكن مذيلة بشروح مكتوبة باللغة المصرية لكن بالحروف الاغريقية ، وتدريجا بد أالمصريون يجدون طريقة أيسر للكتابة وهى استخدام الحروف الاغريقية بعد ان أضافوا اليها سبعة حروف غير متواجدة فى الأبجدية الاغريقية وهى الشين والحاء والعين والجيم والفاء والخاء والكاف والدال والطاء . وبعضا من الكلمات الاغريقية التى ليس لها مثيلات فى اللغة المصرية لتولد اللغة والكتابة القبطية ، وكلمة قبطى تعنى « مصرى » وهى تحريف للفظ الاغريقى Aegyptikos وقد نبعت هذه المحاولة الناجحة تلقائيا وتدريجيا من الريف المصرى وليس من الاسكندرية . وسرعان ما تبنت كنيسة الاسكندرية الاغريقية الثقافة هذه اللغة والكتابة الجديدة لتسجيل صلواتها وشعائرها خاصة عندما بدات تنفصل وتأخذ لنفسها طابعا قوميا وكهنوتيا مستقلا يقوم على المونوفيسية اى الطبيعة الواحدة للمسيح ، وبذلك وصلت الكنيسة الى قلوب جماهير الفلاحين ، علما بأن هناك وثائق قبطية وثنية غير مسيحية توجد جنبا الى جنب مع الوثائق القبطية المسيحية . وبذلك اصبح لدينا نوع جديد من الوثائق التاريخية تضاف الى التراث الكبير .

وقد صاحب عملية ميلاد اللغة والكتابة القبطية عملية تطور فن مصرى ممزوج بالروح الاغريقية خاصة فى النحت على الحجر أو الخشب وفى صناعة النسيج والأوانى الفخارية وفى عمارة الكنائس حيث اطلق على هذه

(1) G. Wagner, S. EL-Nassery, «Une nouvelle dedicace au grand dieu Soxis, ZPE, 1975, Band 19, Heff, 2, 139-142.

النهضة الحضارية اسم حضارة مصر فى العصر القبطى وهى التى سادت منذ القرن الثالث وحتى الفتح الاسلامى بل اثرت فى الفن الاسلامى المصرى خاصة فى الرسوم والزخرفة التى نجدها على الأوانى وفى فن النسيج وغيرها .

ومن أهم الوثائق التى عثرنا عليها من هذه الفترة وثائق نجع حمادى التى عثر عليها عام ١٩٤٦ وهى تحوى ٤٨ نصا يبلغ مجموعها ألف صفحة ،يرجح انها كتبت ما بين اعوام ٢٥٠ — ٣٥٠م ، وقد عثر الفلاحون على هذه الوثائق محفوظة فى جرة كبيرة مدفونة فى احدى الجبانات ، وعن طريق دراستها تبين انها أبحاث لمدرسة دينية مسيحية أطلقت على نفسها اسم « العارفون بالله » ، ويؤمنون بأن الخلاص لا يتأتى الابالمعرفة ، وان المعرفة هى الايمان وأن الايمان القائم على غير معرفة باطل ، وأن هذه الطائفة هى التى اختصها الله بالكشف عن المعرفة . ويعتقد البعض أن هذه النصوص ترجمات لأعمال فلسفية منقولة عن الاغريقية ، ومن بين وثائق نجع حمادى كتاب بعنوان انجيل توما احتوى على ١١٤ موعظة للسيد المسيح سبق العثور على مثيلات لها فى مدينة أوكسيرنخوس (البهنسا) فى مطلع القرن العشرين ، وبعض هذه الأقوال معروفة من الأناجيل الأربعة ، وبعضها صيغ محرفة لهذه الأقوال ونوع ثالث لم يأت ذكره فى الأناجيل الرسمية وان جاء ذكره فى المصادر اللاهوتية الأخرى ، ونوع رابع وهو يحوى عظات جديدة تماما عددها أربعون موعظة كلها تحمل « الروح العارفية » وهى اغلب الظن من وضع شيوخ هذه الطريقة ، وبعضها عظات تقلد أقوال السيد المسيح تماما حتى تبدو كما لو كان قد قالها فعلا والفت لدعم الفكرة العارفية .

وخلاصة القول أن الامبراطور اغسطس أبقى على النظم الادارية والاقتصادية والحضارية التى كانت قائمة فى عصور البطالمة مع تعديل بسيط يهدف الى استغلال مصر وتحصيل أكبر دخل لروما سواء عينا أو نقدا ، ومن اجل ذلك وضع تعدادا سكانيا واحصاء للثروة يجرى كل أربعة عشر عاما لتقدير الضرائب ، ومن الناحية الطبقية اعتبر الرومان انفسهم حماة للحضارة الاغريقية من تيار التمصر ولهذا اعفوا الاغريق السكندريين من ضريبة الراس ، وخفضوها الى النصف بالنسبة لاغريق مدن الاقاليم ، وخفضوها بالنسبة الى اليهود ، بينما فرضوها كاملة على المصريين الخالصين الذين كانوا أجراء وفلاحين فقراء ، وبالطبع كانت الجالية الرومانية تجىء على راس هذا الهرم الاجتماعى .

كان الصبر والجلد هما سلاح الفلاح المصرى ، فكان يصبر حتى يعجزا الصبر عن صبره عندئذ يهرب من قريته سواء بمفرده أو فى جماعة وهده ظاهرة متكررة نسميها بالهروب الجماعى anachoresis اى هربامن الضرائب والديون ، وكان يلجأ الى قرى بعيدة لا يعرفه فيها أحد ، أوالى المدن الكبيرة أو الى الصحراء والآحراش ، وهذا الهروب نفسه هو الذى ادى الى ظهور فكرة الرهبنة والديرية فى العصر القبطى ، كذلك اتخذت المقاومة ضد الرومان سلاحا اخرهو الانتقام من اليهود عملاء الحكم الرومانى ولهذا عرفت مصر فى عصر الرومان حروبا طائفية دموية بدأت منذ عام ٣٨ ميلادية ولم تتوقف الا فى القرن الثانى الميلادى بعد استخدام الامبراطورية للعنف من أجل القضاء على هذه الظاهرة .

واخيرا اتخذت المقاومة المصرية شكلا جديدا وهو قبول المسيحية كدين مناقض للوثنية الرومانية ، ولم جاء فيها من الدعوة الى « الخلاص » ومعاداتها لفكرة عبادة الامبراطور الرومانى ، وصمد المصريون المسيحيون بشجاعة للاضطهاد الرومانى البشع الذى بلغ مداه فى اواخر عصر ديوقلديانوس الذى كانت كراهيته للمسيحية شديدة وانتقامه مروعا لدرجة ان الكنيسة المرقسية المصرية جعلت بداية تقويمها هو تاريخ تولى ديوقلديانوس العرش عام ٢٨٤م بالرغم من أن حركة الاضطهاد لم تبدأ الا فى عام ٢٩٩ ميلادية اى فى السنوات الأخيرة من حكم ذلك الامبراطور .

واخيرا اصبحت المسيحية امرا واقعا واضطر الأمبراطور قسطنطين الكبير أن يكسب ود القوى المسيحية الى جانبه اثناء صراعه مع خصومه الذين كان يؤيدهم الوثنيون ، فأعلن حرية العبادة بالنسبة للمسيحيين والوثنيين جنبا الى جنب ، وفى عصر ثيودوسيوس اعلنت المسيحية كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية كلها ، وهنا تمردت الكنيسة المصرية على الكنيسة الرومانية البيزنطية واتخذت طريقا مخالفا فى الفكر المسيحى ، وعاد الاضطهاد بشكل جديد ، فقد كان الاقباط يعاقبه مؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح بينما كان الرومان ملكيين يؤمنون بالطبيعتين للمسيح ، وكان اضطهاد الملكيين لليعاقبة المصريين بشعا ودمويا ، بل ويفوق فى بشاعته الاضطهاد الوثنى للمسيحيين ، وهرب الأقباط وآباء الكنيسة الى الكهوف والجبال والصحارى والأماكن النائية ، وهنا بدأت فكرة الأديرة والرهبنة تتبلور وتأخذ طابعا منظما وثابتا ، وظلت الكنيسة المصرية تقاوم باصرار متمسكة بآرائها حتى مهدت لدخول العرب الذين كانت تربطهم بهم

صلة مصاهرات ومعاملات قديمة ، واعتبروهم محررين لهم من ظلم الرومان وذلك فى عام ٦٤١ ميلادية .

٢ — شمال أفريقيا :

لعبت ولاية شمال افريقيا دورا خلاقا فى الامبراطورية الرومانية(١) سواء فى الفكر أو فى الحضارة او فى تقديم القيادات والزعامات فمنها خرج أبولايوس Apuleius ابن مدينة مادا وروس بالجزائر واحد أعمدة الأدب اللاتينى واحد عباد الربه المصرية ايزيس ، ومنها خرج الفليسوف الشهير كورنيليوس فرونتو معلم الامبراطور ماركوس أوريليوس ، وفى العصر المسيحى أخرجت ولاية شمال افريقيا اعلاما فى اللاهوت الكنسى مثل ترتوليانوس والقديس قبريانوس اسقف قرطاجة : كما أخرجت القديس اغسطس اسقف هيبو (عنابة بالجزائر) ؛ وهو مؤلف الكتاب الخالد مدينة الله . ومن القيادات السياسية أخرجت شمال أفريقيا الامبراطور سبتيميوس سيفيروس ابن مدينة لبده (لبتس ماجنا) بليبيا ، وعددا كبيرا من زعماء السناتو حتى قيل فى القرن الثالث الميلادى أن من بين كل ثمانية من أعضاء السناتو لابد وأن يوجد واحد منهم مولود فى ولاية أفريقيا ، كذلك لعبت أفريقيا دورا اقتصاديا هاما فى الامبراطورية الرومانية ، اذ كانت تمون روما بالقمح وازدادت هذه الأهمية منذ القرن الثالث الميلادى عندما بدأ المحصول المصرى ينحسر وتقل اهمية الاعتماد على القمح المصرى .

وبعكس الحال فى مصر حرص الرومان على صبغ ولاية افريقيا بالروح والثقافة الرومانية ونشروا العمران والحواضر ذات الطابع الرومانى ، واقاموا المستوطنات للجنود الرومان ، وفى كل يوم تكشف الحفائر الأثرية عن هذه المدن والمستوطنات سواء فى السهول أو على الساحل الممتد من طرابلس حتى موريتانيا ، فضلا عن الطرق العسكرية التى اخترقت جبال الأوراس ، بل كشفت الحفائر عن مدن اقامها الرومان فى الداخل ايضا مثل مدينة تاموجادى Thamugadi (تمغاد الحالية) التى كانت ايطالية روحا وعمرانا ونظاما وتخطيطا وقد بنيت هذه المدينة فى عصر تراجانوس عام

---

١ — عن ولاية افريقيا انظر و

E. Albertini. Roman Africa, (Algiers 1932) ;

Bouchier, life and letters in Roman Africa, Oxford University Press 1913) ; T.S.R. Broughton, The Romanization of Africa Proconsularis, Baltimore 1929.

١٠٠ ميلادية لتكون مستوطنة للجنود المسرحين من الرومان ، وقد قام بتنفيذها جنود الفرقة الرومانية الثالثة التى كانت تعسكر فى شمال افريقيا ، لكن عموما كانت المدن تقل كلما اتجهنا غربا نحو موريتانيا نظرا لوعورة التضاريس ووجود جبال اطلس ، لكن هناك بقايا الالاف من القرى الجبلية الجميلة التى كان يعمل سكانها بعصر الزيتون والنبيذ وهما مصدر الثراء فى الولاية ابان القرن الثالث الميلادى .

والحق يقال لم يكن الرومان هم اول من نشروا العمران فى شمال افريقيا ، فقد سبقهم الفينيقيون الذين انتشروا على طول الساحل الافريقى منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وكانت اقرطاجه التى يعتقد العلماء أنها اسست فى القرن السابع قبل الميلاد ، هى الفنار الأول لاشعاع الحضارة فى شمال أفريقيا ، والأم الكبرى لعدد كبير من المستوطنات الفينيقية فى غرب البحر المتوسط ، وظلت تلعب هذا الدور حتى دمرها الرومان عام ١٤٦ ق.م بعد حروب مريرة ، ولكن بالرغم من تدمير قرطاجه فان الحضارة الفينيقية لم تختف ، بل استمرت فى المدن الأخرى التى لم يدمرها الرومان خاصة التى كانت تقع فى الداخل بعيدا عن الساحل وفوق الهضاب والجبال ، فمثلا كشفت الحفائر ان المعبد الفينيقى الموجود فى حضرمنتوم Hadrumentum على الساحل التونسى ظل يقوم بدوره الدينى حتى القرن الثانى الميلادى .

وبعد تدمير قرطاجه بدا الرومان فى استيطان الساحل بعد ان ضموا المنطقة كلها اليهم وسموها ولاية افريقيا وكان الحزب الشعبى هو الذى يشرف على عملية استيطان المعدمين من الرومان، فقد قام جايوس جراكوس بنفسه بانشاء مستوطنة يونونيا بالقرب من قرطاجة ، ولهذا كانت شمال افريقيا من اشد انصار الحزب الشعبى والمهجر للثوار من اعضاء هذا الحزب فقد فر اليها ماريوس بعضا من الوقت ، وفى شمال افريقيا تمكن قيصر من سحق اعدائه الجمهوريين حيث استقبل استقبالا حافلا وانعم بحقوق المواطنه على بعض المستوطنات والمدن التى اصبحت رومانية قلبا وقالبا . ثم اراد قيصر أن يوسع حدود ولاية افريقيا فضم اليها اقليم نوميديا (الجزائر) ، كما انه احتفالا بمرور مائة عام على تدمير قرطاجه اعلن عن بناء المدينة من جديد عام ٤٦ ق.م لكنها كانت مدينة رومانية خالصة ، سرعان ما كبرت واصبحت عاصمة للولايات فيما بعد ومقر الحاكم البروقنصلى الرومانى .

وفى عصر الامبراطور اغسطس اصبحت ولاية شمال افريقيا ولاية

تابعة للسناتو ولذا سميت ولاية أفريقيا البروقنصلية Provincia Africa Proconsularis ، وكان يحكمها عضو من السناتو بدرجة قنصل سابق اوفى مقامة ، ويقود فرقة كاملة من الجيش الرومانى هى الفرقة الأوغسطية الثالثة Legio tertia Augusta ، ونظرا لقيام القلاقل فى اقليم قورينه بين سكانها الاغريق والقبائل الليبية البربرية التى كانت تغير على المدينة من الصحراء ، فقد اضطر اغسطس الى استخدام أكثر من فرقة للقضاء على هذه القلاقل ويشهد بذلك أقواس النصر العديد التى اقيمت لحاكم افريقيا فى أعوام ٢١ ، ١٩ ق.م. بعد نجاحه فى تأمين الولاية والقضاء على خطر الثورات ، ولقد أدرك أغسطس أيضا أن الولاية أكبر مما يجب ولهذا فصل الجزء الغربى عنها ومنح بعض اجزاء منه للملك الصديق جوبا الثانى Juba, II ، الذى عينه ملكا على موريتانيا (بعض اجزاء من الجزائر ومراكش الحالية) بعد أن زوجه من ابنة كليوباترا من انطونيوس وكانت تعرف باسم كليوباترا القمر . وقنع جوبا الثانى بالمملكة وكان رومانى الثقافة والتعليم يتحدث ويكتب باللاتينية وعاشقا للفنون الاغريقية ، فبدأ فى نشر الحضارة والعمران فى موريتانيا بل فى غرب افريقيا ، اذ اصلح الميناء الفينيقى القديم يول Iol وجعله العاصمة الجديد لملكته التى لم تكن تقل عن أى حاضرة رومانية او هللينستية ثم اعاد تسميتها لتصبح قيصرية Caesarea (مكانها الآن شرقل) تكريما لوالد اغسطس بالتبنى — يوليوس قيصر ، كما زادت اهميتها كميناء تجارى يربط بين أفريقيا وأسبانيا وشرق البحر المتوسط ؛ حتى أصبحت ثالث مدينة فى افريقيا ، لدرجة أن الامبراطور كلاوديوس رفعها الى درجة المستوطنة الرومانية وانعم عليها بحقوق المواطنة وجعلها مقرا لحاكم ولاية موريتانيا القنصلية .

هكذا سار اغسطس فى نفس الطريق الذى سار فيه جايوس جراكوس وماريوس ويوليوس قيصر وهو تشجيع حركة العمران والاستيطان الرومانى . حيث عهد الى حاكم بايتيكا Baetica فى جنوب أسبانيا بالأشراف على هذا المشروع ونجح هذا الحاكم فى انشاء اثنتا عشرة مستوطنة ومدينة . لعب بعضها دورا حضاريا هاما .

وبعد موت اغسطس أدرك خلفاؤه اهمية الولاية وخطورة ترك حاكمها يتحكم فى الفرقة الأغسطية الثالثة فسحبوا منه فى عام ٣٧م سلطة قيادتها وعينوا آمرا لها Legatus يأخذ أوامره من الامبراطور مباشرة وليكون رقيبا على الوالى ؛ وكانت الفرقة وآمرها يعسكران فى الجزء الغربى من الولاية

فى نوميديا ، وفى عام ٢٠٠ ميلادية فصل هذا الجزء واصبح ولاية مستقلة يحكمها أمر الفرقة .

لقد حقق الجيش الرومانى السلام والوئام فى شمال أفريقيا ، فقد أقام حزاما واقيا يضمن للحضارة التقدم والاضطراد من خطر البربر والسكان الاصليين الذين دفعوا نحو الداخل ، كما انشأ شبكة من الطرق العسكرية التى سهلت عملية تحرك الجيوش من ناحية والاتصال بين المدن تجاريا وحضاريا من ناحية أخرى . واهمها الطريق الذى يبدأ من قرطاجة مخترقا جبال الأوراس ، والطريق الذى يربط تاسكابى Tascape بطرابلس ، كما قام الجنود والمستوطنون الرومان بمشروعات عمرانية مختلفة بهدف توطين السكان الرحل فى مجتمعات عمرانية وتعويدهم على حياة المدن ؛ كل هذا ادى فى النهاية الى الاستقرار والرخاء والازدهار الحضارى ، ونشر الحضارة الرومانية تدريجيا وانحسار الحضارة الفينيقية ، حيث بدأ السكان الفينيقيون فى استعارة الأسماء الرومانيةوتعلم اللغة اللاتينية ، ولقد وضع الرومان جائزة لكل مدينة تحقق لنفسها الطابع الرومانى وهو رفعها الى درجة المستوطنة الرومانية والأنعام على مواطنيها بحقوق المواطنة الرومانية الكاملة لأن الرومان قسموا المدن الرومانية الى ثلاث درجات ، المدن الفينيقية واعتبروها مدنا تعاهدية Civitates تتمتع بالاستقلال الذاتى فى اطار التحالف الرومانى ، والبلديات الايطالية municipia ويتمتع سكانها بالحقوق اللاتينية القديمة او الجنسية الناقصة ، ثم المستوطنات الرومانية Coloniae التى يتمتع سكانها بالجنسية الرومانية الكاملة ، اما بقية السكان الوطنيين فقد نظموا فى شكل قبائل وقرى لحصرها والتحكم فيها ، لأنها غالبيتها كانت قبائل رحل تبحث عن المرعى والكلأ .

والى جانب الآثار واطلال المدن ذات الطابع الرومانى الخالص يوجد عدد من النقوش المكتوبة باللغة البونيقية ؛ وهى لغة سامية ممتزجة باللغة التى يتحدث بها البربر ؛ وهى اللغة التى كانت سائدة فى قرطاجة وانتشرت فى شمال أفريقيا كلها ؛ ويرجع اغلب هده النقوش الى القرن الأول الميلادى ، لكنها تنحسر بعد ذلك تدريجيا امام النقوش اللاتينية لكنها ظلت متواجدة حتى القرن الخامس الميلادى . والى جانب النقوش البونيقية واللاتينية توجد النقوش المكتوبة باللغة الليبية القديمة فهناك ما يقرب من الف نقش بهذه اللغة جمع معظمها من تونس وشرق الجزائر وتغطى عصورا مختلفة وهى تشبه الى حد كبير لغة البربر (١) الحاليين المعروفة باسم التاروج Taureg

---

(١) كان البربر يطلقون على أنفسهم اسم « الامازيج » أى الاحرار ؛ ويعتقد الدارسون انهم قبائل سامية جاءت من جنوب شرق الجزيرة العربية ودخلت عن طريق القرن الافريقى لكن الرومان أطلقوا عليهم اسم البربر لرفضهم قبول الحضارة الرومانية .

كما توجد النقوش الاغريقية فى شرق الولاية وحول قورينة ، وبعضها لغة بونيقية مكتوبة بالحروف اليونانية .

اما عن هوية سكان افريقيا فكانوا يتكونون من القبائل الليبية والبربر وهم السكان الأصليون ، ثم المهاجرون الفينيقيون الذين اسسوا المستوطنات القديمة مثل قرطاجة واويا ولبتس ماجنا وسبراطا وايول ، وقد اختلط هؤلاء المهاجرون الفينيقيون بالسكان الليبيين والبربر مكونين عنصرا مختلطا اطلق عليه الرومان اسم البونيقيين وكانوا يتحدثون البونيقية وحضارتهم مختلطة جمعت ما بين حضارة العنصرين بالاضافة الى التأثير المصري خاصة فى الديانة وبعض جوانب الفن ، كذلك كان يوجد عنصر الاغريق الذين هاجروا الى شمال افريقيا ابان حركة الاستيطان الاغريقى الكبير فى القرنين الثامن والسابع ق.م . واسسوا قورينة ، واخيرا يأتى عنصر المستوطنين الرومان وغالبيتهم من الجنود والتجار الايطاليين ، لكن العمران المستمر احدث فى النهاية تغييرا شاملا فى هوية السكان فبداوا يتقبلون اللغة والحضارة الرومانية ، فانتشرت الضياع الشاسعة ومزارع الكروم والزيتون التى يشهد عليها العثور على آلاف من المعاصر فى المدن والقرى ، وكان لروما نفسها اقطاعيات شاسعة لزراعة القمح وكان لها ادارة خاصة للاشراف عليها فى مدينة قرطاجه مقر الحاكم ، وانتشرت الفيللات الريفية ذات الحدائق الغناء والراقده فى خمول بين احضان الطبيعة ، وفى المدن نجد المنازل الرحبة والحمامات وجسور المياة والمسارح وملاعب الرياضة والشوارع ذات البواكى والعماد ؛ بل ان الأسر الرومانية العريقة اصبحت تتفاخر بأقاربها واصهارها الموجودين فى شمال افريقيا ، كما يتفاخر الانجليز بأقاربهم الذين هاجروا الى الولايات المتحدة .

٣ ـ الشرق الأوسط :

(أ) سوريا وشبه الجزيرة العربية :

فى الأصل كانت سوريا جزءا من الامبراطورية الفارسية استولى عليه الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م. ، وورثها من بعده ملوك الأسرة السليوقية الذين اخضعوا المقاطعات والمدن الفينيقية التى كانت تحكم الساحل السورى ، وحاولوا نشر الثقافة والحضارة الهللينستية عن طريق انشاء الحواضر والمدن خاصة على طول الساحل السورى بلغ عددها ثمانية مدن بالاضافة الى ست مستوطنات للجنود . أما المنطقة الداخلية فقد كانت موطن السكان السوريين الأصليين الذين كانوا ينحدرون من العنصر السامى

ويتحدثون بالأرامية . وقد حكمهم السليوقيون حكما بيروقراطيا مثل حكم البطالمة للمصريين .

ولما تدهور حكم السليوقيين فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد استغلت المدن الفينيقية وقامت دويلات مستقلة فى بعض اقاليم سوريا مثل دولة الأيتورايين Ituraeans جنوب دمشق وشمال لبنان ، وهم ينتمون الى العنصر العربى ومملكة العرب الأنباط Nabataeans شرق الاردن والبحر الميت ،ومملكة يهوذا غرب البحر الميت ، ودويلة كوماجينى Comagene فى أقصى شمال سوريا ، وازاء ذلك تقلصت مملكة السيوكيين الى دمشق وانطاكية وما حولهما .

وقد تعرضت سوريا لغزو ملك أرمينيا تجرانيس الذى كان معاديا للرومان ، وذلك فى عام ٨٣ ق.م. ، وظل يحتلها حتى طرده منها بومبى الكبير عام ٦٤ — ٦٢ ق.م. محولا سوريا الى ولاية رومانية ، مقيما صداقات وتحالفات مع الدويلات السورية السابقة الذكر ومعينا عليها حكاما موالين له ولروما .

ومن الجدير بالذكر ان قوات اغسطس دخلت مصر عن طريق سوريا عام ٣٠ ق.م. ولهذا جعلها الجبهة الشرقية للامبراطورية الرومانية وقاعدة للجيوش الرومانية فى الشرق ولم يقل عدد الفرق فيها ابدا عن اربع فرق يقودها آمر Legatus ويحكم الولاية بروقنصل ، كما جعل الرومان سوريا مخزنا وترسانة لصناعة الأسلحة وبقيت كذلك حتى عصر ديوقلديانوس . كذلك اقام الرومان علاقات طيبة مع مملكة العرب الأنباط التى جعلت لها عاصمة هى البتراء Petraea (١) أى الصخرة لأنها تقع فى أحضان الجبل عبر ممر جبلى وعر ، والتى كشفت الحفائر عن تأثرها الشديد بتخطيط المدن والعمران الرومانى مثل الحمامات والمسارح والملاعب ، الى جانب مقابرها الجميلة المنحوتة فى الصخر والتى تظهر أسلوبا يعكس هوية هذا الشعب الحضارية ، اذ تعرف العلماء على نماذج هندسية فرعونية واشورية واغريقية من العصور الكلاسيكية ، بالاضافة الى التيارات الهللينستية الراقية القادمة من مدينة الاسكندرية مثل فن الباروك .

وعندما فتح بومبى سوريا عام ٦٢ ق.م. كانت مملكة العرب الأنباط قد مدت نفوذها شمالا الى دمشق وجنوبا الى سيناء والى الساحل الشرقى للبحر الأحمر حتى ميناء ابجرا جنوبا ، لكن الرومان لم يسمحوا لها بالتوسع وحددوا نفوذها وحولوها الى مملكة عميلة يرتبط ملوكها بصداقة وولاء

---

(١) يفضل البعض اطلاق اسم البطراء عليها ولكن أتمسك بالإسم الأصلى لتوضيح معنى اشتقاقه اللفظى من اللغة الأغريقية .

للحكام الرومان ويعيشون فى حمايتهم - ومن ثم كانوا يساهمون فى الحملات العسكرية التى تقوم بها روما فى الشرق مثل حملة أيليوس جاللوس على اليمن فى عصر الامبراطور اغسطس .

لقد كانت مملكة العرب الأنباط مملكة آرامية الفكر والحضارة وقد نعمت فى ظل السلام الرومانى فازدهرت فيها الحضارة والفكر الذى يجمع بين روح الشرق وتراثه ومظاهر الحضارة الاغريقية والرومانية، وظلت كذلك حتى ادمجها الرومان فى الامبراطورية بعد سحق ثورة اليهود فى فلسطين عام ٧٣ ميلادية ، وقد قام الرومان بالعديد من المشروعات العمرانية فيها . مثل بناء سد للرى وبناء طريق رئيسى فى قلب العاصمة ، زينت جوانبه بالبواكى ذات العماد ، وفى عصر الرومان بنى المعبد الشهير الآن باسم « قصر البنت » .

وفى عصر تراجانوس ضم الرومان مملكة الأنباط رسميا الى الامبراطورية عام ١٠٥ ميلادية حيث أعاد الامبراطور بناء احدى المدن التجارية القديمة التى كانت تقع فى شمال المملكة وهى مدينة بوسترا Bostra (١) وجعلها عاصمة لولاية بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea التى تمتد من شرق الاردن حتى شمال سيناء وتضاءلت اهمية البتراء السياسية لكنها ظلت مركزا دينيا وثقافيا للولاية الجديدة .

اما بالنسبة لمنطقة الساحل السورى الفينيقى فقد حرص الامبراطور اغسطس على تأسيس المستوطنات العسكرية لتوطين جنوده المسرحين وزرع حواضر لنشر الثقافة وطريقة الحياة الرومانية ؛ ومن الجدير بالذكر ان هذه المنطقة كانت قد تعرضت لتيار الحضارة الاغريقية منذ فتح الاسكندر لها والمتمثل فى بناء المدن والحواضر الهللينستية ، لكن بقيت المناطق الداخلية البعيدة عن البحر موطنا للثقافة الارامية التى انتشرت من اليمن جنوبا الى الشام شمالا وحتى دجلة شرقا ، والى جانب ذلك كانت هناك مناطق تتحدث السوريانية والأشورية والبهلوية (لغة الفرس القديمة) وفى فلسطين كان اليهود يتكلمون العبرية ، وقد اطلق الرومان على صحراء البادية اسم بلاد العرب الصحراوية Arabia deserta وهى منطقة ابتعد عنها اغسطس ولم يغامر بالحرب فيها لانه كان يعرف الصحراء ويتجنبها خاصة انه لم ينس هزيمة كراسوس فى كرهاى ، ولكنه اعتبرها منطقة عازلة بين روما والبارثيين وغيرهم من الشعوب المعادية للامبراطورية .

ومن أهم المستوطنات التى اقامها اغسطس على الساحل السورى

(١) وتعرف أحيانا فى المصادر العربية باسم بوصرى .

مستوطنة بيريتوس Berytus (بيروت الحالية) ، وقد سكنتها الجنود الرومان المسرحون من الجيش بهدف نشر اللغة والثقافة اللاتينية ، بل جعل فيها مدرسة للقانون الرومانى لكن اللغة اللاتينية لم تنتشر الا ببطء وبين الطبقة الأرستقراطية الفينيقية والسورية والتى كان الرومان ينعمون عليها بالجنسية الرومانية ، اما اللغة الإغريقية العامة فى العصر الهللينستى (Koine) فقد ظلت لغة الثقافة الراقية فى هذه المنطقة طوال عصر الأمبراطورية والتى يقابلها اللغة الآرامية وفروعها عند السكان الأصليين فى المناطق الداخلية ، وفى النهاية تبنت الامبراطورية الرومانية الشرقية الثقافة الهللينستية واللغة اليونانية العامة لتبنى عليها حضارتها الخاصة التى خضع لها الشرق كله ، والتى نسميها الحضارة البيزنطية المسيحية والتى ظلت قائمة حتى قيام وانتشار الاسلام والثقافة العربية .

اما منطقة الساحل الجنوبى والجنوبى الغربى من شبه جزيرة العرب فقد سماها الرومان ببلاد العرب السعيدة Arabia felix لأنها منطقة غنية بالسبول الزراعية والتجارة البحرية وذلك لأنها تقع فى الطريق الى بلاد الهند والصين ، وكان اهلها يجنون دخولا طائلة من التجارة ويعملون كوسطاء لها ، ومن ثم قامت فيها حضارات راقية مثل حضارة معين (١٣٠٠ ق.م. — ٦٥٠ ق.م.) التى قامت نتيجة للتغيرات السياسية فى الشرق الأوسط مثل تدهور الامبراطورية المصرية والامبراطورية الاشورية ، وامتدت هذه الحضارة على طول ساحل اليمن فى نجران وقتبان وحضرموت وربطت ما بين ساحل الخليج وشمالا حتى ساحل البحر المتوسط مسيطرة على البحر الأحمر ، وورد ذكرهم فى التوراة (سفر أخبار الأيام الثانى الأصحاح السادس والعشرين آية ٧) ، كما قامت هناك حضارة القطبانيين التى كانت اكثر تقدما من حضارة معين والتى استمرت من القرن الحادى عشر قبل الميلاد حتى عام ١١٥ ق.م . وكذلك حضارة العرب السبائيين الذين كونوا اول امبراطورية عربية فى الجنوب تقوم على الوحدة الثقافية والدينية ، وثم الحميريون الذين ازدهرت دولتهم منذ ١١٥ ق.م وحتى القرن السادس الميلادى .

لقد تفادى أغسطس الصحراء ، ولهذا بقيت الاجزاء الوسطى — قلب شبه جزيرة العرب — أرض الغموض والأسرار وتابعة للجزء الذى أطلق عليه الرومان اسم بلاد العرب الصحراوية Arabia Deserta ، لكن طريق الملاحة حولها من الخليج الفارسى العربى حتى خليج السويس ، ومن السويس حتى باب المندب جنوبا ، كان معروفا منذ أن نجح أسطول الاسكندر الأكبر فى الدوران حوله بهدف استطلاع الطريق الملاحى بين الهند

والبحر الأحمر . كما قام ملوك الاسرة السليوقية المقدونية بزرع المستوطنات فى المنطقة ما بين الفرات وجرها Gerrha (الواقعة على طول الساحل الغربى للخليج (الكويت ودولة الامارات الحالية) والتى تبادلوا معها تجارة العطور والمر والتوابل والأحجار الكريمة ، بل أن ملوك مصر البطلمية دخلوا فى منافسة تجارية مع مملكة العرب الأنباط التى كانت تحتكر طريق التوابل القديم الذى كان يربط ما بين الخليج الفارسى وساحل البحر المتوسط ، ومن أجل ذلك أقام البطالمة علاقات مع العرب اللحيانيين على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، وكذلك مع سبأ وحمير فى الجنوب اليمنى ، وكانت امارات سبأ وحمير امارات غنية ؛ فهى كما بينا مناطق زراعية غنية بالسهول ، فضلا عن احتكارها للتجارة بين اليمن والخليج وبين اليمن والشام ومن أجل ذلك دخلوا فى منافسة عنيفة وعدائية مع مملكة العرب الأنباط التى مدت نفوذها الى الساحل الشرقى الشمالى للبحر الأحمر .

على اى حال ادرك اغسطس اهمية التجارة بين الهند وساحل البحر المتوسط ، كما أنه سمع عن الثراء الذى حققه شيوخ الامارات العربية ، فضلا على انه كان يحلم بتحقيق أحلام الاسكندر الأكبر فى هذا الأمر بربط التجارة بالسلام والرخاء ، وجعل مصر هى همزة الوصل لنقل التجارة عن طريق البحر الأحمر ثم طرق القوافل الى النيل حتى الاسكندرية ومن الاسكندرية تنقل الى ايطاليا ، لان هذا سوف يدعم من مركز الاسكندرية التجارى والاقتصادى ويعود ذلك على الامبراطورية بدخل كبير خاصة لأن الرومان كانوا يحصلون على ضرائب عالية من المكوس والتجارة تتراوح ما بين ٥ و ١٠ فى المائة . ووجد اغسطس ان التجارة بين الهند والبحر الأحمر يتنافس عليها الأنباط — الذين توسعوا حتى السواحل الشرقية للبحر الأحمر — والدويلات العربية التى قامت على السواحل الجنوبية والجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية ، مثل سبأ وحمير وقطبان والتى كانت تعرف ببلاد اليمن السعيد Arabia felix ولهذا قرر اغسطس أن يكسر هذا الاحتكار العربى لصالح الامبراطورية بنقل الموانى التجارية من شرق البحر الأحمر الى غربه لتكون فى حوزة ولاية مصر الرومانية وتنقل بعد ذلك عن طريق النيل الى الاسكندرية وهى نفس المحاولة التى قام بها بطليموس الثانى وبلغت اقصاها فى عهد بطليموس السابع (١٤٦ — ١١٦ ق.م) أما بالنسبة لولاية بلاد العرب المهجورة أو الخالية Arabia deserta (صحراء البادية) فقد تجنب اغسطس غزوها ، لأنه كان يعرف الصحراء ويخشاها ، ولم يغامر بغزو الرمال القاحلة ، بل

اكتفى بغزو المناطق الساحلية حيث سمع عن ثراء شيوخ العرب الفاحش من احتكار تجارة الذهب والعاج والبخور والعطور والتوابل واللبان والمر والأحجار الكريمة وغيرها من المنتجات التى تستخدم فى الطقوس والشعائر الدينية فى المعابد .

ومن ثم اصدر اغسطس أوامره الى والى مصر ايليوس جاللوس Aelius Gallus فى اواخر عام ٢٥ ومطلع عام ٢٤ ق .م ليقوم بحملة الى البحر الأحمر لاحتلال امارة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية ، وربما كان المحرضون لهذه الحملة هم ملوك الانباط والملك عبادة الثالث obadas لأنه اشترك ببعض قواته التى قادها سيلايوس Syllaeus وزيره ، ومن الواضح أن فكرة حماية حدود الامبراطورية ليس لها علاقة بهذه الحملة ، اذ لا يوجد ما يبررها سوى السيطرة على طرق التجارة بين الهند وأوربا عن طريق مصر والتحكم البحرى فى البحر الأحمر خاصة باب المندب وبلاد الصومال المواجهة له حتى يتمكن تجار الاسكندرية من كسر احتكار تجار سبأ واليمن السعيد(١) للتجارة مع الهند وشرق افريقيا ، من أجل أن يعود ذلك بدخل كبير على الامبراطورية وينعش اقتصادها (٢) . وفى عام ٢٥ ق.م جمع الجنرال ايليوس جاللوس Aelius Gallus قائد القوات الرومانية فى مصر جيشا كبيرا معتمدا على تأييد الملوك الأنباط ومملكة يهوذا ونقل القوات عبر البحر الأحمر حتى شواطىء الجزيرة العربية ، ثم سار فى العام التالى جنوبا عبر رمال الصحراء محرزا بعض الانتصارات ، ولكن حرارة الجو ووعورة تضاريس البلاد والنقص الشديد فى الماء والطعام ، فضلا عن مقاومة القبائل الشرسة ، جعلته يولى ظهره لمشروعه ويعود منكس الراس الى مصر ، واذا كانت الطبيعة قد هزمت الجيش الرومانى فان كرم العرب واعجابهم بقوة الروم حقق بالسلام ما فشلت السياسة الرومانية تحقيقه بالحرب(٣) ، فسرعان ما وقع العرب فى حب الروم ، وقامت صداقة حارة بين مشايخهم خاصة امراء حمير وسبأ ، وقبلوا طائعين التخلى عن سيطرتهم على المضايق البحرية فى البحر الأحمر للرومان .

---

(١) انظر كتاب عالم الاثار والمليونير الذى تحول الى صاحب شركة للتنقيب عن البترول فى جنوب شبه الجزيرة العربية لانه درس جيدا أثار وتاريخ هذه المناطق انظر : W. Philips : Qataban and Sheba, (1955).

(٢) كان ذلك هو منطق الرومان فى حروبهم الأخرى وكان منطق أغسطس وحلفائه هو التوسع تحت شعار حماية حدود الامبراطورية .

(٣) عبد اللطيف احمد على — المرجع السابق ص ٦٦ .

وبذلك قضى أغسطس على فاعلية «طريق التوابل» القديم وقلل من أهميته التجارية ، كما أن هذه الحملة مهدت لحملات أخرى كانت ناجحة فيما بعد فقد استولى الرومان على ميناء عدن وعلى جزيرة سقومطراى ، وتحول البحر الأحمر الى بحيرة تعج بالنشاط التجارى وازدهرت موارد مصر فى عصر الرومان خاصة تجار مدينة الاسكندرية سواء من السكندريين أو الايطاليين فقد ذكر استرابون الجغرافى (١) الذى زار مصر فى عصر اغسطس أن ما يقرب من ١٢٥ سفينة كانت تقلع سنويا من ميناء ميوس هورموس Meos Hormos (أبو شعر القبلى) أحد موانى مصر على البحر الأحمر ، بعضها كان يتجه نحو شرق افريقيا لنقل تجارة العاج والذهب وريش النعام ، والبعض الآخر كان يتجه الى الهند لنقل البخور والتوابل ، بل أن بعضها وصل الى جزيرة سرنديب (سيلان أو سيريلانكا الحالية) ، وبلغ بعضها خليج البنغال وحدود الهند الصينية ، فقد كشف الحفائر الحديثة فى ساحل الهند (٢) الشرقى عن نقود وادوات رومانية مما يؤكد وصول التجارة الى هذه المناطق النائية ، وبذلك تكون الأمبراطورية الرومانية قد سبقت شركة الهند الشرقية البريطانية فى الوصول الى هذه المناطق ويؤكد ذلك تجربة ارتباط الامبراطوريات القديمة والحديثة باحتكار طرق التجارة بين الشرق والغرب .

مملكة يهودية : Judaea فى فلسطين

كانت يهودية جزءا من فلسطين ، وهى منطقة ذات تاريخ معقد غير ثابت لأنها كانت معبرا لشعوب عديدة فى العالم القديم . ففى الألف الثالث قبل الميلاد كان يسكنها العموريون Amorites احدى الشعوب السامية القديمة ، ثم بدأ توافد الكنعانيين على فلسطين فى الربع الأخير من الألف الثانى ق.م ، وأصبحت فلسطين مقسمة بين الأراميين ويسكنون الشمال والفلسطينيين ويسكنون فى الجنوب الغربى .

أما العبرانيون فقد كانوا ايضا ينتمون الى القبائل السامية المتجولة والتى تركت موطنها الأصلى فى اور جنوب بابل متجهة غربا صوب فلسطين ، واستغرقت هجرتهم اليها فى شكل جماعات استغرقت اجيالا طويلة ؛ فقد ذكرت الوثائق المصرية ان شعبا ساميا اطلق على نفسه اسم « عابيرو » أو « خابيرى » كانوا يغزون أرض الكنعانيين قادمين من الشرق وهذه الوثائق

(1) Strabo XVI. 4-22 ; J.G. Milne, op. cit, p. 7 f.

(2) Heichelhein and Cedric Yeo, History of the Roman People, p. 281.

وعن تفاصيل الحملة انظر : عبد اللطيف احمد الى... السابق ص ٦٣ — ٦٧ وكذلك ص ١٢٤ ، ١١٥ .

ترجع الى عصر اخناتون (١٣٧٠ ق.م تقريبا)، واتجهت جماعة من العبرانيين جنوبا الى مصر بحثا عن الغذاء والاستقرار ، لكنهم اعتبروا فئة اقل فى الوضع الاجتماعى من المصريين لأنهم غرباء ، وتقول التوراه انهم كانوا يقومون بأدنى الأعمال واحقرها خاصة صناعة الطوب ، ثم قادهم موسى — أومو ... مصر وعبر بهم سيناء وبعد سنين من التيه فى الصحارى وصلوا الى ... الأردن ، وبعد موته اكمل خليفته يوشع غزو فلسطين التى ادعوا انها ارض الميعاد . وتفرقوا بعد ذلك الى اثنتى عشرة سبطا او قبيلة ، وسكنت كلُّ قبيلة منطقة يراس كل قبيلة قاضيان (شوفيتم Shophetes) على غرار النظام الفينيقى وبدأ العبرانيون يختلطون بالكنعانيين ويمتزجون بهم حضاريا وعنصريا .

اما الفلسطينيون فى الجنوب فقد كانوا من الد أعداء العبرانيين وقاوموهم بشدة واضطرت القبائل اليهودية الاثنى عشرة الى الاتحاد من اجل تأسيس مملكة وقيادة تتولى الحرب ضد الفلسطينيين واختير شاؤل من سبط بنيامين ملكا وذلك قرب نهاية القرن الحادى عشر ق.م. وسقط شاؤل قتيلا فى حروبه مع الفلسطينيين، وتلى ذلك اختيار داوود (داڤيد) زعيم قبيلة يهوذا ملكا ونجح داوود فى هزيمة الفلسطينيين وانتزع منهم أراض كثيرة وتوسع فى حركات غزو حتى سيطر على المنطقة الممتدة من دمشق حتى صحراء الحجاز، ومن شرق الأردن حتى ساحل البحر المتوسط وكانت الأربعين سنة التى حكمها (من ١٠٠٠ ق.م حتى ٩٦٠ ق.م) أعظم أيام العبرانيين وبعد موته تولى سليمان (سولومون) الذى قام بمشروعات عمرانية وتجارية وانشأ العديد من المبانى من بينها الهيكل الكبير فى أورشليم والذى نسب اليه ، وعاش سليمان فى ترف خرافى وتزوج من اميرة مصرية ، وصاهر العديد من حكام المدن والولايات المجاورة ، ولكنه كان قاسيا مع قومه مستغلا لهم مما أدى انتشار السخط فى اخر عهده . ومات سليمان عام ٩٣٥ ق.م وتولى ابنه رحبعام الذى ثارت عليه عشرة قبائل معلنة تأسيس دولة منفصلة سميت اسرائيل واختاروا يربعام ملكا عليها، وجعلوا عاصمتها ساماريا، اما القبيلتان الآخريتان فظلتا تابعتين لمملكة يهودية Judaea فى الجنوب والتى ظلت عاصمتها اورشليم ، وفى عام ٧٢٢ ق.م استولى الاشوريون على السامرة ، واسروا القبائل العشرة وحملوهم معهم وفرقوهم على كافة اجزاء الامبراطورية الاشورية ، أما يهودية فى الجنوب ظلت قائمة حتى اقتحمها نبوخذ نصر عام ٥٨٧ ق.م ودمر أورشليم واسر الاف من اليهود فيما يعرف بالاسر البابلى .

ولما قامت الامبراطورية الفارسية واستولى ملكها قورش الكبير على بابل عام ٥٣٩ ق.م حاول ان يرضى اليهود الأسرى فى بابل فاعطاهم حق العودة الى فلسطين ، فعادوا ، واعيد بناء هيكل سليمان مرة أخرى عام ٥١٦ ق.م.

ولما استولى الاسكندر الاكبر على الامبراطورية الفارسية ودخل الشرق احسن معاملة اليهود ؛ واستمرت هذه المعاملة خلال حكم الورثة سواء بطالمة مصر والملوك السليوقيين في سوريا، ففى مصر أصبحت الجالية اليهودية في مدينة الاسكندرية تحتل حيا كاملا هو الحي الرابع (حى الدلتا) واصبحت أكبر جالية يهودية تعيش خارج يهوديا وبدأ اليهود يتاغرقون خاصة الطبقات الثرية المثقفة التي كانت موالية للحكام، وبينما قوبل ذلك بتيار من الرفض من الطبقة الوسطى المتطرفة والذين اطلقوا على انفسهم اسم الفريسيين وكانوا يميلون الى الارهاب والعنف ويعارضون تيار التأغرق والتبعية الذى تسير فيه الجمعة الارستقراطية الحاكمة والمسالمة مع ملوك مصر والشرق، والذين كانوا يعرفون باسم الصدوقيين، وازاء الفوضى في فلسطين اسر بطليموس الأول مائة الف من الثوار وحدث شتات لليهود اصبح بعضهم يعيش فى مصر خاصة فى الاسكندرية وبعضهم فى قورينة التابعة لمصر ؛ وفى عام ٢٠٠ ق.م انتزع الملك انطيوخوس الثالث سوريا وفلسطين من البطالمة ؛ وبدأ فى سياسة أغرقة اليهود رسميا لادماجهم مع الشعوب الأخرى التى يحكمونها وقد سار على هذه السياسة خلفاؤه، لكن اليهود الفريسيين قاوموا خاصة الكهنة منهم، فمثلا قاد الكاهن متى ثورة ضد ذلك عام ١٦٧ ق.م ، واستمرت ثورة الكاهن متى بعد موته وتزعمها يهوذا المكابى وتحولت الى حرب عصابات ضد الدولة السليوقية التى بدات تضعف ، وبعد موت انطيوخوس السادس عام ١٦٣ ق.م كان الثوار بزعامة يهوذا المكابى اقد دعموا ممتلكاتهم واصبحوا الحكام المسيطرين فعلا على حجم منطقة تعادل حجم مملكة داوود القديمة ، كما اسسوا السنهدريم المجلس الأعلى عام ١٤٥ ق.م واصبح هذا يعرف بدولة المكابيين، لكن المعاداة للمكابيين عادت مرة أخرى فى شكل ثورة الفريسيين أعداء الحكام ، وعندما كان القائد الرومانى بومبى يحارب فى الشرق دعاة الفريسيون لمساندتهم ضد الصدوقيين والأسرة المكابية، وبالفعل استولى بومبى على سوريا وفلسطين عام ٦٣ق.م.؛ وعين هركانوس حبرا اعظم على المناطق التى يسيطر عليها اليهود فى الجليل والسامره وربع يهوديا ، ولما عين جابينيوس القائد الرومانى واليا على ولاية سوريا الرومانية ادرك خطورة اتحاد هذه المناطق اليهودية سياسيا نقسمها الى خمس مناطق وجعل حركانوس زعيما روحيا دينيا عليها .

ولما حوصر يوليوس قيصر فى الاسكندرية عام ٤٨ ق.م ارسل حركانوس وزيره انتيباتر مع بقوة كبيرة لانقاذ الدكتاتور الرومانى من الموت والهزيمة ؛ وتعبيرا عن شكره وامتنانه اعاد قيصر كل السلطات السياسية السابقة الى حركانوس والتى سلبها منه الوالى الرومانى ، ... حركانوس يحكم حتى ... ... والقوا القبض عليه ، وقتلوا وزيره الذكى

أنتيباتروس الذى ترك ولدان قتل احدهما فى الحرب أما الثانى فكان يدعى هيرودس Herodes والذى هرب الى روما ليحتمى بها ويطلب النجدة من انطونيوس الذى تولى الحكم بعد مقتل قيصر عام ٤٤ ق.م .

ولما قسمت الامبراطورية الرومانية بين انطونيوس واوكتافيوس اختار الأول الشرق وسافر اليه لاعادة تنظيمه وفتحه ، واعاد هيرودس اللاجىء بل عينه ملكا على ممتلكات حركانوس وأصبح هيرودس الذى لقب بالكبير ملكا على مملكة مستقلة لكن عميلة للرومان فى عام ٣٧ ق.م. ، لكن الملكة المصرية كليوباترة السابعة التى أصبحت زوجة لانطونيوس ، كانت تكره وتمقت هيرودس ومن ثم حرضت زوجها الرومانى على خلعه لأنها كانت تطمع فى فلسطين التى كانت جزءا من مصر فى مطلع حكم أجدادها ، لكن هيرودس حافظ على صداقة انطونيوس الذى قاوم اغراء ومطالب زوجته ، ولما قامت الحرب بين انطونيوس وزوجته كليوباترا من ناحية ، واوكتافيوس من ناحية اخرى قدم اليهود مساعدات للأخير ، ولهذا ابقى اوكتافيوس على هيرودس بل كافأه بتوسيع مملكته عام ٢٤ ق.م. وجعلها مملكة عميلة وركيزة لحماية الحكم الرومانى فى هذه المنطقة . وقد ظل هيرودس يحكم حتى عام ٤ ق.م. معتمدا على ثقة الامبراطور اكتافيوس اغسطس فيه ، حيث بدأ يستأصل العناصر المعارضة لحكمه وبدأ يقيم مشروعات حضارية لأغرقة الدولة اليهودية يعاونه الصدوقيون الأثرياء ، حيث اعاد بناء هيكل سليمان القديم ، لكن الفريسيين من اليهود عاودا الثورة والمقاومة ورد هيرودس عليهم بالعنف الدموى مما ضايق الامبراطور اكتافيوس اغسطس (١) وادرك خطورة فكرة خلق الدولة اليهودية .

وبعد موت هيرودس الكبير عام ٤ ق.م. اقتسم ابناؤه الثلاثة فيليب ، وهيرودس انتيباس Herodes Antipas ، وأرخيلاءوس Archelaos المملكة فيما بينهم ، لكن أرخيلاءوس جار على اخويه بهدف السيطرة على المملكة وحده ، لكنه كان مكروها من الشعب اليهودى وغير اليهود فى فلسطين وطلب اليهود والسامريون Samaritan من الامبراطور اغسطس التدخل فأستجاب بسرعة وأمر بنفى ارخيلاءوس خارج البلاد عام ٦ ميلادية ، ورفض تعيين أى من أخويه ملكا ولا حتى اعادة فكرة المملكة اليهودية لأنها فكرة خاطئة مكلفة ، انما حول المملكة الى ادارة رومانية يديرها مدير مالى رومانى بدرجة بروكوراتور Procurator جعل مقره مدينة قيصرية Caesarea على ساحل فلسطين وليس فى أورشليم التى

---

(1) S. Perowne, The Life and Times of Herdes, the Great,

كانت العاصمة للملكة اليهودية ، وكان يعاون البروكوراتور الرومانى الأرستقراطيون اليهود والكهنة ، ولقد اتسم اغسطس والحكم الرومانى بالدبلوماسية الحذرة مع اليهود لان اغسطس ادرك حساسية الديانة اليهودية ، وحرص على الا يتدخل فى امورها ، لأن كل ما يهم الرومان هو الخضوع السياسى والاقتصادى دون التدخل فى النظم والعقائد الداخلية والخاصة برعاياهم .

لقد ازدهرت الديانة اليهودية وازدهرت معها اللغة العبرية تحت سياج السلام الرومانى ، كما ازدهرت فى فلسطين أيضا اللغة الآرامية والسوريانية المتفرعة منها ، ومن أهم الوثائق الأدبية عن الامبراطورية الرومانية فى الشرق الأوسط الأناجيل وأعمال الرسل ، لأنها تعكس بدقة وصدق حياة الناس فى قرى ونجوع الجليل ، والسيد المسيح عندما يقول « المجد لله فى الأعالى وفى الأرض السلام وفى الناس المسرة » انما يتحدث عن السلام الرومانى والأثر الذى تركه فى نفوس الناس .

لكن سرعان ما عادت فلسطين الى القلاقل والصراع من كل ناحية بين السكان اليهود والسامريين والفلسطينيين القدماء ، وبين اليهود أنفسهم فقد انقسم اليهود الى معسكرين متحاربين معسكر الصدوقيين وهم اليهود المتحررون الأرستقراطيون وهم أحباء الحضارة الهللينستية والرومانية فى الشرق ويحيطون بالحبر الأكبر المتعامل مع روما ، والمعسكر الثانى الطبقة العامة من اليهود الساخطين على الصدوقيين لتحررهم والداعين الى التطرف فى التمسك بالسنة الموسوية ، وعدم الخضوع للدول الوثنية ، وتحول الخلاف الى مواجهة دموية وأعمال لصوصية فدائية ، ومن أشهر هؤلاء اللصوص الفدائيين الارهابيين باراباس Barabas الذى اطلق سراحه الحاكم الرومانى بيلاطس بدلا من السيد المسيح بمناسبة عيد جلوس الامبراطور تيبريوس وذلك بناء على طلب اليهود ، وقد عرف هؤلاء اليهود الارهابيون باسم السيكاريين Sicarii ، ومنهم ظهر زعماء الفوضى والثورة والتمرد ، فقد قاد أحدهم أربعمائة من أتباعه متجها الى نهر الأردن مدعيا أنه سوف يشق النهر الى قسمين مثلما فعل موسى ، وآخر كان يهوديا مصريا جمع اتباعه فوق جبل الزيتون معلنا أن أسوار أورشليم سوف تنهار فوق رءوس اليهود ! وكان الهدف هو اثارة الذعر وافساد السلام ، ومع هؤلاء تعاملت الامبراطورية الرومانية بعنف وقسوة ، فتصيدتهم وقتلتهم ، وكانت حذرة ، عيونها مفتوحة لظهور أى زعيم فوضوى ، ويعكس ذلك الحذر ما جاء فى أعمال الرسل عندما قبض الرومان على بولوس

الرسول فى أورشليم وساله القاضى بالاغريقية « هل أنت المصرى الذى قاد اربعة آلاف من السيكاريين الى الصحراء » ؟

ورغم هذه المعوقات استمرت الامبراطورية فى نشر البناء والعمران ويصور ذلك ما ورد فى التلمود من حوار جاء على لسان ثلاثة من أحبار اليهود اذ يقول احدهم « ما اجمل اعمال ذلك الشعب ! لقد بنوا الطرق والجسور وانشأوا الحمامات ! ويصمت الثانى موافقا ، بينما يقول الثالث محتدا « كل الذى فعلوه انما فعلوه من اجل انفسهم ! فالأسواق بنوها لكى يعرضوا فيها العاهرات والحمامات من أجل تجديد شبابهم ، اما الجسور فمن اجل ان يجبوا منها الأتاوات والضرائب » !

(ج) بلاد الرافدين وآسيا الصغرى :

حرص اغسطس على زرع المنطقة ما بين آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين بالممالك العميلة لهم مثل مملكة الجلاتيين Galatia ومملكة بنطوس Pontus الساحلية فى جنوب شرق البحر الأسود ، وكابادوكيا Cappodocia وارمينيا الصغرى وبافلاجونيا Paphlagonia (فى الشرق من مملكة بنطوس) ومملكة كوماجينى Comagene (فى الشمال الشرقى من سوريا على الضفة الغربية من نهر الفرات) ويموت امونتاس Amyntas ملك جالاتيا عام ٢٥ ق.م. حول اغسطس المملكة الى ولاية رومانية ، وترك باقى الممالك ليحكمها ملوك تابعون وعملاء للامبراطورية ، لكن جوهر السياسة الرومانية فى المشرق (٢) ظل يتركز حول عقدة الخوف من خطر البارثيين، والحق لم يكن هناك ما يبرر خوف الرومان من خطر التوسع البارثى لأن هذه الدولة كان يفصلها عن مملكة ما بين النهرين (التابعة لروما) نهر الفرات Euphrates ، ولكن الرومان لم ينسوا دماء رجالهم التى اريقت على الرمال ابان حملة كراسوس Crassus وحملة انطونيوس حيث هزم الجيش الرومانى فى كلتا المرتين ورد على اعقابه خاسرا . كما ابت كبرياء الرومان عليهم ان ينسوا شرفهم العسكرى عندما انتزع البارثيون بيارق الجيش الرومانى insignia واحتفظوا بعدد كبير من الاسرى الرومان . ولذا حرص الرومان على محاصرة البارثيين استراتيجيا وكانت مملكة ارمينيا هى أنسب الأماكن لفرض هذا الحصار (١) .

---

(١) للمزيد عن سياسة الامبراطورية ازاء الولايات فى الشرق انظر :

A.H.M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces (Oxford 1937, edition 1971), also D Magie, Roman Rule in Asia Minor Princeton University Press (1950).

(١) cf. Frega Stark : Rome on the Euphrates, John Murray (London 1966), pp. 121-127 ; p. 173.

ولهذا السبب تدخل اغسطس فى الصراعات حول العرش فى مملكة ارمينيا وحرص على منع اى شخصية معادية لسياسة روما من الوصول الى العرش كما حرص على جعل ارمينيا شوكة فى عنق البارثيين بالرغم من ان ارمينيا كانت دولة بارثية العنصر والثقافة وقد ساعده الحظ فى ذلك لأن بارثيا كانت منهوكة القوى بسبب الصراعات التى مرت بها ، كما أثرت دعاية اغسطس بالتهديد باستخدام القوة والعنف والضرب بيد لا ترحم فيهم كثيرا ، اذ فقد زعماء البارثيين الثقة فى انفسهم (١) . وفى أثناء تواجد اغسطس فى سوريا ما بين ٢٢ — ١٩ ق.م. ارسل تيبريوس ابن زوجته ليفيا Livia وخليفته من بعده فى مهمة دبلوماسية الى ارمينيا حيث نجح فى تعيين ملك موال للرومان ، ولما سمع ملك البارثيين فارناتيس Pharnates بتواجد تيبريوس نائب اغسطس فى ارمينيا سافر اليه ولاقاه وتفاوض الطرفان ونجح تيبريوس فى اقناع الملك البارثى بارجاع البيارق والشعارات العسكرية insignia التى كانوا اقد استولوا عليها من جيش كراسوس بعد هزيمته فى معركة كرهاى فى يونيو عام ٥٢ ق.م. ، كما استطاع اقناع الملك بالافراج عن من كان لا يزال حيا من اسرى الجيش الرومانى . وكان هذا الانتصار على مائدة مفاوضات لا يقل نجاحا عن انتصار ميادين القتال ان لم يفوقه ، لأنه وفر على روما دماء غزيرة وتكاليف باهظة . وقد هللت لهذا الانتصار العناصر الوطنية المتطرفة فى روما ، كما استغل اغسطس هذا الانتصار جيدا فى دعايته التى عم بها العالم الرومانى بأكمله . وقد اعجب الجنود الرومان بهذا الانتصار فهتفوا به قائدا مظفرا Imperator كما قرر السناتو اقامة موكب نصر تكريما لهذه المناسبة ولكن اغسطس اعتذر عن ذلك بتواضع لأنه احس ان الذى حققه هو انتصار هادئ ، كما انه كان يحلم فى قرارة نفسه باليوم الذى تحين فيه الفرصة ويعبر الفرات ويضم آخر معقل معاد « لوحدة الحضارة » لامبراطوريته وهى ولاية بارثيا . ولكن احداث التاريخ لم تعطه هذه الفرصة ليحقق مثل هذا الحلم . كما اعفت الأحداث التاريخية البارثيين من مغبة مواجهة حاسمة وعلنية مع اغسطس ، ولكن سرعان ما بدات التلاقل فى ارمينيا تظهر اذ تمكنت العناصر الوطنية فى عام ٦ ق.م. من أن تستولى على القيادة والحكم ثم انتشرت حركة تمرد عبر حدودها الى دولة البارثيين . ولما سمع اغسطس بذلك ادرك ان الموقف لا يحتمل الارجاء فارسل حفيده من ابنته جوليا جايوس قيصر Gaius Craesa فى حملة عسكرية الى الشرق

---

(١) عن الصراع السياسى فى بارثيا انظر .

N.C. Debevoise. A. Political History of Parthia (1938).

(١ — ٤ ميلادية) والذى نجح فى اعادة الحكومة الموالية لسياسة الرومان الى العرش ولكنه فشل فى جعل حاكم عميل للرومان يصل الى العرش ودفع جايوس حياته ثمنا لهذا النصر . وظلت أرمينيا فى حالة من الفوضى نتيجة لذلك حتى موت أغسطس فى العام الرابع عشر الميلادى . ولكن يحتوى خطر البارثيين قام الجنرال أجريبا بضم مملكة البوسفور Bosphor فى حوزة الممالك العملية للرومان (مكانها الآن منطقة كرميا على البحر الأسود فى الاتحاد السوفيتى) وبذلك ضمن اجريبا مصدرا غنيا بالقمح الجيد ليسد حاجة الجيوش الرومانية فى الشرق ويوفر عليها مشكلة نقل الغذاء الى القوات هناك ، وفى نفس الوقت هيأ هذا العمل العسكرى العظيم لروما دور « رجل البوليس » فى البحر الأسود .

٤ — أوروبا الغربية :

(أ) اسبانيا :

فرضت ظروف أسبانيا على اغسطس ضرورة اتخاذ خطوات عسكرية من نوع خاص ، فقد كان يسكن أسبانيا شعوب وقبائل مسالمة آثرت أن تسير فى حياتها اليومية دون أن تعبأ بالسلطات الرومانية أو تقيم لها وزنا (١) . كذلك كان الحال فى المنطقة الواقعة فى الشمال الشرقى لشبه جزيرة ايبريا Iberia حيث كانت تقطن قبائل الكانتابرى Cantabri والأستوريس Astures والجالايكى Gallaeci ، وظل الهدوء يسود أسبانيا الى أن قامت الحرب الأهلية وعمت الفوضى السياسية فى روما والتى سادت قبل مجىء اكتافيانوس ، عندئذ طمعت هذه القبائل وأعلنت التمرد والثورة وبدات تهاجم المستوطنين الرومان فى المناطق التى قبلت الحضارة والمدنية الرومانية وحملت فيهم قتلا ونهبا وتخريبا فى ممتلكاتهم . ومن الطبيعى أن يتجه أغسطس الى اخضاع هذه القبائل الشرسة لكى يسود السلام ربوع أسبانيا فسار على رأس حملة عسكرية عام ٢٦ ق.م. ثم لحق به قائدان من قواده هما انستيوس Antistius وكاريسيوس Carisius اللذان

---

(١) نظرا لظروف أسبانيا السياسية بعد حربها الاهلية ونظامها السياسى بعد الحرب العالمية الثانية ينعدم وجود الحفائر الاثرية بعكس الحال فى معظم ولايات الامبراطورية ولهذا فان مصادرنا عنها لا تزال نفس المصادر القديمة التى ترجع الى ما قبل الحرب العالمية الثانية ولا يكاد يوجد منها سوى .

C.H.V. Sutherland, The Romans in Spain, London (1939).

بالاضافة الى الكتاب القديم

E.S. Bouchier : Spain under the Roman Empire, New York, Oxford University Press (1920).

قادا عملية مطاردة هذه القبائل عبر الجبال حتى استسلمت تماما ، ثم حصروهم فى مناطق السهول لكى يمكن السيطرة عليهم . وتوكيدا للسلام أقام هذان القائدان عددا من المستوطنات والقرى العسكرية الرومانية فوق الجبال وفى المناطق الاستراتيجية الأخرى .

ومن الجدير بالذكر ان المرض كان قد أثقل على أغسطس اثناء هذه الحملة ، ولما سمع بكارثة الفيضانات فى روما اضطر الى العودة تاركا مهمة اخضاع أسبانيا وتأمينها لهذين القائدين اللذان استمرا فى عملية التطهير حتى عام ١٩ ق.م ، وعندما أدرك القائد كاريسيوس بأن القبائل الأسبانية لا تفهم المسالمة استخدم سياسة الارهاب العسكرى ففتك بأعداد كبيرة من هذه القبائل وأسر اعدادا أخرى باعها فى أسواق الرقيق . وربما كان هذا القائد ينفذ نصائح بل أوامر الجنرال الأول أجريبا . وعلى أى حال فقد ساد السلام فى أعقاب هذه السياسة القاسية .

ومن اشهر المستوطنات أو القرى العسكرية الرومانية مستوطنة اميريتا Emerita (مكانها الآن مدينة ميريدا Merida) وقيصرة اغسطا Caesara Augusta (ساراجوسا الحالية Saragossa) .

وعندما استتب السلام فى أسبانيا سلم اغسطس ولاية بايتيكا Baetica (١) الى السناتو ثم استقطع جزءا آخر من الغرب وجعله ولاية امبراطورية وهى ولاية اينسيتانيا Insitannia .

ب — مناطق الألب والبلقان :

وكما حدث فى اسبانيا واجه أغسطس موقفا مشابها فى منطقة جبال الالب المتاخمة لحدود ايطاليا الشمالية . لقد سكن هذه المناطق قبائل مشاكسة تعودت مهاجمة الاراضى الايطالية ونهبها من ان لآخر . كما احتلت الممرات الجبلية الغربية معرضة وسيلة الاتصال البرية الوحيدة بين ايطاليا وولاية الغال البعيدة للخطر .

وفى عام ٢٦ ق.م « بلغ السيل الزبى » عندما اندلعت حركة تمرد علنية بين قبائل السالاسى Sallassei لاول مرة منذ ثمان سنوات منذ أن اخضعهم الرومان ، وفى الحال استطاع الجيش الرومانى أن يقضى عليها كما فتك بأعداد كبيرة وبيع ما تبقى من السكان فى اسواق الرقيق . بعد ذلك اصدر اغسطس اوامره ببناء طريق يربط بين ايطاليا وممرات جبال الالب

---

(١) R. Thouvenot, Essai sur la province romaine de Betique. (Paris 1940).

وأن تقام مستوطنة عسكرية هى أو غسطا برايتوريا Augusta Praetoria (اوستا الحالية Osta) لكى تشرف على حراسته وتأمينه .

كما تمكن القائد الرومانى بوبليوس سيليوس نرفا Publius Sillius Nerva من احتلال منطقة نوريكوم Noricum (التيرول Tyrol وسالزبرج Salazburg)بعد معارك طاحنة كرد على تمرد قبائل هذه المنطقة فى عام ١٢ .قم ، وفى عام ١٥ ق.م أرسل اغسطس ولدى زوجته ليفيا وهما دروسوس وتيبريوس لاخضاع مناطق الألب فسار الأول شمالا مخترقا ممر برنر الشهير Brenner مارا بغابات ڤورالبرج Vorarlberg ثم الى بحيرة كونستانس حيث التقى بأخيه الذى كان قد اتجه شرقا الى بلاد الغال وتكاتف الأخوان معا فهزما قبائل الفندليكى Venedlici ومن ثم اصبح نهر الدانوب هو حدود الامبراطورية الرومانية شمالا واصبح الطريق ممهدا للمرحلة الكبرى القادمة وهو التوسع عبر الدانوب الى قلب المانيا . وعلى ايه حال فقد تم اخضاع شعوب الالب تماما عام ٨ ق.م وضمت ادارة بعض المناطق الى المستوطنات الرومانية الجديدة .

كما شمل مشروع اغسطس العسكرى تأمين منطقة البلقان حيث كان الخطر يهدد مقدونيا وتراقيا ومنطقة ساحل دالماتيا Dalmatia وكان هذا الساحل منطقة وعرة تسكنها قبائل ميالة الى العدوان ومحبه للقتال . ولكن اغسطس عهد الى القائد ماركوس فينيكيوس بتسكين هذه المناطق فسار اليها عام ١٣ ق.م حيث اخضع قبائل البوسنة وبانونيا Pannonia وقد اكمل اجريبا ومن بعده تيبريوس نفسه هذا المشروع الى أن خضع سكان هذه المنطقة تماما للحكم الرومانى عام ٨ ق.م .

جـ ـ بلاد الغال والمانيا :

كان يوليوس قيصر قد ترك بلاد الغال منهوكة القوى لا حول لها ولا قوة ولكنه لم يحاول تنظيمهما والعمل على ضمها للامبراطورية الرومانية ، ومن ثم فقد وقع العبء الأكبر فى ذلك على اكتاف اغسطس (١) وقد فعل ذلك ما بين اعوام ٢٧و١٣ق.م، ولضمان ذلك منح اغسطس السناتو حق الاشراف

---

(١) م اشهر المراجع التى عالجت تاريخ بلاد الغال وانتشار الثقافة الرومانية فيها N.J. De Witt : Urbanization and the Franchise in Roman Gaul (1940) also. J.J. Hatt : Histoire de la Gaule romaine (1959) also. G.E.F. Chilver, Cialpine Gaul : Social and Economic History From 49 B.C. to the Death of Trajan, New York : Oxord University Press. 1941.

على ولاية الغال القريبة Gallia Narbonensis ؛ اما ولاية الغال البعيدة فقد قسمها الى ثلاث مناطق ادارية هى اكويتانيا Aquitania ولوجدونيس Lugdunensis وبلجيكا Belgica ، وجعل على راس كل منطقة نائبا عن الامبراطورية Legatus ، وفى نفس الوقت جعل مدينة لوجدونم lugdunum (عاصمة الاقليم الثانى وهى ليون) هى مركز السلطة والقيادة للمنطقة كلها وعين حاكما للاشراف المركزى عليها جميعا . ومن الملاحظ ان الامبراطور لم يحاول نشر الثقافة أو توطين العنصر الرومانى فى هذه المناطق بل اكتفى بتقسيم بلاد الغال الى اربع وستين مقاطعة Civitates ثم جعل النبلاء من مواطنيها يحكمونها نظرا لولائهم الشديد للرومان .

وفى عام ٢٧ ق.م اجرى اغسطس احصاءا تعداديا لكافة سكان بلاد الغال اقر على ضوئه قيمة الضريبة المفروضة . وكان اغسطس يتمسك بشدة ببلاد الغال لأنها كانت مصدرا غنيا وبقرة حلوبا للامبراطورية الرومانية ، كما كان العسكريون يهتمون ببلاد الغال لكونها منجما للرجال الاشداء الذين اعتاد الرومان تجنيد القوات المساعدة منهم كما كانت بلاد الغال قاعدة عسكرية كبرى تخرج منها الحملات الكبرى .

لقد قصد اغسطس بعملياته فى بلاد الغال السيطرة على هذه البلاد ومنع حركات التمرد والتسلل والانتشار من الحدود الالمانية حيث كانت هذه القبائل تزعج السكان الآمنين وترهبهم . وذلك لان أهل الغال لم يكونوا هدف الرومان بل كان الالمان هم المقصودين بكل هذه الاجراءات ولقد استعد اغسطس لسنين طويلة لكى يقوم بعمل عسكرى حاسم ضدهم وظل مشروع غزو المانيا هو شغله الشاغل حتى آخر ايامه .

لقد بدأ هجوم الجيش الرومانى على المانيا عام ١٢ ق.م تحت قيادة دروسوس Drusus شقيق تيبريوس Tiberius الأصغر . وكان الهدف الأول لهذا الهجوم هو القيام بضربة مانعة ضد القبائل الجرمانية التى كانت تتأهب للهجوم على بلاد الغال وللانتقام من شر هذه القبائل ، ايضا كان هدف هذه الحملة احتلال المنطقة الواقعة مابين نهر البى Elbe ونهر الراين وجعل نهر البى هو المانع الطبيعى لحدود الامبراطورية . اما تيبريوس فقد أدرك أن خط نهر البى والدنواب سوف يوفران على الجيوش الرومانية الكثير من المتاعب ويجعلها قادرة على التحرك بسهولة ما بين بحر الشمال والبحر الاسود وهو طريق أسهل بكثير من خط الراين — الدنواب . ولقد تمكن دروسوس من تحقيق عدة انتصارات بسهولة على الجرمان ما بين أعوام ١٢ و ٩ ق.م وذلك لأن الجرمان بالرغم من شراستهم فى القتال وشجاعتهم واقدامهم — كانوا

الامبراطورية الرومانية
جبهة الراين والدانوب
بحر الشمال
Alpis
chauci
الفريزى
Frisi
نهر البى
غابات تيوتوبرج
قبائل الباتافى
Batavi
قبائل السويفى
Suevi
قبائل الكاتى
Castra Vetera
كاسترا فترا
بونا
جبل تاونوس
قبائل الماركومانى
Marco manai
نهر الماين
تريفيز
Augusta
بوهيميا
قبائل الكوادى
Quadi
Raetia
نهر الدانوب
إقليم رايتيا
م. فهمى

مفككين سياسيا ومتقاتلين داخليا مما جعلهم ضعفاء أمام الجيوش الرومانية المنظمة والعاتية . ولكى يؤمن دروسوس فتوحاته انشاء على ضفاف الراين خطا من القلاع التحصينية يبدأ من فندونيسا Vindonissa (بالقرب من بازل Basil) وينتهى عند كاسترانيترا Castra Vetera (١) كما استخدم الأسطول الرومانى فى نقل الجنود والعتاد . وقد شق لهذا الغرض قناة من الراين الى زويدر زى Zuider Zee وبذلك جعل الطريق المائى الى نهر البى Elbe قصيرا وآمنا . كما ساعد الأسطول على اخضاع القبائل الجرمانية التى كانت تسكن المناطق الساحلية ومن اهمها قبائل البتافى Bataavi التى أصبحت فيما بعد من أصدق حلفاء الرومان .

ولم يمهل القدر دروسوس لكى يكمل مشروعاته العسكرية فى المانيا اذ سقط من فوق صهوة جواده وهو فى طريقه من غزو البى عام ٩ ق.م مما تسبب عنه وفاته ، وعلى أثر ذلك تولى خوه الأكبر Tiberius القيادة ، ويقال ان تيبريوس عاد الى روما مصطحبا جثمان اخيه حيث ووری جثمانه فى العاصمة ، وسواء رجع تيبروس لاتمام العمليات العسكرية أم انه يئس من جدوى الحرب ضد الجرمان وبقى فى روما ، فقد ادعى الرومان بأنهم هزموا الجرمان ومنح تيبريوس لقب قاهر الجرمان Germanicus ولكن الحقيقة غير ذلك . لأن الجرمان لم يهزموا فهم شعب صعب المراس ، شرس الطباع ، ميال للقتال ، معتز بنفسه يرفض الانصياع لغيره من الشعوب .

اخماد الثورات فى الليريا والمانيا :

وبعد موت دروسوس توقفت الحملات العسكرية تماما حتى العام الرابع الميلادى . وعندما عين أغسطس ابن زوجته تيبريوس قائدا عاما للقوات الرومانية فى منطقة الراين ، قام الاخير بتفقد المناطق التى سبق أن فتحها عند منطقة نهر البى حيث اطمأن لولاء القبائل الجرمانية القاطنة بها ثم بنى عددا من الاستحكامات والقلاع . وبعد أن فعل ذلك استعد لفتح بوهيميا الواقعة بين الالب والدانوب . وكانت خطة تيبريوس أن يتحرك شمالا من الدانوب وفى نفس الوقت يتحرك مساعد له هو الجنرال جايوس ساتورنينوس شرقا من منطقة الراين ثم يلتقيا فى « كماشة » على القبائل الجرمانية (١) .

---

(١) انظر الخريطة ٢ ، جبهة الراين والدانوب ، .

وفى عام ٦ ميلادية وقبل اعطاء امر التحرك طيرت الى تيبريوس انباء اندلاع ثورة الليريكوم Illyricium فأرجأ مشروعه العسكرى بعد أن عقد معاهدة سلام مع ملك بوهيميا . وفى هذا الوقت كانت الثورة قد انتشرت وانضم اليها سكان بونونيا ودالماتيا . ويقال أن سبب اندلاع الثورة فى هذه المنطقة فشل روما فى التوغل جيدا فيها واحتلالها احتلالا مطلقا وصارما كما ان شعوبها آثرت الثورة ضد الرومان لبهاظة الضرائب وبسبب العبء الذى كان يقع على عاتقهم من جانب قوات الاحتلال الرومانى وخاصة تموين الجيوش ومدها بالمواد الغذائية وتسخيرها للعمال .

وقد بلغت ثورة الليريا حدا ازعج الرومان وارهب الحكومة والشعب الرومانى ، لقد ذبح الجنود ، الضباط ومثل برجال الأعمال الرومان أبشع تمثيل واهينت الشعارات الرومانية واضحت ايطاليا نفسها مهددة بالغزو عبر البحر الادرياتيكى ، وسارع المسئولون الرومان باتخاذ اجراءات عسكرية سريعة فجندت كتيبة على عجل لدرجة ان العبيد المعتقين قبلوا جنودا فيها . ولما طلب تيبريوس النجدة تحركت القوات الرومانية من سائر ولايات الامبراطورية لنجدته يبدو أن روما لم تتوقع فى يوم من الايام اندلاع ثورة بمثل هذا العنف ، خاصة بعد ان اعتقدت أن السلام الرومانى قد تحقق، وكادت روما أن تقع فى ورطة بسبب العجز الذى كان موجودا فى الخزانة العسكرية وبسبب انتشار موجة امتناع الشباب الرومانى عن الانخراط فى سلك الجندية وخاصة شباب الايطاليين عصب الجيوش الرومانية . وانهمك تيبريوس فى العمل الشاق ثلاث سنوات حتى اخمد هذه الثورة وسحق الثوار وقضى على مقاومتهم، وعلى انقاض الدمار أعاد تيبريوس تقسيم البلاد اداريا فجعل منطقة بانونيا وحدها ولاية مستقلة وكذلك فعل بمنطقة ميسيا Moesia وكان ذلك فى العام التاسع الميلادى .

وظلت القبائل الجرمانية مسالمة للحكم الرومانى الى ان اخمدت الثورة الالليرية والى أن استثارها قائد رومانى عنيد هو بوبليوس كونتليوس فاروس Varrus اراد اذلالها والامعان فى تقييد حريتها . وعندئذ بدات القبائل الجرمانية تتناسى خلافاتها وتتحد تحت لواء الثورة ضد الرومان .

وقد تزعم النضال ضد الرومان احد زعماء القبائل الخيروسكية cherusci وكان اسمه أرمينيوس . وكان الأخير قد اكتسب خبرة فى الحروب أثناء خدمته فى القوات المساعدة الرومانية حيث كوفىء بعدها بمنحه الجنسية الرومانية وتقيد اسمه فى قائمة الفرسان . بدات الثورة

(٢) انظر خريطة رقم ١ .

اعلانها بكمين دمـوى عنيف أعد للقوات الرومانيـة . فبينما كان الجنرال فاروس يسير فى مقـدمة كتائبه الثلاث عبر غابات تويتبرج Teuteberg هجمت عليه القبائل الجرمانية وابيدت الفرق الرومانية الثلاث عن آخرها ولما وصلت هذه الأنباء الى العاصمة ساد الذعر والقلق وقيل أن الامبراطور اغسطس ـ الذى كان قد تقدمت به السنون واصبح مسنا ـ صرخ فى وجه مساعديه « اريد منك يافاروس ان تعيد الى فرقى Quintili Vare : legiones redde !! » يستطيع الدارس أن يحس بمدى المرارة التى شعر بها الامبراطور وهو يهذى بهذا الرجاء المستحيل ، بل انه أطلق شعره مهدلا لعدة اشهر حزنا وحدادا وكان ينتابه حالة من الهستيريا بين الفينة والفينة فيضرب راسه بالحائط مكررا نفس العبارة (١) فقد كان من المحال أن يجند بديلا لها لأن مصدر التجنيد قد نضب ولم يعد الشباب الرومانى فى ذلك العهد يطيق الخدمة فى الجيوش .

وهرع تيبريوس لينقذ الشرق الرومانى وليغسـل عـار فارو (٢) . وعبر الراين حيث قام بهجومين متتاليين اشبه بحملات الردع والتـأديب ولكنه لم يحاول استرداد الأراضى التى استولت عليها القبائل الجرمانية . اذ هجرت روما مشروعاتها فى فتح وسط أوربا وقنعت بجعل الراين هو حدودها لأن الجيش الرومانى كان مرهقا لم يفق بعد من مشقة القضـاء على الثورة الالليرية فضلا عن أزمة التجنيد .

لقد اساء الرومان تقدير مهارة الجرمان القتالية ، وتخيلوها قبـائل سهلة المراس ، تخيفها الحربة والسوط شأنها شأن قبال الغال أو سكان آسيا الصغرى وللأسف لم يكن هذا لاول مرة .

وبصرف النظر عن الهزائم والنكسات العسكرية فقد تمكن اغسطس من أن يحقق لشعوب البحر المتوسط امنا وسلاما لم يشهد مثله من قبل ، وتحقيق السلام فى العالم عمل شاق لا تتحمله طاقة رجل واحد ولذا اعتمد الامبراطور على اقاربه واصدقائه ومعارفه وحاشيته وفوق كل هذا وذاك على الفرسان الذين سبق الحديث عنهم وذلك لحراسة السلام وبناء الجهاز الادارى السليم .

---

(1) Suetonius, Divus Augustus, 23,2

(2) Tacitus, Annales, I, ? 4.

رابعا ـ اصلاحات أغسطس فى المجال الاجتماعى والأخلاقى والدينى :

(ا) حركة البعث القومى والاحياء الدينى :

أن نظرة عامة على شخصية أغسطس تجعلنا ندرك كم كانت شخصيته معقدة ومتعددة الجوانب . لقد كان خليطا من التيارات والأفكار المتناقضة فهو بطل الحرب ونبى السلام فى آن واحد ، وهو المصلح الصالح ومدبر المؤامرات الدامية ، وهو الرحيم بالناس وصاحب فكرة الاستئصال الكلى لأعدائه ؛ وهو الثورى العنيف والسياسى والدبلوماسى المهذب وهو صاحب الدعاية الفاضحة المشهرة بالناس ، والشيخ الوقور والكاهن الأعظم حامى حمى الأخلاق والتقاليد والعرف الرومانى .

لم يكن أغسطس أقل تحمسا ونشاطا فى الميدان الدينى عنه فى الميدان السياسى ، بل أن اصلاحاته فى المجال الدينى كانت عملا متناسقا مع مخططه الكبير الذى قصد به الاصلاح العام للأمة ، ولقد تساءل المؤرخون حول فلسفة أغسطس الثورية هل كان مصلحا أم ثوريا يريد هدم الصرح القديم واقامة صرح جديد مكانه ؟

يرى رستوفتزف أن أغسطس لم يكن هذا (١) ولا ذاك ، بل كان موقفا بين الجديد والقديم ، متفهما للمشاكل الاجتماعية فى بلده ولسيكلوجية الجماهير فيها ؛ ولذا فقد نتش بين كنوز التراث الدينى القديم ليختار ما يتناسب وظروف المجتمع الرومانى الجديد الذى مزقته ثمانون عاما من الحروب الطبقية والاجتماعية الدامية والتى تركت بصماتها واضحة على حياة الناس .

لقد كان المجتمع الرومانى قبل مجيىء أغسطس مجتمعا محطما خلقيا واجتماعيا ؛ لم يعد يبال أو يمارس الشعائر الدينية التى خلفها له الأولون . حقيقة أن آلهة الرومان القديمة لم تكن قد ماتت تماما ولكن الظروف الجديدة ساعدت على مولد آلهة جديدة بالرغم من أن الديانة القديمة بقيت محل احترام وتقدير من جانب الدولة ولكن على الصعيد الرسمى .

لقد شهدت هذه الفترة مولد « عبادة الدولة » فى شخص الربة Roma وجوبتر الكابيتولى Juppiter Capitolinus ولم يكن هذا الاتجاه

(١) لقد اعتمدت اعتمادا يكاد أن يكون كاملا على مقالة روستوفترف الشاملة والرائعة وهى :

M.I. Rostovtzeff : Augustus (University of Wisconisin Studies in Language and Literature - 15).

السياسى الدينى جديدا على الرومان الذين كانت ديانتهم دائما وابدا تعبيرا عن القومية والوطنية ورمزا للقوة والسيطرة والتربع على عرش العالم المتحضر ، أضف الى ذلك سيكلوجية الجماهير فى أوقات الأزمات والمصاعب ، حيث ينظر الناس الى الماضى العتيق نظرةشوق وحنين ممزوج « برومنتيكية » حالمة الى درجة القداسة . أى أن حركات البعث والتجديد تجد فى مثل هذه الاحوال المناخ المناسب للنمو والظهور . ولما كان الدين من أهم دعائم المجتمع الرومانى فان اصلاحه أصبح ملحا واحياء شعائره أضحت حنينا ، خاصة بعد ما ناله على أيدى الفلاسفة الملحدين والمثقفين والتشككين نتيجة للأحداث الدامية التى عصفت بروما طيلة قرن من الزمان (١٣٣ ق.م — ٣٠ ق.م) .

وقبل أن نسترسل فى هذا الموضوع يجب أن نذكر القارىء بأن حركة البعث القومى والاحياء الدينى لم تكن بمثابة انتصار للدين على الدنيا او هزيمة للروح أمام المادة لأن الروما نلم يتطرفوا فى اى منها طيلة تاريخهم بل مالوا دائما الى مزج الدين بالدنيا .

وقد نجد مثلا على ذلك فى الشاعر الرومانى هوراتيوس صاحب الترانيم الدينية الصوفية وهو الذى اشتهر فى نفس الوقت كشاعر للخمريات الماجنة والأغانى الدنيوية الصاخبة .

كذلك نجد فرجيل أمير الشعراء ينظر الى الديانة الرومانية القديمة من زاوية رومانتيكية فى كل الموضوعات التى تناولتها أشعاره . وبالرغم من « عصرية » الموضوعات والأفكار التى تناولها فلاسفة الرومان الرواقيون المتأخرون من أمثال مدرسة بوسيدونيوس Posidonius (١) الا أن الاتجاه العام مال الى تبنى النظرة التقليدية المحافظة . وعندما نشير الى ذلك فاننا

---

(١) اغريقى سورى ولد حوالى عام ١٣٥ ق . م فى مدينة أباميا على نهر العاصى . وبعد أن اتم تعليمه هناك انتقل الى مدينة أثينا ليدرس الفلسفة على يد الرواقى الشهير باناتيوس . وعاد فاستوطن رودس حيث أسس المدرسة الرواقية هناك بل وانتخب رئيسا ممثلا لاهل الجزيرة فى روما فى عهد سوللا . وهناك اقام صلات وثيقة مع قادة الفكر والسياسة من امثال بومبى وشيشرون . وقام بوسيدونيوس برحلات لدراسة الجغرافيا والطبيعة وبرهنا على الفكر البشرى من أجل أثبات ودعم نظريته فى اثبات وحدة [illegible] ودعما لنظريته عن مدينة الله الفاضلة . وكان بوسيدونيوس مؤمنا بوجود صلة قوية بين الآلهة وعالم البشر وان الخير والشر هو هذه الصلة . وقد ترك عددا من المؤلفات العلمية فى الرياضة والفلك وفى التاريخ والجغرافيا والبيئة . وكان لافكاره تأثير عظيم على المفكرين الرومان امثال لوكرتيوس وشيشرون وتاكيتوس وسينيكا وبلينى الاكبر [illegible] ٥٠ ق . م [illegible] عام ٨٤ .

نضع فى الحسبان الشعراء المتخصصين فى فقه الدين الرومانى والذين كان هوميروس وشعراء المسرح التراجيدى الأثينى رواده‍م الأول لأنها مدرسة Varro (١).

لقد تعرضت الآلهة الرومانية القديمة لتيارات معادية ومنافسة قادمة من الشرق ذلك المنجم الغنى بالتراث الدينى والروحى — اذ تسللت آلهة غريبة وجديدة سرعان ما فرضت نفسها على المجتمع الرومانى أتريفى ، كما ان الناس بدأوا فى تقبلها وذلك لأنها كانت تشبع متطلباتهم من الغذاء الروحى الصوفى . وكما هو معروف فى تجارب الفكر عند الشعوب يلجأ الناس فى أوقات الأزمات العصيبة الى الانغماس فى الدين هروبا من الواقع المر وبغرض اشباع نوازعهم النفسية والوجدانية فى عالم اللاموجود عندئذ تتخذ الديانة الشكل الصوفى الغامض (mystical) وقد حدث هذا فى روما فى نفس الوقت الذى مالت الطبقة المثقفة والمستنيرة الى الالحاد والمادية الفكرية .

لقد هرب الفقراء والمعوزون رجالا ونساء من عالم الآلام الدنيوية الى عالم الهدوء ومملكة الروح حيث لا هم ولا قلق ، وراحوا يعزون انفسهم ان هناك عالما غير هذا العالم يلتقى فيه الانسان بالآلهة الخالدة ، ويكافىء فيه المؤمن الورع بجنات وارفة الظلال ، ولهذا لم يعد الفقراء يخافون « الموت » بل تلهفوا عليه ورحبوا به على أنه « الخلاص » من قيود الحياة والبلسم الشافى من أسقامها ، بل أكثر من هذا فان بعض التيارات الفلسفية والثقافية تثبت أن الاتجاه الصوفى الذى يتمثل فى الزهد والخلاص قد استولى على وجدان الطبقات المستنيرة وغير المستنيرة على السواء .

---

(٢) هو ماركوس تيرنتيوس فارو (١١٦ — ٢٧ ق . م) . أعظم الادباء والعارفين الرومان جميعا والتلميذ الرومانى الاول للثقافة الافريقية . ولد فى مدينة رياتى السابينية ثم درس وتعلم فى روما ثم سافر الى اثينا لدراسة الفلسفة وعاد ليتقلب فى سلك الوظائف الرومانية — وبالرغم من وقوفه مع بومبى الا أن قيصر اختاره ليشرف على مشروع تأسيس المكتبة الكبرى فى روما . وبعد اغتيال قيصر طالب انطونيوس بدمه فهرب . وبعد انتهاء الحرب الاهلية كرس نفسه للبحث من أجل السلام ويقال ما أن جاء عامه الثامن والثمانين حتى كان قد انتهى من تأليف ٤٨٠ كتابا . للاسف فقد معظمها الا اجزاء من مؤلفيه الكبيرين وهما « عن اللغة اللاتينية » De lingua Latina والكتب الثلاث عن شئون الزراعة rerum rusticarum Libri iii

ولم تجد المذاهب والطوائف الدينية وقتا انسب للازدهار (١) من مثل هذا العصر ، فظهرت البيثاجورية الجديدة Neo-Pythagorianism والأورفية Orphism (٢) واصحاب نظرية قدوم المخلص المنتظر .

لقد بلغت هذه التيارات الدينية الفلسفية أقصى رواجها فى أعقاب الحروب الأهلية كما ان فرجيل شاعر الامبراطورية يكشف عن مثل هـذا الاحساس فى الاكلوج الرابع Eclogue وفى الكتاب السادس من الانيادة .

ولقد عثر الأثريون على بقايا اماكن منعزلة اغلب الظن انها استخدمت لممارسة الشعائر الصوفية الغامضة والسرية ، وهناك من يقارن بين هذا التيار الصوفى الانتظارى الذى ساد فى روما وبين الموجة الدينية التى أحدثها انبياء بنى اسرائيل ابتداء من حزقيال واشعيا الى يوحنا المعمدان حيث نودى فى الناس ان المسيح المنتظر سوف يجىء ويضع نهاية لهذا الظلم الجائر ويبدأ على يديه عهد مبارك جديد يتحقق فيه للناس المسرة وللأرض السلام ، وربما جاءت هذه الدعوة من الشرق الأوسط وسادت فى روما لأننا نجد كبريات العقليات السياسية التى تتعلق بالمنطق والعقلانية تفسح مكانا فى قلوبها للروحانية والغيبيات الدينية بما فى ذلك السحر والتنجيم ، ويتمثل ذلك واضحا فى تعاليم الفيلسوف بوسيدونيوس Poseidonius واتباع المدرسة الرواقية المتأخرة حيث لعب السحر والتنجيم والفلك دورا هاما وامتزجا معا كالروح والجسد بالرغم من أن الأول كان غيبيا والآخر عقلانيا .

ومن اهم المؤثرات التى تثبت امتزاج الدين بالدنيا ظهور نوع جديد من الشعائر والعبادات التى تهدف الى غرض مادى دنيوى . فقد ازدهرت فى هذا الوقت ربة جديدة هى ربة الحظ السعيد Fortuna بل وغطت على باقى الآلهة الرومانية الأخرى ابان عصر الثورة .

---

(١) هم اتباع الفيلسوف الرياضى بيثا جوارس (فيثا غورس) الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد فى مستوطنة كروتون بجنوب ايطاليا . وقد ظهر أصحاب هذه المدرسة الجديدة فى روما والاسكندرية ابان القرن الاول قبل الميلاد ، ولم يكن لهم نظرية محددة بل خليطا من افكار افلاطون وارسطو والرواقية ولكنهم اهتموا باللاهوت وعلم الارقام والوحدات الرقمية . الذى فى نظرهم هو أساس كل شىء وقد أثرت هذه المدرسة على الفكر اليهودى والمسيحى فى الاسكندرية وعلى فلسفة أفلوطين بالذات .

(٢) أى اتباع اورفيوس الشاعر والمغنى الساحر والاسطورى الذى قتلته نساء تراكيا والتين بأعضاء جسمه فى البحر فطفت رأسه تغنى حتى جزيرة لسبوس حيث دفنت هناك . وقد ظهرت له مدرسة منذ القرن السادس ق . م تؤمن بروحانية وتبحث عن مصير الروح بعد الموت وتدعو الى تطهير النفس عن طريق الموسيقى والانشاد الدينى وتعبد اورفيوس كنبى لها .

وكذلك ازدهرت عبادة مركوريوس (هرميس الاغريقى) رب الرخاء والخير المفاجىء، واللاريس Iares ربات وراعيات الأسرة والبيناتيس حاميات الديار والحياة المنزلية وكانت هذه الآلهة تتقدم فى ثبات كلما عصفت الثورة وعلا هدير الثوار ودارت رحى القتال وظهرت بصمات الحرب وآثارها الاقتصادية القاسية على المجتمع واشتد القلق النفسانى وظهر واضحا فى تفكير الناس ، وانتشرت موجة من البوهيمية والميل الى الانغماس فى الغيبيات والخرافات والشعوذة والسحر . لقد كانت هذه الآلهة تجسيما حالما لأمانى الناس ورغباتهم المادية والمعنوية .

لقد قذفت أمواج الحروب الأليمة العاتية بشخصيات شهيرة الى مراكز السلطة، ورفعت رياح الثورة بعضها الى قمة الحكم ، فظهرت عبادة الفرد Cult of Personality نتيجة لتعلق أمانى المواطنين واعتماد وجودها على احد من هذه الشخصيات الكبرى أو الاسماء اللامعة التى أحاطتها بسياج من الحب والأمل . وكانت على استعداد من أن تموت من أجلهم علهم يخلصون البلاد من حالة الفوضى ويتحقق على أيديهم السلام والرخاء . لقد بزغ فى سماء روما نجوم لامعة مثل سوللا وقيصر وأنطونيوس وأوكتافيوس . وسرعان ما ربطت الجماهير بين هؤلاء القادة كأبطال للحق ورسل للسلام والرخاء ، وبين رسالة الآلهة وأبطال الأساطير القديمة من امثال هرقل Hercules ومركوريوس وأبوللون Apollo واصبحت الجماهير تؤمن بأن هؤلاء القادة والزعماء انما يحملون على عواتقهم رسالة الآلهة بل يقومون بدورها عندما هبطت الى الأرض — للمرة الأولى والأخيرة — فى فجر الانسانية ، وسرعان ما مزجوا بين فكرة « المسيح المنتظر » او « المخلص المختار » وبين هؤلاء القادة ، بل أن الناس كانوا على استعداد لعبادتهم اذا ما حققوا السلام والرخاء .

لقد كان أغسطس صبيا عندما كانت تجتاح المجتمع الرومانى مثل هذه التيارات ، ولعله شاهدها وتأملها وجادل نفسه فيما ينبغى وما لا ينبغى قبوله منها ، لعله أيضا هام يحلم بأن يكون على رأس الدولة — ثم فكر فى كيفية استغلال هذه التيارات بعد مسح شامل لسيكولوجية الجماهير من أجل تحقيق أمانيه وطموحه السياسى خاصة وأنه كان ذا نظر ثاقب ، قوى الملاحظة ، ومن الصعب على الدارس لحياة أغسطس ألا يعتقد أن هذا الحقل الخصب قد تاه عن فكره وهو الذى كان يحسب لكل شىء حسابا . كما أن المتتبع لاصلاحاته ليدرك انه كان يتمتع بعقلية الشيخ الوقور المحافظ والغيور على التراث القديم منذ صباه ولذا لم يكن من الغريب أن لا يأتى بأمور وبدع جديدة بل اتجه الى ميدان البعث والاحياء من التراث القديم .

وكانت الخطوة الأولى هى ترميم المعابد والاماكن المقدسة واصلاح ما امتدت اليه يد الدهر وعبث الحروب . ويخبرنا أغسطس انه رمم اثنين وثمانين معبد بالاضافة الى المعابد الكبرى مثل معبد جوبتر الكابيتولى وهو مركز عبادة الدولة الرسمية ، ومعبد الرب كويرينوس Quirinus وهو رومولوس بعد تأليهه ، ومعبد الأم الكبرى Manga mater .

وفى عصر اغسطس نسمع عن قائد شهير اسمه موناتيوس بلانكوس Munatius Plancus قام بترميم معبد الرب ساتورنينوس Saturninus فى قلب ساحة السوق العامة Forum فى روما . كذلك اعاد اغسطس الى البعث ربة الفلاحين والزراع القديمة Dea Dia من أجل خدمة الريف والنهوض به، كما بعث الحياة من جديد فى عبادة الرب الرومانى يانوس Janus كمحقق للسلام . وهكذا أحيا الامبراطور الشعائر القديمة ارضاء واستجابة لحنين الناس الى عبادة الأمس فحسب ، بل لكى يستغل ذلك لتحقيق شعبية واسعة بين الجماهير .

كذلك لم يأل اغسطس جهدا فى كسب عشاق التيارات الدينية الجديدة وعبادة الآلهة الوافدة من الشرق أو المجسمة لأحلام الناس فأقام العديد من المعابد والمحاريب لربات الخير والبركة مثل فورتونا ربة الحظ وباكس (١) Pax ربة السلام ومركوريوس رب الخير الوفير .

كذلك حاول الامبراطور ان يلصق اسمه بعد اسم كل من هذه الربات فنسمع عن عبادة الربة فورتونا او غسطا Fortuna Augusta ، وباكس اوغسطا ، ومركوريوس اغسطس وغير ذلك محاولا اقناع الرومان بطريقة

---

(١) عن آثار محراب السلام الاوغسطى انظر :
city and its Monuments. (Pheidon Press 1967), p. 193 ff.

الجنرال أجريبا

أغسطس فى ثوب الكاهن الأعظم

غير مباشرة بأن كلمة أوغسطس كلمة مباركة ومقدسة وبديلا للخير والرفاهية (١) .

ويكاد الدارس أن يجد وجها كبيرا للشبه بين أغسطس وبين الربة روما . لقد كانت روما ربة قديمة تتميز بشراستها وحبها للقتال ولكنها فى العهد الجديد ارتدت رداء السلام وأصبحت ربة الرخاء تعمل من أجل البشر جميعا وبالتالى انتقاها أغسطس والصق اسمه بها واصبحت تعرف باسم Roma Augusta ؛ وكذلك فستا Vesta ربة الوقد وقد انتقلت من معبدها القديم فى قلب المدينة الى قصر أغسطس فوق تلال البلاتين ، كما تجمعت اللاريس حول اغسطس الذى أصبح تجسيدا للشعب الرومانى والذى صورته التيارات الجديدة فى شكل رب اسمه Populus Romanus اى الشعب الرومانى .

هكذا دفع أغسطس التيارات الدينية من قصره لتتفرع الى كافة اجهزة الدولة ، تمتزج بتفكير الناس او بعبارة أخرى كانت كل الجماعات والقنوات الدينية المتفرعة تصب فى مصب واحد الا وهو أغسطس . وهذا يذكرنا بقصر الملك فى كريت الذى كان معبد الدولة وبيت الملك فى نفس الوقت ، أو بمركز الفرعون المصرى وملوك بابل واشور .

كذلك يمكن القول بأن اغسطس لم يترك تيارا دينيا واحدا الا وجنده لتدعيم مركزه ، وفرض صورته المقدسة على المجتمع الرومانى نقول ذلك لأن يد أغسطس تناولت فكرة « الهادى المنتظر » أو « المسيح المخلص » التى بشر بها أنبياء اسرائيل والتى كانت سائدة فى هذا العصر ليس فى روما فقط بل فى الشرق الاوسط كله ، فأوحى لمن راحوا يلمزون للناس بأن هذا المهدى المنتظر قد جاء فعلا وهو موجود فى قصره فوق تل البلاتين وانه بدأ عصرا جديدا .

ومن يقرأ مناجاة الشاعر هوراتيوس للرب مركوريوس يكاد يحس بأن الشاعر يناجى أغسطس فى شخص هذا الرب . صحيح اننا لا نجد شاعرا واحدا يتحدث علانية عن تقمص أغسطس لشخص المسيح المنتظر ولكنهم تحدثوا عن « المخلص » الذى حرر روما من أغلالها وضمد جراحها ثم قادها بعيدا عن الهاوية ؛ تحدثوا عن مبعوث الآلهة الذى جاء بالهدى

(١) وكان ذلك بداية لعبادة الاباطرة انظر :

L. Cerfaux et J. Tondriau, Les Cultes des Souverains (1956) ; L.R. Taylor, The Divinity of the Roman Empire (1931). also cf. John Ferguson, The Religions of the Roman Empire [Aspects of Greek and Roman life] (Thames and Hudson 1970) Chapter VI, pp. 88-97.

والسلام وبالرخاء والوئام . تحدثوا عن ذلك وهم يلمحون الى اغسطس و « كل لبيب بالاشارة يفهم » .

ومن يبحث عن دليل يثبت به تأييد أغسطس فى نشر فكرة أنه المخلص والمنقذ ليجد ضالته المنشودة فى اهتمامه وعنايته بالآله أبوللو Apollo (أو أبوللون باليونانية) والذى عرف عند اليونان والرومان على السواء بأنه الرب المنقذ ، لهذا السبب اهتم به اغسطس وبعبادته وخصص مساحة كبيرة بجوار قصره المسمى باسم بيت ليفيا Casa Liviae فوق تل البلاتين(١) لكى تقام له الألعاب الدينية المعروفة باسم Epiphanes Apollo كما أشيع أن أبوللو هو الجد الأكبر لعائلة يوليوس التى ينتسب اليها اغسطس Gens Julia بل أكثر من هذا حيكت الأقاصيص المصطنعة عن أبوللون الذى تسلل ليلا فى صورة ثعبان كبير الى فراش آتيا والدة اغسطس وضاجعها فحملت وأنجبت وليدها العظيم .

كما أن اغسطس لم يكف ابدا عن التسبيح بحمد أبوللو والثناء عليه لأنه آزره ونصره على أعدائه . فهو الذى وقف الى جواره يوم أكتيوم ونصره وناصره ، وبعد انتهاء الحروب فاذا به يقيم بجوار معبده ويعمل معه من اجل اصلاح المجتمع الرومانى .

كما ساد الاعتقاد بأن ابوللو قد ظهر فى جسد اغسطس وبأن الامبراطور ما هو الا أبوللو فى صورة البشر . وسرعان ما تلقف عشاق المذاهب الصوفية الغامضة هذه الفكرة وهللوا لها ؛ بل صاغوها فى الشكل الكهنوتى الذى يريدونه . وكان الاغريق أكثر المهللين لهذه الفكرة لأنهم كانوا صناع الآلهة والعبادات وخاصة فى العصر الهللينستى .

ولما كان أبوللو فى الأصل ربا اغريقيا قبل أن يكون رومانيا فقد اعتبر الأغريق ذلك انتصارا للهلينية اى ان ثقافتهم نجحت فيما فشلت جيوشهم فى تحقيقه وهو الانتصار على الرومان .

---

(١) اطلق هذا الاسم بعد اكتشاف بقايا ما يعتقد انه كان بيت الامبراطور اغسطس وذلك فى عام ١٨٦٩ وهو عبارة عن ثلاثة مقصورات واسعة مزينة برسومات دينية ومصرية قديمة . وفى عام ١٩٦١ تم اكتشاف منزل مجاور يرجح انه هو بيت اغسطس وليس الاكتشاف القديم . ومن الجدير بالذكر أن فرجيل ذكر فى الأنيادة ان المهاجر الاركادى الأول ايفاندروس اقام بيته الاول فى نفس المكان الذى أسس فيه اغسطس بيته وهو نفس المكان الذى قضى فيه اسياس ليلته الاولى انظر :

D.R. Dudley, op. cit., p. 163.

لقد مهد أغسطس لعبادته بأن جمع كل الاتجاهات الدينية والعقلانية فى عبادة الاله يوليوس Divus Julius (اى يوليوس قيصر) وغذاها بالروايات والأساطير حتى نمت وترعرعت مستغلا العواطف والأمانى الوطنية للشعب الرومانى عندما ذكرهم بأن اينياس Aeneas جد الرومان الاكبر لم يكن سوى ابن ربة الجمال فينوس Venus التى ينحدر منها أبوه يوليوس قيصر والذى أشيع انه ظهر فى شكل نجم فى سماء الكون . كما أن اغسطس شيد لقيصر معبدا Aedes Divi Iulli فى ساحة المدينة Forum تماما كما فعل لجدته الكبرى فينوس . —

ولم ينس أن يبنى محرابا للاله مارس المنتقم Mars Ultor فى ساحة اغسطس أيضا Forum Augusti (١) لأن هذا الاله هو الذى انتقم لمقتل يوليوس قيصر واقتص من قتلته .

لقد كان اغسطس يعلم علم اليقين بأن الاله يوليوس قيصر سوف يتحول الى الاله اغسطس Divus Augustus بعد موته ولهذا الغرض بنى اغسطس لنفسه قبرا جميلا فى شكل ضريح جميل (٢) Mausoleum فى قلب ساحة الاله مارس المنتقم رائد شباب الرومان . وهذا يقودنا الى الحديث عن علاقة اغسطس بقطاع الشباب الرومانى .

أغسطس والشباب :

لم يتوانى اغسطس أبدا عن بث صورته المقدسة فى قلوب الشباب باعتبارهم عصب الامبراطورية وقادة المستقبل وحملة رسالتها من بعده فاهتم بتنظيماته وجمع حوله ابناء كبريات الاسرة القديمة والنبيلة . لقد أحيا اغسطس جماعات الشباب الدينية القديمة وبث فيها روحه كما حاول أن يربط بين ايمان الشباب بالعقيدة الدينية وولاء هذا الشباب لشخصه تلك هى فلسفة الحركة الأوغسطية الجديدة . ففرجيل يتحدث منفعلا بأسلوب عاطفى « ورومانتيكى » بالغ عن احياء العاب طرواده الاولمبية لأول مرة منذ أن هدمها الأغريق منذ أكثر من اثنى عشرة قرنا ، كما نعلم أن انشودة العصر Carmen Saeculare التى الفها هوراتيوس كان ينشدها « كدرال » منتقى من ابناء وبنات كبريات الأسر ، كما اعتاد اغسطس ان يستعرض الشباب فى ساحة معبد مارس المنتقم وهم يمتطون جيادهم ويرتدون زيا عسكريا .

وأخيرا وليس آخرا — يجب أن نذكر القارىء بأن الاتجاه نحو

---

(١) Dudley, op cit., p. 123-129.

(٢) op. cit , p. 196-199.

استخدام الديانة وسذاجة الجماهير المؤمنة بها (١) لخدمة الاهداف السياسة والاغراض الوصولية قد عرف قبل مجيء اغسطس ، كما انتشر بشدة ابان الحروب الاهلية التى سادت فى القرن الاخير قبل الميلاد . وكان رد الفعل على الناس هو انها أولت ظهورها للمعابد واعرضت عن الآلهة لأن العبادة لونتها السياسة وبالتالى فقد انتشرت موجة من التشاؤم والشك والالحاد مما دعى بعض الزعماء من أمثال فارو وسوللا وقيصر الى اتخاذ بعض الخطوات بغرض الاصلاح الدينى وبغرض احياء نازع التقوى Pietas التى عرف بها الرومان الأولون ، والحق يقال ان كل هذه الخطوات المبكرة لم تكن بنفس الذكاء والجدية والدقة التى تناول بها اغسطس القضية ذاتها .

والآن لنوجه لأنفسنا سؤالا هاما : هل نجح اصلاح اغسطس فى المجال الدينى كما نجح فى المجالات السياسية والادارية والعسكرية ؟

نعم .. لقد نجح اغسطس وحقق ما كان يريده ابان حياته كما جنى خلفاؤه ثمار هذا الاصلاح . لقد نجح اغسطس فى أن يقنع الناس بأنه مؤله وبأنه المخلص والمنقذ الطاهر . ولما انتقل الى عالم الخلود لم يجزع مواطنوه بل قالوا انه رب جاء اليهم بالهدى وبلغ الرسالة وأدى الأمانة ثم عاد من حيث أتى ... الى عالم الآلهة والخلود .

وسرعان ما تبلورت عبادته كهنوتيا وخرج المبشرون بها الى كافة انحاء الامبراطورية كما يشهد بذلك الأدب والفن الرومانى .

كما يجب أن ننوه بدور الشرق فى صناعة عبادة اغسطس واعطائها المقومات الفلسفية والشعائر والصورة اللاهوتية المطلوبة . لقد كان الشرق ذلك المنجم الغنى بالروحانية وفكرة البحث عن الله — كان دائما المفلسف لفكرة تالية الملوك وجعلها دينا شعبيا .

وخلاصة القول أن الامبراطور عاش ليشاهد فى كل ولاية من ولايات الشرق معبدا على الأقل موقوفا لعبادته جنبا الى جنب مع الربة Roma et Augustus وصارت العبادة الامبراطورية فى الولايات رمزا لسلطة روما واغسطس ، وسرعان ما انتقلت عبادة الامبراطور الى الغرب ...بى حيث اقيم فى لوجدونوم Iugdunum (ليون الفرنسية حاليا) وكذلك فى كولون (كيلن الالمانية) معابد تحمل نفس الأسماء Roma et Augustus

---

(1) cf. C.A.H., X. 15 I, p. 450.

ومن أهم انجازات اغسطس فى المجال الدينى احيائه للجماعات الكهنوتية القديمة والتىكانت تعرف باسم Collegia لان الرومان كانوا يحرصون دائما على ارضاء الهتهم راقامة سلام دائم معهم (Pax deorum) ومن اجل ذلك اقاموا هذه الهيئات أو الجماعات التى كانت تتولى القيام والاشراف على الطقوس والشعائر وخاصة شعائر التكفير عن الخطايا وشعائر الغفران . ولما كانت هذه المناصب الدينية عادة تملأ بالاشراف ولما كان عدد الاشراف قد اخذ فى الانقراض فقد أهمل كثير من هذه المناصب ولذا لم يتردد اغسطس فى انشاء عناصر شريفة جديدة وذلك بتحويل بعض عشائر العامة الى عشائر شريفة لكى يتوافر العدد الكافى من الاشراف لشغل هذه المناصب المهجورة . وبالطبع لم يفت اغسطس ان يكون عضوا فى كافة اللجان الدينية والكهنوتية من القاعدة الى القمة . ولما مات لبيدوس الكاهن الاعظم Pontifex Maximus عام ١٢ ق.م انتخب اغسطس كاهنا اعظم وبذلك وصل الى قمة السلك الكهنوتى وتربع على عرش الديانة الرومانية .

(ب) التقويم الخلقى والاصلاح الاجتماعى :

كان من الطبيعى أن يتوجه أغسطس الى حقل الاصلاح الاجتماعى والتقويم الخلقى ليكمل حلقة الاصلاح والبعث الجديد من ناحية ومن ناحية ثانية فان المجتمع الرومانى كان فى أشد الحاجة الى مثل هذه الاصلاحات ، فقد سقطت القيم صريعة أبان الحروب الأهلية وداس الناس على الأخلاق والمثل . وتفككت الأسرة الرومانية خاصة تلك التى فقدت عائلها وقل عدد الرجال بينما تزايد عدد النساء مما أدى الى انتشار الفساد الخلقى والعبادات البوهيمية الخليعة القادمة من الشرق (١) .

لقد قامت ليفيا بدور السيدة الأولى فعنيت باصلاح شأن الأسرة الرومانية وخاصة شئون الزواج والطلاق ؛ وأوحت الى زوجها بعدد من القوانين الاصلاحية التى واجه اغسطس صعوبة وحرجا فى تطبيقها لأن المواطن الرومانى فى عهده كان أسوأ من أن يلتزم بتطبيق مثل هذه القوانين ، خاصة اذا كان من الطبقة الدنيا المستهترة . كما أن بعض المقربين الى الامبراطور مثل مايكيناس والذين تعودوا على حياة الترف والنعيم وجدوا من الصعب قبول هذه القوانين الجديدة الصارمة بل اعتبروها تدخلا فى حرية المواطن الشخصية وعملا من أعمال التسلط . كما أصبح موقف اغسطس حرجا عندما دار الغمز واللمز حول سيرة

---

(١) cf. H. Last in C.A.H., X, p. 441 ff.

جوليا ابنته ومغامراتها المحجلة مع العشاق ولذا لم يتردد أغسطس فى نفى ابنته خارج البلاد حتى « بظل بيت أغسطس » البيت المثالى الذى يجب أن يقلده الرومان فى البساطة والتقشف والنظام رافضا توسل الجماهير بعودتها بعد توبتها وندمها (١) .

ونستطيع أن نوجز القوانين الخاصة بالاصلاح الاجتماعى والتقويم الخلقى على النحو التالى :

١ — مجموعة قوانين يوليوس الخاصة بالزواج :

Leges Iuliae de maritandis ordinibus

لقد شجعت هذه القوانين الشباب على الزواج باعطاء امتيازات للمتزوجين على حساب العزاب كما فرضت اعباء وقيودا على هؤلاء الاخيرين لتشجيعهم على الزواج .

وقد بدأ التفكير فى سن هذه التشريعات ما بين ١٩ — ١٨ ق.م. ، وفى عام ٦ ميلادية عين قنصلان هما ماركوس بابيوس Marcus Papius وكونتوس بابايوس Quintus Papaeus من اجل اكمال هذه القوانين ، وعلى اى حال حثت هذه القوانين الشباب على الزواج عند سن معين . وارغمت الارامل اللاتى فقدن ازواجهن عند سن معين على الزواج مرة اخرى خلال مدة لا تزيد على ثلاثة اعوام والا حرموا من حق الارث ومن حق حضور الألعاب والمهرجانات العامة . كما فرضت هذه القوانين عقوبات مشابهة على الذين لا ينجبون . ومن اهم مواد هذه المجموعة قانون حق الأبناء الثلاثة ius trium liberum الذى هدف الى مكافأة ارباب الأسر الذين انجبوا ثلاث ابناء فأكثر فجعلت لهم أولوية الترقى فى الوظائف العامة .

كما اشتملت أيضا على قانون يحارب الزنا وخيانة النساء لأزواجهن بان ايدت حق الأب فى أن يقتل ابنته الزانية والرجل الذى ارتكبت معه جريمة الزنا اذا فاجأهما لحظة ارتكاب هذا الاثم . اما بالنسبة للزوج فقد اباح له هذا القانون قتل العشيق فقط .

وعلى أى حال كان اغسطس أول من جعل الخيانة الزوجية « قضية عامة » تمس المجتمع الرومانى بصرف النظر عن كونها قضية خاصة اذ نصت هذه القوانين على اقامة محكمة أحوال شخصية للنظر فى قضايا

---

(١) Dio Cassius. 55, 13, 1.
بل أنه حرمها حتى أن تدفن فى مدفن الأسرة . Ibid 56, 32, 4.

الخيانات الزوجية . ولم تقتصر اقامة الدعاوى على أحد الزوجين بل اصبح من حق المواطن الرومانى أن يبلغ عن أى جريمة زنا ويقدم مرتكبيها للمحاكمة . وكانت عقوبة الزنا عادة النفى الى الجزر الصغيرة البعيدة عن ايطاليا .

كما شملت هذه القوانين الأزواج الذين كانوا يتخذون عشيقات لهم بعيدا عن زوجاتهم وفرضت عليهم عقوبات مماثلة .

وبالرغم من ان الشعراء الرومان استقبلوا هذه المجموعة من القوانين بالتهليل والتكبير كبداية لعودة روح الأجداد للأسرة الرومانية ؛ وبالرغم من انها ظلت محل تعليق وتطوير من جانب الفقهاء على مر العصور الا أنها فشلت فشلا ذريعا لأنها فتحت الباب أمام الواشين واستمعت الى البلاغات الكيدية التى كان يقدمها مخبرون مرتزقة مما أعاق سير المحكمة وضللها عن معاقبة الفاعل الأصلى ؛ كما لم يردع الرومان عن الزنا لأنهم لجأوا الى وسائل خبيثة مثل الزواج الوهمى لدفع التهمة عنهم . وبالتالى فان هذه القوانين لم تطبق بجدية على الاطلاق .

ومن اهم قوانين هذه المجموعة القانون الخاص بالحد من الاسراف والتبذير ومظاهر البذخ الذى كان ظاهرة غريبة على الرومان . لأن الأسر الرومانية التقية الورعة عاشت عيشة بسيطة ومتقشفة من كل المظاهر الكاذبة ، خاصة ان البساطة simplicitas كانت صفة جوهرية من صفات الرومانى القديم التى حاول اغسطس احياءها .

لقد جاءت التيارات البوهيمية من الشرق الماجن المستهتر وزحفت على بلاد اليونان قبل ايطاليا — لأننا نجد بعض القوانين الاغريقية تسن بغرض محاربة البذخ والاسراف منذ أيام سولون المشرع فى القرن السادس ق.م. حتى حكم ديمتريوس الفاليرى Demetrius of Phalerum فى اواخر القرن الرابع ق.م ، وعلى كل حال فقد اهتمت قوانين يوليوس بمنع البذخ فيما يختص بملابس النساء وزينتهن ؛ ورددت جوهر قوانين الفاليروسى فحظرت على الرومان التبذير عند اقامة المآدب أو بناء القبور . ولكن كما ذكرنا لم يكن من السهل تطبيق مثل هذا القانون والتحكم فى حب الناس للحياة بل ان مايكيناس أقرب الناس الى اغسطس لم يتوقف أبدا عن حياة البذخ والترف البوهيمى .

٢ — قوانين عتق العبيد :

كذلك أدرك المصلح الكبير انه لكى يحقق امانيه ويصبغ العالم بالصبغة الرومانية دون يوما فى حاجة الى الرومان ؛ ولذا عمل على زيادة اعداد

الايطاليين وفى نفس الوقت حرص على نقاء دمائهم من الشوائب الاجنبية . كما ادرك اغسطس مدى الخطر الذى يحدثه تزايد عدد العتقاء من العبيد libertini ؛ اذ شاعت هذه الظاهرة كتعبير من جانب الرومان فى التحرر والسمو أو كتخلص من اعباء الملكية وتخفيفا من المسئولية الاقتصادية (١) كما ان كثيرا من السادة الرومان آثروا أن يذكروا فى وصاياهم عتق عبيدهم لكى يضمنوا جنازة كبيرة من العبيد الذين يسبحون باسمهم وينوح عليهم فيها عبيدهم ذاكرين افضالهم وأياديهم البيضاء .

ولهذا الغرض استن اغسطس قانونين هما قانون ايليوس سنتيوس Lex Aelia Sentia وقانون فوفيوس كانينيوس Fufius Caninius عام ٢ ق.م بهدف تقييد عتق العبيد والحد من انسياب هذه الظاهرة حرصا على رفع خامة الجمهور الرومانى الذى اهبط المعتقون مستواه .

وربما كان القانون الذى استنه اغسطس عام ١٧ ق.م والمعروف باسم قانون يوليوس نوربانوس Lex Julia Norbana واضحا وصريحا اذ الغى العتق ما لم تستوفى الاجراءات الخاصة بذلك والتى كان الرومان يتجاهلونها تهربا من دفع الرسوم المقررة . وقد نصت مواد هذا القانون على أن الشخص المعتق لا يصح له أن يعتبر نفسه فى درجة المواطن الرومانى الحر المولد أو حتى فى مرتبة المواطن الايطالى .

والى جانب ذلك حرص اغسطس على أن يقيد المعتقين اجتماعيا حتى لا يخرجوا عن حجمهم الطبيعى وذلك باقامة العوائق القانونية التى تحول بينهم وبين الترقى فى سلك الوظائف الرومانية Cursus honorum سواء فى العاصمة او فى المقاطعات الايطالية ، وفى نفس الوقت حرص اغسطس على امتصاص طاقة المعتقين فى وظائف صغيرة خصصت لهم . ومن أمثلة هذه الوظائف وظيفة رئيس الحى فى روما Vicomagister والذين كانوا يناط بهم مهمة الابلاغ عن الحرائق ومكافحتها والاشراف على الملاهى العامة Ludi Compitalicil (٢) كما ملأ المجالس الاغسطية بالمعتقين Servi Augustales وهى مجالس كانت تتكون من ست من صغار الموظفين وكانت مهمتهم الاشراف على برامج الترفيه بالانفاق عليها من أموالهم الخاصة ومن تبرعات الاغنياء كما تولت الاشراف على عبادة يوليوس قيصر (واغسطس وخلفاؤه من بعده) فى الاقاليم الايطالية .

---

(١) A.M. Duff, Freedmen in Early Roman Empire (1928).

(٢) cf. G. Niebling, Historia, 1956, p. 303 f.

(جـ) نشر الأفكار السياسية عن طريق الفن والأدب والمهرجانات العامة :

أدرك أغسطس أهمية الدعاية والاعلام فكون له جهازا خاصا أشرف عليه مايكيناس Maecenas كانت مهمته التبشير والنشر وملء رؤوس الجماهير بالأفكار التى كان يريد للناس أن تعرفها بصرف النظر عن استعداد الناس السيكولوجى والفطرى لقبول مثل هذه الافكار (١) .

وكانت وسيلة مايكيناس الأولى هى الأدب والشعر لانهما كانا المدخل السهل الى قلوب الجماهير وعقولهم . كما اعتمدت الدعاية الأوغسطية على الفن وركزت عليه بشكل خاص لأنه وسيلة المعرفة المنظورة . فعبر الفن عن الأفكار وشكلت العمارة هيكلها وأفصحت النقوش عنها . واينما ولى المسافر وجهه وجد آثارا ضخمة وابنية تكاد تنطق بالعظمة والاجلال فيعلم الناس أن عهدا عظيما قد ولد Magnus nascitur ordo

وفى كل مكان اقيمت الهياكل والمحاريب والمعابد للآلهة خاصة تلك التى ارتبطت باغسطس أو بأفكاره السياسية مثل اللاريس ربات الميادين ومفارق الطرق وكذلك روح آل يوليوس gens Julia .

والى جانب الفن استخدم أغسطس النقود (٢) التى وضع عليها شعارات متنوعة لكل ما يريد أن يعرفه الناس ؛ ونظرا لسرعة تداولها كانت وسيلة اكثر فعالية من اى وسيلة أخرى . ولذا يجد دارس النقود الرومانية بين يديه أكبر مجموعة متنوعة ومشوقة من العملات .

ومهما يكن من أمر فان النهضة الأدبية (٣) بلغت من القوة والازدهار درجة جعلت الدارسين يطلقون عليها اسم العصر الذهبى الأوغسطى Augustan era بالرغم من أن جذور هذه النهضة كانت تمتد أصلا الى الأيام الأخيرة من عصر الجمهورية وأبان الحروب الأهلية فى روما .

---

(١) George M.A. Hanfmann, Roman Art A Modern Survey of the Art of Imperial Rome, (1964), p. 25. also. Rostovtzeff, Social and Economic History of the Roman Empire, p. 82.

(٢) C.H.V. Sutherland, Coinage in Roman Imperial Policy (31 B.C.-68 A.D. 1951, Chapter 2 and 4.

(٣) T.E. Wright, Fifty Years of Classical Scholarship (1954). p. 306 ff. also of C.G. Starr Civilization and the Caesars Ithaca : Cornell University Press (1954).

بل أن بعض العبقريات الأدبية كانت تفيض بالافكار الجمهورية وبسبب ذلك عانت وتحملت . وعلى أى حال فقد اخذ أغسطس على عاتقه تماما كما كان يفعل النبلاء الرومان — مهمة رعاية الآداب والفنون عن طريق مايكيناس . وسرعان ما تدفق على روما العبقريات من كافة أنحاء المعمورة . فمثلا بفضل رعاية أغسطس كتب ديونيسوس مواطن هاليكارناسوس بآسيا الصغرى مؤلفه فى نقد بعض الأعمال الأدبية الاغريقية ومؤلفه الآخر عن تاريخ روما المبكر . ومن اسبانيا قدم سينيكا الأكبر Seneca أستاذ فن الجدل الخطابى والمناظرات . كما قدم ديودوروس الصقلى Diodorus Siculus عمله النادر والشهير عن التاريخ . ومن بلاد بونطوس Pontus فى آسيا الصغرى جاء استرابون Strabo ليؤلف أكبر عمل عن الجغرافيا سجل لنا فيه معلومات دقيقة ونادرة عن بلاد حوض البحر المتوسط .

كما وجد أغسطس ارتياحا فى فيلسوف جاء من دمشق هو نيكولاءوس الدمشقى Nicolaus of Damascus فعهد اليه بالكتابة عن حياته وتربيته ونشأته .

ولكن الأرض الرومانية كانت قد أنبتت عبقريات خالدة فى تاريخ الأدب الرومانى من أمثال فرجيل وهوراس وتيبوللوس وبروبرتيوس وليفيوس . كلهم تجمعوا فى بطانة اغسطس وهللوا لمجهودات الامبراطور فى احياء الفضائل الرومانية القديمة واعترفوا بفضله فى عودة السلام والعظمة لروما . هؤلاء الرجال العظام نعرضهم بايجاز على النحو التالى :

١ — فرجيل :

هو بوبليوس فرجيليوس مارو Publius Vergilius Maro ٩١ ق.م) شاعر الامبراطورية الأول . كان ابن اقطاعى من مانتوا Mantua وكانت له ضيعة فقدها ابان حركة نزع الأراضى التى قام بها أغسطس (عندئذ اكتافيانوس) عام ٤٢ ق.م. ولكن مايكيناس تدخل ليحصل له على تعويض مالى، وكان أول عمل قدمه للناس مجموعة من المختارات Eclogae فى الشعر الرعوى الذى يتغنى بجمال الريف وهدوءه كرد فعل لما ساد المدن من حروب أهلية وازمات ومشاكل اجتماعية معقدة . لقد كانت دعوة مفتوحة للعودة نحو الطبيعة .

والحق يقال لم يكن فرجيل أول رائد لهذا النوع من الشعر فقد سبقه اليه شعراء العصر الهللينيتى من الاغريق خاصة شعراء مدرسة

الاسكندرية . وأهم الأفكار التى تضمنتها المختارات هى تأليه يوليوس قيصر وظهوره كنجم فى السماء . كما بشر فرجيل فى الاكلوج الرابع بمولد المخلص الذى سوف يكون على يديه خلاص العالم من الشرور ويأتى بالسلام على الأرض وبالمسرة بين الناس .

وتلى « المختارات » (أو الاكلوجات) مجموعة قصائده الخاصة بالفلاحة Georg.ca التى كتبها بناء على رغبة مايكيناس كدعاية لأيادى أغسطس البيضاء على الفلاحة والفلاحين وكنداء للناس لكى تهجر المدن حيث المعاناه والضوضاء الى الريف حيث الارتماء فى أحضان الطبيعة ، كما اشتملت هذه القصائد على ارشادات للفلاحين فى فن الزراعة والحدائق وتربية النحل .

ومن الواضح أن فرجيل كان يقتفى أثر شاعر الملحمة التعليمية الاغريقى هسيودوس Hesiodos (١) الذى عاش فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد وعلى اى حال فقد ظهرت عبقرية فرجيل كشاعر أصيل استطاع ان يهضم أعمالا اغريقية ثم يصوغها بعقلية وبروح رومانية تنبض بحبه لايطاليا وحنينه الى ريفها الجميل .

اما عمله الرائع الخالد فهو الانيادة التى الفها فى السنوات العشر الأخيرة من عمره بناء على رغبة اكتافيانوس عام ٢٩ ق.م وظل معتكفا على نظمها باحثا عن الهدوء والالهام فى نابلى وريفها وصقلية ومراعيها ولكن منيته وافته وهو على وشك الانتهاء منها ولذا أوصى وهو على سرير الموت بحرقها اعتقادا بأنها لا ترقى الى المستوى الذى يريده .

تعتبر الانيادة نموذجا للشعر عندما يوضع فى خدمة الأمانى الوطنية ويجسم أحلامها وكبرياءها . فهى وضعت لكى تعلن صيحة روما الجديدة ورسالتها كحاكمة للعالم كله . والملحمة الرومانية مصاغة على نهج الياذة هوميروس الخالدة عن حرب طروادة بل تكاد تبدأ من حيث تنتهى فهى تروى كيف أن اميرا طرواديا هو اينياس ابن انخيسيس هرب من المدينة المحترقة فى قارب صغير حمل فيه آلهة المدينة ووالداه وراح يضرب فى البحار وتعرض للمخاطرات والأهوال ولكنه كان يحس برسالته الخالدة وواجبه المقدس Fides ملتزما بالتقوى الرومانية Pietas التى أوحت اليه بانشاء دولة الرومان فى ايطاليا .

لقد جسم فرجيل فى شخص اينياس المثل العليا التى يجب على الرومانى ان يقتدى بها كما غمز فرجيل ولمز الى سيده أغسطس الجالس

(١) وهو مؤلف القصيدة التعليمية الشهيرة الأيام والأعمال Hemerai Kai Ta Erga.

على العرش كأنه صورة اخرى من اينياس بطل الرومان الأول فى التقوى والالتزام بالواجب والتضحية بالنفس والنفيس فى سبيل الغاية الكبرى . وكأنه يلمح للرومان بأن اينياس أوجد دولة الرومان وأغسطس أوجد امبراطوريتهم .

ولو اردنا الحديث عن الانيادة بالتفصيل لاحتجنا مئات الصفحات ولكن يكفى ان نقول انها درة الأدب الرومانى الخالدة . انها بناء فنى رائع لمضمون فلسفى وسياسى عميق الأثر وهو ان الانسان ليس الا الدوبة فى يد القدر العاتى . ولهذا تقطر أبياتها واسلوبها رقة وعطفا على الانسان وقدره .

٢ — هوراتيوس (١) :

هو كونتوس هوراتيوس فلاكوس Quintus Horatius Flaccus (٦٥ — ٨ق.م.) صديق فرجيل ورفيقه فى بطانة مايكيناس ولد فى بلدة فينوسيا Venusia باقليم أبوليا Apulia وكان ابوه احد العتقاء الذين نجحوا فى جمع بعض الأموال واقتناء ضيعة واستطاع أن ينفق على ابنه ويعلمه أحسن تعليم بل أرسله الى أثينا — جامعة الحضارة الانسانية حيث التقى بأبناء رجال السناتو والفرسان .

خدم هوراس فى جيش بروتوس Brutus عام ٤٤ ق.م واشترك فى معركة فيليبى Philippi عام ٤٣ ق.م ولما عاد الى بلدته وجد ضيعته بين الضياع التى صادرها اكتافيانوس فى حركة التصفية الكبرى ، فتعرف على فرجيل الذى قدمه بدوره الى مايكيناس Maecenas راعى الشعراء فرعاه وقليلا قليلا اخذت أحواله المالية تتحسن حتى تمكن من اقتناء ضيعة عام ٣٣ ق.م فى منطقة التلال السابينية بالقرب من روما ، بينما اخذ نجمه يعلو فى سماء مجتمع الآداب فى العاصمة .

كان هوراتيوس على النقيض من فرجيل فبينما كان الأخير حييا خجولا كان الأول جريئا صريحا ، بقدر ما مدح أصدقاءه هاجم خصومه وشهر بهم ولذا كان من أهم أعماله الهجائيات Epodes ، كذلك كتب هوراتيوس « الخواطر » (Satirae) بعد عام ٤١ ق.م حيث كشف عن نفسه كمثقف مهذب ومستنير مدرك لأخطاء الناس وشوائبهم . وبالرغم من أنه كان أبيقورى المذهب الا انه اعجب بأفكار اغسطس عن الحياة البسيطة الفاضلة

(١) cf. L.P. Wilkinson, Horace and his Lyric Poetry 2nd edition 1951; F. Fraenkel Horace (1957).

التى يجدها الانسان فى الريف ولذا تغنى بالريف وجماله فى كتابه «الأغانى» Odes أو Carmina وفى نهاية حياته كتب « الرسائل » Epistulae بعد أن اشتعل رأسه شيبا ولذا جاءت أكثر نضجا من اى عمل سابق يكثر فيهما من التعليق على طبيعة الانسان ويتعرض لبعض القضايا الأدبية

لقد كان هوراتيوس أمام الشعر الغنائى الرومانى ولا ينازعه فى ذلك أحد سوى كاتللوس Catulius كما تحكم فى وزن القوافى وفى نفس الوقت امتلك أسلوبا حلوا ساحرا جعل منه حديث النوادى الأدبيـة فى المـاضى والحاضر . كما أصبح هوراتيوس بعد موت فرجيل عام ١٩ ق.م شاعر البلاط واحتل هذا المنصب حتى وفاته عام ٨ ق.م .

٣ — شعراء الغزل أو الشعر الاليجى (Elegaic)

وهم كثيرون . بالرغم من جودة أشعارهم الا انهم ظلوا فى مرتبة ثانوية بالنسبة لفرجيل وهوراتيوس . ومن أهم الشعراء تيبوللوس Tibullus (٤٨ — ١٩ ق. م.) وبروبرتيوس Sextus Propertius لقدآثر تيبللوس أن يكون حرا فلم يدع نفسه يسقط اسيرا فى شباك مايكيناس . ولذا ظل مخلصا فى قلبه للنظام الجمهورى العتيق . وأحسن أشعاره تلك التى سجل فيها غرامياته وصور فيها جمال ريف ايطاليا . أما بروبرتيوس فكان غليظا قاسيا ، الح عليه مايكيناس ليكتب اشعارا وطنيـة وقوميـة لكنها لم تصل الى الانسياب والجودة كأشعاره العاطفية فى الحب والغرام . وعلى قمة شعراء الغزل يجىء :

أوفيديوس (٤٢ ق.م — ١٧ ميلادية) :

هو بوبليوس أوفيديوس ناسو Publius Ovidius Naso ولد ببلدة سولمو Sulmo (٢) شرقى اقليم لاتيوم وكان ينتمى بحكم مولده الى طبقة الفرسان . أتم تعليمه فى أثينا ، سافر الى صقلية وآسيا الصغرى بصحبة صديقه الشاعر ماكر الصغير Macer Junior كما شغل بعض المناصب الصغيرة تولاه مايكيناس برعايته فانطلق مشيدا بأغسطس وعهده .

وبالرغم من أن اوفيديوس كان غزير الانتـاج الا انه كان شـاعرا مستهجنا جر عليه سخط القصر الجمهورى . كتب مؤلفه « تحـولات الصور » (أو قصص مسخ الاشكال Metamorphoses) وهى مجموعة من القصص الكلاسيكية تدور حول قصص بشر تحولوا الى حيوانات وطيور

---

(١) L.P. Wilkinson. Ovid Recalled (1955).

(٢) [illegible]

Sulmo mihi patria est, Ovid, Tristia, I. ?.

ونباتات بعد مسخهم ، فمثلا روى قصة تحول قيصر الى نجم فى السماء . ومن الواضح انه نهل من كنوز الأساطير الاغريقية التى أعاد شعراء الاسكندرية صياغتها بصورة تتناسب مع أفكار عصرهم .

كما كتب مؤلفه تقويم الاعياد Fasti وهو تقويم شعرى للستة شهور الأولى من السنة الرومانية يعالج فيها موضوعات فلكية ودينية وتاريخية أما باقى القصائد مثل قصص الحب Amores وفن العشق Ars Amatoria الذى تتضمن نصائح لطالبى المتعة الجنسية من الرجال والنساء ، فقد أغضبت القصر خاصة فى وقت كان فيه اغسطس ينادى بالمثل العليا وبالأخلاق الفاضلة .

وأكثر من هذا اتهم « اوفيديوس عام ٨ ميلادية فى فضيحة تمس القصر الجمهورى (ويقال انه كان على علاقة بجوليا ابنة اغسطس الخليعة) فانتهز أغسطس هذه الفرصة ونفاه الى بلدة تومى Tomi على البحر الأسود ومن هناك كتب مجموعة رسائله Epistulae وكذلك الأحزان Tristia التى تذلل فيهما للعفو عنه أو تخفيف الحكم عليه بطريقة مهينة . كما دافع عن نفسه مستشهدا بشعراء الاغريق وبالرغم من هذا لم يرق فؤاد اغسطس لبكائه وشكواه فظل فى المنفى حتى مات .

٤ — كتاب النثر :

لم تكن النهضة الأدبية فى عصر اغسطس وقفا على الشعر بل شملت النثر ايضا . وكثيرا ما قيل أن الشعر الرومانى نثر منظوم والنثر الرومانى شعر منثور (١) ومن عمالقة النثر تيتوس ليفيوس (٥٩ ق.م الى ١٧ ميلادية) والذى كان لا يقل مرتبة عن فرجيل وهوراس . وكان امير المؤرخين بلا منازع . ولد فى بادوا Padua ولا نعلم كثيرا عن حياته الخاصة ولكنه نال اعجاب أغسطس بالرغم من اخذه عليه الاعجاب ببومبى العظيم والتعاطف مع الحزب الجمهورى القديم ، واعتمد كثيرا على الاسفار حيث جمع مادته العلمية . أعجب ليفيوس بمبادىء اغسطس خاصة بالنزعة العاطفية الوطنية فى تمجيد روما والتمسك بالقيم والمبادىء التى سار عليها السلف Mos Maiorum

من أعظم مؤلفاته لنا « منذ تأسيس المدينة » ab urbe condita libri

---

(1) cf. P.G. Walsh : Livy his Historical Aims and methods, London 1961. Suetonius, Divus Augustus, 28, 2-4.

وفيه روى ملحمة روما التاريخية منذ نشأتها . حتى وصلت الى ما وصلت اليه فى عهده . ويعتبر البعض هذا المؤلف انيادة اخرى ولكن منثورة لأنه يتغنى بالمبادىء التى قادت روما لتاخذ مكانها بين السحاب مبالغا فى وصفه حتى أن بعض المؤرخين اعتبروا ذلك خروجا عن التقليد التاريخى ، والحقيقة ان ليفيوس لم يكن يهدف الى كتابه مادة تاريخية بالدرجة الاولى بقدر ما كان يهدف لعمل أدبى يمتع به الرومان ويتملق فيه عواطفهم . وقيل أن هذا المؤلف بلغ ماية واثنين وأربعين كتابا لم يصل الينا منها سوى خمس وثلاثين كتابا فكيف نحكم على عمل فقد منه ثلاثة ارباعه ؟ .

المهرجانات المئوية :

كذلك عنى الامبراطور باحياء المهرجانات العامة وخاصة المهرجانات المئوية ludi saeculares والتى اعتاد الرومان أن يحتفلوا بها كل ماية عام . وكان الرومان قد هجروا هذا العيد أثناء الحروب الأهلية ولكن الامبراطور أعلن أن عام ١٧ ق.م هو عيد مرور ماية عام على آخر مهرجان اقيم وكبداية لحقبة جديدة وأكثر من هذا أن الامبراطور غير فى جوهر المهرجان فبدلا من ان كان وقفا على آلهة العالم السفلى أصبحت تقام على شرف أبوللو وديانا . واصبح المهرجان عيد شكر لابوللو لانقاذ روما والاخذ بيدها من الهاوية الى طريق الأمل والسلام وقد شاركت كل أقاليم ايطاليا فى هذا المهرجان لمدة ثلاثة أيام . ومن أهم شعائره تقديم القرابين الى أبوللو فى معبده الجديد على تل البلاتين بجوار القصر الامبراطورى . بينما يصطف « كورال » من الفتيان والفتيات ينشد الترانيم المقدسة Carmen Saeculare التى الفها هوراتيوس خصيصا لهذه المناسبة . وبالطبع استطاع اغسطس أن يبث أفكاره عن طريق القدسية التى أولاها لهذا المهرجان وعن طريق الشعائر الدينية والترانيم المقدسة .

وكما رأينا كان اغسطس يشجع على تشبيه نفسه بالاله ابوللو المنقذ ولم نجد الدعاية الأوغسطية فرصة خيرا من التجمهر وترتيل الصلوات المنظومة وتقديم الاضاحى لبث أفكارها وتنفيذ أغراضها .

قضية الخلافة على عرش اغسطس :

من الناحية النظرية والاسميه قام حكم المواطن الاول Princeps على قوة السناتو الدستورية والتشريعية وعلى أكتاف الشعب الرومانى والذى منهما استمد المواطن الأول شرعية سلطته . وبالتالى فقد كان من المفروض أن يتولى السناتو مهمة البحث عن خلفة لاغسطس . كما كان من حق أى

فرد من الشعب خاصه اذا كان من بين أسباط الشيوخ الجمهوريين القدماء أن يتقدم لشغل هذا المنصب وكان بينهم بالفعل من هو على استعداد أن يفعل ذلك اذا وجد الأمان .

ومن الواضح ان الامبراطور العجوز أدرك ذلك وخشى أن يؤدى التنافس الشديد بين مدعى الأحقية الى انفجار صراع دموى يعود بروما الى الأيام السوداء أيام سوللا وماريوس وبومبى وقيصر وانطونيوس . فحرص على أن يحسم هذا الأمر بنفسه حتى يموت وهو مرتاح الضمير هادىء البال مطمئنا على مستقبل الامبراطورية (١) .

لقد علمته الأيام والتجارب أنه لابد وأن يختار خليفته من بين أسرته لأنه لم ينس انه دفع ثمن اختيار يوليوس قيصر خليفة له بالسيف والدم ، بالرحمة وبالقسوة . باللين والشدة . وعانى فى سبيل اثبات بنوته جل عمره . لقد كانت قضية الخلافة هى شعلة الشاغل . وهمه بالليل وجوهر سلوكه بالنهار . فقد كان معتل الصحة منذ صباه لا يكاد يشفى حتى يدهمه المرض بشراسة من جديد وكثيرا ما توقع الموت فى أى لحظة . ولذا حرص منذ أيامه الأولى على العرش — ان يصاهر من ذويه من آل يوليوس قيصر ومن كبار الأسر الرومانية طمعا فى أن « يفرخ » جيلا يستطيع أن ينتقى منه الخليفة الصالح . ويعتبر النقاد هذا خروجا على الثورة الرومانية التى كرس حياته من اجلها والتى عملت على فتح الطريق الى الحكم لكل قادر عليه بعد المرور فى رحلة وظائف طويلة أو ما يسمى بسلك المناصب Cursus honorum ، وشاء القدر أن يسخر من حسابات الامبراطور الدقيقة ، فالبرغم من اعتلال صحته وشيخوخته الا انه كان أطول عمرا من هؤلاء الشباب الذين « فرخهم » ورباهم لهذا الفرض ، ودفنهم واحدا وراء الآخر فى حين انه كان يظن انهم هم الذين سوف يشيعونه الى مثواه الاخير . وكانت النتيجة أن القدر كان يقلب مخططه راسا على عقب فى كل مرة يتساقط فيها الورثة كأوراق الخريف تحت أقدام شجرة عجوز . ولنلقى نظرة على الذين رشحهم الامبراطور للحكم واختارهم القدر للقبر فى ريعان الشباب :

١ — ماركوس ماركللوس : Marcus Marcellus

نحن نعرف أن أغسطس حرم من نعمة انجاب ولد ذكر يخلفه ، ولم تكن له سوى ابنة واحدة من زوجته الثانية Scribonia وكان اسمها جوليا الكبرى ، ولكنه عندما تزوج من ليفيا دروسللا Livia Drusilla عام ٣٨ ق.م كانت العروس أما لفتى فى الرابعة والعشرين من عمره وحاملا فى

(1) Suetonius, Divus Augustus 28.3.

أشهرها الأخيرة اذ وضعت بعد أيام قليلة من زواجها الجديد ابنها الثانى من زوجها الأول وكان اسمه دروسوس Drusus ، ومن الغريب أن اغسطس لم يفكر فى بادىء الأمر فى أى من هؤلاء . وربما أراد فى ذلك الوقت أن يقلد يوليوس قيصر فى طريقة اختياره له ، وتبنى اغسطس ابن اخته اكتافيا والذى كان يسمى ماركيللوس ، ورعاه وأشرف على تعليمه بل وزوجه من ابنته جوليا اللعوب عام ٣٥ق.م. وكان وقتئذ فى الثامنة عشر من عمره . وفى العام التالى ساعده فى الحصول على مقعد فى السناتو . وفى عام ٢٣ق.م. عينه رقيبا ماليا aedille (اى ايديلا) لكى يشرف على المهرجانات الشعبية واوصاه ان ينفق ببذخ حتى يكسب رضا الناس وحبهم (كما فعل أغسطس نفسه يوما ما) وبالفعل قام ماركيللوس بتغطية الفورم بالخيام لحماية الناس من الشمس المحرقة . كما عين راقصة وفارس لتسليتهم . ولكن لم يمض عام على الفتى فى هذا المنصب حتى سقط فى ظروف غامضة فريسة لمرض غامض . وقد حاول طبيب اغسطس الخاص انطونيوس موساس أن ينقذ حياة ماركوس عن طريق حمامات المياه الباردة والساخنة ولكن ذلك لم ينقذ الصبى من الموت . وقد حزن اغسطس حزنا شديدا وأمر باعداد جنازة رسمية له وأن يدفن فى الضريح الذى بناه أغسطس لنفسه . وكرمه بأن اطلق اسمه على المسرح الذى بناه الصبى قبل موته ، وأمر بصنع تمثال تخليدا له . عندئذ لجأ الامبراطور بقلب مكلوم الى أقرب الناس اليه ، وحتى قبل موت ماركللوس كان اغسطس يفكر فى صديقه ورفيق كفاحه الجنرال المخلص الأمين أجريبا املا فى أن يكون خليفته . ومن ثم زوجه ارملة ماركللوس . وزفت جوليا الى الجنرال . وفى عام ٢٣ ق. م. عندما اشتد على اغسطس المرض وكان فى هذه المرة شديدا ، وتوقع الناس موته ، بل انه جمع مستشاريه حول سريره وناقش معهم وضع الامبراطورية السياسى والعسكرى ، ثم امر بتسليم بيسو شريكه فى قنصلية هذا العام الدفاتر الخاصة بالقوات والمدفوعات الخاصة بهم ، ثم سلم ختمه الخاص الى أجريبا بمثابة اعلان الخلافة رغم أن ماركللوس كان لا يزال على قيد الحياة ، مما دعا الناس الى التساؤل والدهشة ، ولكن يبدو أن اغسطس لم يثق فى شخص واحد للخلافة بل ترك الفرصة دائما لبديل أو منافس آخر . فمثلا عندما فكر فى ماركوس ماركللوس فكر فى أن يكون معه أجريبا ، وعندما فكر فى تيبريوس فكر فى نفس الوقت فى حفيديه جايوس ولوكيوس قيصر ، وعندما مات الحفيدان أجبرا أغسطس خليفته تيبريوس على تبنى جرمانيكوس ابن دروسوس ابنا له . ولكن بفضل مهارة طبيبه الخاص شفى الامبراطور من المرض . وفى عام ١٨ ق. م. منح أجريبا

سلطة الامبريوم البرقنصلى . وسلطة نقيب العامة tribunicia potestas لمدة خمس سنوات أخرى وهى نفس السلطات التى كان يتمتع بها أغسطس نفسه ، ثم جددت هذه السلطات مرة أخرى عام ١٣ ق.م ؛ ومن المحتمل أن يكون أجريبا قد حمل سلطة الامبريوم الأعلى Imperium maius مثل أغسطس تماما . ولكن الآمال انهارت عندما رحل أجريبا فجأة عن الديار عام ١٣ ق.م وورث أغسطس أجريبا بدلا من أن يرث أجريبا أغسطس ، وحزن الامبراطور وبكى بحرقة على جنراله الراحل وأمر بدفنه فى الجبانة الامبراطوريا Mausoleum imperiale ونقل أغسطس أبناء أجريبا من ابنته جوليا الى منزله وهم جايوس قيصر ولوكيوس قيصر . وبعد أيام وضعت ابنته طفلا ذكرا آخر سمى بأجريبا اليتيم Agrippa Postumus وكانت جوليا قد انجبت كذلك من الجنرال بنتين هما أجريبنا وجوليا الصغرى باسم أمها (ومن العجيب أنها سلكت سلوكها الشائن فحق عليها ما حق على أمها ونفيت فى احدى الجزر المقفرة فى البحر المتوسط) .

٢ — تيبريوس : Tiberius

وبعد موت أجريبا اتجهت انظار أغسطس الى ابن زوجته تيبريوس وكان قد أثبت كفاءة نادرة الحرب فى نوريكوم Noricum (جنوب نهر الدانوب) واقتنع بأنه خير من يصلح لوراثته ؛ ومن ثم فقد ارغمه على طلاق زوجته التى كان يحبها وكان اسمها فبسانيا أجريبنا (وهى ابنة الجنرال أجريبا من زوجته الأولى بومبونيا (Pomponia) والتى أنجبت له ابنا هو دروسوس الأصغر والذى سمى على اسم عمه دروسوس قاهر الألمان Germanicus . وعلى أى حال فيدت جوليا للمرة الثالثة الى بيت تيبريوس ، عروس عابثة الى عريس كاره ، اذ لم يكن تيبريوس سعيدا بجوليا ذات السلوك المستهتر والسمعة الملطخة (١) ؛ وكالعادة تلى الزواج الترقيات فعين تيبريوس قائدا عاما للقوات الرومانية فى الليريا وفى العام السادس ق.م منحه سلطة نقيب العامة tribunicia potestas لمدة خمس سنوات ثم أرسله فى مهمة دبلوماسية الى الشرق خاصة أن تيبريوس كان قد ضاق ذرعا بسلوك جوليا ولم يعد يحتمل العيش معها تحت سقف واحد ، ومما زاد صدره ضيقا أنه لاحظ اهتمام الامبراطور الغير عادى بحفيديه لوكيوس قيصر وجايوس قيصر (أبناء جوليا من أجريبا) اذ أنه تولى رعايتهما بنفسه واشرف على تعليمهما فظن تيبريوس أن زوج أمه يعمل على اعدادهما لخلافته ؛ .فانسحب من تلقاء نفسه كنوع

---

(١) ولقد اختزن تيبريوس فى نفسه هذا الظلم لانه كان مولعا بزوجته التى أجبر على طلاقها وهى حامل وربما كرر أغسطس ما فعله مع ابيه عندما أجبره على طلاق أمه لكى يتزوجها هو بنفسه وكانت حاملا بينما كان هو فى الرابعة والعشرين عمره .

Suetonius, Tiberius, 106, 7

من الاحتجاج الهادىء واقام فى جزيرة رودس وظل معتكفا هناك منهمكا فى القراءة والتأمل من عام ٦ ق.م حتى عام ٢ بعد الميلاد .

٣ — جايوس ولوكيوس قيصر :

كانا قرة عين جدهما الامبراطور وبقدر ما كره امهما جوليا بقدر ما احبهما فبعد موت أبيهما أجريبا نقلهما الى القصر حيث عنى بتربيتهما واولادهما عناية خاصة . ولما شبا عن طوقهما احتفل باليوم الذى بلغ فيه كل منهما مبلغ الرجال اى ارتداء عباءة الرجال لأول مرة toga virilis فمثلا احتفل بعيد بلوغ جايوس عام ٥ قبل الميلاد وبعيد بلوغ أخيه لوكيوس عام ٢ ق.م . وقد أعلن الامبراطور احتفاله بهاتين المناسبتين ان تولى بنفسه القنصلية الذى عزف عنها اكتفاء بمركزه كمواطن أول متمتع بالامبريوم الأعلى Imperium maius ؛ كما عين كل منهما بدور رائدا للشباب (١) princeps inventutis ووضعا على رأس قائمة المرشحين لدخول طبقة الفرسان ؛ كما أعفاهما من شرط المرور بسلك الوظائف الرومانى الطويل . كما استثناهما من شرط السن لكى يمكنهما من الترشيح لوظيفة القنصل وهما فى سن العشرين .

وفى العام الأول بعد الميلاد أرسل جايوس الى الشرق مدعما بسلطة الامبريوم البروقنصلى لتذليل بعض المصاعب وقمع بعض اعمال الشغب فى ارمينيا ، وهناك فى قلعة صغيرة حوصر وظل يدافع عنها حتى سقط جريحا وما لبث ان مات متأثرا بها عام ٤ ميلادية . وكان القدر قد كال ضربة اخرى لأغسطس عندما أصيب لوكيوس بالحمى وهو عائد من أسبانيا وسرعان ما وافته المنية فى العام الخامس الميلادى ودفن اغسطس بقلب ممزق أمله العزيز والغالى .

فى هذا الوقت لم يعد اغسطس يطيق السكوت عن سلوك ابنته الشائن مع عدد من الرجال ؛ لأنه رأى ذلك وصمة عار عليه وهو المنادى بالاحياء الدينى والأخلاقى للرومان ، فأمر بنفيها الى جزيرة مقفرة وصخرية فى البحر المتوسط هى جزيرة بانداتاريا Pandataria ونفى عددا من عشاقها الرجال من بينهم الشاعر الخليع أوفيد . بل أعدم أحدهم عام واحد ميلادية بتهمة التآمر والخيانة العظمى .

وأخيرا تيبريوس مرة أخرى :

وبعد موت جايوس ولوكيوس قيصر تدخلت ليفيا لاعادة السلام بين

---

(١) Tacitus, Annales, I, 1-4.

ابنها الغاضب تيبريوس وبين زوجها اغسطس . واقنعته بأنه لم يعد له سواه يخلفه . بل أن الشائعات عمت روما ولغطت الالسن بالحديث عن دور ليفيا (١) فى مؤامرة لتصفية حفيدى الامبراطور لكى تفسح الطريق لابنها الأكبر لتولى العرش .

وسر اغسطس لعودة تيبريوس . وأعلن عن تبنيه له بشرط ان يتبنى بدوره ابن أخيه الملقب جرمانيكوس والذى ورث هذا اللقب (ومعناه قاهر الجرمان) عن أبيه دروسوس الأكبر شقيق تيبريوس والابن الاصغر لليفيا من زوجها الأول . وبالفعل فعل تيبريوس ذلك ثم اصطحب جرمانيكوس معه فى حملة تأديبية ضد أهل بانونيا عام ٤ ميلادية .

وفى نفس الوقت تبنى اغسطس الابن الوحيد المتبقى من أولاد جوليا وأجريبا وهو « اجريبا اليتيم » وكان قد كبر وأصبح فتى رياضيا منعما . وسيما رقيقا . ولرقته كرهه اغسطس وأبعده . وتحت تاثير ليفيا صدر قرار من السناتو بابعاده نهائيا عن البلاد عام ٧ ميلادية . وما أن مات أغسطس حتى نفذ فيه حكم الاعدام البارد عندئذ دار الهمس مرة اخرى عن دور ليفيا فى هذه المؤامرة البشعة .

وعلى أى حال انعم الامبراطور على تيبريوس بعد تبنيه بسلطة التربيونية مرة اخرى عام ٤ ميلادية التى جددت عام ١٣ لمدة عشر سنوات اخرى ؛ كما أشركه معه فى القنصلية ومنحه سلطة الامبريوم الأعلى . وكان اغسطس قد أصبح وقتذاك كهلا ينتظر الموت .

وبالرغم من تدعيمه لمركز تيبريوس كخليفة له الا أنه كان محطم الشخصية بسبب الاذلال من جانب اغسطس له وبسبب طغيان شخصية أمه المسيطرة . كما كان محروما من الهالة المقدسة التى كان يتمتع بها اغسطس . هكذا واخيرا اطمأن فؤاد اغسطس لوجود وريث يشغل مكانه .

---

(١) اتهمت الشائعات ليفيا بانها وضعت السم لزوجها اغسطس ولماركللوس وجايوس ولوكيوس قيصر واجريبا اليتيم واخيرا جرمانيكوس لانهم كانوا يقفون فى طريق ابنها تيبريوس للوصول الى عرش الامبراطورية . ولكن مثل هذه الاقاويل التى ذكرها تاكيتوس جمعها من مصادر معادية ومن ثم فهى افتراء عليها بالرغم من أن ليفيا مارست نوعا من السيطرة على اغسطس بحكم جمالها وذكائها وليس من المستبعد أن تكون قد وقفت مع ابنها تيبريوس بخصوص العرش انظر :
H.H. Scullard, op. cit., p. 236 and p. 434.

وفى التاسع عشر من شهر اغسطس عام ١٤ ميلادية مات اغسطس على سريره قرير العين مرتاح الفؤاد بعد حياة حافلة بالمغامرات والمؤامرات وبالهزائم والانتصارات ويالها من رحلة عمر طويلة !

خامسا ـ تعليق اخير على أغسطس :

نستطيع ان نقول « ان اغسطس قد نجح فى رسالته لانه امتلك جهازا قويا للدعاية والتشهير السياسى وتسيير الراى العام الرومانى حسب هواه كما ان دعايته قد أحسنت وسائلها .

فقد ظل اغسطس يتمتع برهبة وقدسية لم يتمتع بهما احد من قبله ولا بعده لآخر ايامه . فمثلا فى عام ١٤ ميلادية أى قبل موته بأيام كان يبحر على ظهر يخته الخاص من ميناء بويتولى Puetoli فى آخر رحلاته الصيفية عندما تصادف دخول سفينة تابعة لتجار من الاسكندرية وما ان شاهد بحارة السفينة المصرية الامبراطور حتى جثوا خاشعين رهبة واجلالا . ثم اوقدوا بخورا مقدسا كما كانوا يفعلون فى محراب آلهتهم ، ورفعوا عقيرتهم بالتهليل والصلاة للمنقذ والمخلص ومحقق السلام ، وأعلنوا أنهم ما كانوا ليبحروا آمنين الا بفضل هذا العاهل الكبير فهو الذى زرع السلام الرومانى وهاهم يجنون ثماره : السلام والحرية (١) وهتفوا قائلين : « يا من خلاله نحيا وخلاله نبحر ومن خلاله نتمتع بالحرية والرخاء » .

"per illum se vivere, per illum navigare, libertate atque Fortunis per illum Frui".

لقد عمر اغسطس طويلا لدرجة ان نظام حكمه بدا كما لو كان قائما منذ تأسيس المدينة . وبالرغم من هذا فقد استطاع بادارته الحازمة ان يسير شئون الدولة جيدا وبكفاءة منقطعة النظير سواء فى روما او فى أقاليم أيطاليا ، بل وفى كافة الولايات التابعة للامبراطورية . ولذا أحبه الشعب الرومانى بكافة طبقاته . فالبروليتاريا الرومانية كانت تنعم برخاء الحال ، أما بقايا الرعيل الأول من المحافظين فقد احسوا بالندم على العمر الذى ضيعوه فى خدمة السناتو ومعاداة اغسطس (٢) . أما الفرسان فجعلهم عصب الامبراطورية وجهازها الفعال .

---

(١) ويقول سويتونيوس ان اغسطس سر من صلاة البحارة السكندريين وأمر باعطاء اربعين قطعة من الذهب لكل واحد من رفاقه فوق اليخت وطلب منهم أن يشتروا بها بضائع سكندرية انظر :

Suetonius, Divus Augustus, 98.3.

Tacitus, Annales, I, 1-4

وبالرغم من هذا لم تخل اصلاحات أغسطس من الأخطاء العفوية . اذ تحول نظامه بحكم طول شغله له الى حكم شبه انفرادى autocracy وكان دعوة لخلفائه فى ان يتبعوا خطاه. وبالتالى فان السلطة لم تعد قائمة على السناتو بل فى أيدى الاباطرة ؛ ووجد السناتو ــ الشريك أساسا فى حكم البلاد ــ نفسه عاطلا ، وتلاشت أهميته قليلا قليلا حتى أضحى صوريا يجتمع للموافقة الشكلية على القرارات الامبراطورية لو تفضل هو بذلك . ولم تقم للشيوخ قائمة بعد ذلك ، ولم يعد السناتو كما كان قديما مدرسة لتخريج السياسيين الأكفاء ؛ وأكثر من هذا فقد دفعت روما ثمن وضع مصيرها فى كفة رجل واحد ، وراحت تدفع ثمن أخطائه وشذوذه بعد أن حرمت من فائدة حكم الشورى والمنافسة والجدل وتقليب الامور على وجوهها فكثرت الأخطاء بعضها انزل مصائب فادحة بالبلاد .

كذلك ادى احتكار الامبراطور لكل الأمور الداخلية والخارجية الى تواكل الرومان فلم يعودوا يشاركون بكفاءاتهم بل انصرفوا الى الانشغال بأمورهم الشخصية وكان الامبراطورية ليست لهم ، بل للامبراطور وحده الذى يسيرهم بأوامره .

كذلك ادى اعتماد اغسطس اساسا على القوات المسلحة فى حسم الأمور الى مضاعفات خطيرة مثل غرور الجيش بأهميته وبنفسه لدرجة انهم احسوا بأنهم هم صناع الاباطرة Emperor' makers وتدريجيا اصبحت الثكنات اقوى من ردهات القصر ، وكثيرا ما حكم بعض الخلفاء من الثكنات .

وكذلك ازدادت قوة الحرس البرايتورى Praetoriani واصبحوا يقتلون الأباطرة ويعينون غيرهم ويعرضون العرش لمن يدفع اكثر ، بل اخذوا يصورون للأباطرة وجود مؤامرات لاغتيالهم فتوارى الأباطرة عن الأنظار فى حين تولى قادة الحرس الامبراطورى العرش : بل واصبح هذا المنصب هو الخطوة الأخيرة نحو العرش ، وبدأت رءوس الأباطرة تتدحرج !! فى مؤامرات من صنع قادة هذه القوات التى صنعها أغسطس .

---

(1) Ibid., 2-4.

ومن الجدير بالذكر ان بيورى يرى ان نظام اغسطس لم يكن سوى مرحلة من المراحل التى مرت بها الامبراطورية التى يرى انها قامت منذ عهد يوليوس قيصر . ويعرف بيورى مرحلة اغسطس بانها عصر الحكم الثنائى dyarchy بين الامبراطورية والسناتو ، ثم تدهورت سلطة السناتو ووهنت أمام تزايد سلطات الامبراطور حتى ضعفت تماما فى عهد أغسطس ثم ظهرت المرحلة الثالثة والأخيرة وهى تمركز السلطات كلها فى شخص الامبراطور وحده حتى أصبح هو مصدر القوانين وتجسيدا للدولة انظر :
Bury, op. cit., p. 14-15.

كذلك أدى وجود القوات بعيدا عن الوطن الى ازدياد الهوة بين العسكريين والمدنيين لأن الشعب لم يعد يرى الجنرالات يدخلون ويخرجون وضاع الالتحام بين الجيش والشعب . كما ساد احساس بكراهية العمل فى الجيش والتهرب من الخدمة فيه ، بينما أدرك الايطاليون أهميته فتدفقوا عليه حتى ملأوا صفوفه على كره من شباب الرومان . وبدأت الامبراطورية تعانى من النقص فى التجنيد فى نفس الوقت الذى حدثت فيه جفوة بين الجيش والشعب .

واخيرا يرى بعض النقاد « أنه بالرغم من الاصلاحات السياسية والادارية والاجتماعية التى قام بها اغسطس الا أنها لم تمس جوهر المشكلة ولم تهز أعماق المجتمع الرومانى ، بل كانت سطحية ؛ اذ ظل حكمه يعتمد على تأييد الطبقات الغنية الارستقراطية التى قام بثورته اساسا لتصفيتهم ، وظلت هذه الطبقات تنعم بحياتها التقليدية دون أدنى تدخل من الامبراطور ، فزاد خطرها وكبرت اظافرها ؛ واكثر من هذا شجع الامبراطور هذه الطبقة على تجديد شبابها واعتمد على الصفوة المختارة منهم مثل لوكيوس سستيوس Lucius Sestius الذى كرمه ووثق فيه ربما تماشيا مع سياسة الامبراطورية فى العالم الهللينسى ، كما كان « السلام الاجتماعى » فرصة للأغنياء لكى يزدادوا غنا اذا استغلوه فى تنمية ثرواتهم عن طريق التجارة ، هكذا تذوق الجميع طعم السلام ولكن الذى استفاد منه ماديا فئة قليلة أما غالبية الشعب فراحت تنعم بالحرية الشكلية وبالقمح الرخيص (١) ؛ ولما كان خبزها كفاف يومها فقد كانت سريعة التأثر بأدنى أزمة اقتصادية أو ضرائب جديدة . وهذا ما حدث بالفعل فى عصر خلفاء اغسطس .

ولد أوكتافيوس اغسطس عام ٦٣ ق.م وهو نفس العام الذى شهد مؤامرة كاتيلينا للاستيلاء على الحكم ونجاح شيشرون فى القضاء عليها ، وكان أبوه ينتمى الى الطبقة البرجوازية التى شقت طريقها بصعوبة فى عالم الارستقراطية ، ولم يستمتع بأبيه كثيرا فقد مات وتركه لأمه ، التى تزوجت من أحد الأغنياء ليربيه ويشرف على تعليمه ، حيث تلقى أوكتافيوس تعليما اغريقيا ، ومن ثم كان يتحدث الاغريقية ولكن بركاكة ، كما أدى ذلك الى تعاطفه مع الحضارة الاغريقية والاغريق ، بقدر تعاليه على الحضارات الشرقية ، فقد رفض مثلا وهو فى مصر ان يزور منف ليتفرج على عجل آبيس مبديا احتقاره لعبادة الحيوانات (٢) .

(1) Tacitus, Annals, I, 1-4.

(2) Suetonius : Divus Augustus

وعندما جاء الى ايطاليا عام ٤٤ ق.م جاء وهو لا يملك من ... السياسة شيئا سوى وثيقة تبنى يوليوس قيصر له ، ولم يكن معه أحد سوى رفيقه وصديقه الجنرال اجريبا ، وقد نصحه زوج أمه أن يغض النظر عن السفر الى روما ومنافسه ماركوس انطونيوس فى زعامة الحزب القيصرى . ولكن الفتى الطموح الكثير التأمل والتفكير اصر على السفر وشق طريقه الى السلطة مهما كلفه ذلك .

لقد تعرض أوكتافيوس لحملة من التشهير والمعايرة من جانب أنطونيوس والارستقراطيين عايروه فيها بأصله الاجتماعى الوضيع ، فاتهمه انطونيوس فى احدى رسائله له بأن جده لأمه أفريقى الأصل وانه كان عطارا ثم خبازا فى مدينة اريكيا . وأن جده لأبيه كان صرافا ومرابيا (١) ، ولكنه صمد لهذه الحملةالمسعورة لانه كان طموحا ، بارد التفكير ، يحسب لكل شيء حسابا ، حريصا فى تصرفاته كحرص الفلاح الايطالى ، كما كان فولاذى الارادة ، قويا لا ينثنى عن عزمه . كما كان معتزا بمبادئه الريفية مؤمنا برسالة ايطاليا ومجد روما واستطاع فى ظرف ثلاثة عشر عاما وبعد أن خاض خمس معارك ضارية (٢) أن يصل الى القمة وحيدا لا ينافس بفضل تصيده لاخطاء أعدائه .

كان اكتافيوس اغسطس مجموعة من المتناقضات فقد كان قاسيا صارما مع أعدائه : بشعا فى انتقامه ، فبعد سحقه لقتلة يوليوس قيصر من الجمهوريين فى فيليبى أمر بقطع راس بروتوس وارسالها الى روما لتلقى أسفل تمثال يوليوس قيصر ، وعندما ركع احد الأرستقراطيين يستعطفه أن يدفن جثمانه بعد تنفيذ الاعدام فيه أشاح عنه بوجهه قائلا «ان الطيور سوف تحل هذا الموضوع» ، وبعد سحقه للثورة فى بروسيا والتى تزعمها لوكيوس شقيق أنطونيوس كان يجيب على توسلات العطف بكلمة واحدة هى « يجب أن تموت moriendum es ! » ، بل انه فى فكر يوما ما فى تدبير اغتيال أنطونيوس ذاته .

لكنه كان يظهر الرحمة والعفو فى حالات كثيرة مع اعدائه فعندما علم بأن كليوبترا قد انتحرت بلدغة الكوبرا بذل جهدا لعلاجها . ولما فشل العلاج

---

(١) Suetonius, Div. Aug. 4. 15.

(٢) وهى معركة موتينا عام ٤٣ ق . م (ضد ماركوس انطونيوس من اجل السناتو) ثم معركة فيليبى عام ٤٢ ق . م ضد السناتو وقتلة ابيه بوليوس قيصر ، وقد اتحد فى هذه المعركة مع انطونيوس بعد التصالح معه . ثم معركة بروسيا عام ٤٠ ق . م ضد ثوار الملاك الايطاليين الذين تمردوا عليه بتحريض من فولفيا زوجة انطونيوس الاولى وشقيقة يوليوس انطونيوس . ثم معركة صقلية ضد سكستوس بومبى عام ٣٦ ق . م واخيرا معركة اكتيوم ضد انطونيوس وكليوبترا وذلك عام ٣١ ق . م .

اعلن انه برىء من تهمة موتيا ، وأمر أن يدفن العاشقان فى القبر الذى اعداه لنفسيهما قبل موتهما . ورغم انه فتك ببطليموس قيصرون ، الا انه احتضن ابناء كليوبترا من انطونيوس واشرف على تربيتهم كما لو كانوا ابناءه .

لقد كان اكتافيوس أغسطس رغم هذا مرنا ، قادرا على تكييف نفسه حسب الظروف ، ولهذا لم يكن احد يقدر على التكهن بما يفعل خاصة أنه كان ثوريا ، لا يرتبط بعهد ولا يقيم وزنا للمبادىء أو يلتزم بالتسلسل المنطقى للاشياء ، كما كان نهازا للفرص السياسية ، يستغل بمهارة اخطاء اعدائه كما فعل مع غريمة أنطونيوس ، وكان شديد الأحساس بالتحدى عنيدا ، فمثلا عندما دمر هياج البحر أسطوله وهو يحارب سكستيوس بومبى صرخ قائلا « سوف احرز النصر رغما عن انف نبتون ! (رب البحر) »

وعموما كان يجمع بين التهور والغموض والحذر ، وربما يشرح ذلك اختياره لرمز ابى الهول لأختامه الخاصة . وكان ابو الهول رمز الغموض والأسرار التى لا يجرؤ أحد على حلها . او سبر أغوارها ، ثم عدل عن ذلك واستبدله بصورة الاسكندر الأكبر مثله الأعلى . ولكن يجب ان نفرق بين الشخصيتين. فبينما كان الأسكندر الأكبر يجمع بين الخيال الحالم والواقع العملى ، كان اكتافيوس واقعيا حذرا حريصا ، كما كان يتقبل النصيحة بصدر رحب ولا يستبد برايه . لكنه كان مثل الأسكندر سريع الغضب والأنفعال .

كان اغسطس أيضا برغم ضعف بنيته واعتلال صحته ، قوى الشخصية . فولاذى الارادة ، قادرا على تحمل المتاعب ، بسيطا فى حياته . فى ملبسه وطعامه ، فقد كان اثاث منزله بسيطا للغاية ، وكان يفخر بأنه يتناول طعاما بسيطا كقطعة من الخبز مع بعض التمر أو العنب . ولما وصل الى ذروة الحكم وجد نفسه مرهقا ومريضا يحيط به «أعوان» اقوياء واوفياء استطاع ان يوحد شملهم ، كان فى حاجة اليهم بقدر ما كانوا فى حاجة اليه ، كما وقفت من ورائه زوجة قادرة وذكية وجنرال مخلص وقادر . كل هؤلاء عملوا معه كفريق واحد ناكرين ذاتهم ناسيين كل اعمالهم للامبراطور العظيم والمنقذ المخلص مفجر الخير والبركات .

لم يرتكب اغسطس عملا واحدا عاثر فيه . وكانت نصيحته الدائمة لمعاونيه تلك الحكمة الاغريقية « أسرعوا ولكن ببطء » (Speude Bradeos) فكانت تلك سياسته سواء فى الداخل أو الخارج ، مع السناتو أو ... . فقد تقمص اغسطس روح ... فاصبح فى نظر الناس

مجموعة من المثل العليا والأخلاق . وفي عهده تقدست الأماني الوطنية لاول مرة في شخص الربة روما الاوغسطية» كما كان يهتم بمنظره جيدا وبالصورة التي يظهر بها وهي صورة الوجيه المفكر المحمل بالمسئولية والمقدر لها .

لقد كان اغسطس خادم روما وسيدها (١) . فقد قال « لقد تسلمتها مبنية من الطوب وتركتها مبنية من الرخام » laterciam accepi marmoream reliqui ، وحتى آخر أيامه ظل ممثلا سياسيا رائعا متيما بالدراما السياسية يوحي الى أصدقائه بما يريد ، فمثلا عندما قدم أحد خصومه القدامى من الجمهوريين اقتراحا بمنحه لقب أبو الوطن Pater patriae وذلك في العام الثاني قبل الميلاد تقدم الى المنصة ليتقبل القرار وعيناه مغرورقتان بالدموع بالرغم من انه هو الذي أوحى بهذا القرار . كما كان قوي الشخصية حتى بدى للذين كانوا يعملون معه كما لو كانوا اقزاما بالنسبة له ؛ ولكن حياته لم تكن لنفسه ؛ بل لروما (٢) أن حياته الخاصة كانت مقبضة وحزينة . وربما احس بذلك وهو على فراش الموت ، اذ دعى بمرآه نظر طويلا فيها ؛ ثم نظم هندامه وشعره وراح يتفحص آثار معركة الحياة على تقاطيع وجهه وفجأة سأل الحاضرين « هل لعبت دوري جيدا في هذه المهزلة الكبرى ؟ » . ثم ردد عليهم ابياتا من الشعر الاغريقي كان الممثل الهازل عادة يختتم بها دوره طالبا من الحاضرين أن يصرفوه بالتصفيق اذا كان قد اجاد دوره . وبينما راحت زوجته ليفيا تهطله بقبلاتها المحمومة سمع صوته الأخير يقول لها

Livia, nostri coniugu memor Vive, ac vale.

« يالفيا .. عيشي تذكرين زواجنا .. ووداعا » (٣) .

---

(١) بالرغم من انه كان يكره أن يلقب Dominus اى الرب او المولى لانه كان اللقب الذى اعتاد العبد الرومانى أن يخاطب به سيده . وحدث ذات مرة ان دخل المسرح أثناء عرض احدى المسرحيات وكان الممثل الأول في تلك اللحظة يقول عبارة هي « يامولاى العادل الرحيم Dominum acquum et bonum واتجه الى اغسطس الذى اشاح بيده غاضبا خاصة بعد أن صفقت الجماهير . وفي اليوم التالى اعلن استنكاره لما حدث Suetonius, ibid, 53,2. ومن المعروف أن كاليجولا اول من قبل اللقب ثم فرضه دوميتيانوس بالأمر .

(٢) قال جوفينال ملمحا بذلك .

حتى «ايطاليا» لم تعد نفسها بل شبيهة بنفسها .

tam similis sibi nec Ipsa (I. 109).

(٣) Suetonius, Tiberius, 59,2.

النسخة الرسمية من تماثيل أغسطس
التى انتقاها لتقام على طول
الامبراطورية وعرضها

هكذا انتهت حياة الرجل العظيم والذى بفضل كفاحه وذكائه استطاع وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره أن يرسى دعائم امبراطورية قوية عالمية ؛ قدر لها أن تبقى خمسة قرون من الزمان قبل أن تسقط ؛ أحتضنت خلالها عالم جنوب البحر المتوسط وعالم الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فى رباط سياسى واقتصادى متين وحقق للعالم عهدا من السلام Pax والمحبة لم يعرفه من قبل . بل أن اصلاحاته وافكاره ظلت الواجهة العظيمة للأمبراطورية لا يقدر أحد على التبديل أو التغير فيها لما يقرب من ثلاثة قرون من بعده (٢) حتى أعاد ديوقلديانوس النظر فيها بعد أن تغيرت الظروف وساءت الأحوال .

كما أنه أصبح مثالا لكثير من القادة العظام فى التاريخ تشبهوا به . كما تشبه هو نفسه بالأسكندر الأكبر (٣) .

(١) cf J. Bucha ., Augustus, (New York, Houghton Mafflin Company, 1937). p. 283 f

(٢) أقرب الشخصيات القيادية فى التاريخ الحديث التى قلدت أغسطس وسارت على هداه . وتشربت روحه هو الجنرال فرانكو الزعيم الاسبانى الراحل .

الفصل الثالث

خلفاء أغسطس

أباطرة الاسرة اليوليوكلاودية

من ١٤ ميلادية ـ ٦٨ ميلادية

بعد موت اغسطس عام ١٤ ميلادية ، تولى الحكم من بعده اربعة اباطرة من داخل دائرة اسرته وآل بيته ، ولما كان هؤلاء الأباطرة الخلفاء (ابتداء من تيبريوس وحتى نيرون) ينتمون نسبا اما الى آل يوليوس وهى عشيرة اغسطس ، أو الى آل كلاوديوس نسبة الى أبناء واحفاد الامبراطورة ليفيا الذين أنجبتهم من زوجها الأول كلاوديوس نيرو Claudius Nero . وكان رجلا من علية الأسر الشريفة الرومانية . وعن طريق تشجيعه الزواج داخل الأسرة أصبح هناك جيلا يجرى فى عروقهم دماء العشيرتين ، حكم بعضهم الامبراطورية ومن ثم آثر المؤرخون أن يطلقوا على شجرة هذه العائلة الأسرة اليوكلاودية .

لقد حكم هؤلاء الخلفاء بدون مشقة لأن المؤسس (١) الأول أوجد لهم نظاما راسخا قويا ، ولكن هذا النظام لم يعد محتفظا بقوته كما كان ، بل ظل يضعف ويضعف وذلك لركود الأحوال وخمود نار الثورة والتجديد الدائم الذى كان يتصف به حكم اغسطس . ولكننا لا نستطيع أن ننكر أهمية خلفاء هذه الأسرة لأنهم هم الذين قد شكلوا ملامح ما نسميه بالامبراطورية الرومانية ، وهم الذين وقع على عاتقهم عملية توزيع السلطات التى كانت مركزه فى شخص اغسطس على أجهزة دائمة ، لأن حكم اغسطس لم يكن يقوم على أجهزة بقدر ما كان يقوم على شخصه ، لأنه زعيم وثورى ومقاتل جاء ومضى هكذا على هذا الحال . بل أن قدسيته والوهيته التى

---

(1) D. Timpe, Untersuchungen zur Kontinuität des Frühen Prinzipats p. 16 (München 19[illegible])

(٢) [illegible] التاريخى واندثار [illegible] أنه تزوج الدولة [illegible]

نجح فى بثها بين الجماهير اعطته نفوذا مشابها لنفوذ البابا فى الكنيسة الكاثوليكية بالفاتيكان ، ومن ثم اعتبر بعض المؤرخين طريقة حكم اغسطس بأنها علاقة شخصية بين الامبراطور والدولة . حيث كانت الأمة تسير كالمسحورة بتوجيهاته ، ويضع حلولا مباشرة وقاطعة لمشاكلها ، ولكن ذلك كان يعتمد فى المقام الأول على مزاجه وعلى حالته النفسية ساعة اصدار القرارات ، وهذا عيوب نظام حكم الرجل الواحد . وخلاصة القول كان اغسطس روح الامبراطورية الرومانية فى مهدها .

وربما لهذا السبب وحده ادرك اغسطس اهمية اختيار خليفته بنفسه لانه كان يتمنى أن يظل الحكم فى روما قائما على هذا الجوهر وهو الزعيم المفدى وأبو الوطن وحرص على أن يكون خليفته من آل بيته ومن بين اسرته حتى يقطع الطريق على الصراعات والتنافس بين الورثة والطامعين ولكى يضمن امتثال الخليفة لسنة المؤسس . والحق يقال لقد ثبت حدسه ، فقد سارت الأمور هادئة فى روما طالما كان الامبراطور من آل بيت اغسطس ، فلما نفذ آل بيته اندلعت الحروب الأهلية من جديد . اذ تطلعت طبقة جديدة من الجنرالات الى الاستقلال بحكم الولايات ورفعوا راية التمرد على الحكومة المركزية فى روما التى وقفت عاجزة فى بعض الأحيان نظرا لاتساع رقعة الامبراطورية ، وصعوبة الاتصال بينها وبسبب ما يستغرقه ارسال الجيوش من وقت ويتكلفه اعدادها من مال .

وأهم ما يميز عهد الخلفاء هو تضخم شخصية الاباطرة وتجبرها فى بعض الأحيان ، لأن اغسطس قضى على روح الجمهورية الرومانية وفلسفتها فى الحكم والتى كانت تقوم على الجدل والنقاش وعلى الشورى بين أولى الأمر . ولم يعد الحاكم يسمح فى احسن الحالات الا بالملاحظات النقدية ومن ثم بدأت الأحلام تراود خيال الحاكم بالتخلص الجسدى لمعارضيه ، ومن ثم تعدد حدوث حمامات الدم البارد والمؤامرات والاغتيالات ، والمحاكمات الصورية ، وازدهرت طبقة مأجورة من الوشاة والمخبرين . واصبح شعار الامبراطور « دعهم يكرهوننى ما داموا يرهبوننى ! » oderint, dum probent (1)

كذلك أوجد اغسطس للخلفاء تقليدا اتبعوه وهو بث رجاله المخلصين فى كافة الاجهزة والمؤسسات الدستورية والمجالس التنفيذية لتأييده ونقل افكاره واخراس السنة المنتقدين أو المعارضين واحاطة الامبراطور علما

(1) Suetonius, Tiberius, 59, 5.

بما يجرى داخل هذه المؤسسات ، والى جانب هؤلاء الاتباع والأصدقاء قام عدد من الرجال البارزين وذوى النفوذ ممن كان يعتمد عليهم الامبراطور فى تنفيذ ما يريد ، وعلى قمة هؤلاء وهؤلاء يجىء المستشارون الذين كان الامبراطور يستمد منهم قراراته ويصدر أحكامه بناء على آرائهم ، وكان هؤلاء جميعا هم الطاقة المنفذة والمشرعة للعصر الامبراطورى فقد تم على أيديهم الكثير من الاصلاحات التى كانوا يستلهمونها من الرجال الأدنى أو التى كانت استكمالا لمشروعات اصلاحية بدأها رجال الامبراطور السابقين .

ولكن بالرغم من كل هذا فقد ظل الامر والنهى فى يد الامبراطور وحده ، ومن ثم توقفت القرارات السياسية على نوعية الامبراطور ، وحالته العقلية ، وعلى مزاجه الشخصى ، وخلفيته الأسرية ؛ ولهذا ركز المؤرخون الرومان فى هذه الفترة على الافراد ، واصبح التاريخ أشبه ما يكون بأعمال كتاب السير والتحقيقات التى تتقصى الجرائم والفضائح والفساد ؛ كما اهتم هؤلاء المؤرخون بالمعارك والحروب التى نشبت فى عهد كل امبراطور وقلما اهتموا بالجوهر الاصلاحى الكبير الذى شمل التشريع والادارة والاقتصاد — وان شئت قل — المجتمع الرومانى بأسره .

ولقد اسدل الستار على اباطرة هذه الأسرة عندما اغتيل نيرون عام ٦٨ ميلادية وما تلى ذلك من فوضى حتى تمكن فسباسيانوس Vespasianus عام ٦٩ ميلادية من تنصيب نفسه امبراطورا بقوة السلاح ، وبذلك أسس أسرة جديدة هى اسرة آل فلافيوس Flavius
والآن بعد أن القينا نظرة عامة على خلفاء اغسطس فلنتناول بالتحليل كل واحد من هؤلاء الورثة .

أولا : تيبريوس
(من ١٤ الى ٣٧ ميلادية)

بفضل اختيار أغسطس لخليفته قبل مماته ومشاركته الحكم معه ، استمرت الأمور هادئة بعد موت اغسطس ، وانتقل الحكم فى هدوء الى تيبريوس والذى كان من الناحية الفعلية الحاكم للبلاد منذ حصوله على سلطتى الامبريوم والتربيونية ؛ والأولى سلطة عسكرية تعطيه حق قيادة الجيش ، أما الثانية فسلطة شعبية ، ومن ثم اعطته حق دعوة السناتو الى الانعقاد لتكريم الراحل العظيم واختيار خليفة له رسميا (١) .

(١) أهم المصادر الادبية القديمة عن حياة تيبريوس هى :
Veleius Paterculus, ii. 123-131.
وترجع أهميته فى أنه عاصر حكم تيبريوس وتعاطف مع الامبراطور ودافع عنه ،
Tacitus, Annales, I-VI.

تیبریوس امبراطورا

واجتمع السناتو بالفعل والقيت خطب التكريم والتعظيم تأبينا للراحل العظيم ؛ وبلغ بهم الحماس الى اخفاء الالوهية عليه رسميا واعتباره من عداد الآلهة الرومانية الخالدة ، ومن ثم انشأت هيئة دينية للاشراف على عبادته ونشرها فى كافة أنحاء الامبراطورية ، وقد اختيرت هذه الهيئة التى كانت تعرف باسم الأوغسطاليس Augusta'es من بين رجال طبقة السناتو ؛ كما أنعم السناتو على زوجة الامبراطور ليفيا بلقب اغسطا Augusta بناء على رغبة الراحل العظيم ، كما جاء فى بنود وصيته ؛ بينما ورث تيبريوس لقب اغسطس ، فأصبح تيبريوس اغسطس قيصر ؛ ثم أنعم السناتو عليه بكافة سلطات والقاب والده بالتبنى ومنحه سلطتى الامبريوم والتربيونية مدى الحياة .

فى الحقيقة كان اختيار أغسطس لتبريوس موفقا (١) لأنه جمع دماء

مع ملاحظة ان معظم اجزاء الكتاب الخامس مفقودة .

(iii) Dio Cassius LVii-LViii

(iv) Suetonius. Tiberius

V. Ehrenberg and A.H. Jones, Documents illustrating the Reigns of Augustus and Tib..ius (2nd edition 1955); H. Mattingly, British Museum Catalogue of the Coins of the Roman Empire, Vol I, (Angustus to Vitellius 1923); H. Mattingly and Others The Roman Imperial Coinage i (1923); M. Grant Aspects of the Principate of Tiberius (1950); F.B. Marsh, The Reign of Tiberius (1931); R.S. Rogers, Criminal Trials under Tiberius (1935); D.M. Pipidi, Autour de Tibère (1944); R.S. Rogers : Studies in the Reign of Tiberius (John Hopkins University Press 1943. G.E. Smith : Tiberius and the Roman Empire, Louisiana State University Press 19·2; G. Maranon, Tiberius : A study in the Resentment (1956).

! والكتاب الاخير محبوب وتجربة جديدة فى تطبيق علم النفس وهو ذاتى اكثر منه موضوعى ! .

R. Syme, Tacitus, (1958), p. 420 ff; E Kornemann Tiberius 1960, also cf Gazetti, Impero da Tibro olgi Antonini (1960)

وعن تماثيل الامبراطو ر تيبريوس انظر :

L. Polacco il Votto di Tiberio (1955); JRS. 1956, p. 157 ff. (Reviewed).

(١) يبدو ان اغسطس لم يقتنع بخليفته الا تحت الحاح الظروف ويروى لنا سويتونيوس عن الاجتماع الطويل الذى دار بين اغسطس وتيبريوس فى حجرة نوم الاول ولما خرج تيبريوس من الحجرة علق اغسطس ساخرا وهو يقول : مسكين الشعب الرومانى الذى سوف تطحنه فكان بطيئا الحركة :

«miserum poulum Romanum, qui sub tam lentis maxillis erit» Suetonius, Tiberius, 21.

أسرتى كلاوديوس وآل يوليوس ، فمن ناحية أبيه كانت تجرى فى عروقه دماء كلاودية بينما أصبح بحكم تبنى اغسطس له من آل يوليوس . ومن مزيج هاتين الأسرتين جاء خلفاء اغسطس الاربعة : تبريوس ، وجايوس ، وكلاوديوس ، ونيرون .

وعلى أى حال لم يستقبل تيبريوس العرش بالسرور والفرح ، بل استقبله بالزهد وعدم الاكتراث والتلهف ، اذ كان يبلغ من العمر خمسة وخمسين عاما ، وأدركته الشيخوخة ، وكان يعرف عنه انه رجل انطوائى ، غير محبوب من الجماهير والغوغاء الرومانية ، ولكنه كان شخصا قادرا وكفئا ، اذ قضى عمره وهو يتحمل المهام والمسئوليات ، كما أنه ورث من أسرته آل كلاوديوس الارستقراطية . الغطرسة والاعتداد بالنفس ، والحزم والكبرياء . وحب العمل ، وعدم الرغبة فى التطور والتجديد . ومن ثم كان تيبريوس رجلا محافظا ، يتمسك بالقديم بشدة كما يظهر من ذوقه وسلوكه وعاداته حتى فى أسلوبه الأدبى والفاظه اللغوية التى كان يحرص على انتقائها فى خطبه ، اذ كان يميل الى اختيار الكلمات القديمة الفصحى ، واعرض عن الأساليب الجديدة فى اللغة والأدب التى كان يزخر بها العصر الأوغسطى ، ومن ثم صارح السناتو بلغة واضحة بانه ليس على استعداد أن يتغير أو أن يغير من طبيعته التى طهتها نار المعاناة والكفاح .

لقد كان يعرف أن وصوله الى الحكم لم يكن الا صدفة ونتيجة لتدخل القدر ، لأنه كان آخر من فكر فيهم زوج أمه اغسطس ، خاصة عندما استمع الى الفقرة التى جاءت فى وصية اغسطس والتى تقول « ما دام الحظ العاثر قد نزع منى ولداى جايوس ولوكيوس فليصبح تيبريوس قيصر خليفة لى (١) » ، كما أن الظروف جعلت منه شخصا ساخطا على كل شىء ، حيث عانى فى طفولته وحياته من الاحساس بالظلم ، ومن ثم ظل يختزن الغضب فى نفسه ويكتم حنقه وغيظه ، ولكى يفهم الدارس « عقدة الحنق المكبوت » فى نفس تيبريوس عليه أن يرجع الى نشأته ، اذ كان ينحدر من والدين جمهوريين ارستقراطيين حاربا بشدة الشخصيات العسكرية والتحالفات الثلاثية التى اقامها الجنرالات فوق القانون والدستور ، ثم يجد تيبريوس نفسه فى رعاية احد هؤلاء الشخصيات العسكرية ، بل ويجد امه تصبح زوجة لأحد هؤلاء الجنرالات وهو (أكتافيوس) حيث ارغم أبود على طلاقها وهى فى مرحلة متقدمة من

---

(1) Suetonius, Augustus, 106; Tiberius 23.

التحمل ؛ بل أن ألسنة الناس لم تترك هذا الأمر يمر دون تعليق (١) ، ولما وضعت ابنها دروسوس شك الناس فى نسبته الى زوجها الأول ، خاصة أن اغسطس دلل هذا المولود الصغير وفضله على تيبريوس ، ولم يغفر تيبريوس ذلك لأمه أبدا فعندما ماتت رفض السير فى جنازتها . وزاد حنق تيبريوس عندما فضل الامبراطور عليه حفيداه جايوس ولوكيوس قيصر ؛ واخيرا عندما أختير للخلافة أرغم على طلاق زوجته التى كان يحبها حتى العبادة ليتزوج ابنة الامبراطور الخليعة جوليا التى لم تجد حرجا من الوقوف تحت تمثال مارسياس فى الفورم الرومانى حيث يعرض الساقطات أنفسهن للدعارة ، بل ويقول بلينى أنها ذهبت الى حد وضع أكليل من الزهور فوق هذا التمثال (Pliny, 79, XXI, 6) . ولقد اثر ذلك كثيرا فى نفس تيبريوس ، وذكره بما حدث لأبيه عندما أرغم على طلاق أمه ليفيا ؛ وظل يندم على طلاق زوجته الأولى ؛ ولقد روى انه انفجر باكيا عندما رآها ذات يوم وهى فى عصمة رجل آخر . وأقسم لها أنه لن يتعرض لها فى حياتها الجديدة ، ولكنه لم يترك الزوج الجديد أسينيوس جاللوس Asinius Gal'us يتمتع بوقت طويل مع المراة التى احبها حتى العبادة (٢) .

هكذا كان تيبريوس كما سماه الأديب بلينى الأكبر « أتعس الناس » tristissimus hominum (٣) ذا ذاكرة حية تذكر كل كبيرة وصغيرة ؛ فمثلا روى عنه انه اثناء القائه خطابا أمام السناتور انفجر فجأة فى هجوم عنيف ومرير على أحد اعدائه و يدعى ماركوس لولليوس Marcus lollius ويخبرنا تاكيتوس ان هذا الشخص كان قد ووري التراب منذ عشرين عاما (٤) .

حقيقة كان تيبريوس يعانى من التردد وعدم الثبات على رأى ، ولكنه كان حازما فى تطبيق القانون . وكان جادا يحتقر المرائين ، لأنه كان يرى فيهم الخبث والدهاء بعد أن انتفخت بطونهم وامتلأت جيوبهم من جراء هذا النفاق على حساب الشعب الرومانى . ولهذا كان كثير الشك والهواجس مكتئبا حاد الطبع ، ينقص شخصيته الجاذبة والسحر الذى كان يتمتع به

---

(١) تناقل الرومان بيتا من الشعر العامى الاغريقى يقول « انهم المحظوظون أولئك الذين ينجبون بعد ثلاثة أشهر فقط » .

(٢) Suetonius, Divus Augustus 106; Tiberius 7

(٣) Pliny The Elder, 79.

(٤) Tacitus, Annales, 107, IV, 57.

اغسطس . ولكنه كما قلنا كان رجلا واسع الثقافة ، خبيرا بأمور الامبراطورية ، مدركا للمسئولية الملقاة عليه ، متفانيا فى آداء واجبه ، كارها للتملق والتأليه (١) ، ولقد حاول منذ البداية أن يجعل سياسة انشاء المجالس الاستشارية وملئها بالاصدقاء السياسيين للاستماع والاستفادة من وجهة نظرهم ، ولكن علاقته بالسناتو كانت فاترة سيئة منذ البداية ، ويعزو البعض ذلك الى غباء السناتو الذى لم يفهم تيبريوس أثناء انعقاد أول جلسة بعد موت اغسطس لتعيين خليفة له ، اذا كان تيبريوس يدرك أنه مكروه وغير محبوب . وان على السناتو أن يرجوه ويلح عليه لكى يقبل الخلافة ، ولكن السناتو اعتقد أن تيبريوس بعدم اكتراثه أثناء الاختيار انما يضع فخا لمن لا يحبونه أو يريدون منافسته ، ولكنه احترم السناتو وتمسك بحقوقه ووقاره ، حتى ان نقاده يعترفون انه بدأ حكمه باعتدال وذكاء . بل انه نقل مهمة انتخاب المرشحين للوظائف العليا من المجالس الشعبية الى السناتو نفسه حتى يوفر على اعضاء السناتو الموقرين مضايقات الغوغاء أثناء الحملات الانتخابية .

تمرد القوات الرومانية الرابطة فى الليريكوم وعلى ضفاف الراين :

وما أن تولى تيبريوس السلطة حتى وقعت حادثتان تمردت فيهما القوات الرومانية وكانت أسباب التمرد ترجع الى استبقاء الجنود الدين أتموا الخدمة لمدة طويلة وقسوة معاملة الضباط للجنود ، وقام دروسوس الأصغر ابن تيبريوس باخماد حركة التمرد فى الليريا بحزم دون أدنى تنازلات ، كما قام جرمانيكوس بن دروسوس الاكبر — شقيق الامبراطور — بالتعامل مع القوات المتمردة فى المانيا ، ولكنه سلك سلوكا مخالفا لسلوك دروسوس الأصغر ، فلجأ الى طرق خبيثة مثل تزوير خطاب باسم تيبريوس يعد فيه القوات بتحسين احوالهم مستقبلا ، ثم عرض على الجنود أسرته وهى تنتحب ثم هدد بالانتحار . ثم لجأ الى اغراء بعض الجنود بالقيام باغتيال زعماء التمرد ، ثم حاول رفع روح القوات الرومانية المعنوية بالقيام بالتوسع فى المانيا بالرغم من اعتراض عمه الامبراطور على ذلك . ولكنه

---

(١) كان تيبريوس شديد العزوف من القاب التالية (Suetonius, Tiberus, 10) والدليل الثابت على ذلك هو ذلك النقش الذى عثر عليه فى مدينة جيثيوم Gytheum فى لاكونيا ويرجع الى العام الخامس عشر الميلادى وهو صورة من خطاب الامبراطور تيبريوس الى مدينة روما ردا على قرار يختص بعبادة أغسطس وليفيا وفيه يستعيذ ويتأفف من التالية انظر :
V. Ehrenberg and Jones, Documents, no. 102.

تركه فى المانيا حتى عام ١٧ ميلادية ثم أرسله بعد ذلك الى الشرق لدراسة مشاكل الامبراطورية على الطبيعة وللاشراف على وضع بعض الحلول فى الولايات التابعة والعميلة لروما .

علاقة تيبريوس بخليفته وابن أخيه جرمانيكوس :

كان أغسطس قد ارغم تيبريوس على تبنى جرمانيكوس بن دروسوس شقيق تيبريوس ، وكان الامبراطور اغسطس يحابى جرمانيكوس ، كما كان يحابى أباه الراحل دروسوس ، بل انه زوجه من حفيدته اجربينا الكبرى (ابنة جوليا من الجنرال أجريبا) ، وكان من الواضح أن تيبريوس ينوى تنفيذ رغبة اغسطس باعداد جرمانيكوس (١) للخلافة وذلك بأن اظهره للناس وحرص على نشر شعبيته بين الجماهير بدرجة تغطى على شعبية ابنه دروسوس الصغير وهذه تضحية كبيرة من جانب الامبراطور .

وكان جرمانيكوس شابا رياضيا ، مرحا ووسيما ومعبودا للجماهير الرومانية . ويقال انه ورث هذه الشعبية عن أبيه دروسوس الأكبر الذى كان يعتبر النموذج الامثل « للرجال » ، وعن امه انطونيا الثانية التى كسبت شهرة كأم فاضلة مثالية (٢) وهى ابنة ماركوس انطونيوس واوكتافيا شقيقة اغسطس . ولما مات دروسوس مبكرا رفضت الزواج مرة اخرى وكرست نفسها لتربية ابنها جرمانيكوس وأخيه كلاوديوس (الذى اصبح فيما بعد امبراطورا) وابنتها ليفيللا . وكان المؤرخ تاكيتوس من أشد المعجبين بجرمانيكوس ابن الاكرمين لدرجة أن قارنه بالاسكندر الأكبر (٣) . لأنه اشتهر (٤) أيضا بمواهبة المتعددة فهو جنرال عنيف وشاعر رقيق ودبلوماسى مهذب ، بل الف مسرحيات درامية بالاغريقية مثلت على المسرح أيام الامبراطور كلاوديوس . اعتقد الناس أن جرمانيكوس كان ديموقراطى التفكير والعقيدة، وكانوا يتلهفون على ارتقائه العرش من اجل اعادة الجمهورية ونظمها الديمقراطية . ولهذا اضحى بطلا قوميا وزعيما منتظرا ، لأنه كان على النقيض تماما من عمه تيبريوس فقد كان محبا للناس وللظهور وللتصفيق كما كان مندفعا وعاطفيا،ويرى مارانون أن

---

(١) Suetonius, Caligula, 106, 3.

(٢) Tacitus, 107, II, 73.

(٣) Gregorio Maranon : Tiberius : A Study in resentment (London 1956), p. 97.

(٤) وقد عرفنا من وثائق البردى المصرى أن كان له ضيعة كبيرة فى الفيوم ربما ورثها عن أمه انطونيا انظر :

الناس رسمت له صورة تفوق قدراته وصفاته ، ولكنه على أى حال كان يبدى احتراما ووقارا كبيرا ازاء عمه تيبريوس ورفض التآمر ضده أو منافسته فى سلطاته .

رحلة جرمانيكوس للشرق ورد الفعل الذى تركته (١٧ - ١٩ ميلادية) :

وبعد عودة جرمانيكوس من المانيا وبلاد الغال كلفه عمه تيبريوس بمهمة سياسية فى الشرق ؛ ومنحه السناتو سلطة الامبريوم البروقنصلى الأعلى ليتحقق له السلطة والسيادة على حكام الولايات، وصادق الامبراطور على قرار السناتو . ورحل جرمانيكوس مع نخبة من الضباط والمعاونين الى الشرق مارا ببلا اليونان وآسيا الصغرى ، وكان جرمانيكوس ينتهز الفرص لزيارة المعالم الأثرية ويلتقى بالمواطنين الذين استقبلوه بالحفاوة والتكريم (٢) وخلعوا عليه الالقاب المقدسة والالاهية التى كانوا يخلعونها على ملوكهم فى الشرق ، وقد قابل جرمانيكوس هذه الحفاوة بأعمال اصلاحية وتنظيمية لصالح شعوب الامبراطورية . ووصل جرمانيكوس الى أرمينيا حيث وافق على الملك الذى انتخبه الشعب ؛ وفى غمرة الانفعال أغمض جرمانيكوس عيناه عن سياسة عمه الامبراطور ولم يلتزم بها ؛ فمثلا تعدى جرمانيكوس على القانون الذى اصدره اغسطس بعد فتح مصر وتحريم دخولها على الأشخاص البارزين الا بقرار من الامبراطور فدلف فى زيادة سريعة لمصر وآثارها ، ولما وصل الى مصر وجد الاسكندرية تعانى من مجاعة وقحط فأمر بفتح الصوامع الخاصة بروما وتوزيع الغلال على الناس وقام بعدة أعمال أثار عواطف الجماهير بها مثل سيره فى الطرقات بدون حراسة ؛ وظهوره فى الزى الاغريقى وانتعاله صندلا مثل صنادلهم . ثم قام برحلة نيلية سياحية بداها من كانوب « كوم سمعدى جنوب أبو قير الحالية » حتى طيبة «الاقصر» . حيث متع ناظريه بآثار الملوك الغابرين ووقف مندهشا أمام تمثالى ممنون حيث يحدثان صوتا موسيقيا عندما تمسهما أشعة الشمس ، ولم يكتف جرمانيكوس

---

(١) R.S. Rogers : Studies in the Reign of Tiberius, London 1943

(٢) نشر الأستاذ تيرنر حديثا وثيقة بردية من أوكسيرنخوس «البهنسا» عبارة عن خطبة القاها جرمانيكوس عند وصوله الى الاسكندرية وكان يقاطع فيها بالتصفيق والهتاف ويضيف الأستاذ تيرنر أن جرمانيكوس اعترف فى هذه الخطبة بأن مصر ولاية رومانية Eparchia يمكن تيبريوس الذى حافظ على سياسة اغسطس أنظر :
E.G. Turner, Oxyrhynchus Papyri, X V (1959) , no. 2453.

بزيارة الأقصر فقط بل سار جنوبا حتى أسوان حيث حدود الامبراطورية الجنوبية وشاهد جزيرة فيله والفانتين . كما انه زار ممفيس وشاهد عجل ابيس فى حظيرته المجاورة لمعبد بتاح ، بل وأصر على أن يطعمه بيديه احتراما وتبجيلا . ويقال أن العجل أشاح بقرنيه فى وجه الأمير الزائر . عندئذ تنبأ الحاضرون بكارثة سوف تحل بالأمير الزائر (١) .

ولقد حفظت لنا أوراق البردى المستخرجة من مصر العواطف الجياشة والترحاب الشديد الذى لقيه جرمانيكوس من الاغريق والمصريين لدرجة جعلت جرمانيكوس يصدر منشورين يطلب فيهما من الجماهير التوقف عن المغالاة بمناداته بألقاب كألقاب الآلهة لأن هذه الألقاب لا تليق الا بالامبراطور وحده وحتى لا يتعرض للنقد (٢) ، ويحظر فى المنشور الآخر القيام بأعمال الاستيلاء على الدواب والمراكب ومنازل الضيافة بحجة الاعداد لزيارته الا بأمر خاص لان ما قام به بعض الناس لم يكن سوى عمل من اعمال اللصوصية الفاضحة .

ويبدو أن جرمانيكوس ادرك انزعاج عمه الامبراطور واستياءه لما حدث فى مصر اذ وجه اليه لوما شديدا فى مجلس السناتو فغادر مصر الى سوريا وهناك قامت بينه وبين حاكمها جنايوس بيسو Gnaeus Piso منازعة عنيفة ، وكان هذا الأخير من رجال تيبريوس المخلصين والذى كما يبدو — لم يعجبه مسلك جرمانيكوس المغالى وحبه للظهور وانتهى الخلاف بطرد بيسو من ولايته ، ولكن سرعان ما سقط جرمانيكوس فريسة لمرض غامض أودى بحياته فى خريف عام ١٩ ميلادية وهو فى عامه الثالث والثلاثين ، وكان جرمانيكوس قبل موته يعتقد أن بيسو أو زوجته بلانكينا Plancina (صديقة ليفيا الحميمة) قد دست له السم فى الطعام . وغذت شائعات الجماهير (٣) هذه الادعاءات ، بل أن أجربينا ، اشاعت بان الامبراطور نفسه كان ضالعا فى هذه المؤمرة التى راح

= وعن زيارة جرمانيكوس للشرق انظر :

E. Koestermann, Historia (1958), p. 33. cf G. Maranon, op. cit., p. 99-102 Tacitus, 107, II, and III.

(١)

(٢) ترجم استاذنا الدكتور عبد اللطيف أحمد على هذين المنشورين الى اللغة العربية فى كتابه الشيق والطريف مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الاوراق البردية ، طبعة بيروت دار النهضة العربية (١٩٧٢) ص ٧٨ وما بعدها
also cf J.G. Winter, op. cit., p. 11-13.

(٣) ومما شجع على انتشار هذه الشائعة تغيب ليفيا والامبراطور تيبريوس عن حضور الجناز المتواضع الذى أقيم لحرق جثمان جرمانيكوس ، ولما بلغ الامبراطور نبأ سخط الجماهير لبساطة الجنازة صاح غاضبا : يموت الأمراء وتبقى الامبراطورية
Tacitus, 107, III, 5.

ضحيتها زوجها ، وبالرغم من هذا استدعى الامبراطور صديقة بيسو الى روما حيث قدم للمحاكمة ولم يتدخل الامبراطور على الاطلاق فى هذه المحاكمة مما جعل الالسن تتقول عليه ، واضطر بيسو فى وجه الشائعات القوية رغم براءته أن ينتحر ، ولكن أجريبينا أرملة جرمانيكوس لم تكتف بذلك فأعلنت تحديها للامبراطور مطالبة بأن تكون الخلافة لاولادها مما ضايق تيبريوس ومن ثم جر عليها وعلى أولادها حنقه رغضبة (١) .

مؤامرة سيانوس Scianus :

لما كان تيبريوس كثير الشك فيمن حوله ، منطويا على نفسه الا من قلة نادرة من الاصدقاء وضع ثقته فى شخص واحد هو سيانوس ، وقد بلغت صداقته به حد الافتتان ، وكانت صدمة عنيفة للامبراطور عندما اكتشف أن سيانوس الذى رفعه الى قمة السلطة يخطط لاقتسام الحكم معه : فبعد موت جرمانيكوس أصبح دروسوس ابن تيبريوس هو المرشح للخلافة ، ولكنه سقط هو الاخر فريسة لمرض غامض قضى عليه فى خريف عام ٢٣ ميلادية وقد حزن تيبريوس بشدة لموت ابنه (٢) ، وكانت الشيخوخة قد دهمته اذ أصبح فى الرابعة والستين من عمرة ، وكان لزاما عليه أن يبحث عن خليفة له من آل بيت أغسطس ، وعلى ذلك فقط وقع بصرة على أكبر أبناء جرمانيكوس الذين انجبهم من أجريبينا الكبرى وهما نيرون ، دروسوس وبالفعل رشحهما للخلافة أمام السناتو ، ولكن سيانوس أفسد هذا الترتيب بدسائسة ومؤامراته .

كان ايليوس سيانوس قائدا للحرس البرايتورى ، وكان ينتمى الى

---

(١) يرى مارانون أن مرض جرمانيكوس وموته ليس له علاقة بما أشيع من أن السم قد وضع له فى الطعام وأن تيبريوس برىء من ذلك وأنه يرجح أن جرمانيكوس مات متأثرا بالملاريا أو بداء السل الذى ظهرت عليه أعراضه والتى وصفها سويتونيوس وهو لا يدرى انظر Suetonius, Caligula, 106, . ويعلل اتهام الجماهير لتيبريوس بأنه نابع من سيكلوجيتها التى تحيد عادة موت البطل شهيدا ليبقى عليه حيا فى ذاكرتها وعلى أى حال لم يستطع المحقق ڤيتللوس أن يثبت حدوث جريمة السم ومن ثم جاءت براءة بيسو
Maranon op. cit., p. 10-

(٢) بالرغم من حزن تيبريوس على موت ابنه الا أنه رفض أن يعلن الحداد العام عليه ، وعاد بعد دفنه مباشرة للعمل ونسى الأمر كله . وعندما جاءه وفد من الرواده ليعزيه فى فاجعته التفت اليهم قائلا أنه أيضا يعزيهم فى بطلهم الأسطورى هكتور ا الذى قتله أخيليس فى الياذه هوميروس انظر

Suetonius, Tiberius, 52.

طبقة رجال (١) الفرسان . واستطاع بكفاحة وشجاعته ومهارته وتفهمه لمشاكل الامبراطور النفسية أن يكون رجل تيبريوس الموثق به والمستمع الى وجهة نظرة ؛ وحاول ان يلعب دور اجريبا بالنسبة لاغسطس عندما أصبح زوج ابنته ووريثه . ولكن سيانوس كان طموحا ، خائنا خيب آمال الامبراطور بعد ان اسكرتة خمرة السلطة . اذ انتهز فرصة لتحقيق اغراضة بأن اقنع تيبريوس بأن يسمح له بتجميع فصائل الفرسان التسع الخاصة بالحرس البرايتورى فى معسكر واحد بالقرب من روما ؛ وبذلك أصبح تحت سيانوس قوة فعالة يستطيع بها السيطرة وتنفيذ ما يريد بقوة السلاح لو استدعى الامر .

ثم أخذ سيانوس يملأ راس الامبراطور بأوهام وشكوك حول مؤامرات وهمية تحاك ضدة ، وركز سيانوس على المستحقين للخلافة من أفراد الاسرة اليوليوكلاودية وكذلك على البارزين من رجال السناتو ممن قد يقفون فى وجه اطماعة مستقبلا .

واكثر من هذا تسلل سيانوس الى قلب ليفلا **Livilla** زوجة درسوس ابن تيبريوس وازدادت علاقته بهنه بعد موت دروسوس ، وكان يطمع أن يحصل على مزيد من السلطات عن طريقها ؛ بل تجرأ وطلب من تيبريوس أن يسمح له بالزواج منها أملا أن يصبح يوما وصيا على العرش وعلى ابن دروسوس الطفل وبذلك يقطع الطريق على آل جرمانيكوس ؛ ولكن الامبراطور رفض بشدة طلبة . فالتجأ الى وسائل أخرى لتحقيق غرضة (٢) .

استغل سيانوس موقف أجريبنا أرملة جرمانيكوس اذ كانت امراة ذات طبيعة مسيطرة ومتهورة ؛ تسيطر عليها الهواجس والشكوك ، فأقنع الامبراطور بأن موقف هذه السيدة العدائى منه يهدد مركزة ؛ ونقل اليه اتهامات أجريبنا للامبراطور بتدبير موت جرمانيكوس ، وقد ساعد موت الامبراطورة ليفيا عام ٢٩ ميلادية سيانوس فى تنفيذ أغراضة لانها كانت حريصة على تماسك الاسرة اليولوكلاودية ووحدتها . ونجح سيانوس فى اقناع الامبراطور باعلان أجريبنا وابنها الاكبر نيرون اعداء للدولة وامر

---

(١) عن الخلفية الاسرية والاجتماعية لسيانوس انظر المقال الطرف :
L.Aelius Seianus and his pol tical Significance, (H.W. Bird! Latomus, Tome XXVIII Fasci 7 (.969), pp. 61-98.

(٢) [illegible] انظر :
G. Maranon. op. cit., pp. 12-7144. (chapter z)

ينفيهما الى جزيرة بعيدة . حيث انتحر نيرون عام ٣٠ ميلادية بينما النت السلطات فى روما القبض على أخيه دروسوس بتهمة الخيانة العظمى ، أما أجربينا فقد ظلت فى المنفى الا أنها ماتت عام ٣٣ ميلادية بعد تجويعها حتى الموت ، ولم ينج من أولادها سوى جايوس (وهو الامبراطور كاليجولا مستقبلا) واخواته الاناث الثلاث .

كذلك استهدفت مؤامرات سيانوس عددا كبيرا من أصدقاء اجربينا والمتعاطفين معها ، قدم بعضهم الى المحاكمة واعدم بينما فضل البعض الاخر أن يأخذ حياته بيده ، ويحدثنا تاكيتوس أن أكثر من مائة متهم حوكموا أمام السناتو بتهمة الخيانة العظمى maiestas ومن بينهم الاعضاء البارزين من أمثال سكريبونيوس وكالبورنيوس بيسو ، وبالرغم من ان تيبريوس لا يعد مسؤلا عن حمامات الدم البارد الا انه أغمض عيناه عنها . ولم يحاول أن يوقفها بل توارى عن الانظار لان سيانوس أوهمة بأن حياته فى خطر وجعله يعيش فى حالة رعب دائم ، ثم أقنعه بالانسحاب الى جزيرة كابرى Caprae عام ٢٦ ميلادية ، وبذلك خلا الجو لسيانوس لينفذ ما يريد . واصبح سيانوس هو الحاكم الفعلى واعتقد السناتو أن زعيما جديدا قد بزغ نجمة ومن ثم راح يمطره بآيات التشريف والتكريم واصبح العرش على مرمى من بصره .

بدأت الشكوك تراود مخيلة تيبريوس عندما طلب سيانوس منه السماح له بعقد قرانه على أرملة ابنه دروسوس ، ورفض الامبراطور ذلك رفضا قاطعا عام ٢٥ ميلادية ، ولكن فى عام ٣١ ميلادية تمكنت انطونيا والدة الأمير الراحل جرمانيكوس من الحصول على وثائق بخط سيانوس تكشف عن أغراضه وأطماعه ، (٢) ، ثم أرسلت هذه الوثائق الى ييبريوس فى كابرى ، عندئذ تبين له مدى الظلم الذى أوقعة بآل أسرته ، وأنه كان ضحية لسيانوس نفسه ، وادرك أن الوقت قد حان لتصحيح هذا الخطأ وللتخلص من سيانوس فأصدر أمرا بنقل جايوس Gaius الابن الوحيد من ابناء جرمانيكوس الباقى على الحياة الى القصر فى كابرى ورعايته تحت اشراف الامبراطور شخصيا ، ثم اتصل بأحد رجاله المخلصين وهو سوتوريوس ماكرو Sutorius Macro (٣) وكلفه بمهمة سرية وهى السفر الى روما

---

(١) R.S. Rogers, Criminal Trials and Criminal legislation under Tiberius, New York (American Philolgical Association 1955) p. 115 f.

(٢) Josephus, 47, LVIII, 8.

(٣) كشف احدى النقوش التى عثر عليها حديثا فى الباوكنس عن Alpa Fucens اسم ماكرو الحفيمى وهو : =

والاستيلاء على قيادة الحرس الجمهورى فى صمت وأرسل معه رسالة طويلة ومحملة بالكلمات Verbosa et grandis epistola (١) موجهة الى السناتو وفى نفس الوقت أشاع بأن هذا الخطاب الهام الذى سيلقى أمام السناتو يتضمن منح سيانوس سلطة التريبونية وبذلك يصبح شريكا فى حكم الامبراطورية . هكذا خطط تيبريوس بمهارة وحذر للتخلص من سيانوس .

وفى اثناء ذلك كان ماكرو قد استولى على قيادة الحرس الجمهورى وفى ١٨ اكتوبر عام ٣١ ميلادية قرأ على السناتو نص رسالة الامبراطور ذات المقدمات الغامضة ثم فى نهاية الخطاب أعلن الامبراطور نبذة لسلوك سيانوس وادانته ولم يستغرق السناتو وقتا طويلا فى محاكمته واعدامه ومثلت الجماهير بجثته ثلاثة أيام (٢) بل وأعدمت أسرته معه فى نفس اليوم ، بل ان زوجته السابقة قتلت نفسها بعد أن كتبت الى الامبراطور اعترافا بأن زوجها السابق كان على علاقة بليفيلا زوجة دروسوس وأنهما دبرا معا موت دروسوس بدس السم له (٣) . كل هذه المشاكل والمؤامرات أضعفت من مكانة الامبراطور العجوز وزادت من شكوكه وانطوائه ، وراح يطبق بعنف عقوبة الخيانة العظمى lex de maiestate ، كما زاد الشقاق بين الامبراطور ومجلس السناتو حيث عاش أعضاؤه فى رعب خوفا من الوشاه والمخبرين delatores.

وبلغ بهم الرعب أنهم كانوا على استعداد لادانة رفاقهم اذا ما أرضى الامبراطور ذلك . ولم يخف السناتو ارتياحه العميق عندما استقبل نبأ موت الامبراطور تيبريوس فى السادس عشر من مارس عام ٣٧ ميلادية بعد بلوغه العام الثامن والسبعين (٤) .

Quintus Naevius Sutorius Macro, cf. l'anné epigraphique 1957, no. 250

ويرى الاستاذ سكالارد انه كان يشغل منصب نقيب خفراء روما انظر :
Scullard, op. cit., p. 287.

(١) على أى حال لم يتضمن هذا الخطاب الذى نقله الينا ديون كاسيوس أى اتهام ضد سيانوس بتدبير مؤامرة لاغتيال تيبريوس انظر :
F. March, The Reign of Tiberius, p. 394.

(٢) Seneca, 97, II.

(٣) شبه الهجاء جوفينال (X.49) مأساة سيانوس بالرجل الذى بنى برجا شاهقا من الحجر وهو لا يدرى أنه سوف يسقط من علياته .

(٤) بينما حزن أصدقاء تيبريوس المقربين — مثل اليهودى هيرودس أنتيباس أمير

ان مصادرنا عن تيبريوس متناقصة ، فقد صورته المصادر السناتورية — التى اعتمد عليها تاكيتوس وسويتونيوس — كدكتاتور سفاك للدماء وعبقرية شر كبرى ، بينما كتب بعضهم سيرته بصورة ابولوجيا دفاعية تبرر سلوكه ، وتبين فضائله الحميدة وخدماته التى اداها للامبراطورية واصلاحاته التى قام بها فى الولايات . لقد كان تيبريوس شحيحا فى النفقات العامة ، وقد جعله هذا مكروها لدى جماهير العاصمة بينما اعتبره سكان الولايات الرومانية مصلحا ومنقذا لهم من استغلال كبار الموظفين .

اما فيما يختص بالسياسة الخارجية فقد حاول تيبريوس ان يسير على نهج سلفه اغسطس ، وحرص على استمرار المجلس الاستشارى القديم الذى كان اغسطس قد أنشاه من بين أعضاء السناتو بغرض تدارس شئون الامبراطورية Consilium Coercendi intra terminos Imperii بل وعمل من خلاله ، كذلك لم يكن تيبريوس من أنصار التوسع لأنه اعترض على محاولات جرمانيكوس فى توسيع حدود الامبراطورية فى المانيا؛ وكان هذا نهاية لأحلام روما فى هذه المنطقة من اوروبا . وفى عهده أيضا أصبحت كابادوكيا (جنوب البحر الأسود) ولاية رومانية بعد موت ملكها أرخيلاؤس عام ١٧ ميلادية .

ولقد كان عهده عهد سلام بصرف النظر عن بعض الثورات التى واجهها مثل الثورة التى حدثت فى بلاد الغال حول ليون Galia lugdunensis عام ٢١ ميلادية وحركة التمرد التى قادها تاكفريناس (١) زعيم البربر فى ولاية نوميديا (الجزائر) والتى استمرت من ١٧ حتى ٢٤ ميلادية . كذلك حدثت فى عهده خلافات بين روما والبارثيين كادت تؤدى الى الحرب ولكن تيبريوس تفادى ذلك مرتين مفضلا الطرق الدبلوماسية وعن طريق المفاوضات التى بدأها جرمانيكوس عام ١٨ ميلادية وانهاها لوكيوس فيتليوس L. Vitellius قبل موت تيبريوس بقليل .

=

ربع الجليل بفلسطين الذى علق على موت الامبراطور بقوله « ان الليث لن يزأر بعد « اليوم » انظر :

Jocsphus, 47, XVIII, 8

بينما نجد الغوغاء الرومانية تعلن شماتتها وتهتف « القوا بتيبريوس فى التيبر »
Tiberium Tiberim | Suetonius, 106, Tiberius 85.

(١) عن هذا الثائر انظر :

R. Syme : Studies in Roman Economic & Social History in Honour of A.C. Johnson (1951), p. 113.

كما عثر على بقايا نصب تذكارى أقامه القنصل دولابيلا Dolabella لربة النصر « فكتوريا » بمناسبة موت تاكفاريناس انظر :

R. Bartoccini, Epigraphica, 1958, p. 3 ff.

لم يخرج تيبريوس عن سياسة أغسطس فى شىء سوى مد صلاحية مندوبى الامبراطور legati - لحكم الولايات وربما لم يكن ذلك تراخيا واهمالا من الامبراطور بقدر ما كان امرا مقصودا بسبب ازمة الثقة التى قامت بين الامبراطور وبين معظم القيادات البارزة خاصة اعضاء السناتو .

اما فيما يختص بالسياسة المالية والاقتصادية فقد كان تيبريوس شحيحا اذ خفض النفقات العامة مثل التى كانت تخصص للانفاق على التسلية والمهرجانات الرياضية والتى اعتاد الشعب الرومانى عليها ، كما كان حريصا فى منح الهبات العامة مما جعله غير محبوب من الناس فى عصر كانت فيه شعبية الحاكم تقاس بمدى انفاقاته العامة . وكان نتيجة سياسة الحرص المالى أن تراكمت المدخرات فى الخزانة العامة حتى بلغت الفين مليون سستركيس رومانى .

ولم يكن تيبريوس على وفاق مع السناتو فبعكس اغسطس الذى كان ذكيا تملق السناتو بينما راح يحركه فى الخفاء متخذا منه مخلب القط لمآربه واغراضه ، هاجم تيبريوس السناتو علنا ورفض فى بعض الأحيان ان يجتمع به ، بل ضاق ذرعا بتصرفات بعض زعمائه من امثال ارونتيوس وغريمه أسينيوس جاللوس ، بل أن غموض الامبراطور وانطوائه على نفسه وكراهيته للتملق بث الرعب والخوف فى قلوب بعض زعماء السناتو .

لقد ظلم التاريخ تيبريوس (١) كثيرا ، فلقد ظلت الفكرة عنه لقرون عديدة أنه كان شريرا وأن خلفاءه من امثال كاليجولا ونيرون سلكوا مسلكه ، وقد علل احد علماء التحليل النفسى للتاريخ واسمه الدكتور مارانون فى كتابه المشوق تيبريوس : دراسة فى الكراهية » بأن مصدر هذه الكراهية هو التأثير الثقافى المسيحى الذى شكلت تفكير العصور الوسطى وطلائع العصر الحديث اذ ظلم المسيحيون تيبريوس لأن السيد المسيح قام فى عهده برسالته السماوية فى فلسطين ثم حدث له ما حدث فى حضور بونتيوس بيلاطس الحاكم الرومانى لولاية يهوذا الذى لم يكن فى قدرته أن يفعل شيئا ضد الحاح الكهنة اليهود .

وكما يقول المؤرخ العظيم رونالد سايم ، « انه من الطبيعى أن يتغير سلوك الانسان كلما تقدمت به السن ، خاصة تيبريوس حيث تعرض فى حياته لمشاكل عديدة ، كما حاق به ظلم واجحاف كتمه فى نفسه واختزنه طويلا وظل هذا الكتمان يغلى فى أعماق نفسه حتى انفجر كالبركان الرهيب (٢) .

---

(١) فيما يختص بالتهم التى وجهت الى تيبريوس ووجهة نظر تاكيتوس فى ذلك انظر مقالة Von Fritz, Classical Philology 1957, p. 78 ff.

(٢) cf. G. Maranon, op. cit., p. VI.

ثانيا : جايوس كاليجولا امبراطورا
(٣٧ — ٤١ ميلادية)
Gaius Caligula

كان تيبريوس قد أوصى بأن يعين جايوس الابن الوحيد المتبقى من أبناء ابن أخيه جرمانيكوس الذين فتك بهم ، وكذلك حفيده تيبريوس جميللوس Tiberius Gemellus (وهو ابن ابنه دروسوس) ورثة على ممتلكاته الخاصة . ولما عرض الأمر على السناتو لاختيار أحدهما رجحت كفة جايوس ، لأن كراهية الامبراطور الراحل داخل مدرجات السناتو كانت واضحة ، اذ رفض الأعضاء الانعام عليه بشرف التالية بعد الموت ، وكان من الطبيعى ان يفضلوا ابن جرمانيكوس المحبوب على حفيد الامبراطور ؛ بل أن جايوس كان يتمتع بثقة ماكرو وكان هذا الأخير من أبرز الشخصيات التى أثرت على الرأى العام داخل مدرجات السناتو حتى أختير جايوس امبراطورا ، ومن ثم انعم السناتو عليه بالامبريوم والسلطة التربيونية مدى الحياة ، وكان جايوس وقتذاك لم يتعد الخامسة والعشرين ربيعا (١) .

ولقد ساد الفرح والرضاء الناس بعد اختيار جايوس . وبدأ جايوس عهدا جديدا، فقد أطلق سراح المسجونين السياسيين، وألغى نظام المخبرين، وخفض الضرائب عن كاهل الناس ، وزاد اعتمادات النفقات العامة . وأعاد نظام الانتخابات عن طريق المجالس الشعبية ، وأعلن تبنيه لحفيد تيبريوس بل انه اخرج عمه كلاوديوس من اعتكافه فى مزرعته وجعله قنصلا شريكا له فى الحكم . كما أبدى الامبراطور الشاب روحا « عصرية » وتقدمية فى حبه فى للمسرح والرياضة والمهرجانات بعكس تيبريوس تماما . ومن ثم كان جايوس معبود السناتو والجيش والجماهير الرومانية فى الفترة المبكرة من حكمه .

---

(١) مصادرنا عن الامبراطور جايوس هى :

Suetonius, Gaius Caligula ; Dio Cassius, book 59 ; Josephus, Anti Jud. XVIII, 205, XI, 211 ; Philo, In Flaccum : legatio ad Gaium ; Tacitus Annales, book 7 and 8. (معظمة مفقود)

. وقد جمع تشارلز ورث كل المصادر عن جايوس فى مقالته انظر :

M.P. Charlesworth, Cambridge Historical Journal (1933), p. 105 ff.

وكذلك انظر :

J.P.V.D. Blasdon : The Emperor Gaius, Oxford Univ. Press, 1934.

وهو كتاب مفيد وشامل

الامبراطور كاليجولا
(متحف الكابيتول بروما)

ولكن هـذا السرور لم يـدم طويلا لان جايوس كان ضعيف البنية مختل الشعور ، كما ان تيبريوس لم يدربه على ادارة شئون الامبراطورية اذ قضى وقته حبيس القصر فى كابرى ، وكان اعلى منصب وصل اليه هو وظيفة الكوايستور . بل أن الفتى عانى من الرعب وشـاهد امه وأخويه وهما يسقطان ضحية لمؤامرة سيانوس ، بل انه ظل لفترة ينتظر حتفه ، وفجأة تغير الموقف من النقيض الى النقيض ، عندما وجد جايوس المضطهد نفسه امبراطورا وكان لذلك تأثير كبير على اهتزاز شخصيته .

لقـد تربى جايوس فى بيت جـدته أنطونيا ابنة ماركوس انطونيوس واكتافيا حيث التدليل والرعاية ، بل انه تربى فى صحبة امراء شرقيين من أمثال الامير اليهودى هيرودس اجريبا Herodes Agrippa حفيد هيرودس الكبير ، وابناء أمراء تراكيا ، فتعلم منهم فكرة الحكم الشرقى الذى كان سائدا فى الممالك الهللينستية . فضلا عـن ذلك فقـد قضى جايوس أيامه الاولى مع أسرته فى معسكر للجيش قرب الراين حيث دلله الجنود وأطلقوا عليه اسم « ذو النعل الصغير (١) » وذلك لان أمه اجربينا اعتادت أن تلبسه لباس الجنود الرومان بما فى ذلك النعل الصغير ، ومن ثم اطلق عليه لقب كاليجولا والذى لا نزال نعرفه به حتى الآن .

وعلى أى حال لم يكد يمض على توليه العرش ستة أشهر حتى داهمه مرض شديد اثر على قواه العقلية والنفسية ، ونهض منه وقد ظهرت عليه علامات الجنون ، وراح يتحدث عن اللاحـدود فى الحكم المطلق ، ويدعـو الناس الى عبادته جهرا،بل أعلن تأليه شقيقته وأساءمعاملة عمه كلاوديوس (٢) وبنى جسرا عاليا ربط مابين القصر الجمهورى فوق تـل البلاتين ومعبد جوبيتر فوق الكابتول الذى أعلن انه شقيقه ، ثم حدد القرابين والاضحيات التى يجب أن تقدم لشخصه ، بل اتهم بأنه حاول تقليد ملوك البطالمة فى شروعه الـزواج مـن شقيقته . ولـما راح يدعو الى فكرة الحكـم (٣) المطلق فقد نبذ السنـاتو واحتقر الحقوق السيـاسية التى كـان يتحدث

(١) وهو باللاتينية Caliga اى النعل المدجج بالمسامير وتصغيرها كاليجولا Caligula

(٢) يقول سويتونيوس ان كاليجولا ضـاق ذرعا بأن يلقب النـاس عمة كلاوديوس بالعم Patruus لان ذلك يظهرة كما لو كان وصيا عليه . وقد وصل به الغضب ذات مرة أن القى بعمه فى النهر بملابسه لمجرد أن جاء على رأس وفد ليهنىء ابن أخيه ألامبراطور بنجاة من مؤامرة دبرها اليبدوس وجايتوليكوس . وقد وقع ذلك الحادث فى المانيا انظر :

Suetonius, Gaius, V.

(٣) ولهذا جعله الروائى والفيلسوف الفرنسى البير كامى موضوع رواية هى : Caligula وقـد ترجمت هـذه المـرحية الى ألعربية تحت عنوان الامبراطور يطـارد القمر » .

عنهـا الجمهوريون ، وطالب بأن يلقب بالمولى (dominus) كمـا انقلب جايوس على اغنياء السناتو وكبـار الموظفين لان سياسة البذخ والاسراف أفلست الخـزانة وسرعـان مـا جعلته فى حـاجة الى الامـوال ومـن ثم استخدم المخبرين لمعرفة أسماء الاغنياء والموسرين وبالتالى لكى يصادر اموالهم وضياعهم . واكثر من هذا طلب من المخبرين التبليغ عن كل مـن عادى يوما ما امه واخوته او تعاون مع سيانوس . وسرعان ما دبر اغتيال جميللوس حفيد تيبريوس ، واشيع انه عاشر اخته دروسيللا Drusilla معاشرة الازواج ولما ماتت امر برفعها الى مصاف الآلهة . ولمـا اعترضت أختاه على تصرفاته أمر بنفيهما . وبلغ به احتقار الناس ان اعلن أنه عين حصانه نبيلا وكان ينوى تعيينه قنصلا شريكا له فى الحكم .

ومهما يقال فقد قام جايوس بتنفيذ عدد من المشروعات الهامة؛ فقد قام باصلاح الطرق الهامة فى أسبانيا . وبنى فنارا فى بولونيا لارشاد السفن القادمة من بريطانيا ، وعاقب مقاولى انشاء الطرق الايطاليين ممن فشلوا فى تنفيذ عقودهم كما يجب أن تكون ، ثم شرع فى بنـاء جسرين لنقل الميـاه aqueduct فى روما .

كما اتبع نهج سلفة فى سياسة الخارجية بانشائه العديد من الولايات والممالك العميلة وانشأ عددا من الممالك فى تراكيا وأرمينيا ليعين عليهـا أصدقاءه . كما عين صديقة اليهودى هيروديس اجريبا (١) ملكا على ربع يهوذا (جودايا) Judaea كما قام جـايوس بمعاقبة بعض الملوك الذين لم يعجبوه مثل مثريداتيس ملك ارمينيا وبطليموس ملك موريتانيا الذى قتله وادمج مملكته فى ولاية افريقيا ، كمـا قام بزيارة لمعسكرات الجيش على نهر الراين .

صدامه مع اليهود :

ادى اصرار الامبراطور على الزام شعوب الامبراطورية على اعتبارة ربا فى صـورة البشر الى نشوب الخـلاف بينه وبين اليهود الذين كانوا قد اعفوا من هذا الالزام . وقد نشب هذا الخلاف بعد حوادث الشغب التى قامت فى مدينة الاسكندرية حيث كان تعيش جالية يهودية كبيرة . ونظرا لتعاون اليهود مع الرومان وانعزالهم عن الحياة العامة وعدم مشاركتهم للامانى الوطنية لمواطنى مدينة الاسكندرية ، بل وادعائهم حـق التمتع

---

(١) عن حياة هيرودس اجريبا ومغامراته انظر :

M.P. Charlesworth, Five Men, Character Studies From the Roman Empire, London 1936, Chapter I (Herodes).

بحقوق المواطنة فيها (بينما لم يكونوا من بين المؤهلين لها) . فضلا عن تركز الثروة فى أيديهم وسعيهم الدائم للحصول على مزيد من الامتيازات ، فقد أصبحت الجالية اليهودية مكروهة من قبل أهل الاسكندرية . وقد انتهز مواطنو مدينة الاسكندرية مناسبة زيارة هيرودس أجريبا لمدينتهم واستعداد الجالية اليهودية لاستقباله بالحفاوة والتكريم ليقيموا موكبا ساخرا يقودة معتوه عصبوا رأسه باكليل من نبات البردى ووضعوا على ظهرة عباءة من السجاد البالى وراحوا يهتفون له . ولما أدركوا أن هيرودس أجريبا ليس الا صديقا للامبراطور لجأوا الى حيلة أخرى وهى الايقاع بين الامبراطور وأصدقائه اليهود عن طريق اظهار ولاءهم لدعوة الامبراطور لعبادتة ، فأرغموا اليهود على عبادة تماثيل الامبراطور ، ولما رفض اليهود ذلك اقتحمت الغوغاء بيع اليهود وأقاموا تماثيل الامبراطور بالقوة . ولما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للامبراطور ، ومن ثم راحوا يهاجمون منازلهم وينهبون أحياءهم : واسقط فى يد فلاكوس الوالى الرومانى (١) على مصر ، واضطر الى مجاراة أهل الاسكندرية باصدار منشور يتهم فيه اليهود بأنهم دخلاء على المدينة ، ومن ثم نزع منهم كافة الامتيازات التى حصلوا عليها بطرق غير مشروعة ؛ وقد شجع تصرف فلاكوس الغوغاء على مهاجمة اليهود وطردهم من باقى الاحياء ؛ وساقوهم الى الحى الرابع (حى الدلتا) حيث كانوا يقيمون .

وسرعان ما تحولت مظاهرات الشغب الى نهب حوانيت اليهود وبيعهم وأشعال النار فيها . بل تحولت بعض المظاهرات الى معارك سقط فيها عدد كبير من اليهود .

وسارع اليهود بارسال وفد الى الامبراطور جايوس لتقديم (٢) الشكوى والاحتجاج . ولكن الامبراطور الذى كان قد عاد لتوه من زيارة معسكرات الراين اظهر عدم اكتراثة فى بادىء الامر ، ولكن صادف حظ اليهود التعس ان يتلقى الامبراطور نبأ تدمير اليهود لمعبد اقامة له اليهود فى مدينة قيصرية بفلسطين فيستولى عليه الغضب ويبعث الى بترونيوس

---

(١) ظلم اليهود هذا الوالى كما ظلمه السكندريون . وكان مثله مثل الحاكم البريطانى على فلسطين ابان الصراع المرير بين العرب واليهود فى الثلاثينيات من القرن العشرين . ولم يكن صديقا لأى من الطرفين بل كان مخلصا للامبراطور وحده ومصلحة روما فقط انظر :

H. Box, On Philonis Alexandrini — In Flaccum (1939).

كذلك انظر :

Mary Smallwood : Philo, legatio ad Gaium (1961).

(٢) A Garzetti, l'Impero da Tiberio agli Antoniani. Roma (1960). p 599 ff.

حاكم سوريا بأمره بتنصيب تمثاله فى قلب المعبد الكبير فى أورشليم مستخدما فى ذلك القوة لو استدعى الامر . ولكن بترونيوس رأى أن مثل هذا الاجراء قد يدفع اليهود الى الثورة ومن ثم تلكأ فى تنفيذ هذا الامر حتى أعفاه موت الامبراطور من تنفيذة .

هكذا ازدادت كراهية الرومان للأمبراطور جايوس لتصرفاته التعسفية ، ومحاولته ملء الخزانة عن طريق مصادرة ممتلكات ضحاياه ، وفرض الضرائب على الناس . وتزوير الوصايا ، مستخدما جيشا من المخبرين ، حتى جاءت نهايته فى يناير عام ٤١ ميلادية عندما سقط مضرجا فى دمائه تحت طعنات احد ضربات الحرس الجمهورى الذين اهانهم الامبراطور وذلك قبيل القيام برحلة الى مصر التى تزود من حضارتها وقلد فى التسلط فراعنتها وبطالمتها ، ومن ثم ساعد ذلك على تنفيذ المؤامرة (١) . وسرعان ما ايد باقى قوات الجيش اغتيال الامبراطور واندفعوا ففتكوا بزوجته وبطفله بينما تنفست روما الصعداء .

(١) cf. Josephus, Antiquitatis Judaicae, XIX, 80-82.

ثالثا : الامبراطور كلاوديوس

من ٤١ — ٥٤ ميلادية

ولما وصلت انباء مصرع كاليجولا الى السناتو ، هلل الاعضاء وبلغ بهم الحماس ان تناقشوا فى امكانية العودة الى الاصول الجمهورية ، ولكنهم سرعان ما أدركوا أن الامور لم تعد بأيديهم وانما بأيدى قوات الحرس الجمهورى المتمرد . وحدث أثناء الثورة فى القصر أن وجد احد الجنود واسمه جراتوس Gratus العم كلاوديوس مختبئا وراء ستائر أحد غرف القصر فألقى القبض عليه وجره الى معسكر قوات الحرس ، حيث استقبله الجنود بالسخرية ، وقام احدهم بتأدية التحية الامبراطورية ساخرا هاتفا به امبراطورا ، ولكن سرعان ما أصبح الامر جادا عندما وعد كلاوديوس بمكافأة الحرس الجمهورى واوفى بوعده (٢) ، واصبح هذا تقليدا مؤسفا لكل امبراطور جديد (٣) ، واضطر السناتو مرغما الى الموافقة على ترشيحه منعما عليه بلقب اغسطس وبالسلطات الخاصة بالامبراطور . وهكذا شاعت

مصادرنا عن الامبراطور كلاوديوس هى :

(١) Tacitus, Annales, XI- II (= A.D. 47 to 54 A.D.) ; Suetonius, Divus Claudius ; Dio Cassius IX ; Seneca Ad Polybium, Apocolocyntosis ; Josephus, Bell. Jud. ii, 204 ,Antiq. Jud. XIX, 212 etc.

أما المصادر الحديثة فهى

M.P. Charlesworth, Documents illustrating the Reigns of Claudius and Nero. (1939) ; R. Syme, Tacitus, 2 vols. (Oxford University Press (1958), p. 307 ff.

من الكتب المفيدة عن حياة الامبراطور

V.M. Scramuzza, The Emperor Claudius, Harvard University Press 1940 ; Aldo Momigliano, Claudius --- The Emperor and his Achievement (Second edition —ith New bibliography : New York, Orford University Press 1961.

(٢) Josephus, Antiquitates, Judaicae, op. cit., XI, 247 ; Suctonius Claudius, 10,4.

(٣) ظل كلاوديوس طوال فترة حكمه سجينا لهذا الجميل الذى اولاه له الحرس البرايتورى ومؤازرته له فى وجه المعترضين عليه من رجال السناتو واعلن ذلك مرارا وتكرارا وصكة على النقود حيث ظهرت تكنات الحرس البرايتورى وهى تحيى الامبراطور وتتدم له نقتها وكتب على ألعملة

Imper (ator) receptus, praetor (iani) recept (i in Fidem). cf. H. Mattingly and E.A. Sydenham, Roman Imperial Coinoge I., pl. V ; cf. Scramuzza, op. cit., p. 62.

الظروف أن يصبح تيبريوس كلاوديوس قيصر جرمانيكوس امبراطورا من باب الصدفة ورغما عن انفة متحديا السناتو (١) .

كان كلاوديوس قد جاوز الخمسين من عمره ، وكان يؤثر العزلة ، ويبتعد عن الظهور بسبب مظهرة المترهل نتيجة لعاهة أصابته أثناء طفولته، ويقال انه كان يعانى من جراء شلل خفيف (٢) . ولكنه كان ثرثارا متحذلقا بالرغم من انه كان يتلعثم ويخرج الكلمات بصعوبة من فمه ؛ أغرق نفسه فى عالم البحث والادب وفقه اللغة اللاتينية (٣) ، وراح ينظر الى العالم من زاوية مثالية . وكان كلاوديوس قد تلقى تعليمة على يد المؤرخ الرومانى العظيم تاكيتوس ، وكانت له دراسات فى سير العظماء وفى الآثار والتاريخ . ومن أشهر ابحاثه التاريخية بحثه عن أغسطس ، وعن تاريخ قرطاجة ودولة الأتروسكيين . فبذلك كانت له خلفية ثقافية واجتماعية جعلتـه متفهمـا للسياسة والحكم وهو امر لم يكن منحققا لاحد من سابقية .

كان كلاوديوس أكولا محبا للشراب . ومتيما بالمراهنات ولعب النرد حتى انه الف فيها كتابا . كما كان ساديا حبا لمشاهدة المبارزات الدامية ويطيل التامل فى وجه القتلى من المتبارزين وهم يلفظون أنفاسهم ، محبا للانتقام ، لا ينسى الجميل ابدا ويقال انه عين أحد الشبـاب فى وظيفة البرايتور وهى وظيفة قضائية هامة لمجرد ان جد هذا الشاب كان قد زارة أيام كان مريضا مهملا فى قصر كاليجولا ثم ناوله كوبا من الماء ليشرب (٤) . وكان أول من يصل الى ساحة الالعاب الجلادية ، كمـا تمتع كلاوديوس بموهبة عجيبة فى كسب عطف الناس ؛ فلقد بالغ سينكا وتاكيتوس فى وصفة بالغباء (٥) ولكن اعتقد أنه كان يتغابى ولم يكن غبيا ، وذلك لان ظهر فى كثير

---

(١) من اسباب ترجيح كفة كلاوديوس ضد معارضى توليته أنه كان شقيق جرمانيكوس معبود الجماهير فى الامبراطورية من ضفاف المانيا حتى صحراء سوريا وحدود السودان ويضرب سكراموزا مثلا فى التاريخ الحديث باختيار لويس نابليون كرئيس للجمهورية الفرنسية الثانية لانه كان مجرد شقيق نابليون بونابرت انظر
Scramuzza, op. cit., p. 55.

(٢) هو احدث تشخيص للمرض ألذى حاق بالامبراطور فى طفولته وكان الاطباء المؤرخون قد اختلفو فى تحديد هذا المرض ثم اتفقو على أنه شلل اطفال
Infantile Paralysis
T. De C. Ruth, The Problem of Claudius, Baltimore, 1924, pp. 133-136, and pp. 15-18.

(٣) كان لكلاوديوس عدة أبحاث فى الابجدية الاتروسكية واللاتينية بل حاول اضافة حروف جديدة لهذه الابجدية ولكنه لم ينجح أنظر :
Scullard, op. cit., p. 299, p. 235

(٤) انظر :
Suetonius, Claudius, 40, 2 :

(٥) Seneca, Apoc 401 ; cf Tacitus, Annales, XI. 28.

من المشكلات دبلوماسيا ماهرا . ولكن طيبة قلبة هى التى جعلتة يتساهل فى بعض الجوانب خاصة مع زوجاته وأصدقائه وموظفيه وعتقائه .

لقد كان كلاوديوس متيما بحب اغسطس لدرجة انه جعل اسمه القسم الاعظم ، وحاول العودة الى أسلوب هذا الامبراطور فى التعامل مع هيئة السناتو . لقد كان كلاوديوس آخر من يحلم بالعرش ، اذ ابتعد كلية عن المناصب اللهم الا من وظيفة القنصل التى وضعه فيها ابن أخيه جايوس سخرية منه ، كما كان الشعب الرومانى لا يتوقع مطلقا أن يصبح العم الاعرج المترهل كلاوديوس امبراطورا ، ولكن ثبت أن كلاوديوس أعظم الاباطرة الذين حكموا روما ، فبسياستة الليبرالية ومثاليتة وحسه المتواصل على الكفاءة والعمل واداء الواجب جعله يفوق سابقيه حتى أغسطس نفسه قدرة على الحكم ، بل ان بعض المؤرخين شبهوه بروح يوليوس قيصر الرائدة وبكفاءتة النادرة . فكان حكمة عموما حكم العقل المثقف والنفس المتزنة .

سياستة واصلاحاته :

لقد اثرت دراسة التاريخ كثيرا فى عقلية الامبراطور كلاوديوس ونظرته لفلسفة الحكم . واصبح يتخذ خطأ تغلب عليه النظرة المحافظة متتبعا روح الامبراطور اغسطس وتيبريوس .

وبالنسبة للسناتو أظهر الامبراطور احترامه وتبجيله ، وتمنى — بل فعل كل ما فى وسعه — ليجعله يشارك فعليا فى الحكم . ولكن ذلك لم يمنع سوء التفاهم بين السناتو والامبراطور ، فقد غضب رجال السناتو من اتجاه الامبراطور الى الاعتماد على العبيد والعتقاء والاستفادة بهم فى تسيير شئون الامبراطورية . وملأ بهم مرافقها الادارية والقضائية ، بل أعطاهم سلطة مطلقة وجعل اتصالهم به مباشرا ، ولم يخل الأمر من اصطدام هؤلاء العتقاء بمصالح بعض رجال السناتو ، فحقدوا عليهم واتهموهم بالبيروقراطية ، وساءهم أن يروا رجالا من أصول اجتماعية وضيعة وفاسدة يدبرون أمور هامة فوق هاماتهم ، واخذتهم العزة والانفة والكبرياء . ولكن الفكرة فى عقل كلاوديوس كانت وضع نواة لجهاز تنفيذى للدولة بل يعتبر البعض هذه الخطوة النواة الأولى لفكرة الدواوين والوزارات (١) .

(١) Scramuzza, op. cit., p. 50.

وعن الصراع بين كلاوديوس والسناتو أنظر سلسلة المقالات الاتية :

D. Mac Allindon in American Journal of Philology (1956), p. 113 ff. and 1957, p. 279 ff ; Journal of Roman Studies, 1957, p. 191 ff. ; Latomus, 1957, p. 252. e.

ومما ساءهم أيضا تولى الامبراطور مهمة قديمة منذ أيام الجمهورية وهى وظيفة الرقيب على السناتو Censor وذلك فى عام ٤٧ ميلادية . ونفذ النص الجمهورى القديم بحذافيره . واتخذ له شريكا فى هـذه الوظيفة والتى كانت مدة صلاحيتها ثمانية عشر شهرا . وقد هدف كلاوديوس من جراء ذلك الى وقف المهازل ، وتمشيط السناتو من العناصر المتخمة بالفساد وادخال العناصر الجديدة فى هذا البيت العتيق .

كذلك أوقف كلاوديوس المهازل التى كانت ترتكب ضد المواطنين الأبرياء باسم قانون الخيانة العظمى ، وحـد من نفوذ المخبرين المحترفين ، وبالرغم من هذا اضطر الامبراطور الى محاكمة واعدام عدد من رجـال السناتو ، وقيل أنهم خمس وثلاثين عضوا بالاضافة الى بضع مئات من رجال طبقة الفرسان بسبب تآمرهم ضده . كما راح عدد آخر نتيجة للمكائد التى حاكتها زوجتا الامبراطور وهما ميسالينا Messalina واجريبينا الصغرى Agrippina أو نتيجة لدسائس رجال الامبراطور البرجوازيين .

ومن أهم التجديدات الاصلاحية التى جاء بها كلاوديوس هو تطويره لوظائف الامناء التى كان اغسطس قد أوجدها لعدد من الرجال العتقاء والعبيد لمساعدته فى ادارة شئون الامبراطورية وتحويلها الى دواوين لها اختصاصاتها ، وجعل لها رؤساء وذلك بسبب ازدياد المسئوليات التنفيذية الملقاة على عاتق الامبراطور ، وقد تراس هذه الدواوين نخبة من رجـال الامبراطور من العتقاء القادرين والطموحين من أمثال باللاس Pallas (١) رئيس ديوان النفقات (a rationibus) ، ومنـافسة ناركيسـوس Narcissus رئيس ديوان المراسلات ab epistulis ، كذلك انشأ كلاوديوس ديوانا لشؤن الالتماسـات الموجهـة للأمبراطور libellis ، وديوانا أخرى للشؤن القضائية ومحكمة القصر ، وديوانا خاصا لشئون المكتبة وتسجيل الوثائق a studiis .

وكان مديرو هذه الدواوين رجالا ذوى نفوذ قوى على الامبراطور ، وبالتالى أصبح لهم تأثير كبير فى رسم السياسة العامة للامبراطورية . ومهما كانت كفاءتهم فقـد كان ينقصهم الخلفية المنـالبة والاخلاق التى كانت تشكل نفسية الارستقراطى الرومانى ، ومن ثم فقد استغل كثير من

---

(١) عن هذا الرجل ونشاطه انظر مقاله اوست
S.I. Ost., American [illegible] of Philology (1958) p. 1[illegible]3. ff.
ومن الجدير بالذكر أن رجاله [illegible] له ضيعه فى [illegible] أوشيم) وفى تبتونس [illegible] فى اقليم الفيوم :
cf. Papyri Michigan, IV, no. 224.

هؤلاء الرجال مناصبهم فى جمع الثروات الطائلة عن طريق الرشاوى والوساطة والمحاباة ، ونشأت البيروقراطية الرومانية واصبحت مرضا تفشى فى أجهزة الامبراطورية ادى فيما بعد الى تدهورها . وقد نظر أعضاء السناتو الى هؤلاء الرجال الجدد نظرة احتقار لوضاعة أصولهم الاجتماعية ، ومن ثم اعتبروهم دخلاء على الحكم ، وتحت تأثير هؤلاء الرجال أيضا عين عدد كبير من العتقاء فى وظائف مديرى الشئون المالية بالولايات Procuratores ، ومن ثم سيطروا على الاجـراءات القضـائية المتعلقة بالشئون المالية ؛ وبذلك أصبحت السلطة الفعلية فى يد هؤلاء البيروقراطيين ذوى الأصول الوضعية . وبسبب هذا اتهم تاكيتوس وسينيكا الأمبراطور بالرعونة والغباء ولكنه اتهام مبالغ فيه .

لقد بدأ كلاوديوس عهده بحركة واسعة للانشاء والتعمير فأكمل جسور مجارى المياه التى كان ابن أخيه كاليجولا قد شرع فيها ، ورمم القـديم منها ، بل عين مشرفا لشئـر ... . ودعم الجهـة المشرفـة على ذلك . كما قام الامبراطور ببناء ال... ن جسور مجارى المياه فى آسيا وأفريقيا وبلاد الغال التى فى عهده بدأت تزدهر وتشكل الحضارة الرومانية للاجيال القادمة .

كما أعطى الامبراطور كلاوديوس اهتماما خاصا للتجارة الدولية ، ولم تعرف الامبراطورية حركة انعاش واهتمام بالتجارة والمواصلات مثل تلك الحركة التى قام بها كلاوديوس ، ولم ينتظر الامبراطـور اجراءات السناتو الذى كان يشرف على المنشآت العامة ، فراح يشرف على بناء الطرق والمرافق العامة سواء فى ايطاليا او فى ولايات الامبراطورية . واهتم الامبراطور خاصة ببناء الموانى مثل تخطيطه الجديد للمينـاء الـكبير فى أوستيا (١) (مينـاء رومـا) ، بحيث أصبح يستقبل مـائتين سفينـة فى آن واحد ، كما حفر قناة تربط بين نهر التيبر والميناء مما سهل وصول البضائع والواردات الى روما بنفقات ضئيلة . كما زود الميناء بعدد من الأرصفة والورش البحرية . كما قام الامبراطور بتسهيل اجراءات تفريغ ودخول البضائع الى روما ، كما شجع أصحاب السفن على الدخول فى تعاقدات لنقل البضائع والغلال من الميناء الى العاصمة باعطائهم مزيدا من الامتيازات مثل التامين على سفنهم واعفائهم من الضرائب . وبالنسبة الى عامة الشعب الرومانى حرص الامبراطور على تسهيل توزيع القمح(٢)

---

(1) cf. R. Meiggs, Roman Ostia, (1960)

وهى دراسة شيقة من الناحية الطبوغرافية والاثرية والتاريخية .

D. Van Berchem, les distributions de blé et d'argent à la plèbe romaine sous l'empire, Paris 1939.

وبذلك نقل اختصاص توزيع القمح من المنصب السيناتورى نقيب القمح Praefectus Frumentia الى نقيب التموين Praefectus annonae وهو منصب غير سيناتورى .

الرخيص عليهم وجعل هذه المهمة تحت اشرافه شخصيا وليس تحت اشراف رجال السناتو ، لأن روما بدأت تصبح أكثر اعتمادا من ذى قبل على ما تنتجه ولاياتها من القمح من اجل اطعام شعبها .

كما اهتم الامبراطور بشق القنوات خاصة فى بلاد الغال وذلك لتسهيل النقل البحرى بين بحر الشمال والبحر المتوسط ، كما اصلح ميناء بولونيا ، كما خطط مشروعا لتجفيف بحيرة فوكينى Fucine فى ايطاليا للقضاء على وباء الملاريا ولاستصلاح المزيد من الارض القابلة للزراعة ولتحسين الملاحة الداخلية لنهر ليريس (Liris) .

سياسته الخارجية :

كانت سياسة كلاوديوس الخارجية فى الحقيقة خروجا على الانغلاق والجمود والحرص الزائد الذى كانت تتميز به علاقة روما الخارجية فى عهدى اغسطس وتيبريوس ، وأصبحت أشبه بعودة صريحة الى سياسة يوليوس قيصر المغامرة والطموحة التوسعية ؛ فمثلا قام كلاوديوس بضم بريطانيا للامبراطورية الرومانية ، وكان قصده فى ذلك استغلال خيرات هذه الجزيرة (التى غالى فى تصورها) واحياء روح الصداقة بينه وبين الجنود بالاشتراك معهم شخصيا فى هذا الغزو الرومانى للجزيرة الغامضة .

وقد تم فتح بريطانيا عام ٤٣ ميلادية واصبحت المنطقة الجنوبية من بريطانيا تماما فى حوزة الامبراطورية الرومانية [illegible] عام ٤٧ ميلادية ؛حيث انشأ معبدا لروما ولاغسطس فى مدينة كامولودونوم Camuldonum (كولشستر) والتى جعلها عاصمة لولاية بريطانيا . وبهذا دخلت عبادة الامبراطورية فى الولاية الجديدة . بل والعبادات السكندرية خاصة ايزيس التى عبدت بشدة فى بريطانيا وتركت اثرا قويا فيها حتى بعد انتشار المسيحية .

وفى شمال افريقيا واجه كلاوديوس بعض القلاقل والاضطرابات فى مملكة موريتانيا لتى كانت سلفه الراحل قد اوعز بها لاسقاط بطليموس ملكها فى عام ٤٢ ميلادية طمعا فى مصادرة أمواله وتحويل المملكة الى ولاية رومانية . وبعد عامين من القتال المرير والمقاومة الشعبية العنيفة قضى كلاوديوس على حركة التمرد عام ٤٤ ميلادية و[illegible] موريتانيا الى ولايتين امبراطوريتين هما موريتانيا القيصرية Mauretania Cae[illegible] فى الشرق و[illegible] موريتانيا طنجة Mauretani[illegible] Tangitana فى الغرب .

كذلك أبقى كلاوديوس على معظم الممالك التابعة ، ولم يقم الا بضم بعضها لتصبح ولايات رومانية تحت الحاح أسباب معينة ، فمثلا اضطر لوضع حد للصراعات التى سادت البيت المالك فى تراكيا عقب موت ملكها ، فجعلها ولاية رومانية عام ٤٦ ميلادية ، وفعل نفس الشيء بمملكة يهودا بعد موت هيروديوس اجريبا ، والحقيقة كان كلاوديوس قد عينه ملكا على هذه المملكة عام ٤١ ميلادية بعد توسيع رقعتها ، وكان قصده فى ذلك الاعتذار لليهود عما حاق بهم على يد سلفه الراحل كاليجولا واظهار شكره لهيرودس للاهتمام والمساعدة التى بذلها من أجل وصول كلاوديوس الى الحكم .

ولما مات هيرودس عام ٤٤ ميلادية ، سارع كلاوديوس بجعل المملكة شبه ولاية رومانية باسم ولاية يهودا Judaea ووضعها تحت ادارة مسئول رومانى بدرجة بروكوراتور Procurotor

كذلك اقام كلاوديوس علاقات وثيقة مع ممالك البحر الاسود خاصة مملكة كريميا عند مخرج هذا البحر تجاه روسيا ، وكان هدفه هو جعل البحر الاسود بحيرة رومانية ، كما قام بتطهيره من عصابات القراصنة ، ومن الواضح أن الامبراطور كان يهدف الى المزيد من التوسع الاقتصادى والتجارى فى هذه المنطقة الغنية بالقمح الاوكرانى الشهير .

كما اقتدى كلاوديوس بروح يوليوس قيصر فى تعامله مع مواطنى الولايات الرومانية وفى اقامة العديد من المستعمرات الرومانية ، وفى تحويل بعض المستعمرات الرومانية الى مدن رومانية تشع الحضارة اللاتينية لتضيء عالم البرابرة . وقد وصل لنا جزء من خطبة للامبراطور القاها فى السناتو بصفته رقيبا دافع فيها عن سياسة التساهل فى منح الجنسية الرومانية الى شعوب الامبراطورية خاصة شعوب الغال بل اصر على أن يتساوى مواطنو الامبراطورية سواء داخل روما او فى الاقاليم فى أحقيتهم للتقدم للوظائف العامة . كما يتضح من ذلك ان عين بعض زعماء الغال أعضاء فى مجلس الشيوخ الرومانى . وقد اظهر التعداد السكانى الذى أجرى عام ٤٧ — ٤٨ ميلادية أن عدد المتمتعين بالجنسية الرومانية بلغ ٥ر٩٨٤ر٠٠٠ بزيادة مليون عن عددهم أيام أغسطس (١) .

لقد أبدى كلاوديوس اهتماما خاصا بشئون ادارة الولايات الرومانية ، وكان جادا يعنى ما يقول فى محاولته رفع كفاءة موظفيه وجعلهم شرفاء

---

(١) cf Scramuzza op. tic., p. 142.

امناء . كما كان دبلوماسيا فى مناقشته طلبات سكان الولايات كما يتضح من رده على الطلب الذى تقدم به شعب الاسكندرية مطالبين بعودة مجلس الشورى الخاص بالمدينة (١) .

محاكم القصر :

ولكن النقد الذى وجهه المؤرخون القدامى الى الامبراطور كلاوديوس هو ضعفه ، وانسياقه وراء رجاله العتقاء ، ورضوخه لرغبات زوجتيه ميسالينا واجربينا ، وربما كان فى الاتهام مبالغة خاصة وأن مؤرخى هذا العصر كانوا من الارستقراطيين الذين ضايقهم اعتماد الامبراطور على الرجال المعتقين فى ادارة شئون الامبراطورية ، ولكن الذى لا شك فيه هو وجود ظواهر غير صحيةفى القصر الامبراطورى نتيجة لتدخل زوجات الامبراطور، خاصة أن الامبراطور كان رقيقا متلاطفا معهن ضعيفا امامهن . وكان حظ الامبراطور فى الزواج سيئا . فقد تزوج أربع مرات ، ولم يكن من بين هذه الزوجات زوجة واحدة صالحة ، بل كلهن كن سيئات ، فاسدات ، وطموحات وشريرات . وقد انجب الامبراطور من زوجته الثالثة ميسالينا ولدا وبنتا هما بريتانيكوس Britannicus واوكتافيا .

وقد بلغ الاستهتار بهذه الزوجة أن أقامت علاقات مع رجال البلاط ، وشاعت علاقاتها الغرامية مع شاب أرستقراطى هو جايوس سيليوس Gaius Silius ؛ وانتهزت ذات مرة غياب الامبراطور فى رحلة تفتيشية الى ميناء أوستيا (٢) فأقامت حفل زفافها على هذا الفتى فى القصر ، وقد تضايق رجال الامبراطور من تصرفات الامبراطورة خشية أن تدبر قتل الامبراطور وتعين عشيقها مكانه ؛ وقرروا التخلص من ميسالينا بأى

---

(١) عن مشكلة مجلس الشورى فى مدينة الاسكندرية أنظر مقالة الأستاذ ألدو موملیانو A Momigliano J.R.S., 1044, p. 114. حيث أيد وجود مجلس الشورى وأيد هذا الرأى الاستاذ الدكتور مصطفى العبادى
cf. M.A. El-Abbadi J.E.A. Vol. 49. (1960), p. 107 ff.
ثم رد تيرنر على هذين الرأيين فى J.E.A. (1963)
وقد جمع الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على كافة المصادر عن هذه المشكلة انظر : مصر والامبراطورية الرومانية على ضوء الأوراق البردية ، ص ١٠٦ هامش ٣٠ .
cf Scramuzza, op. cit., pp. 89-90

(٢) ويبدو أنها كانت ضحية لأعداء الامبراطور الذى أقنعوها أن الامبراطور لن يعود حيا من رحلته وأغروها بأن تتزوج سليوس لتبقى امبراطورة .
Tacitus. Annales, XI. 26 7 ; Suetonius, Claudius 29.2 · 36; Dio Cassius IX, 31,5.

وسيلة وذهب رئيسهم ناركيسوس الى الامبرطور ليكشف لـه فضائح ميسالينا ونصحه بأن يصدر أمرا باعدامها وبالفعل أشرف ناركيسوس على تنفيذ هذا الحكم .

وبعد موت ميسالينا نصح باللاس مدير الديوان المالي الامبراطور بالزواج من اجريبنا ابنة اخيه جرمانيكوس وشقيقه كاليجولا ، ففعل الامبراطور ذلك ، بالرغم من أن القانون الروماني كان يعتبر زواج ابنة الاخ زواجا غير شرعيا ، وقد استخدمت العروس الجديدة سحرها وفتنتها للتأثير على الامبراطور لتحقيق اطماعها غير المشروعة ، وكانت هـذه العروس لا تقل عن سابقتها ميسالينا نهما فى جمع الثروة والنفوذ عن طريق حيل بعض رجال القصر الفاسدين . ولما كان الامبراطور رجلا هادئا طيب القلب فقد كان يصدق ادعائهن باتهام بعض أغنياء الرومان بتدبير مؤامرات لاغتياله؛ ومن ثم كانت تجرى محاكمات سرية داخل قاعات القصر (١) بعكس محاكمات تيبريوس التى كانت علنية . وكان هدف ذلك هو مصادرة الثروات وتدمير الأعداء الشخصيين لزوجات الامبراطور . لقد كانت أجريبنا زوجة قاسية لا ترحم (٢) وكانت قد سبق لها الزواج من احد الأشراف هو جنايوس دوميتيوس اهينوباربوس Gnaeus Domitius Ahenobarbus

ومن ثم راحت تحيك المؤامرات لتسهل وصول ابنها الى العرش كخليفة لكلاوديوس ، ولاقناع الامبراطور بابعاد ابنه بريتانيكوس ، وبالفعل أمنت لابنها نيرون عددا من الوظائف الهامة ، وقد اضطر الامبراطور عام ٥٠ ميلادية الى اعلان تبنيه لابنها باسم نيرو كلاوديوس قيصر Nero Claudius Caesar ، وانعم عليه الامبراطور وهو فى سن الثالثة عشر بلقب رائد الشباب princeps iuventutis الى جانب سلطة الامبريوم البروقنصلية (التى تسرى خارج روما فقط) ، وبهذا أصبح الطريق ممهدا لاعلانه خليفة لكلاوديوس (٣) . وفى عام ٥٣ زوج كلاوديوس نيرون من ابنته أوكتافيا (والتي اصبحت شقيقته بالتبنى) ، ولما احست الامبراطورة بأن هناك رأيا يتبناه ناركيسوس بأحقية بريتانيكوس ابن كلاوديوس الشرعى عن نيرون ابن زوجته المتبنى ، سارعت بدس السم للامبراطور حتى لا يتراجع عن رايه فتعرض خططها للفشل ، ولا يصل ابنها الى العرش .

---

(١) B. Baldwin. "Excecutions Uuder Claudius : Seneca's ludus de morte Claudii" Phoenix, 18 (1964), pp. 39-48.

(٢) Scramuzza, op. cit., pp. 92-93.

(٣) Scramuzza, op. cit., p. 92.

رابعا : نيرون

(٥٤ — ٦٨ ميلادية)

وما أن أعلن موت الامبراطور حتى تولى نيرون (١) الحكم دون ادنى تحد او معارضة خاصة أن أمه أجريبينا وعدت الحرس الامبراطورى بمكافأة جزيلة . وكان نيرون وقتئذ فى السادسة عشرة من عمره . وكان شابا عنيفا ، يتدفق بالصحة والحياة ، ذواقا للفنون والجمال ، وتجرى فى عروقه دمـاء ارسـتقراطية نبيلة من آل يوليوس وكلاوديوس وماركوس أنطونيوس ، الى جانب دماء أسرته لابيه اهينوباربوس Ahenobarbi وهى أسرة نبيلة عريقة عرفت بالقسوة والعنف ، بل أن اباه اشتهر بأنه أغلظ الناس قلبا واقساهم طباعا . وقد انقاد الامبراطور الشاب الى امه والى معلمـه الأديب والفيلسوف الرواقى الشهير لوكيوس انايوس سينيـكا Lucius Annaeus Seneca ، والى قائد الحرس الامبراطورى ، وهو جندى قديم وخبير من بلاد الغال الناربونية واسمه بورروس Burrus (٢) ، وقد كانت اجريبينا قد عينت الفيلسوف سينيكا عام ٤٩ ميلادية معلمـا للأمير ، وخلال خمس سنوات شكلت هذه الشخصيات الهيئة الحاكمة . وبالرغم من انها كانت تحكم بالسلطة المطلقة الا انها اتبعت خطا معقولا يحكم لصالح خير الامبراطورية ، وأحس الناس بثمار هذه السياسة الحكيمة فهللوا بأن عهدا ذهبيا من السلام والعدل قد بزغ فجره . وللأسف لم يدم طويلا بسبب تدخل أجريبينا ورغبتها فى فرض سيطرتها على ابنها ، كما كانت تفعل مع زوجها من قبل ، وأن تكون هى الرأس الأكبر فى الحكم . فتصدى لها الفيلسوف سينيكا وقائد الحرس بورروس كما عارضها ابنها نيرون نفسـه ، وكانت وجهة نظرهم هم عدم استساغة حكم المرأة ، ويبدو أن سينيكا وبورروس كانا يفكران فى انشاء حكومة تقوم على التراث الجمهورى

---

(١) مصادرنا من نيرون هى :
Tacitus, Annales, xiii-XVI
Suetonius, Nero; Dio Cassius LXI—LXiii.

اما الوثائق فهى :
M.P. Charlesworth, Doccuments illustrating the Reigns of Claudius and Nero; cf Mattingly, op. cit.

أما المؤلفات الاخرى [illegible] فهى :
B.W. Henderson, The life and principate of the Emperor Nero, London 1923.
M. Levi : Nerone e i suoi tempi. Milano 1949; Charlesworh, JRS (1950), pp. 69.

(٢) [illegible] الشخصية العسكرية الفذة انظر .
W.C. Mac Dernott, Latomus, 1949, p 229 ff.

نيرون صبيا

(المتحف البريطانى — لندن)

القديم ، وان يقدما كل معونة للامبراطور الشاب من أجل ذلك : وكان سينيكا يمثل الحكمة والتعقل بينما يمثل بوروس الخبرة الواقعية . ولما نشب الصراع بين المستشارين والامبراطورة الأم حاول كل فريق كسب الامبراطور الى جواره باغرائه بالعروض المسرحية . وبحفلات الموسيقى والانشاد ، فضلا عن اتباع تدوق الامبراطور الغير عادي للنساء الجميلات . وتباروا فى المبالغة فيما قدموه للامبراطور الذى كان يعشق حياة الصخب واللذة . وكانت النتيجة أن جروا عليهم وعلى الامبراطور الدمار .

كان سينيكا وبوروس (١) يرغبان فى جر الامبراطور الى المبادىء الجمهورية القديمة : وكان الامبراطور بدوره يبتعد عنها بالرغم من أنه رفض وظيفة القنصلية الدائمة لا حبا فى التواضع بل ابتعادا عن الجمهورية القديمة ونظمها وحتى لا يتهم بانه خرج على خط المؤسس العظيم اغسطس ، والحق يقال أن الجمهور الرومانى كان قد تغير ، ولم يعد كما كان أيام الجمهورية؛ أى لم يعد للفرد اى حقوق تحميه ، بل أصبح الامبراطور هو حامى الحقوق الشرعية للمواطنين . ولم يدر الشعب الرومانى بهذا التغير الكبير لأن الازدهار الاقتصادي والرخاء انساهم المطالبة والتمسك بالحقوق القانونية للأفراد : خاصة انهم كانوا يجنون ثمار المشروعات الكبرى التى كانت تقوم بها الحكومة : مثل بناء الطرق وحمايتها وتزويدها بالخدمات خدمة للتجارة : كذلك اهتمت الحكومة بالملاحة النهرية عن طريق الأنهار والقنوات الصالحة للملاحة : كما أن الحكومة عنيت بالموانىء وتوسيعها واصلاحها سواء فى ايطاليا او خارجها اى فى الولايات الرومانية كل هذا ادى الى تدفق الرخاء وجعل الناس يتكالبون على الكسب المادى .

ولم يمض وقت طويل حتى بدا الامبراطور يتخلص من الدائرة التى فرضت نفسها عليه . ففى عام ٥٥ ميلادية دبر مقتل بريتانيكوس ابن كلاوديوس أى ابن أخيه بالتبنى حتى لا ينازعه فى المطالبة بالعرش . ثم بدأ نيرون يهيم حبا بزوجة رومانية هى بوبابا سابينا Poppaea Sabina وكانت زوجة لرجل من الأشراف هو ماركوس سالفيوس أوتو Marcus Salvius Otho : ولما عنفته امه لهذا ولانصرافه الى الفن والشعر والتمثيل والغناء ولعدم اكتراثه بفن الحكم غضب منها . وتحت تأثير بوبايا

(١) cf A. Garzetti. l'Impero da Tiberio agli Antonini. (Milano 1960), pp. 618-620.

(٢) وهو أحد الجنرالات التى رفعت السلاح فى وجه نيرون وثارت غليه . أنظر الفصل التالى :

عشيقته دبر مصرع امه أجريبنا عام ٥٩ ميلادية (١) ، وما أن تخلص من أمه حتى طلق زوجته الشرعية أوكتافيا وتزوج رسميا من سابينا . ولم يترك اوكتافيا وشأنها بل نفاها فيما بعد ثم تخلص منها الى الأبد عام ٦٤ ميلادية .

وبعد اغتيال امه أحس نيرون أنه حر فى ممارسة الحكم (٢) وكان قد بلغ وقتذاك الثانية والعشرين من عمره . ومن ثم راح يدير شئون الامبراطورية كما يشاء ، وساعده فى ذلك موت بوروس Burrus عام ٦٢ ولم يعد للفيلسوف سينيكا اى تأثير على الامبراطور الذى عين رجلا من صقلية اسمه تيجللينوس Tigellinus كمستشار له ، ولما وجد الامبراطور ان مشروعاته الخيالية وبذخه الخرافى قد أفلس الخزانة العامة لدرجة أن الامبراطور اضطر الى خفض قيمة العملة الرومانية لأول مرة وكان تصرفا معقولا من الناحية الاقتصادية ؛ وتحت الحاح الحاجة الى الأموال لجأ نيرون الى عمليات المصادرة حتى أصبح التحكم المالى فى يد الامبراطور ، حتى الخزانة العامة التى كان يشرف عليها اعضاء السناتو اصبحت تحت اشراف مسئول من الحرس الامبراطورى . وكلما ازدادت حاجة الامبراطور الى الاموال لتحقيق اوهامه وأحلامه الخيالية كلما لجأ الى الطرق اللا اخلاقية مثل الصاق تهمة الخيانة العظمى ببعض الأغنياء لمصادرة أموالهم ، وقد ساعده المستشار الصقلى الجديد فى بداية حكم الارهاب ضد الأثرياء وضد الارستقراطيين الذين كانوا يثيرون غيرة نيرون ورجال بلاطه .

كان منبع جنون نيرون ولعله الشديد بالثقافة والفن الاغريقى حتى فقد اتزانه ؛ اذ تمنى أن ينقل بلاد اليونان وحضارتها والاسكندرية وفنونها ومؤسساتها الى روما ، كما كان عاشقا للمباريات الرياضية والتراث الفنى الذى شهده العالم الهللينستى ، وكان نيرون يعتقد أنه فنان موهوب لا يجاريه فى عبقريته أحد ، فراح يتدرب على الغناء ويتمنى ان يهزم أعداءه

(١) وذلك بذبحها على يد أحد رجاله فى فيلتها فى باولى Bauli بعد أن فشلت محاولته الأولى باغراقها فى بحيرة بقلب قاربها ولكن الأم تمكنت من السباحة حتى الشاطىء انظر :

Tacitus, Annales, XIV, 4-8 ; Ranon Katzoff : Where was Agrippina murdered ?, Historia, Band XXII (1973). Heft 1, p. 72-78.

(٢) cf M.P. Charlesworth. Journal of Roman Studies. 1950, p. 69 ff.

كما ظهر نيرون مصورا على النقود فى صورة أبوللون رب الشعر والموسيقى يعزف مثله على القيثارة الربانية انظر :

Sutherland, op. cit., p 170, pl. XIV. ».

وعن نيرون الشاعر انظر :

J. Bardon. Revue des Etudes Latines, 1936. p. 337.

فى حلقات الشعر أو مباريات العزف (٢) . وفى عام ٥٦ ميلادية ظهر نيرون على المسرح الرومانى كمغنى وموسيقى يعزف الحانا ربانية على قيثارته الذهبية ، مما جر عليه استياء الارستقراطية الرومانيـة فانفضت عنـه وبالتالى زادت جرائم نيرون نحوهم .

ولم يقتنع نيرون بموهبته فى روما بل أصر على عرض فنونه فى المباريات الاغريقية التى كانت تقام فى أولمبيا وفى دلفى . ومن اجل هذا قام نيرون عام ٦٦ ميلادية و ٦٧ ميلادية بزيارة مقدسة الى بلاد اليونان ليغنى فى موطن ربات الشعر ، واقد أسفر اشتراكه فى المباريات الاولمبية عن تتويجه الفا وثمانمائة مرة أى فى كافة المباريات التى اشترك فيها ؛ بالرغم من انه سقط ذات مرة على الارض أثناء سباق العربات . وبالرغم من أن الامبراطور كان يعوز دائما (سواء عن كفاءة أو بالقوة أو بالتملق) فى المباريات الغنائية والموسيقية الا أن حرصه الدائم على الفوز جعله فى حالة معـاناة نفسية دائمة ساعدت على تفجير طاقة الشر فى نفسه (١) .

حريق روما وبداية اضطهاد المسيحيين :

وفى عام ٦٤ ميلادية . شب فى روما حريق مروع استمر ستة أيام واتى على شطر كبير من المدينة مسببا كارثة قومية كبرى .

بدأ الحريق فى حى ماكسيموس Circus Maximus بالقرب من تل البلاتين وامتدت السنة النيران الى المنطقة التجارية ذات الحوانيت المكدسة بالمواد ، فضلا عن شدة الرياح ؛ مما زاد من انتشار الحريق ليشمل المناطق الواقعة فى اعلى التلال والمنازل والمبانى الواقعة فى أسفلها فى نفس الوقت ؛ وفشلت كل الجهود للقضاء عليه .

أحدث الحريق رعبا وهلعا بين النساء والاطفال فهرعوا من ديارهم يحملون ما استطاعوا من المتاع ؛ وراحوا يتدافعون دون جدوى من السنة النيران التى حاصرتهم من كل جانب . فهلك عدد كبير منهم وسقط عدد آخر تحت أقدام الجماهير المذعورة .

---

(١) جدير بالذكر أن نيرون الذى كان مكروها فى روما والولايات الغربية تمتع بسمعة طيبة فى الشرق خاصة مصر . اذ عثر على وثيقة مبايعة صادرة من مدينة أوكسيرينخوس (البهنسا) ومؤرخة فى ٢١ هاتور عام ٥٤ م (أى بعد وفاة كلاوديوس بخمسة وثلاثين يوما) وفيها وصفوا نيرون بروح العالم المباركة Agathos daimon ويتكرر هذا فى نقش اقامه أهل قرية أبو صير بالقرب من سقارة ما بين عامى ٥٥ و ٥٩ م وفى قرية ليتوبوليس (أوسيم) كما ظهرت صورته على نقود الاسكندرية تحمل عبارة « منقذ المعمورة ») أنظر : عبد اللطيف أحمد على المرجع السابق ص ١٣٠ — ١٣١ كذلك :

J.G. Milne : A. History of Egypt Under the Roman Rule p. 23-25.

كان الامبراطور نيرون وقتذاك فى ضاحية انتيوم Antium خارج العاصمة ، ويقال انه تلاكىء ولم يحثه شيء على العودة سوى أن النيران باتت تهدد قصره الجديد الذى بناه ليربط بين تل البلاتين وحدائق مايكيناس الفناء ، وبالفعل عندما عاد وجد النيران قد أتت على هذا القصر . وأبدى الامبراطور اهتماما فى تخفيف الآلام عن الناس ، ففتح حدائقه الخاصة لهم . وبنى لهم أكواخا مؤقتة ، وأنزلهم فى المرافق العامة ووزع عليهم الأغطية والقمح . ولكن هذه الاعمال الخيرة قوبلت بالجحود والنكران ؛ لأن شائعة سرت بين الغوغاء أن الامبراطور عندما عاد اندفع الى قاعة الغناء الخاصة فى القصر ليمسك بقيثارته ويغنى أغنية حزينة عن « طروادة تحترق » ؛ لأن الكارثة ذكرته بكارثة طروادة كما رواها شعراء الملاحم الطروادية من الاغريق .

على اى حال لم تتوقف النيران الا فى اليوم السادس ، ولكن سرعان ما شب حريق جديد فى حى ايمليانوس بطرف المدينة . وقد اتهم الناس الامبراطور بأنه المدبر (١) لهذا الحريق . وبأنه اوعز الى عبيده باشعاله للتخلص من بعض الاحياء القذرة التىلم تصل اليها النيران فى الحريق الأول ؛ وحتى يعيد بناء المدينة من جديد . والحق يقال لم يخف نيرون ارتياحه لاختفاء الاحياء القذرة . وأعلن عن مشروعه الخرافى فى استغلال الأرض الخالية فى بناء عدد من القصور والحدائق الفناء المزينة بالبحيرات الصناعية ، وبالفعل بنى نيرون قصره الكبير المسمى بالبيت الذهبى Domus Aurea (٢) فوق تل الاسكويلين ، وأقام فى حديقته الفناء تماثيله الكثيرة التى كان من بينها تمثال عملاق بلغ طوله مئية وعشرين قدما ؛ بالاضافة الى روائع النحت الاغريقى التى جلبها الامبراطور معه من بلاد الاغريق .

لقد بلغ من فظاعة الحريق انه لم يسلم من احياء المدينة الاربع عشرة سوى أربعة أحياء ، ويقول المؤرخ تاكيتوس أنه من الصعب حصر المبانى والمرافق والمعابد التى أتت عليها النيران ، ولكن المدينة خسرت بالقطع كنوزا من التراث والعمران كالمسارح والمكتبات والمعابد وغيرها . ولهذا اعتبروا يوم حدوثها يوما نحسا ؛ بل قالوا أنه يوافق نفس اليوم الذى احرق فيه الغاليون مدينة روما فى التاسع عشر من شهر يوليو منذ اربعمائة وسبع عشرة سنة واربعمائة وسبع عشرة شهرا واربعمائة وسبع عشرة يوما من قبل هذا الحريق .

---

(١) cf, Tacitus, Annales, XV, 36-41.

(٢) عن بيت نيرون الذهبى الذى بنى مكانه فيما بعد الكولوسيوم الحالى انظر : Jerard Perkins, Antiquity, 1956, p. 209 ff; Boethius The Golden House of Nero, (Gotenberg 1960), chapter 3; Donald R. Dudely, Urbs Roma, p. 138-143.

وقد أدى اغتباط الامبراطور بنتائج هذا الحريق الذى شبهه المؤرخون الأوربيون بحريق لندن الكبير عام ١٦٦٦ (١) ميلادية . بأن اتهمه الناس بأنه الراس المدبر ، ولكن لا يوجد دليل مادى واحد على صحة هذا الاتهام ، واختلف المؤرخون القدماء فى ذلك (٢) ، ولكن يبدو أن الامبراطور هو الذى اوعز بالفعل الى عبيده باشعال النيران فى الحريق الثانى ، لكنه لم يكن مسئولا بأى حال من الأحوال عن اندلاع الحريق الأول .

ولما كانت خسائر هذا الحريق مروعة فقد بحث الراى العام فى روما عن كبش فداء ، واستغل مستشارو الامبراطور ذلك باتهام المسيحيين باشعال هذا الحريق عمدا لانهم كانوا يعلمون مدى كراهية الشعب الرومانى لهم ، ويرى البعض ان اليهود كانوا وراء الصاق هذه التهمة بالمسيحيين خاصة انه كان لليهود تأثير على زوجة الامبراطور بوبايا سابينا (٢) وقدم المئات من المسيحين الرومان الى المحاكمة بتهمة « الاتيان بأفعال فوضوية » ، وانزل بهم عقوبات بربرية ؛ واستقبل المسيحيون الشهداء الموت بالترحاب وبالترانيم المقدسة ، وكان هذا بداية اضطهاد الرومان للمسيحين الأول ، الذين كانوا يعتقدون ان يوم القيامة قد ازف ، وان نارا ضارية سوف تاتى على العالم ، ومن ثم أدى هذا الى الصاق هذه التهمة بهم (٣) .

ومن المعروف ان القديس مرقص (St. Mark) جاء الى الاسكندرية عام ٦٥ ميلادية ليبشر بالدين الجديد وليؤسس الكنيسة المرقسية بالاسكندرية ، بينما اتجه رفيقاه بطرس وبولوس الى روما ويقول التراث المسيحى انهما هلكا خلال عمليات الاضطهاد الأولى فى عصر نيرون .

الولايات الامبراطورية وسياسة نيرون :

شهد حكم نيرون فترة تدهور فى الادارة الرومانية للولايات وكذلك

---

(١) كما شبهوا مجهودات الامبراطور نيرون بمجهودات الزعيم الانجليزى Wren فى تخفيف الالام عن ضحايا حريق لندن الكبير .

(٢) مثلا اذان بلينى الاكبر نيرون (Historia Naturalis, 17, 105) بينما اذان سويتونيوس عبيد الامبراطور (Seutonius, Nero, 31) . بينما اتفق سويتونيوس وديوكاسيوس فى حادثة انشاد نيرون اغنية حريق طروادة .

(٣) cf. Josephus, Antiqu. Jud. X, 189-196 ; cf. E.M. Smallwood, in Journal of Theological Studies, 1959, p. 329 ff.

(٤) J. Beoujeu L'incendie de Rome en 64 et les Chretiens (Paris 1960) ; A.N. Sherwin-White, Journal of Theological Studies. 1952, p. 199 ff ; cf. F.W. Classical Quartely, 1947, p. 81 ff.

أيضا فى علاقات روما بالممالك العميلة لها فى الشرق . ولم يهتم نيرون بأى شعب تابع له الا الاغريق الذى كان متيما بحبهم بخاصة اغريق مدينة الاسكندرية ، اذ أعلن اثناء رحلته الى بلاد اليونان قرارا بمنح الحرية لبلاد اليونان ، ثمة اعلان يذكرنا بما أعلنه القائد الرومانى فلامينيوس Flaminius عام ١٩٦ ق.م. . واغلب الظن ان الحرية التى منحها الامبراطور لبلاد اليونان لم تكن تتعدى سوى الاستقلال المحلى والاعفاء من ضريبة الراس (١).

وازاء هذا الاهمال اندلعت حركات التمرد والثورات ضد الرومان . ومن أخطر هذه الثورات تلك التى قامت فى بريطانيا عام ٦١ ميلادية بزعامة ملكة الايكينين Iceni والتى كانت تدعى بوديكا Boudicca (٢) وذلك نتيجة لسوء الادارة فى هذه الولاية الجديدة وجشع جامعى الضرائب واستعلاء الرومان الحضارى ازاء سكان بريطانيا وقتئذ . وبلغ من عنف الثورة فى بريطانيا ان دمر العديد من المدن مثل كامولدونوم Camuldonum (كولتشستر) وفيرولاميوم Verulamium (سانت البانز (St. Albans) ولوندنيوم Londinum (لندن) وقتل ما يقرب من سبعين الف جندى رومانى ؛ بل ان كتيبة رومانية بأكملها قد هلكت فى هذا التمرد ولولا أن القائد الرومانى باوليوس Paulius جمع شتات القوات الرومانية ثم اعاد تنظيمها لما تمكن من اخضاع الثوار وبالتالى هزيمتهم حيث اجبرت الملكة بوديكا على الانتحار .

وفى الشرق اندلعت الصراعات فى مملكة ارمينيا (٣) . لقد كانت ارمينيا ساحة الصراع السياسى بين روما والبارثيين ، وكان الطرفان يتنافسان على ادخالها فى نفوذهم نظرا لأهميتها ؛ وكان كل منهما يتمنى لو يستولى عليها ؛ ويحرصان على أن يكون الملك الجالس على عرشها صديق لأى منهما . وكان الرومان قد ادعوا نوعا من السيطرة على ارمينيا منذ أيام الجمهورية . ولكن فى عهد نيرون اعلن ملك ارمينيا الجديد وهو شقيق لملك البارثيين الغاء الامتيازات والنفوذ الرومانى فى مملكته .

وبعد سلسلة من المعارك التى قادها الجنرال الرومانى كوربولو Corbulo والتى استمرت من ٥١ الى ٦٧ ميلادية انتهت باتفاق وسط وهو الابقاء على الملك الثائر بشرط ان يعلن صداقته لروما ويتوج بواسطة نيرون شخصيا ، وبالفعل زار هذا الملك روما عام ٦٦ ميلادية ولكن هذا لم يكن نصرا عسكريا للرومان بل حلا وسطا .

---

(١) cf. A. Momigliano, Journal of Roman Studies, 1944, p. 115 ff

(٢) cf Ronald Syme, Tacitus, p. 762.

(٣) cf D. Magie. Roman Rule in Asia. Minor. vol II, p. 1411

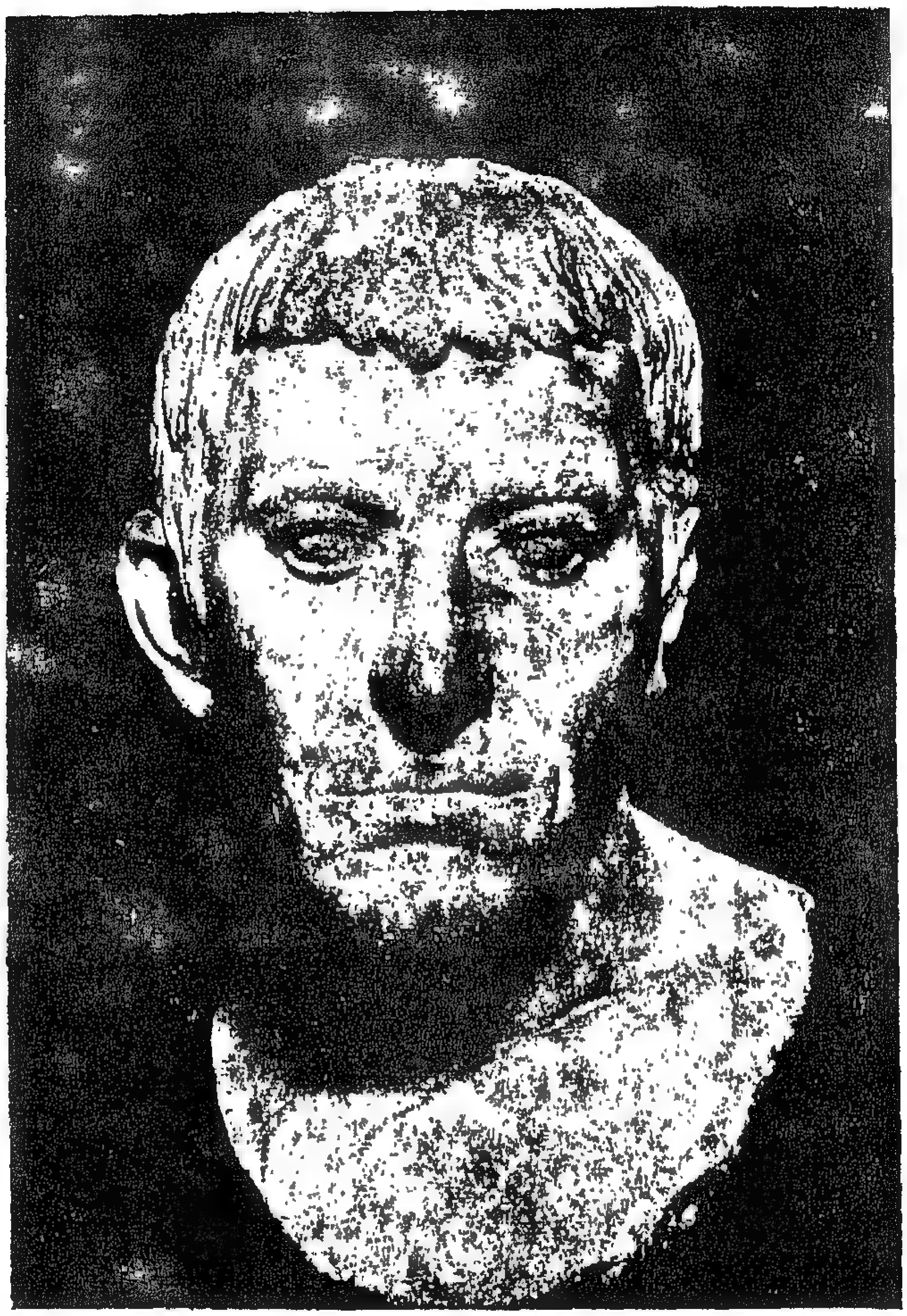

الجنرال كوربولو

متحف الكابيتول ـ روما

كذلك حاول نيرون أن يسيطر على بحر قزوين ويتحكم فى طرق القوافل المحيطة (١) به والتى كانت أرمينيا تسيطر عليها من البحر الاسود الى الهند شرقا . كما قاده الخيال الجامح الى التفكير فى استكشاف منابع النيل جنوب النوبة ، وكتابة تقرير عن الحياة والحيوان والنبات فيها ، وفى نفس الوقت يحمى ممالك جنوب الجزيرة العربية من عدوان دولة اكسوم الحبشية الناهضة . ولكن هذه المغامرة لم تتم لقيام الثورة ضده (٢) .

كذلك ادت سياسة الامبراطور الفاشلة وجهل موظفيه وقسوة قواته وجشاعة جامعى الضرائب الى دفع فلسطين كلها الى الثورة على الرومان عام ٦٦ ميلادية .

مؤامرة بيسو (٦٥ ميلادية) :

بدا الامبراطور فى عام ٦٢ سلسلة من المحاكمات التى الصقت فيها تهمة الخيانة العظمى ببعض الشخصيات البارزة اما بغرض ايجاد عذر لمصادرة اموالهم أو بسبب حقد الامبراطور عليهم وتشككه فيهم . وبالتالى ادى هذا الاجراء والتصرف الارهابى الى تشجيع بعض العناصر الجمهورية الى التفكير فى القيام بانقلاب ضد هذا الامبراطور الطاغية . وقد تزعم السناتور جايوس كالبورنيوس بيسو Gaius Calpurnius Piso احدى هذه المؤامرات بالتعاون مع احد قادة الحرس الامبراطورى ، ولكن للأسف كشف امر هذا الانقلاب عام ٦٥ . وكان من الطبيعى أن يجنح الامبراطور الى حمامات الدم والاعدام لعدد كبير من الناس من بينهم الشاعر الرومانى الشهير لوكانوس تلميذ سينيكا (٣) ، وعدد آخر من اعضاء مجلس الشيوخ

---

(١) op. cit., p. 1418.

(٢) J.G.C. Anderson, CAH. X, 880.

وقد نشر الأستاذ تيرنر وثيقة بردية تتحدث عن اشتباك وقع بين الرومان والنوبيين انظر :

J.R.S., 1950, p. 57 ff.

وعن دولة اكسوم الحبشية ودورها انظر فوزى المكاوى : مملكة اكسوم دراسة لتاريخ الدولة جامعة القاهرة ١٩٧٤ ص ٢٩ — ٣٣ ؛ وعن تفاصيل حملة نيرون انظر : عبد اللطيف أحمد على — المصدر السابق — ص ١٢٩ — ١٣٧ .

أيضا انظر الدراسات التالية :

M. Cary and E.H. Wamington, Ancient Explorer (London 1929), p. 174. V. Schur, Orient Politik des Kaiser Nero, Munich 1923.

(٣) cf. Ramsay MacMullen, Enemies of the Roman Order, Harvard University Press Cambridge Mass, 1967, pp. 23, pp 60-65.

لأنهم اعترضوا على الارهاب الامبراطورى ولم (١) يترك الامبراطور شخصا بارزا دون ان يقضى عليه حتى الجنرال كوربولو بطل معارك ارمينيا دفع الى الانتحار عام ٦٧ ميلادية . واعتقد الامبراطور انه يستطيع تأمين العرش له بتعيين رجال يثق فيهم فى القيادات والمناصب الهامة فى الدولة . ولكن ولاء هؤلاء الاتباع للامبراطور راح يهتز بسبب تقلب مزاج الامبراطور مما جعلهم يعتقدون أن دوام الحال من المحال ، وفى النهاية دفعهم احساسهم بعدم الأمان الى التآمر ضد نيرون والقضاء عليه قبل أن يقضى هو عليهم .

ثورة فندكس Vindex وسقوط نيرون (٦٨ ميلادية) :

وما أن عاد نيرون من رحلته الى بلاد اليونان بعد أن أعلن الانعام على شعبها بالحرية حتى واجه امرا خطرا . فقد اندلعت حركة تمرد كبرى فى بلاد الغال يتزعمها جوليوس فندكس Julius Vindex (٢) أو « جوليوس المخلص » وكان أحد حكام مقاطعاتها . وسرعان ما ايد الثورة حاكم آخر اسمه سولبيكوس جالبا Sulpicius Galba حاكم ولاية أسبانيا البعيدة ثم انضم الى جالبا صديقة اوتو Otho حاكم لوسيتانيا Lusitania وزوج بوبايا سابينا السابق . ولكن القوات الرومانية المرابطة عند الراين بقيادة فرجينيوس Verginius عارضت مثل هذه الثورة ؛ وأعلنت أنه من حق السناتو فقط أن يعين الامبراطور وليس الجيش ، واعتبر حركة التمرد حركة قومية غالية ومن ثم قضى عليها وقتل فندكس . ولما هتفت القوات الرومانية بفرجينيوس امبراطورا رفض قبول ذلك ، بل أعلن انه يضع نفسه فى خدمة السناتو . ولما وصلت هذه الأنباء الى السناتو ازدادت ثقته بنفسه خاصة بعد أن أحس بتعاطف الحرس الامبراطورى معه . وبعد أن ادرك انهيار الامبراطور نتيجة لهلعه وجبنه ورعونته فى مواجهة مثل هذه الثورة (٣) عندئذ أعلن السناتو أن الامبراطور عدو للشعب الرومانى . وبالرغم من ان الامبراطور نيرون وجد بعض الضباط ممن كانوا على استعداد للوقوف معه بقواتهم الا أنه انهار خاصة بعد أن أعلن الحرس البرايتورى

---

(١) D. MacAlindon. Senatorial Oppoistion to Claudius and Nero, American Journal of Philogy, 77 (1956). pp. 113-132.

(٢) عن الثائر جوليوس فندكس انظر :

Raoss, Epigraphia, 1958. pp 46-120; P.A. Burnt. Latomus, 1959. p. 531 ff; G. Towensend. Ibid. 1961. p. 337 ; J.C. Hainsworth. Historia, 1962, p. 88 ff.

(٣) cf B. A., Brunt, The Revolt of Vindex and the Fall of Nero, Latomus 18 (1959), pp. 555-559.

ولاءه للثائر جالبا (١) . وهرب نيرون مع عدد من رجاله المخلصين ؛ وبعد أن وقف يندب العالم لفقدانه عبقري وفنان كبير مثله وهو يصرخ (يالى من فنان عظيم يلقى حتفه » ! Qualis artifex pereo دفع بالخنجر فى عنقه وساعده أصدقاؤه على اكمال المشوار حتى سقط صريعا .

وبموت نيرون ينتهى حكم الاسرة اليوليوكلاودية التى انشاها اغسطس للامبراطورية الرومانية فى عصر أباطرة الأسرة اليوليوكلاودية :

خامسا : نظرة شاملة عن الأحوال السياسية والثقافية والدينية للامبراطورية الرومانية فى عصر أباطرة الأسرة اليوليوكلاودية :

لم يكن الاستقرار التى شهدته فترة حكم تيبريوس سوى ثمار سياسة اغسطس الحكيمة التى لم يخرج عليها تيبريوس كثيرا ، ولذا يميل المؤرخون الى اعتبار عصرى اغسطس وتيبريوس عصرا واحدا ممتدا سياسيا (٢٧ ق.م. — ٣٧ ميلادية) . ولكن بالرغم من اتباع تيبريوس للتراث الجمهورى القديم وتقاليده فى الحكم الا ان الأحوال سارت بالحكم تحت حكمى اغسطس وتبريوس من المشاركة السياسية الى تركيز السلطة فى يد حاكم واحد أو ما يمكن تسميته بحكم الفرد autocracy وربما كان مرجع ذلك الى اهمال المواطنين الرومان لحقوقهم السياسية التى خولتها لهم القوانين الجمهورية وهروبهم من المسئوليات التى تفرضها السياسة على المواطنين فى دولة سليمة واعية . ولقد حاول كاليجولا أثناء بداية حكمه القيام بعمل ديماجوجى وهو اعادة الانتخابات الشعبية ولكنه أدرك فشل محاولته وعدم جدواها فهجرها . كما يرجع السبب أيضا الى تكاسل اعضاء السناتو وتقاعسهم وترددهم فى القيام بأى عمل شجاع من أجل الصالح العام أو اتحادهم فى صف واحد للمطالبة بحق معين ، بل وسادت فيهم روح اللامبالاة والرياء والانفرادية ، وذلك لأن الدماء الجديدة التى غلبت على السناتو فى ذلك الوقت أدركت أن الحكم لم يعد يعتمد عليهم ، بل يعتمد على رأس الامير وافكاره . ولقد وضح من البداية مدى ضعف السناتو كهيئة امام الامير منذ ايام تيبريوس ، فبينما انسحب تيبريوس الى قصره فى جزيرة كابرى لم يستطع السناتو أن يفعل شيئا حتى فى حالة غياب الامبراطور ، ولما وصلت رسالة الامبراطور الشهيرة والمحملة برغباته لم يفعل السناتو شيئا سوى الموافقة على كل ما يريده

(١) كان آخر أغنية غناها نيرون على قيثارته وسط الأحداث المتضاربة أغنية اغريقية حزينة من قصيدة بعنوان أوديب فى المنفى وفيها أنشد يقول « قرينتى وأمى وأبى قد دفعوا بى الى حتفى » انظر :

Suetonius, Nero, 471, 15.

الامبراطور . لانهم رأوا بأعينهم الجرائم البشعة التى ارتكبها سيانوس بموافقة الامبراطور ؛ وتعلموا من ذلك دروسا أن الدستور لم يعد يضمن الأمن لخدامه . هذا بالرغم من ان تيبريوس شكا من كسل أعضاء السناتو فى مساعدته فى النهوض بمشاكل الامبراطورية .

لقد وجد السناتو نفسه ما هو الا وسيلة للتنفيذ وابهاما للبصم على قرارات الامبراطور ، وجهازا تابعا له يقوم بأى محاكمة يريدها الامبراطور او تمس من قريب أو بعيد مصالحه ؛ حقيقة أن ما حدث لكاليجولا أو نيرون كان يمكن أن يكون سلاحا فى يد السناتو ؛ ولكن من الفيران كان يجرؤ أن يضع الجرس فى عنق القط !؟ بل ان ذلك لم يكن يمنع اتجاه الاباطرة نحو تركيز السلطة فى أيديهم . كما ان الاباطرة الاخرين بدأوا يحسون ان سيف داموكليس معلق فوق رؤوسهم وقد يسقط عليهم فى اى لحظة ، ومن ثم احسوا بالرعب والخوف ، وداهمتهم الشكوك حتى دفعهم الى التجبر والطغيان .

الى جانب ذلك تحولت الخطوات التى قام بها اى امبراطور سواء لأسباب شخصية او كنوع من التعرف الاختيارى الذى يصدر عن الامبراطور نفسه دون أى سند او قاعدة قانونية اصبحت سوابق قانونية ينص عليها القانون . فمثلا اعتاد أغسطس أن يشترك فى الحملات الانتخابية لصالح مرشحيه كنوع من التزكية Commendatio حيث كان الناس ينتخبونهم كتعبير عن ثقتهم واحترامهم للامبراطور ؛ ولكن لم يكن الشعب مجبرا على ذلك بأى حال من الأحوال . ولما تقدم السن بأغسطس لم يستطع النزول الى ساحة مارس لمثل هذا الغرض واكتفى بترشيح رجاله كتابيا . وبمرور الزمن أصبح ذلك التزاما قانونيا ثابتا أى أن الامبراطور أصبح يعين المرشحين دون معارضة . وبالتالى تحول الموظفون السياسيون من مفوضين للشعب ومتحدثين باسمه الى موظفين تنفيذيين لخدمة الامبراطور وتنفيذ اغراضه حتى ولو كانت ضد مصالح الشعب .

اخيرا ظهر عامل جديد راح يهدد الأجهزة السياسية والدستورية وهو الجيش الرومانى ، وكان اغسطس يعلم بخطورة ذلك ولكنه كان يسيطر عليه بقوة شخصيته وبوسائله وأجهزته . ولما جاء كلاوديوس اعلن منحه مكافأة للحرس الجمهورى اذا ما ساعده فى الوصول الى العرش ، وضاعف نيرون هذه المكافأة عندما استخدم نفس الاسلوب . كما أن عدم العناية بالجيش أدى الى فتور العلاقة التقليدية بينه وبين الامبراطور ؛ وساعد على تدمير ... الحركة المسلحة الكبرى التى قامت بها

جيوش الحدود عام ٦٨ ميلادية ضد الامبراطور وحكومته المركزية ومن ثم اطاحت بحكم الأسرة اليوليوكلاودية .

أما من ناحية التراث الفكرى والثقافى فى المجتمع فقد تأثر ايضا بالتحول السياسى . فمثلا اهمل الرومان التركيز على تعلم البلاغة والخطابة وفن المناظرات كما كان الحال فى عصر الجمهورية نظرا لعدم حاجة الناس الى استخدامها اذا لم تعد هناك لا الحرية ولا المؤسسات السياسية ، ولم يعد يهتم بها الا فئة واحدة من الناس هم الذين تمسكوا بدراسة الجدل والبلاغة وفن الالقاء لانهم هم الذين ينوون العمل فى حقل المحاماة ، ونظرا لتعقد القانون المدنى الرومانى وتنوع نصوصه ومواده فقد برزت طبقة جديدة من العاملين فى حقل القضاء هم طبقة الخبراء القانونيين Juriprudents الذين يدرسون القضايا ويفحصون جوانبها ويفتون بما يجب أن يتخذ بشأنها ومن ثم يقوم المحامى بعد ذلك بمهمة عرض هذه الجوانب مستخدما الخطابة والبلاغة والالقاء الراقى من اجل التأثير على القضاة .

وكان تدريب الخطابة من انشاء والقاء يتم عن طريق منح الطالب موضوعات وهمية وقضايا فرضية ليس لها اى علاقة بالواقع ضمانا للحرية وبعدا عن المشاكل السياسية ، وقد يأخذ بعض فلاسفة التربية والتعليم على هذه الطريقة أنها تغرق عقلية الطلاب فى الجدل والحوار Declamatio الذى قد يصبح مجردا عن الواقع ، ولكن هذا النظام هو الذى أمد روما بأجيال (١) من الاداريين وجهابذة القانون ، ولولاه لما كانت دواليب العمل والادارة قادرة على ان تعمل وتواجه المشكلات الاجتماعية والتنظيمية المعقدة ، بل خلق هذا النظام الموظف الرومانى الذى استطاع ان يتخذ القرار المناسب فى ظروف صعبة ومتغيرة . وهذه هى روعة الأجيال التى حملت رسالة الحفاظ على الامبراطورية .

أما من ناحية التذوق الأدبى للجماهير الرومانية فى ذلك العصر فقد وضع اسينيوس بوليو Asinius Pollio — وهو أعظم العبقريات الأدبية والتاريخية فى أواخر عصر الجمهورية — تقليدا اصبح شائعا وهو قراءة الأعمال الأدبية والتاريخية على الناس ، ومن ثم اصبح الأدباء يبحثون عن عناصر الاثارة من تورية وطباق وجناس ، حتى أصبحت الصنعة فى الأدب هى الروح السائدة فى ذلك الغصر الذى اصبح يعرف بالعصر الفضى للأدب

(1) S.F. Bonner, Roman Declamation in the ·ate Republic and Early Empire, liverpool 1950 ; A. Gwynn, Roman Educations From Cicero to Quintilian, New York, Oxford University Press (1926).

اللاتينى Latin Silver age (١) خاصـــة أن الامانى والآمال السياسية التى منها كان الأديب فى العصر الأوغسطى يستمد وحيه والهامه لم تعد قائمة ، ولم يعد هناك « دوافع عاطفية » حالمة بعهد ذهبى ومجتمع عظيم تعطى نكهة رومانتيكية للأدب ، ومن ثم فقد الأدب الروح والتجأ الأديب الى الاغراق فى فن الصناعة والزخرفة الأدبية المعقدة والتنقيح المتواصل حتى كاد الأدب أن يصبح مهارة صناعية كقطعة نسيج محملة بالزخرفة المركبة والمجردة وليس كما كان لوحة تصويرية تنطلق بالحياة وبالطبيعة وبالبعد الثالث .

الى جانب ذلك ظهر صوت القوة والسيطرة الامبراطورية على الأدب والأدباء فتعكر صفو الحرية الهادئة والحالة التى كان يعمل من خلالهـا الأديب والمؤرخ ، ويرى البعض أن بداية هذه الظاهرة بدأت بمـا فعله الامبراطور اغسطس بالشاعر أوڤيديوس ، ولكنها ازدادت على أيدى خلفائه خاصة بالنسبة للمؤرخين ، فقد تعامل اباطرة هذه الاسرة بقسوة شديدة مع المؤرخين الذين وجهوا نقدا لفلسـفة الحكم ، وابادوا انتاج الكثيرين منهم ، وبالرغم من ان هذا العصر شهد افواجا من المؤرخين الا اننا لا نعرف منهم غير أسماء حفنة ضاع معظم انتاجها ، ولم يتبق من التاريخ سوى الاعمال التى بجلت الاباطرة واغرقتهم بالرياء والمديح والتزلف ، ومن امثلة هؤلاء المؤرخين فيليوس باتركولوس Velleius Paterculus ذلك العسكرى المتزلف الذى تبقى لنا من اعماله جزءا كبيرا يغطى معظمه حياة الامبراطور تيبريوس بصورة سريعة ، كما ان وظيفته السياسية فى عهد تيبريوس قيدت حريته فى النقد . اذ لم يوجه نقدا واحـدا للامبراطور ولا حتى لوزيره الشرير سيانوس . بل كله مديح واعجاب الجندى الاعمى بقيادته الرشيدة .

كذلك تعكس أعمال الاديب سينيكا معلم نيرون تأثير المبالغة فى الصنعة الادبية وتدخل السلطة الحاكمة . فقد كتب سينيكا العديد من الابحاث التى عالجت عدة موضوعات ، كما ترك لنا تسع مسرحيات تراجيدية كلها تظهر ولع ذلك العصر بفن الجدل والالقاء . وبالرغم من أن سينيكا كان فيلسوفا رواقيا الا أن الجوقة فى مسرحياته كانت تردد احيانا افكارا ابيقورية وهذا دليل على الاتجاه نحو التنوع وعدم التقيد بفكرة واحدة حتى فى المدارس ذات النظريات المحددة وذلك لاختفاء النساك المتطرفين القدامى والاتجاه العام نحو الاستزاج والتأثير المتنوع ، والحرية فى الاختيار دون التزام

---

(١) J. Duff ; A literary History of Rome, Revised editions, New York (1953). cf MacMMullen, op. cit., pp. 23-26, 31-34.

وتقيد بأى شيء . ولما كانت مسرحيات سينيكا تعبر عن مناظر دموية وعنيفة فقد ظنها بعض النقاد « أنها أشبه باسكتشات » أعدت للعرض اثناء الالقاء . كذلك نسب الى سينيكا تأليف عمل تافه اسمه Apocoloyntosis اى فى تأليه كلاوديوس وأن صح ذلك فان هذا العمل الأدبى ربما كتب بأمر من الامبراطورة اجربينا الام بعد موت زوجها أو بأمر من الامبراطور نيرون حتى يستفيد من هذا التأليه ويصبح ابن المؤله كلاوديوس بالتبنى .

ومهما يبدو هذا العمل الأدبى تافها من ناحية الموضوع الا أنه انعكاس صادق وحى لأفكار العصر وللممارسة الدستورية وللجسارة الرومانية .

ومن شعراء هذه الفترة المشهورين كاتب الابجراما والهجاء مارتياليس الاسبانى الاصل Martialis الذى بدا يدخل عالم الادب فى عصر نيرون ؛ لكنه ازدهر واصبح مشهورا فيما بعد فى عصر الاسرة الفلافية . كذلك ترك لنا الشاعر لوكانوس مجموعة من أشعاره عن قيصر والحروب الاهلية لم يكملها بسبب القبض عليه واعدامه عام ٦٥ (١) فى مؤامرة بيسو ضد نيرون ويعرف هذا العمل باسم فارساليا Pharsalia واشتهر بالعنف وقوة التأثير مما يدل على عبقرية لوكانوس التى نجمت من العوارض الفكرية التى سادت فى الاعمال الادبية فى ذلك العصر .

كذلك نسمع عن شاعر رواقى اسمه برسيوس نشرت له ستة ابجرامات بعد موته عام ٦٢ ميلادية كلها تعكس الازدراء للحياة من ناحية الفكرة ؛ اما من ناحية الصنعة فهى محملة بالافكار حتى ان المعلقين يحتاجون فى فهمها الى التطويل فى الشرح والى الكثير من التفسيرات الهامشية .

أما كتاب النثر فى عصر الاسرة اليوليوكلاودية فقد اهتموا بالموضوعات الفنية والعملية والمهنية ؛ فمثلا كتب كولوميلا Columella بحثا عن الزراعة De Re Rustica ظهر فيه التقدم العلمى لوسائل الزراعة وادارة الأراضى ؛ كذلك فان مؤلف بلينيوس الاكبر عن التاريخ الطبيعى Historia Naturalis جاء موسوعة علمية للمعلومات منها الصحيح ومنها غير الصحيح شملت كل جوانب الحياة . ولذا فهى منجم ثرى للباحثين عن المعرفة والعلوم فى هذه الفترة ابتداء من مصادر البحر الميت حتى تعداد المدن الايطالية .

واخيرا يجب الا يفوتنا عمل بترونيوس الطريف والساخر والمعروف باسم ساتيريكون Satiricon ، وقد وصل لنا من هذا العمل الذى يبدو

---

(١) عن مأساة لوكانوس وعلاقته بمؤامرة بيسو
cf. Mac MMullen, op. cit., pp. 23-26, 31-34.

انه جاوز العشرين كتابا ثلاثةكتب فقط . وعن طريقها عرفنا هذا العمل الذي كان عبارة عن نثر راق وممزوج بالشعر يحكى رواية ثلاثة أجلاف ذوى قدر ضئيل من التعليم ولا يؤمنون بأى مبدى ، ولكن يسود اقوالهم روح النكات والبداهة الحاضرة ويسيطر عليهم غرائز الجنس واشباعه ، هؤلاء الأباحيون الثلاثة يقومون برحلة طويلة يتخللها المغامرات فى جنوب ايطاليا . ومن ثم جاء هذا المؤلف تسجيلا لحياة الناس فى هذه المنطقة من أحرار وعبيد ، ونساك وعلماء . وصعاليك ، ومحدثى نعمة ومغامرين ، وباحثين عن الثراء ، وفقراء معدومين . كذلك فان طريقة الكلام بين هـذه الطبقات سجلت لنا اللغة اللاتينية الدارجة فى هـذه المنطقـة من الريف الايطالى . بل جاءت تسـجيلا لافكار النـاس وشـكاواهم واحـلامهم واطماعهم . فضلا عن أن صعاليك هده الموسوعة الاجتمـاعية الطريفـة تتحدث لغة راقية لا تقل عن أسلوب لوكانوس او نيرون نفسه . وخلاصة القول ان « الساتيريكون » تعتبر قطعة ادبية وكوميديا اجتماعية ساخرة ذات مستوى رفيع يرقى بها الى المستوى الانسانى العالى الخالد . انهـا اسمى ما أنتجته العبقرية الأدبية فى عصر الاسرة اليوليوكلاودية .

وفى المجال الدينى شهد هذا العصر اتجاهات نحو تأليـه الاباطرة بعد موتهم وخلق شعائر لعباداتهم ، وتكوين هيئة دينية من العتقاء للأشراف على عبادة الاباطرة ، ولكن برغم أن عبادة الاباطرة أدت دورا معينا فى نفوس الشعب الرومانى الا انها لم تشبع النهم الروحى للمواطن الرومانى ، ومن ثم راحت العبادات الشعبية تزدهر متخذة طريقا مخالفا للعبادات الرسمية السياسية ، فمثلا ازدهرت عبادة الاخوان الارفاليين Fratres Arvales وهى شعائر عبادة زراعية كان اغسطس قد احياها ولكنها ازدهرت بشدة فى عصر نيرون واصبح اختصاصها يمتد الى الاشراف على تقديم الاضاحى الخاصة بالمناسبات مثل اعياد الميلاد الخاصة بالبيت الامبراطورى .

أما الفلاح الرومانى فقد ظل على ولائه لديانته الزراعية التقليدية التى كان اجداده يعتنقونها وظلوا متمسكين بربات الزراعة والقمح مثـل الربة الطيبة Bona Dea وغـيرها حتى سقوط الامبراطورية ودخـول المسيحية .

أما المثقف الرومانى ساكن المدينة فقد جذبته الرواقية بمنطقها البارد وبمبادئها الانسانيه السامية ، والتى كانت تنادى بالاخوة العالمية وبالواجب والنظام المطلق ومعاداة الطغاة والطغيان .

كذلك جذبت الفيثاغورية الجديدة فريقا اخر من المستنيرين بروحانياتهم الصوفية ، فضلا عن انها كانت تقدم لمريديها مزيجا غريبا من

الحقـائق العلميـة الرياضية والاسرار الصوفيـة والانطلاق من القيـود الارضية والدنيوية .

الى جانب هـذه العبادات الرومانية وجد فريق ثالث من الرومان غايته فى العبادات الوافدة من الشرق مثل ايزيس المصرية ، أو فى اليهودية ، ثم فى العبادة الجديدة التى وضع اسسها الانسان — الرب يسوع المسيح ، الذى ظهر فى فلسطين فى عهد تيبريوس حيث نادى بالخلاص من الآثام وبالتعاطف والتسامح والرحمة الا أنه سقط صريعا للمكائد وللاحقـاد الطائفية المتطرفة من كهنة اليهود ولم يستطع العدل الرومانى حمايته لأن روما لم تكن تعطى اهتماما لمثل هذه العقائد كما انهـا لم ترد التدخل فى شئون لا تعنيها (١) .

اننا لو حكمنا على اباطرة الأسرة اليوليوكلاودية وعلى حكوماتها فى روما لقلنا أنها صورة واضحة لعالم مزدهر اقتصاديا وحضاريا يتحكم فيه رجال مختلو العقول ، مهزوزى الشخصية . يقف من ورائهم حفنة من الرجال الانذال الانتهازيين . ولكن شرور الامبراطور وآثامه لم تكن عادة لتتعدى آل بيته وكبار الأرستقراطيين واغنياء الرومان . وفى اسوأ الاحوال بعض افراد الشعب فى روما .

أما فيما عدا ذلك فقد شهد هذا العهد ازدهارا تجاريا منقطع النظير خاصة فى حوض البحر المتوسط . وقد شعر الناس بعائد هذا الازدهار المادى ، فأولوا ظهورهم للسياسة ومشاكلها ، واتجهوا الى الكسب والمنفعة ، وقد كشفت الحفائر الأثرية عن الترف والنعيم الذى غرقت فيه ايطاليا ابان هذا العصر ؛ ومن ثم أدى الثراء والترف الزائد الى تدمير الشخصية الرومانية التقليدية المحلاه بالفضائل وبالاخلاق المثالية والبساطة والزهد ، — وبدأ الثراء يفسد الفضائل ، فكانت بداية للانهيار المعنوى وهجران للفضائل الرومانية التى بذل اغسطس جهدا كبيرا من أجل احيائها . لقد نشأ جيل جـديد من الشـباب الرومانى تربى على الترف والنعيم ولا يعرف شيئا عن مشاكل الامبراطورية لدرجة أن الامبراطورية راحت تعانى من النقص فى المتطوعين للخدمة العسكرية لحمـاية مصـالح شعبها ومصادر ثرائها . ولم يدرك المواطنين الرومان وهم يغرقون فى السلام والرخاء أن الجيش على الحـدود قد اكتشف انه القـوة الحقيقية فى الامبراطورية .

---

(١) cf. G.D. Kilpartick, The Trial of Jesus (1953). p. 342.

وقد حدد علماء اللاهوت والتاريخ تاريخ صلب المسيح يوم الجمعة ١٤ نيسان ، أبريل) عام ٢٩ أو عام ٣٠ أو عام ٣٣ ميلادية وذلك حسابا على ما جاء من أنه صلب ابان عهد بيلاطس الذى حكم من ٢٦ — ٣٦ م ورئاسة الكاهن اليهودى قايفص (١٨ — ٣٦ م) . ويعرف هذا اليوم بالجمعة الحزينة .

الفصل الرابع

عام ثورات الجيوش وتولى الاباطرة الأربعة (٦٨ — ٦٩م)

اعقب اغتيال نيرون احداث جسام نبت فيها أن نظام حكم المواطن الاول الذى أوجده أغسطس وسار عليه خلفاؤه لم يعد يتماشى والظروف الجديدة التى سادت الامبراطورية . وبرز أمام الرومان قضايا هامة كان عليهم أن يضعوا لها حلولا وهى كيفية الحفاظ على وحدة الامبراطورية من التفكك ووضع الاسس الدستورية التى يجب أن يقوم عليها نظام المواطن الاول ، وكيفة يمكن جعل جيوش الامبراطورية ملتزمة بأوامر الحكومة المركزية فى روما . وكيفية امكان الحفاظ على سيادة العنصر الرومانى فى هذه الجيوش . لقد أوضحت الازمات والمشاكل التى واجهت الامبراطورية الرومانية اهمية هذه القضايا وأصبح حكم الامبراطورية اشبه بالامساك بالذئب من أذنيه (١) . وهذه الازمات هى حركات التمرد التى قامت واحدة تلو الأخرى على مدى عامين مثل ثورة اليهود فى فلسطين ، وثورة الغال . وثورة الجرمان وكانت النتيجة هو بروز أربعة أباطرة فى الفترة ما بين يونيو ٦٨ وديسمبر ٦٩ ميلادية . وسيطرت جيوش الامبراطورية فى الراين وأسبانيا والدانوب وفى الشرق على مجرى الأحداث السياسية فى روما . بل وأصبحت هذه الجيوش بالتعاون مع الحرس الامبراطورى هى التى تصنع الاباطرة وتضعهم فوق العرش . وكما عبر عن ذلك مؤرخ الرومان العظيم تاكيتوس بقوله أن « لقد أميط اللثام عن سر الامبراطورية الفتاك » (٢) وهو أن ترسح الجيوش من خارج روما الرئيس الجديد . وجدير بالذكر أن نظام حكم المواطن الأول بالرغم من أنه كان يقوم من الناحية النظرية على الرأى العام وموافقة جماهير الشعب الرومانى ، لكنه فى تطبيقه كان يعتمد على قوة المواطن الأول ، والتى بدورها كانت تعتمد أساسا على ولاء الجيش . وقد اثبتت أحداث عامى ٦٨ و ٦٩ ميلادية كيف أن قدر الامبراطورية يكمن فى ثكنات جيوشها القابعة تحرس الحدود . وأن زعماء الجيش كان فى استطاعتهم أن يكونوا المحركين الاصليين للأحداث والسادة الحقيقيين للشعب الرومانى . وقد وجد الجنرالات الكبار فرصة لاستغلال شعبيتهم بين قواتهم بسبب سوء معاملة الاباطرة لقادة الجيش (٢) من أجل تحقيق أحلامهم فى السلطة أى

---

(١) lupum se auribus tenere (Suetonius, Tiberius, 25, 1).

(٢) Annales, 83, cf. R. Syme, Tacitus, p. 183.

(٢) لقد ترك اعدام الجنرال كوربولو تأثيرا شديدا على قادة الجيوش وهو الذى دفع القادة الى الثورة على الأباطرة لا طمعا فى الحكم بل خوفا من الانتقام
Tacitus, Histories, ii, 75.6.

أن الجندى الرومانى لم يكن سوى وسيلة الوصول بالنسبة لجنراله ، وقد ظل الجنرالات يتحينون الفرصة حتى واتتهم عندما اندلعت حركتان من اخطر حركات الثورة والتمرد الأولى ثورة اليهود فى فلسطين والثانية ثورة بلاد الغال الكبرى ، ووسط غموض المعارك ومؤامرات القصر الامبراطورى اخذ كل جيش من جيوش الحدود يرشح جنراله امبراطورا على البلاد ، ولذا فلنتوقف لحظة لنتحدث بشىء من التفصيل عن حركتى التمرد اللتان اتاحتا الظروف للجنرالات للتأهب والقفز على السلطة .

ثورة اليهود الكبرى فى فلسطين :

لقد نجح الرومان فى صهر الكثير من الشعوب التى ضموها الى حوزة امبراطوريتهم ثقافيا وفكريا ، وخلقوا نوعا من العالمية الحضارية ، ولكن شعبا واحدا استعصى امره على الرومان ورفض الاندماج فى العالمية الرومانية الجديدة الا وهم اليهود ، وذلك لأن نظرتهم الى الدين بالنسبة لكيانهم السياسى اختلفت عن نظرة الرومان . ففى نظر اليهود الدولة خادم للعقيدة اى أن الدولة فرع من المعبد الدينى ، اما نظرة الرومان فقد كانت بعكس ذلك تماما وهو ان المعبد خادم لجهاز الدولة الكبير ووسيلة من وسائل الحكم (١) .

وكان يوليوس قيصر قد تمكن من ايجاد نوع من العلاقة والتعايش السلمى modus vivendi مع اليهود عن طريق اصداره مجموعة من القرارات والتشريعات التى تعترف بوضع اليهود كقومية ذات كيان معين بين شعوب الامبراطورية ، ونتيجة لذلك أعفتهم واستثنتهم من بعض الالتزامات التى وجدوها تعارض عقيدتهم . وقد استمرت هذه السياسة فى عهد الامبراطور اغسطس الذى اعتمد على سيطرة صديقه هيرودس الكبير على شعبه اليهودى والذى نجح بوسائل القمع ان يجعل شعبه المشاغب يلتزم بالسلام الرومانى . ولما مات هيرودس الكبير عام ٦ ميلادية اصبحت دولة يهوذا اشبه بولاية لها حاكم خاص ولكن تحت اشراف الحاكم الرومانى لولاية سوريا . ولم يكن لحكام ولاية يهوذا المحليين اى سلطة استقلالية معينة بل كانوا اسميين فقط .

ولما حاول الامبراطور جايوس أن يفرض عبادته بالقوة على اليهود ، وان ينصب تمثالا لعبادته داخل المعبد الكبير فى أورشيلم ، ثار الشعب

---

(١) ولهذا جاءت دعوة السيد المسيح لتفصل بين الدولة والمعبد عندما سأله بعض اليهود الفريسيين بخبث بهدف الايقاع به أيجوز أن نعطى الجزية لقيصر ؟ فرد عليهم بذكاء « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى الأصحاح ٢٨ .

اليهودى وبدا يحس بعدم الاستقرار ، واستيقظت عقدة الخوف من المستقبل المتأصلة فى نفسية اليهودى . وكان الامبراطور جايوس قد حاول اعادة الهدوء الى نفوس اليهود بتعيين حاكم يهودى هو هيرودس اجريبا الأول عام ٤١ ميلادية حاكما على ربع يهودية Judaea ، ولكن فى عام ٤٤ ميلادية اعاد كلاوديوس النظر فى أمر اليهود بعد موت ملكهم هيرودس اجريبا ، وحول فلسطين الى مقاطعة تابعة لولاية سوريا الرومانية وتحت اشراف الحاكم فيها .

ومما ازد الأمر سوءا هو تفجير الصراعات الطائفية والاجتماعية بين اليهود انفسهم ، اذ لم يتوقف الصراع القومى بين اليهود وسكان فلسطين الأصليين من غير اليهود والذين اطلقوا عليهم اسم الجوييم Gentile اى الاغيار) وكان سكان فلسطين من غير اليهود ينتمون الى الشعب الكنعانى والفلسطينى وهم سكان البلاد الأصليين ، وبعكس اليهود كان الفلسطينيون والسوريون قوما مسالمين قبلوا الثقافة الهللينية وعاشوا فى سلام فى مدن فلسطين التى اتخذت الطابع الهللينستى ، وتمتعو بالرواج الاقتصادى فى ظل السلام الرومانى .

ولكن الصراع القديم بين اليهود والفلسطينيين لم يتوقف منذ هجرة ومقدم اليهود الأولى الى فلسطين ومقاومة سكانها الفلسطينيون لهم كما تروى التوراة ذاتها فصول هذا الصراع .

واكثر من هذا دب الصراع داخل الجبهة اليهودية ذاتها ، بين اليهود المحافظين المتطرفين الذين كانوا يدعون الى التمسك بحذافير التوراة والذين كانوا يعرفون بالفريسيين Pharisees ، وبين اليهود المتحررين المثقفين بالثقافة الاغريقية والذين قبلوا الروح العالمية ، ومن ثم لم يجدوا مانعا فى أن يتفاهموا مع الرومان . وكان معظم هؤلاء ينتمون الى الطبقات العليا للمجتمع اليهودى والذين كانوا يعرفون بالصدوقيين Saducees ، بل أن الصراع نشب ايضا بين الجنود والضباط الرومان من ناحية وذلك لأنهم ضاقوا ذرعا بالتطرف والانغلاق اليهودى وسئموا العادات والأخلاق اليهودية ، وبين جماهير اليهود الذين اتهموا الرومان بالتعسف والعنف ونظروا اليهم على انهم شعب وثنى يعبد الاصنام ومن ثم شعب اقل مرتبة أى من «الجوييم» ، ووسط خضم هذا الصراع المعقد تدهور اقتصاد فلسطين ، وزحفت الصحراء الجرداء على الرقعة الزراعية ، وبدأت آثار هذه الأزمة تضفى طابعها على الأحوال المتدهورة وتزيد الموقف اشتعالا .

وفى عام ٦٦ ميلادية اندلعت فى مدن فلسطين الثورات وأعمال الشغب وحدث بعضها فى مدينة قيصرية مقر المندوب الرومانى ؛ وكان اليهود يطالبون بالمساواة فى الحقوق السياسية مع باقى المواطنين من غير اليهود ؛ وحدث البعض الآخر فى اورشليم عندما صادر الحاكم الرومانى سبعة عشر تالنتا من خزائن المعبد الكبير مقابل متاخرات الضرائب المفروضة على اليهود . ولم يعبأ الرومان فى بادىء الامر باعمال الشغب التى قام بها اليهود احتجاجا على ذلك مثل رفض تقديم الاضاحى فى هيكل سليمان من أجل سلامة الامبراطور، ثم سرعان ما اتخذ هذا الشغب طابعا قوميا منظما تحول الى ثورة ضد الرومان . تولى قيادتها كهنة اليهود وأحبارهم . وفى فبراير عام ٦٧ ميلادية ارسل نيرون احد كبار قادته وهو الجنرال فلافيوس فسباسيانوس Flavius Vespasianus ؛ وكان هذا القائد عصاميا من اصل اجتماعى بسيط مما جعل الامبراطور يعتقد أن ذلك سوف يجعله لا يفكر فى انتزاع السلطة مستقبلا ولكن ثبت خطأ الامبراطور . وقبل فسباسيانوس المهمة شاكرا ووصل الى فلسطين . وعن طريق الخطط الدقيقة والمدروسة وبفضل الملل الذى بدأ يتسرب الى نفوس الثوار اليهود انفسهم بدأ فسباسيانوس فى تطهير جيوب المتمردين واحدا بعد الآخر حتى كاد أن يطهرها تماما منهم (١) .

وبينما كان فسباسيانوس يحاصر المتمردين اليهود فى اورشليم . وصلت الأنباء تفيد بأن ثورة قد حدثت فى روما ، وأن الامبراطور نيرون قد اخذ حياته بيده . عندئذ قرر الجنرال أن يستمر فى حصار المدينة حتى تسقط أو حتى يتضح الموقف الغامض فى روما .

ثورة الغاليين بقيادة يوليوس فندكس Julius Vindex

أتت السياسة التى زرعها يوليوس قيصر اكلها فى بلاد الغال . اذ انتشرت الثقافة اللاتينية بسرعة بين الغاليين ، وأصبحت قطعة من اقاليم روما ؛ وازدهرت البلاد بالحضارة والتقدم الرومانى ، وفتح السناتو الرومانى أبوابه لشيوخ الغاليين . وكانت هذه البلاد مسالمة الا من بعض حركات صغيرة ومحدودة مثل حركة يوليوس فلوروس Julius Florus ؛ ويوليوس

---

(١) انظر : Patrick O'Donovan, Last Stand of The Zealots, The Observer magazine, November 1966, p. 14, and 19.

حيث أمدنا بخرائط لتحركات الجيوش الرومانية لقمع الثورة والجدول الزمنى لذلك، بل وأسماء بعض الضباط الرومان المشتركين فى العملية . فضلا عن صور عظام المتمردين من اليهود الذين ألقوا بأنفسهم من فوق صخرة المسادا (الصمدة) .

ساكروفير Julius Sacrovir ابان حكم تيبريوس حيث أمكن القضاء عليها بسرعة .

كذلك حاول الرومان نشر الحضارة اللاتينية بين القبائل الجرمانية عبر الراين ، وسلك الرومان نفس السياسة التي سلكوها مع الغاليين : فلم يتدخلوا في نظام القبائل التي كانوا ينقسمون اليها ؛ وانعمت روما على بعض الأفراد بالجنسية الرومانية حتى تربطهم بها ؛ وحاولت روما توسيع هوة الخلاف بين القبائل المتنافسة حتى تجعل هذه البلاد في حالة ضعف تام وتحول دون قيام وحدة جرمانية وطنية تهدد الوجود الروماني . كذلك شجعت روما الجرمان على قبول الخدمة العسكرية في قواتها المساعدة تحت قيادة ضباط جرمان . وكان هذا نجاح للسياسة الرومانية ؛ لأن هذه القوات الجرمانية هي التي دافعت عن حدود روما ضد اشقائهم الجرمان الثائرين على الرومان .

من الواضح أن ثورة فندكس Julius Vindex في بلاد الغاليين لم تكن في الاصل ثورة قومية موجهة ضد الرومان كرومان لأن فندكس نفسه كان متشبعا بالثقافة الرومانية وكان حاكما لمقاطعة «ليون» Galia lugdunensis . بل كانت لأسباب اجتماعية . وقد وجه فندكس نداء الى حاكم اسبانيا البعيدة وكان اسمه سولبكيوس جالبا Sulpicius Galba ليقود حركة « انقاذ الجنس البشرى (١) » ؛ ولكن جالبا اثر التريث عندئذ تحركت القوات الرومانية المرابطة على طول نهر الراين لقمع هذه الثورة خوفا من ان تمتد الى المانيا مثل ثورة الغال التي حدثت في عهد تيبريوس ؛ ومن أجل فرض الهدوء داخل الحدود وخارجها . وبالفعل قاد الجنرال فرجينيوس Verginius قائد قوات الراين الحملة ؛ ونجح في سحق الثوار تماما . ولما طالبت القوات المنتصرة قائدها بأن يتولى منصب الامبراطور بدلا من نيرون رفض فرجينيوس ذلك بشدة لأنه كان يعلم جيدا حقيقة الاحوال في روما .

الجنرال جالبا يتولى الامبراطورية (من ابريل ٦٨ حتى يناير ٦٩) :

وفي اليوم الثاني من شهر ابريل ٦٨ ميلادية أعلن الجنرال جالبا قبوله تأديب فندكس . وأعلن أنه يضع نفسه رهن السناتو والشعب الروماني . وكان هذا تحد لسلطة نيرون في وقت استولى فيه الجنون على

---

(١) وكانت هذه بالفعل كلمة السر التي استخدمها جالبا ... تم خلدها ... سكها على عملته أنظر :
Mattingly Coins of the Roman Empire vol. I, Pl. 1. no. 20.

هذا الامبراطور فراح يفتك بخيرة الجنرالات من امثال كوربولو Corbulo وحكام ولايتى المانيا العليا والسفلى ، بل وحذره جنوده وأصدقاؤه من غضب الامبراطور وفتكه . وبعد هزيمة لفندكس أصبح جالبا فى موقف يائس وذلك لضآلة ما تبقى له من قوات ، بالرغم من تأييد الجنرال أوتو Otho حاكم مقاطعة لوسيتانيا Lusitania له ، ولكن فجأة جاءت الأنباء بالانقلاب الذى قام به الحرس الامبراطورى ضد نيرون ، بل دعى نيمفيديوس Nymphidius قائد الحرس الامبراطورى — جنوده لتأييد جالبا مدعيا ان هذا الأخير سوف يغدق عليهم بهبة مالية كبيرة . ووافق السناتو على ذلك لأن جالبا كان ينتمى لعائلة محافظة من أقدم العائلات الرومانية . كما كان سجل حياته مشرفا وسيرته مستقيمة .

ولكن خلال الفترة القصيرة التى حكمها جالبا ارتكب اخطاء كثيرة افقدته شعبيته كما افقدته اصدقاءه ، فقد كان حازما ملتزما بتطبيق النظام الى أقصى درجة . ولم يكن تنقصه الرغبة فى الاصلاح بل كانت تنقصه الحصافة والدهاء ، وقد يشرح ذلك تعليق تاكيتوس عليى بقوله : « لقد كان رجلا مناسبا للحكم ولكن ليته لم يحكم (١) » اذ لم يكن له الذكاء والمراوغة الذى كان للامبراطور أغسطس . بل كان اقرب فى ذلك الى تيبريوس . بل لم يكن جالبا جادا فى كسب اصدقاء يقفون الى جانبه ، أو مهتما باصلاح شئون الامبراطورية وهو فى ذلك ابعد بكثير عن تيبريوس .

ومن الاخطاء الجسام التى ارتكبها جالبا لجوئه الى العنف ، مثلا عندما وقف حاكم أفريقيا وحاكم المانيا السفلى موقف التحدى منه دبر جالبا اغتيال الأول وكلف رجلا اسمه فابيوس فالينس Fabius Valens وكان يعمل مساعدا لحاكم المانيا الصغرى باغتيال الثانى ، وبلغت الرعونة بالامبراطور الجديد أنه كانا القاتل المأجور (٢) .

كذلك نسى جالبا وقوف نيمفيديوس قائد الحرس الى جواره فنحاه عن منصبه ،وعين احد اصدقاءه ويدعى لاكو Laco ، ومن ثم اثار عليه استياء الحرس الامبراطورى صانع الاباطرة ؛ بل ذهب الى ابعد من ذلك ورفض منح الحرس الهبة المالية التى روى انه وعدهم بها نظير مساعدتهم اياه للوصول الى العرش .

---

(١) Tacitus, Historiae, I-1-3. cf. Syme, op. cit., pp. 203-206.

(٢) cf. W (Henderson, Civil War and Rebellion in the Roman Empire, London 1928.

وأكثر من هذا استدعى الجنرال فيرجينيوس من وسط جنوده فى المانيا العليا حيث كان يتمتع باحترام وتبجيل وعين مكانه شخصا عديم الاهمية والشخصية . ولما وصل فيرجينيوس الى روما تجاهله جالبا تماما مما اثار غضب قوات الراين ضده . كذلك لجأ جالبا الى الاعلان عن محاكمات ضد مغتصبى المال العام فى عهد نيرون مما اثار مخاوف الأغنياء من المحققين خوفا من الصاق التهم بهم طمعا فى مصادرة أموالهم . لقد كانت هذه المحاكم فاشلة لانها تركت المجرمين الحقيقيين يعيشون فى روما فسادا من امثال تيجلينوس Tigellinus وبعض اصدقاء الامبراطور الجديد الذين راحوا يملأون جيوبهم على حساب تمسحهم به وتزلفهم اليه.

هكذا انتشر الامتعاض العام ازاء تصرفات هذا الامبراطور الارعن ؛ ووصل ذلك الى ثكنات الجيش الرومانى على ضفاف الراين خاصة بعد أن فقد زعيمه المفدى فرجينيوس ؛كذلك استاءت قوات الراين لاتجاه الامبراطور نحو محاباه فندكس واتباعه الذين حاربوه بالامس .

ولما جاء الأول من يناير عام ٦٩ رفضت هذه القوات تجديد ولائها للامبراطور او ان تقسم يمين الطاعة له . ولما سمع جالبا بذلك سارع بتبنى خليفة له لعله يجد منه بعض العون والتأييد وكانت فكرة لا بأس بها لولا ان جالبا اساء الاختيار فبدلا من ان يختار شخصية قوية ذات نفوذ شعبى وعسكرى مثل فرجينيوس أو حتى ماركوس سالفيوس أوتو اختار ارستقراطيا اسمه ماركوس كالبورنيوس بيسو Marcus Colpurnius Piso ، ولكن بيسو بالرغم من نبالة أصله ومولده ونظافة صحيفته لم يكن بالشخص القوى ، بل انه لم يكن محنكا فى الحياة لانه كان شابا فى مقتبل العمر عديم الدراية بفن الحكم والاعيب السياسة .

وقد أغضب هذا الاختيار الجنرال أوتو كثيرا والذى كان من أشد المتحمسين لجالبا فى وقت من الاوقات ، فضلا عن انه كان شخصية مرموقة فقد كان زوجا لبوبايا سابينا التى اغتصبها منه نيرون وتزوجها . ولم تنتظر قوات الراين حتى يأخذ الامبراطور خطوة ثانية اذ أعلنت ولاءها لحاكم المانيا السفلى اولوس ڤيتلليوس Aulus Vitellius والذى كان يتمتع بجماهيرية كبيرة وطالبت ان يكون هو الامبراطور بدلا من جالبا ولكن فى الخامس عشر من يناير ثارت قوات الحرس الامبراطورى وفتكت بجالبا وخليفته وأعلنت أن أوتو هو الامبراطور وليس غيره .

الامبراطور اوتو : ١ من يناير حتى ابريل ٦٩ ميلادية :

ولم يتردد اوتو فى قبول دعوة الحرس الامبراطورى ، وابسط يده كل

البسط لرغبة الجنود . ووافق السناتو على مضض بالرغم من انه حزن لمصير جالبا الذى كان ينتمى الى اسرة سيناتورية قديمة . وأعلن السناتو منح أوتو السلطة التربيونية التى كانت تمنح عادة للامبراطور وكذلك الامبريوم الاعلى .

كان أوتو ينتمى الى اسرة طيبة ولكنها لم تكن اسرة ذات أصول عريقة فى التاريخ الرومانى . وكان رجلا قادرا لانه أثبت كفاءته أثناء حكمه لمقاطعة لوسيتانيا لمدة عشر سنوات متتالية ، وكان الامبراطور نيرون قد عينه فى هذه الوظيفة حتى يخلو له الجو مع زوجته بوبايا سابينا تمهيدا لتطليقها منه وزفافها للامبراطور المتيم يحبها (١) .

وعلى أى حال بعد موت جالبا وولى عهده بيسو ، ارسل اوتو الى السناتو يطلب السلام ويعرض خدماته ، وهو يعد بتصحيح بعض الاخطاء التى ارتكبها جالبا فى حق اعضائه الموقرين ، وبينما كان هذا التقارب يحدث كانت قوات الراين تتحرك نحو ايطاليا لتثبيت ڤيتلليوس على العرش ، وبالرغم من عزوفه عن ذلك الا أن مساعديه فالينس وكايكينا Caecina أعلنا أن قوات الراين لن تسمح مرة أخرى لقوات الحرس الامبراطورى باختيار وفرض الامبراطور الجديد على الدولة والجيش . وعبرت الجيوش جبال الالب بالرغم من ثلوج الشتاء المتأخر حتى وصلت سهل البو فى مارس عام ٦٩ ميلادية .

وحاول اوتو مقاومة هذا الزحف الا أن قواته كانت مبعثرة على جبهات متعددة ولم يستطيع حماية معابر جبال الالب بما لديه من قوات ، بل تسرع فى اعلانه تحديه لجيش الراين دون انتظار تلقى المساعدات من جيش الدانوب؛ وفى ابريل من نفس العام لاقى قوات الراين قرب كريمونا Cremona حيث الحقت به هزيمة ساحقة (٢) .

وبالرغم من أن أصدقاءه نصحوه بتجميع ما لديه من قوات مواليه فى الولايات الا أن اوتو تعجل وقرر أن يأخذ حياته بيده مفضلا ذلك عن الدخول فى مغامرة غير مضمونة عواقبها . وحتى لا يعرض نفسه لفتك غريمة .

الامبراطور ڤيتلليوس : (من ابريل حتى ديسمبر ٦٩

بعد انتحار اوتو أعلن السناتو موافقته على اختيار ڤيتلليوس مواطنا

---

(١) Syme, op. cit., pp. 152-6, p. 205

(٢) cf. Tacitus, Historiae, II, 40, 1.

أول وامبراطورا ، وبذلك وضع حدا للصراع بين القوات والقواد . وعادت قوات الدانوب التى كانت قد جاءت لتثبيت أوتو على العرش وهى غاضبة ؛ بل أن الامبراطور الجديد أراد أن يعاقبها فكلف أحدى كتائبها ببناء مسرح amphitheatre فى بلدة كريمونا Cremona التى شهدت الصراع الدموى بين انصار الامبراطور الجديد من قوات الراين وانصار الامبراطور المنتحر من قوت الدانوب . وكان هذا عملا شاقا بالنسبة لهذه القوات وعقابا صارما على ما اقترفته . واخذ ڤيتلليوس يسرح قوات الحرس الامبراطورى القديمة ويعين بدلا منها قوات جديدة منتقاه من بين قوات الراين . وفى أثناء عودة قوات الراين المناصرة لفيتلليوس ارتكبت عدة حماقات أثناء مرورها عبر المقاطعات الابطالية وبلاد الغال مثل نهب بعض المدن وجمع الاسلاب بطريقة استثارت المواطنين . وكانت بداية لنهاية لفترة الامن التى سادت منذ انتصار اكتافيوس على أنطونيوس عام ٣١ ق.م. وادرك الرومان خطر الجيش اذا ما فقد زمام الموقف وخرج عن النظام .

كان ڤيتلليوس رجلا طيبا : سليم الطوية . زاهدا فى الحكم والعرش فأصبح بذلك العوبة فى ايدى دعاة الصراع ومراكز القوى ؛ وكان ابوه صديقا للامبراطور كلاوديوس ومن أخلص انصاره واكفأهم ؛ وحاول أن يستغل ذلك لتقوية مركزه ولكن عبثا اذ كان رجل مأدب ذواقا للطعام الفاخر ، وترف الحفلات فانغمس فيها تاركا كل شىء (١) ليسير كما تبغى الاقدار مما جعل قوات الجيش الرومانى فى الشرق تبحث لها هى الأخرى عن بطل تحمله على أسنة الحراب الى عرش الامبراطورية ؛ وقاد الدعوة الى ذلك حاكم ولاية سوريا ليكينيوس موكيانوس Licinius Mucianus ووالى مصر اليهودى المرتد تيبريوس الكسندر Tiberius Alexander (٢) ، ووقع اختيارهما على الجنرال ڤسباسيانوس Vespasianus بطل فلسطين وقاهر اليهود ، ولم يستغرق اقناعهما له بقبول المغامرة كثيرا . وتمكن « صناع الاباطرة » من تأمين أنصار له من بين قوات مصر وسوريا وفلسطين فى منتصف يوليو عام ٦٩ ميلادية ؛ ولم ينقص الداعون سوى اعلان الدعوة .

الجنرال ڤسباسيانوس يتولى الحكم : (ديسمبر عام ٦٩ ميلادية)

ولما وجد فسباسيانوس الأمر جادا والأمل ممكنا والانصار كثيرين

(١) cf. R. Syme, op. cit., pp 189-190, p. 205 f

(٢) cf. Syme, op. cit., pp. 565-573 ;

وعن حياة جوليوس الكسندر ودوره انظر مقالة الاستاذ ...
E.G. Turner, *JRS*, (1954) P. 54 ff.

احل ابنــه تيتوس Titus محله فى قيادة الحرب ضد المتمردين اليهود فى فلسطين ، وسافر الى مصر لكى يؤمن صوامع الغلال المخزونة فى وادى النيل حتى يضمن فى يده سلاحا استراتيجيا فعالا ضد السلطات الحاكمة فى روما نظرا لاعتماد الشعب الرومانى فى غذائه على قمح وادى النيل ، وفى نفس الوقت سار موكيانوس بقــوة رومانية عبر شمــال آسيا الصغــرى والبلقان الى ايطاليا لكى يجمع انصارا جددا . وما كاد يصل حتى سمع ان قوات الجيش الرومانى فى الدانوب والتى كانت قد وقفت الى صف اوتو ضد ڤيتلليوس قد تمردت على الامبراطور الاخير لسوء معاملته لها ، واعلنت تأييدها لقوات الشرق الاوسط ودعوتها بتنصيب فسباسيانوس امبراطورا ، وسارت قوات منها تحت قيادة ضابط صغير هو انطونيوس بريموس Antonius Primus الى ايطاليا (١) .

وتقدمت القوات المناصرة لڤيتلليوس لملاقاة قوات الدانوب وصدها ، ومرة اخرى التقت الجيوش المتصــارعة عنــد مدينــة كريمونا فى أواخر اكتوبر عام ٦٩ ميلادية ، ودارت معركة حامية الوطيس لم تستغرق أكثر من يوم وليلة سحقت فيها قوات ڤيتلليوس وانهارت معنوياتها بسبب عدم أكتراث قائدها فكفرت به ، وتقدمت قوات الدانوب فاحرقت المدينة عن آخرها (٢) وهدمت المسرح الذى حكم على قوات الدانوب ببنائه فى الصيف السابق ؛ وتدفقت القوات المتعطشة للنهب والسلب والحــرق والفتك الى روما . وحاول ڤيتلليوس أن يحقن الدماء فلجــأ الى شقيق فسباسيانوس وكان اسمه فلافيوس سابينوس Flavius Sabinus والذى كان يعمل قائدا لحرس المدينة واجرى معه مفاوضات تهدف الى الوصول الى حل سلمى انقاذا للمدينة ومواطنيها ، ويقوم هذا الحل على استقالة ڤيتلليوس وتنازله عن العرش مقابل ان يترك ليعيش حيث يريد ، وتوصل الطرفان الى هذا الحل (٣) . ولكن ما ان علمت فلول قوات الراين المناصرة لڤيتلليوس بذلك حتى غضبت لعقد الامبراطور هذه الصفقة من وراء ظهورها فهجمت على القصر وحبست الامبراطور فيه وحــاصرت فلافيوس سابينوس فى قلعة الكابيتول ثم ذبحته تحديا لفسباسيانوس . ولما وصل الخبر الى قوات الدانوب تقدمت يحدوها الغضب والرغبة فى الانتقام ووصل انطونيوس بريموس الى مشارف العاصمة ودخلها ، ودار قتال عنيف فى الشوارع والطرقات ومن اسطح المنازل انتهى بمذبحة كبرى.

---

(١) Tacitus, Historiae, iii. 63, 3-4.

(٢) Syme, op. cit., pp. 158-168, and p. 201.

(٣) Tacitus, Ibidem

لانصار ڤيتلليوس ، وقبض على الأخير ونفذ فيه حكم الاعدام علنا وعلى مرأى ومسمع من الجماهير ،وذلك فى العشرين من ديسمبر عام ٦٩ . وعاثت قوات الدانوب فى المدينة سلبا ونهبا وقتلا وهتكا ، الى أن وصلت قوات موكيانوس الى روما فى يناير عام ٧٠ ميلادية ليضع لذلك حدا ، وليعيد النظام والأمن والسلام تمهيدا لوصول الأمبراطور فسباسيانوس والذى لم يتمكن من دخول روما قبل نهاية العام نفسه .

ثورة أهل بتافيا Battavia والغال

ما أن انتهت الحروب الأهلية بين الجيوش الرومانية فى ديسمبر عام ٦٩ ميلادية حتى اندلعت حركة تمرد كبرى فى بلاد الغال . بدأت هذه الحركة بتمرد ضابط اسمه جوليوس كيفيلس Julius Civilis من اهل هذه البلاد (١) وكان يعمل فى خدمة القوات المساعدة الرومانية . وكان أهل بتافيا من العنصر الجرمانى الذين يسكنون الآن منطقة الأراضى الواطئة (اى هولندا) ، وكان الرومان قد اعتادوا تجنيد ثمان فصائل Cohortes منهم للعمل فى القوات المساعدة . ولما حاول الرومان مؤخرا تطبيق مشروع الأمبراطور اغسطس القديم فى اعادة تنظيم القوات المساعدة بطريقة حازمة غضبت هذه الفصائل لهذا الاجراء . واستغل قائدها هذا السخط واستمالها اليه منتظرا فرصة للثورة على الامبراطورية . وجاءت الفرصة عندما دعاه أنطونيوس بريموس حاكم المانيا السفلى وفلاكوس Flaccus حاكم المانيا العليا للانضمام الى أنصار الامبراطور الجديد واعلان التمرد ضد ڤيتلليوس ، وفعل ذلك ولكن بعد انتصار قوات الدانوب والشرق الأوسط استمر كيفيليس فى الثورة معلنا أن تمرد أهل بتافيا ليس ضد اى مبراطور ولكن ضد الاستعمار الرومانى بالذات ، ودعى أهل الغال للثورة والوقوف معه من اجل استقلال بلاد الغال عن الامبراطورية ، وتدفقت القبائل الجرمانية المعادية لروما عبر الراين واعلن جوليوس كلاسيكوس وجوليوس توتور J. Classicus and J. Tutor زعيما قبيلة التريفيرين Treveri الغالية الانضمام للثورة وتلاهما جوليوس سابينيوس Sabinus زعيم قبيلة اللنجونيين Lingones الغاليين ايضا . وكانوا جميعا من الضباط السابقين فى الجيش الرومانى ومتمتعين بالجنسية الرومانية ، وكان هدفهم وهو استقلال امبراطورية الغال وجعل عاصمتها مدينة تريفيس Augusta Treverorum (٢) ، بل وانضم اليهم القوات

(١) cf. Syme, op. cit., p. 17-175.

(٢) انظر خريطة الراين والدانوب .

الرومانية المعسكرة على طول نهر الراين . ولكن من الملاحظ أن قرنا ونصف قرن من الاستعمار الرومانى المستنير لبلاد الغال كان قد غير الأحوال ؛ فقد أصبح شعب الغال رومانا يتحدثون اللاتينية ويتمتعون بترف الحياة الرومانية ونظامها ومن ثم رفضوا الانضمام الى هذه الثورة ؛ وآثروا أن يبقوا موالين لروما مفضلين ذلك على العودة الى حمى الصراعات القبلية التى سادت البلاد قبل استيلاء روما عليها .

ولما علم موكيانوس نائب الامبراطور بأن الخطر قد استفحل أرسل قوة رومانية الى هذه المنطقة سحقت الثورة فى مهدها رغم مقاومة أهل بتافيا حتى نهاية عام ٧٠ ميلادية ، وبعد سحق التمرد سلكت روما سلوكا معتدلا ازاء الثوار . فلم تنزع من أحد حقوقه المدنية أو القانونية التى اكتسبها ، ولكن فى نفس الوقت اجروا تعديلا على وضع القوة البتافية المساعدة قرب موطنها فى هولندا فأبعدت عن هذه المنطقة حتى لا تتحرق النفوس مرة أخرى للاستقلال والانفصال . وحدد عدد رجالها ممن يختارون كقواد عليها . وهم فى ذلك كانوا ينفذون فى الحقيقة مشروع اغسطس الخاص باعادة تنظيم القوات المساعدة .

تيتوس يضع نهاية لثورة اليهود فى فلسطين :

سبق أن تحدثنا عن الظروف التى مرت بها فلسطين من صراعات مريرة بين سكانها اليهود ومن غير اليهود ، ثم حدوث الاقتتال بين اليهود انفسهم : بين الصدوقيين Sadducces الاثرياء وانصار الرومان والحضارة الهللينستية من ناحية ؛ وبين الفريسيين Pharisees المتطرفين والذين كانوا يشغلون المناصب الصغرى فى سلك الكهانة اليهودى من ناحية أخرى . وكانوا هؤلاء الأخيرين يدعون الى طرد الرومان لأنهم نجسين غير يهود (أى جوييم) ، واقامة دولة يهودية فى فلسطين تقوم على تعاليم اليهودية بحذافيرها ، وكون هذا الفريق حزبا مقاتلا معاد للرومان هم الزيلوت (الزيلوط) Zealot معتمدين على محاباة ربهم « يهوه » Jehova ونصرته لهم ، كما كشفت الوثائق التى عثر عليها حديثا فى مغارة قمران المطلة على البحر الميت والمعروفة باسم مخطوطات البحر الميت Dead sea Scrolls عن تعاليم فريق ثالث من اليهود الربانيين هم الاسينيين Essenes (١) وترجع تقريبا الى عام ٧٠ ميلادية) ؛ لقد أدى الأمر الى اندلاع الثورة عام ٦٦ ميلادية والتى سرعان ما عمت كل فلسطين وطردت الحامية الرومانية من

---

(١) عن وثائق البحر الميت ، الجدل العنيف الذى أثاره بين العلماء انظر :
H.H. Rowley , Dead Sea Scrolls and The New Testament London (1957) ; G. Vermes , The Dead Sea Scrolls in English (London 1962) ; Burrows , The Dead Seas Scroll (1956) ; by the same

القدس (أورشليم) ، وكان يساعد الرومان فى ذلك أهل فلسطين من غير اليهود . وزاد الأمر سوءا اعلان الرومان أن اليهود لا يتمتعون بحقوق المواطنة فى مدينة قيصرية Caesarea عاصمة الاقليم ، وعمت الثورة حتى وصلت ربع يهوذا Judaea وراح الفلسطينيون يفتكون باليهود فى كل مكان، ورد اليهود على ذلك بالعدوان عليهم ؛ وامتدت الفوضى . وامتدت ثورة اليهود خارج فلسطين الى سوريا ومصر ، ولم يدرك الرومان خطر الثورة اليهودية الا عندما فتك اليهود بجيش رومانى كامل ذهب لسحق الثورة بقيادة كستيوس جاللوس حاكم سوريا وانزلوا به هزيمة بشعة .

وازاء هذه الأخطار أرسل نيرون جيشا كبيرا يبلغ تعداده خمسون ألفا بقيادة فسباسيانوس لسحق الثورة وذلك فى عام ٦٧ ميلادية وبالفعل طهر الجيش الرومانى جيوب الثوار فى معظم اجزاء البلاد وهرب معظمهم للاختفاء فى أورشليم داخل قلعتها . وقام فسباسيانوس بمحاصرة القلعة وهم بالهجوم عليها لولا أن سمع بأنباء الثورة ضد نيرون وما تلى ذلك من احداث داخلية ، وهم مرة اخرى للهجوم على القلعة بعد تولى فتلليوس لعرش الامبراطورية ؛ ولكن حالة عدم الاستقرار فى روما جعلته يؤجل هذا الهجوم لمدة عشرة اشهر اخرى مستغلا اندلاع الصراع بين اليهود أنفسهم داخل اسوار المدينة .

ولما دعى موكيانوس الى تعيين فسباسيانوس امبراطورا على العرش اضطر الأخير الى تاجيل هذا الهجوم مرة أخرى ثم اضطر أخيرا الى توكيل ابنه تيتوس لقيادة المعركة .

وفى عام ٧٠ ميلادية قام تيتوس بتشديد الحصار حول قلعة أورشليم، وكان للمدينة ثلاثة اسوار كل منها يكون قلعة بذاتها ؛ فضلا عن الهيكل وجبل صهيون وجبل الزيتون . وقد أدى الحصار الى انتشار المجاعة والمرض . وفى الوقت المناسب دمر تيتوس الأسوار وهجم على الهيكل واحرقه ثم استولى على قلعة جبل صهيون بعد قتال عنيف وبذلك سقطت معاقل اليهود ، ودمرت أورشليم وأصبحت دولة يهوذا ولاية رومانية ، وامر تيتوس بحل التنظيمات السياسية والدينية اليهودية وفرض عليهم

---

author. More light on the Dead Sea Scrolls (1958), T.H. Gaster. The Scriptures of the Dead Sea Sect (1957) ; Van der Ploeg, The Excavations at Qumran 1958) ; F.M. Cross, The Ancient Library at Qumran (959) ; [illegible] Sutcliffe, The Monks of Qumran (1960) ; R. de Vaux, L Archeologie [illegible] manuscrits de la Mer Morte 1961).

R. Syme Tacitus, p. [illegible].5.

ضريبة الرأس السنوية ومقدارها دينارين رومانيين (حوالى عشرة قروش مصرية) تدفع لحساب معبد جوبيتر الكابيتولي رب الرومان امعانا فى اذلال اليهود ، بعد حرمانهم من الامتيازات السابقة ، ثم احتفل تيتوس باقامة قوس نصر لا تزال بقاياه قائمة قرب الفورم الرومانى حتى الآن ، وعليه نحت يمثل اسلاب الرومان من المعبد اليهودى حملت فى الاستعراض الكبير بمناسبة هذا الانتصار بمدينة روما .

ان يوسيفوس السكندرى هو مصدرنا الأول عن هذه الثورة ، بعد ان قبض الرومان عليه عام ٦٧ ميلادية وهاجر الى روما حيث عاش فى كنف القصر الامبراطورى ، وهناك كتب مؤلفه الشهير عن الحرب اليهودية De Bello Iudaico باللغة الآرامية من اجل يهود بلاد ما بين النهرين الذين كانوا يتحدثون هذه اللغة ، ثم ترجمة بمساعدة تلاميذه الى اللغة اليونانية المبسطة وذلك فى أواخر السبعينات من القرن الأول الميلادى ، وفى عام ٩٣ ميلادية انتهى يوسيفوس من مؤلفه الثانى عن الآثار اليهودية Antiquitates Judaicae وعموما كان يوسيفوس محبا للرومان مسالما يكره المتطرفين اليهود ، رغم دفاعه المستميت عن الديانة اليهودية ، ولهذا منحه الرومان الجنسية الرومانية .

ومن نتائج هذه الثورة أيضا انشاء الحاخام اليهودى يوحنان بن زاكاى Johanan Ben Zakki لمدرسة لاهوتية فى مدينة جبنه Gebneh على الساحل الفلسطينى وذلك بعد هروبه من الحصار الرومانى لأورشليم ، وبدون هذه المدرسة ما حفظت تفاصيل المدرسة الفرنسية اليهودية ، كما أسس أحبار اليهود مجمعا دينيا (سنهدريم Sanhedrim) جعلوا رئاسته فى بيت هيليل ؛ واصبح رئيس السنهدريم بالتالى المسئول الأول عن الجالية اليهودية المتبقية فى فلسطين . وخلاصة القول بالرغم من أن اليهود دمروا سياسيا الا أنهم ازدهروا عقائديا فى ظلال الامبراطورية الرومانية .

لقد انتهت الثورة اليهودية باستيلاء الرومان على دير المسادا (المصعدة) عام ٧٣ ميلادية وحيث كان يعيش فريق من الرهبان اليهود

---

(١) عثر فى فلسطين حديثا على عظام ٩٦٠ متمرد يهودى القوا بأنفسهم من فوق صخرة المسادا المطلة على البحر الميت بعد أن قاوموا الرومان حتى عام ٧٣ ميلادية انظر : التحقيق الصحفى المصور عن هذا الاكتشاف فى العدد الخاص من جريدة الاوبزيرفر :
The Observer. November 22sd, 1966.

بصرف النظر عن وجهة نظر الجنرال البروفسور الاسرائيلى يادين [illegible] مقاومة الزيلوت للرومان .

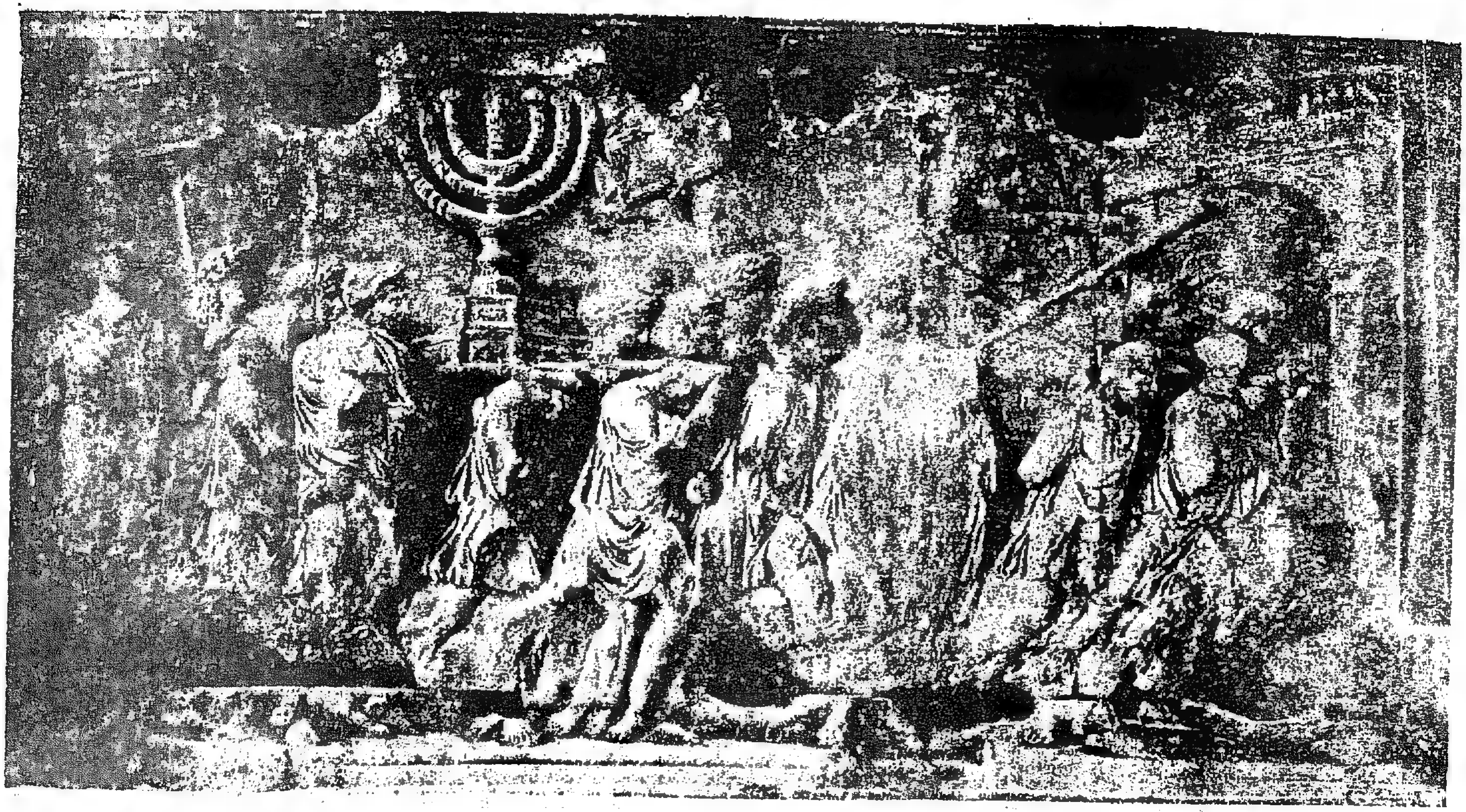

جزء من استعراض انتصار تيتوس على اليهود حيث ظهرت أسلاب المعبد الكبير في أورشليم وهي البوق الفضي الذي يدعو الناس للصلاة ومائدة القرابين « المينوراه » والشمعدان ذي السبع عيون ومن الجدير بالذكر أن هذه الأشياء أعادها الامبراطور البيزنطي جستنيانوس قبل عام ٥٦٥ ميلادية الى أورشليم

الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الأسينيين Essenes ، ولا يزال هناك عند صخرة المصعدة التى يعرفها الاسرائيليون الآن باسم « المسادا » بقايا الحصون اليهودية وبقايا المعسكر الذى أقامه الرومان هناك ، كما وضعوا فرقة كاملة يقودها آمر Legatus عسكرت فى أورشليم ، كما وجد الرومان فى ذلك فرصة للاستيلاء على بلاد العرب النبطية (شرق الأردن) ووضعوا فرقة رومانية فى احدى مدنه وهى بوسترا (أو بوصرى) ، وجعلوا البطراء عاصمة للاقليم كله ، وبدأ العمران الرومانى يزحف اليها .

ومن أشهر الوثائق التى تغطى تاريخ فلسطين فى تلك الفترة مجموعة الوثائق التى عثر عليها عام ١٩٦١ فى كهف فى صحراء الاردن ، وهى أرشيف كامل من اوراق البردى يرجع تاريخه الى عام ٩٣/٩٤ ميلادية ، وتمتد حتى ثورة اليهود فى عصر تراجانوس عام ١٣٢ ميلادية ، وهذه الوثائق مكتوبة باللغة النبطية والآرامية والاغريقية ، وتغطى موضوعات شتى مثل عقود البيع والارث والتنازل وعقود الزواج . كما تشير الى الاحصاء السكانى الذى اجرى فى هذه الولاية العربية القديمة عام ١٢٧ ميلادية فى عهد الحاكم الرومانى سكستيوس فلورنتينوس Sextius Florentinus ، وعندما ينتهى العلماء من نشر هذا الأرشيف سوف تظهر الكثير من أسرار حكم الرومان لهذه الولاية العربية فى شرق الأردن .

لقد حرم الرومان على اليهود الاقتراب من أورشليم أو من اطلال معبد سليمان وحائطه التى جعلوها حائط المبكى ، وظل هذا الحظر قائما لمدة ستين عاما منذ تدمير تيتوس للمعبد ، لكن بعض اليهود كان يتسللون من آن لآخر للبكاء على قدس الأقداس ويروى التراث اليهودى كيف أن احد أحبار اليهود واسمه اكيبا Akkiba ، تسلل الى هيكل سليمان واقترب من قدس الأقداس حيث يزور يهوة شعبه ، وفجأة بدلا من أن يرى نور الله رأى ثعلبا يندفع مرعوبا من الجحر ، فتحسر على هجران يهوة لشعبه المختار ! وبقيت أورشليم اطلالا حتى قرر هادريانوس بناء مدينة رومانية مكانها تقام للرب الرومانى جوبتر الكابيتولى تسمى باسمه وهو ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina ويتوسطها معبد كبير له يدفع اليهود له الجزية السنوية بدلا من معبدهم وقد اثار هذا التصرف غضب اليهود مرة ثانية فقاموا بثورة ثانية تزعمها حاخام يهودى اسمه شمعون باركوخبا ادعى أنه المسيح المنتظر ، ومرة ثانية فتك الرومان باليهود بلا رحمة وكانت الضربة القاضية التى وضعت نهاية مأسوية لليهود جروها على أنفسهم بسلوكهم الغريب منذ تسللهم الى فلسطين مدعين أن الرب اعطاها لهم دون غيرهم من البشر الذين اعتبروهم أقل مرتبة منهم .

صراع القوات الرومانية ومستقبل الامبراطورية :

لا نستطيع ان نترك أحداث عامى ٦٨ و ٦٩ تمر دون تعليق . لقد كشفت هذه الأحداث حقائق مرة أمام الشعب الرومانى بخصوص نظام الحكم الذى أوجده اغسطس وحاول فيه أن يخفى المشاكل القديمة وراء واجهات جذابة ، ولم يحاول خلفاؤه أن يجرأوا على تعديل هذه الأخطاء . لقد برزت امام الشعب الرومانى ثلاثة مشاكل هى جوهر الصراع داخل الامبراطورية مستقبلا ، أولها : التساؤل عن حدود منصب المواطن الاول والأسس الدستورية التى يقوم عليها ، وثانيهما : مدى تجاوب شعوب البحر المتوسط مع روما ، وثالثها واخطرها : ما هو دور الجيش الرومانى وحدوده خاصة فيما يتعلق بالحكم الداخلى ؟

فيما يتعلق بالمشكلة الأولى فقد كان هناك غموض فى طبيعة منصب المواطن الأول وعدم تحديد المؤهلات الخاصة لتولى هذا المنصب . فمثلا تولى تيبريوس بعد اغسطس لأن الأخير قد تبناه بل واشركه فى السلطة التربيونية معه اثناء حياته .

ثم جاء جايوس الى الحكم بناء على تفضيل الحرس الامبراطورى له ؛ وكذلك كلاوديوس الذى دفع بالهدايا الى هذا الحرس بعد توليه . وتولى نيرون لأن كلاوديوس كان قد تبناه ولأن امه قتلت زوجها الامبراطور لتفسح له الطريق الى العرش ، هكذا لم يكن هناك اسس ثابتة سواء قانونية أو اخلاقية يختار على اساسها الامبراطور . ولا يوجد قاسم مشترك أعظم بين هؤلاء الأباطرة سوى انهم يمتون بصلة مباشرة أو غير مباشرة للأسرة اليوليو كلاودية التى وضع أساسها اغسطس وزوجته ليفيا .

والحق يقال لقد حاول فسباسيانوس أن يضع حدا لهذا بأن وضع تقليدا جديدا ثابتا وهو اختيار الخليفة عن طريق توريث العرش لأكبر الأبناء . فقد كان له ولدان عنى بتربيتهما لتولى شئون الامبراطورية من بعده ، الى جانب ذلك بدد الغموض حول سلطات المواطن الأول وواجباته ووضع ذلك فى لائحة تشريعية عرضها على الشعب ليبدى موافقته عليها فى بداية عهده بالحكم ، ويعرف ذلك « بأمبريوم فسباسيانوس » . ولحسن الحظ وصل الينا جزء كبير من هذه اللائحة وذلك لأن احد الزعماء الوطنيين الايطاليين فى القرن الرابع عشر الميلادى واسمه كولا دى رينزى Cola di Rienzi نسخه ونشره فى روما أثناء مقاومته للاستبداد البابوى ليبين له ولمواطنيه ان الرومان القدماء آمنوا أن سلطة الحاكم يجب أن تكون مستمدة من الشعب وبموافقته .

أما بخصوص القضية الثانية ، فقد ادرك الرومان أن حركات التمرد فى بتافيا (هولندا) وبلاد الغال فشلت لأن الذين قاموا بها كانوا محدودى العدد ، وذلك لمعارضة شعوب هذه الولايات للثورة والخروج عن الامبراطورية ، وادركوا ان ذلك يرجع أولا وأخيرا للعلاج الطيب ، والى نظرة روما التحررية الى هذه الشعوب ، وحسن معاملتها لهم قبل التمرد وبعد التمرد ، وبدات الادارة الرومانية تصبح أكثر تفهما وتسامحا مع هذه الشعوب خاصة الجرمان والغال ، حتى نظرة الرومان الى اليهود تغيرت بالرغم من انهم كانوا اكثر شعوب الامبراطورية مشاكسة وشراسة ، حقا لقد فتك بهم تيتوس عام ٧٠ ميلادية وحرق معبدهم وحل احزابهم والغى مجلسهم الوطنى المعروف باسم السنهدريم Sanhedrim وكذلك سلك الكهانة العليا ، ولكنه أبقى لهم بعض الامتيازات الخاصة استجابة لعواطفهم القومية مثل الاعفاء من الخدمة فى الجيش الرومانى وذلك مقابل ضريبة الراس السنوية بالرغم من انها اصبحت تدفع لمعبد جوبتر رب الرومان بدلا من هيكلهم فى اورشليم وهو تسامح كبير لشعب سبب للرومان الكثير من المضايقات .

أما بخصوص مشكلة الجيش ودوره (١) فى الحكم فقد احس مؤرخ الرومان الكبير تاكيتوس بها عندما علق على عام الاباطرة الاربعة بقوله « لقد كشف القناع عن سر الامبراطورية » اى ان ادارة الامبراطورية اصبحت تعتمد داخليا وخارجيا على الجيش وكذلك مستقبلها . وهذا حقيقى . ولكن كان لا يزال فى اعماق فرق الجيش الرومانى المتعددة على الجبهات المختلفة ضمير رومانى حى ، كما انهم كانوا يكرهون فى اعماقهم الاقتتال فيما بينهم ، بل كانوا على استعداد للاستماع الى كلمة تصدر من قائد قوى عاقل ، وبالفعل امتنع الجيش عن تكرار ما حدث عام ٦٨ و٦٩ ميلادية وهى نفس الأحداث التى وضعت حدا للجمهورية الرومانية منذ قرن مضى . وظل الجيش يعاف هذا السلوك لمدة ماية سنة ونيف حتى عام ١٩٣ ميلادية عندما تفجر الصراع بعد اغتيال الامبراطور برتيناكس Pertinax ، وذلك راجع الى عناية الاباطرة بالجيش واصلاح احواله ورفع مستوى الجنود والضباط .

وبالرغم من ذلك تركت المعارك والاقتتال آثارا عميقة على الامبراطورية ، فقد تناقص عدد الرومان فى الجيش ، وبدا الايطاليون يملأون الكتائب والفرق . وهؤلاء كانوا يتعاطفون مع اخوتهم وشعوبهم الايطالية اكثر من

---

(1) R. Syme, Tacitus PP. 15.7 - 175.

تعاطفهم مع ابناء اقليم لاتيوم ، ولو اعتبرنا الايطاليين الى حد ما رومانا فما بالنا بالحال عندما تضاءل عدد المتطوعين الايطاليين بسبب انخفاض معدل المواليد فى المقاطعات الايطالية والتجاء روما الى الجرمان مثلا ؟ بالرغم من ان الجيش الرومانى لم يعد رومانيا كما كان فى الماضى : بل اكثر منه ايطاليا وكان الايطاليون يحسون فى قرارة انفسهم بالظلم الاجتماعى وانعدام الأمن فى مقاطعاتهم بعد سلوك القوات الرومانية الهمجى فى مدينة كريمونا اثناء الفتنة الكبرى عام ٦٨ ميلادية ، كما أن مستقبل اعتماد الجيش على الايطاليين أصبح يعنى أن مستقبل الامبراطورية يتوقف لا على الرومان بل على أبناء المقاطعات الايطالية ، خاصة أن الرومان بدأوا يتشككون فى نوايا الايطاليين الذين عبروا عن سخطهم لسوء الأحوال فى مقاطعاتهم بانشاء الجمعيات الخيرية لمحاربة الفقر بين شعوبهم كرد فعل على الاستغلال وسوء الادارة الرومانية .

الفصل الخامس

حكم الأسرة الفلافية (Flavii)

٧٠ — ٩٦ ميلادية

١ — فسباسيانوس :

دخل تيتوس فلافيوس فسبانوس (Titus Flavius Vespasianus) روما منتصرا عام ٧٠ ميلادية فى نفس الظروف التى دخل بها اكتافيانوس بعد معركة اكتيوم واسس الامبراطور الجديد حكم الأسرة الفلافية . ولذا لقبه بعض المؤرخين بمؤسس الامبراطورية الثانية .

والى حد كبير يعتبر هذا اللقب صحيحا ، فما أن تسلم فسباسيانوس العرش فى الستين من عمره حتى وجد العديد من المشاكل فى انتظار حل لها ، بعضها كان لا يقل صعوبة عن المشاكل التى واجهها اغسطس نفسه ، مثلا وجد فسباسيانوس — كما وجد اغسطس من قبل — ان البلاد يديرها « جنرالات » حولوا الجيوش الى الاقتتال والتنافس فيما بينها ، ووجهوا حرابهم الى صدور بعضهم البعض وليس الى صدور العدو ، كما وجد الخزانة العامة مفلسة وخاوية على عروشها ، ووجد الروح المعنوية العامة لدى الرومان منهارة ، اذ لم يعد هناك الكبرياء الوطنى والايمان المطلق بعظمة الوطن والامبراطورية بعد أن هزتهم الاحداث الدامية وزعزعت ثقتهم بانفسهم . والحق يقال لم يكن فسباسيانوس يتمتع بما تمتع به اغسطس عندما واجه مشاكل مماثلة : فلم تكن لديه الهالة المقدسة التى أحاطت باغسطس وسهلت له مهمته ، ولم يكن مثلا ينتمى الى اب مثل يوليوس قيصر ينتسب اليه ، ولم يكن لديه الشباب والحيوية ، ولا الغرور الذى يجعله يتحدى القدر . ولكنه كان يشبه أغسطس فى جوانب أخرى فهو مثله ينتمى الى الريف حيث التقاليد والرجولة الصارمة اذ انحدرت أسرته من سلالة اتروسكية وكانت تعيش فى قرية رياتى Reate احدى قرى السابينيين وكان أبوه يعمل جامعا للضرائب وتسليف الفلاحين القروض وله ضيعة قرب رياتى ومن الواضح أن فسباسيانوس اكتسب خبرة فى ادارة الاموال والاعمال منذ نشأته ولهذا احترم الممتلكات الخاصة وادار بحكمة وكفاية ... الدولة العامة . كما اكتسب من نشأته وتربيته ناقة

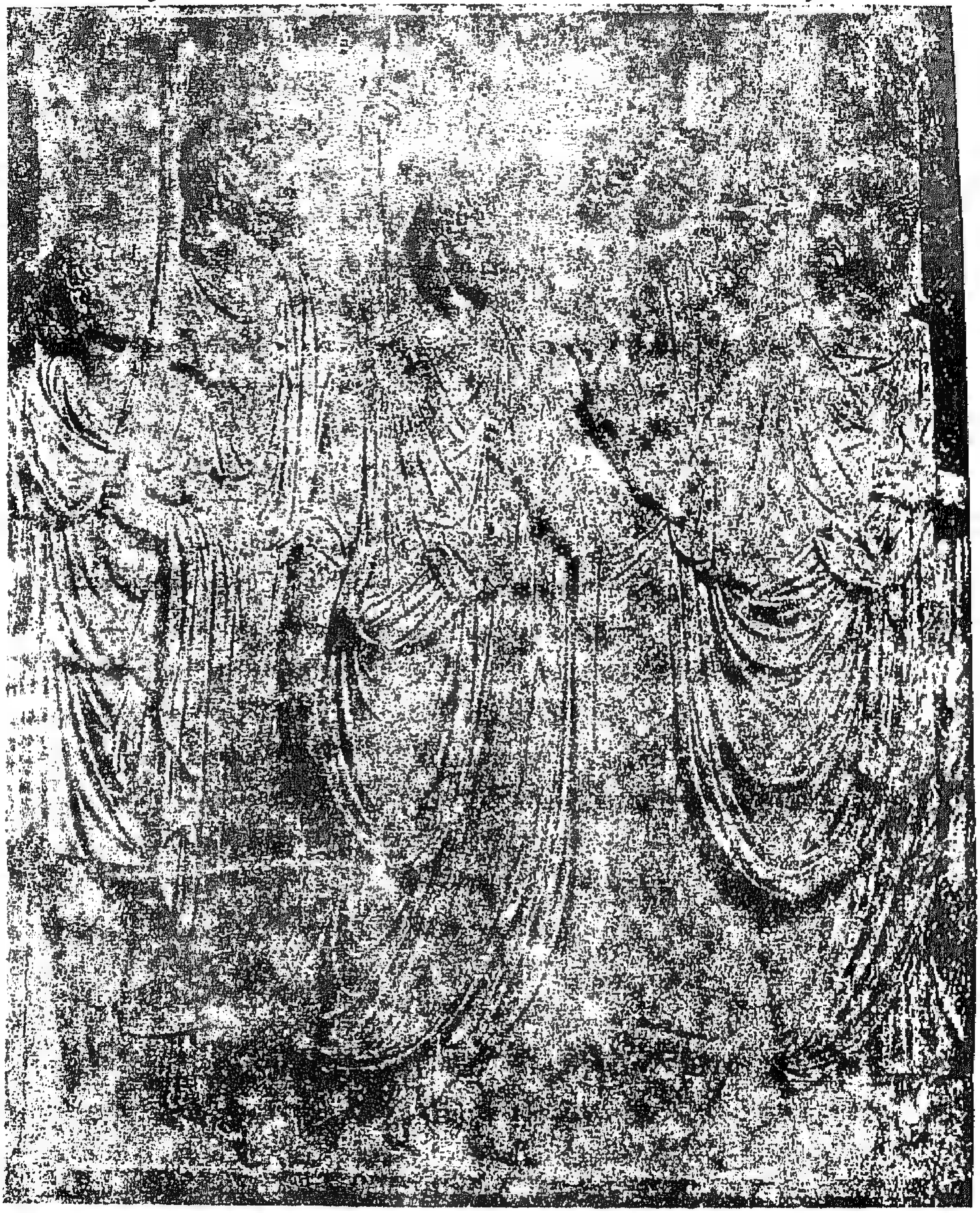

فسباسيانوس يدخل روما يتقدمه روح الشعب الرومانى الذى يضع
قدمه على البومريوم اول حدود المدينة ثم نائب الامبراطور (من اليمين)
[illegible] متحف الفاتيكان —

ورغبة شديدة للعمل مع حب الفكاهة والمداعبة والتعليق اللاذع فضلا عن التبسط والحرص الشديد (١) ، بل والخبث التى يتميز به اهل الريف ، وقبل كل شيء كان متزنا عاقلا ، وبذلك تحول البلاط من البوهيمية والبذخ التى تميز بها عهد نيرون الى الهدوء والوقار الذى يعكس الأصل البرجوازى الكافح . ولقد حرصت أسرته البرجوازية على تربيته واخيه خير تربية حتى شب وكبر ، وتمكن واخيه من الحصول على مقعد فى السناتو الرومانى . وبالرغم من ذلك لم ينسى العسكرية ، فتدرب فى سلك الجيش الرومانى حتى اصبح جنرالا محبوبا من جنوده ، مما لفت نظر الامبراطور كلاوديوس وكلفه بمهام عسكرية فى المانيا وبريطانيا . وعندما تولى نيرون عينه حاكما على ولاية افريقيا البروقنصلية ، ثم كلفه بقيادة الحملة لقمع ثورة اليهود فى فلسطين بل ان اخبار انتصاراته فى فلسطين سبقته الى الوطن فنال اعجاب الناس ورضاء الجيش واحترامه .

وما ان تولى العرش حتى حذى حذو جالبا وأوتو وفتلليوس ، بل وأباطرة الأسرة اليوليوكلاودية فلقب نفسه باسم قيصر ، حيث اصبح هذا الاسم لقبا ورمزا للسلطة اكثر منه نسبا ، واصبح كل من يتولى عرش الامبراطورية يتلقب به تلقائيا . كما جعل لفظ امبراطور لقبا ثابتا يبدأ بالاسم الخاص للامبراطور ، وهذا فى الحقيقة احياء لما فعله اغسطس وان كان نيرون قد سبقه فى هذا . ولقد حرص فسباسيانوس على أن يرى السناتو يصدر قرارا باختياره وان تصدق الجمعية العامة على هذا القرار ، ولكنه حرص على ان يكون تاريخ تعيينه منذ أن نادته قواته فى فلسطين بلقب القائد المظفر Imperator ، وخلاصة القول وضعت الظروف على العرش رجلا مناسبا فى مكان مناسب .

اتجاهاته واصلاحاته :

١ — اعادة فرض السلام فى الداخل والخارج :

حاول فسباسيانوس أن يتشبه بأغسطس بصفته مؤسسا لاسرة

---

(١) عبر سويتونيوس عن ذلك بذكر حادثة طريفة عنه عندما رفض اعفاء عبده وراعيه المخلص الأمين من المبلغ المقرر عليه لكى يعتق ويصبح حرا ، اذ رفض فسباسيانوس مطالبا بالمال اللازم أولا ، عندئذ علق العبد العجوز على سيده قائلا ان الثعلب قد يغير فراءه ولكنه ان يغير من طباعه » ! Vulpem pilum mutare, non mores كما سخر منه أهل الاسكندرية لشحه وسموه بصاحب الست أوبولات [illegible] فسباسيانوس أحد أصدقاءه وألح فى الطلب وكانت سخرية أهل الاسكندرية مثارا للخلاف بين الامبراطور وبينهم Suetonius, 16,3.

جديدة فراح ينشر الاشاعات على انه رجل المعجزات تباركه عناية السماء . ولذا خرص الامبراطور على أن يذكر الناس أن بمقدمه اختفت حركات التمرد والحروب فى المانيا وبلاد الغال البلجيكية والشمالية ، وكادت ثورة اليهود أن تسحق فى فلسطين فأعلن أن عهده عهد السلام وأمر باغلاق ابواب معبد يانوس رمزا لانتهاء الحروب وعودة السلام والوئام الى ربوع الامبراطورية .

ومن اجل ذلك بنى الامبراطور معبدا للسلام وساحة كبيرة سماها ساحة السلام Forum Pacis

٢ — الاصلاح العسكرى :

لقد أدرك فسباسيانوس أهمية عودة ثقة المواطن فى الوطن كأساس لعودة السلام واعادة بناء مجتمع الرخاء والاستقرار ، وثقة المواطن العامل لا يمكن أن تتأتى الا بأبعاد شبح الحروب وحركات التمرد ، ولهذا أمر بتسريح فرق جيش الراين الجرمانية التى انضمت الى ثورة الزعيم الجرمانى يوليوس كيفيليس بحكم مشاعرها القومية التى تغلبت على واجباتها العسكرية كجنود لحماية الامبراطورية ، واحل محلها فرقا جديدة جندت من قبائل وقوميات متباينة منها الجرمان والغال والبلقانيين وقبائل شمال افريقيا ، كما حرص على عدم بقاء القوات المجندة من الولايات لحراسة المناطق التى جندت منها منعا للثورة الوطنية والرغبة فى الانفصال ، كما حرص على جعل قيادة هذه القوات فى ايدى قيادة ايطالية مخلصة وتنويع القوميات داخل هذه الفرق .

ولاول مرة الغى فسباسيانوس القاعدة القديمة التى استنها ماريوس وهى تفضل تجنيد العناصر الساخطة والرعاع المستهترة الميالة للعنف والقسوة والسريعة الغضب والانفعال لأن القدرة القتالية تكون أشد فتكا عندها ، لكن فسباسيانوس وضع قاعدة جديدة وهى تفادى تجنيد البروليتاريا الرومانية والرعاع الايطالية لانها مصدر الفوضى ومحبة للشغب وذلك خطر على سلام الامبراطورية . وفضل عند تجنيد القوات الاعتماد على الطبقة الوسطى المثقفة والمهذبة خاصة من ولايات الامبراطورية الحديثة الاندماج حضاريا وسياسيا ، سواء من بلاد الغال او اسبانيا ، كما انشا الاكاديميات العسكرية Collegia inventum لتخريج كوادر الضباط المدركين لرساله الجيش فى حماية الأمبراطورية .

كذلك تناولت اصلاحات الامبراطور الحرس البرايتورى — مصدر التمرد وقاتل الاباطرة فطهرها وحدد عدد فرقه واعطى لواء قيادتها لابنه تيتوس بعد عودته من الشرق .

٣ – الاصلاح المالى :

لقد كلف بذخ نيرون وجنونه والحروب الأهلية المتعاقبة الامبراطورية كثيرا ، ولما جاء فسباسيانوس وجد الخزانة خاوية، ومن ثم بدأ فى اصلاحها مستغلا خبرته الاسرية فى ادارة المال والأعمال وجمع الضرائب ، والمهارة فى تشغيل راس المال . ولما تولى الامبراطور منصب الرقيب عامى ٧٣ ، ٧٤ ميلادية اعاد حصر الممتلكات الخاصة والعامة فى الامبراطورية . ولما وجد أن الدخول قد زادت بكثير عما كانت عليه أيام الجمهورية زاد الضرائب العامة . كما أهتم الامبراطور بانشاء إدارة مركزية للممتلكات العامة واراضى الدولة . كما استردت الدولة الكثير من أراضيها التى استولى عليها بعض الأفراد مما زاد من الدخل العام .

ومن الاجراءات المالية الهامة الغاء الاعفاء الذى منحه نيرون لبلاد اليونان من دفع الضرائب ، كذلك ضم بعض المدن المتحالفة مع روما الى اقاليم قريبة منها ، ومن أهم هذه المدن المتحالفة جزيرة رودوس وبيزنطة وساموس ، وبالتالى فرضت عليها الضرائب ليسرى عليها ما سرى على الولايات التى ضمت الى الامبراطورية . ولما منح الامبراطور الجنسية الرومانية الكاملة لبعض المقاطعات ومنح الحقوق اللاتينية « أى الجنسية الرومانية غير الكاملة » لجميع سكان اسبانيا كان قصده من ذلك الاعداد لادماج هذه الشعوب فى الامبراطورية الرومانية ، وبالتالى جعلها ملزمة بدفع ضريبة الارث المفروضة على المواطن الرومانى ، ومما كان يعنى زيادة الدخل فى ميزانية الدولة .

كذلك اكد الامبراطور بسلوكه البسيط للشعب الرومانى ان اموالهم لن تنفق الا فيما هو يستحق وواجب ، وتوكيدا لذلك هجر فسباسيانوس القصور الفخمة التى بناها نيرون ولجأ الى بيت بسيط . فكسب بذلك تأييد كبيرا . وتدفقت أموال الولايات الغنية خاصة مصر وسوريا لتملأ خزانة الامبراطورية ، وبدات بشائر الرخاء تعلن مقدم عصور الوئام والسلام .

٤ – البناء والتعمير :

لقد تركت الحروب الأهلية اثارها على المنشآت والطرق العامة فى الدولة فبدأ فسباسيانوس على الفور فى اصلاحها واعادة بنائها ، كما أعيد تعمير بعض المناطق التى تعرضت الدمار والخراب . وفى روما أعيد بناء الكابتول والعديد من المعابد وأماكن العبادة مثل معبد وساحة السلام ،

كما طهر قاع نهر التيبر من الرواسب الطينية حتى أصبح أكثر ملائمة للملاحة الداخلية ، ودعمت ضفافه . كما أصلحت العديد من جسور المياه.

ومن أشهر المنشآت التى خلدها فسباسيانوس للانسانية ذلك الأثر الخالد المعروف باسم الكولوسيوم Coliseum والذى ظل يعرف حتى العصور الوسطى باسم مسرح آل فلافيوس Amphi-theatrum Flavium وقد أقام فسباسيانوس هذا الصرح فوق احدى بحيرات قصر نيرون الذهبى الذى سبق الاشارة اليه .

وكان الغرض من هذا البناء هو اعداد مكان مناسب لعرض مباريات السيافين gladiatores ، تلك الرياضة الوطنية الدامية المحببة لقلوب الرومان ، ولكى يكون مكانا لاصطياد وقتل الحيوانات المفترسة (Venationes) التى انشأ لها جحورا صناعية . ويقال أنه فى يوم واحد أمكن اطلاق خمسة آلاف نوع من الحيوانات المفترسة لاصطيادها (١) .

كان الكولوسيوم يسع مكانا لخمسين الفا من النظارة ، ومزودا بمخازن ومطاعم لاطعام هذه الغوغاء النهمة التى كانت تلتهم الطعام التهاما وعقولها مركزه على القتال الدموى بين الجلادين ، وبين الضحايا والحيوانات المفترسة ، لاشباع رغباتهم السادية ، كما كان هذا البناء مجهزا بوسائل خاصة لتحول دون ثورة الغوغاء المجنونة عند الدخول أو الخروج ، وكانت مقاعد الجلوس loci مرقمة وكذلك الصفوف (gradus) . وكان يوجد عند نهاية كل صف حوض للاستفراغ vomitoria لان عادة الرومان كانت ادخال ريشة فى حلقهم عندما تمتلىء بطونهم لتخفيف الامتلاء عن المعدة . كل هذا يدل على روعة الهندسة والبناء فى ذلك الوقت .

ومن الطريف أن منازلات السيافين لم تتوقف فى الكولوسيوم الافى عام ٤٠٤ ميلادية بعد اعلان المسيحية دينا رسميا للدولة بقليل ، حيث نددت بهذه الالعاب اللا انسانية ، بينما استمرت لعبة قتل وصيد الحيوانات المفترسة حتى عام ٥٢٣ ميلادية (٢) .

وعلى الحدود بنى فسباسيانوس ثكنات للاقامة الدائمة لجيوش الامبراطورية وأصلح ما كان قد تهدم منها . اما الطرق فقد لقيت عناية فائقة من الدولة بغرض تسهيل ونقل الجيوش والتجارة ، وقد استعان فسباسيانوس بالجنود فى بناء الطرق واصلاح المنشئات العامة والتحصينات

---

(١) cf. Suetonius, Titus, 17

(٢) cf. Donald R. Dudley, Urbs Roma, pp. 142-145.

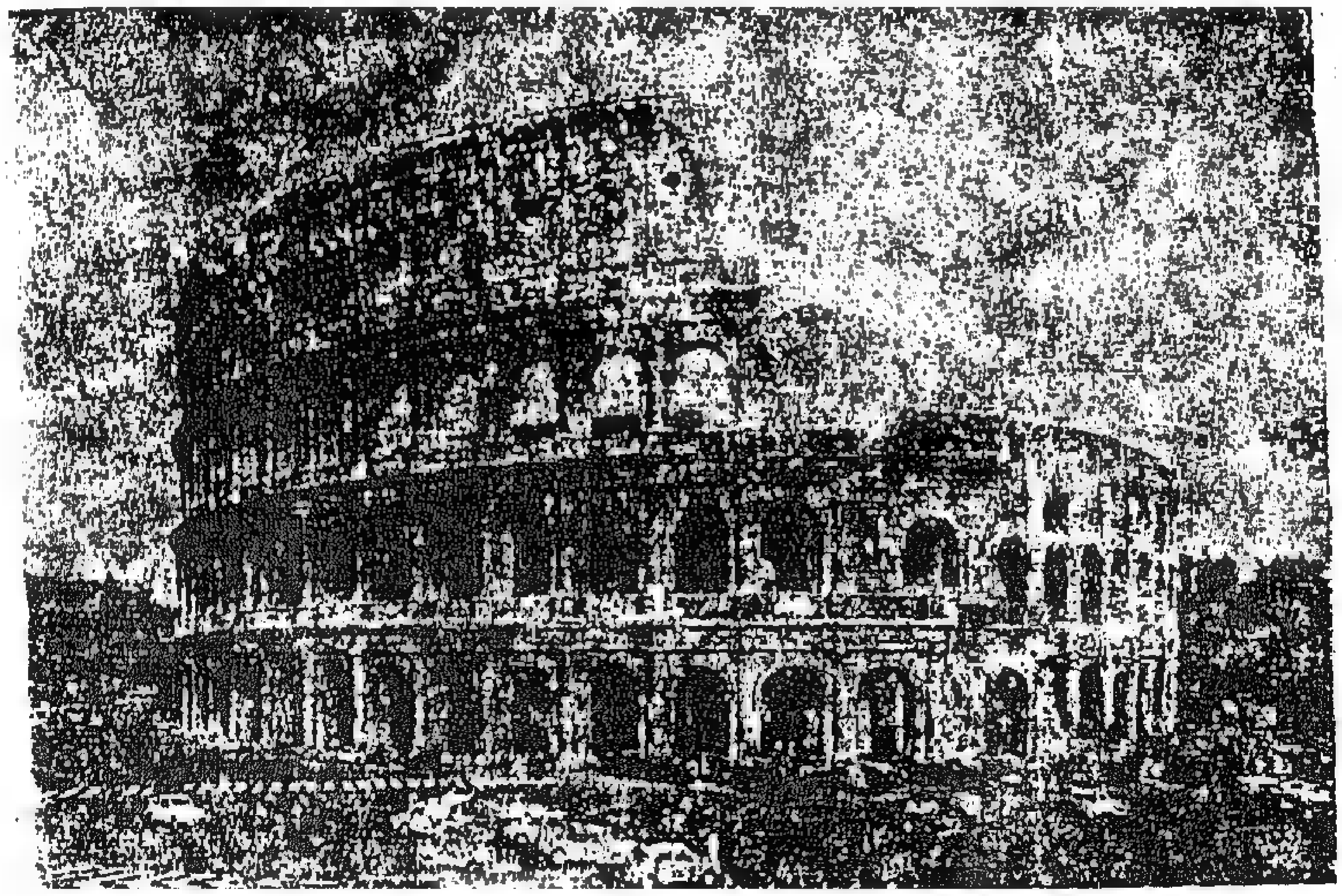

الكولوسيوم روما

الدفاعية ،ولتشجيع الجنود على ذلك قام بنفسه بحمل التراب على كتفه اثناء تنظيف آثار الحريق والدمار الذى حاق بالعاصمة ، وبذلك ضرب المثل الأعلى للمواطنين من أجل المشاركة العامة من اجل الرخاء المشترك .

ومن الجدير بالذكر أن فسباسيانوس رسم برنامجه الاصلاحى للبناء والتعمير على اساس دراسة عملية دقيقة ، وكعلاج لموسم البطالة فى المجتمع الرومانى ، فضرب بذلك عصفورين بحجر . وقد روى أن مخترعا قدم له اختراعا يسهل حمل مواد البناء وبطريقة آلية رخيصة فكافىء المخترع ثم ازاح الاختراع جانبا قائلا « دعونى اطعم الفقراء » .

Plebisculam Pascere !

٥ — سياسته ازاء ولايات الامبراطورية :

لقد فاق فسباسيانوس فى تنظيماته جميع من سبقوه من القادة العظام ابتداء من يوليوس قيصر حتى كلاوديوس ، فقد استهل عهدا جديدا يهدف الى ربط الولايات ربطا عاطفيا وسياسيا واقتصاديا بالامبراطورية استمر قويا حتى عام ٢٦٠ ميلادية . فقد جعل ولاية اسبانيا قطعة من ايطاليا عندما منح تلثمائة مدينة اسبانية حقوق المواطنـة الرومانيـة الغير كاملة — اى الحقوق اللاتينية ، حتى اقليم المانيا الواقع على الساحل الشرقى لبحر الأدرياتيك بدات يد العمران والأنعام على مدنه بالحقوق اللاتينية تعمل بنشاط بعد أن كان نسيا منسيا، كما بعث بالعديد من المستوطنات الرومانية الخالصة Coloniae deductae فى ولايا تالدانوب فى حركة لم يعرفها الرومان من قبل ، بل انه اقام معسكرين للجيش الرومانى فى شرق الدانوب احدهما قرب مدينة فندوبونا (فيينا الحالية) . والثانى عند كانونتوم بين فيينا وبودابست .

ولذلك اهتم بتوسيع الحدود وتأمينها بأقامة سلسلة من القلاع والحصون ولاول مرة مد حدود الامبراطورية فى بريطانيا حتى شمال نهر الهمبر Humber وجنوب ويلز وذهب بذلك ابعد مما ذهب اليه كل من كلاوديوس ونيرون ، وانشا مدينة ابوراكوم Eboracum (مدينة يورك الحالية) وجعلها مقرا للقيادة العسكرية . ويرجع الفضل فى ذلك الفتح الى القائد الرومانى الشهير يوليوس اجريكولا والد زوجة المؤرخ تاكيتوس الذى استمر فى توسعاته حتى وصلت فى عصر دوميتيانوس الى سكوتلندا عام ٨٣ ، ولكنه استدعى على عجل بينما كان يستعد لفتح ايرلندا ، وقد كان المؤرخ تاكيتوس مسحورا بشخصية والد زوجته لدرجة أنه كتب عنه كتابا سماه بأسمه (Agricola)

لقد اهتم فسباسيانوس بألمانيا خاصة شرق الراين ، فضم الأراضى الواقعه بين الراين والدانوب فى شمال المانيا ضمن خطته فى الدفاع والتنسيق بين جيوش الامبراطورية فى جبهة الراين والدانوب ، وقد سار خلفاؤه على نهجه فى هذه المنطقة وزادوا من دعمها لأنهم توقعوا أن تكون مصدر الخطر للسلام الرومانى فى المستقبل .

كما اجرى بعض التعديلات فى وضع بعض الاقاليم والمدن المتحالفة من اجل زيادة دخل الامبراطورية ، فمثلا اسقط الامتياز الذى كان نيرون قد منحه لبلاد اليونان باعفائها من الضرائب . بل حولها الى ولاية تابعة للسناتو ، كما قام بضم جزيرة سردينيا وكورسيكا للادارة الرومانية المباشرة وفرض عليها الضرائب ، كذلك أسقط الاستقلال الذاتى عن بعض الجزر المتحالفة مع روما وضمها الى الولايات القريبة منها أو التى تقع فى أقاليمها مثل جزيرة ساموس ورودس وميناء بيزنطة ، كما حول بامفوليا وليكيا فى آسيا الصغرى الى ولايات رومانية وكما سبق أن وضحنا كان هدفه الاساسى من هذه التعديلات هو زيادة الدخل العام للامبراطورية من ولاياتها .

لقد بذل فسباسيانوس جل جهده لجعل الولايات الغربية قطعة لا تتجزأ من ايطاليا وشركاء فى المسئولية وفى الادارة وليس رعايا تستغل لخير الشعب الرومانى أو كمناطق لتجنيد الجيوش الامبراطورية ، ولهذا حرص على تكوين طبقة برجوازية مثقفة فى هذه الولايات وانعم عليها بحقوق المواطنة الرومانية الكاملة ، كما أنعم على شعوبها بالحقوق اللاتينية والقى عليها مسئولية الادارة وحفظ النظام فى هذه الولايات ، بل أنه استخدم سلطته كرقيب على السناتو وضم بعض اعيان هذه الولايات من الغاليين والاسبان الى السناتو الرومانى وعين غيرهم فى الوظائف الادارية المسئولة ، وبذلك أفاد فسباسيانوس الامبراطورية بهذه الطاقات الجديدة والخلاقة وسخرها لخدمتها ، ولهذا اعتنى بشدة فى اختيار العناصر الخلاقة والأمينة والقادرة من بين رجال هذه الولايات الغربية .

فسباسيانوس والشرق الأوسط

كان فسباسيانوس يعرف الشرق الأوسط جيدا ، كما كان مدركا لمشاكله ومشاكل الامبراطورية فيه ، فقد كان القائد الأعلى للقوات الرومانية التى سحقت ثورة اليهود كما كان من قبل حاكما لولاية شمال أفريقيا ، ولهذا حاول بقدر الامكانيات المتاحة له وضع حلول لهذه المشاكل .

كانت مشكلة الشرق الاوسط دائما هى الحدود ، فقد كانت جبهة متسعة لمسافة ثلاثمائة ميل من الساحل السورى حتى ساحل البحر

الاسود ولايوجد فواصل طبيعية يمكن أن تكون حدودا سياسية ، فضلا على أن هذه المنطقة كانت المنطقة العازلة لمنع توسع البارثيين وتعديهم على ولاية سوريا الرومانية .

ولقد حاول الامبراطور أغسطس وحلفاؤه ابطال خطر البارثيين وحماية الجبهة الشرقية للامبراطورية عن طريق وضع ملوك عملاء للرومان على عروش الممالك الشرقية خاصة مملكة ارمينيا الكبرى وخلق الممالك العميلة التى كانت بمثابة كلاب الحراسة للامبراطورية ، لكن بقيت بعض نقاط الضعف فى السياسة الرومانية ، اذ لم يكن هناك فرق أو قلاع عسكرية لمنع أى غزو معاد قادم من الشرق عبر نهر الفرات خاصة المنطقة العليا أو الوسطى ، كما أن الفرق الرومانية المعسكرة فى سوريا كانت أقل كفاءة من غيرها من قوات الامبراطورية ، فضلا عن بطء تحركها وبعدها عن العمق الخطر فى هذه المنطقة الغريبة المليئة بالقوميات والثقافات والأجناس المتباينة والفخورة بنفسها وبماضيها مما يجعلها اقرب الى الثورة على الرومان .

وبذكاء ودهاء وحصافة بدأ فسباسيانوس فى اصلاح هذا الخطأ فمثلا عمل على اصلاح العلاقات السياسية بين روما ودولة البارثيين ، اذ أرضى هذا الشعب المقاتل بتنازله عن فرض السيطرة المباشرة أو غير المباشرة على العرش فى مملكة أرمينيا الكبرى ، الا أنه رفض الاشتراك مع البارثيين للقيام بحملة مشتركة ضد قبيلة الألانيين Alani ، احدى القبائل السرماتية (السيبيرية) التى كانت تقطن المنطقة الواقعة ما بعد القوقاز ، وكانت تشكل تهديدا مستمرا على البارثيين ؛ وكان هدفه من ذلك الرفض ترك البارثيين منشغلين لدفع الخطر والهائهم عن حلم التوسع غربا عبر الفرات .

فضلا عن ذلك قام فسباسيانوس فى عام ٧٥ ميلادية باحتلال ممر دارا وبنى قلعة محصنة فى منطقة القوقاز وبذلك قطع خط الرجعة على البارثيين فى العودة لتهديد الشرق الاوسط .

وكانت الضربة الثانية للنفوذ البارثى فى الشرق الأوسط هو تشديد سيطرة الامبراطورية على مدينة بالميرا Palmyra (تدمر) لأهميتها كمحطة تجارية على طريق القوافل ، كما جعل يهودية ولاية رومانية يحكمها بروكوراتور رومانى وجعل تحت امرته فرقة رومانية عسكرية فى أورشليم ، ثم وسع حدود سوريا لتشمل المنطقة الممتدة من حدود [illegible] غربا حتى حدود الحوض الأعلى الاوسط لنهر الفرات . كما أنه ضم مملكة كوماجينى التواقة

شمال غرب الفرات وشمال سوريا الى ولاية سوريا الكبرى بعد أن عزل ملكها .

كماادرك ان حماية الشرق الأوسط تتطلب ايضا دعم حدوده شمالا فى شبه جزيرة الاناضول وخلق ولايات قوية ومانعة فيها ، اذ قام بضم كابادوكيا وارمينيا الصغرى الى ولاية جالاتيا Galatia خالقا ما نسميه الآن تركيا ، ثم ترك فرقتين واحدة لحراسة ومنع اى عبور قادم من شرق الفرات ، والثانية لحراسة طريق القوافل الذى يربط سوريا وموانىء البحر الأسود وعسكرت فى لمنطقة الواقعة ما بين شمال الفرات وجنوب البحر الأسود عند ساتالا Satala وبذلك نقل عبىء لدفاع عن الشرق الأوسط من سوريا الى منطقة الفرات العليا وخلق موانع عسكرية محصنة وفرق متاهبة لحماية الحدود ضد أى غزو قادم من بارثيا .

وكان كل تصرف من هده التصرفات يعكس شخصية فسباسيانوس التى تتميز بالذكاء والحذر والمهارة والعقلية العسكرية الاقتصادية والسياسية .

واخيرا أمر القوات الرومانية بالقيام ببعض العمليات المحدودة جنوب خليج سرت Syrtis لتأديب بعض القبائل الليبية التى تعودت على مهاجمة الحواضر والمدن مما سبب ازعاجا للامبراطورية .

■ — العناية بالتعليم والخدمات :

كذلك ظهرت شخصية فسباسيانوس فى تنظيمه للجهاز الادارى وفى اختيار موظفيه . فكان يحرص على اختيار الاكفاء والأكثر أمانة واستقامة ، ولهذا قام بتغير كبير فى طريقه اختيار موظفيه ، فمن المعروف أن الامبراطور كلاوديوس اختار هذا الجهاز من عبيده المحررين او العتقاء وكان معظمهم من أصول وضيعة ، فتحولوا الى موظفين بيروقراطيين جشعين استشرى فيهم الفساد والرشوة والمحسوبية ، كما أن هذا التصرف من جانب كلاوديوس جر عليه غضب السناتو وسخطه ، ولأرضاء السناتو الغى فسباسيانوس ذلك واستبدله بأختيار الفرسان والأعيان والايطاليين ، لأن الفرسان كانوا أكثر حركة ونشاطا وفهما فى التعامل مع الناس وقدرة فى فن الادارة فضلا عن غناهم مما يجعلهم اقل ميلا للأرتزاق من الوظائف أو سرقة المال العام ، أما أعيان الايطاليين فهم أحسن من يتفهم شئون الاقاليم الايطالية ويحسن ادارتها ويعرف ظروفها .

فضلا عن ذلك كان فسباسيانوس اول امبراطور يحرص على جعل التعليم خدمة من الخدمات التى يجب أن تقدمها الدولة للمواطنين لأنه ادرك مدى اهمية التعليم فى نشر الحضارة الرومانية والثقافة اللاتينية فى كافة ولايات الامبراطورية ، خاصة فى حوض البحر المتوسط . وان الثقافة الواحدة هى خير رابط يربط شعوب الامبراطورية برباط عاطفى وفكرى، وهى فكرة قديمة بداها يوليوس قيصر ولهذا أصدر قرارا بأن يكون التعليم فى كافة انحاء الامبراطورية بالمجان مقابل أن تدفع الدولة رواتب عالية للشعراء وأساتذة البلاغة والخطابة الاغريقية والرومانية ، بل تكريما لهؤلاء الأساتذه أصدر قرارا بأعفاء المدرسين من دفع أى ضرائب تقديرا لدورهم فى خلق الامبراطورية ذات الفكر المتحد . كما أنه وضع نواة التعليم العالى بتاسيس وظيفة استاذ البلاغة والخطابة والتى كان أول من شغلها الخطيب الأسبانى الاصل فابيوس كونتليانوس (٣٥ - ٩٥ ميلادية) مؤلف الكتاب الخالد معاهد الخطابة Institutio Oratoria ـــ الذى وضع به اصول علم التربية ووضح أساليبها لبناء الخطيب المفوه .

كذلك انفق فسباسيانوس ببذخ على الخدمات العامة للمواطنين مثل بناء الجسور والكبارى والمرافق والطرق والمعابد والقلاع والحصون . وان الزائر لقرية كرانيس بالفيوم ليدرك ذلك عندما يقرا النقش المقام على واجهة المعبد الجديد الذى أقامه الامبراطور من أجل رب القرية الذى كان يعبد فى شكل التمساح .

٦ ـ الخلافة والمعارضة :

أدرك فسباسيانوس ـ كما ادرك اغسطس من قبله ـ خطورة الصراع على تولى منصب الأمبراطور بعد وفاته ، ومن ثم اختار ابنه الأكبر وساعده الأيمن الجنرال اللامع تيتوس قاهر اليهود ومدمر اورشليم ليكون امبراطور من بعده ، وكان تيتوس يشغل قائد قوات الحرس البرايتورى ، وربما فعل فسباسيانوس ذلك رغبة فى تأسيس حكم أسرته وبقاء الخلافة فى بيته ، أو ربما تفاديا لأى صراع دموى قد ينشب حول السلطة خاصة فى وجود عناصر سيناتورية طموحة وجنرالات على الحدود يروادهم حلم الجلوس على عرش الامبراطورية .

وفى الحقيقة كان الاختيار موفقا ، فقد كان تيتوس محبوبا من الجيش والجمهور وله شعبية فى الولايات ، فضلا عن كفاءته ووجوده بجوار ابيه جمله ملما بشئون الحكم ومستعدا له .

لكن فكرة توريث العرش لاكبر الابناء ضايقت الناس لانها سلوك ملكى ذكرهم بملوك الهللينستية الذين كانوا يحتقرونهم ، فضلا عن كراهية

الرومان الفريزية الملكية . وقد قاد المعارضة فريقان الفريق الأول انصار المذهب الكلبى ، وكانوا فئة فوضوية رافضة لكل شىء يرجع اصولها الى انتستينيس Antisthenes الفيلسوف الأثينى المهجن واحد تلامذة سقراط الحكيم ، والذى اسس مدرسة فى احد ملاعب الكلاب ولهذا عرف تلاميذه باسم الكلبيين Cynici ، وكان يدعو الى أن الفضيلة هى المعرفة ان المعرفة اذا تحققت لا يستطيع احد اخذها او اغتصابها ، ولكى تتحقق المعرفة يجب تحرير النفس من الرغبات المادية لأن النفس امارة بالسوء ، وقد قاد المدرسة من بعد انتستينيس تلميذه ديوجينيس السينوبى Diogenes of Sinope الذى طور المذهب الكلبى الى درجة احتقار العلم والمعرفة واخلاقيات العصر ورفض كل شىء لأن الذى لا يحتاج الى شىء هو الذى يرفض كل شىء ، وبعد موت ديوجينيس ازدادت أعداد تلاميذه ومريديه واتباعه فى العصر الهللينستى نتيجة للقلق والفوضى والحروب والمجاعات التى أرهقت الناس ، ومن الشرق الهللينستى دخلت هذه المدسة الى روما وايطاليا كرد فعل للحروب الكثيرة التى خاضتها الجمهورية الرومانية ، ثم بدأ عددهم يتزايد منذ عصر الأسرة اليوليو كلاودية كرد فعل للتسلط وجبروت اباطرتها ، وزاد عدد انصار هذه المدرسة بين الرومان وراحوا يسخطون على كل شىء ، يتجولون فى ثياب رثة ، يطلقون لحاهم وشعورهم ، ويسيرون حفاة يحملون متاعهم خلف ظهورهم لا يعملون بل يتسولون ويتجولون ولا يخفون عداءهم للنظام والقانون ويبشرون بمبادئهم الفوضوية ، وقد وجدوا لهم انصارا من رعاع الغامة والساخطين واليائسين مما ادى الى اثارة أعمال الشغب ضد النظام وضد الامبراطور ذاته ، الذى نظر اليهم على انهم اعداء الامبراطورية لأنهم يعملون على اسقاطها ويسخرون من كل شىء فيها .

ولقد عارض الكلبيون فكرة توريث الحكم كمبدأ لأنهم يعتبرون السلطة شرا وإثما واذا كان الاب آثما فليس من حقه أن يورث الاثم لابنه ، لأن الأبناء يجب الا يؤاخذوا بجريرة الآباء ، كما انهم كانوا يدعون الأبناء للتمرد على الآباء وعدم الخنوع لرغباتهم لأن أمهاتهم ولدتهن احرارا ، كما انضم اليهم المنجمون والمشعوذون والسحرة فى بث البلبلة ضد النظام مما اضطر الامبراطور فسباسيانوس لانتهاز الفرصة للقضاء على هذه العناصر واستئصالها تماما كجزء من عملية علاج الامبراطورية من سقامها واصدر قرارا عام ٧١ بطردهم من البلاد ... م على بعضهم دخول العاصمة (١) .

أما انصار الرواقية الجديدة فكان معظمهم من المثقفين ومن الطبقة الراقية فى المجتمع ، طبقة أصحاب الصالونات الأدبية والمآدب والحديث

(1) ef. R. Moc Mullen. op. cit. p. 59 ff.

عن الروح ومشاكلها بعكس الكلبية التى كانت فلسفة الفقراء والمعوزين والتعساء الذين يجتمعون فى السوق العامة ليستمعوا الى كلام سوقى بسيط يحمل لهم العزاء والأمل . كانت الرواقية فلسفة اغريقية ظهرت كرد فعل للتحول الاجتماعى والسياسى والفكرى الذى حدث فى العالم الهللينستى ، ووضع زينون السورى القبرصى أساسها فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث ق . م ، وبعكس الكلبية التلقائية كان للرواقية تعاليم ومنهج وخطة عمل ، ومعلمون بدرجات مختلفة ، ولهذا بقيت فلسفة قوية الشكيمة حتى بعد انتشار المسيحية والى أن اغلق الامبراطور جستنيانوس مدارسها عام ٥٢٩ ميلادية ، وتقوم الرواقية على فكرة تمجيد الحكمة والحكماء من اصحاب المعرفة لانهم هم وحدهم الذين يعرفون الحقيقة المطلقة والفضيلة ، ولما كان غالبية المثقفين من الارستقراطيين الذين هم شيوخ مجلس السناتو فقد تكونت جبهة معارضة داخل السناتو ضد انفراد الامبراطور بالسلطة دون الرجوع الى السناتو الذى هو عقل الدولة ومنجم خبرتها ، وقد كان موقف هذا الحزب من الامبراطور واضحا منذ عصر نيرون ، عندما قاد زعيمهم بايتوس ثراسيا Paetus Thrasea حملة من المعارضة فى وجه نيرون مما دعى الأخير الى اعدامه تخلصا منه .

لكن معارضة الرواقيين عادت من جديد عندما تولى ڤسباسيانوس الحكم واعلن توريث العرش لأبنه ، وقاد الحملة الجديدة فيلسوف وعضو بارز فى السناتو اسمه هلڤيديوس بريسكوس Helvidius Priscus زوج ابنة الراحل بايتيوس ثراسيا والذى نادى بعودة المبادىء الجمهورية القديمة ، بل ودعى الى عبادة زعمائها الراحلين من الرواقيين من إمثال بروتوس وكاتو الأصغر كأنبياء لهذه الفلسفة ، وقد وصلت الجراة والتهور بالفيلسوف هلڤيديوس بريسكوس الى لوم الامبراطور ڤسباسيانوس علنا وتوجيه الشتائم ضده مما اضطر الامبراطور الى الانتقام منه بنفيه من روما الى أقاليم ايطاليا ، ثم فقد ڤسباسيانوس اتزانه وأمر باعدامه بعد أن علم بتآمره على قلب نظام الحكم وذلك فى عام ٧٥ ميلادية ، ولكن ڤسباسيانوس حزن اشد الحزن على هذا التصرف فهو لم يكن دمويا ، بل عرف عنه الرحمة والعفو وفعل الخير ، بل انه خشى من عواقب هذا التصرف مستقبلا على أسرته (١) .

---

(1) cf. MacMullen, op. cit, p. 55.

لكن الرواقيين من اعضاء السناتو كانوا قد نجحوا فى احياء العاطفة القديمة فى وجوب أن يكون هذا المجلس هو قلعة الحكم لأنه يمثل المشورة والرأى السديد ، فهو مجلس من الحكماء ، والحكماء هم الذين يجب ان يحكموا ، وبالتالى يجب ان يكون الامبراطور من رجال المجلس وباختيار المجلس وليس مفروضا بقوة السلاح وارادة الجنود ، أو عن طريق التوريث لانه ليس من حق احد أن يورث العرش لابنه كالعقار ، وجاء رد فسباسيانوس القاطع والمتحدى كما جاء على لسان المؤرخ كاسيوس ديون « اما ان يتولى ابنى العرش من بعدى أو لا احد » (١) . ولم يعبأ فسباسيانوس بعد ذلك برأى الرواقيين واستمر فى اعداد تيتوس أولا ثم دوميتيانوس ثانيا ، فأشرك تيتوس معه فى القنصلية سبع مرات ، كما شاركه فى وظيفة الرقيب ومنحه السلطة التريبونية والامبريوم البروقنصلى عام ٧١ م . كما عينه قائدا للحرس الامبراطورى اما دوميتيانوس فقد أشركه فى القنصلية ست مرات ومنحه لقب رائد الشباب .

٧ — فسباسيانوس والسناتو :

اصبح فى مقدور فسباسيانوس بعد حصوله على منصب الرقيب العام عام ٧٣ ميلادية ان يملأ المقاعد الخالية بأعضاء جدد من الشيوخ ، وذلك لأن السناتو فقد العديد من شيوخه اثناء الحروب الأهلية ، ونتيجة للمؤامرات وغدر الأباطرة وبسبب الشيخوخة . ولقد اتى فسباسيانوس بالشيوخ الجدد من الأقاليم المختلفة للامبراطورية حتى يكون السناتو ممثلا للامبراطورية كلها وليس حكرا على روما ، كما حرص على اختيار العناصر الجديدة من رجال الفرسان لخبرتهم الطويلة فى الادارة ، وبالرغم من هذا فقد حرص فسباسيانوس على أن تكون اغلبية المجلس من الولايات الغربية ، لأن آل فلافيوس كانوا يحسون فى أعماقهم بأنهم من الايطاليين وليسوا من روما ومن ثم تعاطفوا مع الولايات اللاتينية الناطقة بهذه اللغة وفضلوها لى الولايات الشرقية .

كانت نظرة فسباسيانوس الى السناتو يسودها الاحترام . ولكن فى نفس الوقت رفض بشدة ان ينصاع لرغباته ، ومن اقواله المأثورة « ليس من اللائق استخدام الفاظ غير مهذبة عند مخاطبة السناتو ولكن رد الاهانة بالمثل أمر مشروع ومناسب » (٢) . ولهذا وقف فى وجه بريسكوس والمتعاطفين معه من الرواقيين والذين طالبوه بالاذعان للسناتو لانه بيت الخبرة والمعرفة . وكانت وجهة نظر فسباسيانوس صريحة وهى انه يعتبر السناتو مستودعا للخبرة والقدرات وليس شريكا فى حكم البلاد ، ولكى

---

(1) Dio Cassius, 65. 12. 1.

(2) Suetonius, Vespasianus, I, 5.

ڤسباسيانوس ـ المتحف الوطنى ـ روما

يوضح ذلك حرص على اعتبار حكمه يبدأ منذ اليوم الذى نادت به قواته امبراطورا وليس من تاريخ موافقة السناتو على هذا الاختيار .

٧ — شخصية ڤسباسيانوس :

كان ڤسباسيانوس رجلا صارما ، صبورا وذكيا ، مجربا وخبيرا للحياة التى تركت خطوطها غائرة على وجهه ، كما كان رجلا محبا للعمل منكبا عليه . فكان يبدأ يومه قبيل الفجر كما يروى بلينى فى احدى رسائله (١) وبذلك ضرب المثل لمساعديه وموظفيه الذين حاولوا احتذاءه ، ولكنهم وجدوا ذلك شاقا عليهم . ولقد كان مخلصا فى قراراته لأنه كان يعرف بالضبط ما تحتاجه الامبراطورية التي خدم فى غالبية ولاياتها ، بالرغم من أن الناس استقبلوا بعضها بالاحتجاج ، فواجه ذلك بالمداعبة والمرح اللذان تميز بهما . فمثلا احتج عليه ابنه تيتوس ذات مرة عندما فرض ضرائب على استخدام دورات المياه وحيث يقضى الناس حاجاتهم ، فاخرج ڤسباسيانوس من جيبه عملة برونزية وقربها من انف ولده وسأله عما اذا كانت رائحتها رائحة مراحيض ، فلما أجاب ابنه بالنفى رد قائلا « ولكنها تأتى من المراحيض(٢) e latio est » ، ولقد ظل محبا للمداعبة والفكاهة حتى وهو فى لحظة مفارقة الحياة . فعندما كان يعالج سكرات الموت قال مداعبا للواقفين من حوله « ياويلتاه اعتقد أننى سأصبح ربا ! »
«Vae, inquit, puto deus fio !»

ثم وقف وهو يقاوم الموت ليغادر سريره وبمساعدة رفقائه سار على قدميه لكى يستقبل وفدا رسميا قائلا « ان الامبراطور يجب أن يموت وهو واقف على قدميه » (٣) ؛ ثم انهار ولفظ انفاسه فى أحضان احد الحاضرين وكان ذلك فى عام ٧٩ ميلادية . وهو فى التاسعة والستين من عمره .

وأعدت له جنازة كبيرة ، وطبقا للعادات الرومانية سار وراء نعشه احد كبار الممثلين فى ثياب الامبراطور ونياشينه ، ووضع على وجهه قناعا يمثل الامبراطور ، وسار خلف الجثمان وهو يقوم بين الفينة والأخرى بالقاء حوار مختصر متقمصا شخص الامبراطور الراحل ، وفيه تتمثل فكرة الناس الطريفة عن أهم خصائله ، وهما الحرص الشديد على المال وحضور البديهة . فمثلا تساءل هذا الممثل عن تكاليف هذه الجنازة فأجيب

---

(١) Pliny, Epistu le, iii, 5.9.

(٢) Suetonius, Ibid, XIV.

ومن الطريف ان نقود واثاوة استخدام المراحيض لا تزال تسمى فى باريس باسم Vespasienes وفى روما تعرف باسم Vespasiani

(٣) Suetonius Ibid, 23-24.

بأنها عشرة ملايين سستركيس فصاح قائلا « اعطونى فقط مائة الف سستركيس والقو جثمانى فى التيبر » Centum sibi sesteria darent ac vel in Tiberim proicerent! (١) .

ولكن بعد موته أعلن الرومان تأليهه، وكان جديرا بذلك لأنه لم يكن أقل شأنا من غيره من الأباطرة بل اكفأهم منذ اغسطس، فقد اعاد النظام الى الامبراطورية وانقذ اقتصادها المنهار من الافلاس، واعاد تنظيم الجهاز الادارى والمالى على أسس واضحة وثابتة، ووضح مستقبل العرش بتوريث ابنائه، ومن ثم كان جديرا أن يسميه الناس بمؤسس الامبراطورية الثانيـة .

خلفاء فسباسيانوس :

١ ـ تيتوس (٧٩ ـ ٨٠ ميلادية) :

كان تيتوس وسيما، ساحر الشخصية لماحا محبا للخير وكريما، كما كان ساعد أبيه الأيمن، ومحل ثقته، وشريكه فى السلطات والحكم . فضلا على انه كان قائد الحرس البرايتورى الذى حمى اباه من مؤامرات الاغتيال بحماس شديد، وسحق هذه المؤامرات بقسوة متناهية، حتى شاع عنه حبه للقسوة والعنف . كما تناقلت الأخبار حبه الشهوانى العنيف لبرنيكى اليهودية شقيقة جوليوس اجريبا الثانى ملك مملكة يهوذا، فاحتج الناس على ذلك وقالوا أن كليوباترا جديدة قد برزت فى الشرق، وربما أدى التشكك فى سلوكه الى معارضة الرواقيين لأبيه عندما عينه وريثا له فى الحكم .

ولكن ما أن جلس على العرش حتى تغيرت شخصيته تماما، اذا أصبح يقدر المسئولية متفانيا فى اداء واجبه، وهجر فراش برنيكى وسار على منهاج ابيه، وفتح صدره للناس ببشاشة ولطف، وكرس حياته لرفاهية الشعب وتحسين احواله . ولما كان وسيما بشوشا مثقفا وجنديا شجاعا واداريا حازما فقد اعتبره المؤرخون نموذجا لما يجب ان يكون عليه الحاكم، بل لقبوه « بقرة عين البشر » amor ac deliciae generis humani . (٢) .
وقد ضرب به المثل فى الكرم وسعة اليد، وروى عنه انه جلس للعشاء ذات مساء مع اصدقائه وقبل ان يبدأ تذكر انه لم يفعل أمرا خيرا لأحد فى ذلك

(١) Suetonius, Ibid, XIX, 2.

(٢) Suetonius, Divus Titus, I.

اليوم ، فصاح حزينا « أيها الأصدقاء : لقد خسرت يوما ! »
« Amici, diem perdidi ! » (١) .

ولكن كرمه لم يكن بأى حال من الأحوال عبثا أو تبذيرا لأنه سار على منهاج ابيه فى انفاق الأموال العامة وحرصه عليها ، كما اهتم بالمشروعات العمرانية والمرافق العامة ، فرمم العديد من جسور المياه ، واعتنى بشبكات الطرق عبر الامبراطورية كلها . وفى روما أكمل بناء الكولوسيوم وافتتحه فى احتفال استمر مائة يوم؛ كماانشأ فيهاحمامات شهيرة عرفت باسم «حمامات تيتوس» ، وفضلا عن ذلك قضى على نظام المرشدين والمخبرين السريين الذين تفشى خطرهم ، واستفحل ضد أمن المواطنين ، ورفض حتى محاكمة المتآمرين ضده فى سماحة منقطعة النظير ، بل امتدت سماحته الى احترام الديانات المختلفة لشعوب الامبراطورية ، ويذكر له أن حضر وهو لا يزال وليا للعهد حفل اختيار عجل أبيس فى منف بزيه الرسمى ، ولم يعبأ بالنقد الشديد الذى وجه اليه من جراء هذا التسامح مع رعايا الأمبراطورية .

ولقد كان حكمه بالرغم من قصره (اذ لم يتعد عامين وبضعة أشهر) اسعد ايام حكم هذه الأسرة ، بالرغم من أن الامبراطوزية تعرضت لكارثتين عنيفتين الأولى فى شهر اغسطس عام ٧٩ ميلادية عندما ثار بركان فيزوف والقى بحممه فدفن ثلاثة مدن تماما هى بومبى Pompeii وهركولانيوم Herculaneum وستابيى Stabii ، (٢) كلها بالقرب من خليج نابلس . ولم يدر أحد ان هذه الكارثة القديمة قدر لها أن تكون ذات فائدةكبيرة لعالمنا المعاصر اذ حفظت لنا حمم البركان وترابه هذه المدن خاصة بومبيى حيث كشفت الحفائر عن مدينة رومانية كاملة بمنازلها وشوارعها ومرافقها تكاد تنطق بالحياة . أما الكارثة الثانية فقد حدثت عام ٨٠ ميلادية عندما اندلع حريق كبير فى روما راحت نيرانه تلتهم المبانى والمنازل ثلاثة أيام متوالية ، وقد أتت هذه النيران على معبد جوبتر الكابيتولى الذى بناه ڤسباسيانوس ، ولم يتوانى تيتوس فى تقديم العون ومواساة الضحايا واصلاح ما دمر،ولكن يد المنية امتدت اليه فى سبتمبر عام ٨١ ميلادية وهو فى الثانية والأربعين من

---

(١) Suetonius ; Ibidem, 8, 15.

(٢) وصف بلينى الأصغر هذه الكارثة وصف شاهد عيان فى احدى رسائله (Epistuale VI, 16)

ومن الجدير بالذكر أن عمه — بلينى الأكبر — سقط شهيدا وهو يحاول انقاذ السكان بصفته قائدا لقاعدة الأسطول فى ميسينوم . وقد كشفت الحفائر عن هياكل ما يقرب من ألفين من السكان فى بومبى ويعتقد العلماء أن سبب الوفاء هو الاختناق من الغازات التى اطلقها البركان تماما مثلما حدث فى كارثة بليه عام ١٩٠٢ .

عمره على اثر حمى اصابته وبكاه السناتو والشعب الرومانى وأعلنوا رفعه الى مصاف الالهة .

٢ ــ دوميتيانوس Domitianus (٨١ ــ ٩٦ ميلادية) :

وما ان قضى اخوة نحبه حتى هرول دوميتيانوس الى ثكنات الحرس الامبراطورى وحصل من الجنود على موافقتهم فى ترشيح نفسه امبراطورا حتى قبل أن يبدى السناتو رأيه فى ذلك . وربما كان هدفه فى ذلك وضع السناتو امام الأمر الواقع ، وقطع خط الرجعة على المعترضين على فكرة الخلافة بالتوريث ، ربما أراد تقليد ابيه ڤسباسيانوس عندما اعتبر انتخاب قوات الشرق له هو التاريخ الرسمى لتوليه الامبراطورية . وبالفعل لم يجد السناتو بدا من الموافقة على هذا الترشيح والانعام على دوميتيانوس بالسلطات اللازمة والألقاب التقليدية وذلك فى الرابع عشر من شهر سبتمبر عام ٨١ ميلادية .

كان دوميتيانوس محبا للسلطة والنفوذ ، متعطشا للقوة والجبروت ، وكان أبوه وأخوه قد أدركا ذلك من قبل ، فحاولا الحد من نهمه بتحديد سلطاته وابعاده عن المناصب العسكرية بالذات ، وذلك لما اظهره منذ الوهلة الأولى لتأسيس ابيه لحكم الأسرة . فقبل ان يصل ابوه من الشرق لتولى عرش الامبراطورية رسميا كان دوميتيانوس يمثل الاسرة فى روما ، وأساء استخدام سلطته باندفاع الشباب وطموحه المجنون ، ومنذ هذا الوقت حاول ڤسباسيانوس ومن بعده تيتوس كبح جماحه بقدر الامكان . وبالرغم من انه أعد للخلافة الا انه منح سلطات مدنيـــة فقط لا تتعدى القنصلية . وخلال فترة العزل حول دوميتيانوس طاقته المنيفة الى ميدان الدراسة فانكب على دراسة أعمال وسيرة تيبريوس الذى كان يقارن حاله بحاله ، كما شغل نفسه بقرض الشعر والقراءة خاصة فى مجال الحضارة الاغريقية ، وانكب على الارتشاف من ينابيعها حتى خرج وهو يرى الحياة الرومانية من خلال منظار اغريقى (١) .

الاتجاه الأوتوقراطى فى حكمه :

ولم يخفى دوميتيانوس منذ الوهلة الاولى نواياه فى التحكم والتسلط الأوتوقراطى . فحرص على ان يتولى منصب القنصل فى كل مرة ، بل غير لقب منصب الرقيب الى الرقيب الأبدى Censor perpetuus منذ عام ٨٥ ميلادية ، كذلك حرص على أن ينادى عرفيا بلقب « المولى والرب »

(١) cf. R. Syme, Tacitus, p. 509-510.

dominus et deus خاصة من جانب موظفيه وكتاب عصره ، فكان رجاله يقولون « ان مولانا وربنا يأمر بأن ينفذ هذا الشيء ... » dominus et deus noster hoc fieri iubet (١) ، وجعل القسم بعبقرية الامبراطور شرطا فى كل عقد او وثيقة . كما انه قلد خلفاء اغسطس فى تأسيس كهنة لعبادة ابيه واخيه على غرار الهيئة الأوغسطية اذ اسس الهيئة الفلافية (٢) .

وبالرغم من انه نظر الى السناتو نظرة الوقار والاحترام الا انه لم يترك له الفرصة فى التلاعب او الخروج عن الحجم الذى اراده له مستغلا فى ذلك سلطته كرقيب ابدى عليه من سلطته ان يسقط العضوية ويمنحها لمن يريد خاصة لأتباعه من رجال الفرسان الذين عينهم فى المناصب العليا . وكقضاة فى محاكمات رجال السناتو ، مما اثار غضبهم عليه .

وتوكيدا لفكرته بأن السناتو يجب أن يكون سلطة تنفيذية تابعة للسلطة العليا (٣) حرص على ان يظهر فى اجتماعاته متوشحا بنياشين القائد المنتصر triumphator لكى يذكر الأعضاء بسلطاته العسكرية التى تسمو على حقوقهم المدنية المحدودة ، ولذا لم يكن بغريب أن يصدر السناتو لعنته عليه بعد موته damnatio memoriae ويأمر بمحو اسمه وتدمير تماثيله القامة ، وكتب عنه تاكيتوس باسلوب يقطر حقدا وكرها وكذلك بلينيوس الأصغر .

سياسته واصلاحاته :

حقيقة ان نظرة دميتيانوس الى الحكم كانت أوتوقراطية الا انها كانت تتسم بالقدرة والكفاءة . ولقد شرع منذ أيامه الأولى فى تنفيذ برنامج عملاق للبناء والتعمير ، حتى أن معاصريه وصفوه بأنه كان مجنونا بالتشييد والبناء والتعمير (٤) ، فأكمل ما لم يكمله أبوه واخوه ، وزاد على ذلك بانشاء العديد من ملاعب الرياضة والحمامات داخل العاصمة ، كما انشأ فيها المعابد الجميلة ، كما اكمل الكولوسيوم وحمامات أخيه تيتوس وكذلك

---

(١) Suetonius, Domitianus, 13.

(٢) كان دوميتيانوس يهوى اصطياد الذباب بوخزه بدبوس رفيع ومن الطرائف التى رواها سويتونيوس عنه أن أحد زواره سأل حاجبه ذات مرة عما اذا كان الامبراطور بمفرده فى حجرته فرد عليه هذا الياور مبتسما « لا يوجد معه أحد حتى ولا ذبابه » .
«ne muscam quidem», Suetonius, ibid, 3.

(٣) cf. Syme, op. cit., p. 224.

(٤) Suetonius, ibid. 5.

قوس النصر الضخم الذى كان اخوه الراحل قد شرع فى بنائه ، ورمم البانثيوم وحمامات اجريبا ، ومعبد ايزيس وسيرابيس الذى زينه بالمسلات المصرية، الى جانب ذلك اعاد فتح المكتبات العامة ودعمها بالكتب والوثائق ، كما اهتم باصلاح شئون الغلال ومخازن التموين . كما احكم الرقابة على ادارة مرفق المياه ، وعين لذلك مشرفين Curatores يتولون الرقابة على جسور المياه لفترات طويلة ، ولم يكن اهتمامه ببناء شبكات الطرق وتحصينها اقل من اهتمامه بالبناء والتعمير خاصة طرق السفر الرئيسية فى ولايات الامبراطورية الشرقية .

ومن الواضح ان هدف دوميتيانوس من وراء ذلك كان سياسيا أكثر منه اصلاحيا لأنه عشق الدعاية وحب الظهور ، وحسب الف حساب للحفاظ على تأييد الجماهير لحكمه . فمثلا كان يحرص على نقش اسمه فوق جدران المبانى والمنشآت التى رممها أو اقامها ، خاصة تلك التى اقيمت فوق الخرائب التى احدثها حريق عام ٨٠ الشهير ، كما اقام المهرجانات الرياضية فوق الكابيتول تكريما لجوبتر وجعلها على غرار المهرجانات الاغريقية فى أولمبيا ودلفى وغيرها من المدن مما أثار احتجاج المحافظين على نقاء الحضارة الرومانية من التلوث الاغريقى والشرقى . ولكى يكسب الجماهير اغدق عليها ثلاث مرات بالمنح والهبات Congiaria ، فضلا عن توفير الطعام ووسائل الترفيه .

والى جانب حرصه على تأييد الجماهير حرص على ارضاء الجيش وقادته ، فاهتم بتنظيم وسائل الامداد العسكرى حيث انشأ قيادة لشئون الجنود المغتربين Castra peregrinorum لتتولى الاشراف على تجهيز القوات المسافرة عن طريق موظفى الامدادات حتى ولو كانت هذه القوات تنتقل داخل العاصمة ذاتها . وقد طور اهتمامه لوكلاء الامبراطورية (Frumentarii) بالذات فحولهم الى عملاء سريين يكلفون بمهمات سرية لصالح الدولة ، ومن أجل ارضاء الجنود رفع راتب الجندى الى نسبة الربع تقريبا . وحرص على زيارة ثكنات الجيش بين الفينة والفينة ، بل وقاد الجيش بنفسه فى بعض عمليات الحدود ، ولهذا كسب شعبية كبيرة بين القوات الرومانية (١) .

كما ورث دوميتيانوس عن ابيه واخيه المهارة الادارية والمالية ، ولكنه كان أكثر تحررا فى سياسته ، فبسط يده قليلا اذ اسقط المتأخرات من الضرائب على الناس ، والتى زاد استحقاقها عن خمس سنوات ، ولكنه اصر على جمع الضرائب أولا بأول ، وقد وجه اليه اتهامات فيما بعد بأنه

(١) cf. R. Syme, op. cit., p. 13

الصق التهم ببعض الشيوخ ليقضي عليهم وليؤمم اموالهم ، ولكن هذا افتراء بحت لأن دافع التخلص من هؤلاء الشيوخ كان سياسيا فى المقام الأول (١) . خاصة اذا ما كانوا من انصار الرواقيين الذين وقفوا من الامبراطور موقف العداء السافر وتآمروا لقتله .

كما حاول اصلاح الاقتصاد الرومانى بالعناية بالزراعة التى كان يهواها ، ولما لاحظ طغيان المساحة المزروعة بالكروم على تلك المزروعة بالقمح اصدر قرارات تحدد نسبة الأرض المزروعة بالمحصول الأول وتشجيع المحصول الثانى ، ولكن هدفه لم يتحقق بسبب شدة منافسة قمح الولايات خاصة مصر وسوريا للقمح الرومانى .

اما فيما يختص بتشريعاته وقوانينه فقد كانت فى جوهرها رومانية متزمته وصارمة ، اذ اقام نفسه حاميا للفضيلة ومكافحا ضد الرذيلة . فأوقف بعض العروض التهريجية والتمثيليات الصامته نظرا لهبوط مستواها الاخلاقى ، كما وضع القوانين التى حالت بين العبيد وبين العتق حتى لا يلوثوا المجتمع الحر بانضمامهم اليه بعد الحصول على حقوق المواطنة .

ومن قوانينه الاخلاقية المتطرفة احياؤه لقانون قديم ينص على دفن أى راهبة من راهبات الربة العذراء فستا حية اذا ما فرطت فى عذريتها .

وقد افزعت هذه القسوة المتطرفة فى تطبيق المبادىء الاخلاقية الناس خاصة انه لم يضرب لهم المثل الأعلى فى سلوكه الشخصى لانه اتخذ من احدى بنات اخيه تيتوس وهى دوميتيا لونجينا Domitia longina عشيقة له بعد أن قتل زوجها .

وبالرغم من اعتماد الامبراطور على نظام المخبرين السريين ، الا انه انزل العقاب الصارم بالكثير منهم ممن الصقوا تهما بالابرياء من الناس ، وكان يقول دائما أن الامبراطور الذى لا يعاقب المخبرين هو الذى يثيرهم princeps qui delatores non castigat, irritat (٢) ، وكذلك بالكتاب والشعراء ممن لجأوا الى الاسفاف فى القول وشهروا بالشرفاء من الناس ،

(١) كرس تاكيتوس الثلاثة كتب الاخيرة من مؤلفه التواريخ Hisoriae لاعطائنا صورة قاتمة عن حكم دوميتيانوس وهذا الاتجاه يتفق والصورة العامة التى عالج بها تاكيتوس عهد تيبريوس بل وعهد اغسطس نفسه ، ولهذا يشك بعض المؤرخين فى تحيز تاكيتوس فيما يختص بدومتيانوس بالذات خاصة لانه اتهم الامبراطور بعزل ثم دس السم لصهره القائد — اجريكولا ولهذا بالغ فى التشنيع عليه . cf. Syme, p. 244.

(٢) Suetonius, 9.

وتحت رقابته الصارمة قضى على الرشوة وطهر القضاء من خطرها ومن التحيز والمحاباة .

اما فيما يختص بنظرته الاصلاحية في الولايات فقد سار قدما الى الامام بسياسة والده فى الادماج الثقافى والحضارى الرومانى لهذه الولايات ، ومن أجل هذا اختار بحذر موظفى الولايات من العناصر النشطة والقادرة ، ونتيجة لذلك عم الرخاء والهدوء ورفرفت راية العدل والسلام .

سياسته الدفاعية والعسكرية :

لم يحاول دوميتيانوس الخروج على التقليد الاوغسطى الذى يعارض التوسع ، ولكنه فى نفس الوقت ادرك أن الانتصارات العسكرية هى تدعيم لسلطته ولحكمه الاوتوقراطى ، فلجأ الى بعض العمليات العسكرية على حدود الامبراطورية لهذا الغرض . وضد بعض القبائل والشعوب الثائرة على الحكم الرومانى . فمثلا عندما ثارت قبائل الناسامونيين nassamones الليبية والتى كانت تسكن شرق طرابلس بسبب اجحاف جباة الضرائب من الرومان ، سير جيشا اليها وابادها عن آخرها فى أواخر عام ٨٥ وأوائل عام ٨٦ ميلادية . كما قام الجيش الرومانى بتأديب القبائل الموريتانية البدوية لمعارضتها سياسة التوسع الزراعى على حساب المراعى . وفى عهده ايضا قام الوالى الرومانى لبريطانيا وهو يوليوس اجريكولا — Julius Agricola — صهر المؤرخ تاكيتوس — أثناء ولايته ما بين ٧٧ — ٨٤م بسلسلة من الفتوحات لشمال الجزيرة وفى اسكتلندا (١) ودار بسفنه حول بريطانيا ليؤكد ما ادعاه بحار اغريقى منذ عدة قرون سابقة بأن بريطانيا ماهى الا جزيرة كبيرة . وحاول أجريكولا فتح جزيرة ايرلندا ولكنه استدعى قبل أن ينفذ هذا المشروع العسكرى ، ثم عزل من منصبه .

---

(١) حاول تاكيتوس تشويه صورة دوميتيانوس باظهار صهره اجريكولا فى صورة القائد العظيم الذى وقع ضحية وفريسة لطغيان الامبراطور . فألف مقالا من اجريكولا أظهره فيه كقائد عظيم يعزل بعد تهديد سرى من الامبراطور ولا يمنح معاشا Salarium يقضى وقته فى هدوء وانعزال ، ثم يتهم تاكيتوس دوميتيانوس بأنه دبر وضع السم لاجريكولا . وقد كان موضوع اجريكولا مثارا للجدل بين المؤرخين حول دقة وصدق تاكيتوس المطلقة فهو هنا يتحيز لصهره ، ولكى يحوله الى صورة بطل قومى لا يقل شجاعة فى معارضة الامبراطور من زعماء الرواقيين لوى الحقائق واستغل الشائعات التى تتفق وهدفه . ولكن الحقيقة هو أن دوميتيانوس وأجريكولا ربطتها صداقة حميمة وقوية وان اعتزال اجريكولا راجع الى [illegible] من الحروب وبعد سنين طويلة من القتال . انظر :

T.A. Dorey, «Agricola and Domitian» Creece and Rome, (Second) series 7. 1960), pp. 66-71.

وعن الدفاع عن تاكيتوس فى هذه النقطة انظر :

Kurt von Fritz «Tacitus Agricola, Domitian and the problem of the pricipate», Classical philology 52 (1957), pp. [illegible]

أما بخصوص حدود الراين والدانوب فقد أولاها عناية فائقة اذ سار دوميتياتوس بنفسه على رأس جيش كبير عام ٨٣ (١) ميلادية وعبر الراين حيث أدب قبائل الكاتيين الذين كانوا يثيرون الشغب فى المنطقة كلها ثم احتل الجيش المنطقة الواقعة بين نهرى اللاهن Lahn والماين Main ودعم احتلاله بالقلاع ونقط الدفاع والمراقبة . ولما عادت قبائل الكاتيين للتمرد وطرد الرومان من هذه المنطقة مستغلين حركة التمرد التى قادها أحد ضباط بعض الفرق عاد فطرد هذه القبائل عام ٨٩ ميلادية بعد القضاء على حركة التمرد . وقد علمت حركة التمرد العسكرى دوميتيانوس بالا يسمح لاكثر من فرقة عسكرية واحدة بالتواجد داخل ولاية واحدة كما انه قام بفصل الادارة المالية لولايتى المانيا من تبعيتها لادارة ولاية بلاد الغال البلجيكية Gallia Belgica كما دعم الخط الدفاعى بين الراين والدانوب بمجموعة من القلاع والتحصينات ونقاط المراقبة المتقدمة ليضمن خط امداد سريع وقصير بين القوات المعسكرة على ضفاف هذين النهرين . وقد احتفى بأنتصاره (٢) هذا على الجرمان بأن سك عملة تحمل عبارة « لقد سقطت المانيا Germania Capta !

وخلال عهده ايضا واجهت روما عدة مصاعب عن جانب القبائل والشعوب الجرمانية التى تسكن وادى الدانوب خاصة فى اقليم بوهيميا .

وكان أخطر القبائل الثائرة قبائل الداكيين Dacians التى كانت تسكن شرق أوروبا فى المنطقة المعروفة الآن باسم رومانيا والمجر . فقد اندفعت هذه القبائل عام ٨٥ ميلادية بقيادة ملكها ديكابالوس Decabalus بعد أن وحدت صفوفها وعبرت نهر الدانوب الى موسيا Moesia حيث سحقت القوة الرومانية وقتلت حاكم الاقليم الرومانى وسارع دوميتيانوس على رأس جيش كبير حيث طرد القبائل الغازية (٣) .

ولما حاول قائد الحرس البرايتورى كورنيليوس فوسكوس Cornelius Foscus غزو داكيا واجه هزيمة قاسية هلك فيها ومعظم من

(١) B.W. Jones, «The Datisg of Domitian's War against the Chatti», Historia, Band X II (1973), Hefl 1. pp. 79-90.

(٢) وربما اراد بذلك أن يقلد اغسطس بعد فتحه مصر عندما سك عملة تحمل شعارا « لقد سقطت مصر » . Aegypto Capta

(٣) Mattingly, op. cit., vol II, pl. LXII, no. 3.
cf. Syme, op. cit., 214, p. 338.

معه . ولما حاول الجنرال الرومانى تاتيوس جوليانوس الانتقام للقوات الرومانية عام ٨٨ ونجح فى تحقيق بعض الانتصارات السريعة ثارت القبائل الجرمانية فى منطقة بوهيميا وسارع دوميتيانوس مرة اخرى لتأديب الثوار ولكنه رد على اعقابه خاسرا عندئذ لجأ الى سلاح الدبلوماسية فسعى لعقد صلح مع ملك داكيا - إعترف بمقتضاه بسيادة روما على هذه المنطقة واعاد اسرى الحرب من الرومان مقابل دعم مالى من روما لبلاده ودعم فنى من مهندسيها وبذلك اعلن دوميتيانوس عام ٨٩م انباء انتصاره على الداكيين والكاتيين مرة واحدة ثم وجه همه لتأديب ما تبقى من القبائل الثائرة التى ظلت تقاوم حتى تم اخضاعها عام ٩٣ ميلادية . وبذلك خفف من حدة التوتر فى ولاية الدانوب العليا والوسطى بالرغم من ان هذا الهدوء لم يستمر طويلا .

المعارضة والمقاومة لحكمه :

كما راينا كانت قيادة دوميتيانوس وادارته للدولة حكيمة وناجحة حتى أن عدد المعارضين لها كان قليلا . ولكن كانت هناك عوامل دعت الى وجود نوع من القلق وعدم الرضا عن حكم الاسرة الفلافية وحاولت اسقاطه وكان مصدر هذا القلق هو تسلط الامبراطور فى الادارة وفرضه لسياسته فرضا رغم انف المعارضين . ولما طلب الامبراطور من موظفيه واتباعه أن ينادوه « بالمولى والرب » احتج الناس ممتعضين لانهم ظنوا أن كاليجولا جديد قد ظهر . ولما تشددت قبضة الامبراطور على الدولة قام انصار المدارس الفلسفية (١) والمنجمون (٢) بالوقوف فى وجه التسلط والطغيان ، وازاء هذا أصدر الامبراطور قرارا بطردهم من البلاد . كما أن تبنيه لعدة قوانين أخلاقية متزمته بقصد تطهير سلوك الناس واحيائه لعقوبة الدفن حيا « لراهبات الربا فستا » اثارت احتجاج الناس وقللت من شعبيته فى عصر تحرر فيه الرومان نتيجة لظهور المدارس الفلسفية من قيود التقاليد وسنن الآباء خاصة أن سلوك الامبراطور الشائن مع ابنة أخيه جعلهم يقولون ان فاقد الشيء لا يعطيه . واخيرا فان انغماس الامبراطور فى الاغريقيات ومحاولته ادخالها فى شكل الالعاب الاولمبية والمساجلات الشعرية والادبية وبناء الديار الجميلة الرقيقة لاقامة الرياضيين ترك انطباعا سيئا عند الرومان الذين عافوا هذه الاغريقيات واعتبروها مبوعة وعناصر هدامة لشعب تربى على الدم والقتال والرجولة والاقدام (٣) ومن ثم انطلق

---

(١) cf, R.(MacMullen, op. cit., pp. 78-80.

(٢) cf. op. cit., p. 113-132.

(٣) cf. R. Syme, op. cit., p. 509-510.

صوت انصار حماية التقاليد الرومانية معترضا . ولكن المعارضة الفعلية جاءت من السناتو الذى اقلقه التسلط والغرور والذى رفض ان يكون تابعا للامبراطور وقاد هذا الشعور انصار المدرسة الرواقيةالتى سبقت ان قدمت شهداء عديدين .

وقد تبلور الغضب والرفض فى حركة تمرد عسكرية عام ٨٩ ميلادية فى ثكنات القوات الرومانيــة فى المـانيا العليـا والتى تزعمهـا انطونيوس ساتورنينوس Antonius Saturninus الحاكم الرومانى لولاية المانيا العليا (١) . وقد حرض ساتورنينوس جنود الفرقتين اللتين يقودهما على اعلانه امبراطورا وذلك فى ثكناتها فى مدينة ماينز الالمانية وذلك فى شتاء عام ٨٨ ، ٨٩م . وبنى ساتورنينوس احـلامه على تأييد بعض قادة الجيــوش الرومانية وعلى مساعدة قبائل الكاتيين الالمانية . وقد استجابت هــذه القبائل لولا أن اعاقت الثلوج طريقها ، ولسوء الحظ لم يجد ساتورنينوس من يساعده بل على العكس وجد حاكم المانيا السفلى الموالى للامبراطور يهب لسحق حركة التمرد وبالفعل سحقت الثورة سحقا وسقط ساتورنينوس صريعا قبل ان يصل الامبراطور على رأس قواته وقد نمى الى علم الامبراطور ان وثائق قد عثر عليها مع ساتورنينوس معظمها خطابات تأييد من اشخاص عديدين تمنوا له النصر وحثوه على المضى قدما فى ثورته وبالرغم من أن هذه الوثائق قد دمرت قبل أن تقع فى يد الامبراطور الا انها تركت فى نفسه مرارة وتعطشا لتمشيط العاصمة من أعدائه الذين يتربصون به .

ومنذ ذلك الوقت سيطر الرعب والقلق على الامبراطور ، وراح يتخيل المؤامرات التى تحاك ضده . وبدأ بذلك عهد ارهاب جديد ، وراح بلا رحمة يسفك دماء الاعضاء البارزين من رجالات السناتو والادارة ، ووجد المخبرون السريون اذانا صاغية من الامبراطور فراحوا يكيدون للناس انتقاما منهم وحقدا عليهم وابتزازا لأموالهم وطمعا فى ذهب الامبراطور ، وقد ادى هــذا الرعب الى كراهية الناس له ولاعماله حتى ان المؤرخ تاكيتوس اخذ موقفا معاديا ومتحيزا منه ومن الامبراطورية الثانية التى اسسها أبوه ، ودفع الرعب دوميتيانوس الى ان يعيش داخل حجرته فى قصره لا يخرج منها الا نادرا ، وقد قيل انه كسا جدرانها بغطاء لامع حتى يستطيع أن يرى من يقف وراءه لكى لا يطعن من الخلف ، بل انه حرص على ان يضع خنجرا تحت وسادته ليلا . وبلغ به الرعب لدرجة انه لم يعد يضمن انه سيعيش غده ويروى سويتونيوس كيف انه وضع بضع تفاحات على المائدة (٢) وراح فى

(١) Ibid, pp. 32, 75, 213.

(٢) Suetonius, Domtianus, 16.

كل مرة يقسم « لو قدر لى أن احيـا لآكل هـذه التفـاحات ! » :
Si modo licuerit

وزادت الاحوال سوءا . اذ بدا المواطن يفقد ضمان السلام ولا يعرف ماذا يحدث له . وهو يرى المحاكمات والاعدام يحدث كل يوم لمشاهير السياسيين بتهمة الخيانة العظمى ولآخرين بتهمة الالحاد بالديانة الرومانية وكان معظم هؤلاء من المعتنقين للديانة اليهودية والمسيحية .

وكان آخر الذين اعدموا ابن عم الامبراطور واسمه فلافيوس كلمنس Flavius Clemens وكان فتى كسـولا مشـاكسـا » كذلك نفى الامبراطور زوجة هذا الأخير وكان اسمها دوميتللا Domitilla (١) وهى فى نفس الوقت احدى بنات شقيق الامبراطور . واغلب الظن أن دوميتللا كانت تمارس الشعائر المسيحية ان لم تكن قد اعتنقتهـا لانهـا تبنت قضـيـة المسيحيين الرومان ولهذا قرر الامبراطور نفيها من المدينة .

اغتيال دوميتيانوس :

وازاء هذه المحاكمات الهزلية والتى تلصق التهم بالابرياء قرر بعض الذين كانوا يخشون وقوعهم فى حلبة الغدر أن تكون لهم المبادأة ويغدرون بالامبراطور قبل أن يغدر هو بهم . وقد نجح المتآمرون فى التـأثير على زوجة الامبراطور دوميتيللا التى كان الامبراطور قد طلقهـا متهما اياها بارتكاب جريمـة الزنا مع المغنى والراقص الأول فى ذلك الوقت واسـمه باريس ، ولم تنس الامبراطوره هذه الاهانة رغم انه ردها اليه مرة اخرى ؛ واختارها المتآمرون لتكون على رأسهم بعد أن انضـم اليهم قائدان من قوات الحرس الامبراطورى احدهما يدعى ستيفانوس والآخر بارتينوس بالاضافة الى العديد من موظفى القصر ورجال الحكومة . وقبل ان يخرج المتآمرون خناجرهم (٢) من تحت أروابهم بحثوا طويلا مسألة الامبراطور الجديد ووقع اختيارهم على محام عجوز من أبرز رجال القانون والسناتو على السواء وحصلوا على موافقته بقبول منصب الامبراطور اذا ما نجحت

---

(١) cf. R. Syme, p. 216 — Suetonius, Dom, XV, I, Dia, LXVii, 14.

(٢) يروى ديو كاسيوس ان ابوللونيوس التيانى Apollonius of Tayana كان فى مدينة ايفيسوس فى آسيا الصغرى وفى لحظة مصرع دوم[illegible]انوس فى روما دعى الناس اليه ثم صاح « أحسنت يا[illegible]ستفانوس أحسنت يا ستيفانوس !! اطعن الخبيث . لقد جرحته . لقد جرحته .. لقد قتلته !! » ولا يفهم أحد ما يقول . ويؤكد المؤرخون صدق الرواية . وان صحت فانها قد تكون من قبيل توارد الخواطر Tetepathy مثلما [illegible] عمر بن الخطاب وسارية (يا ساريه [illegible] .. الجبل) cf. Dio, LXVII, 18.

المؤامرة . وكان هذا الرجل هو ماركوس كوكايوس نيرفا الشهير بالامبراطور نيرفا Marcus Cocceius Nerva ، وفى ليلة من ليالى شهر سبتمبر عام ٩٦ ميلادية سقط الامبراطور تحت ضربات خناجر المتآمرين فتنفس الناس الصعداء ولم يذرف السناتو عليه دمعة واحدة ، بل على العكس انزل عليه اللعنات واصدر السناتو قرارا بمحو اسمه من على المنشآت وهو ما يعرف بلعنة الذكرى damnatio memoriae وتركت جثته ملقاة حتى دفنت فى مقابر المعدمين لولا مربيته التى أعادت دفنها سرا فى مقابر اسرته وهكذا سقطت الاسرة الفلافية .

تقييم للأسرة الفلافية وعهدها :

بالرغم من اختلاف وتباين شخصيات اباطرة الاسرة الفلافية الثلاث الا أن هناك قاسما مشتركا أعظم يجمع بينهم وهو حب العمل والكفاءة المتناهية فى الادارة . ولهذا لم تتأثر المشروعات العمرانية او الاصلاحية بموت أيا منهم لأن التالى له كان يكملها ويزيد عليها ، فمثلا ورث دوميتيانوس سياسة ابيه فى دعم مركز الحكومة فى الداخل ودعم قوة الامبراطورية فى الخارج الا انه كان ينقصه مرح أبيه ونطانته وقدرته واحتمال تيتوس فى العمل . ومهما قيل عن اباطرة هذه الاسرة فسيذكرها التاريخ بما حققته فى مجال التنظيم والادارة فهم اول من وضع للعمل الادارى فى الامبراطورية قواعدا ونظما وحدودا ومنهجا كان لها اثر دائم على الأمبراطورية فى كل العصـــور .

ففى مجال الدفاع والسياسة الخارجية لم يكن الفلافيون توسعيين ولم يسمحوا لجنون العظمة الوطنية لتقودهم فى متاهات التوسع ، بل عرفوا مقدرة وحدود قوة الامبراطورية ، وآمنوا بنظرية الامبراطور اغسطس فى تفادى التوسع ، ولكنهم رغم هذا ادركوا أن الجيش الخامل خطر على الدولة ومصدر لأعمال الشغب والتمرد ، ومن ثم فكروا فى امتصاص طاقة الجيش وجعله منهمكا . فاستخدموا الجيش فى تنفيذ مشروعات المرافق العامة والمشروعات المدنية وفى تأمين حدود الامبراطورية عن طريق حروب صغيرة مانعة لهجوم الأعداء سواء فى افريقيا أو بريطانيا أو المـانيا وعلى طول وادى نهر الدانوب ، كما حرصوا على ان يكونوا دائما بين الجنود وفى ثكناتهم ، وقيادتهم فى المعارك ، كذلك حرص الاباطرة الثلاث على اختيـــار المجندين من ابناء الطبقة الوسطى فى الاقاليم ضمانا لمعدن جيد من الرجال المتزنين الخالين من مركبات النقص الاجتماعية . وضمانا للسلام وتفاديا للتمرد ، كما باعد الاباطرة بين القوات الرومانية على الحدود حتى يجعلوا حجم التمرد اذا ما حدث ــ محدودا يسهل القضاء عليه .

لقد نجح اباطرة هذه الاسرة في توضيح وتحديد حدود الإمبراطورية وحمايتها بطريقة سهلة لا تكلف الدولة كثيرا وصد القبائل البربرية المهاجمة عبر الحدود او المتبردة من داخلها . وقد اولى هؤلاء الإباطرة عناية خاصة بولايات الشرق ، وخوفا من خطر دولة بارثيا دعمت ولاية كابادوكيا لتصبح حصنا اماميا عائقا في طريق بارثيا ، كذلك اهتموا بولاية سوريا Provincia Syria لتسهيل الاتصال بين الفرق الرومانيــة الست والتى كانت موزعــة على ولايات الشرق ، ولتسهيل نقل الامدادات من الغرب في حالة الضرورة .

وفى شمال افريقيا حاول هؤلاء الاباطرة اجبار سكان موريتانيا ونوميديا الرحل على ترك حياة البداوة وشجعوهم على الاقامة الدائمة وزراعة الارض الغنية التى ادركت الامبرطورية اهميتها فى زيادة الدخل الزراعى . وفى بريطانيا قضى الرومان على مناطق الثورة فى ويلز وغيرها من المناطق ، بل وصل الجيش الرومانى لاول مرة الى اسكتلندا وحاول غزو ايرلندا لولا استدعاء الامبراطور لقائده اجريكولا ، وقد قلنا ما فيه الكفاية عن تامين الحدود الجرمانية الدانوبية وقمع ثوراتها فى عهد دوميتيانوس وتدعيمه لهذه الجبهة المشاكسة بوضع تسيعة فرق على طول وادى الدانوب وهذه اكبر مظاهرة عسكرية قامت في تاريخ الامبراطورية الرومانية منذ ايام اغسطس .

وفى مجال الاصلاح المالى والإدارى يكفى ما قلناه . لقد نجح اباطرة الاسرة في وضع قوعد ثـابتة لإختيار الموظفين الاداريين ظل معمولا بهـا حتى بعد سقوط هذه الاسرة .

وقد حرص الفلافيون علي الاستعانة بالكفاءات القادرة في الادارة والحكم من امثال الجنرال اجريكولا Agricola ، وفرونتو Fronto وفرونتينوس Frontinus ، وبلينيوس الكبير Plinius ، وتاكيتوس المؤرخ العظيم .

وكان دوميتيانوس اول من عين خبراء قانونيين Juridici للاشراف على الاجراءات القانونية المدنية في بعض الولايات الكبيرة وبهذا كان اول من فصل الادارة المدنية عن الادارة العسكرية في التنظيم والحكم .

وقد اتبع اباطرة الاسرة الفلافية تقليد اغسطس الخاص بالإعتمـاد على طبقة الفرسان لخبرتهم الطويلة في الادارة المالية وتقوية جبهتهـا فى مواجهة الطبقة النبيلة الارستقراطية ، ولما كان الفلافيون انفسهم ينتمون الي طبقة الفرسان فقد اولوها عناية خاصة ووثقوا فيها وملاءوا الوظائف

الشاغرة برجالها بدلا من العتقاء الذين قامت عليهم الادارة فى عصر الاسرة اليوليوكلاودية ، وبمقتضى سلطة الرقيب الأبدية اصبح الاباطرة قادرين على ترقية من يحبذونه من الفرسان الى طبقة رجال السناتو وقد فعلوا ذلك بالفعل واصبح لهم جبهة مناصرة من الأعضاء الجدد داخل السناتو مما زاد من حقد النبلاء عليهم .

لقد شكلت التقاليد الفلافية الخاصة كالحرص المالى والعناية بالزراعة واحترام الملكية الخاصة وحقوقها ملامح الحكم وحددت رسالة الامبراطور كخادم للشعب وامين على ممتلكاته ومسئول عن رفاهيته وسعادته . وهذه التقاليد تنبع من البيئة التى جاء منها هؤلاء الاباطرة واصبحت فى القرن التالى لسقوط اسرتهم تقاليدا اساسية بل وملزمة لأى امبراطور . اما مدى نجاح كل منهم فى ارضاء الجماهير فهذا يتضح من نظرة الناس اليهم بعد موتهم فقد الهوا بعضهم بجدارة ولعنوا بعضهم بحقد يكاد أن يكون شخصيا .

وقبل أن نسدل الستار عن هذه الاسرة وجب علينا ان نلقى نظرة سريعة على الحياة الثقافية والدينية والفنية فى عهدهم .

لقد سار الفلافيون على هدى اغسطس فى التمسك بفكرة بعث الامة العظيمة فى كافة المجالات التى تمس حياة الافراد بما فى ذلك المجال الفكرى والروحى .

ومن بين العبقريات الأدبية التى تلألأت فى عهد الأباطرة الفلافيين الشاعر الملحمى سيليوس ايتاليكوس Silius Italicus الذى اتخذ من فرجيل مثله الاعلى واحتذى بحذوه فى ملحمته القتالية التى الفها عن احداث الحرب البونيقية الثانية ؛ وفى نفس العصر تشبع فلاكوس بروح الشاعر الاغسطى أوفيديوس عندما الف ملحمته الرائعة لارجوناوتيكا Argonautica او رحلة السفينة ارجو . كما عكف ستاتيوس على البحث عن الأفكار القديمة فى مؤلفاته مثل ملحمة طيبة Thebais وملحمة آخيل Achilleis وفى ديوانه « الغابات » Silvae الذى سجل فيه اشعاره الارتجالية . ولكن للأسف تميزت معظم هذه الأعمال الأدبية بروح العصر التى كانت تحرص على التكلف والبلاغة والخطابة بدرجة تثير فى النفس الاحساس بثقلها وعبوسها وسيطرة التكلفة والصنعة عليها .

ومن الأدباء الظرفاء فى ذلك العصر كاتب الابجراما « اى الأشعار القصيرة » والزجال الناقد اللاذع مارتياليس Martialis الذى لم يترك كبيرة ولا صغيرة فى الحياة الرومانية الا وتناولها بالنقد اللاذع والتقريظ

الذكى مستخدما حسن التعبير وحيوية الوصف وسلاسة الأسلوب مما جعل منه شاعرا عظيما يرتبط اسمه بفن الابجراما الرومانية .

ومن النقاد البارزين ايضا المعلم كونتليانوس Quintilianus واضع قواعد الخطابة Institutes Oratoriae التى هى مصدرنا الاول عن نظم التربية التعليمية فى المدارس الرومانية (١) فى هذه الفترة لأن هذا المؤلف يشمل منهجا كاملا وضع لغرض تعليم فن الانشاء الخطابى . ولكن الذى لا ريب فيه هو عشق كونتليانوس الواضح للأسلوب الشيشيرونى السامى ومحاولته رفع الأسلوب العام فى الكتابة الى هذا المستوى الرفيع . وهو طموحا ما من شك فى ذلك . وجدير بالذكر أن معظم هذه العبقريات الادبية لم تكن رومانية لحما ودما فقد كان ايتاليكوس ومارتياليس وكونتليانوس من أصول أسبانية كما كان سينيكا ولوكانوس فى عصر خلفاء اغسطس . ومن ثم أولوا ظهورهم للتقليد الرومانى القديم كما بسط الاباطرة الفلافيون حمايتهم ورعايتهم على هذه العبقريات الادبية وأخذوا بيدها وانعموا عليها بالمناصب فمثلا شغل سيليوس ايتاليكوس وكونتليانوس منصب القنصل .

وبالرغم من هذا فان الثقافة والادب فى هذه الفترة لا يمكن أن يتصفا بالرقى والسمو الرفيع لأن الكثير منهما كان جامدا ومبتذلا . وان كان الارستقراطيون قد أعرضوا عنها الا ان العامة انكبت عليها وتاثرت بها وأثرت فيها . والدليل على توغل الثقافة والفنون الى أعماق الناس واضح من خلال مؤلف بترونيوس الظريف المعروف باسم ساتيريكون Satiricon . ومن حفائر الاثريين فى بومبى بعد ازاحة تراب بركان فيزوف الذى دفنتها لاحظ الاثريون اهتمام اصحاب المنازل حتى المتواضعة منها بتزيين جدرانها بالرسوم الجميلة والاهتمام بجمال قاعات الطعام وتنظيم الحدائق ناهيك عن جمال المرافق العامة . ان المرء ليحس وهو يتفحص آثار مدينة بومبى ومنازلها ومبانيها بمدى ارتفاع درجة التذوق الفنى عند الناس فى هذه الفترة والذى يعكس دراية ولو سطحية بالشعر والشعراء قديمهم وحديثهم وحب عميق لكل ما هو رقيق وجميل .

ان حب الجمال والفنون وانتشار الثقافة حتى ولو كانت سطحية بين الناس يعكس أيضا نظرتهم الى الدين فى هذه الفترة . فقد لاحظ العلماء تدهور العبادات الرسمية والشعائر التقليدية فمثلا سجل الاثريون ملاحظة هامة من مدينة بومبى هى أن المدينة تعرضت لزلزال دمر مبانيها عام ٦٢

---

(١) أنظر : فتحية حسن سليمان : التربية فى المجتمع اليونانى والرومانى القاهرة (١٩٦٠) ص ١١٨ وما بعدها .

ميلادية قبل أن يدمرها البركان عن آخرها عام ٧٩ ميلادية . كما لاحظ الأثريون ان سكان المدينة لم يكلفوا انفسهم عناء ترميم معابد الآلهة الرومانية التقليدية وتركوها خرائب وأطلال اما معبد الربة ايزيس المصرية فلم يتوانى اهل المدينة عن ترميمه وبنائه عقب الزلزال مباشرة وهذا يثبت انتصار الديانة الشرقية ودخول آلهة النيل منتصرة الى معاقل آلهة التيبر رغم التشنيع والمعايرة التى انهال الشعراء الرومان بها على آلهة النيل أثناء الحرب ضد كليوباترا ؛ حقا لقد أصبح المنتصر اسير المهزوم عندما احست جماهير الرومان فى هذا العصر بأنها متعطشة لينابيع ديانة الشرق ونهلت منها حتى امتلأت عقولها بأسرارها وقدسيتها وحتى فقدوا ذاتهم المتميزة فى بحر الفكر الشرقى العارم الذى جرف فى طريقه سدود المقاومة رغم انف المتطرفين . وعاش المواطنين حياتهم سعيدة مرفهة بعد أن القوا غارب الحكم والسياسة على عاتق الامبراطور ورجاله .

نظام حكم المواطن الأول بين النظرية والتطبيق :

بموت دوميتيانوس كان قد انقضى ماية وثلاثة وعشرين عاما على تأسيس أغسطس لنظام حكم المواطن الاول تولى الحكم فيها أسرتان ، الاسرة اليوليوكلاودية التى شملت الاباطرة الذين انحدروا من المؤسس سواء بالقربى أو بالتبنى ، والأسرة الفلافية التى أوجدها المؤسس الثانى للامبراطورية فسباسيانوس . ومن الملاحظ ان اباطرة الاسرتين تمسكوا بضرورة توريث الحكم لابنائهم أو أقاربهم لكى تظل الخلافة فى بيوت اسرهم . وقد أعلن ذلك فسباسيانوس صراحة عندما اعلن اما أن يولى أبناءه او لا أحد يتولى الحكم (١) .

ولهذا أضحى السناتو مسلوب الارادة فى اختيار الاباطرة ؛ ولم يتبق امامه سوى منح موافقته التقليدية . واضفاء القاب التكريم والسلطات المعهودة على الشخص المختار امبراطورا من قبل قوى خارجة عن ارادته ؛ لقد ثبت أن نظام توريث الحكم كان اسوا نظم الحكم . ذلك لأن البنوة أو القرابة تفرض شخصا قد يكون غير لائق نفسيا وعقليا للحكم من أمثال جايوس ونيرون ودوميتيانوس .

كذلك فان اضفاء السلطات على الامبراطور بصورة مطلقة ولمدى الحياة جعل من الصعب التخلص من الاباطرة المنحرفين واصبح الحرس البرايتورى هو المتحكم فهو الذى يبقى على الامبراطور أو يقتله . وفى هذا الجو تجسمت

---

(١) Dio Cassius L. V, 12.1.

كثرة الاغتيال والمؤامرات والانقلابات وقد ادى ذلك الى انتشار الصراع وقيام الحرب الأهلية فى كافة انحاء الامبراطورية الرومانية كما حدث فى أعوام ٦٨ و ٦٩ ميلادية .

ولم يكن للسناتو شروط سوى أن يكون الامبراطور عادلا وكفء ذا سلوك حميد ويضرب المثل الأعلى للناس . والا فان الامبراطور يتعرض للمؤامرات او الاغتيال . واذا نجا منها فان السناتو كان يحرمه من اضفاء التكريم والتأليه عليه بعد مماته كما جرت العادة . ولكن الاباطرة لم يتقيدوا بوجهات نظر السناتو على الاطلاق فى حياتهم ، لأن كلا منهم باشر عمله بنفسه فى ظل الظروف القائمة .

وعندما أنعم السناتو مثلا بالالقاب التشريفية والألاهية على كلاوديوس وفسباسيانوس وتيتوس تماما مثلما فعل مع اغسطس كان ذلك بمثابة اعلان الرضا من جانب السناتو لهؤلاء الأباطرة نظرا لالتزامهم بالقانون والعرف ، وعندما صب السناتو لعناته على نيرون ودوميتيانوس فان ذلك كان يعنى انحرافهما عن الدستور وسوء سلوكهما . وهناك عدد من الاباطرة من أمثال تيبريوس وجالبا وأوتو وڤيتلليوس امتنع السناتو عن تأليههم أو تجريدهم من التكريم مؤقتا ثم عاد وكرمهم فيما بعد .

وفى مسألة الحكم اختلفت وجهات نظر الاباطرة فهناك منهم من يعتبر الامبراطور موظفا كبيرا وليس الا مواطنا أول بين مواطنيه ومن ثم يقع اختصاصه فى حدود القانون الذى يحكم تصرفاته ومن خلال العرف الذى سار على نهجه من سبقوه . وذلك الرأى كان يراه اغسطس وتيبريوس وكلاوديوس وفسباسيانوس وتيتوس ، أما الرأى الثانى فيرى أن الامبراطور يجب أن يكون امبراطورا له مطلق التصرف ومطلق السلطات وأن السناتو والشعب الرومانى ما هم الا رعيته واتباعه والامبراطور يجب أن يكون فوق العرف والقانون كما رأى كل من جايوس ودوميتيانوس ، بل اضافوا على ذلك وجوب الاعتراف بألوهية الامبراطور فى حياته وبعد مماته مثلما فعل جايوس كاليجولا .

ومن ثم جاء تقسيم السناتو للأباطرة الى فريقين : فريق آمن بسيادة القانون والعرف ، وفريق تعدى عليه ومن ثم جر على نفسه البلاء والمؤامرات. ولكن هناك نتيجة أضحت فى حكم الحقيقة الثابتة هى أن فى كلا الحالتين نجد الامبراطور هو الحاكم وليس السناتو أو كبار الموظفين . ولم يجد بعض رجال السناتو الساخطين والحالمين بأيام الجمهورية الأرستقراطية نفعا من توجيه النقد والاتهامات الى الامبراطور سوى الانتقام من جانبه

ورد الامبراطور بالانتقام الدموى منهم . وأخيرا وجد السناتو ان حلم اسقاط حكم المواطن الأول خرافة . وانه من الخير ان يسعى الى توثيق صلاته بامبراطور عادل خيرا من أن يظل على عناده القديم وأن فكرة ارجاع الجمهورية القديمة اصبح امرا محالا بعد أن رسخت دعائم نظام حكم المواطن الأول فى الامبراطورية ، بل وبالرغم من كل عيوبه ثبت انه خير نظام لحكم الامبراطورية الشاسعة ، لأن الفوضى السياسية التى كانت قائمة خلال الفترة الأخيرة من عصر الجمهورية كانت لا تزال ماثلة فى ذهن فريق من الجمهوريين الارستقراطيين ، وقد شجع ذلك على قبول الامر الواقع وان كان مريرا على انفسهم ، مخيبا لآمالهم وأحلامهم عن الايام الخوالى ايام كان السناتو هو مركز اعصاب الدولة لا يترك رجاله المحنكين امرا الا وقلبوه نقاشا بين محبذ ومعترض قبل ان يتخذوا قرارإهم ، ونظروا بحسرة الى الايام التى كان فيها امرهم شورى بينهم . ومن ثم قبلوا الواقع المر وفضلوا أن يؤقلموا انفسهم مع النظام الجديد .

الفصل السادس

عصر الاباطرة الصالحين

المصادر التاريخية :

ان مصادرنا عن الفترة التاريخية التى تبدأ بموت دوميتيانوس عام ٩٦ميلادية وتنتهىعند الامبراطور سيفيروس الاسكندر Severus Alexander فى عام ٢٣٥ ميلادية قليلة : ولهذا قسمت هذا الفصل الى فترتين الأولى وتنتهى عند موت ماركوس اوربليوس Marcus Aurelius عام ١٨٠ م ، وهى فترة العصر الذهبى للامبراطورية الرومانية حيث وصلت الى اقصى درجات التوسع والازدهار السياسى والأجتماعى والحضارى نتيجة لسيادة السلام الرومانى فى الخارج وكفاءة الادارة فى لداخل . أما الفترة الثانية فهى التى تبدأ من ١٨٠ م وحتى حكم سيفيروس الاسكندر فى عام ٢٣٥ م . وهى فترة التدهور السياسى والفوضى الاقتصادية والحروب الأهلية بين الجيوش الرومانية مما سبب ازمات راحت تهدد الامبراطورية ذاتها . بل وكانت الارهاصات الاولى للعوامل التى ادت الى سقوط الامبراطورية الرومانية (١) فيما بعد .

وعلى أى حال ليس لدينا مصادر كافية عن هاتين الفترتين فمثلا مؤلف كاسيوس ديو Cassius Dio الذى يغطى هذه الفترة حتى عام ٢٢٢ ميلادية لم يتبق منه سوى اجزاء بسيطة من كتابيه الاخيرين . أما الباقى فليس امامنا خيار سوى الاعتماد على ما كتب فى القرن الحادى عشر الميلادى عن هذا المؤلف المفقود .

---

(١) cf. Joseph Vogt : The Decline of Rome, (English edition, London, Weidenfied and Nicolson 1967), pp. 25-28.

وهناك مؤلف آخر كتبه اغريقى اسمه هيروديانوس Herodianus (١) والذى كتب سجلا للفترة ما بين ١٨٠ و ٢٣٨ ميلادية ، الى جانب ذلك نعتمد أيضا على سلسلة من التاريخ الذاتى أو تاريخ السير لبعض الاباطرة ابتداء من هادريانوس ، جمعت ابان القرن الرابع الميلادى وعرف باسم Historia Augusta ومن المصادر الهامة لتلك الفترة خطابات بلينيوس الاصغر ومراسلاته مع الامبراطور اثناء توليه حكم ولاية بيثينيا Bithynia ما بين ١١١ — ١١٣ ميلادية .

وهناك مصادر صغيرة أخرى متفرقة خاصة تواريخ السير الذاتية ولكنها ليست بذات الاهمية الكبرى .

ونظرا لندرة المصادر الادبية فان اعتمادنا على المصادر المباشرة يصبح حيويا مثل النقوش واوراق البردى وقطع العملة وكل ما يساعد على اعطاء صورة حية وناطقة للحياة فى عصر ازدهار الامبراطورية الرومانية . وهنا تبرز اهمية الولايات الرومانية فى امداد المؤرخين بالمعلومات سواء البردية أو النقشية او الاثرية . خاصة مصر ذات التراث الغزير والمصدر الاول للوثائق البردية الذاخرة بكل المعلومات الخاصة والعامة والمشاكل التى استولت على الناس ابان عصر الامبراطورية (٢) .

أولا : عصر الازدهار : من ٩٦ ميلادية الى ١٨٠ ميلادية :

بموت دوميتيانوس سقطت الاسرة الفلافية وأدرك الرومان من الدروس السابقة ضرورة تغيير نظام تولى الاباطرة وان نظام توريث الحكم للابن الاكبر أو احق أبناء الاسرة ليس بالنظام الافضل . وقد ساعدهم على ذلك أن دوميتيانوس مات دون أن يكون له وريث . وفى هذه الاثناء تبلورت

---

(١) هيروديانوس السورى مؤرخ اغريقى عاش ما بين ١٧٠ — ٢٤٠ ميلادية فى مدينة روما حيث شغل عددا من المناصب فى البلاط والقضاء . وقد ترك لنا سجلا لتاريخ الاباطرة من ماركوس أوريليوس حتى تولى جورديانوس الثالث عام ٢٣٨ ميلادية . ويتميز تاريخه بالوضوح والحياد والبساطة والموضوعية وتسود فيه النزعة الاخلاقية وبالرغم من انه سطحى الى حد كبير الا ان معاصرته للاحداث يضفى على تاريخه أهمية خاصة .

(٢) هنا يجب ان اشير الى النتائج الباهرة التى أبرزتها حفائر كلية الاداب جامعة القاهرة فى الفيوم وبالتحديد فى مناطق كرانيس كوم أوشيم (أنظر التقرير العلمى الاول والثانى لمواسم ١٩٧٢ و ١٩٧٣) وكذلك فى منطقة باخياس أم الاثل . ويرجع الفضل الاول فى هذه الحفائر الى العلامة الاستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد على والى تلميذه ومساعده مؤلف هذا الكتاب .

فكرة جديدة ــ ربما من باب الصدفة ــ لاختيار الامبراطور وقد نجحت هذه الطريقة واتت بأفضل العناصر على الاطلاق فى تاريخ الامبراطورية وهى نظام التبنى من خارج دائرة الاسرة وهؤلاء الاباطرة الاكفاء على التوالى هم :

١ ــ نرفا (٩٦ ــ ٩٨ م) :

واسمه بالكامل ماركوس كوكيوس نرفا ، وهو الرجل العجوز الذى سبقنا الاشارة اليه بأنه قد اختير من جانب المتآمرين لتولى الحكم وكان يبلغ من العمر ست وستين سنة ، وكان ينحدر من أسرة عريقة عملت بالقانون أبا عن جد . بل انه كان يمت عن طريق المصاهرة الى الاسرة اليوليوكلاودية وقد جعلته كفاءته على علاقة طيبة بالفلافيين . ولكن لما كان نرفا لم ينجب ولدا فان احدا لم يخش عليه من فكرة تأسيس أسرة جديدة أو احياء الاسرة اليوليوكلاودية .

كانت أول محاولة للامبراطور نرفا هو التشاور مع شيوخ السناتو والتعاون معهم من أجل استعادة ثقة الشعب الرومانى فى الامبراطورية ورفع روحه المعنوية من أجل مستقبل الشعب . ولهذا بدأ فى شراء الارض وتوزيعها على المعدمين من الرومان . كما بدأ مشروعا بمقتضاه أصبحت الدولة تفرض رعايتها على أبناء فقراء الاقاليم وتمدهم بالمعونة والتعليم ذلك عن طريق التبرعات وقد اتسع هذا المشروع فيما بعد حتى أصبح من أهم أجهزة الدولة (١) .

كذلك شجع نرفا الرومان الأثرياء على توريث أقربائهم (٢) المقيمين بالريف الايطالى عن طريق الوصايا واوقف عمليات القمع ضد أنصار دوميتيانوس حتى لا يسبب ذلك رد فعل دموى .

كان نرفا رجلا أمينا جادا وقورا ولكنه كان ينقصه التأييد العسكرى وقد أدرك نرفا هذا النقص عندما هب الحرس البرايتورى فى حركة تمرد ضد قائده عام ٩٧م لان هذا الاخير اشترك فى التآمر على حياة دوميتيانوس الذى كانت الجنود تحن الى أيامه وحسن معاملته للقوات . وأجبر الثوار

---

(١) cf. A.R. Hands : Charities and Social Aid in Greece and Rome, Thames and Hudson, London 1968, p. 21.

(٢) عن سياسة نرفا الاقتصادية انظر :

R. Syme, JRS (1930), p. 55. ff ; Sutherland JRS, (1935), p. 150 ff.

الامبراطور على اعدام قائد قواتهم ولم يستطع الامبراطور ان ينقذ رفاقه الذين اجلسوه على العرش ، ولكنه اتخذ خطوة جريئة ردا على هذا الخطر المتمثل فى العسكريين ، بأن اختار خليفته من بين احد جنرالاتهم الحازمين واعلن تبنيه لهذا الجنرال وهو ماركوس اولبيوس تراجانوس Marcus Ulpius Traianus وكان حاكما على منطقة المانيا الدنيا . وتبناه ثم أنعم عليه بكافة التشريعات ومهد لاشراكه معه فى الحكم وذلك عن طريق منحه السلطات المخولة للامبراطور . وقبل أن يعود الوريث من ولايته فى المانيا حيث كان يشرف على تنظيم طرق ومعسكرات القوات الرومانية ليتسلم مهام منصبه الجديد لفظ الامبراطور العاقل نرفا انفاسه متأثرا بالمرض الذى كان مصابا به ، ودفن الامبراطور الراحل فى الضريح الامبراطورى الذى بناه الامبراطور اغسطس . بل كان آخر الاباطرة الذين نالوا هذا الشرف

لقد كان نرفا محبوبا من السناتو ومن الشعب الرومانى على السواء ، لأن سياسته كانت على النقيض تماما من سياسة الذين سبقوه . فمثلا كسب ولاء النبلاء عندما اقسم على الا يحاكم اى عضو من اعضاء السناتو او يلحق بهم الاذى الا بناء على حكم السناتو نفسه . بل انه أوقف محاكمات الخيانة العظمى تلك التهم الملفقة التى كان الاباطرة السابقون يستخدمونها لتصفية أعدائهم ، وأكثر من هذا أعاد نرفا كل المنفيين السياسيين والفلاسفة المطرودين بسبب عدائهم للحكم السابق ، كما سمح للمواطنين الذين نالهم الاذى بسبب وشايا المخبرين بأن ينتقموا لانفسهم باقامة الدعاوى القانونية ولم يتدخل الامبراطور لوقف انتقامهم الا عندما زاد عن الحد وكاد أن يهدد الأمن والسلام .

لقد تعلم نرفا من الدروس القديمة للأحداث الرومانيـة . وابدى اهتماما كبيرا بشئون ايطاليا كلها ، وجعل الاعفاء من ضريبة لارث التى كان قدرها ٥٪ اكثر شمولا عن ذى قبل لكى يضيق التناقضات بين خزانة الدولة ودافعى الضرائب من المواطنين ، ويعتبر مشروع نرفا بانشاء لجنة لمساعدة الفلاحين الايطاليين الفقراء ورعاية أبناء المحتاجين وتعليمهم من أعظم انجازاته (١) . وقد عرفت هذه بالمعونة alimenta ، ولهذا حرص خلفاؤه من الاباطرة خاصة تراجانوس على تدعيم هذا المشروع حتى اصبح

---

(١) cf. B.W. Henderson : Five Roman Emporors (London 1927), pp. 212 ff.; cf. A.R. Hand, op. cit., p. 107.

من اهم الأجهزة التنفيذية فى الامبراطورية . ان اختيار الشخص الكفء لبخلف الامبراطور كان نقطة تحول فى تاريخ الامبراطورية الرومانية لانه اصبح يأتى بالعناصر الصالحة والمتزنة . وقد سارع السناتو فمنح تراجانوس لقب قيصر اعترافا به كشريك للامبراطور نرفا وكامبراطور منتظر وولى للعهد ومنحه ايضا السلطة التربيونية والامبريوم . وكان نرفا يتوق شوقا ليرى تراجانوس يشاركه فى الحكم الا انه لم تمض ثلاثة اشهر على هذا حتى فارق نرفا الحياة فى الخامس والعشرين من يناير عام ٩٨م فى بيته فى روما . وأعلن السناتو امتنانه للامبراطور الراحل بأن أضاف اسمه الى قائمة الاباطرة المؤلهين اعترافا منه بفضله على الامبراطورية . لقد كان نرفا امبراطورا قادرا ومتعقلا ولكنه كان ضعيفا مسالما . ولكن تبنيه لخليفته مستقبلا على أساس القدرة والكفاءة حال دون اندلاع الصراع حول العرش بعد مماته . مثلما حدث فى عام الانقلابات الاربعة فى (٦٨ — ٦٩م) . وبذلك انتهى عهد الاسر الحاكمة ، وبدأ عهد الأباطرة الذين يختارون ويدربون من خارج العائلة الحاكمة ويختارون على أساس كفاءتهم ؛ ومن الطريف ان معظم هؤلاء الاباطرة لم يكونوا حتى من أصول رومانية بل كانوا من اصول اسبانية . لكنهم يمثلون اعظم واصلح الاباطرة والذين بفضلهم وصلت الامبراطورية الى قمة التوسع والتقدم .

٢ — تراجانوس (٩٨ — ١١٧م) :

بالرغم من أن تراجانوس يعتبر اعظم واكفأ الأباطرة جميعا الا أن المصادر الأدبية عن حياته وأعماله قليلة . فمؤلف ديون كاسيوس عن « حياة الاباطرة الاثنا عشر » يتوقف عند موت دوميتيانوس عام ٩٦ ميلادية وبذلك حرمنا من عمل دقيق لمس عن قرب حياة الاباطرة وعكس بدقة منقطعة النظير سيكلوجيتهم وأعمالهم . وما تبقى من الاعمال الادبية لا يعطينا الصورة الدقيقة عن حياة تراجانوس وتفكيره ونفسيته ؛ بل يدور فى فلك الأعمال التقليدية التى تتملق الاباطرة وتغرقهم فى بحور المديح والثناء .

غير انه من حسن الحظ تجىء اعمال المؤرخ العظيم تاكيتوس التى نشرها بعد تولى تراجانوس العرش بقليل اكننا للاسف لا تلمس الا التليل عن عهدى نرفا وتراجانوس عندما يعلن ان الماضى الأسود الذى عاشت فيه الامبراطورية تحت حكم دوميتيانوس قد تبدل الى الأحسن (١) ؛ وهذا

---

(١) Tacitus, Agricola 3, Historiae I.1, Annales, 4, 33.

لا يفى الباحث بالمعلومات المطلوبة لكنها برغم اختصارها شهادة صادقة من مؤرخ صادق وشاهد على عيدين .

اما فيما عدا ذلك فان المصادر الأدبية الباقية تخلو من حرارة الصدق وتلجأ الى المديح والرياء والتملق التقليدى ، ومن امثلة هـذه الأعمـال « رسائل الأديب بلينيوس الأصغر الى الامبراطور تراجانوس ، وخطبتـه الغراء التى ألقاها فى مديحه امام السناتو عام ١٠٠ ميلادية ، وكذلك مقالات الأديب الاغريقى ديو كريسوستوموس Dio Chrysostomos مواطن مدينة بروسا Prusa فى بيثينيا بآسيا الصغرى — عن الصـورة المثالية للامبراطور المتمثل فى تراجانوس كلها اعمال سطحية تقوم على تزلف الامبراطور وتملقـه ، وتعيق البحث التـاريخى ولا تسـاعده على تقصى الحقيقـة .

اما الموجز التاريخى لكتاب ديو كاسيوس السادس والثمانين المفقود والذى اعده لنا مؤرخ القرن الحادى عشر الميلادى كسيفيلينوس Xiphilinus واكمله مؤرخ القرن الثانى عشر الميلادى زوناراس Zonaras فهو صورة قاتمة ومصدر متحامل على الامبراطور وعصره ، ويكاد ان يكون على النقيض تماما من الأعمال التزلفية المتحيزة للامبراطور ، كذلك نجد مؤلفات ادبية معادية كتبها اليهود ضد عدوهم الامبراطور تراجانوس متمثلة فى المشنة Mishna (١) والتلمود وغيرها وهذه أيضا لا يمكن الاعتماد عليها لأنهـا مصـادر متحاملة وعدوانية .

هكذا نجد أن المصادر الأدبية عن حياة أعظم الاباطرة جميعا عاجزة عن تقديم الحقيقة المحايدة . لأنها اما متحيزة له بشـكل ملفت أو معـادية له بصورة قاتمة .

ومن ثم يلجأ المؤرخون الى المصادر غير الأدبيـة المتمثـلة فى النقوش وأوراق البردى والنقود وقد ساهمت مصر فى ذلك بالنصيب الأكبر ، كما يلجأ المؤرخون الى الآثار خاصة عمود تراجانوس الشهير الذى بناه الامبراطور

---

(١) المشنة : مجموعة من الفتاوى والنصائح والتفسيرات التى وضعها احبار اليهود كشروح للتلمود جمعها الحبر الاعظم يهوذا حاناسى الملقب بالأمير فى مطلع القرن الثـالث الميلادى والذى كان على علاقة طيبة مع الامبراطور كاراكالا (٢١١ — ٢١٧) ميلادية . وكان حاناسى يلعب دور الكاهن الاعظم وزعيم اليهود فى فلسطين .

فى روما والمصور بمناظر عن حياة الامبراطور وفتوحاته ، وكذلك الى قوس النصر الذى أقامه الامبراطور فى بينيفينتوم Beneventum فى ايطاليا احتفاء بانتصاراته وفتوحاته فى الشرق . وعن طريق مقارنة المصادر الادبية ومواجهة بعضها بالبعض ، ثم الاستدلال بالمصادر الاثرية المصورة او المكتوبة يمكن للمؤرخ فى النهاية أن يتلمس طريقة ليرسم صورة حقيقية محايدة عن الامبراطور تراجانوس .

الامبراطور وحياته :

كان تراجانوس اول امبراطور يجلس على عرش الامبراطورية وينحدر من اصول غير رومانية ، فقد كان من سكان ولايات الامبراطورية . وبالتحديد من مواليد مقاطعة ايتاليكا Italica التابعة لولاية بايتيكا Baetica فى جنوب اسبانيا ، وكانت هذه المقاطعة غنية بمواردها الطبيعية وهناك عاشت أسرته منذ اجيال بعيدة ؛ وكان منها أعضاء بارزين شغلوا مناصب عليا فى الامبراطورية . كما كان تراجانوس فخورا بأبيه الذى كرمه الامبراطور فسباسيانوس بضمه الى عضوية السناتو والى رجال الطبقة الأرستقراطية . كما أوكل اليه العديد من المناصب الهامة مثل القنصلية وقيادة قوات الجبهة الشرقية فى سوريا ؛ وتولى حكم ولاية وغير ذلك من المناصب القيادية التى جعلت من الابن فخورا بالأب جاعلا منه مثله الأعلى .

وقد تقلب تراجانوس فى العديد من المناصب قبل أن يختاره نرفا ويتبناه ويشركه معه فى الحكم كولى للعهد . فقد كان تاريخه العسكرى فى عهدى فسباسيانوس وابنه دوميتيانوس مشرفا للغاية خاصة فى جبهتى الراين والدانوب وفى سوريا واسبانيا . كما تولى حكم ولاية جرمانيا الجنوبية فى عهد نرفا حيث حقق انتصارات باهرة أهلته للحصول على لقب «جرمانيكوس» اى بطل المانيا وقاهرها . ومن ثم اختار نرفا رجلا عسكريا صارما ، صريحا وحازما ، وقد اثبتت الأحداث حسن الاختيار وابرزت مدى قدرة تراجانوس على تحمل المسؤلية ، والتفانى فى أداء واجبه على خير وجه وفى احسن صورة خاصة فى مجال التنظيم والادارة .

ان وصول تراجانوس الى العرش كان بداية لانتهاء سيادة أثرياء الايطاليين والروما واحتكارهم للوظائف العليا فى الامبراطورية ، وبداية تولى طبقة من النبلاء والأعيان القادمين من الولايات الغربية — الوظائف القيادية فى الامبراطورية ؛ وكان هؤلاء اكثر الناس تفهما لعقلية شعوب الولايات

ومشاكلهم ، ولهذا يعتبر عصرهم عصر الازدهار الذهبى لولايات الامبراطورية وشعوبها .

لقد امضى تراجانوس عامين بعد موت نرفا منهمكا فى تحصين خطوط الدفاع فى جبهتى الراين والدانوب تاركا السناتو والشعب فى انتظار وصوله الى روما لتولى مقاليد الحكم رسميا وهذا دعم من شعبيته الجماهيرية ، فضلا عن قوة شخصيته ومظهره الذى يوحى بالوقار والجدية ، فقد كان طويل القامة ، صارم الملامح ، يغطى راسه الشعر الابيض . قضى عمره فى المعارك بين الجنود مما جعله يختلف عن غيره من الاباطرة الذين سبقوه .

سياسة تراجانوس ازاء السناتو :

لقد سلك تراجانوس مع السناتو سياسة الاحترام والتقدير وتعاون معه بشغف فى نفس الوقت الذى حظى فيه بحب الجماهير ، ولهذا منحه السناتو لقب « افضل الاباطرة » Optimus Princeps وذلك فى عام ١٠٠ ميلادية ، وقد سك هذا اللقب على النقود الرومانية عام ١٠٥ ميلادية لكنه لم يصبح لقبه الرسمى الا فى عام ١١٥ ميلادية . وظلت ذكراه لقرون عديدة موضع التقدير حتى اصبح مثلا وقدوة ، ففى القرون التالية كان السناتو يكرم ويتملق الاباطرة بعبارة تقليدية تقول « يا أسعد من اغسطس ويا أكفأ من تراجانوس » Felicior Augusto, melior Triano

أن السناتو الذى تعامل معه تراجانوس كان يختلف تماما عن السناتو الذى تعامل معه الأباطرة المبكرين ، فقد قلمت اظافره واهينت كبرياؤه على ايدى نيرون ودوميتيانوس واضحى ضعيفا لا يملك حولا ولا قوة ، ولهذا رحبوا به واعتبروه امبراطورا خيرا من الأسوأ melior pessimo princeps كما ان تركيب السناتو كان قد تغير تماما . ففى عهدى كلاوديوس وفسباسيانوس كان السناتو يضم عددا قليلا من ابناء الولايات أما فى عهد تراجانوس فقد اصبح ابناء الولايات يمثلون اكثر من ٤٠٪ تقريبا من المجلس ، كما ان عددا كبيرا منهم جاء من الولايات الشرقية بالذات ومن ثم اصبح السناتو مستأنسا وراغبا فى التعاون مع الامبراطور العاقل ، لقد كان

تراجانوس جنرالا عسكريا من الدرجة الأولى ، كما كان نشيطا ذا تصميم حتى فى ادارة شئون الامبراطورية ، عليما بكل صغيرة وكبيرة فى جهازها . كما كان يتخذ القرارات الفورية بسرعة وفى الوقت المناسب ويتعامل مع المواقف المختلفة بحزم وحسم . فمثلا وضع الحرس البرايتورى عند حده وجعله موضع الضبط والربط ، وراقبه بحذر ولم يعد هذا الحرس يتحكم فى حياة الاباطرة كما كان الحال قديما . كذلك لم يسمح تراجانوس للبارزين والطموحين من اعضاء السناتو فى استغلال مناصبهم كما كانوا يفعلون اثناء حكم نيرفا عندما استغلوا كهولة الامبراطور وتسامحه وميله للمسالمة ، وطلب من مجلس السناتو محاكمة امثال هؤلاء دون تدخل منه لأنه اعلن مرارا وتكرارا انه لن يصدر حكما سواء بالاعدام او النفى على اى عضو من الشيوخ ما لم يكن الحكم صادرا من المجلس ذاته . كما الغى كل احتفالات التأليه الـ..ـابقة مما جعل السناتو والشعب الرومانى يثق فيه ويؤمن ببعده عن التجبر والطغيان .

اعمـــاله :

الادارة الانسانية المستنيرة والحازمة فى الداخل :

وسع تراجانوس من نظام المعونة الغذائية والرعاية التعليمية لابناء الفقراء فى الاقاليم وجعل لها ادارة تحت اشراف رقباء الطرق نظرا لوقوع الشئون الاقتصادية فى اختصاصهم . كما قدم للفلاحين المساعدات والسلفيات المالية نظير نسبة محددة من الفائدة وخصصت أرباح هذه السلفة لاعانة ابناء الفقراء والمعوزين من ابناء الاقاليم (١) كما منح ابناء الرومان الحق فى شراء القمح المسعر مثل الكبار تماما تشجيعا للآباء على الانجاب وزيادة تعداد السكان . لقد كان هدف تراجانوس من تقديم السلف الزراعية للفلاحين هو انعاش الزراعة فى ايطاليا وتشجيعها على منافسة النهضة الزراعية فى الولايات الرومانية الغربية ولهذا حظر الهجرة من ايطاليا وشجع اصلاح الاراضى فيها وتوطينها بالجنود المسرحين .

كان تراجانوس يدرس شئون الولايات جيدا ويتخذ قراره بحرص

شديد ، كما كبح جماح المسئولين الذين يسيئون شئون الادارة ويستغلون ضعف الاباطرة فى التعدى على حقوق الناس مما سبب الخراب الاقتصادى لكثير من المناطق ، ومن ثم كان تراجانوس يبعث الى هذه المناطق امناء ماليين Curatores لمساعدة هذه المناطق على اصلاح احوالها المالية .
ومن امثلة الولايات التى وقعت فريسة لخراب ولاية بيثينيا Bithynia فى آسيا الصغرى . وكانت قبل ذلك ولاية تابعة للسناتو ومن ثم سلمها السناتو راضيا الى الامبراطور ليتخذ ما يشاء من قرارات من أجل اصلاح احوالها المتدهورة : وعلى الفور عين الامبراطور تراجانوس صديقه الاديب الرومانى بلينيوس الاصغر ليتولى ادارتها ، ولحسن الحظ وصل الى ايدينا الكثير من المراسلات الخاصة بين الامبراطور وصديقه بلينيوس والتى القت الضوء على تاريخ هذه الفترة كما سبق أن أشرنا ، وكان الامبراطور يحرص على كل رد أو استفسار يطلبه صديقه الاديب ويساعده فى ذلك موظفو الادارة والخبراء ويتخذ قراره بناء على سوابق قانونية ، اما اذا لم توجد سابقة فانه يتخذ قراره بناء على ما يمليه عليه عقله وحكمته وضميره الانسانى ، وقد ترك لنا بلينيوس عدة تساؤلات وجهها الى الامبراطور شملت نواحى متعددة من المشاكل المادية والمعنوية ابتداء من عادة التخلص من الاطفال الرضع عند الاغريق ، الى قضية اضطهاد المسيحيين وشكواه لتدهور الحمامات العامة والخاصة واخطار المجارى المكشوفة وما تسببه من أمراض مطالبا بسرعة الاصلاح ، لكن سياسة التدخل فى شئون المدن والمقاطعات الايطالية بهدف الاصلاح المالى والادارى ورفع الظلم عن الناس خلق نوعا من الوصاية ووضع سابقة لمن خلفه من الاباطرة للتدخل فى الشئون المحلية للمقاطعات فكان بداية لتدهور الحكم المحلى والاعتماد على الحكومة المركزية .

(١) R. Hand, op. cit., p. 108.

لقد حرص تراجانوس على تحسين الطرق والجسور والموانىء فى الولايات الرومانية وبناء طرق جديدة لخدمة التجارة والجنود فى السلم والحرب وأهمها الطريق الذى كان قائما على خليج العقبة (١) ، واعاد حفر القناة التى كانت تربط بين النيل وخليج السويس كما اعاد تنظيم البريد Cursus Publicus وتعيين مشرف عليه من طبقة الفرسان Praefectus Vehiculorum ، واصبح استخدام الطرق من جانب كبار المسئولين الرومان أمرا عاديا فى عهده . وكان اهتمام الامبراطور بانعاش اقتصاد الامبراطورية وتجميل العاصمة كبيرا مما دفعه الى القيام بحركة بناء وتعمير كبرى . فمثلا راح يحسن فى أحوال الميناء الكبير فى أوستيا ويوسع من مرافقه ويعيد تشييد منشآته التى كان كلاوديوس قد بداها ، وحيث كان القمح يخزن فيها . كما ساعد اصحاب المطاحن والمخابز على تحسين وسائلهم ، ومن ثم بدت روما تصبح مدينة ذات مركز اقتصادى هام .

كما اهتم تراجانوس بتجميل العاصمة فأقام ساحة جديدة Forum رائعة يحيط بها مرافق الحياة لعامة من اسواق ومخازن وحوانيت وفى وسطها اقام عمودا ضخما زين برسومات تبين غزواته ضد اهل داكيا ، حيث يمكن التفرج عليه من شرفات المكتبات التى بناها من حوله ، ويعرف هذا العمود الشهير باسم عمود تراجانوس . كما اقام جسرا لمد الاحياء الفقيرة على الناحية الاخرى من التيبر بالمياه عرف باسم جسر مياه تراجانوس Aqua Traiana.

وقد شجع الامبراطور اغنياء الاقاليم على الاقتداء به واقامة المنشآت بقصد تجميل مدنهم على نفقتهم الخاصة مساعدة منهم فى انعاش وتعمير الولايات . وساد فى القرن الثانى الميلادى حركة تعمير اهلية فى كافة مدن الامبراطورية ، وتنافس الاغنياء فى كل مكان على بناء الحمامات وملاعب الرياضة والمسارح ومجارى المياه والمعابد وغيرها من المرافق العامة . لقد احسن تراجانوس معاملة سكان العاصمة فاقام لهم المهرجانات ابتهاجا بالمناسبات وانفق عليها ببذخ شديد لم يسبق له مثيل وقد ضرب المثل بعدد هذه الاعياد ، فمثلا ظل مهرجان انتصاره على اهل داكيا قائما لمدة مابة وست وعشرين يوما (٢) بكل وسائل التسلية والترفيه مثل المبارزات وصيد الوحوش وعروض السيرك والمسرح .

(١) cf. Inscr. Lat. Sele no 5834.

(٢) عثرنا فى كوم أوشيم على عملة تذكارية سكت بمناسبة هذا الانتصار وقد ظهر النيل يحيى انتصار الامبراطور وفى نفس الوجه يظهر فى وثائق البردى لفظ بطل داكيا وبطل بارتيا :

cf. Grenfell, Hunt and Hogarth : Fayum Towns and their Papyri, London 1900, no. 47, p. 172.

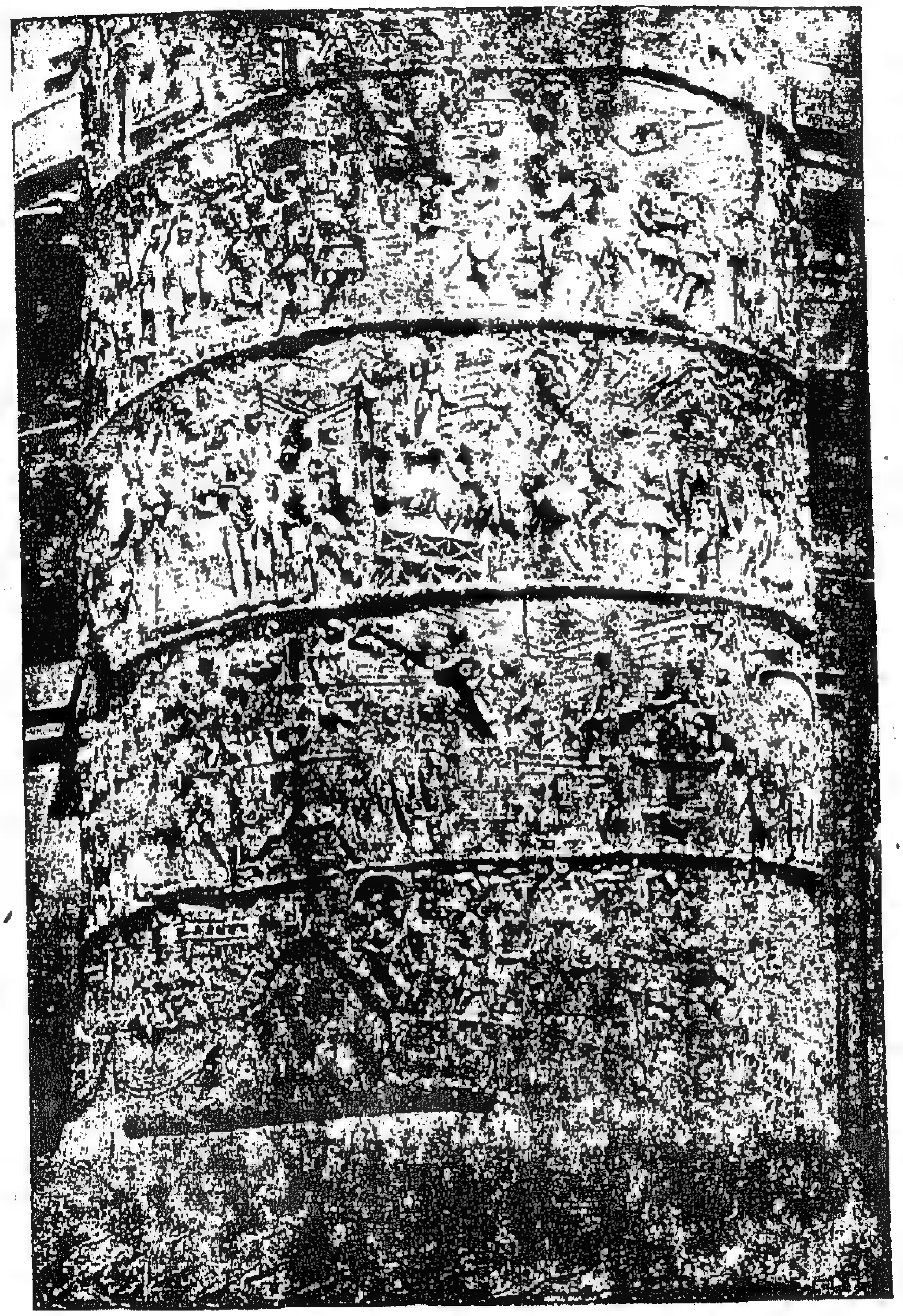

جزء من عمود تراجان حيث ظهرت روعة الفن
وعظمة الهندسة ـ العمود موجود فى روما

توسيع حدود الأمبراطورية ونشر العمران والحضارة الرومانية :

كان تراجانوس أول من حطم الجمود الاغسطى وعاد بالبلاد الى سياسة التوسع . ولما كان واثقا من قواته ومن قيادته فقد أعاد سياسة التوسع العدوانى لأول مرة منذ سقوط الجمهورية وكان هدفه الأول والاخير ملك داكيا . وسبق أن ذكرنا كيف ان دوميتيانوس كان قد عقد صلحا مع هذا الامير مقابل أن تمده روما بفريق من العمال المهرة الرومان . وقد اعتبر الرومان هذا الصلح عارا عليهم واهانة لهم ، ومن ثم عزم تراجانوس على تصحيح هذا الخطأ واعادة كرامة الامبراطورية التى اهينت على يدى دوميتيانوس . هذا من ناحية ومن ناحية اخرى اعتبر قيام مملكة قوية فى الدانوب خطرا على سلام المنطقة وتهديدا لمصالح الامبراطورية .

وعلى أى حال لا نعرف بالضبط سبب اندلاع الحرب ، ولكن نعرف انه فى سنة ١٠١ ميلادية قاد تراجانوس حملة ضد مملكة داكيا ، ولم يمض عام حتى استسلم هذا الملك وتنازل عن كثير من المزايا التى كان قد غنمها قبل ذلك فى عهد دوميتيانوس ، ولكن لم يكد تراجانوس يغادر المنطقة حتى تآمر هذا الملك مع البارثيين فعاد الامبراطور للانتقام منه عام ١٠٦ ميلادية عازما على احتلال هذه المملكة وتحصينها من خطر القبائل المهاجمة عبر الدانوب ، وتوغلت الجيوش الرومانية ولم يجد ملك داكيا بدا من الانتحار ، وعملت الجيوش الرومانية تقتيلا فى اهل البلاد بعد سقوط عاصمتهم حتى قضى عليهم وتحولت داكيا الى ولاية رومانية وعمرت بمستوطنين رومان من كافة انحاء الولايات الرومانية ، ومن سلالة هؤلاء يجىء اهل رومانيا المعاصرة والذين تربطهم صلات قوية باللغة والحضارة اللاتينية ـ كما استغل الامبراطور مناجم الذهب (١) فى هذه المقاطعة من أجل الانفاق على مشروعات الامبراطورية الكبيرة وكسب رضاء الرومان ، لكن تدفق ذهب داكيا سبب هبوطا فى سعر الذهب وارتفاعا فى سعر الفضة مما أضطر الامبراطور الى زيادة نسبة القصدير والنحاس فى العملات الفضية ليعيد التوازن بين الذهب والفضة . وقد بلغ من فرحة الامبراطور بهذا النصر أن اقام العمود التذكارى الشهير الذى لا يزال قائما فى مكانه وعليه رسومات محفورة تسجل مشاهدا من هذا النصر العظيم .

كما وسع من حدود نوميديا فى شمال أفريقيا جنوبا حتى حدود الصحراء الكبرى كما أقام حامية لحراسة المستوطنات من هجوم بدو

---

(١) cf. J. Carcopino : Points de vue sur l'imperalisme romain (Paris 1927), pp, 73. ff.

الصحراء كما انشأ جنود فرقته الثانية مستوطنة ثاموجادى Thamugadi فى الجزائر (تمفادى الحالية Timgadi) ، التى تحولت الى حاضرة رومانية عامرة بالأسواق والحمامات والمعابد والمسارح ، كما انشأ فيها مكتبة كبرى بلغ عدد المجلدات فيها ٢٣٫٥٥٥ مخطوط ، واصبحت تمفادى فخر الحضارة الرومانية فى افريقيا .

حروب تراجانوس فى الشرق ١١٤ — ١١٧ م :

حتى اثناء انشغال الامبراطور فى حروبه فى داكيا لم ينس الشرق حيث يوجد الخطر البارثى . ففى عام ١٠٥ ميلادية اصدر أوامره الى حاكم سوريا بضم مملكة العرب النبطيين (Nabatean) فى شرق الاردن والذين كانوا يقطنون الجنوب الشرقى من سوريا وفلسطين وتم هذا الاستيلاء دون أدنى مشاكل وبذلك اصبح الرومان يسيطرون على اهم طرق التجارة والقوافل عبر الشام والى البحر الاحمر . ثم ادخل الاراضى الجديدة فى ولاية بلاد العرب Provincia Arabia (١) وكان دافعه النفسى هو أن يسير على هدى الاسكندر الاكبر الذى يستولى على كثير من خياله وتفكيره .

وقد ساعد تراجانوس على المضى فى سياسة الغزو والتوسع الدخل الكبير من مصادر مناجم الذهب فى داكيا . فحاول اصلاح وضع الامبراطورية فى بلاد ما بين النهرين وارمينيا (٢) . خاصة ان تراجانوس لم يرض عن تنازل نيرون عن حقوق الامبراطورية لملك ارمينيا الذى أصبح شبه مستقل وقرر أن يصلح هذا الموقف . وفى عام ١١٠ ميلادية وجد تراجانوس العذر الذى يجعله يشعل الحرب وهو عندما تدخل ملك البارثيين فى شئون ارمينيا وعزل ملكها الموالى للرومان وعين ملكا آخر من أصل بارثى ناقضا بذلك المعاهدة التى كان البارثيون قد عقدوها مع نيرون . وبسرعة اكتسحت الجيوش الرومانية فى عام ١١٥ ميلادية وادى دجلة والفرات الاعلى متجهة الى بارثيا حيث استولى على عاصمتهم كتيسيفون (طيسفون) Ctesiphon وضم الى روما منطقة الخليج الفارسى ذات الاهمية الحيوية فى التجارة مع الهند ووصل الى مصب دجلة والفرات فى الخليج . ويروى عنه أنه راح يحملق فى مياه الخليج وهو يسلى نفسه برؤية السفن المبحرة

(١) Chaput, la Frontiere de l'Euphrate de Pompée à la conquôte arabe, Paris 1902. p. 248 ; cf. Antiquity 1934, p. 373 ff.

(٢) حيث نعتقد بوجود علاقة بين حملة داكيا وخطر بارثيا وهذا هو سبب حملة تراجانوس ضد الاخيرة . وعن الحملة بالتفصيل انظر :
J. Guey : Essai su la guerre parthiaque de Trajan, Paris 1927.
F.M. Lepper. Trajan's Parthian War. New York 1946.
cf. Freya Stark : Rome on the Euphrates, pp. 208-216.

الى الهند والى لشرق الأقصى ثم قال متحسرا « لو لم أكن متقدما فى العمر لسرت الى الهند » . ثم أعاد تنظيم هـذه الاراضى فى ولايتين رومـانيتين هما ولاية آشور Provincia Assyria وولاية بلاد ما بين النهرين Provincia Mesopotamia ولكن لم يكد يمضى وقت على ذلك حتى هبت الثورات والتمرد فى هذه المناطق واضطر تراجانوس الى الانسحاب الى سـوريا مؤقتا لحين استرداد هذه المناطق مرة اخرى .

القضاء على ثورة اليهود الكبرى :

وفى اثناء انشغال الامبراطور بمحاربة البارثيين وتواجد معظم الفرق الرومانية خارج البـلاد اندلعت ثورة اليهود الكبرى (١) وكانت الشرارة الكبرى فى ثورة اليهود قد اندلعت من مدينة قورينة Cyrene (شحات بولاية برقة فى ليبيا) عام ١١٥ ثم انتشرت الى المناطق المجاورة لهـا الى قبرص ومصر وفلسطين وبلاد ما بين النهريين . وكان سبب الحركة ادعاء احد شيوخ اليهود واسمه شمعون باركوخبا (اى ابن النجمة) بأنه المسيح جاء ليحرر اليهود من الرومان الوثنيين ، وقد أدى ذلك الى تحدى السلام الرومانى خاصة بعد حدوث حركة التمرد الكبرى فى بلاد ما بين النهرين وعودة البارثيين الى الحرب ضد الامبراطورية . وقد قام اليهود بمذابح كبيرة ضد الاغريق ، ورد الاغريق بالمثل ، وشهدت الاسكندرية اياما دامية لم تنساها ابدا ، وتدخل تراجانوس بسرعة لوقف هذه المذابح . وكلف احد جنرالاته المخلصين بذلك وكان اسمه لوسيوس كويتوس Lusius Quietus وهو مراكشى الاصل بالقضاء على ثورة اليهود فى فلسطين وبالفعل نفذ ذلك بعنف دموى . وتوقفت الحروب الدامية بين الاغريق واليهود فى أجزاء كبيرة من الامبراطورية خاصة فى مصر وقبرص وبلاد ما بين النهرين وبرقة الا فى مصر حيث استمر القتال بين الاغريق فيها الى ما بعد عصر تراجانوس اذ لم يكن من السهل ايقاف هذا العنف والكراهية ذات الجذور الضاربة فى تاريخ العلاقات بين الطائفتين .

موت تراجانوس (١١٧ م) :

وبينما كان الامبراطور يستعد القيام بحملة عسكرية اخرى عام ١١٧ ميلادية لاجلاس أحد مرشحيه على عرش بارثيا ولتملك زمام السلطة هناك سقط الامبراطور فريسة المرض والاعياء بسبب الاجهاد الكبير . فاضطر الى مغادرة انطاكية Antioch عائدا الى روما ؛ وبينما هو فى طريقه استسلم

---

(١) أنظر عبد اللطيف احمد على المرجع السابق ص ١٨٥ وما بعدها .

للموت فى التاسع من اغسطس عام ١١٧ ميلادية فى مدينة سيلينوس Selinus بكيليكا فى آسيا الصغرى وقد جاوز الستين من عمره ، وبينما هو فى النزع الاخير طلب تبنى احد اقربائه من الشباب وهو بوبليوس ايليوس هادريانوس والذى كان قد تركه فى الشرق (الأوسط) ليتولى قيادة الجيش هناك .

تقييم تاريخى للأمبراطور تراجانوس :

يعتبر الامبراطور تراجانوس بحق أعظم الاباطرة جميعا ، فعلى يديه وصلت الامبراطورية الى قمة اتساعها بعد أن حقق حلم يوليوس قيصر القديم فى الاستيلاء على داكيا (رومانيا) وبلاد البارثيين Parthia ومنح لقب بطل داكيا Dakikos الذى ظهر فى الوثائق البردية التى عثر عليها فى الفيوم ، وكذلك على النقود فى الاسكندرية وفى الامبراطورية ، كما تمتع بلقب بطل بارثيا Parthikos الذى اعطاه وضعا فريدا ، فقد كان اول قائد رومانى ينجح فى تحقيق الحلم الكبير وهو غزو بلاد البارثيين ، لقد حاول كراسوس عام ٥٢ ق.م. ان يحقق هذا الحلم ولكنه قتل وسحقت قواته واسرت جنوده وسلبت بيارق الجيش الرومانى لتعلق فى العاصمة طيسفون كرمز لاهانة الامبراطورية الرومانية ، ثم حاول ماركوس انطونيوس غسل عار هذه الهزيمة عام ٣٧ ق.م . ولكنه لقى هزيمة مريرة كاد ان يقتل فيها ، أما اغسطس فقد لجأ الى سلاح الدبلوماسية والتهديد مستغلا بعض الكوارث التى نزلت بالبارثيين وارسل ابن زوجته تيبريوس ليكسب نصرا دبلوماسيا على البارثيين مجبرا اياهم على قبول السلام الرومانى واستعادة البيارق والشعارات الرومانية واعادة الجنود الرومان الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة فى الأسر ، لكن اغسطس لم يفصح عن الامل الدفين فى القيام يوما ما بحملة لفتح هذه البلاد ومات اغسطس دون ان يحقق هذا الامل ، وتجنب خلفاؤه هذه المغامرة الا نيرون الذى شرع فى ذلك لكنه لم يعطى الفرصة لتنفيذها ، وبقى الأمل مكبوتا حتى اتمه تراجانوس ولذا منح لقب اكفأ الاباطرة Princeps Optimus ، كما ان كفاءته ونشاطه واخلاصه تركت ذكرى طيبة فى نفوس الرومان لأجيال طويلة فاعتبره النموذج الامثل الذى يجب أن يكون عليه الامبراطور الرومانى سواء بالنسبة للادارة الانسانية فى الداخل أو التوسع فى الخارج .

لقد كان تراجانوس طموحا مثل الاسكندر الاكبر يجمع بين الخيال والواقع اندفع كالاعصار فى حملاته التوسعية العملاقة ، لكن هذا التوسع كلفه حياته التى ارهقتها الحروب والمغامرات العسكرية حتى سقط فريسة للاعياء .

كما دفعت الامبراطورية الرومانية ثمن هـذا التوسع الطموح فقـد اتسعت اكثر من اللازم وأكثر من الحدود الآمنة القوية ولم تعد طاقتهـا العسكرية تتناسب مع اتساعها فبدأت تضعف بل أصابها الشلل العسكرى ولم تعد قادرة على الدفاع عن حدودها المترامية الاطراف ، وبالتالى فقدت الدويلات العازلة الثلاث التى أقامها تراجانوس أهميتها الدفاعية وهى داكيا وبارثيا ومملكة العرب النبطيين . وظهر هنا العجز واضحا فى القرن الثالث الميلادى عندما بدات قبـائل الهون Huns تزحف من سيبريا واواسط آسيا دافعة امامها الجرمان القوط والشعوب الايرانية لتزحف على حدود الامبراطورية من جهات الراين والدانوب وأعالى الفرات ، فضلا على أن الاهانة الكبرى التى الحقها بالبارثيين مهدت الطريق امام العناصر الايرانية الوطنية للاستيلاء على الحكم واقامة حكم معـاد للرومان ، يحقـد عليهم ويدعو لطردهم من الشرق الأوسط كله وهو ما نعرفه بالدولة الساسانية ، وفى النهاية تسببت كل هذه الأخطـار مجتمعة فى تدهـور الامبراطورية ومهدت لسقوطها بعد ما يزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن تقريبا من موت هذا العاهل الكبير .

٣ ـ هادريانوس (١١٧ ـ ١٣٨ م) :

وما أن وصلت الأنباء بأن تراجانوس قد مـات حتى هتفت القوات الرومانية فى أنطاكية بحياة هادريانوس قائدها الأعلى امبراطورا ، ثم صدق السناتو فى روما على قرار الجنود بعد بضـعة أيام قليلة ومنحه السلطات التقليدية كما هو متبع ، لكن بعض الشائعات رواهـا لنا ديو كاسيوس (١) Dio Cassius أن افلوطينا Plotina أرملة تراجانوس دست وصية مزورة عن زوجها بتبنى هادريانوس وتوليه العرش ويقول انه لولا رضا أفلوطينا لمـا تولى هادريانوس الحكم ، لكن هتاف الجنـود به امبراطـورا ثم تصـديق السناتو على هذا القـرار هما الأمر الاسـاسى الذى أتى بهادريانوس الى العرش .

أن الدارس لحياة الامبراطور هادريانوس سـوف يجد فى النقـوش والوثائق البردية وقطع النقود والآثار معلومات قيمة بالاضافة الى المؤلفات التاريخية مثـل تاريخ الأباطرة Historia Augusta وهو مؤلف يعطينـا موجزا عن سيرة الأباطرة الرومان خلال القرنين الثانى والثالث الميـلادى برغم ما تثيره من مشاكل وتعقيدات ، كذلك نجد تلميحات غير مباشرة لكن مفيدة فى كتابات المؤرخ الكبير تاكيتوس .

(1) Dio Cassius, LXIX, 1.

كان هادريانوس — او هادريان كما يعرف فى اللغات الحديثة مثل سلفه تراجان — ينحدر من مستوطنة ايتاليكا الأسبانية بل قيل أن هادريانوس ولد فى مدينة روما عام ٧٦ ميلادية وفى سن العاشرة فقد هادريانوس والداه ؛ فانتقل الى العيش فى بيت تراجان — اقرب من بقى له من الأهل فرعاه ورباه (١) ولم يبخل عليه بالتعليم الراقى بعد ان ابدى الصبى ولعا شديدا بالثقافة والفنون الاغريقية وانكب عليها ينهل بنهم شديد حتى خرج وهو لا يرى العالم الرومانى الا من خلال منظار اغريقى ؛ ولهذا تهكم عليه المتطرفون من الرومان ولقبوه « بالمتاغرق » Graeculus وربما كان هادريان سعيدا بهذا اللقب لانه يدين بالكثير للثقافة الاغريقية التى خلقت لديه فكرا راقيا وحكمة واتزانا ، عاملا بوصية افلاطون القديمة أن الأمور لن تستقر الا اذا اصبح الملك فليسوفا والفليسوف ملكا .

كذلك كان يحرص على ترتيبه ذهنة وفى نفس الوقت على لياقته الجسمانية عملا بالحكمة الرومانية القديمة بأن العقل السليم فى الجسم السليم Mens Sana, Corpore Sano. ؛ فقد كان يتمتع بقامة ممشوقة، ويتفجر حيوية وصحة ؛ وله لحية كثة تبعث على المهابة والوقار ؛ وكان رياضيا من الدرجة الاولى ؛ محبا للرحلات والتجول وكانت هوايته الاولى هى القنص، كما كان جنديا بكل معانى الكلمة فقد تقلب فى مناصب الجيش المختلفة ، وكان يهوى حياة الجنود ؛ حتى بعد تولية العرش كان لا يزور مقاطعة الا ويبدأ بزيارة ثكنات الجيش وقضاء الوقت معهم مرتديا زى جندى بسيط ، ويصدر الأوامر والنصائح ويستعرض الأسلحة والخنادق حتى مطابخ الجنود كان يزورها ويفتش عليها . وأحيانا كان يصحب الجنود فى مسيرات طويلة لتعويدهم على التحمل . وكان يتقدمهم وهو يضع متاعه فوق ظهره ، مما جعل الجنود تلتف حوله وتهواه (٢) .

كما كان هادريانوس ملما بخبرات متنوعة وتجارب عديدة فقد تقلب فى المناصب الادارية والعسكرية ابتداء من نقيب الفرقة الى الكوايستورية ؛ ثم أصبح نقيبا للعامة . وتولى البرايتورية القضائية . ثم القنصلية ؛ كما خدم فى كافة ولايات الامبراطورية مع الجيش الرومانى وشارك مع حروب تراجانوس فى بارثيا وداكيا ؛ وكان آخر منصب تولاه قبل موت تراجانوس هو حاكم سوريا وقائد القوات فيها وذلك فى عام ١١٧ م ؛ ويقال ان أفلوطينا زوجة تراجانوس هى التى اختارت له زوجته وهى ڤيبياسابينا

---

cf. B.W. Henderson : life and Principate of Emperor Hadrian (117-138 (1) A.D) London 1923, pp. 19-23.

(2) Ibid. F. L., Heichelheim & Yeo, op. cit., p. 355 ff.

Vihia Sabina حفيدة شقيقة تراجانوس المسماه ماركيانا Marciana وذلك لجمال الامبراطور وحلفائه على اتصال وثيق ، وقد تم الزواج عام ١٠٠ ميلادية تحت مساعي ومباركة أفلوطينا من أجل مستقبل هادريانوس، وكانت ڤيبيا سابينا امرأة ساحرة الجمال شديدة العبث ولم تكن على وفاق دائم مع هادريانوس ، وهي التي اصطحبته فى رحلته الى مصر عام ١٣٠ وسجلت اسمها على تمثالى ممنون بالأقصر مع وصيفتها جوليا بالبيللا Julia Balbilla (١) .

وهناك من يلقي ظلال الشك حول علاقة ترجانوس بهادريانوس قائلين انها كانت متوترة بدليل أن تراجانوس لم يشرك هادريانوس فعليا معه فى الحكم مثلما فعل نرڤا مع تراجانوس ، وأن الرجلين لم يكونا على اتفاق كامل ، حتى انهم يشكون ـ كما سبق ان أشرنا ـ فى أمر التبنى الذى جاء فى آخر لحظة ، عندما كان تراجانوس يلفظ انفاثه الأخيرة ، ويرون أنه من صنع افلوطينا ، لكن سواء تمت الوصية أو لم تتم فان قرار القوات الرومانية فى سوريا كان كافيا لتولى هادريانوس العرش (٢) .

وخلاصة القول كان هادريانوس يتمتع باحترام كبير بين قوات الجيش وبين جموع الشعب الرومانى وشعوب الولايات . فقد كان تاريخه العسكرى مشرفا للغاية ولهذا لقى قرار تعيينه ارتياحا وترحيبا . .

لقد ورث هادريانوس تركة مثقلة عن سلفه تراجانوس صاحب سياسة التوسع والاندفاع العسكرى . فقد كلفت هذه الحروب التوسعية الاقتصاد كثيرا ، كما اهلكت جزءا كبيرا من القوة البشرية فى الامبراطورية ، كما أن هذه السياسة العدوانية ادت الى اندلاع الثورات المعادية من جانب بعض القوميات مثل ثورة اليهود التى اندلعت من قورينائية فى ليبيا وامتدت الى المغرب وقبرص ومصر وسوريا وفلسطين ، كما قامت ثورة بين الجرمان فى وادى الدانوب الادنى وكذلك فى بريطانيا ، ولولا وقوف حفنة من كبار الضباط المتعاطفين مع الامبراطور الجديد وعلى رأسهم القائد الفذ ماركيوس توربو Marcius Turbo الذى عينه هادريانوس قائدا اعلى للقوات بدلا من القائد المراكشى لوسيوس كويتوس Lusius Quietus لانهارت الامبراطورية فوق راس الامبراطور الجديد .

سياسته الخارجية :

ولهذا قرر هادريانوس احداث تغيير شامل فى السياسة الخارجية لوقف النزف الاقتصادى والبشرى الذى أصاب الامبراطورية من جراء

---

(١) أنظر ص ٥٤ .

(2) Heihel cheim and Yeo, op. cit, p. 355 ff

حروب تراجانوس التوسعية ، فأصدر قرارا بوقف التوسع شرقي دجلة والفرات ، واصدر أوامره الى قواته بالانسحاب من ولايتى آشور Assyria وبلاد النهرين Mesopotamia اللتـــان كان تراجـانوس قد ضـمهما الى الامبراطورية ، كما اعاد ارمينيا الى وضعها القديم وهو الاستقلال الذاتى بشرط أن تسير فى فلك الامبراطورية ، كما عقد معاهدة سلام مع البارثيين، كل هذا من أجل الدفاع عن حدود الامبراطـورية وحمايتها ، وكان هـذا سلوكا شجاعا من جانب هادريانوس فى وجه فريق العسكريين التوسـعيين والذين كانوا يحلمون بفتوحات جديدة ويرون فى تراجانوس الامبراطـور الأمثل الذى يجب أن يحذو حذوه سائر الأباطرة ، وقد اعترض هؤلاء بشدة على سياسة هادريان المسالمة والدفاعية والتى تقوم على دعم ما هو واقـع وتتفادى اى توسع او تورط من شأنه أن يكلف الامبراطـورية أكثر مما فى طاقتها .

كما تعرض قرار هادريانوس لموجة جديدة من النقـد على المستوى الشعبى وسرت الشائعات بأنه يعد للانسحـاب من داكيـا تاركا الآلاف من المستوطنين الرومان لقدرهم ؛ وانه أمر بتدمير الجسر الذى اقامه تراجانوس فوق نهر الدانوب ، ولكن هادريانوس لم يعبأ بهـذه الموجـة من النقـد والتشنيع وتمسك بسياسته الواضحة التى لها سابقة فى تاريخ الامبراطورية وهى سياسة الامبراطور أغسطس نفسه التى وضعت حدا للتوسع ولهذا اتخذ لنفسه لقب هادريانوس اغسطس والذى ظهر على نقود عام ١٢٣ م والتى تصـادف مرور ١٥٠ عامـا على تاريخ الانعـام بلقب اغسطس على اوكتاڤيانوس (عام ٢٧ ق.م) . وتشبها بسياسة الامبرطـور اغسطس اطلق هادريانوس على سياسته اسم السلام الأوغسطى Pax Avgusta.

لكن احياء سياسة « السلام الرومانى » من جديد وهجر سياسـة التوسع لم تعجب بعض كبار قادة الجيش من اتباع تراجـانوس خاصـة قائده المراكشى لوسيوس كويتوس Lusius Quietus الذى كان يحـلم بفتوحات جديدة ويرى فى سياسة سيده الراحـل النموذج الأمثـل الذى الذى يجب أن يحذو حذوه سائر الأباطرة ، ويعتبر سياسة هـادريانوس المسالمة سياسة انهزامية وتفريطا فى ممتلكات الشعب الرومانى . والحقيقة أن هادريانوس حاول أن يحتذى حذو الامبراطور اغسطس عنـدما هجـر سياسة أبيه يوليوس قيصر التوسعية واوجد « السلام الرومـانى » الذى يقوم على دعم ما هو موجود ورفض أى توسع جديد من شأنه أن يرهـق الامبراطورية ، وأن حدود الامبراطورية يجب أن تتكافىء مع مقدرتها الحربية

والاقتصادية . ويبدو أن السناتو كان مقتنعا برأى هادريانوس الذى طبقه حتى قبل وصوله الى روما لتولى العرش ، وربما شجع غياب الامبراطور كبار القادة على التآمر لقلب نظام الحكم ولكن السناتو كان بالمرصاد لهؤلاء العسكريين التوسعيين وقدمهم الى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وصدر الحكم باعدام لوسيوس كويتوس وثلاثة من رفاقه ، ولم ينتظر السناتو حتى وصول الامبراطور لكى يصدق على الحكم ، وتعجل تنفيذ الحكم فى غيابه باعتباره الهيئة المسئولة عن سلامة الامبراطورية فى غياب الامبراطور ، ويرى البعض أن هادريانوس لم يكن يرضى أن يبدأ حكمه بالاعدام والقتل وأنه كان يفضل العفو عنهم لدعم مركزه ، بينما يرى البعض الآخر أن الامبراطور تعمد أن يتلكأ فى العودة لحين أن ينتهى السناتو من دور الجلاد بالنسبة له، وأن تنصله من مسئولية إعدام الجنرالات الأربعة ليس الا مكرا وخداعا ومراوغة .

وأخيرا بعد ان هدأت العاصفة وطبق الامبراطور سياسته واعدم قادة التوسعيين ، بدأ الركب الامبراطورى يسير الى روما بعد أن توقف فى بيزنطه وتيقوميديا حيث زار حدود الامبراطورية عند الدانوب ، وفى صيف عام ١١٨ ميلادية وصل هادريانوس الى روما لتولى العرش رسميا .

وبعد بضعة أيام ظهر الامبراطور بقامته الممشوقة ولحيته ذات المهابة والوقار ووقف فى السناتو يعلن عدم مسئوليته عن اعدام القادة وتعهد أمام الأعضاء أنه لن يسمح باعدام أى عضو من أعضاء السناتو مستقبلا الا اذا صدر عليه حكم بذلك من السناتو ذاته ، وبذلك نفذ هادريانوس وعده، كما قام هادريانوس بحركة دبلوماسية ذكية وهى أنه قدم اعتذاره للسناتو لقبوله تولى السلطة ومهام الامبراطورية فور اعلان الجيش وقبل موافقة السناتو عليها ، ثم اتخذ مكانه فى السناتو كأى عضو عادى ، وبذلك كسب تأييد السناتو ورضاه .

اما هديته بالنسبة للشعب الرومانى فقد كانت مثيرة حقا فقد أعلن مضاعفة الهبة المالية Congiarium, او النفحة الامبراطورية التى كانت تمنح فى المناسبات للفقراء ، واكثر من هذا أعلن تنازل الامبراطورية عن الديون المتأخرة على الناس من الضرائب ، ولتأكيد للناس صدق قراره أمر بحرق الدفاتر والسجلات الضريبية فى احتفال مهيب فى الفورم الرومانى ، وقد بلغ حجم الديون الملغاة عن الفلاحين فى ايطاليا وسائر الولايات ٩٠٠ مليون سسترتيس رومانى (ما يقرب من خمسين مليون دولار أمريكى بالنقد الحديث) ، ثم أعلن دعمه لصندوق الاعانة والرعاية للفقراء وطبق

عليهم الرعاية الطبية والتعليمية . وحرر المعدمين من العوز والحاجة تحت شعار « الحرية المستعادة Libertas restituta » ؛ وقد أكسب هذا القرار الامبراطور شعبية كبيرة خاصة فى الولايات التى عصرها الفقر والاستغلال الرومانى مثل مصر (١) وآسيا الصغرى ، لكن بالنسبة للشعب الرومانى لم ينفعل كثيرا بهذا الكرم الجارف وقابله بتحفظ شديد ، وهنا شعر الامبراطور بخيبة أمل كبيرة لنكران الناس بالجميل وآثر ان يترك روما وايطاليا فى برنامج زيارة طويل المدى للولايات .

وخلاصة القول ، لقد ساعدت الفترة التى خدمها الامبراطور تحت قيادة تراجانوس فى تفهمه للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، وأدرك هادريانوس أن قدرة الاقتصاد الرومانى لا تسمح بفتوحات توسعية جديدة كالتى قام بها تراجانوس ، ويقال أن قلق الامبراطور كان فلسفيا أيضا لأنه كان لا يريد الانفتاح حضاريا على الشعوب الشرقية حتى لا يؤثر ذلك على الحضارة الهللينية وصورتها الرومانية ، وحتى لا تتلوث بحضارات وعقائد وأفكاره أجنبية لأن هادريانوس كان شديد الحرص على نقاء الحضارة الهللينية ، ولهذا رأى أن تعكف روما على تقوية اقتصادها لكى تنتعش ثقافتها وفنونها باعتبارها الوريث الوحيد للحضارة الهللينية (٢) ، ومن المعروف أن هادريانوس بحكم تعليمه كان عاشقا لهذه الحضارة متيما بأفكارها مدركا لرسالتها وأهميتها فى توحيد الفكر العالمى الرومانى ، ومن ثم نظر الى الأمور نظرة عالمية وليس من زاوية المصالح الرومانية الضيقة (٣) .

---

(١) يعكس رضا الناس عن بساطة وعصامية الامبراطور البردية التى عثر عليها فى أم الأثل (باخياس بالفيوم) والتى يعتقد العلماء أنها موضوع انشاء تلميذ مدرسة لتخيل نفسه الامبراطور هادريان يكتب خطابا لخليفته يتحدث فيها بلهجة شاعرية فلسفية روحانية

وقد لاحظت بنفسى مدى القرابة فى الافكار بين بردية امنمحات الاول أول ملوك الدولة الوسطى التى يتحدث فيها الى ابنه وخليفته فى العرش وبين لهجة هادريانوس الى خليفته . ومن الواضح أن كاتب البردية كان على علم ببردية امنمحات التى كانت تدرس فى المدارس المصرية حتى وقت متاخر . أنظر :

Grenfell & Hunt & Hogarth, op. cit. no. XIX, p. 212.

كذلك انظر مصر الفراعنة تاليف سير الن جاردنر — ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل ومراجعة د. عبد المنعم ابو بكر — الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٣ ص ١٥١ .

(٢) ازدهرت الفنون فى عهده لدرجة أصبحت هناك مدرسة متميزة للفن فى عصر :

(2) cf. J. Toynbee : The Hadrianic School A chapter in the history of Greek Art, Cambridge University Press. (1934) pp. XXI.

(3) cf. H Stuart. The Roman Empire, Cambridgo (1945), p. 175-195.

رحلات هادريانوس الطويلة فى الولايات :

غادر هادريانوس روما غاضبا عام ١٢١ ميلادية متجها الى بلاد الغال ووادى الراين ، ومنها سافر فى العام التالى ليتفقد بريطانيا وليشرف على مشروع اقامة السور العظيم عبر نهر التاين Tyne فى شمال انجلترا والذى لا تزال أطلاله باقية حتى اليوم تحمل اسمه وذلك من اجل وقف اغارة القبائل الشمالية الاسكتلندية على المزارع الجنوبية فى انجلترا ؛ ومن بريطانيا عاد الى مرة أخرى الى بلاد الغال ثم اتجه الى اسبانيا حيث قضى فصل الشتاء ، وقبل ان يتحرك فى مطلع الربيع نظم حملة تأديبية ضد القبائل المراكشية التى كانت تهاجم الحواضر الرومانية فى هذه المنطقة وفى هذه الأثناء سمع عن اندلاع الثورة من جديد فى بلاد البارثيين ونقضهم معاهدة السلام مع الرومان وذلك بتحريض ملكهم خسرو Chosroes وفجاة ظهر هادريانوس فى الشرق الاوسط متاهبا ومستعدا ؛ وقد ادى ظهوره المفاجىء الى تراجع خسرو وعودته للسلام وبذلك قمعت الثورة البارثية فى مهدها ، وقضى هادريانوس وقته فى نشر العدل والعمران فى ولايات الشرق ؛ فجلس يستمع الى شكاوى الناس وطلباتهم ويفصل فيها بنفسه ويعاقب الموظفين المستغلين للناس بلا رحمة ولا شفقة . كما كان يشرف على بناء المعابد فى المدن التى يزورها وكذلك الحمامات ومجارى المياه العلوية والمسارح وملاعب الرياضة .

وفى عام ١٢٨ ميلادية بدأت رحلته لشمال افريقيا حيث راح يفتش على المزارع الامبراطورية (Saltus) للقمح هناك ويقترح أفضل السبل لاستغلال هذه المزارع حسب جودتها ومن ثم أصدر قراره المشهور Lex Hadriana de rudibus ، ومن شمال افريقيا ابحر الى البلدة الحبيبة الى نفسه وأم الحواضر الهللينية مدينة آثينا وهناك ترأس الالعاب الرياضية ؛ كما سره ان يختاره اهلها ارخونا شرفيا عليهم وبذلك عدل القوانين حسب مصلحة الناس كما أكمل لأول مرة معبد زيوس فى أولمبيا منذ أن وضع الطاغية الأثينى بيسستراتوس Peisistratus فى القرن السادس ق.م. أساسه . ثم افتتحه باحتفال كبير .

---

(١) من اجل ذلك اعتبر هادريان نفسه بطلا مثل هرقل والمعروف لنا أن هرقل كان البطل الاغريقى القوى المدافع عن الاغريق ضد انتقام [illegible] البربرية (هيرودوت الكتاب الثانى — [illegible] ترجمة [illegible] خفاجة واحمد بدرى ، ١٤٢) ولهذا نشبه هادريانوس [illegible]

وفى أثينا بنى هادريانوس ضاحية جديدة سماها مدينة هادريانوس Hadrianopolis ، وأقام فى وسطها معبدا كبيرا لكل الارباب Pantheon وعلى جانبى شوارعها بنى الأروقة المسقوفة ، كما بنى مكتبة كبيرة ودارا كبيرة للثقافة والرياضة gymnasium ، ومعبدا كبيرا من أجل الوحدة الهللينية الكبرى سماه Pan-hellenion . كما أضاف الى مدينة أثينا بوابة لا تزال قائمة حتى الآن .

وفى عام ١٢٩ ميلادية بدأ هادريانوس رحلته الكبرى لزيارة آسيا الصغرى ، حيث نزل بأسمرنا (ازمير) وافسوس Ephesus (افسه فى تركيا الآن) وبيثينيا وانطاكية وبالمورا (تدمر فى سوريا) ، وفى كل مدينة كان يزورها كان يفتتح المنشآت الحضارية الكبرى من معابد ومكتبات وحمامات ودور الرياضة والثقافة ومجارى المياه ، تاركا ذكرى طيبة بين شعوب الولايات التى وجد فيها الاخلاص والعرفان بالجميل الذى أنكره عليه الشعب الرومانى .

هادريانوس يزور الشرق الأوسط ومصر :

ومن آسيا الصغرى دخل هادريانوس سوريا التى كان حاكما عليها قبل توليه العرش ، ثم زار فلسطين ودخل بيت المقدس (مدينة اورشليم) حيث وجد المدينة أطلالا مهجوره ووجد معبد سليمان تسكنه الثعالب ووجد اليهود مشردين ومحرما عليهم الاقتراب من هيكل سليمان ، ومن ثم خطرت لهادريانوس فكرة وهى أن يعيد بناء أورشليم من جديد على الطراز الرومانى وباسم رومانى جديد هو آيليا كابيتولينا Aelia Capitolina ويجعل فيها معبدا لرب الرومان جوبيتر الكابيتولينى Jupiter Capitolinus ويقوم فوق هيكل سليمان وقدس الاقداس وبذلك يجعل اورشليم مدينة مختلفة تماما عن نظرة اليهود اليها ويحولها الى مستعمرة رومانية خالصة ، كما أعلن حظر ممارسة عادة الختان بين اليهود لأنه وصفها بانها عادة بربرية غير انسانية ، وقد أثار هذان المشروعان أبشع حركة تمرد قادها اليهود على طول تاريخهم بعد سنوات قليلة من مغادرة الامبراطور للشرق الاوسط .

ولم يعبأ هادريانوس بما الحقه قراره بمشاعر اليهود فى فلسطين وأكمل تجواله فى الشرق بعبور حدود فلسطين الى مصر فى صحبة زوجته فيبيا سابينا ووصيفتها جوليا بالبيللا Julia Balbilla وغلامه المفضل أنطينووس Antinous وكان شابا من اقليم بيثينيا فى آسيا الصغرى

كان يرى فيه تجسيداً لكمال الاجسام الاغريقية ورشاقتها ، خاصة ان الامبراطورهادريانوس يتخيل نفسه بطلااسطوريا مثل هرقل الذى كان يتخذله صبيا آسيويا من بيثينيا ؛ والمعروف لنا أن هرقل كان يعتبر البطل الاغريقى القوى المدافع عن الحضارة الهللينية ضد انتقام الشعوب البربرية (١) وبالتالى أراد هادريانوس أن يظهر بنفس الدور الذى قام به هرقل فظهر فى صحبة غلام آسيوى مثله ، على اى حال أبحر هادريانوس وزوجته وحاشيته الى الفرما راسا من فلسطين ، حيث وصل الى مصر فى مطلع خريف عام ١٣٠ ميلادية ؛ وقد سجلت عملة مدينة الاسكندرية الصادرة فى السنة الخامسة عشرة من حكم هادريانوس تلك الزيارة الامبراطورية ؛ ولما كان النيل فى ذروة فيضانه فقد اضطر الامبراطور الى الانتظار حتى مطلع الخريف ليقوم برحلته النيلية الى الاقصر واسوان على نحو ما فعل جرمانيكوس منذ اكثر من قرن ، فقد كان محرما على هادريانوس بصفته فرعونا على المصريين أن يركب النيل اثناء الفيضان . وفى آخر خريف عام ١٣٠ بدا اليخت الامبراطورى يتهادى على أمواج النيل حتى وصل الى طيبة القديمة وتفرج على معابدها وآثارها ووقف طويلا هو وزوجته سابينا امام تمثالى ممنون فى البر الغربى من الاقصر ومتع سمعه بالنواح الذى قيل انهما كان يصدرانه عند مطلع الشمس ، ولحسن الحظ أن بعض بطانة الامبراطور نحتوا أسماءهم فوق هذين التمثالين العملاقين ؛ كما نقشت الوصيفة جوليا باليبلا بعضا من الاشعار باليونانية الركيكة تخليدا لهذه الذكرى (١) .

ولابد أن يكون هادريانوس قد حزن لتدهور الحضارة الاغريقية فى مصر وتغلب القومية المصرية عليها فنا ودينا وفكرا ، كما لاحظ أن عدد المدن الاغريقية فى مصر لا يتناسب ومساحة مصر وعدد الاغريق بها والذين اضطروا الى العيش فى عواصم الاقاليم المصرية وفى الريف ... ط جموع الفلاحين ومن ثم أصبحوا مصريين واكتسبوا الطابع المصرى ، فعدد المدن الاغريقية فى مصر ثلاثة هى الاسكندرية ونقراطيس فى الدلتا ، وبطلمية فى سوهاج فى الصعيد ، كما ادرك أن مصر الوسطى وهى المساحة الممتدة من منف (ميت رهينة) حتى افروديتوبوليس (كوم شقاو بالقرب من طما محافظة سوهاج) خالية تماما من اى مدينة اغريقية كبرى ، ومثلما قلد تراجانوس الاسكندر فى فتوحاته قلد هادريانوس الاسكندر أيضا فى اقامته

---

(1) cf. A et E Bernard. Les Inscriptions grecques et latines du Colosse de Memnon (Paris 1960) pp. 15-24.

للحواضر والمدن الاغريقية واعطائها اسمه فقد بنى فى الجزء الاوروبى من تركيا عبر البسفور مدينة سماها مدينة هادريانوس Hadrianopolis لا تزال اطلالا قائمة حتى اليوم ، كما بنى ايضا ضاحية بذلك الاسم فى مدينة اثينا . وبالقطع جاء وهو يفكر فى بناء مدينة بنفس الاسم فى مصر ؛ غير أن الروايات روت أنه أثناء الرحلة النيلية وعندما كان اليخت الامبراطورى يتهادى قبالة قرية الشيخ عبادة (مركز ملوى محافظة المنيا) غرق الصبى انطينوس أثناء ملئه وعاء بالمياه لمولاه الامبراطور ، وقلد الامبراطور البطل الاغريقى الاسطورى هرقل فى حزنه عندما غرق فتاه هولاس فى ظروف مماثلة . وحزن عليه بشدة مدعيا انه أصبح مؤلها وكان الاغريق يقدسون ويعبدون الغرقى مثلما كان المصريون يفعلون ازاء غرقى النيل (١) ؛ ومن ثم وجد أنصار مزج الحضارتين فى مصر فرصة لخلق ديانة مشتركة نواتها الفتى الفريق انطينوس الذى أصبح ممثل أوزوريس تماما؛ وهنا وجد هادريانوس فرصته فى اعلان بناء حاضرة اغريقية خالصة بالقرب من المكان الذى غرق فيه انطينوس واطلق على هذه المدينة اسم أنطينوبوليس Antinoupolis . وجعلها النموذج الأمثل للحواضر الاغريقية فى مصر (٢) واتخذ من دستور نقراطيس القديم لها دستورا لحب الامبراطور لكل ما هو عتيق من الحضارة الاغريقية . ووطن فيها ما تبقى من العناصر الاغريقية التى لم تتمصر خاصة من اقليم الفيوم اقرب الاماكن من الحاضرة الجديدة وشجع المستوطنين باعطائهم امتيازات مختلفة مثل الاعفاء من الضرائب وتوزيع الاراضى وحق الزواج من المصريات ؛ وبنى للمدينة طريقا للقوافل يربط بينها وبين ميناء برنيكى على البحر الاحمر ليعطى المدينة مصدرا اقتصاديا دائما . وقد ازدهرت هذه المدينة فى العصور المتأخرة بل عرفها المسلمون باسم مدينة انصنة ؛ كذلك متع هادريانوس نفسه بتفقد مدينة الاسكندرية الخالدة والدخول فى محاورات مع فلاسفتها المقيمين فى الموسيون (دار الحكمة) بل يقال أنه ضم الى عضوية الموسيون اثنين من الفلاسفة المتجولين المشهورين وهما بوليمون اللاذقى وديونيسيوس الميليطى ، وقد لاحظ المتخصصون فى الآثار السكندرية وجود موجة من الانعاش الفنى الهلينى خلال وعقب زيارة الامبراطور سواء على النقود أو فى رسم أقنعة الموميات التى اشتهرت بها اللاهون والفيوم والروبيات بمصر الوسطى والتى لا يخلو متحف من متاحف الدنيا من نموذج لها

---

(١) انظر مقالنا « نظرة على الاغريق وعبادة الغرقى فى مصر العصرين اليونانى والرومانى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ المجلد الثانى عشر ١٧١ ص ١ ـ ٢٠ .

(٢) H.I. Bell : Antinoopolis : A Hadrianic Foundation in Egypt Journel & Roman Studies, XXX (1940), pp. 133-147.
cf. Dudley, op. cit., p. 199-202.

كذلك لاحظ المتخصصون فى دراسة الوثائق البردية بداية تطبيق نظام تقسيم الاراضى فى مصر حسب جودتها وتجديد الايجارات حسب هذه الجودة والتى كانت تتفق وسياسة الامبراطور الاقتصادية التى أصدرها عام ١١٨ م ، خاصة فى اقليم الفيوم وكانت الضرائب قد تراكمت فى الصعيد لمدة خمس سنوات ، وفى مصر الوسطى تراكمت الضرائب لمدة أربع سنوات ولمدة ثلاث سنوات فى الدلتا ، وربما اقر الامبراطور طلب الادارة الرومانية فى مصر الذى تقدمت به عقب موت تراجانوس مباشرة بالسماح لها بتطبيق نظام تأجير الاراضى حسب مناطق جودتها الزراعية ولا شك ان الغاء الديون المتأخرة عن كواهل الفلاحين المصريين بعث فى الناس الأمل وانعش الاقتصاد الذى قتلته الحروب الاهلية المخربة بين الاغريق المصريين وبين اليهود والتى دارت رحاها على طول الوادى ، وادت الى نقص الايدى العاملة بعد ان جند تراجانوس الفلاحين المصريين فى الميليشيا التى كونها لوقف هذه الحرب ، كما أن تخفيض الايجارات ادى الى انعاش الزراعة فى مصر حتى أن البعض يلخص أعمال هادريانوس فى مصر بأنها ثورة زراعية وثقافيه (١) .

هادريانوس يسحق ثورة اليهود فى فلسطين :

وما ان عاد هادريانوس الى روما من رحلته الى مصر حتى هبت ثورة اليهود فى فلسطين فى خريف عام ١٣٢ م ، وقد سبق أن بينا الاسباب التى ادت الى قيام هذه الثورة ، وقام اليهود بأعمال أرهابية فدائية ضد القوات الرومانية المعسكرة فى فلسطين وكان يقودها متطرف يهودى كان يدعى شيمون باركوخبا او شيمون بن النجمة ، وعلى الفور ابحر هادريانوس الى سوريا ، وجمع الجيوش الرومانية من عدد من ولايات الشرق ، كما عين عليها الجنرال الرومانى الشهير يوليوس سيفيروس الذى استدعاه من قيادته فى بريطانيا ، واتبع سيفيروس نفس الاستيراتيجية التى طبقها فسباسيانوس وتيتوس من قبل وهى عزل جيوب الثوار ومحاصرتها حتى المجاعة ثم تصفيتها بطريقة منظمة ، وقد بلغ عدد اليهود الذين لقوا حتفهم فى هذه الحرب ما يقرب من نصف مليون يهودى ، واسر ما يقرب من هذا العدد ، وبذلك تم سحق هذه الثورة عام ١٣٥ م بعد حرب استمرت عامين، ودمرت أورشليم وتحولت الى أطلال وتفرق اليهود هائمين على وجوههم

---

(١) cf. Westermann. J.E.A (1925) pp. 172-177.

وكذلك امال الروبى : كرانيس كوم اوشيم دراسة اقتصادية واجتماعية فى العصر الرومانى ـ رسالة دكتوراة غير منشورة ـ اداب القاهرة ١٩٧٥ ص ٨ ـ ٨١ .

بعضهم وصل الى الحجاز واليمن ومصر وعادت فلسطين الى الرومان . وتناقص عدد اليهود فيها حتى كاد ان ينقرض تماما .

تدعيم حدود الامبراطورية :

لقد كان هجر هادريانوس لسياسة التوسع التى سلكها سلفه تراجانوس وانسحابه من بعض المناطق ضرورة حتمية لانقاذ اقتصاديات الامبراطورية ، لكن ذلك لم يكن تراخيا او اهمالا لحدود وممتلكات الشعب الرومانى ، فقد حظى الجيش فى عهد هادريانوس باحترام كبير وأصبحت قوة روما مرهوبة الجانب تخشاها أمم الارض جميعا ، وأصبحت حدودها قوية محصنة ، فقد كان هادريانوس اول امبراطور رومانى يطبق خطة دفاعية منظمة لاقامة الحصون والأسوار والخنادق الدفاعية مثل حائط هادريانوس الشهيرة التى أشرنا اليها فى شمال بريطانيا ، وقد لقيت الحدود الالمانية بالذات معظم اهتمامه اذ بنى فيها عددا من القلاع والاسوار ذات الأبراج المحصنة والبوابات الكبيرة وبذلك احاط الامبراطورية بسياج دفاعى حقق الامن والسلام لشعوبها من هجوم البرابرة ، بل أصبحت هذه القلاع والحاميات على الحدود تشكل مناطق لجمع المكوس والجمارك ولضبط حركة التجارة بين الامبراطورية والشعوب الاجنبية من جيرانها .

اصلاحات هادريانوس فى المجال العسكرى :

لقد كان هادريانوس جنديا بكل عواطفه ولذا لم ينس الجيش أبدا . بل كان دائما فى مخيلته وعلى قائمة الاصلاح . حيث ادخل عليه برنامجا اصلاحيا شمل الضبط والربط والتجنيد والتدريب واستراتيجية المعارك وتكتيك القتال . لقد كان هادريانوس يعبد الضبط والربط العسكرى وسبق أن ذكرنا حبه لثكنات الجنود التى كان دائم الزيارة لها بل قيادته للجنود فى تمرينات المشى الطويل وهو يرتدى زى جندى عادى ويحمل متاعه مثلهم فوق ظهره ، وكان لا يترك جزءا من الثكنات الا وزارها وأعطى أوامره الفورية اللازمة بخصوصها ولذا التف الجيش حوله فى ولاء واخلاص ، واصبح محبا للنظام والطاعة ، وعلى درجة عالية من اللياقة القتالية والاستعداد الهجومى (١) .

ومن أهم التغييرات التى اجراها هادريانوس فى المجال العسكرى ازالته للفروق بين القوات الرومانية النظامية المعروفة باسم الفرق

---

(١) G.R. Watson, op. cit., p. 144, 148.

Legiones ، وبين القوات المساعدة auxilia التى كانت تتكون من الحلفاء الاجانب ، فى مجالات التدريب والتسليح والتشكيل ، ولاول مرة لم يعد المواطنون الرومان ينضمون الى الفرق فقط والاجانب للقوات المساعدة فقط ، بل اصبح هناك مواطنون رومان يخدمون فى القوات المساعدة واجانب يخدمون فى الفرق الرومانية . وقد حرص هادريانوس على تحريك الجيوش لتكون بالقرب من اطراف الحدود وابعادها عن المناطق الداخلية ، وكان دائم الحث للشباب للانضمام الى صفوف الجيش عن طريق تعميق الاحساس بالوطنية والواجب وعن طريق اغرائهم بتوطينهم فى مستوطنات عسكرية دائمة على الحدود وذلك بعد التسريح من الخدمة ، وقد نجح بالفعل فى تجنيد اعداد كبيرة من سكان مناطق الحدود ، وكان اغلبهم من أبناء الجنود الذين ولدوا بالقرب من المعسكرات أثناء الخدمة ، ومن ثم منح هادريانوس هؤلاء حق « وراثة الاب » وكان هذا الحق محرما عليهم قبل ذلك . وقد شجع هذا القرار المزيد من ابناء الجنود على الانضمام الى جيوش الحدود الرومانية .

والى جانب القوات المساعدة التى عسكرت فى القلاع والابراج على طول حدود الامبراطورية خاصة فى جبهتى الراين والدانوب اسس هادريانوس قوات جديدة اطلق عليها اسم « الفئات » numeri وذلك من القوميات المختلفة التى تتكون منها شعوب الامبراطورية مثل الجرمان وسكان الدانوب ومن البريطانيين ومن المراكشيين ، وكانت كل قومية من هذه القوميات تشكل قوة numeri وتقاتل بروح الجماعة وبطريقتها الخاصة ، وترك لكل منها حرية استخدام لغتها القومية واسلحتها المحلية ، وكانت كل قوة تشكل مجموعة متحركة وخفيفة السلاح والحركة اشبه بالقوات الخاصة فى الجيوش الحديثة ، وتتكون كل قوة من مجموعة المشاة او مجموعة من الخيالة او من المجموعتين معا ، كما شمل بعضها جماعات الاستطلاع والاستكشاف exploratores ، وفى بعض الأحيان كان يقود كل وحدة ضابط رومانى برتبة قائد مائة centurion ، وبالطبع كان لهذه القوات تأثير كبير فى حماية الحدود التى تعيش فى مناطقها أو بالقرب منها فضلا عن معرفتها الجيدة بطبيعة الأرض والعدو وسرعة حركتها وانتقالها .

اما بخصوص التجديد فى فن التكتيك الحربى الذى ادخله هادريانوس وسارت على نهجه الجيوش الرومانية حتى مجىء ديوقلديانوس ، فكان احياء نظام الفيالق المقدونية القديمة Phalanx عند الهجوم والدفاع ، فعند عمليات الهجوم تقوم القوات لمساعدة بمناوشة العدو وتجهيز ميدان

المعركة لفيالق الفرقة الرومانية لتضرب ضربتها القاضية والنهائية ، وفى حالة صد الدفاع تتلقى القوات المساعدة الضربة من لعدو وتستوعبها ثم تقوم فيالق الفرقة باكالة الضربة الانتقامية للعدو .

لقد جاهد هادريانوس من اجل خلق جيش دفاع وطنى متأهب للعمل فى اللحظة التى تصدر اليه الأوامر لكى يزود عن حدود الامبراطورية وسلامتها ويجعل المعتدين يفكرون الف مرة ومرة قبل التعدى على حدود الامبراطورية ، كما ان رعاية الامبراطور الخاصة لثكنات الجيوش وضربه المثل الأعلى للجندى جعل الروح المعنوية للجنود على درجة من العلو والنظام لم يسبق لها مثيل ، وحتى لا تفقد الجيوش عند الحدود لياقتها العسكرية أصدر اوامره بتحريم بناء الثكنات الفخمة البعيدة عن روح الجنود التقشفية ، كما حرم على الجنود العمل فى الزراعة أو التجارة وتكريس انفسهم لشرف القتال حتى لا يفقدوا هذه اللياقة ويبقوا فى درجة عسكرية عالية متأهبة ، ورغم هذا لم يؤثر هادريانوس سياسة التوسع العسكرى ، وانما كان هدفه جعل الجيش فى درجة الاستعداد والتأهب الدائم وفى حالة تسخين مستمر بقصد ارهاب العدو دون التورط فى حروب ، ففى عهده لم تقم جيوش الامبراطورية بأى حروب سوى الحرب ضد اليهود المتمردين فى فلسطين وهى حرب فى جوهرها دفاعية وليست هجومية .

تنظيم الادارة فى الولايات :

لم يكن هادريانوس بالرجل البسيط الذى يمكن فهمه بسهولة ، بل كان أكثر الاباطرة تعددا فى المواهب والقدرات منذ يوليوس قيصر ، فكان يحاول دائما ان يستحوذ على كل شىء ، ويلم بكل شىء وفى نفس الوقت كان يخرج من اشد المعضلات واعقدها بالحل الناجح والأمثل . كما ان رحلاته الطويلة ومراسلاته مع كبار الموظفين فى الولايات جعلته يلم بقدر كبير بفن الادارة فكان يعرف كل شىء عن كل ولاية وكان يرعى الشعوب مطبقا شعاره الذى رفعه وهو « مع الفقراء ضد الوجهاء ، مع المعوزين ضد الموسرين» humiliores contra honestiores, tenuiores contra potentiores
فكانت قرارته الفورية التى اتخذها اثناء تفقده لشئون الولايات عادة من اجل الفقراء البسطاء ، ففى اثينا اصدر قرارا بوقف تصدير زيت الزيتون حتى يحد من ارتفاع اسعاره ، كما وضع سعرا محددا للأسماك حماية للبسطاء من الناس من جنون الأسعار ، وفى آسيا الصغرى اعفى المدن من متأخرات الضرائب ، بل منح الاعانات المالية للمدن التى اصابتها الزلازل والكوارث الطبيعية ، وفى مصر خفض ايجارات ارض الامبراطورية بالنسبة

لمزارعيها من الفلاحين، وخفض الضرائب والغى المتأخرات . كما أعاد تنظيم انواع الأراضى وحدودها حسب جودتها وحدد الضرائب على ضوء ذلك . كما أعفى مزارعى الاقطاعيات الامبراطورية فى مصر من الخدمة الالزامية التى كان يفرضها وكلاء الامبراطورية الماليين conductores ، أو المشرفين على تحرير عقود الايجارات ، كما جعل مدة سريان عقود الايجار طويلة ومؤمنة حتى يطمئن المزارعين ويشجعهم على العمل بعد أن كانوا تحت رحمة هؤلاء المسئولين ، فساعد ذلك المعدمين من الفلاحين على الاستقرار المالى وبداوا يتحولون الى مزارعين مكتفين بل وموسرين (١) .

وفى شمال أفريقيا شجع الرومان على استيطان وتعمير الأراضى البور بزراعتها بحدائق الزيتون ، والغى الايجارات طوال المدة التى تكون أشجار الزيتون فى مرحلة قبل الانتاج ، ثم تبدأ الايجارات مخفضة وتزداد تدريجيا. كما أعطى هؤلاء المستوطنين الحق فى الاتصال به مباشرة اذا وقع عليهم ظلم او ضيم من وكلاء الامبراطورية الماليين أو جباة الضرائب الجشعين . ولذلك اصبح هادريانوس محبوبا من رعايا الامبراطورية الفقراء ويحظى عندهم بالتقدير والاحترام .

الى جانب ذلك كان هادريانوس ولوعا بالتعمير واقامة الحواضر فى كل أرجاء الامبراطورية ، ووصل العمران والتحضر اقصى درجاته فى الولايات فى عهده ، وحول كثيرا من القرى التى قامت بالقرب من ثكنات ومعسكرات الجيوش الرومانية الى حواضر ومدن تتمتع بالاستقلال الذاتى ، ومن المدن التى اقامها هادريانوس فى الولايات مدينة هارديانوبوليس فى تراكيا (على الحدود البلغارية ـ التركية واسمها الآن أدريانوبوليس) ومدينة هارديانوثيرا Hadrianuthera وستراتونيكا فى آسيا الصغرى ومدينة انطينوبوليس فى مصر ومستوطنة جوليا هادريانا أفينيو (Colonia Julia Hadriana Avenio) ومكانها الآن مدينة أفينيون Avignon فى جنوب فرنسا) وغير ذلك الكثير فى ولايات الدانوب .

وبقدر ما نشر العمران والحضارة بقد مـا نشر حقـوق المواطنـة الرومانية كمكافأة للشعوب التى تشربت تماما بالروح وبالثقافة الرومانية ، وهى سياسة رومانية سبق الاشارة اليها عند الحديث عن شمال أفريقيا وبداها يوليوس قيصر وقلدها الامبراطور اغسطس ، وسار عليها الأباطرة خلال القرنين الأول والثانى الميلادى ، وكان اعلى مرحلة هى منح المقاطعة او الولاية درجة المستوطنة Colonia الرومانية حتى يتمتع سكانها بالجنسية الرومانية الكاملة بدلا من الحقوق اللاتينية اذا كانت المدينـة أو المقـاطعة

(1) Heihelcheim & Yeo, op. cit. p. 359 also cf. Westerman, g. E. A. 1925, pp. 172-177.

متحالفة مع روما municipia ؛ فمثلا رفع هادريانوس بعض أجزاء ولاية شمال أفريقيا وولاية داكيا من درجة المقاطعة المتحالفة municipia الى درجة المستوطنة الكاملة colonia .

كما ابتدع هادريانوس تقليدا جديدا وهو منح الحقوق اللاتينية لاعضاء مجالس الشيوخ فى ولايات الامبراطورية (decuriones) وكبار الموظفين المحليين فيها ، وسماه الحقوق اللاتينية الكبرى (Latium Maius) او المجال اللاتينى الأكبر .

وكان هدفه هو تشجيع الوفاء للامبرطورية فى الولايات بخلق جماعات رومانية الثقافة والحقوق حتى تتحول الامبراطورية الى امبراطورية عالمية وليست وقفا على الرومان والايطاليين .

اعادة تنظيم اجهزة الحكم :

كما قلنا كان النظام disciplina بالنسبة لهادريانوس يكاد أن يكون عبادة ، ولهذا وجد الحاجة ماسة لاعادة بناء الجهاز الحكومى المركزى واختيار اكفا العناصر للعمل به ، فقد وضع شروطا لاختيار هذه العناصر لا تكاد تختلف عن الشروط التى نضعها للموظفين فى عصورنا الحالية : مثل أن يكون الفرد كفىء وقادرا ومدربا ووفيا للامبراطور وللامبراطورية ، ومقابل ذلك زاد من الرواتب واكثر من المكافآت التشجيعية لحثهم على العمل الدائم والخلاق .

كذلك نهج هادريانوس على نهج فسباسيانوس فى الاعتماد على رجال الفرسان لشغل المناصب العليا بدلا من المعتقين الذين كان يعتمد عليهم كلاوديوس واساءوا كثيرا الى الدولة حيث نشروا بذور الفساد والبيروقراطية ، لقد زاد هادريانوس من الاعتماد على طبقة الفرسان لادراكه مدى مهارتها العملية والقيادية فى ادارة شئون الامبراطورية ، كما عين الفرسان فى رئاسة الدوواوين المركزية الأربعة التى اوجدها كلاوديوس وهى ديوان المراسلات (ab epistulis) ، وديوان المظالم a libellis وديوان المحاسبات (a rationibus) وديوان المعارف a studiis وتكريما لمديرى الدواوين كان ينعم عليهم بالألقاب الشرفية والفخرية مثل الرجل المبجل Vir egregius ، والرجل الأكمل Vir perfectissimus والرجل الأسمى Vir eminentissimus وكانت هذه الألقاب قبل ذلك وقفا على قادة الحرس البرايتورى (١) فضلا عن ذلك انشأ هادريانوس ديوانين جديدين لزيادة مشاركة الفرسان فى الادارة وتدعيما لسير العمل

(1) Heihelcheim & Yeo, op. cit. p.

فى الامبراطورية وهما ديوان النقل والبريد Cursus publicus وكان البريد قبل ذلك ليس له ادارة مركزية بل تكليف يقع على عاتق سكان المقاطعات الايطالية وشعوب ولايات الامبراطورية ، لكن هادريانوس جعله ديوانا مركزيا منظما وجعل على راسه رجلا من طبقة الفرسان بدرجة برايفكتوس Praefectus Vehiculorum اى رئيس المركبات ؛ اما الديوان الثانى فهو ديوان الضرائب المركزية الذى كان يراسه امين الخزانة procurator والذى ينتشر رجاله ووكلاؤه فى كافة اجزاء الامبراطورية ، ومن التجديدات الادارية والقانونية التى أوجدها هادريانوس وظيفة محامو الخزانة Fiscus Advocati لاقامة الدعاوى نيابة عن الخزانة العامة وديوان الضرائب ، وأوكلت هذه الوظائف لرجال الفرسان الذين كانوا يشغلون وظائف عسكرية صغيرة ويريدون تغير مجال عملهم الى العمل الادارى والتدرج فيه ، فكانت وظيفة محام الخزانة هى اولى درجات سلم الوظائف العليا بالنسبة لهؤلاء الفرسان المدنيين ، وهكذا فصل هارديانوس بين سلك الفرسان العسكريين وسلك الفرسان الاداريين ، وكان الأخيرون لا يشتركون فى القتال ولكن يقومون بالشئون الادارية فى الولايات وفى داخل الثكنات التى جعل لهم فيها ادارة خاصة وحدد لهم واجباتهم داخل القيادة ، وبذلك لأول مرة منذ عهد اغسطس عين فرسانا مدنيين بلا خبرة أو تدريب عسكرى لتولى وظائف ادارية وكان هدف هادريانوس من ذلك جذب أصحاب الكفاءات والخبرات من غير العسكريين للمشاركة فى دعم أجهزة الحكم .

وينتقد البعض فكرة الفصل بين سلك الفرسان العسكريين والفرسان المدنيين لأنها خلقت قيادات عسكرية كبرى بلا خبرة مدنية أو ادارية وجاهلين فى فن الحكم كما خلقت قيادات ادارية كبرى بلا خبرة عسكرية وجاهلة بروح التعامل مع الجيوش والمواقف التى يتطلب فيها استخدام الجيوش ، وكانت النتيجة هو المواجهة بين القيادات العسكرية والقيادات المدنية كما حدث فى القرن الثالث الميلادى عندما وجدت القيادات الادارية العليا نفسها تحت رحمة القيادات العسكرية الجاهلة تماما بروح الادارة المدنية مما أدى الى تولى سلسة من الاباطرة العسكريين الأجلاف الذين تدهورت على أيديهم الادارت المدنية . وهذا عجل بتدهور الامبراطورية الرومانية فيما بعد .

كذلك دفع حب التنظيم الامبراطور هادريانوس الى خلق مجلس دائم للرئاسة Consilium principis يتكون من رؤساء الدواوين المختلفة

وقادة الحرس البرايتورى ، والخبراء من الفقهاء والمشرعين ، واصبح هذا المجلس هو الذى يرسم السياسة ويضع القرار بالنسبة للامبراطور وللامبراطورية ، بل واصبح هذا المجلس هو الهيئة التشريعية العليا التى تقترح على الامبراطور سن القوانين وتفسيرها ، بل وكان يتحول الى محكمة عليا لمحاكمة اعضاء السناتو وكبار قيادات الموظفين ، واصبح هذا المجلس للامبراطور بمثابة مجلس سناتو خاص ، بل وكان يصحبه هذا المجلس حتى فى رحلاته ، ويقال فى تفسير نشأة هذا المجلس ، أن الامبراطور هادريانوس كان كثير الترحال والسفر لتفقد أمور الثكنات والولايات ومن ثم كان بعيدا عن مجلس السناتو وغير قادر على الاتصال به او التفاهم معه : ومن ثم كون هذا المجلس (١) Consilium الاستشارى أساسا من الفقهاء والخبراء القانونيين من أمثال الفقيه سالفيوس يوليانوس Salvius Julianus الذى تطور التشريع الرومانى على يديه تطورا كبيرا ، وبدأ يأخذ الشكل الانسانى العالمى الذى أعطاه الخلود والبقاء حتى عصرنا الحديث .

الاصلاحات القانونية والتشريعية :

حرص هادريانوس على تطبيق القوانين تطبيقا عادلا وانسانيا فى كل أمور الدولة سواء فى مجال تخفيف الضرائب عن كواهل الناس وقت الأزمات الاقتصادية ، او تجميد الاسعار او تشجيع فلاحة الأراضى البور ، أو رفع مستوى الرعاية والخدمة فى أحياء العاصمة المكتظة بالفقراء والعبيد .

ولقد اصبحت اصلاحات هادريانوس فى مجال التشريع تراثا عاما للبشرية وقدوة لرجال القضاء فى كل مكان وزمان فمثلا جعل لفتاوى المشرعين والفقهاء responsa قوة القانون وملزمة للقضاة للأخذ بها عند نظر القضايا ، ولا يصبح القاضى حرا منها الا اذا تناقضت هذه الفتاوى مع بعضها البعض عندئذ يرجع القاضى الى ضميره ورايه لاصدار الحكم ، وقد جمع الامبراطور جستنيانوس الأول البيزنطى (٥٢٧ — ٥٦٥ م) هذه الفتاوى فى موسوعة قانونية Digesta نسبها الى نفسه .

---

(١) اشار الاديب بلينيوس الاصغر الى حضورة احدى اجتماعات هذا المجلس Epistulae, VI. 31 ، وعن موضوع الخلاف بين هادريانوس والسناتو حول المجلس الاستشارى انظر : B.W. Henderson, op. cit. وان كان المؤرخون قد بالغوا فى حجم هذا الخلاف .

كما كلف الامبراطور الفقيه سالفيوس يوليانوس باعادة مراجعة لوائح وتشريعات رجال القضاء البرايتورى Praetores ووضع لوائح ثابتة لهم للسير عليها بقيت مستخدمة ومراعاة لقرون عديدة ، وخلصت التشريع الرومانى من العوائق والتناقضات القانونية التى لم يطق هادريانوس على بقائها ، وقد عرفت هذه اللائحة باسم اللائحة الدائمة edictum perpetuum بعد أن وافق السناتو والامبراطور عليها وبذلك اصبح التشريع ثابتا ومواده معروفة وواضحة . بل أعطى للمواطن الحق فى اقامة دعوى ضد قانون معين ومقاضاة الدولة ولذلك أصبح القانون العادل هو الحكم فى كل انحاء الامبراطورية .

ولكى يسهل فض القضايا المتكدسة أمام المحاكم البرايتورية قسم هادريانوس ايطاليا ـ باستثناء روما ـ الى اربعة الوية قضائية ، وجعل لكل لواء ادارة قانونية مستقلة يتراسها قاضى القضاJuridicus consularis الذى كان عادة من رجال السناتو الذين يختارهم الامبراطور ، وقد قصد بهذا التقسيم تحرير القضاء من احتكار مجلس السناتو الرومانى وادارته الانفرادية المطلقة لهذا الجهاز ووضع ايطاليا فى درجة معادلة ودون تمييز لسائر ولايات الامبراطورية أمام القضاء والعدل ، كما قصد بها نزع البساط من تحت اقدام السناتو الذى ساءت علاقته بالامبراطور بعد هذا القرار . كذلك زادت أهمية الامبراطور فى مجال التشريع وأصبحت قراراته (Constitutiones) مصدرا للقوانين بل لها صفة القوانين الملزمة . وكانت هذه القرارات ذات درجات مختلفة فهى اما مراسيم امبراطورية edicta يصدرها الامبراطور بحق الأمبريوم الذى يحمله ، أوقرارات decreta يتخذها بعد نظر المشكلات ، أو ردوده responsa على التساؤلات التى يبعث بها موظفوه ، أو توجيهاته mandata الى الموظفين التابعين له وبذلك بدات ملامح التشريع الرومانى تأخذ الشكل الانسانى الخالد (١) .

علاقة الامبراطور بالسناتو :

بدات العلاقة طيبة بين الامبراطور ومجلس السناتو باعتبار هذا المجلس من ناحية النظرية شريكا للامبرطور فى حكم الامبراطورية فعند وصول هادريانوس الى روما لتسلم الحكم اتخذ مكانة فى السناتو كعضو عادى ، ثم قدم اعتذاره لتوليه السلطة بعد صدور المبايعة من الجيش مباشرة ودون انتظار موافقة المجلس ، ثم اقسم انه لن يحاكم عضو من المجلس بتهمة الخيانة العظمى الا امام محكمة من السناتو ذاته وقد حافظ هادريانوس على وعده طوال مدة حكمه .

(1) Heihelcheim & Yeo, op. cit. p.

غير أن سحب الخلاف بدات تتجمع بين الامبراطور ومجلس السناتو فالامبراطور كان كثير الترحال والسفر وبذلك وجد السناتو نفسه معزولا بلا عمل ، كما أن احتضان الامبراطور لرجال الفرسان فى الادارة أثار حقد السناتو الدفين ضد رجال هذه الطبقة ، وزاد من الخلاف تكوين الامبراطور للمجلس الاستشارى consilium الذى كان يتنقل مع الامبراطور ويرجع اليه فى المشورة ، زاد من احساس أعضاء المجلس بأنهم مهملين ولا يشاركون فى ادارة الامبراطورية . خاصة أن غالبية الخبراء والفقهاء القانونيين الذين كان يتكون منهم المجلس كانوا من طبقة الفرسان التى كان السناتو يحتقرها ؛ ثم كانت الضربة الكبيرة التى سحب الامبراطور بها البساط من تحت أقدام السناتو وهى تقسيم ايطاليا الى أربعة الوية قضائية يشرف عليها الامبراطور ويختار لكل منها رئس قضاتها ، وظل السناتو يقاوم هذا القرار وبالفعل نجح فى الضغط على خليفة الامبراطور هارديانوس وهو انطونينوس بيوس بأن يلغى هذا القرار ، لكن الامبراطور الفيلسوف ماركوس اوريليوس اعاده مرة اخرى بعد توليه .

وخلاصة القول ، بالرغم من انالشعب الرومانى وشعوب الامبراطورية قدرت أعمال واصلاحات هادريانوس ، الا أن السناتو استاء فيما بعد من تصرفات الامبراطور الذى لم يستطع فهمه على الطلاق ، ومن ناحية أخرى احسن هادريانوس بجفوة وهوة واسعة تفصل بينه وبين هذا المجلس .

وقد زادت هوة الخلاف فى الايام الاخيرة لحكم الامبراطور عندما اصيب الامبراطور بمرض مؤلم مزمن جعله اقل صبرا فى تحمل مضايقات السناتو عند معالجة بعض الحساسيات التى كان يثيرها هذا المجلس ، لكن السناتو لم يفلح أبدا فى الحط من شأن هذا الامبراطور الواسع الادراك ، والذى كان يعتمد على نفسه فى الالمام بكل الأمور وفى اتخاذ القرار المناسب ، كما فشل لسناتو فى سبر أغوار نفسه ومعرفة ما يدور فى عقله ، ولهذا ادعوا فيما بعد بأنه كان مختل العقل والشعور .

الرعاية الاجتماعية للفقراء والعوزين :

لقد بذل هادريانوس جهده الاكبر لحماية الضعفاء من الأقوياء ، والفقراء من الموسرين عملا بتعاليم المدرسة الرواقية ، وتعاليم فيلسوف الرومان الشهير سينيكا Seneca وتلبية لمطالب الكلبيين Cynics ، الذين يرون أن الناس مهما تباينت اوضاعهم الاجتماعية فهم جميعا بشر يساوى الموت بينهم ، ومن ثم فلا فرق بين الحر والعبد ، وبين الفقير والغنى .

ولهذا حرم هادريانوس على السيد أن يقتل عبده أو يعذبه أو يخصبه أو حتى يبيعه لجلاد Gladiator بارز حتى يقتل او يقتل لأى سبب ، وكان هذا أول تشريع روماني يعامل العبيد كبشر لهم حق الحياة كغيرهم ، كما الغى حق رب الأسرة القديم فى التحكم فى منح أو رفض الحياة بالنسبة لأبنائه وهو الحق القديم المعروف باسم ius vitae necisque (حق الحياة أو عدمها) والذى كان جزءا من سلطات رب الاسرة الرومانى paterfamilias ، كما وضع التشريعات اللازمة لحماية أموال الايتام والقصر من جشع الأوصياء عليهم ، وجعل من حق القصر ان يرثوا ويمارسون التصرف فيما آل اليهم من ارث دون الرجوع الى الوصى .

أما فى مجال أعمال الرعاية الاجتماعية والخيرية والتعليمية فقد سار هادريانوس على نهج نرفا وتراجانوس فى تخصيص جزء من اموال الدولة لرعاية وتعليم ابناء الفقراء والمعوزين الايطاليين ومن ثم عين نقيبا لرعاية الطفولة ومدها بالغذاء عرف باسم praefectus alimentorum يقوم بتوزيع هذه الاموال على الجهات والجمعيات الخيرية المختلفة ، كما خصص جزءا من الميزانية للانفاق على المدارس فى اجزاء الامبراطورية وتخصيص مرتبات للاساتذة المسنين ، واتباعا للسياسة التى بدأها فسباسيانوس دعم هادريانوس مدارس البلاغة والفلسفة والطب والفنون الحرفية بالاموال اللازمة سواء كانت فى ايطاليا أو فى ولايات الامبراطورية المختلفة .

حركة النشاط العمرانى فى روما وايطاليا :

يعتبر عصر هادريانوس عصر نشاط وتعمير عمرانى ليس فى ولايات الامبراطورية فحسب ، بل فى روما وايطاليا ، فمهارته فى تنظيم وتخطيط الاقتصاد الرومانى وفر للخزانة أموالا طائلة كانت تذهب سدى ، ومن ثم استخدم الفائض النقدى للقيام بمشروعات عمرانية كبرى ، فقد بنى ورمم مئات الابنية والمنشئات فى روما وحدها . أشهرها معبد فينوس وروما الذى يقال ان هادريانوس صممه بنفسه ، والمعبد الكبير الذى أقامه تخليدا لذكرى تراجانوس وزوجته افلوطينا بعد موتها عام ١٢٢ م ، وقصره المشهور بفيللا هادريان فى تيبور Tibur (تيفولى Tivoli) على ضفاف نهر آنيو Anio . والتى غطت مبانيها مساحة تزيد على المائة فدان شملت اجنحة الاقامة والقاعات والحمامات وقاعات المطالعة والحدائق الغناء التى زينت فى كل ركن بروائع الفنون التى تجعلها كما لو كانت متحفا على الطبيعة وهى لا تزال مباحة للزوار ، وعلى الضفة الاخرى من التيبر وبالقرب من مدينة الفاتيكان الحالية اقام هادريانوس اروع نموذج للعمارة

الرومانية على طول التاريخ وهو ضريحه الشهير Mausoleum (مكانه الآن قلعة سان انجلو St. Angelo) من الرخام الخالص والأعمدة التى نحت بعضها من المحاجر المصرية ، وزينت أرضيته بالفسيفساء ، وأقيمت فيه التماثيل المختلفة ، ونظرا لمتانة البناء فقد تحول فى العصور الوسطى الى قلعة اطلق عليها قلعة القديس انجيلو ولا تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم .

وآخر الأبنية الخالدة التى أقامها هادريانوس معبد البانثيون Pantheon الذى نفذه المهندس الاغريقى ابوللودوروس Apollodorus وهو لا يزال فى حالة جيدة رغم مضى السنين ورغم استخدامه المستمر عبر العصور ، ففى العصور المسيحية حول الى كنيسة عام ٦٠٩ م لكن منذ القرن التاسع عشر اعتبر اثرا قوميا ، وهـذا المبنى يتميز بأعمدته ومبانيه الدائرية وقبته الضخمة التى يبلغ قطرها ست وعشرين مترا . والتى اصبحت نموذجا لعدد من القباب المشهورة (١) .

هادريانوس فى أيامه الأخيرة :

بالرغم من انكباب هادريانوس على معرفة كل شىء بنفسه ودراسته على الطبيعة ووضع القرار الأمثل ، الا انه كان يفضل احيانا أن ينعزل عن العالم وعن الناس ليخلد الى ذاته ، يتفكر ويتأمل ويبحث عن الصفاء النفسى والجمال الروحى : ويراقب العالم واحواله من مكان بعيد وفى منأى عن الناس ، وقد أثار ذلك الشك والتخوف عند بعض المقربين اليه واعتقد بعض زعماء السناتو انه مختل العقل والشعور . ولكن الامبراطور ظل على ذلك الحال حتى آخر أيامه ، ويقال انه نظم ابياتا من الشعر الصوفى وهو على فراش الموت ، يناجى بها روحه ويسألها عن مصيرها ومقصدها بعد مغادرتها جسده .

وبذلك اثبت هادريانوس انه خادم الامبراطورية وسيدها والعليم بكل كبيرة وصغيرة فيها ، كما اثبت أيضا أنه كان متحررا من قيود العالم المادى ومن شهوات النفس وجورها عندما يخلو فى صفاء اليها يتأمل فيها ويحاسبها .

---

(١) منها قبة كنيسة أيا صوفيا الشهيرة فى القسطنطينية التى تحولت الى مسجد بعد الفتح العثمانى ، ومنها ايضا قبة كنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان ، وقبة مسجد الصخرة فى بيت المقدس ، واحدثها قبة الكابيتول الشهيرة فى واشنطون : وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

لم يغادر هادريانوس ايطاليا منذ عودته اليها عام ١٣٥ م بعد سحقه لثورة اليهود فى فلسطين ، واعتكف فى فيلته الشهيرة فى تيبور (تيفولى) فى ريف كمبانيا الخامل وعلى ضفاف نهر آنيو حبيسا فيها بعد أن اصابته حالة من الاكتئاب النفسى والملل المقبض ، والشعور بالوحدة وفقدان الشهية للحياة ، وسرعان ما أصابه مرض مؤلم عام ١٣٦ م حطم نفسيته وقضى على البقية الباقية من الأمل عنده .

هادريانوس يختار خليفته :

من المعروف أن هادريانوس لم ينجب ولدا لكى يخلفه ، كما أن ميله للاعتماد على نفسه أولا وحبه للعزلة جعله لا يتخذ لنفسه صديقا معينا يشاركه افكاره واحلامه ويعده لكى يتولى العرش من بعده ، بل كما رأينا ، جرت عزلته وانطوائه عليه غضب السناتو وعدائه .

- ولما تزايدت وطأة المرض وبدا الشفاء املا محالا بدا هادريانوس يفكر فى اختيار الخليفة الجديد ووقع اختياره فى أول الأمر على أحد اصدقائه من اعضاء السناتو هو لوكيوس كايكينيوس كومودوس Lucius Ceicinius Commodus وتبناه تحت اسم لوكيوس ايليوس قيصر ومنحه السلطة التربيونية ، ولكن هذا المختار مات فجأة فى شبابه عام ١٣٨ ميلادية وأخرس موته المبكر والمفاجىء الألسن الحاقدة والتى وصفت اختياره للحكم بأنه ضرب من جنون الامبراطور ، ولكن اختيار الامبراطور للخليفة الثانى اثبت مدى تعقله وحكمته اذ اختار فى هذه المرة ثريا رومانيا من ولاية بلاد الغال القريبة اسمه تيتوس اوريليوس انطونينوس Titus Aurelius Antoninus وكان أحد أعضاء مجلسه الاستشارى الذى كان يرافقه فى الترحال ، وتقليدا لاغسطس العظيم — أو ربما لأن هادريانوس أدرك ان أوريليوس انطونينوس رجل متقدم فى السن — فقد ارغمه على تبنى بدوره لوكيوس فيروس ابن الراحل كومودوس المختار الاول ، وكذلك أرغمه على تبنى ابن شقيقة زوجته وهو ماركوس انيوس فيروس وكان مثله أسبانيا وهو الذى اصبح فيما بعد الامبراطور ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius ، ومن ثم منح السناتو تيتوس أوريليوس أنطونينوس الامبريوم والسلطة التربيونية واصبح بذلك شريكا له فى الحكم .

وبذلك ضمن هادريانوس للامبراطورية اكثر من خليفة ولمدى جيلين كاملين .

ولم يبق بعد ذلك لهادريانوس سوى ان يتمنى مجيء الموت سريعا وسهلا لكن هذه الامنية لم تتحقق ، بل اشتدت وطأة المرض حتى كاد يجن من آلامه عندئذ فكر هادريانوس فى ان يضع نهاية لحياته ، فرجى طبيبه الخاص ان يعطيه سما زعافا لكن الطبيب فضل أن يتناول هو السم على ان يقدمه لسيده عندئذ رجى عبده ان يطعنه بالخنجر فولى العبد مذعورا من الرجاء .

وأخيرا فى العاشر من يوايو عام ١٣٨ م تحققت امنيته وفاضت روحه . وقام ابنه بالتبنى وخليفة انطونينوس بنقل جثمانه ودفنه فى الضريح المعد له واصدر قرارا برفعه الى مصاف الآلهة بالرغم من معارضة السناتو الشديدة ، وهكذا اصبح هادريانوس مؤلفا .

٤ — انطونينوس بيوس Antoninus Pius (١٣٨ — ١٦١ م) :

بموت هادريانوس اصبح خليفته المتبنى تيتوس أوريليوس انطونينوس امبراطورا ؛ وقد اظهر منذ اول لحظات توليه العرش وفاء شديدا لسلفه الراحل ؛ واصر فى شجاعة وعناد غريب ان ينتزع من السناتو المتمنع قرارا باعتبار هادريانوس الاها على غرار الأباطرة العظام ، وبسبب ذلك الاصرار كسب الأمبراطور الجديد كنيته الخالدة بيوس Pius أى التقى ، ومن ثم عرف عند المؤرخين باسم انطونينوس بيوس تعبيرا عن تقواه تجاه هادريانوس وبسبب التزامه بالواجب وبالفضائل والشمائل الرومانية القديمة ؛ وقد دفعه وفاؤه ازاء هادريانوس أن يكرس وقتا ومجهودا كبيرا لاكمال ضريحه بحيث يتناسب مع مقامه كامبراطور مؤله يعرف باسم هادريانوس المؤله Divus Hadrianus

حكم انطونينوس بيوس ثلاث وعشرين عاما مرت هادئة ، فقد كان الامبراطور هادئا وديعا فى حياته الخاصة والعامة ، لم يخرج ابدا عن سياسة هادريانوس ، بل سار على منوالها بوفاء عظيم ، فلم يحدث فى عهده حروب أو ثورات فى اى جزء من اجزاء الامبراطورية الا نادرا .

كان انطونينوس بيوس ذا قامة فارغة ، وطلعة بهية تنبىء بالوقار والتقوى ؛ وكان رقيقا مهذبا فى معاملته للناس ذكيا ، محبا للتبحر فى العلوم والمعرفة وخطيبا مفوها كما كان حازما مجدا فى عمله ، يكره الترف

---

(٢) للاسف معظم الابحاث عن انطونينوس قديمة واهمها .

E.R. Bryan : The Reign of Antoninus Pius (London 1895) ; Lacour-Gayet : Antonin le Pieux et son Tem, Paris 1888.

والتزلف ويعشق البساطة والصدق ، كما كان بعيدا كل البعد عن الكبرياء والغرور ، محبا للخير والعدل ، وقبل كل شيء كان وديعا . ولهذا لم يكن له أعداء كثيرون ، بل أحبه الجميع واخلصوا له .

ولد انطونينوس بيوس فى لانوفيوم Lanuvium احدى المدن اللاتينية القديمة ، وقد هاجرت أسرته من نيماوسوس Nemausus (نيميس Nimes فى بلاد الغال جنوب فرنسا) وكانت أسرته أسرة ارستقراطية عريقة تملك العديد من الضياع فى ايطاليا ، وقد احب انطونينوس ضيعته الواقعة فى لوريوم Lorium باقليم كمبانيا النائى حبا شديدا ، وكان يقضى فيها معظم وقته يحيا حياة الريفى البسيط ، يطعم مواشيه وطيوره ويقيم المآدب لأصدقائه ، ويقطف الثمار والزهور بنفسه ، ويقضى وقت فراغه فى صيد الاسماك والقنص ، وكان بيته الريفى البسيط احب اليه من القصور الخرافية التى بناها هادريانوس ومن سبقه من الاباطرة .

ولقد تقلب انطونينوس فى سلك الوظائف العليا حتى وصل الى القنصلية التى تولاها للمرة الثانية فى عام ١٢٠ م ، ولكنه آثر بعد ذلك أن يعتزل الحياة السياسية ويعود الى ضيعته ليحيا حياة الرومان القدماء. ولما تولى هادريانوس الحكم أخرجه من عزلته واختاره رئيسا لقضاة احد الألوية القضائية الاربعة التى قسم اليها ايطاليا ، وفى عام ١٣٥ م عينه حاكما على ولاية آسيا الصغرى بدرجة بروقنصل ، ولقد أظهر انطونينوس خلال فترة حكمه لآسيا الصغرى مواهبه وقدراته ونزاهته المطلقة ، وساعده على ذلك خبرته الطويلة فى مجال القضاء ، وتكريما له اختاره هادريانوس عضوا فى مجلس رئاسة الدولة ، وقبل موته بقليل اختاره خليفة ووريثا له .

انطونينوس والسناتو :

راينا كيف ان انطونينوس دخل فى دور التحدى مع السناتو بعد موت هادريانوس مباشرة عندما أصر على تاليهه أسوة بغيره من الاباطرة العظام ، بينما كان السناتو يصر على احلال اللعنة عليه ، بل والغاء كافة قراراته decreta وهذا يعنى الغاء قرار التبنى الذى جاء بأنطونينوس الى العرش ، لكن انطونينوس نجح فى عقد صفقة مع السناتو ، وهى أن يوافق على منح الالقاب الربانية لهادريانوس مقابل أن يلغى قرار تقسيم ايطاليا الى اربعة ألوية قضائية يقوم الامبراطور باختيار أمارقضاتها بقصد ابعاد السناتو عن مجال التحكم فى القضاء فى ايطاليا والذى كان يحتكر مجلس

السناتو منذ قديم الزمان ، وبالفعل اصدر انطونينوس قرارا باعادة نظام القضاء الى ما كان عليه اقبل صدور قرار هادريانوس ، واصدار العفو عن اعضاء السناتو الذى قبض عليهم هادريانوس فى أيامه الاخيرة وكانوا فى انتظار الموت .

وفى ضوء هذه الصفقة نجح انطونينوس فى اعادة الثقة بينه وبين السناتو ، بل حرص على دعم هذه الثقة باظهار احترامه لذلك المجلس واعتبار نفسه عضوا فيه قبل ان يكون امبراطورا ، ولذلك كان يحرص على حضور الجلسات ، ويستشير المجلس فى الكثير من المشاكل التى تواجهه ، كما كسب حب ورضاء السناتو بارساله المعونات المالية سرا لأسر أعضاء السناتو الفقراء ، ورفضه انزال ايطاليا من وضعها المتميز واعتبارها كغيرها من الولايات الاخرى فى الامبراطورية ، كما كان هادريانوس ينوى ان يفعل .

سياسته واعماله :

حرص انطونينوس على ان تأخذ العدالة مجراها وأن يسود القانون فى كل ربوع الامبراطورية ، كما حرص على دعم حدودها باقامة الحصون والقلاع والموانع عند أطرافها حتى ينعم أهلها بالسلام والطمأنينة ، ومن اشهر هذه الموانع الحائط الكبير الذى بناه فى شمال بريطانيا ، والواقع الى الشمال من حائط هادريانوس بالاضافة الى عدد كبير من القلاع المحصنة والابراج العالية فى المانيا ووادى الدانوب . وهى نفس السياسة التى بدأها هادريانوس .

كما ادى تنظيم الجهاز المالى فى عصر هادريانوس الى الاستقرار الاقتصادى فى الامبراطورية ، وامتلأت الخزانة العامة بالاموال التى راح انطونينوس ينفق منها بلا تحفظ على التعمير والعمران واعمال الخير والبر والرعاية الاجتماعية للفقراء ، وكانت الموانىء الايطالية أولى اهتمامه ، كما بنى الحمامات والمسارح وملاعب الرياضة والمكتبات العامة فى كثير من المدن الايطاليـــة .

وقد دفعه حرصه على ارضاء المعوزين والفقراء فى ايطاليا الى دعم صندوق الاعانة الاجتماعية والغذائية والصحية والتعليمية القديم ، وفتح فروع لها فى كافة الاقاليم الايطالية (١) وزيادة على ذلك فقد انشأ فى روما دارا لرعاية الفتيات اليتيمات والفقيرات تكريما لزوجته الوفية فاوستينا

---

(1) cf. Hands, op. cit pp. 110, 140 (2) ibidem p. 110, 140.

Faustina ، وقد اطلق على هـذه المؤسسة الخيرية اسم فتيات فاوستينا Puellae Faustinianne .

كذلك لم ينس انطونينوس شعوب ورعايا الامبراطورية فى الولايات، ففى عهده ازدهرت الطبقة الوسطى ونعمت بالعدل رغم استمرار النزف الرومانى لاقتصاد هذه الشعوب ففى مصر مثلا ، اعتبر عصره عصرا مبارك الخيرات حيث اكتملت الدورة الدهرية فى عصره (وهى ١٤٦٠ سنة) فى عام ١٣٩ م وظهر الطائر الخرافى العنقاء Phoenix لينهى الدورة القديمة ويبدأ الدورة الجديدة ولذا ظهر العنقاء مصورا على عملة مدينة الاسكندرية عام ١٣٩ م ، وعبر الفلاحون المصريون عن رضاهم بالامبراطور المبارك فى نقوشهم وخلعوا عليه الالقاب الدينية المختلفة فقد ذاقوا لاول مرة طعم العدل وشعروا بحماية الامبراطور العادل ضد الموظفين المستغلين لهم بدون وجه حق ، لكنه لم يستطع أن يوقف النزف الاقتصادى للولايات. واغلق عيناه تماما عن هذا الخراب الاقتصادى ، غيرانه ابدى استعداده لمواساة الملايين من الشعوب بالنظر فى شكواها بحرص ضد المستغلين من الوسطاء والحكام (١) . وفى ظروف معينة كان يخفض الضرائب أو يلغيها مضطرا بسبب حدوث الكوارث الطبيعية خاصة فى ولاية آسيا الصغرى .

وبالرغم من انفاقاته على رفاهية الايطاليين وعلى العمران فى الامبراطورية الا أن الأموال ظلت تتدفق على الخزانة وبلغ الفائض من الأموال عند موته الفين وسبعمائة مليون سستركيس أو ما يعادل تقريبا ١٣٥ مليون دولار ذهبى (بالتقدير الاقتصادى الحديث) .

تطوير التشريع الانسانى :

ان أعظم أعمال انطونينوس مساهماته الخلاقة فى مجال التشريع والقانون ، فقد احاط نفسه بأنبغ فقهاء التشريع والقانون وملأ بهم مجلس الدولة ، ومن مشاهير هؤلاء الفقهاء سالفيوس يوليانوس الذى قام بوضع أصول لائحة ثابتة للقضاء ، عرفت بأسم اللائحة البرايتورية الدائمة . كماكان لسالفيوس يوليانوس عدد من التلاميذ الفقهاء من أمثال فولوسيوس

---

(١) يؤكد ذلك المعثور على قصاصة بردية تسجل جزءا من محاكمة كاتب قرية مصرية بناء على دعوى اقامها أحد الفلاحين عليه وحقق فيها والى مصر فاليريوس يودايمون بنفسه وكان صديقا شخصيا للامبراطور انطونينوس ، وأمر بتغريم كاتب القرية والزامه برد تعويض للفلاح المصرى يعادل أربعة امثال ما صودر منه والوثيقة مؤرخة فى ١١ فبراير عام ١٤٣م انظر :
William Linn Westermann, «The Praefect of Liturgist, J.E.A. Vol. 40 (1953) pp. 107-111.

مايكيانوس Volusius Maecianus معلم الأمبراطور ماركوس أوريليوس ومؤلف الموسوعة الكبرى عن الائتمان المالى Fidei Commissa فى ستة عشر مجلد وموسوعته عن القضاء العام De iudiciis publicis فى اربع عشرة مجلد . ومن الجدير بالذكر ان ڤولوسيوس مايكيانوس كان واليا على مصر عام ١٦٠م فى أواخر عهد انطونينوس ، ومن بين اعلام القضاء والتشريع الذين ضمهم انطونينوس الى بطانته سكستوس بومبونيوس وأولبيوس ماركيللوس .

لقد كان انطونينوس خبيرا بكل دقائق القانون وقواعد الفقه والتشريع وله مساهمات عظيمة فى التفسير والتوضيح خاصة فى قوانين الوصاية على القصر والأيتام وضمان حقوق هؤلاء الصغار من ظلم الأوصياء وقوانين عتق العبيد حيث شدد من العقوبات المفروضة على السادة الذين يعذبون عبيدهم أو يقتلوهم وبذلك تحققت دعوة الكلبيين بأن العبد انسان قبل أن يكون عبدا ، كما حارب انطونينوس الجرائم بتشديد العقوبات عليها خاصة جرائم الخطف التى تفشت فى ايطاليا فى ذلك الوقت ، ومن مساهمات انطونينوس فى القانون الرومانى تخفيفه العقوبات المفروضة على الهاربين من الجندية والجيش ، واطلاق سراح الأسرى الذين قضوا عشرة سنوات فى الأشغال الشاقة بالمناجم والمحاجر ، كما الغى الحظر الذى فرضه هادريانوس على اليهود بخصوص ممارسة عادة الختان ، وحظر أى اضطهاد ضد المسيحيين ، ومن الطريف أن انطونينوس هو صاحب أشهر قواعد القضاء مثل « المتهم برىء الى أن تثبت ادانته » ومثل « اذا تنازع القضاة حول الحكم يفسر ذلك لصالح المتهم » .

سياسته الداخلية والخارجية :

بالرغم من عشق انطونينوس للهدوء والسلام ، الا أنه لم يأل جهدا فى أن يضرب بشدة اذا لاح فى الأفق خطر او تمرد أو تعرضت حدود الامبراطورية لأى خطر ، فمثلا قام بردع المتمردين من القبائل فى بريطانيا وموريتانيا ، كما ردع البارثيين بقوة واوقف تقدمهم فى ارمينيا ، فقضى على العديد من أعمال الشغب والتمرد ، لقد كان انطونينوس رمز العظمة والقوة والمهابة للامبراطورية وفى عهدة شدت سفارات الشعوب البعيدة رحالها الى روما طلبا للصداقة والسلام مع الرومان ، فجاءت سفارة من الصين وأخرى من باكتريا وثالثة من الهند ، وتردد اسمه فى بلدان واقطار دول أسيا ، بل لعب دور الحكم فى خلافات الممالك ، فعندما علم ان ملك بارثيا يستعد للاستيلاء على أرمينيا انذره فى رسالة جعلت الملك البارثى يهجر المشروع كله ، وكان يعيين الملوك ويختار الحكام ويتحكم فى حدود هذه الممالك . لقد كان حظ هذا الامبراطور التقى الوديع

العادل حسنا ، اذ لم يستغل ضعفه ووداعته احد من الطامعين فى الحكم فثار عليه ، لقد جنى انطونينوس ثمار سياسة تراجانوس العنيفة التوسعية، وسياسة هادريانوس القائمة على القوة المتيقظة الرادعه لكن الوداعة وحدها لا تحمى الامبراطورية لان السلام لا يقوم الا على القوة المتيقظة والرادعة كما كان الحال فى عصر هادريانوس ، ولولا ذكرى تصرفات تراجانوس وهادريانوس لتحركت القبائل البربرية ضد الامبراطورية وزحفت على حدودها لسلبها مصادر خيراتها ، لكن الخوف جعلها تحجم عن ذلك . غير أن انطونينوس اعتمد على جنى تمار من سبقوة دون ان يساهم هو لمن بعده بشىء فى دعم الوسائل الدفاعية للامبراطورية ، بل على العكس دفعه حرصه فى توفير الاموال الى اهمال نفقات الدفاع فبدا التراخى العسكرى ، وبدا الضبط والربط الذى خلقة هادريانوس يضعف ، وبدأت صلابة القوات الرومانية تلين وتتدهور ، فى حين كان اعداؤها خارج حدودها يتهافتون على تعلم مزاياها العسكرية وتقليد تدريبات وتكتيكات قواتها، أملا فى ان يرثوا بطشها يوما ما ، وعلى راس هذه الشعوب الجرمان والعرب والهون والفرس . ومن ثم كان عصره هو بداية العد التنازلى للقوة والكفاءة الاسطورية للعسكرية الرومانية ، وبداية عصر التراخى الذى أدى الى طمع اعداء الامبراطورية فيها .

لم يقلد انطونينوس سلفة هادريانوس فى كثرة التحرك والقيام بزيارات طويلة لولايات الامبراطورية ، بل اثر ان يعتكف فى روما أو فى احسن الأحوال فى مزرعته فى لوريوم بسهل كمبانيا يدير منها شئون روما والمقاطعات الايطالية والولايات البعيدة وذلك من أجل توفير نفقات السفر الباهظة، وكما قلنا كان من نتيجة حرص الامبراطور فى الانفاق أن توفر لدى الخزانة العامة أموال كثيرة استطاع أن ينفق منها بكرم من أجل رفاهية الشعب الرومانى ، فأقام له المهرجانات الرياضية والترفيهية لتسليته ، وشيد له العديد من المرافق والمبانى والمنشئات ، واعفى غير القادرين من الضرائب المتاخرة ، لكن أعظم اعمال أنطونينوس بيوس ، فرضه لروح القانون العادل الذى كان به مولعا ومتيما وخبيرا ، واصر بشدة على أن تأخذ العدالة مجراها فى شتى الاجهزة الادارية والمالية دون تحيز لاحد مهما كانت درجته الاجتماعية وبذلك أكد مبدأ المساواة المطلقة بين الناس امام شريعة القانون ، فى نفس الوقت حرص على تطويره ليتماشى مع خدمة الانسان ورفاهية المجتمع ولذا اعتمد كما رأينا على أعلام الفقه والتشريع وهم الذين أعطوا للقانون الرومانى روحه ونصوصه التى نعرفها الآن والتى ورثته عنه الكثير من القوانين الحديثة والمعاصرة .

موت الامبراطور انطونينوس بيوس :

سبق ان ذكرنا أن هادريانوس عندما اختار أنطونينوس أرغم هذا

الاخير على تبنى فتى اسبانيا اسمه ماركوس آنيوس فيروس Marcus Annius Verus ، ومن الطريف ان انطونينوس كان متزوجا من عمة هذا الشاب واسمها فوستينا الكبرى Faustina والتى اصبحت الامبراطورة بعد تولى زوجها انطونينوس العرش ، وقد أصبح ماركوس آنيوس فيروس بعد تبنى انطونينوس له يلقب باسم ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius

وفى عام ١٣٩ م انعم الامبراطور انطونينوس بيوس على خليفته ماركوس أوريليوس بلقب القيصر وكان ذلك بمثابة اعلانه خليفة له رسميا ، وفى عام ١٤٤ ميلادية زوجه من ابنته فاوستينا الصغرى ، ثم ولاه القنصلية ثلاث مرات ، وفى عام ١٤٦ طلب من مجلس السناتو الموافقة على منح ولى العهد السلطة التربيونية والامبريوم ، وكان هذا اعلان بأنه شريك منذ تلك اللحظة فى الحكم وامبراطور فى الظل .

وفى أيامه الاخيرة احس انطونينوس بنتائج اهماله فى المجال العسكرى وفى اعداد وتطور وتدعيم القوات ، وأن رصيد اعمال تراجانوس وهادريانوس قد نفذ وأن جيش الامبراطورية الآن ليس بالقوة الرهيبة القادرة بانزال الرعب فى قلوب الاعداء والطامعين (١) ، ويقال انه وهو على فراش الموت فى ضيعته فى لوريوم فى مارس ١٦١ م راح يهذى ويزمجر وينتقد الاباطرة الذين سبقوه الى أن خمدت انفاسه .

- الحكم المزدوج بين ماركوس أوريليوس ولوكيوس فيروس :

وبموت أنطونينوس بيوس فى مارس عام ١٦١ ميلادية خلفه ماركوس أوريليوس فى الحال ، وفى صمت تولى عرش الامبراطورية .

لقد كان ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius من ابرز وانبل اباطرة الامبراطورية ، فقد تربى فى كنف اسرة اسبانية ثرية مستنيرة ، اعطته حقه فى التعليم خاصة فى الفلسفة التى عشقها هذا الامبراطور وتبحر فيها وأصبح من ابرز اعلام الفلاسفة الرواقيين .

كان ماركوس أوريليوس رحيما ، خيرا ، متسامحا حتى شبهه البعض بالسيد المسيح فى اخلاقياته وسلوكه وحبه للمسالمة ، ولعل ماركوس أوريليوس رغم انه لم يكن مسيحيا - قرأ عن السيد المسيح وعرف شيئا عنه من المسيحيين الاول . فقد كانت المسيحية فى طريقها الى الانتشار والازدهار ابان القرن الثانى .

---

(١) كان سر قوة الامبراطورية وسياسة السلام الرومانى تقوم على المبدأ القائل اذا اردت أن تصنع السلام فاستعد للحرب .

si pacem Facis bellum para

ومن الواضح أن انطونينوس بيوس لم يلتزم به وهذا سر قلقه عندما اكتشف ذلك .

وقد اقبل ماركوس اوريليوس على الحكم بدافع الاحساس بالواجب وكاختبار لعزيمته فى التفانى فى المسئولية حسب تعاليم الفلسفة الرواقية ، وليس طمعا فيه لانه كان زاهدا عن متاع الدنيا (١) ، لكن حكمه قدر له أن يواجه اشد العدوان خطورة على حدود الامبراطورية من جانب الجرمان والبارثيين .

ولد ماركوس أوريليوس فى روما عام ١٢١ م لاسرة اسبانية ثرية وفى سن السادسة من عمره أجبر هادريانوس لوكيوس كومودوس فيروس على تبنيه ثم أجبر انطونينوس بيوس على تبنيه كخليفته من بعده .

ولقد اصر منذ الوهلة الاولى للحكم على أن يشرك معه اخاه المتبنى لوكيوس فيروس Lucius Verus فى تولى عرش الامبراطورية ويشاركه سلطاتها والقابها كاملة ، ولأول مرة يبدأ عهد جديد وهو الحكم المزدوج للامبراطورية واصبح يتولى عرشها امبراطوران كل يحمل لقب اغسطس .

ويرى البعض ان هذا التجديد نابع من حب ماركوس أوريليوس الشديد لأسرته ورغبته فى تدعيم صلة الرحم ، بينما يرى آخرون أن صفاء ذهن الامبراطور جعله يؤمن أن الامبراطورية كانت فعلا فى حاجة الى أكثر من رجل من اجل النهوض بأعبائها والوصول بها الى المستوى اللائق فى الداخل والخارج . والدليل على ذلك أن دقلديانوس وصل الى نفس القرار من باب الوازع الدينى الخالص بعدماية وثلاث وعشرين عاما .

لكن امل ماركوس اوريليوس قد خاب لأن لوكيوس فيروس كان متقاعسا ، ضعيفا ، يلهث وراء ملذاته ولهوه ، بالرغم من أنه كان شديد الاخلاص للامبراطور ملقيا عليه مسئولية الحكم وحده ، وقد حاول ماركوس أوريليوس بقدر الامكان تحريكه والافادة منه لصالح الامبراطورية ولكنه لم ينجح .

كان ماركوس اوريليوس فيلسوفا بطبيعته (١) ومريدا مخلصا للرواقية التى كان قد تلقى فى شبابه دروسها ، ومارس افكارها ، ولكن بغير تشدد او تعصب . وقد تركت الافكار الرواقية بصماتها واضحة على تفكير الامبراطور وسلوكه الاجتماعى فكان دائم الرضى والقناعة فى وجه كل

---

(١) cf. J. Romaine, Marc-Aurele, ou l'empereur de bonne volonté, Paris 1968. p 18 ff.

(١) عثمان امين — الفلسفة الرواقية — القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١. ص ٢٥٦ — ٢٦٩ .

المتحف البريطانى ــ لندن
ماركوس اوريليوس فى ثوب الكاهن الاعظم

الأعاصير ، لا يفرح ولا يحزن بل يقبل الامور على ما هى عليه بنفس راضية ، وقناعة نابعة من الايمان بالواجب وبالأمر الواقع .

لقد كان ماركوس أوريليوس دائم الرجوع الى ذاته والتأمل فيها ، ومن ثم جاء مؤلفه الشهير باللغة اليونانية لغة المثقفين والذى سماه مع الذات Ta eis heauton والذى ترجمه الرومان الى التأملات Meditationes وبالرغم من زهده وتجرده عن الطموح وجنون المجد فقد اقبل على حكم الامبراطورية بكفاءة منقطعة النظير ، دافعها الاحساس بالواجب الذى يقدسه الرواقيون ، ومن سخرية القدر أن الرجل الذى عبد السلام والمؤاخاة بين البشر لم يعط الفرصة لترجمة هذا الايمان الى حقيقة لأن الاخطار التى حاقت بالامبراطورية فرضت عليه القتال وهو كاره له من أجل حماية الامبراطورية من خطر الاعداء وهو جوهر الاحساس بالواجب (١) .

الحرب ضد البارثيين : (١٦١ ١٦٦م) :

لم يكد ماركوس أوريليوس يتولى العرش حتى غزى ملك البارثيين فولوجاسيس الثالث Vologases أرمينيا ، ولما حاول والى كابادوكيا الرومانى وقف هذا الزحف دفع حياته ثمنا لذلك ، واجتاح البارثيون ولاية سوريا غربا حيث هزموا الحامية الرومانية ونهبوا الولاية ، وبسرعة كلف ماركوس أوريليوس شريكه لوكيوس فيروس بتولى مهمة ردع البارثيين وطردهم من سوريا ، وبالرغم من أن الاخير كان كسولا متخاذلا الا أن الجنرالات الرومان تمكنوا من اعادة الأمور الى نصابها ، وفى عام ١٦٤ — ١٦٥ ميلادية استطاع الجنرال الرومانى الفذ افيديوس كاسيوس Avidius Cassius أن يستعيد بلاد ما بين النهرين ويستولى على سيليوكيا ومدينة كتيسيفون (طيسفون) عاصمة البارثيين ، ولكن انتشار وباء الطاعون بين القوات الرومانية فضلا عن النقص الشديد فى الامداد من غذاء وعتاد حال دون نصر ساحق للرومان (٢) ، ومن ثم عاود البارثيون احتلال ما بين النهرين وأرمينيا ولم يتمكن الرومان من استرجاعهما الا فى عام ١٦٦ ميلادية عندما مدوا سلطانهم شرقا حتى نهر خابور Khabur . ولم تمض سنوات قليلة حتى عادت بارثيا مملكة عميلة للرومان . ولكن ذلك النجاح فى طرد البارثيين لم يساو ما جره من بلاء على الامبراطورية عندما نشر الجنود الرومان

(١) Birley, Marcus Aurelius, London, Eyre and Spottiswoode, 1966.

(٢) cf. T. Frank : An Economical Survey of Ancient Rome, vol. V, p. 76., cf. F. Stark, op. cit., p. 237.

ماركوس أوريليوس الامبراطور الفيلسوف فوق صهوة جواده
- بياتزا دى كامبيودوليو - روما

العائدون من الشرق وباء الطاعون فى الامبراطورية وقد سقط نتيجة لذلك الآلاف من الضحايا .

حروب الدانوب (١٦٧ — ١٧٥ م) :

وقبل أن تستتب الأمور فى الولايات الشرقية اندفع خطر أشد ضراوة فى الشمال عند حدود الدانوب حيث هاجمت القبائل البربرية حدود الامبراطورية مستغلين استدعاء بعض فرق الجيش الرومانى هناك للخدمة فى حروب الشرق . وتقدمت القبائل البربرية على ساحل البحر الادرياتيكى صوب الجنوب ، وقد ظهرت الامبراطورية فى موقف لا تحسد عليه فهناك نقص شديد فى الجيش وحالة من الذعر بسبب انتشار الطاعون وافلاس فى الخزانة بسبب بهاظة الحرب البارثية ، ولكن الامبراطور التقى قابل ذلك بشجاعة منقطعة النظير فقام ببيع اثاث ونفائس القصر الامبراطورى ، وحلى الامبراطورة فى مزادات ليجمع التبرعات والاموال لسد النقص ، كما قام بتجنيد العبيد والعبيد المبارزين Gladiatores فى صفوف الجيش ، بل لم يتردد فى استخدام الجنود المرتزقة من الجرمان واهل سكيثيا لتعويض النقص فى الجيش الرومانى ، وانطلق هو وشريكه لوكيوس فيروس الى الحدود الشمالية للامبراطورية ، وبدأ الجيش الرومانى يطرد القبائل البربرية الغازية ويجليها عن الاراضى التى اغتصبتها ، وبينما كان القتال قائما على اشده سقط لوكيوس فيروس الامبراطور الشريك ميتا نتيجة لاصابته بأزمة قلبية وذلك فى عام ١٦٩م تاركا ماركوس أوريليوس وحيدا فى وجه الاعاصير والانواء ، لكن الامبراطور الشجاع والرواقى المؤمن لم يجزع من هذا الحدث الجليل ، بل اعتبره اختيارا من الطبيعة ومن العقل الاكبر لصلابة ايمانه وصبره على بلواه فى وجه المحن ؛ واستمر فى تقدمه حتى أدب القبائل الغازية وطردها الى ما وراء الراين والدانوب ، ثم تابع انتصاراته على قبائل القاديين Quadi والماركومانيين (Marcomanni) والصرماتيين Sarmatiani ، وغيرهم ، وكاد الامبراطور أن ينتهى منهم تماما فى عام ١٧٥م لولا أن جاءت الأنباء تحمل تمرد أكبر قادة الرومان فى الشرق وهو افيديوس كاسيوس .

تمرد افيديوس كاسيوس :

كان افيديوس كاسيوس حاكما على ولاية سوريا موطنه الأصلى ، وكان قائدا عنيفا قوى الشكيمة ، وبفضل ذلك حمى الشرق كله من خطر البارثيين فى وقت كانت فيه الامبراطورية مشغولة فى جبهة الدانوب، ولكن لسوء الحظ اضاع الجنرال السورى العظيم كل ما قدمه من خدمات

ماركوس أوريليوس (وكأنه المسيح) يقدم الاضاحى فوق تل الكابيتول فى حضور الكهنة ـ لوحة من قوس النصر الخاص به . هذه اللوحة تبين النزعة الواقعية فى الفن الرومانى فى قمة ازدهاره (والذى أصبح نواة للفن فى عصر النهضة الايطالية) فوجه الامبراطور المسن والمرهق بمسئوليات الحكم يدعو للشفقة والرثاء ـ روما بالاتزو دى كونسرفاتورى ـ

للامبراطورية عندماصدق شائعة بان الامبراطور ماركوس اوريليوس قد مات ، ولما كان افيديوس كاسيوس لا يثق فى قدرات كومودوس ابن الامبراطور فقد اعلن تحديه له وبانه احق منه فى تولى عرش الامبراطورية ، ولما كان كاسيوس سورى الأصل فقد وجد تأييدا كبيرا من الشرق الأوسط كله بما فى ذلك مصر الذى سبق لهذا الجنرال ان دخلها وقضى على الفتنة الكبرى التى قام بها فلاحو الدلتا ممن عرفوا باسم البقوليين Bucolici ، وبناء على هذا التأييد اعلن افيديوس كاسيوس نفسه امبراطورا من الشرق على غرار ما فعله فسباسيانوس ، ولما ثبت لأفيديوس كاسيوس كذب الشائعة ، وان الامبراطور لم يمت حاول التراجع عن مشروعه ولكن الوقت كان متأخرا ، ولم يعفه من هذا الحرج سوى طعنات خنجر أحد ضباطه الذين خانوه وقطعت رأسه لترسل الى الامبراطور .

ولما علم الامبراطور بنبأ التمرد فى الشرق ، عجل بعقد سلام مؤقت مع قبائل القاديين مضحيا بالنصر الذى كان على وشك من تحقيقه ، ثم استدعى زوجته فاوستينا وابنه كومودوس الى صرميوم Sirmium ثم جمع قواته استعدادا للتحرك نحو الشرق ، وفى خطبة درامية متنوعة الانفعالات من العنف الى السخرية من أعدائه ، الى وعده بالعفو والرحمة خاطب جنوده ، ولكن قبل أن يتحرك وصل الضابط من سوريا يحمل رأس الجنرال الثائر افيديوس كاسيوس والقاها عند قدمى الامبراطور الذى تأثر بشده ، واشاح بوجهه حتى لا يراها ، وأمر بأن تدفن بكل محافل التكريم والتبجيل . وكان يمكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، لكن الامبراطور أصر على السير بقواته الى الشرق ، ليقتلع رءوس الفتنة من كبار الضباط ويرهب المتشككين فيه ويهدأ القوات ويعيد الأمور الى أوضاعها ، وفى آسيا الصغرى ماتت زوجته فاوستينا التى احبها حتى العبادة ، والتى عاشت معه تحت سقف واحد ثلاثين عاما انجبت له خلالها ثلاث عشرة طفلا ، وتلقى الامبراطور هذه الضربة بايمان الرواقى القوى الايمان ، واستمر فى رحلته عبر آسيا الصغرى الى سوريا ومصر حيث قوبل بكل آيات الحفاوة والتكريم وهدأت القوات وعفا عن المتمردين ، وعاد الى روما عام ١٧٦ م حزينا مكلوم الفؤاد ، محطم الآمال بعد ان فقد زوجته وخيرة جنرالاته ، ومن ثم بدأ فى الاعداد لاعلان ابنه كومودوس خليفة له ، وكان هذا الأخير رياضيا وسيما ، مغرما بحلقات المصارعة ، لكنه غير مؤهل تماما لاكمال المسيرة التى بدأها الاباطرة الصالحون ، ولهذا يتهم المؤرخون الامبراطور ماركوس اوريليوس بأنه وضع نهاية حزينة لقصة سعيدة عاشتها الامبراطورية بسبب توريثه العرش لابنه كومودوس . وفى روما احتفل ماركوس أوريليوس بانتصاراته

على الجرمان والصرماتيين ، وازاح خلال الاحتفالات الستار عن تمثاله الشهير وهو يمتطى جواده الذى لا يزال قائما فوق الكابيتول .

عودة الامبراطورية الى جبهة الدانوب :

وبعد ان فرغ من احتفالاته عاد الامبراطور مرة اخرى الى جبهة الدانوب عام ١٧٨م وظل يقاتل بكل قوته وقواته حتى حقق النصر على الاعداء وطهر المنطقة منهم ، وكاد ان يحقق حلم الاباطرة العظماء من امثال اغسطس وتراجانوس فى اقامة ستار منيع من الحصون والقلاع والموانع فى جبهة الدانوب لولا أن القدر حرمه للمرة الثالثة من جنى ثمار النصر الذى بذل فيه مجهودا كبيرا ، اذ بينما كان الامبراطور فى معسكر القوات فى مدينة فندوبونا Vindobona (فينا) سقط فريسة لمرض قاتل قيل انه وباء الطاعون الذى كان متفشيا بين القوات فى ذلك الوقت . ولفظ الامبراطور انفاسة الأخيرة بين جنوده فى السابع عشر من شهر مارس عام ١٨٠ ميلادية ، ويقال انه وهو فى سكرات الموت ، راح يودع روحه الى مثواها الأخير ، ويناجيها مناجاة الصوفى قائلا لها « اذهبى الى حيث الشمس فى شروق فان شمسى أوشكت على المغيب » .

سياسة ماركوس أوريليوس الداخلية :

لقد بذل ماركوس أوريليوس مجهودا فى مواجهة ظروف صعبة بسبب بهاظة حروب البارثيين من ناحية ، وقبائل الشمال من ناحية اخرى . فضلا عن انتشار وباء الطاعون وما سببه من ذعر ونقص فى الرجال وتدهور فى الاقتصاد ، فى وقت لم يجد الامبراطور المال الكافى لاعداد جيش يرد الخطر عن أمن الامبراطورية وسلامتها . فما كان من هذا الامبراطور الشجاع الا انه قام ببيع نفائس القصر الامبراطورى والودائع الثمينة التى تكدست منذ أيام الاباطرة السابقين فى خزانة القصر فى مزاد علنى حتى ملابس الامبراطورة المطرزة بالذهب عرضها ماركوس أوريليوس للمزاد ايضا (١) . ولما طالب بعض الجنود بزيادة (٢) الرواتب اجابهم بصراحة ان اى زيادة لهم سوف تجىء على حساب أهاليهم فى المدينة (٣) ، ولم يتردد الامبراطور فى تجنيد العبيد والمبارزين والمرتزقة فى الجيش الرومانى لتعويض النقص ،

(١) cf. Scriptors Historiae Augustae, H.M. Ant. Phil, 17,4.

(٢) cf. Dio LXXI, [illegible],3.

(٣) Rostovetzeff : Economic and Social History of the Roman Empire. I, p. 358.

وبعد الانتصار على برابرة الشمال قام بتهجير الشعوب الاجنبية الى المناطق التى قضى الطاعون على الرجال فيها ، بل ولم يتردد فى نقل بعض هؤلاء البرابرة الأجانب ليعمروا مناطق فى ايطاليا ذاتها تعرضت لهذا الوباء الخطير خاصة فى الريف حيث عانت الزراعة تدهورا كبيرا بسبب النقص فى الرجال .

ومن الاعمال الجليلة للامبراطور تدعيمه للقضاء وذلك بزيادة عدد المحاكم للفصل فى قضايا الناس المتزايدة ، بل وتحت الحاح الحاجة أعاد نظام القضاة الاربعة Jurdici لادارة شئون قضاء المناطق الاربعة الرئيسية فى ايطاليا والذى كان قد ابتدعه هادريان وجر عليه سخط السناتو ، ثم الغاه الامبراطور انطونينوس ترضية للسناتو .

كانت نظرة ماركوس أوريليوس الى السناتو تختلف عن نظرة هادريان ، لان ماركوس اوريليوس اعتبر نفسه عضوا عاديا فى مجلس السناتو عند حضور جلساته ، وكان يناقش القضايا داخل المجلس بوضوح ويستشير اعضاءه فى المعضلات مشركا المجلس فى المسئوليات ، ولم يكن احترامه لرجال السناتو ابدا على حساب تقديره لرجال الفرسان ، بل أدرك رسالتهم واهميتهم واعتمد عليهم حيث يتوجب الاعتماد .

كان سياسة الامبراطور هى حماية الفقراء المعدمين (humiliores) من الاغنياء المتخمين honnestiores ، فقد حرص الامبراطور ماركوس أوريليوس على رعاية الفقراء وتوفير الحاجيات لهم من غذاء وترفيه ، وفى وقت الازمات الاقتصادية (١) كان يخفف عن كواهل الناس بالغاء الضرائب المتأخرة ، كما زاد من عدد الموظفين الماليين فى المقاطعات الايطالية لتحسين الادارة المالية ، كما وضع الاوصياء على القصر والأيتام من البلوغ حتى سن الخامسة والعشرين تحت اشراف ورقابة الدولة خاصة فى ادارة ضياع هؤلاء القصر .

كل هذا اكسبه شعبية ومحبة من جميع طوائف الشعب نظرا لهدوئه وبساطته وانسانيته فى الحكم وعطفه على الفقراء وزهده عن الحكم أو التملك وتفانيه فى سبيل الواجب فكان محل الاعجاب والتقدير من معاصريه ومن الاجيال القادمة .

ماركوس اوريليوس والخلافة :

بالرغم من نزاهته وتفانيه فى سبيل الواجب الا ان ماركوس أوريليوس لم يكن موفقا فى الحكم على الناس وتقدير المحيطين به ، فكل الذين بالغ فى

(١) M. Rostovetzeff : Economic and Social History of the Roman Empire, I, p. 358.

تقديرهم واشاد باخلاصهم وكفاءتهم لم يثبتوا سوى العكس . أن كل الذين أكال لهم الثناء والمديح فى كتابة « التأملات » ابتداء من زوجته فاوستينا الصغرى وابنائه حتى اصدقائه لم يكونوا سوى صورة سيئة مخالفة لانطباع الامبراطور المثالى عنهم . فلوكيوس ڤيروس لم يكن بالرجل الكفء على الاطلاق كما ثبت من تصرفاته ، ولم تكن زوجته الامبراطورة فاوستينا زوجة تستحق كل ما خصها به نظرا لسوء سلوكها ، كما أن ابناءه كانوا فاشلين عابثين دون مستوى تحمل المسئولية والواجب . فمثلا لم يكن ابنه العابث المستهتر كومودوس Commodus جديرا بتولى القنصلية عندما كان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة . حقيقة أن الامبراطور اضطر الى ذلك بعد موت لوكيوس فيروس وبعد حدوث حركة التمرد الكبرى فى الشرق والتى قادها الجنرال افيديوس كاسيوس ، وانه من حق الامبراطور ان يرشح خليفة له ليقى الامبراطورية شرور الصراع خاصة وهناك جنرالات طموحين . ولكن هذا الابن لم يكن أفضل الكفاءات . وعلى اى حال قبل أن يبلغ كومودوس الثامنة عشرة منحه ابوه لقب اغسطس بالاضافة الى السلطة التريبونية وبذلك اصبح من الناحية الرسمية شريكا لابيه فى الحكم . مثلما كان لوكيوس فيروس قبل وفاته . ولم يدرك الامبراطور أن كومودوس لا يملك لا القدرة الذهنية ولا الاخلاقية لتولى مهام هذه المسئولية الكبرى لحمل رسالته من اجل اسعاد الشعب الرومانى ، كما انه خرج على التقليد العظيم الذى سار عليه الأباطرة الصالحون فى اختيار الخليفة من العناصر الصالحة وليس توريث ابنائهم العرش من بعدهم .

٦ — كومودوس (١٨٠ — ١٩٢ م) :

كان كومودوس خيبة امل لاحلام أبيه العظيم ؛ وليس هناك فى تاريخ الفترة التى تولاها شيئا يمكن أن يقال لصالحه ، بل ان ادوارد جيبون اعتبر أن تولى كومودوس هو نهاية عصر الرخاء والاسترخاء الذى بدأ من بعد موت دوميتيانوس وهو ما يعرف بعصر الاباطرة الاكفاء أو الصالحين (١) .

ويبدو ان ماركوس أوريليوس احس بحقيقة ابنه ، ولكن الوقت كان متأخرا لازاحته عن طريق العرش خاصة بعد اعلانه شريكا معه ومنحه السلطات المخولة لذلك . غير أن الامبراطور أوريليوس رأى أن الحل الامثل هو أن يعين له شريكا قادرا ينصحه ويمنعه من الانحراف والسقوط كما

(١) يتهم بعض المؤرخين الامبراطور ماركوس أوريليوس بانه سبب بداية انهيار الامبراطورية وذلك بالغائه نظام التبنى واعادته عرش الامبراطورية الى نظام التوريث أنظر :
G. Ferrero : La Ruine de la Civilization antique, Paris (1921).

كان هو نفسه مع لوكيوس فيروس ، ويبدو ان ماركوس أوريليوس كان يعتقد ان مسئولية الامبراطورية الثقيلة سوف تغير يوما ما من شخصية ابنه كومودوس وتجعله أكثر حرصا واقل استهتارا ، كما وضع فى رجاله المخلصين أملا كبيرا فى اسداء النصح اليه وحمايته من نفسه وحماية الامبراطورية منه .

ولكن كومودوس مضى يتخبط باستهتار ضاربا عرض الحائط بكل نصائح ابيه ، فمثلا سارع الى عقد الصلح مع قبائل «الماركومانى» «والكادى» مضحيا بانتصارات أبيه لأنه كان يريد السلام مقابل أى شيء ، فهو لا يقوى على مواجهة الحروب ومسئولياتها لجبنه وضعفه ، وبعد أن تم ذلك غادر جبهة الدانوب وعاد مسرعا الى روما لينعم بمزايا الامبراطور ، ويتمتع بملاهى العاصمة ، تاركا الحكم برمته فى أيدى جماعة من الانتهازيين الذين التفوا حوله واعموه عن الحقيقة وراحوا يستغلون الحكم لنزواتهم ومصالحهم الشخصية .

كان كومودوس جبانا وقاسيا وشهوانيا ، كما كان شديد الاعجاب بقوته الجسمانية ، محبا لاستعراض ذلك فى الظهور امام الناس فى حلقات المصارعة ومع الجلادين ، مظهرا مهارته فى صيد الحيوانات المفترسة ، وكان يحرص على اظهار قسوته فى قتل من يصارعه سواء كان ذلك انسانا أو حيوانا . كان كومودوس يتشبه بهرقل البطل ذى القوة الخرافية فى الاساطير الاغريقية ، ويظهر مثله كقاتل للاسود الضارية . ولذا حرص كومودوس على أن يحتفظ فى تماثيله بالهراوة الكبيرة وجلد الاسد تماما مثلما كان يصور هرقل .

ولما كان كومودوس منهمكا فى عالمه الخاص فقد ترك الحكم تماما ، واحتقر السناتو ، ولما اكتشف أن هناك مؤامرة على حياته يحيكها زعماء السناتو بدأ فى الانتقام بوحشية من اعضاء هذا المجلس العريق . ولم يكن كومودوس محبوبا من أحد على الاطلاق ، وكان بقاؤه فوق العرش رهينة برضاء الحرس الجمهورى عنه ، ولهذا راح يسترضيه بالمنح والهدايا والجمائل ، وقد استغل الحرس الجمهورى الوضع الجديد للاثراء على حساب الامبراطور الضعيف لحين التخلص منه فى الوقت المناسب .

وبالرغم من التدهور الكبير فى أحوال الامبراطورية وشئونها الا ان حدودها بقيت سالمة بفضل يقظة جنرالات الجيش الرومانى الذين قاموا بواجبهم خير قيام ، وحموا حدود الامبراطورية فى موريتانيا وفى بريطانيا وفى داكيا . وردوا القبائل البادية عنها وسحقوها بنجاح .

ولكن الفوضى الداخلية بدات تهدد امن الامبراطورية . فقد انتشرت عصابات قطاع الطرق فى ايطاليا والولايات ، وبلغت جسارة بعض الخارجين على القانون فى بلاد الغال الى احتلال المدن وتكوين الجيوش لمحاربة وتحدى الحكومة الامبراطورية ، ونتيجة لذلك تدهور الاقتصاد بدرجة مخيفة لم يسبق لها نظير . وفى نفس الوقت راح الامبراطور كومودوس يغرق نفسه فى الترف والملذات والشهوات حتى أفرغ الخزانة وتركها خاوية على عروشها مسببا ازمة اقتصادية عويصة هددت افلاس الامبراطورية . ومن ثم لجأ الى العادة القديمة وهى تلفيق التهم الى الاغنياء والموسرين من اجل مصادرة اموالهم ، وعادالمخبرون السريون الى الظهوروبداوا فىالعملمن جديدبعدان قضى عليهم الاباطرة الصالحون ، وساد الرعب والقلق . وسط هذا كله طلب كومودوس من الناس اعتباره الاها حاكما بأمره ، بل سك عملات وضع على وجهها صورة له كرب على الرومان وسمى نفسه «هرقلالرومان» وبلغ من جنونه واستهتاره فى استعراض قوته الجسمانية أن تولى القنصلية فى الاول من يناير عام ١٨٣ وهو فى زى المصارع بالسيف Gladiator وفى الليلة التالية تآمر قائد الحرس البرايتورى كونتوس ايمليوس لايتوس Quintus Aemilus Laetus الذى كان يشك فى نواياه فأوعز الى منازله فى حلقة المصارعة واسمه ناركيسوس أن يخنقه حتى الموت مقابل مكافأة ، وقد عاون قائد الحرس فى هذه المؤامرة عشيقة الامبراطور واسمها ماركيا Marcia وكبير أمناء البلاط . ولما اشيع نبأ مقتله خرجت الجماهير تهتف للسناتو قائلة « لقد نجوت !! لقد كسبت » (١) .

وبمصرع كومودوس تنتهى فترة الاستقرار التى بدات بتولى نرفا ، وبدت الامبراطورية على وشك من أن تشهد صراعا مسلحا بين جيوشها حول العرش .

الاحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى عهد الاباطرة الصالحين :

يعتبر ادوارد جيبون الفترة (٢) من موت دوميتيانوس حتى تولى كومودوس أسعد عصور التاريخ الرومانى- بل الانسانى- كلهرخاءوازدهارا. لقد عاشت الناس سعداء مؤمنة حياتها ، وكانت ولايات الامبراطورية

(١) Dio Cassius LXXIV, 2,3.

(٢) من هذه النقطة يبدا كتاب ادوارد جيبون (١٧٣٧ — ١٧٩٤م) الخالد عن تدهور الامبراطورية الرومانية .

Decline and Fall of the Roman Empire

وقد ترجمه الى العربية : على محمد ابو درة وراجعه وقدم له محمد نجيب هاشم — دار الكتاب العربى ١٩٦٩ (فى اربعة أجزاء) .

ومقاطعات ايطاليا تنعم بالرخاء . حيث قامت المبانى الفخمة والمزينة بكل انواع المعمار والتى أقامها أصحابها الاثرياء على نفقاتهم الخاصة وهبطت الضرائب التى لم تكن تزيد على ١٠٪ من الدخل العام للفرد ، وكانت الحكومة المركزية كريمة مع المواطنين حريصة على رعايتهم ورضاهم . كان الاغنياء يسكنون « الفيللات » الريفية الجميلة المزينة بأروع فنون المعمار والنحت والرسم مما يدل على ارتفاع الذوق الحضارى والفكرى خلال تلك الفترة .

كان السناتو فى منتهى الرضا » فالأباطرة الجالسون على العرش كانوا من خيرة العناصر ، محبوبين من عامة الشعب . وقبل كل شىء هم أعضاء صالحون فى السناتو . وبالتالى فقد حرص الأباطرة على احترام السناتو ومعاملته بالملاطفة والرقة وعرض الامور عليه لاخذ رأيه فيها ، وقد أدى ذلك الى انصياع السناتو بدوره لارادة الامبراطور ومجاراة سياسته وآرائه وبالتالى وجد نفسه أكثر اعتمادا على شخصية الامبراطور (١) وقوته عن ذى

---

(١) حاول « ون ويليامز » حديثا فى مقال علمى طريف أن يرسم صورة دقيقة لشخصية كل امبراطور من الاباطرة الصالحين والمميزات السلوكية لكل منهم وذلك فى ضوء الوثائق والمصادر القانونية سواء الأوامر أو القرارات او الفتاوى أو من التأشيرات المدونة على الشكاوى او من الرسائل الدبلوماسية التى كان يرسلها الامبراطور عن طريق هيئة ادارته الخاصة مثل ديوان المراسلات (أو المظالم ») وخرج ويليامز بالصورة الاتية : هادريانوس : تتسم قراراته بالعجلة والتسرع ونفاذ الصبر والغضب ازاء الفساد أو الرشوة خاصة فى مجال القضاء ، وكذلك الهياج عندما يكتشف أن موضوعا ما يضيع وقته الثمين » أو أن موظفا قد اخل بواجباته العامة . كما كان أسلوب الامبراطور يكشف عن ثقته بنفسه بأنه قادر على اكتشاف الحقيقة عندما يستمع بنفسه الى الشاكى أو الشهود ويستجوبهم بنفسه ، وكان ينصح عامليه بالتروى وعدم الضرورة فى الالتزام الأعمى للعقوبات فى ضوء الاثباتات والادلة ، بل يجب الرجوع الى الضمير والحدس وهو بذلك يحاول فى اعطاء الثقة بالنفس لدى عامليه ، ويرفض ويليامز رأى سايم
R. Syme, Les empreurs romains d'Espagne (1965) p. 254.
بأن هادريانوس كان متحاملا على اغنياء الاقاليم ومتحيزا ضد فقرائها » لكنه يوصى فى احدى رسائله الى والية فى مصر » أن يظهر تصرفا انسانيا ورحيما مع الفلاحين » عام ١٣٤ و ١٣٥ م بسبب عدم وفاء النيل وفاء كاملا ، ويشرح فى لهجة فلسفية طبيعة الاشياء التى تدور فى دورة : رخاء فجدب فرخاء جديد يولد من الجدب . ويتسم هذا الخطاب أيضا برغبة الامبراطور فى الحديث الى الفلاحين المصريين مباشرة دون وسيط وتكراره للفظ Philanthropeia اى الرحمة الانسانية وذلك فى أكثر من مكان » كما أن اسلوبه يتسم بروح الفلسفة الصوفية الاغريقية ويرجح المؤلف أن يكون

قبل ، بينما بدأ موظفو الامبراطور ورجاله المخلصون يشغلون الوظائف

= ذلك انعكاسا للمرض الذى حاق بالامبراطور فى أيامه الأخيرة . كما ان اهتمامه بمراسلات ديون المظالم يكشف عن عدالته وحساسيته التامة لانصاف المظلومين أيا كانت قوميتهم أو موطنهم ورغبته فى تنمية الروح الفردية لدى موظفيه باظهار ثقته فيهم وتحميلهم للمسؤلية انظر

P. Garnsey, Social Status and Legal Privilege in The Roman Empire, London (1970) p. 210-212.

كذلك فان الامبراطور هادريانوس كان يبدى اهتمامه لرسائل الاقاليم المثيرة للمشاكل والمظالم اكثر من رده على قرارات المدن التشريفية المتعلقة لشخصه وكان رده عليها يتسم بالدبلوماسية والمجاملة مثل رسالته الى الاثينيين .

أما مراسلات انطونينوس بيوس فيظهر منها الصرامة والحزم لكن مع الروح المرحة والميل الى السخرية والتهكم والاسلوب الساخر والنقد اللاذع وهى صفة تميزه عن سلفه هادريانوس ، ومن أهم ميول انطونينوس الحرص على تطبيق القوانين بدقة واهتمامه الخاص برعاية الرقيق ، ويقول المؤلف ان دافعه فى ذلك هو العقل والحكمة والتقوى وليس العاطفة الانسانية والميل الى اظهار الرحمة الانسانية انظر

G. W. Bowersock, Greek Sophists in the Roman Empire p. 34-40.

كذلك انظر : (J. Nutton) J.R.S, LXI (1971), pp.53-63

كما تبين رسائله احترامه لكل قرارات هادريانوس ، كما سار على نهج سلفه العظيم فى رعاية وتنمية الثقافة الاغريقية وبسط حمايته على المدن الاغريقية من اجل رفاهيتها ورخائها

أما الامبراطور ماركوس أوريليوس فقد كان شديد الميل الى طلب التفاصيل الدقيقة عن الموضوعات حتى ولو كانت تافهة ، كما كان لديه طاقة مدهشة فى التحمل والصبر عند بحث الامور وهذا واضح من طول رسائله وردوده مثل رسالته بخصوص الخلاف بين هيرودس أتيكوس والاثينين (والتى أشرت اليها فى ص ٣٠٣ هامش ١) ، كما تظهر رسائله دقة وتطرفا فى الحرص يبلغ درجة التقعر عند اختيار كلمات رسائله سواء باليونانية أو باللاتينية ، فأسلوبه شديد الرقى ومتزمت من ناحية الأسلوب واللفظ مما يعكس ثقافته الراقية وميله لاظهارها ، وسيرا على نسق أسلافه كان يحرص ويؤكد على الرحمة والانسانية والانصاف والعدل(انظر ص ٢٧٣) وتكرار كلمة الضمير والوازع الاخلاقى والاخلاص يؤكد انه كان ذا ضمير يقظ وسلوك متعقل وراى واجع سواء عند اصدار الحكم أو ابداء الراى .

أما الامبراطور كومودوس فيلاحظ المؤلف صمت الوثائق ويشرح ذلك بتقاعس الامبراطور وكسله . وعدم رغبته فى ارهاق نفسه بالعمل أو حرصه على العدل والانصاف ، ويضيف أيضا أن صمت الوثائق يبين خوف عامليه فى الولايات من غضبه وميل المشرعين الى السكوت تجنبا لشروره . وللمزيد عن هذه المعلومات ارجع الى تفاصيل المقال :

Wynne Williams : Individuality in The Imperial Constitutions. Hadrian and The Antonines, *Journal of Roman Studies*, Vol Lxvi (1976) pp. 66-83.

العامة والحساسة فى الامبراطورية على حساب الوظائف الدستورية الرومانية والموجودة منذ أيام الجمهورية . فضلا عن عنصر الاستمرارية فى سياسة الاباطرة الصالحين ، بعكس أباطرة القرن الاول الميلادى حيث اختلفت السياسة باختلاف شخصية الامبراطورية وقدراته الفكرية والعقلية.

ولكن اعتماد حكومات الاقاليم فى نفقاتها على ما تتبرع به الحكومة المركزية ادى الى عواقب وخيمة ، فقد راحت سلطات الاقاليم تنفق الاموال ببذخ معتمدة على معونة الحكومة المركزية فى حالة افلاس خزانتها المحلية. وهذا جعلها غير ملتزمة بمسئولية معينة تجاه الامبراطورية . ومن العوامل ذات التأثير المسىء اعتمادها فى نفقاتها على تبرعات الاثرياء من أبنائها لمشروعاتها مما جعل بعضهم يسعى للحصول على وظائف حكومية صغيرة ذات رواتب ويهرب من المناصب الشرفية العليا خوفا من هول نفقاتها ولانها مكلفة ، ووجدت الامبراطورية نفسها فى بعض الاحيان تسعى الى فرض الوظائف بالقوة على الاعيان من أبناء الولايات (١) وبهذا حرمت الاقاليم من خبرات أعيانها فى وقت كانت فى مسيس الحاجة اليهم لتطوير الاحوال فيها .

ان رخاء الاحوال عامة فى الامبراطورية فى القرن الثانى الميلادى لا يجعلنا نهمل حقيقة هامة وهى وجود تناقض كبير بين الطبقات الاجتماعية ، فبينما كانت الفيلات الفخمة والحالة تنتشر فى الاقاليم كانت هناك الاحياء الشعبية القذرة فى المدن بسكانها الرعاع الكسالى والفضوليين . والذين اعتبروا اصلاحات الاباطرة الادارية والتشريعية مثل مراقبة الاوصياء على القصر أو الالزام بتسجيل المواليد فى دفاتر القيد تدخلا لا لزوم له فى حياتهم

---

(١) حدث هذا فى ولاية بيثينيا Bithynia عندما أجبر بعض الاغنياء على قبول عضوية المجلس التنفيذية انظر Pliny. Epistuale, X, 11. وفى مصر فرضت وظيفة الجمنازيارخ gymnasiarch (رئيس الجمنازيوم) بالامر على الاثرياء الاغريق وكذلك الوظائف الادارية الاخرى . انظر : cf. Ortel, Die liturgie

وكان لهذا الاتجاه عواقبه المريرة فى مصر اذ بدأ الهروب من تولى الوظائف الشرفية العامة واتجهت الحكومة الى تحميل الاغنياء أكبر قدر من الوظائف التى ينفقون عليها . من أموالهم الخاصة مما أدى الى اختفاء الطبقة الموسرة فى الريف وتحولها الى طبقة معدمة وذهبت أراضيها الى الاقطاعيين الذين بدأ نفوذهم ينتشر تدريجيا وبلغ مداه فى العصر البيزنطى .

الخاصة . ولكن بفضل الاباطرة الواعين الصالحين اصبح العالم الرومانى اكثر التزاما واكثر احتراما للقوانين ، واكثر ميلا لوضع الامور فى نصابها القانونى ، وبذلك تحول الجو العام الى وقار وانضباط واعتزاز بالواجب بشكل لم يسبق له مثيل .

ازدهار الثقافة والعلوم الاغريقية والرومانية :

لقد خلفت لنا هذه الفترة المزدهرة من الامبراطورية الرومانية تراثا غنيا من الادب الاغريقي والرومانى . فلقد ادى السلام والرخاء الى انتشار العلم والثقافة وحب الفنون الجميلة . ولقد ادى عشق بعض الاباطرة الى الثقافة الاغريقية الى ازدهارها فى روما ذاتها ، وكان النثر والبلاغة قمة قمة الانتاج الادبى المكتوب بالاغريقية والذى غمر بلدان البحر الأبيض كلها ، أن الدليل على ازدهار اللغة والادب الاغريقى فى هذه الفترة هو كثرة عدد الكتاب والادباء الاغريق الذين ازدهروا فى هذا العصر ، ثم الى تفضيل المسيحية الى استخدام اللغة اليونانية كلغة الاناجيل والكتابات المبكرة لهذه الديانة التوحيدية فى مهدها . بل ان الامبراطور ماركوس اوريليوس نفسه فضل ان يكتب بالاغريقية مؤلفه الفلسفى الشهير « الى الذات » Ta Eis heauton وقد ترجمه الرومان الى اللاتينية تحت عنوان التأملات Maditationes .

ومن اشهر الادباء الاغريق فى هذه الفترة الاديب ايليوس ارستيديس Aelius Aristides ١١٧ ــ ١٩٠ ميلادية) والذى الف خمسة وخمسين كتابا فى البلاغة والخطابة . ومن بين هذه الخطب البلاغية واحدة جعل موضوعها عظمة روما القاها ابان حكم الامبراطور انطونينوس بيوس ، وفيها وصف الامبراطورية بانها اتحاد مدن تتزعمه روما ، وقد تلقى ارستيديس تعليمه على يدى الخطيب الاثينى الشهير هيروديس أتيكوس Herodes Atticus (١٠١ ــ ١١٧ م) والذى عرف بثرائه (١) وتبنيه للمشروعات الادبية والفنية فضلا عن عبقريته . وقبل ذلك بقليل لمع اسم الاديب والمؤرخ ديو كروسوستوموس « ذو الفم الذهبى » Dio Chrysostomos (٥٠ ــ ١١٥م) الذى كان صديقا لنرفا وتراجان والذى

---

(1) P. Grandor : Un milliardaire antique, Hérode Atticus et sa Famille, (Cairo 1930).

ترك لنا مجموعة من الخطب قلد فيها اسلوب أفلاطون وديموستنيس وهى عبارة عن مقالات قصيرة ذات موضوعات سياسية واخلاقية .

ومن أشهر المؤرخين الاغريق الذين عاشوا ابان تلك الفترة بلوتارخوس (٤٦ - ١٢٠ م) وكان رجلا مرموقا جاء من مدينة خايرونيا الشهيرة فى شمال اليونان حيث خلف تراثا غنيا فى الادب التعليمى ، يهدف الى مساعدة الناس فى الوصول الى حياة أفضل ، وكان بلوتارخوس معلما لولى العهد هادريان فى عهد الامبراطور تراجان الذى انعم عليه برتبة سيناتورية قنصلية . ولكن بلوتارخوس آثر ان يعود الى وطنه فى بلاد اليونان ليساهم فى ادارتها ولكى يكرس نفسه للكتابة باللغة الاغريقية .

ومن أعظم ما أخرجت عبقريته عمله الكبير « السير المتوازية لحياة مشاهير الاغريق » التى هى دروس فى السلوك والاخلاق وعبرة لمن يريد أن يعتبر وليست سوى تاريخ سير سجل أعمال هؤلاء العظام. وتتميز هذه السير الذاتية بالحيوية والانجذابية ، وساعدت على ملء الفراغ فى بعض جوانب تاريخ هذه الفترة وتزيد من معلوماتنا عن أحداثها وتفاصيلها . ولهذا صارت من المطالعات المفضلة لطالبى الثقافة عبر العصور .

ومن مؤلفاته الاخرى عدة مقالات متنوعة غطت مواضيع مختلفة اهمها الجانب الاخلاقى ولكنها شملت أيضا موضوعات فلسفية وادبية ودينية وتاريخية واثرية .

ومن العبقريات التى شهدها هذا العصر الاديب باوسانياس (حوالى ١٥٠ م) Pausanias الذى سلك طريق هيرودوت فى السفر والترحال من أجل المشاهدة والتسجيل ، وقد قام بعدد من الاسفار خرج بعدها مؤلفه الكبير « سياحة فى بلاد اليونان » الذى يقع فى عشرة أجزاء كاملة تحتوى على وصف دقيق لجغرافية اقاليم اليونان ، ولمبانيها الشهيرة والمعابد الكبيرة واعمال الفنانين الاغريق فى كل جزء فيها . كما شمل وصف باوسانياس معلومات شتى عن العبادات والشعائر والاساطير والروايات الشعبية ، انه منجم غنى يذخر بالمعلومات الهامة التى يعتمد عليها الاثرى والمؤرخ وعالم الفنون القديمة على السواء(١) وقد كتبه باللغة اليونانية ايضا.

(١) لا تزال الترجمة الوحيدة المعتمدة هى ترجمة سير جميس فريزر
James George Frazer, Sir, Pausanias Description of Greece, London 1898.

وهناك مؤرخ معاصر لباوسانياس وهو اريانوس Arrianus البيثيني Bithynia (حوالي ٦٥ ـ ١٧٥ ميلادية) الذى قلد اكسينوفون وضاع أعماله على طريقته ، وهو الذى ترك لنا معلومات وفيرة عن الاسكندر الاكبر والتى بدوره استقاها من المصادر القديمة مثل كتابات ارستوبولوس وبطليموس ، وبالرغم من وفرة معلومات اريانوس الا انه اخفق فى تحقيق الجاذبية الأدبية والتاريخية التى يتميز بها كسينوفون . والى جانب مؤلفه عن الاسكندر الاكبر كتب أريانوس وصفا لشواطىء البحر الاسود وجمع اقوالا مأثورة للفيلسوف الرواقى ابيكتيتوس Epitctetus والذى كان عبدا واعتق وعاش فى الفترة ما بين عهد نيرون وعهد انطونينوس بيوس لقد كان الفلاسفة الرواقيون والكلبيون يقومون برسالة التوجيه المعنوى والروحى للناس ولهذا كسبوا شعبية كبيرة فى هذا العصر كرسل الهدى والخلاص لمن يطلبها من الفقراء والبائسين .

ومن اعظم مؤرخى القرن الثانى الميلادى المؤرخ المصرى أبيانوس السكندرى Appian of Alexandria ٩٠ ـ ١٦٠ م تقريبا) وكان أبيانوس موظفا مدنيا بروما ؛ احس بالفارق الكبير بين الحياة المضطربة فى عصر الجمهورية الملىء بالحروب وبالسلام الرومانى والرخاء فى عصر الامبراطورية فكتب مؤلفه الكبير « التاريخ الرومانى » الذى سجل فيه الحروب التى خاضتها روما منذ نشأتها حتى توحيدها دويلات البحر المتوسط فى ظلال الامبراطورية والسلام ، كما عالج الحروب الاهلية ولما كان أبيانوس معاديا لسياسة روما فى عصر الجمهورية فقد دلل على ذلك بمصادر قديمة وهامة بعضها حقيقى والبعض الآخر مبالغ فيه ، وعلى اى حال يعتبر كتابه عن الحروب الاهلية مكملا لمصادرنا الاخرى ، ووجهة نظر معترضة تكمل الصورة الشاملة من زاويتين مختلفتين .

وفى ذلك العصر ايضا عاش لوكياس الساموساتى (of Samosata) (١٢٠ ـ ١٨٠ م) ولوكيانوس معروف لقراء الادب الاغريقى بمحاوراته القصيرة ذات النقد اللاذع ، تسخر من الالهة ، والعظمة ، وجنون العصر ، وحماقته ، ومن الفسق ، والفجور ، بأسلوب حيوى جذاب يشد القارىء اليه ويسترعى انتباهه، بالرغم من انهلايقدم بديلا ايجابيا للاشياء التىيسخر منها وذلك لان طابع التشاؤم يغلب على تفكيره .

هؤلاء هم رجال الفكر والادب الاغريقى فماذا عن رجال العلوم العلمية الذين نبغوا فى هذا العصر .

يتلألأ فى هذا العصر عبقريتان فى العلوم العلمية هما بطليموس ، وجالينوس البرجامونى Galinus of Pergamum حوالى ١٢٩ — ١٩٩ م وكلاهما اغريقيان . اما بطليموس فقد الف عملا عظيما فى الجغرافيا والتضاريس اعتمد فيه لأول مرة على الخرائط مما يدل على مدى تقدم هذا العلم عند الاغريق ، كما الف عملا ثانيا ضخما عن « الفلك » يعتبر من أحسن الاعمال التى وضحت النجوم والكواكب ورصدت حركتها نتيجة للملاحظة الدقيقة وقد ظلت نظرياته قائمة حتى عصر النهضة الاوربية ، بالرغم من انه جعل الارض هى مركز المجموعة الشمسية كلها . كما أن نظرياته عن علم المثلثات القائمة على وتر الدائرة لا تزال الاساس الاول فى علم الهندسة فى العصر الحديث .

اما جالينوس فقد ذاع صيته كطبيب ماهر وعالم فى وظائف الجسم او الفسيولوجيا حتى أن الامبراطور ماركوس اوريليوس استدعاه الى روما ليعمل كطبيب خاص له . وبالرغم من أن جالينوس مارس مهنة الطب بشغف الا انه وجد وقتا للبحث العلمى الاكاديمى فشرح الحيوانات وأجرى التجارب ودون الملاحظات وخرج بالنتائج التى ظلت المصدر الاول لدارسى الطب حتى اعادة اكتشافها وتصحيحها على يد الطبيب الانجليزى وليم هارفى فى عصر النهضة (١٥٧٨ — ١٦٠٨) ، وقد تبين فيما بعد أن جالينوس قد اخطأ فى بعض معلوماته الطبية مثل تحديد الدورة الدموية ويرجع البعض أن سبب الخطأ ناتج من استمداده المعلومات بعد تشريحه لحيوانات تختلف فى طبيعتها عن جسم الانسان . وقد الف جالينوس مائة مؤلف شملت موضوعات متنوعة ابتداء من التشريح والفسيولوجيا والعلاج الى القضايا الفلسفية والثقافية المتنوعة (١) .

اما عن عباقرة الفكر الرومانى الذين كتبوا باللغة اللاتينية ، فيجىء على راسهم الاديب والمؤرخ كورنيليوس تاكيتوس Cornelius Tacitus (٥٤ — ١١٧ م) ، لقد تلقى تعليمه الاول فى البلاغة والخطابة ولكنه استخدمها كوسيلة فى كتابته للتاريخ وقد كتب تاكيتوس مؤلفيه العظيمين الحوليات (Annales) والتاريخ (Historiae) وهما من أهم المصادر التاريخية للفترة

---

(١) cf. Michael Grant, The Climax of Rome, AD, London 1968, p. 113.

ما بين موت اغسطس حتى نهاية عصر دوميتيانوس بالرغم من انهما لم يصلا الينا كاملين .

يقوم ففر تاكيتوس التاريخي على جوهر أخلاقي في حين انه يستمد مادته من مصادر سياسية من الدرجة الاولى . وقد نجح تاكيتوس فى كتابة تاريخه فى قالب مسرحى درامى يشد اهتمام القارىء ويعطيه صورة حية ومتحركة للحياة الرومانية ولخبايا القصور ودهاليز السناتو ، ومن الملاحظ أن تاكيتوس كان يخفى فى باطنه عداء لحكم الفرد ، ربما نبع ذلك من تعاليم الرواقية التى عارضت الاتجاه نحو الانفراد بالسلطة ونظام الملكية الوراثية منذ أيام الفلافيين حيث كان يشغل وقتذاك منصبا اداريا . وقد اثر ذلك على تفكيره التاريخى بالرغم من انه كتب مؤلفيه العظيمين أيام نرفا وتراجانوس التى تعتبر أزهى عصور الامبراطورية الرومانية واكثرها اتزانا وعدلا . ولهذا يجب على المؤرخ المعاصر أن يتناول بالحذر كل ما قاله عن اباطرة الاسرة اليوليوكلاودية التى كان يشعر نحوها بعدم الارتياح خاصة أن تاكيتوس شوه صورة تيبريوس لدرجة أضاعت معها الجوانب الطيبة فى شخص هذا الامبراطور .

ومن عباقرة الادب الرومانى الشاعر الهجائى جوفيناليس Juvenalis (٤٧ — ١٢٧ م تقريبا) وقد تلقى جوفينال (كما يلقب فى اللغات الحديثة) تعليمه أساسا فى فن البلاغة مثل تاكيتوس ، ولكن روحه الساخرة وسخطه الشديد على الفساد المنتشر فى عصره وفجور الحياة فى المدينة وطغيان الامبراطور دوميتيانوس وفجوره ، ودسائس النساء وسيطرتهن وفسق الاجانب وعبثهم ، جعلته يلجأ الى النقد اللاذع والهجاء الشديد الذى يميل الى المبالغة فى التحقير على حساب الحقيقة (١) ولكنه بالرغم من ذلك فهو طريف محبب الى النفس . وقد اصبح المثال الذى يحتذى به فى الادب الانجليزى فى العصر الاوغسطى .

ومن مشاهير الكتاب اللاتيين فى تلك الفترة سويتونيوس ترانكويللوس Suetonius Tranquillus مؤلف حياة الاباطرة الاثنى عشر وهى منجم للأقاويل والشعائعات التى لا حد لها . وقد أفاد سويتونيوس من عمله

---

(١) أنظر : مصطفى العبادى : جوفينال — دراسة لتطور شاعر ناقد — مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية (١٩٧٤) من ص ٥ — ٦٣ .

كمسئول فى شئون السياسة الرومانية لحين من الوقت فى عصر هادريان مما جعله على دراية بالوثائق والاسرار التى لم يعرفها أحد غيره .

ومن مصادر المعرفة عن هذا العصر مؤلف أولوس جيليوس (١٢٣ — ١٦٩ ميلادية) Aulus Gellius الشهير والمعروف باسم « الليالى الآتيكية » لقد بدأ جيليوس مؤلفه بكتابة مذكراته أثناء دراسته فى مدارس أثينا الفلسفية وقد نجح هذا الاديب فى تسجيل فقرات هامة من المؤلفات الشهيرة لمشاهير الفلاسفة والادباء ، التى بدونه ما كان العالم الحديث ليعرف شيئا عنها ، كما أن موضوعاته متنوعة بكل ما تحمله تلك الكلمة من معنى ، كما تعكس مؤلفاته المناقشات التى كانت تدور فى جلسات المثقفين فى ذلك العصر .

كذلك لمع فى سماء الادب والثقافة فى القرن الثانى الميلادى عبقريتان تخصصتا فى فن المراسلات الادبية أو الرسائل وهما بلينيوس الاصغر Plinius وماركيوس كورنيليوس فرونتو Marcus Cornelius Fronto اما الاول فقد عينه تراجانوس حاكما على ولاية بيثينيا Bithynia وكان دائم الشكوى من وضع الاحوال فعبر عن ذلك بكتابات كثيرة الشكاية الى الامبراطور فى شكل مراسلات شخصية يطلب فيها المشورة والمساعدة من القيصر ولحسن الحظ اصبحت هذه المراسلات مرآة صادقة للأحوال داخل الولايات الامبراطورية فى ذلك العصر .

لم يكن بلينيوس يريد لمراسلاته أن تكون خاصة فقط بل اراد لها أن تنشر كمقطوعات ادبية تماما مثلما كانت تقرأ مراسلات شيشيرون الى صديقه اتيكوس ، لا نخطابات بلينيوس تعكس الجانب الادبى والثقافى للمجتمع الرومانى فى ذلك الوقت وتكشف عن التذوق الراقى للأدب والفنون والانسانيات فى لغة لاتينية سهلة وجميلة .

اما ماركوس كورنيليوس فرونتو فقد كان معلما لماركوس أوريليوس ولوكيوس فيروس ، وكان محبا للأدب اللاتينى القديم ولاستخدام الالفاظ العتيقة التى كانت سائدة فى آداب عصر الجمهورية وقد استعار منها فرونتو ولكن رسائله ليست ذات تأثير قوى على النفس نظرا لتفاهة الموضوعات التى تعالجها مثل حرصه على الحالة الصحية للأسرة الامبراطوريه وقلقه عليها .

كان فرونتو افريقى الأصل تماما مثلما كان الكاتب لوكيوس أبولايوس Lucius Apuleius (١) (حوالى ١٣٠ م) . ويشترك ضع أبوليوس مع طبقة

---

(١) انظر ص ٦٧ .

الكتاب التى حاولت تفهم الحاضر وتخيل المستقبل لتحلم به وترسم خطوطه تماما مثلما فعل الادباء لوكيانوس وبترونيوس . كانت لغة أبوليوس لغـة جميلة ذات رونق ونضارة بالرغم من انها كانت صعبة وغامضة فى بعض الاحيان ولكن تلك كانت اللغة اللاتينية العامة التى كان يتحدث بها خليط الجنود والاجناس لكافة شعوب الامبراطورية والتى منها تولدت اللغات المحلية الاوربية . ومن أهم اعمال ابوليوس كتـابه « مسخ الـكائنات » Metamorphoses على نفس اسم مؤلف أوفيديوس الشهير ، ولكن هذا المؤلف الطريف عرف باسم آخر هو « الحمار الذهبى » وهو عبـارة أودسا من المغامرات التى يقوم بها شاب اسمه لوكيوس تحول الى حمـار بفعل السحر ، وظل على ذلك الحال حتى شفعت له الربة ايزيس الذهبية واعادته الى طبيعته البشرية . ومن ثم أصبح احد نسـاكها وعبدتها فى روما . وما بين تحول لوكيوس فى شكل الحمار الذهبى الى عودته لصورته البشرية يحشد لنا المؤلف الكثير من المعلومات الطريفة عن الفولكلور الشعبى الرومانى والسحر والشعوذة والشعائر الدينيـة والشعبية والفسـق والفجور وغير ذلك من الهواجس التى كانت تسيطر على العامة من الرومان والتى لم يكن يعرف عنها الطبقات المتعلمة شيئا ، لقد نزل ابوليوس الى الدرك الاسفل من المجتمع الرومانى ليأتى بتجسيد كامل لأفكارهم وعقلياتهم ومعتقداتهم .

لقد ظهرت نتائج حـكم الاباطرة الصـالحين على الادب والفـكر فى الامبراطورية . حقيقة لا نستطيع أن نقول ان هذا العصر أنتج شعراء عباقرة مثلما انتج عصر اغسطس وخفاؤه ، ولكن شاعرا مجهولا الف أبياتا سرعان ما تحولت الى اغنية يغنيها الناس . هذه الابيات القصيرة ليست مريرة ولاذعة مثل أشعار جوفيناليس أو مارتياليس ولا حزينة متشائمة مثـل مناجاة هادريان لروحه ولكنها ابياتا متفـائلة بالحيـاة وبالحب وبالربيع تنشـدها مجموعة وليس فـردا فى لغة لاتينيـة سهلـة تعكس الحـالة النفسيـة للنـاس فى ذلك العصـر وتقـول كلماتهـا :

Cras amet, qui nunquam amavit ; quique amavit, Cras amet.

سيعشق غـدا ذلك الذى لم يعشـق أبدا

وحتى الذى عشـق ، سيعشق غـدا

ملامح التقدم الحضارى فى المجتمع الرومانى :

من أهم ملامح التقدم الحضارى فى الامبراطورية الرومانية ابان هذه الفترة هو انتشار التعليم فى كافة ربوعها واتاحة الفرصة أمام كافة رعايا

الامبراطورية للحصول على قسط وافر من الثقافة دون تمييز وقد تبنى الأباطرة الصالحون هذا الاتجاه ، ويشهد بلينيوس بانتشار المدارس بكافة انواعها منها ما هو عام ومنها ما هو خاص ، لأن الاباطرة الصالحين قلدوا فسباسيانوس عندما رفع رواتب المدرسين والاساتذة فى روما والمدن الكبرى . واصبحت الدولة لأول مرة تشرف على التعليم وترعاه ، وفى عصر هادريان كوفىء المدرسون بأن أعفوا من الضرائب بكافة انواعها كما انتشرت المكتبات العامة فى كل مكان مما سهل للبعض فرصة الاطلاع والبحث معتمدين على انفسهم . ولهذا ارتفعت نسبة التعليم بين سكان الامبراطورية بشكل لم يسبق له مثيل وانتشر أنصاف المتعلمين او من حظو بقسط عام من التعليم لان هدف الدولة كان نشر التعليم العام بصورة تفوق بالطبع التعليم الرفيع الذى كان يحرص عليه فئة قليلة (١) .

وقد ظهرت علامات التقدم فى الاتجاهات الفنية والمعمارية اذ اصبح الناس اكثر ادراكا بقيمة الاعمال الفنية التى خلدها الفنانون واصبحوا ذواقين لها ، ومن ثم ظهر الاتجاه العام نحو حب الاساليب الكلاسيكية والقديمة وتقليدها فى الفنون والآداب . ونجد هذا الاتجاه واضحا للعيان فى كتابات بلينيوس الذى حاول تقليد شيشيرون ، واريانوس الذى حاول تقليد اكسينوفون ، وباوسانياس الذى حاول أن يقلد هيرودوت ، وفرونتو المتيم بحب الاسلوب والكلمات اللاتينية العتيقة .

ونادرا ما نحس بالتجديد والخروج على التقاليد الفنية والادبية القديمة مثلما لجأ الفنان الذى نحت وزين عمود تراجانوس ، كما حبذت الاعمال الفنية فى عصر هارديان الضخامة وشغل المساحة والحشد الفنى واختيار ما هو اكثر نفعا او ما هو عملى . كذلك اصبح فن العمارة فى تلك الفترة اتجاها عام يعكس الذوق الاغريقو رومانى Graeco Roman فى العمار ، فمثلا اصبحت المبانى اكثر اتساعا ورحبة وضخامة واقل ميلا نحو الابتكار . لقد ساد الفن الرومانى فى تلك الفترة احساس بالعظمة Megalomania وهى عقدة تصيب شعوب الامبراطوريات فى أوج عظمتها ، وهذه العقدة دفعت الفنانين الى تقليد الاعمال القديمة ولكن بصورة اكثر ضخامة ، واصبح هدف الفنان هو الضخامة وليس الفخامة ، الكم وليس الكيف ، فقد أقام تراجان اضخم ساحة عرفتها روما وبنى هادريان اضخم معبد فى تاريخ العمارة الرومانية [illegible] فقت الاساليب الفنية

---

(1) M.H. Ibrahim Graeco-Roman Education in Egypt From the first to the Fourth Century A.D. According to Papyri. (dissert. Athens 1972).

كذلك انظر .

R. Barrow, Greek & Roman Education inside The Ancient World, Basingstoke McMillan Education, London 1976.

والمعمارية من ايطاليا الى الولايات النصف رومانية وراح البرابرة يقلدون بجهالة الاساليب الرومانية بطريقة مشوهة حطت من قدر الاصالة الفنية وسرعان ما لوثت السذاجة البربرية الجوهر الرومانى فحطت من قدر الفنون الاغريقو رومانية . ولكن بالرغم من هذا تعطينا فكرة عن تسلل الثقافة من روما الى اطراف العالم الرومانى بفضل انتشار التعليم .

تقدم فن الادارة والتوسع فى وضع اللوائح والتشريعات التنظيمية :

لقد سادت روح التقنين كل شىء فى الحياة فى ذلك العصر كمحاولة لفرض منهج واتجاه قومى واحد حتى فى القوانين والدساتير . لقد توسعت سلطات الامبراطور واصبحت احكامه ونصائحه وتفسيراته سوابق قانونية تصدر الأحكام على ضوئها ، فمثلا قديما كان الامبراطور يحكم بمجرد انه كان يملك حق الامبريوم الذى يخول له أن يكون القانون . اما فى القرن الثانى فكان الامبراطور يصدر قرارات وتعليمات للموظفين ويجيب على اسئلة واستفسارات ويرد على خطابات وكانت ردوده ونصائحه واجاباته توضع موضع القوانين لكونها سوابق قضائية .

كذلك اصبحت سلطات السناتو قناعا آخر يرتديه الامبراطور. حقيقة كانت قرارات السناتو حسب العرف والقانون الرومانى لها قوة القانون بل هو الذى كان يسن القوانين فى الماضى ، ولكن فى القرن الثانى جرد السناتو من ذلك الحق بطريقة (١) دبلوماسية اذ اصبحت مشروعات القوانين تناقش أولا فى المجلس الاستشارى Consilium الذى يكونه الامبراطور ومستشاروه ثم تعرض مسوداته على السناتو ليقرها دون اى تعديل أو اعتراض . هكذا اصبح الامبراطور واحكامه مصدرا للقوانين . وكانت حجته فى ذلك انه قد اختير بواسطة الشعب والسناتو وهما اعلى سلطة يستمد منها القوانين ، ومن دلائل تجمع السلطات القضائية وتمركزها فى شخص الامبراطور انه اصبح الفيصل الاخير فى القضايا وحكمه يبطل اى حكم يصدر من قبل اى محكمة قضائية ، اى انه اصبح لأى مواطن الحق فى استئناف اى حكم صادر ضده الى الامبراطور شخصيا بدلا من بعض المجالس الشعبية فى العصور الماضية والتى تداعت وغمرها النسيان فى ذلك العصر . كما كان من حق الامبراطور الاشراف على المحاكم وتنظيمها

---

(١) وقد سبب هذا فى بعض الاحيان مواجهة بين الامبراطور والسناتو . ورغم نجاح هؤلاء الاباطرة . الا ان الخوف من تحول معارضة بعض اعضاء السناتو الى مؤامرات ظل يقلق راحة الاباطرة تماما مثل تخوفهم من انقلابات ضباط الجيش والحالمين بالعرش .

واختيار بعض القضاة والمشرعين وتعيين بعضهم فى مجلسه الاستشارى Consilium كل هذا ادى الى تجمع السلطات القضائية فى شخص الامبراطور ، واثباتا لذلك طلب هادريان من المشرع جوليانوس وضع لائحة قضائية يسير على ضوء موادها المسئولون عن تطبيق القانون عرفت باسم اللائحة البرايتورية Edictum Praetoris .

ولقد وضعت هذه اللائحة من اجل تنظيم الأحكام القانونية واخضاعها لنصوص ومواد ثابتة تحقيقا للعدالة ، وحتى يكون هنـاك متخصصون للقـانون المدنى يستلهمون احكامه من واقع محـدد وحتى لا يصبح القضاء العوبة لهواجس واحكام الهواة ولكى يصبح المسؤل عن العدل فقيها ومحترفا لا هاويا على دراية محدودة ببعض الثقافة القانونية .

كما لمس التغيير التشريعى نظام المحاكم الجنائية لأول مرة منذ أن وضع سوللا نظامها وحدد شكلها الذى كان يعتمد على جمهرة المواطنين العاديين الذين يحضرون المحاكمة ويتحولون داخل قاعتها الى محلفين ، وابعادا لخطر الفوغائية عند اصدار الاحكام استبدل أباطرة القرن الثانى الميلادى هذا النظام بنظام جديد وهو ان يرأس الامبراطور المحكمة الجنائية بنفسه أو عن طريق تعيين مندوبين عنه متخصصين فى القانون الجنائى . ومن بشائر النهضة التشريعية وسيادة القانون أن ظهر لأول مرة مجلد يحوى نصوص مواد القانون المدنى الرومانى فى صورة منهجية ومنطقية ذلك المؤلف الخالد الذى وضعه الفقيه الرومانى جايوس Gaius .

لقد ادت هذه الاصلاحات الدستورية والاجتماعية الى حالة سـلام رومانى حقيقى ، ولأول مرة تحسن وضع العبيد والطبقات الدنيا ورعاع المدن . وقل عدد العبيد الا فيما يحتاجه أصحاب المزارع للعمل فى ضياعهم كما ازداد عـدد المعتقين ، أما من نـاحية السلطـات فقـد بـدأت تتركز فى شخص الامبراطور ، وقد تفرغ الاخير لقضية السلام والسيطرة على الجيش وادارة السيـاسة الخارجيـة . وقد نجحت سـياسة اللامركزية decentralization فى تخفيف العبء عن الأباطرة من ناحية ، واعطاء الفرصة للكفاءات المحلية لأخذ مكانها خاصة أغنياء الاقاليم والولايات من ناحية أخرى . ويسمى [illegible] الرومانية لسكان الاقاليم الايطالية وبعض الولايات تحولت الامبراطورية الى اتحاد شعوب من اجل الرخاء [illegible] ، واصبحت المناصب مفتوحة أمام المتعلمين بصرف النظر عن العنصر [illegible] ، ومن ثم عاشت شعوب [illegible] فى رخاء ، وساد السلام و[illegible] بينهما ومن ثم تصبح [illegible] وكلمات الأغنية معبرة فعلا .

تطور الفكر الدينى الرومانى :

لقد سادت العدالة والحرية فى ظل النظـام الحكومى العاقل الذى حرص الأباطرة الصالحون على اقامته ونشره فى كافة ربوع الامبراطـورية الرومانية أبان القرن الثانى الميلادى ، وتحقق للمـواطنين حقوقا ومزايا لم تكن فى الحسبان ، وساد الأمن والطمأنينة وشعر الناس لاول مرة برعاية الدولة لهم . فمثلا كان هناك صندوق الخدمات والمعونات لابناء الفقراء والمعوزين ، واتيحت فرص التعليم أمام الناس فى كل الاعمار والطبقات ؛ ونجحت الدولة فى بناء الطرق المعبدة التى تربط بين أجزاء الامبراطورية . ونظمت الدولة المهرجانات العديدة والاعياد من أجل الترفيه عن المواطنين . وقبل كل شىء كانت الحكومة حريصة على خفض الضرائب وعدم زيادتها بحيث لم تتعدى ١٠٪ من دخل الفرد .

وفى مدن الامبراطورية المتعددة نشأت المرافق العامة ومرافق الخدمات للفرد ، ووضعت نفسها فى خدمة المواطن [illegible] كل المدن التابعة للامبراطورية ابتداء من روما حتى كرانيس فى الفيوم نجد هناك الحمـامات العـامة والسوق العامة وغيرها من مرافق فى خدمة الفرد وسد حاجياته ، كما ساد الامبراطورية من اقصاها شرقا الى أقصاها غربا قانون واحد وكفل لكل مواطن حقوقا واحدة .

ومن خلال تأمين الحدود من خطر البرابرة المهاجمين عاش رعايا الامبراطورية الرومانية فى هدوء بال وسلامة حال ، لايقلقهم شىء على الاطلاق مادامت الحكومة تشغل بالها بمسئوليتها كاملة فى رعاية مواطنيها اجتماعيا وثقافيا .

وازاء هذا وجد الناس وقتا ليفكروا فى الجانب العاطفى الدينى ، وفى الروح والخلود ، ووجدوا تحت امرتهم كنوز الشرق الروحانية وعباداته المختلفة التى تشفى عطشهم النفسانى والروحانى ، وجد النـاس ثلاثة عبادات تشبع متطلباتهم فى الفردية والخلود : وهى المسيحية ، وعبادة الربة المصرية ايزيس ، وعبادة الرب الشرقى مثراس Mithras (١) والذى كانت عليه تقوم الديانة المثرية باعتباره رب النور والنار ، وهو رب فارسى الأصل انتشرت عبادته فى مقاطعات الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ولكن عبادته فى القرن الثانى الميلادى انتشرت بشكل لا يمـكن تصـوره لا فى الولايات

---

(١) cf. John Ferugson : The Religions of the Roman Empire Thames and Hudson (1970), Chapter XII, pp. 211-243.

الشرقية فحسب ، بل فى ولايات الامبراطورية الغربية ، بل وفى داخل ايطاليا ذاتها . حيث انتشرت الكهوف الصناعية التى كان يعبدونه فيها Mithraia والتى كانت ترمز الى الكون الارضى الذى فيه تطهر الروح الانسانية من آثام العالم وذنوبة لتعود طاهرة الى السماء كما جاءت الى الأرض .

كان متراس رب النور والحكمة والشمس التى تبدد دياجير الجهالة والظلام ، وتطرد الشياطين، ولهذا كان متراس فى نظر عبادة بطلا مخلصا صور على الكهوف كشاب قوى فى زى شرقى وهو ينحر ثورا قويا بكل هدوء كذلك لم يكن متراس صاحب النعم على البشر ، بل ايضا شفيعا لهم فى يوم القيامة أمام رب النور الاكبر اهورا مازدا Ahuramazda بل كان متراس فى نظر عباده هو الذى ينظر فى أمر الارواح ويحاسبها على ما قدمت او اخرت ولكنه كان دائما فى صف البشر محبا لهم (١) .

ولكى يمكن للفرد أن يدخل الى طائفة المثرية كان عليه أن يمر بثمانية مراحل من الاختبار الصعب فاذا صمد روحا وجسدا فانه يصبح واحدا من هذه الجماعة ويظل يترقى خلال سبع درجات حتى يصل الى الفئة العليا المسماة بآباء الطائفة ، وقد انتشرت هذه العبادة بين الجنود لانها تناسب سيكولوجيتهم وحياتهم التى تعيش وسط الاخطار والمغامرات والتجول .

أما عبادة الربة المصرية ايزيس(٢) فكانت اكثر عاطفية ورومانسية من عبادة مثرا ، وكما هو معروف كانت ايزيس شقيقة لاوزوريس وأما للطفل حورس وهو ثالوث معروف . ومن وادى النيل انتشرت اسطورة ايزيس وأوزوريس وكيف أن الشرير ست حقد على أخيه أوزوريس وبخدعة خبيثة قتله وطعنه أربا أربا ، وجابت ايزيس الحزينة البرية وهى تنوح على زوجها واخيها حتى عثرت على جثته وعن طريق السحر تمكنت من بعثة للحياة مرة اخرى .

ويبدو أن ابوليوس كان أحد النساك المتعبدين (٣) لايزيس لانه صورلنا فى كتابه « الحمار الذهبى » كيف تمكنت هذه الربة من رد بطل القصة لوكيوس الى الصورة البشرية مرة اخرى . ومن خلال هذه القصة يعطينا

(١) Ferguson, op. cit, pp. 47, 219 f.

(٢) لقد انتشرت سابد ايزيس فى شرق الامبراطورية وغربها حتى أن القديس بولس مر بعدد من معابدها على طول الطريق الذى سلكه وهو يبشر بالفكر المسيحية . وعثر على معابدها فى بريطانيا وحتى أفغانستان عن عبادة ايزيس أنظر :
R.E. Witt, Isis in The Graeco-Roman World, Thames and Hudson, 1971, p. 264.

ابولايوس صورة وافية للشعائر والاحتفالات التى كانت تقام لعبادةايزيس، وكان عبدتها يعتقدون ان من ينجح فى اختبارات التعميد والدخول فى هذه العبادة سوف يصبح سعيدا فى حياته الاخرى لانه سوف يحيا فى الفردوس الابدى حيث يحكم أوزوريس العظيم . كذلك فان ذلك يعطينا صورةلانتشار الشعوذة والسحر وتغلغلها فى عقول شعو بالامبراطورية فى ذلك العصر .

ويجب ان نعترف ان عبادة ايزيس ومثرا قد أثرتا فى المرحلة المبكرة لظهور المسيحية خاصة من ناحية الشعائر والممارسة (١) ، وبينما كانت العبادتان الوثنيتان السابقتا الذكر تنتشران بين المثقفين والجنود ، كانت المسيحية تنتشر بسرعة بينالفقراء المعوزين والمظلومين الذين يطلبون الخلاص من هذا العالم الظالم على يد ابن الرب فى صورة البشر خاصة بين رعايا الامبراطورية فى الولايات الشرقية .

لقد نظرت الحكومة الرومانية منذ ايام نيرون نظرة الشك الى المسيحيين، ولم يكن عداء الأباطرة الصالحين لهذه الديانة الجديدة قائماعلى أساس اعتراض فى العقيدة لأن العصر كان عصر الحرية ، كما أن الرومان لم يتدخلوا فى الديات الكثيرة المنتشرة بين رعاياهم مثل اليهودية ، الا أن نقطة العداء الوحيدة للمسيحيين كانت تنبع من منطلق سياسى وهو عزوف المسيحيين عن تقديم القرابين للامبراطور الرومانى باعتباره الها ، وحرق البخور امام تماثيله مما اعتبره الاباطرة تمردا سياسيا على سلطة الامبراطور والامبراطورية وقارنوا ذلك بتهمة الخيانة العظمى . ومن هنا نشأ الاضطهاد الدينى للمسيحية باعتبارها دينا هداما للامبراطورية ولسلطة الامبراطور المقدسة . وبالرغم من أن الاباطرة الصالحين اغمضوا عيونهم عن نشاط المسيحيين الاول لدرجة أن الامبراطور تراجان كتب الى بلينى يعرفه بأن استخدام المخبرين للتجسس على المسيحيين يعتبر عملا منافيا لروح العصر . الا أن ذلك لم يمنع حدوث بعض الاضطهادات ضد المسيحيين بتهمة العصيان والعناد العقائدى .

وازاء هذا الخطر الوثنى نشأ اتحاد بين الجماعات المسيحية المبكرة دقيق التنظيم يوحد ما بينها ، اذ بدا سلك الكهنوت المسيحى فى الظهور وبدات الكنائس المستقلة والمتنافسة فى الاتحاد فيما بينها والالتزام بنظام دقيق

---

(١) جدير بالذكر أن إحد رهبان القرن السادس عشر وهو الاب جوردانو برونو أعلن ذلك صراحة مما أدى الى حرقه حيا فى ١٦ فبراير عام ١٦٠٠ م .

(٢) cf. M L.W. Laistner, Christianity and Pagan Culture in the Later Roman Eman Empire (I thaca 1951), pp. 22. ff.

فمثلا كان يقود شعب الكنيسة أو القداس شيوخ الكنيسة أو القسس Presbyters الذين كانوا بدورهم يخضعون لسلطة الاسقف (Bishop) وكان الاساقفة بدورهم ملتزمين بسلطة كرسى « المطران » وكان كل مطران يشرف على منطقة جغرافية يحكمها من داخل مدينة كبيرة تعتبر مقر المطرانية الاقليمية .

وفى الوقت الذى كانت المسيحية تنظم سلكها الكهنوتى واللاهوتى بنظام حكيم وناجح كان المبشرون المسيحيون وكتاب الابولوجيا المسيحية يتعمقون فى جوهر الثقافة الفلسفية الاغريقية ويستخدمونها من أجل صياغة أفكارهم الجديدة فى صورة قريبة الى تفكير الناس المشربين بالفكر الاغريقو رومانى وذلك لتسهيل نشر الأفكار المسيحية .

ان روح العصر التى تتسم بالتسامح شجعت المسيحية على التبلور فى شكل عقائدى واضح الملامح مكتمل الشعائر لها منطقها المقبول ، والفضل فى ذلك يرجع الى حرية الفكر وحرية العبادات . فكل الشعائر الدينية فى ذلك الوقت كانت تمارس بحرية . بل وكان كل منها يستعير من الآخر ما يروقه دون أن يجد متزمتا يمنعه لا قولا ولا فعلا . لدرجة أن التشابه شديد بين هذه العبادات والشعائر الى درجة يصعب الفصل بينها .

لم يعرف هذا العصر شيئا اسمه التعصب المذهبى أو المنهجى او الفلسفى (١) حتى ان ماركوس أوريليوس الامبراطور الرواقى لا يجد حرجا من أن يطالب بالحاح شديد نسخة من قصيدة الشاعر الابيقورى الرومانى لوكريتيوس ليقرأها والمعروف ان الرواقية والأبيقورية متضادتين فى التفكير تماما .

وربما نبع التسامح العام من رغبة أصحاب العقائد والجماعات الدينية فى التقارب واحترام الالهة المختلفة واعتبارها صورا مختلفة لرب واحد للجميع وعلى استعداد فى مزج هذه العقائد فى عقيدة كبرى ولهذا وصف هذا العصر بأنه عصر المزج الدينى والفكرى Syncretism (٢) وفى نفس الوقت كانت الجماهير تتعطش لديانة اسمى تحقق لصاحبها الخلود الروحانى . وكان هذا ممهدا لانتشار الديانات التوحيدية فيما بعد على حساب الوثنية .

---

(١) نشر الاستاذ أوليفر حديثا نقشا عثر عليه فى الاجورا الاثينية وقد اتضح أنه جزء من خطاب موجه من الامبراطور ماركوس اوريليوس الى الشعب الاثينى وفيه يدافع بشدة عن سياسة صديقه هيرودس اتيكوس فى وجوب الحد من التوسع فى الامتيازات حفاظا على روح المؤسسات الاغريقية وحتى تظل اثينا مركزا للثقافة وينبوعا للحضارة فى الشرق ولهذا يدعوهم للثقة بهيرودس أتيكوس ويذكرهم بكرمه وامانته ورعايته لاساتذة الفلسفة :

J.H. Oliver, Marcus Aurelius : aspects of Civic and Cultural policy in the East (Hesperia Supplement 13) Princeton, American School at Athens 1970. (cf. JHS, XCIII, 1973, p. 259-261).

(٢) Ferguson, op. cit., p. 211 ff.

الفصل السابع

اندلاع الصراع بين قادة الجيوش على العرش عام ١٩٣ م
وقيام حكم آل سيفيروس

كما رأينا عندما تعرضنا لكومودوس وحكمه ، يرجع نهاية نظام المواطن الاول الذى اسسه الامبراطور اغسطس الى سلوك كومودوس المشين واستهتاره المطلق، وجريه وراء شهواته وعشيقاته وجنونه بحلبة المصارعة: وصيد الحيوانات استعراضا لقوته التى جعلته يفخر بأنه هرقل الجديد . وازاء الكراهية نحو هذا الامبراطور الارعن ، فقد اعتمد كومودوس فى بقائه على الحكم على قوة الحرس البريتورى ، وراح يشترى رضاءها بأى ثمن ويطلق للجنود والقوات العنان ، بل كان يضحى بقادة الحرس الامبراطورى عندما يستهلكون وعندما تزداد كراهية المواطنين لهم .

ولما حاولت شقيقته لوكيللا Lucilla والتى كانت ارملة للوكيوس فيروس وامبراطورة ذات يوم ، ان تسترد لنفسها بعضا من سلطاتها التى فقدت على يد كومودوس بأن تدبر مؤامرة لقتله على يد ابن زوجها فى عام ١٨٣ ميلادية ولكنها فشلت ، لأن الفتى المكلف بدس الخنجر فى ظهر كومودوس غلبه التردد وهو يصرخ « ان السناتو يهديك هذا ! » (١) مما دفع الحرس الامبراطورى الى اللحاق بالفتى وانقاذ حياة الامبراطور فى آخر لحظة ، وبعدها بدات الهواجس تستولى على خيال الامبراطور واصبح يرى فى كل من حوله متآمرين على حياته ، وبالطبع زاد ذلك من اعتماده على الجيش فى الحكم ولهذا زاد رواتب الجند . وترك الحبل على الغارب لقادة الحرس الامبراطورى الذين كانوا يعيثون فى البلاد فسادا .

وقد أدى انتشار الفساد ولهو الامبراطور الى افلاس الخزانة ، ومن ثم بدأ يتصيد الاغنياء والموسرين ويلفق التهم ضدهم طمعا فى مصادرة اموالهم وساد حكم الرعب والارهاب ، وأصبحت تهمة الاشتراك فى مؤامرة للاطاحة بحكم الامبراطور سيفا معلقا على رؤوس الوجهاء والاغنياء (٢) يسقط فى اى وقت ، وضاع الاحساس بالامن الذى ساد فى عصر الاباطرة الصالحين .

---

(١) Dio Cassius LXXII, 2.

(٢) Herodian. I

واخيرا نجحت مؤامرة واحدة ادت الى اغتيال الامبراطور كومودوس . تلك التى دبرتها محظيته ماركيا Marcia بمساعدة قائد الحرس لايتوس وحاجبه اكلكتوس Eclectus عندما اوعزوا الى احد المصارعين بخنق الامبراطور حتى الموت داخل حلبة المصارعة وهو يرتدى زى المصارعين . وكان هدف المتآمرين هو منع الامبراطور من تجديد قنصليته للعام الجديد والتى كانت ستصبح سارية المفعول فى اليوم التالى لمصرعه .

وهكذا خابت آمال ماركوس أوريليوس فى خليفته . بالرغم من أن كومودوس لم يقض نهائيا على المزايا التقليدية التى أوجدها الاباطرة الصالحون من أجل حكم عادل وكفيء وتقبل سماع الشكوى ومنح حق الاستئناف فى روما لأى متظلم وذلك بفضل حكام الولايات الرومانية الذين استمروا فى سياستهم الحكيمة فى محاربة الظلم والاستبداد . ولكن تدهور الاقتصاد فى الامبراطورية ادى الى نشأة العصابات وقطاع الطرق فى بعض أقاليم الامبراطورية مثل اسبانيا وبلاد الغال ، بل وصل الحد بهذه العصابات الى اعلان الاستقلال حيث انضم اليهم الهاربون من جنود الجيش والفلاحون المعدمون الساخطون على الادارة المالية للامبراطورية ، فالجنود بدأوا يهربون بعد أن اعياهم القتال والوباء . وبالرغم من مجهودات الجنرالات الموالين لكومودوس فى قمع حركات التمرد الا أن الامبراطور لم يحرك ساكنا فى حل هذه المشكلات مما دعى الى ارتفاع الاجور بشدة وانحدار الامبراطورية نحو التدهور (١) .

الامبراطور بيرتيناكس Pertinax **(١٩٢ ميلادية) :**

كان المتآمرون قد اعدوا مرشحا لتولى العرش وهو هلفيوس برتيناكس Helvius Pertinax وكان شيخا جاوز عامه السادس والستين ، وقد أكسبته حياته الطويلة فى مجال الحكم والادارة خبرة وكفاءة لادارة شئون الامبراطورية ، كما اظهر منذ أول وهلة حزما شديدا فى تطبيق القوانين ومراعاة قواعد الالتزام من أجل ترتيب الاوضاع المنهارة خاصة الاقتصادية ، وبسبب تبذير كومودوس لم يجد بيرتيناكس سوى مليون سستركيس فى الخزانة العامة وهو مبلغ ضئيل ، ومن أجل ذلك أعد برنامجا يتضمن اصلاح الاراضى البور بعد استغلالها وتخفيض الضرائب على الصادرات والواردات وتخفيض نفقات الدولة العامة . وكانت هذه السياسة ناجحة ولكن لم تكن لتعطى أكلها الا بعد وقت ليس بالقصير ، ولم يكن هذا الشيخ العجوز ليعيش حتى يرى ثمار سياسته قد اينعت على النحو الذى كان يبغيه .

(1) H.M.D. Parker : A. History of the Roman World from A.D. 138. p. 337, (2nd edition London 1958), pp. 26-51.

ولما كان بيرتيناكس كهلا فقد كان عليه أن يعين خليفة حتى يقطع الطريق على الطامعين والمتصارعين ، ولكنه تلكأ فى اتمام ذلك وكان لذلك عواقب وخيمة اذ ساد التزمر بين قوات الحرس الجمهورى ازاء سياسة شد الاحزمة على البطون من اجل اصلاح الاقتصاد لأن ذلك يحرم هذه القوات من النعيم(١) الذى كانت تنعم فيه منذ ايام كومودوس ، ولهذا قرروا التخلص من ذلك الامبراطور بأى وسيلة ، ولم يكد يمضى اليوم السابع والثمانين على تولى بيرتيناكس الحكم حتى سارت قوات الحرس الجمهورى فى مظاهرة عسكرية الى القصر وهجمت على الامبراطور وقتلته .

لقد كان الامبراطور بوبليوس هلفيوس بيرتيناكس من اقدم أعضاء السناتو ؛ وبالرغم من انه برز من أدنى الطبقات الاجتماعية الا انه تمرس فى العمل العسكرى والسياسى كما شغل منصب برايفكتوس روما Praefectus وازاء ذلك نلاحظ أن السناتو لم يتردد فى الموافقة على ترشيحه امبراطورا وأنعم عليه بالالقاب الشرفية والسلطات القانونية المعتادة .

ولكن قد يؤخذ على برتيناكس انه كان العوبة سهلة فى أيدى الذين اتوا به الى العرش أو الذين اوعزوا باتيانه الى العرش . ولما كان بيرتيناكس رجلا ذا ضمير حى ومحبا للانضباط النظامى والالتزام بالسلوك الصحيح فقد بدا يضيق الخناق على رجال الحرس الجمهورى المتملقين ؛ وكما سبق ناشرنا وضع لوائح اقتصادية قاسية من اجل انقاذ اقتصاد الامبراطورية من الانهيار . وازاء هذا التشدد والحزم فقد بيرتيناكس مؤيديه من الحرس البرايتورى ومن كبار الموظفين فى الجهاز الادارى وانتهى امره الى ما انتهى عليه حيث اغتيل على يد القوات البرايتورية فى الثامن والعشرين من مارس عام ١٩٣ ميلادية .

الفوضى تسود الامبراطورية

يشبه بعض المؤرخين الاحداث التى عصفت بالامبراطورية الرومانية بعد مصرع كومودوس بحالة الفوضى التى عمت بعد مصرع نيرون وهو ما نعرفه بعام الانقلابات العسكرية أو عام الأباطرة الاربعة ، والذى انتهى بوصول فسباسيانوس الى العرش . وهذا حقيقى الى حد كبير لأن جيوش الامبراطورية العسكرية خارج الحدود بدأت تتدخل فى اختيار الامبراطور

---

(١) cf. Dio Cassius LXXIV, 15.4.

فكل جيش يريد ترشيح جنراله امبراطورا ، ولكن فى هذه المرة ظهر سخط قوات الجيش على قوات الحرس البرايتورى ازاء استئثار الاخيرة بشئون العرش وعرضها العرش للمزايدة والبيع .

وقد استغلت قوات الحرس البرايتورى قيام منافسة بين عضوين فى السناتو على تولى العرش وحدث ما يشبه بالمزاد العام الى أن فاز العضو الثرى واسمه ماركوس ديديوس جوليانوس بعد أن عرض مبلغ وقدره ٢٥ الف سستركيس للحرس البرايتورى (١٢٥٠ دولارا أمريكيا) وبالطبع رضخ السناتو لرغبة الحرس البرايتورى واذعن لارادته ووافق على الترشيح وانعم بالتشريفات والسلطات اللازمة وعاش جوليانوس منغلقا على نفسه . بل أن ديو كاسيوس عبر عن مخاوف الناس منه عندما قال « لقد أحال السناتو الى قلعة مسلحة وكذلك مقصورته الخاصة حيث راح يردد « انا هنا .. هنا وحدى » (١) وكان على استعداد أن يفعل اى شىء » .

ولكن كما يقال : كان جوليانوس يملك من الاموال أكثر مما يملك من العقل والذكاء ، لأنه اتى الى العرش بطريق الرشوة والوضاعة والاهانة . ولهذا امضى فترة حكمه القصيرة معتكفا فى روما ، محتقرا من السناتو ، ومحل سخرية وتخوف من الجماهير ، حتى ثارت قوات الجيوش الرومانية على هذا الوضع السىء عندما ضاقت ذرعا بهذا الغنى الغبى المنبوذ .

ثارت قوات الجيوش الرومانية فى الشرق الاوسط وفى سهل الدانوب وفى بريطانيا ، ورشحت اباطرة من عندها طمعا فى مكافأة مجزية بعد الوصول الى العرش ، ويبدو أن جنرالات الجيوش كانت تحلم بالانقلاب حتى قبل تعيين جوليانوس ، لانه بسرعة هتفت قوات الشرق الأوسط بجنرالها جايوس بسكنيوس نيجر Gaius Pescenius Niger والى سوريا امبراطورا ، وردت قوات الدانوب بالمثل بأن هتفت بجنرالها وحاكم منطقة بانونيا Pannonia امبراطورا ، وكان يدعى بوبليوس سبتيميوس سيفيروس Publius Septimius Severus ؛ وفى نفس الوقت هتفت القوات الرومانية فى بريطانيا بجنرالها كلاوديوس البينوس Claudius Albinus امبراطورا وكان البينوس من بلدة حضر منتوم فى شمال افريقيا (٢) .

وكان لضخامة الجيوش أثر فى رجحان كفة ميزان الصراع على العرش ؛ فمثلا كان البينوس يملك ثلاثة فرق ، بينما كان نيجر يقود تسع فرق فقط فى سوريا ، اما سبتيميوس سيفيروس فكان يقود اثنى عشرة فرقة فضلا عن تواجده بالقرب من ايطاليا .

(١) Dio Cassius LXXIV, 12.2 ; 13-3.

(٢) Gilbert-Eharles Picard, La Civilization romaine de l'Afrique du Nord, Paris, 1959, p. 75 ff.

كان التأييد العام يميل نحو نيجر خاصة من جانب السناتو والشعب الرومانى ، ولكن سبتميوس سيفيروس كان أسرع منه فى التصرف فدخل روما بقواته من الشمال واضاف اسمه كشريك للامبراطور الراحل برتيناكس Pertinax ليلغى وجود جوليانوس القانونى والشرعى من ناحية ، ومن ناحية اخرى لكى يظهر نفسه منتقما لمصرع برتيناكس ووريثا له كامبراطور صالح ، ولقد حاول جوليانوس مقاومة سيفيروس فى البداية ثم عاد فحاول التصالح سلميا . ولما أحست قوات الحرس الامبراطورى بنوايا سيفيروس هجرت جوليانوس وانفضت من حوله ، عندئذ لجأ جوليانوس متوددا الى السناتو ، وتحت الحاجه ورجائه أعلن السناتو أن سبتيميوس سيفيروس عدوا للدولة وخارجا على قوانينها ولكن ذلك لم يكن يخيف القائد العازم على اسقاط حكم جوليانوس . ووجد السناتو نفسه وقد قامر على جواد خاسر فأسرع يصحح خطأه . فأعلن تأليه برتيناكس الراحل وادانة جوليانوس والحكم باعدامه ورحب بسبتيميوس سيفيروس ووافق على ترشيحه وانعم عليه بالالقاب التشريفية والسلطات القانونية المعتادة .

سبتيميوس سيفيروس امبراطورا (١٩٣ — ٢١١ م) :

وفى الفاتح من شهر يونيو عام ١٩٣ م سقط جوليانوس صريعا تحت طعنات أحد الجنود ودخل سبتيميوس سيفيروس روما منتصرا على راس قواته. وبعد أن استتب له الأمر سارع بتوزيع المنح (Congiaria) والمكافآت على الجنود (١) وعلى الشعب ، وزاد رواتب الجند بمقدار الثلث تقريبا (٢) ولكى يرضى جهاز السناتو قلد الاباطرة الصالحين فى القيام بالقسم امامهم انه لن يتدخل فى محاكمة او اعدام اى عضو من أعضاء السناتو بل سيترك الامر كله للمجلس ليحاكم أعضاءه بنفسه . وازاء ذلك اذعن السناتو لمطالبه ، وحاكم كل اتباع وانصار جوليانوس وقتلة برتيناكس من قوات الحرس الامبراطورى ، وامعانا فى ضمان الامن سرح سبتيميوس سيفيروس قوات الحرس الامبراطورى واستبدلها بقوة جديدة من جنوده المسرحين من جيش الدانوب قدرت بـ ١٥٠٠٠ جندى وبذلك ضمن لنفسه تأييد حرس جديد انتقاه بنفسه من جنوده المخلصين الذين يعرفونه ويعرفهم .

التخلص من اعدائه ومنافسيه :

كان على الامبراطور سيفيروس أن يتخلص من منافسه القوى نيجر

(١) cf. Script. Hist. Aug., Severus, VII, 6-7.

(٢) T. Frank : Economic Survey of Ancient Rome, A, p. 86.

والى سوريا ومن اجل ذلك هادن البينوس قائد بريطانيا واستدعاه ليتولى مهمة القيصر Caesar ، وهو تعريف جديد قصد به ولى العهد المنتظر . ثم استدعى سيفيروس قواته الى الخدمة لمحاربة بيسكينيوس نيجر الذى كان قد ضمن لنفسه مبايعة الولايات الشرقية ، كما كان نيجر يحظى بموقع استراتيجى هام لانه يستطيع قطع القمح المصرى عن روما فترضخ روما خوفا من المجاعة . وكان نيجر قد بدأ يتحرك عندما ارسل قوة احتلت مدينة بيزنطة ليتحكم أيضا فى مدخل البسفور والدردنيل . وما ان وصل سيفيروس الى مسرح العمليات حتى حاصرت قواته بيزنطة واحرزت انتصارين فى آسيا الصغرى على قوات نيجر الذى آثر الانسحاب الى سوريا والاحتماء بجنوب جبال طوروس ، وفى عام ١٩٤ م لاحقه سيفيروس والحق به هزيمة ساحقة فى ايسوس فى نفس المكان الذى هزم فيه الاسكندر الاكبر دارا . ولما حاول نيجر الهرب الى بلاد البارثيين لحقت به جنود سيفيروس وقتلته . وفرت قوات نيجر للعمل فى جيش الملك البارثى فولوجاسيس الرابع .

كان سيفيروس (١) قاسيا فى الانتقام من المدن والقوات المؤيدة لخصمه، ولكى يعاقب هؤلاء الانصار غزى شمال بلاد ما بين النهرين واحتل مملكة اوسرينى (Osroene) ، وأقام مستعمرة فى نيسيبس Nisibis ، ويبدو أن سيفيروس حاول محاربة البارثيين لولا استدعائه العاجل لمواجهة خطر الانقلاب الذى قام به البينوس فى عام ١٩٥ م. أثناء غيابه فى القتال .

فى هذه الاثناء كانت مدينة بيزنطة قد استسلمت بسبب الحصار المنيع الذى ادى الى قيام مجاعة كبرى ، ودخلت قوات سيفيروس المدينة التى أراد لها القدر فيما بعد أن ترث روما نفسها ، وعاملها معاملة قاسية لم يسبق لها مثيل اذ أمر بهدم أسوارها وقلاعها وقتل اعضاء حكومتها وحاميتها وصادر أموال مواطنيها ، وتحولت المدينة العامرة الى قرية تابعة لمدينة بيرنتوس Perinthus المجاورة لها .

سيفيروس يتخلص من البينوس :

كان البينوس مثل نيجر محبوبا من السناتو والشعب الرومانى . وقد لمس السناتو عندما جلس على العرش أثناء غياب سيفيروس انه رجل طيب القلب سليم الطوية فأحبوه ، وبدأوا ويملأون راسه بخبث سيفيروس، وانه سوف يقع قريبا ضحية لغدره ، وقد ساعد على ذلك الحاح زوجته

(١) من الجدير بالذكر أن كلمة Severus تعنى باللاتينية القاسى .

عليه بالخروج عن طاعة سيفيروس من أجل ضمان العرش لابنائهما بدلا من ولدى سيفيروس ، وتجمع حوله عدد كبير من أعضاء السناتو وحملوا السناتو على تعينه امبراطورا واعطائه لقب اغسطس Augustus ، وقبل البينوس التحدى بشجاعة وجمع قواته عند مدينة لوجدونوم Lugdunum (ليون الحالية فى جنوب فرنسا) التى جعلها مقر قيادته ، ورد سيفيروس على ذلك بأن البينوس عدوا للشعب الرومانى عن طريق قواته فى شمال بلاد ما بين النهرين ، ثم بعد ذلك أعلن تعيين ابنه باسيانوس Bassianus والذى عرف فيما بعد باسم كاراكاللا Caracalla قيصرا وولى عهد منتظر بدلا من البينوس ، واعطى باسيانوس اسما جديدا وهو ماركوس اوريليوس انطونينوس تمسحا فى الاباطرة الصالحين ولكسب عطف الجماهير ، ثم بعد ذلك سار غربا لملاقاة خصمه البينوس .

وفى فبراير عام ١٩٧ م واجهت قوات سيفيروس قوات البينوس بالقرب من ليون فى صراع مرير انتهى بانتصار قوات الدانوب ولم يجد البينوس خيارا سوى ان يأخذ حياته بيده .

واظهارا لغضبه وانتقامه اعطى سيفيروس لقواته اشارة التأديب . فهاجموا ليون أغنى مدن الغال واكثرها رخاء ، وعملوا فيها نهبا وقتلا وسبيا وهتكا ، ثم أشعلوا فيها النيران التى اتت على معظمها . وازيحت لوجدونوم الشهيرة عن عرش الرخاء ، ولم تسترد رخاءها وجمالها الا بعد وقت طويل من هذه الكارثة .

وهكذا وجد سيفيروس نفسه أميرا لا ينافس فى حكم الامبراطورية الشاسعة ، وادرك انه يتوجب عليه اقتلاع جذور المتآمرين فى روما مستخدما عنفا بربريا لم يسبق له مثيل ، وراح يتعقب ويستأصل مؤيدى البينوس فى بلاد الغال وفى المانيا وبريطانيا واسبانيا بلا رحمة ولا شفقة ، وفى روما كشف القناع عن نفسه للسناتو حين امر باعدام تسعة وعشرين عضوا من اعضائه بتهمة التآمر والخيانة العظمى . وساد الرعب والخوف ، واذعن المجلس لكل ما طلبه الامبراطور الهائج . ووافقوا على تعيين ابنه كاراكاللا كخليفة منتظر (اى قيصرا) وباسمه الجديد الذى استعاره له ابوه من أسرة آل انطونينوس ، واعلن السناتو صراحة أن كاراكاللا ليس الا امبراطورا منتظرا (Imperator Designatus) ، ولم يطل المقام بسفيروس فى روما اذ غادرها لاكمال فتوحاته ضد البارثيين .

اخضاع البارثيين (١٩٧ — ١٩٩ م) :

استغل الملك فولوجاسيس الرابع ملك البارثيين الصراع

حول العرش فاستولى على ارمينيا وشمال بلاد ما بين النهرين حيث حاصر قلعة نيسبيس Nisbis الرومانية ، ولما وصل سيفيروس مع قواته فى شتاء عام ١٩٨/١٩٧ م تراجع البارثيون فرفعوا الحصار الذى كانوا قد فرضوه على القلعة الرومانية ، وانسحبوا الى بلادهم تلاحقهم قوات سيفيروس التى استولت على سيليوكيا على شاطىء دجلة ، ثم كتيسيفون (طيسفون) نفسها عاصمة البارثيين ، وحاول سيفيروس مرتين الاستيلاء على حصن « هاترا » Hatra فى اعالى سهل دجلة ، ولكنه فشل مثلما فشل تراجانوس من قبل ، وعلى أى حال ، امن سيفيروس شمال بلاد ما بين النهرين فى يد الحكم الرومانى ، وجعلها ولاية مستقلة عاصمتها مدينة نيسيبس .

ومن أهم نتائج فتوحات سيفيروس فى الشرق هو الحاقه الهزيمة بالبارثيين لدرجة جعلت امبراطوريتهم تتوارى وتنهار منذ تلك اللحظة وهو عمل لم يقدر عليه من أباطرة الامبراطورية الذين سبقوه .

وقد قضى سيفيروس عامين يتجول فى المنطقة زار خلالها مدن الشرق الاوسط ومصر التى تجول بين آثارها وركب النيل حتى طيبة حيث تفرج على تمثالى ممنون ، ويقال انه حاول ترميمها بسد الشقوق التى يدخل منها بخار الماء مما أدى الى توقفهما عن احداث الصوت المشهور عند الفجر ، ثم عاد بعائلته الى روما ٢٠٢ م ليقيم أعياد النصر احتفاء بمرور عشرة سنوات على توليه العرش ، وانفق ببذخ مستخدما الاموال التى صادرها من أعدائه والتى كانت تدر عليه دخلا كثيرا لدرجة أنه انشأ خزانة خاصة بالامبراطور res privata خاضعة له شخصيا ولا يحاسبه أحد على التصرف فى أموالها .

أعماله واصلاحاته :

وبعد ان استتب الامر للامبراطور الجديد شعر الرومان بأنه مختلف فى عنصره وثقافته وأصوله الاجتماعية تماما عن الاباطرة الصالحين ، ومن ثم لم يتوقعوا ابدا العودة الى الحكم العاقل السعيد (١) فهو فى نظرهم قد جلس على العرش بفعل القوة العسكرية ، ومن ناحية العنصر فهو افريقى المولد والاصل اذ ولد فى بلدة لبتس ماجنا Leptis Magna (لبدة) بمقاطعة طرابلس (Tripolis) فى ليبيا عام ١٤٦م . وهى جزء من ولاية أفريقيا الرومانية Provincia Africana وأن اسرته فينيقية الاصل والثقافة

---

(١) Script. Hist. Aug., Severus, IV,I.

(٢) انظر ص ٦٧ .

لدرجة انه كان يتحدث اللاتينية بلكنة فينيقيه ، بل أن بعض افراد اسرته كانوا لا يتحدثون اللاتينية بتاتا ، ويقال أن أخته عندما زارته فى روما احرجته لعدم معرفتها اللغة اللاتينية فاضطر لاعادتها الى لبدة ولهذا يرى بعض المؤرخين فيه صورة خفية لانتقام هانيبال بعد مضى أربعة قرون من الزمان على هزيمة قرطاجة .

وبالرغم من عنصره الفينيقى الخالص الا أن سبتيميوس سيفيروس تلقى تعليما رومانيا وثقافة لاتينية حيث درس الفلسفة فى أثينا والقانون فى روما ، ووجد طريقه الى سلك الوظائف الرومانية عن طريق طبقة الفرسان التى كانت مفتوحة امام هذه العناصر الاجنبية ، وتمرس فى سلك الوظائف العليا تحت رعاية ماركوس اوريليوس الامبراطور والفيلسوف الراحل فتولى التربيونية ، ثم عين برايتورا فى أسبانيا وحاكما على جنوب بلاد الغال ، وحاكما على بانونيا ودخل مجلس السناتو واصبح عضوا بارزا فيه الى جانب مركزه العسكرى المرموق .

لقد كان سيفيروس طموحا متعطشا للسلطان والقوة شأنه شأن اجداده الشرقيين، ومن ورائه تقف زوجته الثانية جوليا دومنا Julia Domna السورية الاصل والتى كانت تنحدر من عائلة كبرى ثرية فى حمص Emesa كانت تتمتع بمركز كهنوتى كبير ، وكانت زوجته مثله متعطشة للعرش وانجبت له ولدين هما باسيانوس واخيه جيتا . وهكذا شاءت الاقدار أن يسير قدر الامبراطورية الرومانية زوجان لا ينتميان للاصول الرومانية ، كما كان معظم أفراد الاسرة اليوليوكلاودية ولا حتى للمقاطعات الايطالية كما كان ينتمى معظم اسرة الفلافية ، ولا حتى للولايات التابعة لروما مثل الاباطرة الصالحين ، بل ينتميان الى عنصر أفريقى سامى مما يعنى أن ذلك كان منعطفا خطيرا فى تاريخ الامبراطورية الرومانية وبداية لانتهاء سيادة العنصر الأوربى عليها وبداية تولى العناصر الشرقية قيادتها .

ولكن بالرغم من ذلك ادرك سبتيميوس سيفيروس مزايا الاباطرة الصالحين فحاول ان يلصق نفسه واسرته بهم . فقبل ان يعود من الصراع مع الجنرال نيجر أعلن انه ابنا متبنا لماركوس اوريلبوس ، ثم أصر على ارغام السناتو على تأليه « أخيه بالتبنى كومودوس » ، بل انه كما سبق أن ذكرنا غير من اسم ابنه باسيانوس Bassianus (الذى اشتهر فيما بعد باسم كاراكاللا Caracalla بسبب عشقه للعباءة الضيقة التى كان يرتديها الغاليون فى بلادهم والمسماة بهذا الاسم) واعطاه اسما جديدا هو ماركوس اوريليوس انطونينوس ، الذى كان يعجب به أعجابا خالصا لا يمكن أن يكون

بدافع ربط أسرته بهذه الاسرة أو لهدف مادي كوراثة ضياع انطونينوس التي ضمها اليه ، وانما لانه كان يشاركه الى حد ما في الثقافة (١) والافكار الفلسفة التى اشتهرت بها زوجته السورية (٢) .

هكذا كان سيفيروس شديد الاعجاب بسلفه ماركوس اوريليوس ، وليس من باب ربط أسرته باسرة هذا الامبراطور الفيلسوف أو طمعا في وراثة ضياعه الشاسعة ، بل لمجرد اعجاب يصل الى درجة البنوة الروحية ، ومن ثم نسب أسرته الى أسرة آل انطونينوس ، بل أطلق لاول مرة على هذه الاسرة الكبرى آل البيت المقدس (٣) .

كانت عقلية سيفيروس مزيجا من البيروقراطية والعسكرية بالاضافة الى واقعية التفكير السياسى المدرك لمشاكل العصر واخطاره ، ولقد اظهرت سياسته الداخلية اهتماما لم يسبق له مثيل لمصالح الرعايا الذين يعيشون بعيدا في الولايات ، خاصة فيما يختص بمشاكل الادارة والحكم ، ولا يغيب عن أذهاننا ان سبتيميوس سيفيروس نفسه كان ينتمي الى احدى شعوب الولايات الرومانية ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن ذا اتجاه قومي معين او حاقدا على العنصر الايطالى ، عند توزيع مهام الادارة والعمل ، بالرغم من أنه اتهم بأنه لم يحمل شعورا وطنيا للامبراطورية بقدر ما حمل لولايته الاصلية في افريقيا .

لقد عزم سيفيروس بعناد شديد على تغيير وتطوير هيكل نظام حكم المواطن الاول معتمدا على خبرته الطويلة بالشئون العسكرية والادارية بالاضافة الى ذكائه الخارق وفولاذية ارادته ، ولقد بدأ بوضع أساس مقدس للاسرة الحاكمة التي قرر أن يقيمها معتمدا على الايعاز لجنوده لاعلان ما ترغب فيه نفسه . فأصبح الامبراطور رسميا يعرف باسم المولى (Dominus) وروما مقر قصره تعرف بالمدينة المقدسة . (Urbs Sacra)

حقيقة اننا لا نشك في ان هدفه الحقيقي والخالص كان حل مشاكل الامبراطورية وشعوبها ، ولكنه غير مجرى نظام الحكم من أساسه ليتخذ

---

(١) cf. Script. Hist. Aug., Geta, 2.

(٢) Ibid. Severus, XVIII, 5.

(٣) T. Frank, op. cit., Volume I, p. 78.

بينما يرى روستوفتزف عكس ذلك : Rostovezeff, op. cit., i, p. 157.

(٤) Grant, op. cit., pp. 56-59.

طابع الأوتوقراطية العسكرية أو الحكم العسكرى الانفـرادى والمطلق . وربما كان هذا السلوك هو الحل الامثل للمشاكل التى عاصرها على ضوء اتجاهه الواقعى فى السياسة .

كان وجهة نظر سبتيميوس سيفيروس هى أن الرومان والايطاليين قد تمتعوا بالحكم طويلا وان الوقت قد جاء لكسر هذا الاحتكار : وليسمح لسكان الولايات التى انتشرت فيها الثقافة اللاتينية بالتمتع بهذه الحقوق التى حرموا منها منذ وقت طويل ، ولكى يحقق ذلك اتبع طريقتين الاولى هى تقليم أظافر ايطاليا وشوكتها والاقلال من امتيازاتها السابقة ، وفى نفس الوقت عامل الولايات بلا تمييز لكى تصل الى نفس الوضع المادى والمعنوى الذى كانت عليه ايطاليا ، فمثلا فرض لأول مرة على ايطاليا تواجد قوات من الجيش على أرضها وبالقرب من روما مثلها فى ذلك مثل أى ولاية رومانية أخرى ؛ أيضا الغى احتكار تجنيد القوات البرايتورية من بين الرومان والايطاليين وفتح أمام سكان الولايات الراغبين فى ذلك حتى يكسر سيطرة الرومان والايطاليين على هذه القوات التى كثيرا ما كانت تصنع الاباطرة ، وبالرغم من هذا يحرم سيفيروس الايطاليين من حق العمل فى هذه القوات بل استمروا يعملون بها حتى الفيت تماما فى بداية القرن الرابع الميلادى . ايضا منح سبتيميوس سيفيروس لبعض سكان الولايات الحق الايطالى . وهو حق يعطى سكان هذه المقاطعات نفس الامتيـازات الاجتماعية والتشريعية للرومان داخل ايطاليا وبذلك ساوى ما بين سكان كل الولايات الرومانية بما فى ذلك سكان ايطاليا فى الحقوق والواجبات ، وأعطى اهتمامه الاول بالطبع لولاية افريقيا وولاية صقلية . كذلك كسر احتكار الرومان والايطاليين لعضوية السناتو وفتحها امام جميع سكان الامبراطورية حتى أن الايطاليين لم يعد يشغلون سوى ثلث المجلس وأصبح ثلثا مقاعده يشغلها شيوخ من افريقيا ومن اسبانيا وآسيا الصغرى والمانيا . ولا يمكن ان يؤخذ ذلك على سيفيروس ، بل على العكس يعتبر ذلك امتيازا له لانه حطم الطبقية السياسية العازلة بين الايطاليين واشقائهم فى المواطنة فى الولايات التابعة للامبراطورية . وهدم كل أعمال هادريانوس الـذى حاول بها ان يجعل بين الولايات الغربية وبين الولايات الشرقية فاصلا معنويا .

اعتبر سبتيميوس سيفيروس الجيش هو جوهر السلطة والحـكم ومصدرها فى كافة انحاء الامبراطورية ومن ثم أعطى الجنود وضعا متميزا . فبدأ بذلك عهد الاوتوقراطية العسكرية ، ولهذا اتهمه المؤرخون الأوربيون المتطرفون بأنه « أول من زرع دكتاتورية الشرق فى تربة الغرب » وهو اتهام

---

(١) يظهر هذا الاهتمام فى تحصين بلدته ليتس ماجنا بالقلاع على طول حدودها الجنوبية وعلى مساحة قدرها ٢٠٠٠ كم انظر :

P. Salama. Libyca, 1955, pp 330-366.

مجحف . لأن الدكتاتورية العسكرية كانت ستقوم سواء جاء سبتيميوس أم لم يجيء .

ولعله لم ينسى أنه كان مدينا الى الجنود فى الجلوس على العرش وفى هزيمة منافسيه فى الحكم . ولهذا كان يثق فى قواته ويحبذ ان يجتمع بها ويناقش معها مشروعاته السياسية ويحصل على موافقتها قبل عرض هذه الامور المدنية الخالصة على السناتو . وكانت قواته هى لسان الحال افكاره فهى التى أعلنت ان الجنرال البينوس عدوا للشعب الرومانى وهى التى نادت بأن يكون كاراكالا قيصرا ووريثا للعرش ، واعادت الى كومودوس وضعه المؤله الذى حرم منه ، كل هذه الامور عرضت على القوات ووافقت عليها قبل أن تعرض على السناتو أو حتى يعلم بها . كما كان كريما متسامحا حتى مع أعدائه فعندما اقام المصريون تمثالا لمنافسه نيجر بعد هزيمته لم يغضب وطلب أن يترك هذا التمثال ليدرك الناس أن عظمة المنتصر من عظمة المهزوم . واعترف قائلا لقد كان حقا رجلا عظيما (١) .

ومن المزايا التى حصل عليها الجنود فى عهده زيادة كبيرة فى الرواتب بلغت مقدار الثلث بحجة تعويضهم عن زيادة الاسعار التى ارتفعت كثيرا فى عصر كومودوس . كما انه فتح ابواب الوظائف المدنية أمام العسكريين(٢) وسهل لهم الترقيات ومنحهم امتيازات بعد التسريح من الجيش . كما سمح للجنود بفلاحة الاراضى الواقعة حول المناطق التى كانوا يعسكرون فيها ، وانشاء القرى المسلحة والدفاعية وهذا يجيء على النقيض من سياسة هادريان التى حرمت اى عمل زراعى على الجنود حفاظا على تدريبهم ولياقتهم العسكرية ، وهناك ادلة كافية على قيام مثل هذه القرى المسلحة التى يسكنها الفلاحون المسلحون فى مناطق عديدة حول حدود المانيا وتركيا وفى افريقيا .

كما زاد سبتيميوس سيفيروس من كفاءة الجيوش القتالية بتشجيع التخصص المهنى والفنى فى أنواع الاسلحة ، ودفع الفرسان لتولى قيادة هذه التخصصات الجديدة وانتزاع المراكز القيادية من أعضاء السناتو نظرا لتدهور الروح العسكرية عند هذه الطبقة الاخيرة ، لدرجة أن سيفيروس وضع قيادة الفرق الثلاث التى أعدها لخوض الحرب ضد البارثيين تحت

---

(١) Script. Hist. Aug. P. Niger, XII, 6-7 ; Dio Cassius LXXVII. 3.2.

(٢) Rostovtzeff, op. cit., I, 403.

قيادة قواد من طبقة الفرسان ، بل أنه عين رجالا عسكريين من طبقة الفرسان لتولى حكم بعض الولايات التابعة للسناتو وقيادة قواتها . وهذا تحطيم للتقليد الطبقى الرومانى الذى كان متبعا بدقة منذ أيام اغسطس . كما اعتنى بضباط الوحدات الادارية ، وباختيار ابناء قادة المائة فى هذه الوظائف العسكرية الغير عاملة حتى يمكن تعبئتهم عند الحاجة . كذلك أنشأ سبتيميوس قوة عسكرية متحركة يقودها بنفسه للعمل بسرعة فى اى منطقة من الامبراطورية ، وفى عهده زاد تعداد الجيش من ثلاثين الى ثلاثة وثلاثين فرقة . كما أنه وضع فرقة من الجيش بالقرب من روما وكان يهدف بذلك الى انذار الذين قد تراودهم أفكارهم بالثورة والاطاحة بالامبراطور والقضاء على أي معارضة لسياسته أو اتجاهاته .

وفى عهده تدفق الجنود المسرحون (Veterani) على الوظائف فى الولايات ، وأصبحوا عنصرا هاما فى ادارتها ، وشغل الضباط الصغار الكثير من الوظائف التى كان يشغلها رجال طبقة الفرسان فى الماضى بعد احلال هذه الطبقة الاخيرة محل طبقة السناتو .

واخيرا انعم سيفيروس على الجنود بحق القيام بعقد زواجهم اثناء تأديتهم الخدمة العسكرية والاعتراف بشرعية الابناء الذين يولدون من هذا الزواج (ex castris) ، بل وسمح للجنود المتزوجين بحق الاقامة مع عائلاتهم بالقرب من المناطق التى تعسكر فيها القوات التابعون لها .

وهكذا أصبح الجيش الرومانى لأول مرة ممثلا لكل شعوب الامبراطورية خاصة الفقيرة والكادحة عن طريق فتح التطوع امام الجميع ، وذلك يتفق وسياسة سيفيروس فى مناصرة الولايات وتغليبها على روما أو ما يعبر عنه فى الانجليزية Provincialization نتيجة لاعطاء الطابع القومى الرومانى لهذه الولايات البعيدة التى كان الرومان ينظرون الى شعوبها قديما نظرة الوضاعة وانهم غنم تجز أصوفها لصالح الامبراطورية فقط . وفى نفس الوقت اكتسب الجيش الجديد ثقة مطلقة فى نفسه واحس الجنود لأول مرة منذ أيام الجمهورية بأنهم أرقى وضعا من المدنيين . ويرى البعض أن هذه الامتيازات منحت اجبارا لا اختيارا وتحت دافع الحاجة الى تأييد الجيش للحكم (١) ولم يعد الامبراطور قادرا على منح فرقة معينة امتيازا خاصا دون الاخرى كما كان يحدث أيام اغسطس (٢) .

---

(١) Rostovtzeff, op. cit., p. 403.

(٢) cf. Parker, op. cit., p. 222.

ومن التجديدات التى احدثها سيفيروس (١) تعيين قائدين لقوات الحرس البرايتورى بدلا من قائد واحد . وقد وصل سيفيروس الى هذه النتيجة بعد تجربته مع اقائد قواته البرايتورية جايوس فولفيوس بلاوتيانوس Plautianus والذى كان مثل الامبراطور أفريقى المولدبل من نفس بلدته وقداستغل بلاوتيانوس زمالته للامبراطور فى تدعيم مركزه. اذحصل على مقعد فى السناتو ثم تولى القنصلية وبدأ يسير على نهج سيانوس أيام تيبريوس فنظم زواج ابنته بلوتيللا من كاراكاللا ابن الامبراطور بالرغم من معارضة الامبراطورة جوليا دومنا لذلك .

وفى عهد بلاوتيانوس ازدادت مسئوليات وسلطات قائد الحرس الامبراطورى اذ أصبح يشرف على حصص القمح التموينية Annona كما اصبح ينظر فى القضايا المدنية الواقعة على مسافةماية ميل من مر العاصمة ، ونزع هذا الحق من القضاة السيناتوريين الذين اصبحوا ينظرون فى قضايا الاقاليم فقط ، واصبح قائد الحرس يقوم بالاستماع الى قضايا الاستئناف والفصل فيها باسم الامبراطور . والغى محاكم المحلفين فى القضايا الجنائية واصبح هو وحده الذى يفصل فيها .

وقد ازعج تضخم مركز بلاوتيانوس كل من الامبرطورة جوليا دومنا وابنها الامير كاراكاللا فدبرا مؤامرة للقضاء على بلاوتيانوس عام ٢٠٥ ميلادية ، ولما أنكر بلاوتيانوس تهمة الخيانة العظمى التى وجهها اليه كاراكاللا دبر الاخير مقتل قائد الحرس فى حضرة الامبراطور سيفيروس نفسه .

ومنذ تلك اللحظة قرر الامبراطور تفادي ماحدث بتعيين قائدين لقوات الحرس البرايتورى بدلا من قائدواحد حتى يراقب كل منهما الآخر، وكان من بين قائدى الحرس البرايتورى اللذين عينهما سيفيروس أحد اعلام التشريع والقانون الرومانى وهو بابينيانوس Papinianus ، كما ضم الى مجلسه الاستشارى اثنين آخرين من شيوخ الفقهاء القانونيين هما باولوس . وأولبيانوس Ulpianus ،ومن الطريف أن كلا من بابينيانوس وأولبيانوس كانا سوريين متشبعين بالثقافة الهللينية الشرقية بالاضافة الى تعليمهم

(١) من المراجع الحديثه عن صور سبتيموس سيفيروس انظر :

A.H. MacCann, The Protraits of Septimius, (A.D. 193-211), Severus, American Academy in Rome, 1968.

كذلك انظر المقال الممتع :

Balty, J.. Unprototype officielle dans l'econographie de Septime Severe, Bulletin de l'institule historique Belge de Rome, 33 (1961) p. 101-113.

الرومانى . وكان من نتيجة حب سيفيروس لرجال القانون أن اقامت نزعة تشريعية كبيرة اكسبت القانون الرومانى روح العدل الاجتماعى(١) وتهدف الى حماية الضعيف الفقير من المستبد الغنى خاصة أن قام فى هذه الفترة استغلال سياسى من جانب الاغنياء (humiliores) وذوى الجاه أو الوجهاء على حساب المعدمين ذوى الاصول الوضيعة (honestiores) . ولاول مرة نسمع عن تعيين مدرسين لتعليم اهل القرى . كما وضع سيفيروس عدة لوائح انسانية مثل تحريمه الاجهاض وحمايته لحقوق الزوجات ورعاية الاسر الفقيرة . وفى عهده وزع الدواء مجانا على المرضى باشراف الطبيب جالينوس (٢) . ولم يكن سيفيروس اشتراكيا لكى يحطم هذا الحاجز الاجتماعى ولكن اعتماده على الجيش فى فلسفة حكمه هو الذى جعله يفعل ذلك . اذ أن الفقراء وحدهم هم الدين كانوا يقبلون على العمل فى الجيش بعد تنظيمه الجديد .

لقد كانت مشكلة الامبراطورية الرو[مانية] الاقتصادية هو تملق حكامها على الجيش والغوغاء المعاصرة . فبالنسبة للجيش منحوه الرواتب العالية والمكافآت . وبالنسبة للغوغاء اعفوا ببدح لتسليتهم بالمهرجانات والالعاب واوجدوا المشروعات الكبرى لكى تمتص الايدى العاطلة . وبالنسبة لغوغاء روما منح اباطرة هده الاسرة النفائح Congiaria المالية فى المناسبات وللعسكريين أيضا كل هذا ارهق الخزانة وافلسها .

لقد انفق آل سيف[ير]وس الاموال التى جمعوها من الممتلكات المصادرة للغوغاء الكسالى المست[عدين] للبطالة والتكفل بالانفاق عليهم ومنحهم الهبات وهى مشكلة [قد]يمة برز[ت] على مسرح السياسة الرومانية منذ ايام الاخوين جراكوس وحاول قيصر (٣) أن يقلم اظافر الغوغاء بتحديد اعداد قوائم المستفيدين من مشروع القمح الرخيص . وكذلك فعل اغسطس . ولكنها عادت وظهرت مرة اخرى بصورة اخطر لدرجة ان تراجان انفق اكثر من ثلث غنائمه التى جلبها من داكيا على هؤلاء الفقراء الكسالى (٤) .

وكانت النتيجة تضخم العجز فى الاقتصاد الرومانى لدرجة رهيبة ابان القرن الثانى الميلادى . فقد ظهر ماركوس اوريليوس فى ضيق مالى

---

(١) cf. Rostovtzeff, op. cit., I, p. 405.

(٢) cf. M. Grant, op. cit., p. 81-82.

(٣) T. Frank, op. cit., I, 242, p. 312.

(٤) Ibid, vol, V, p. 68.

شديد بالرغم من أن هذا الامبراطور العاقل رفض أن يثقل كواهل الناس بضرائب جديدة (١) بالرغم من انه اضطر الى منح التفائح Congiaria عند عودته الى روما بقدر أكبر مما تعود الفقراء عليه .

لكن والحق يقال اطلق سيفيروس يد مشاهير فقهاء القانون من امثال بابيانوس واولبيانوس وباولوس لتحقيق احلامهم فى وضع التشريع الانسانى العادل من اجل اسعاد شعوب الامبراطورية دون أى تفرقة أو تمييز .

دعم الجهاز الادارى والتنظيمى لمواجهة بوادر الانهيار :

يتسم عصر سيفيروس بازدياد رقابة الدولة على الجمهور ومصالحه . وذلك عن طريق اجهزة ذات طابع عسكرى بحت ، بل وعلى النسق العسكرية ذاتها . فأصبحت الدواوين العامة او المصالح الحكومية عسكرية الطابع خاصة وان الموظفين الذين كانوا يشغلون هذه المكاتب كانوا مسرحين من الجيش بعد الخدمة العسكرية .

ولاول مرة تحدث فقهاء العصر عن الخدمات العامة وواجبات الجماهير ازاء الدولة وعن حقوق اصحاب المهن الحرفية Collegia وصغار التجار ـ خاصة الذين يختصون بالمواد الاستهلاكية ـ فى تكوين نقابات .

وفى الاقاليم كلف اعضاء المجالس البلدية من الوجهاء والاعيان بالاشراف على جمع الضرائب ، وحملت المجالس الاقليمية مهام جديدة فى الادارة ومسئوليات مدنية معينة مثل مكافحة الحرائق ، وفرضت عليهم رقابة دقيقة لضمان تنفيذ هذا التكليف وعدم التهرب منه . ولما كان سيفيروس عسكرى النظرة والمزاج فقد دفع سياسة الاتجاه نحو الحكم المحلى واللامركزية دفعة قوية لم يسبق لها مثيل منذ بداية الاتجاه نحو تلك السياسة منذ قرن سابق من الزمان تقريبا .

ومن العوامل التى ساعدت على تضخم شخصية سبتيميوس سيفيروس التدهور الاقتصادى المفاجىء فى الامبراطورية الرومانية مما دعاه الى اتخاذ سلطات فوق القانون لمواجهة هذا الانهيار ، وبالفعل نجح فى تحسين وضع الاقتصاد قليلا وذلك عن طريق زيادة الضرائب ، ولكن التدهور غطى على هذا الاصلاح لاننا نجد الامبراطور يضطر الى تخفيض قيمة العملة الرومانية بتخفيض نسبة الفضة والذهب فيهما وتقليل وزنها .

---

(١) Cassius Dio LXXII, 32,3.

لقد فرضت عليه الظروف الحرب والقتال ، لأن قوى خفية أقوى من ارادته هى التى وضعته فى ذلك الموقف ، ففى خلال فترة حكمه البالغة ثمانية عشر عاما لم يسد السلام سوى فى ست منها فقط ، وبالتالى عانت الامبراطورية وولاياتها من جراء هذه الحروب ، حتى ولايتا أفريقيا وسوريا الولايتان اللتان لقيتا مكانة عزيزة فى قلب الامبراطور والامبراطورة بصفتهما موطنهما الاصلى قاستا من جراء ذلك التدهور (١) .

ومن بوادر الانهيار السياسى والاقتصادى فى الامبراطورية انعدام الأمن وظهور عصابات قطاع الطرق وازدياد سطوتها فى الولايات بسبب انضمام الهاربين والساخطين واللاجئين السياسيين الى هذه العصابات لدرجة ان بعضها كاد أن يصبح دولة داخل الامبراطورية ، ومن أشهر زعماء قطاع الطرق فى ذلك العصر رجل يدعى بوللا فيلكس Bul'a Felix تمكن من نشر الرعب فى الريف الايطالى عن طريق عصابته التى بلغت ستمائة من قطاع الطرق والقتلة والاشرار ، وقد تفشى خطر هذه العصابة وشرورها ما بين ٢٠٦ ، ٢٠٧ ميلادية والحقت بالتجارة الداخلية ضربة قاصمة .

وفى نفس الوقت هدد مستأجرو الاراضى التابعة للامبراطور بترك الارض التى يدفعون عنها ايجارات للدولة اذا ما استمر الزامهم اجباريا للقيام بأعمال الزامية فى المدن التى تقع حقولهم فى زمامها مما يعطلهم عن فلاحة الارض التى يدفعون عنها الضرائب والرسوم ، بل بدأ بعضهم بالفعل يهجر الحقول الى الجبال والاغوار لينضم الى عصابات اللصوص أو جموع العاطلين . وهذا خطر تفشى فيما بعد فى الامبراطورية وساعد على سقوطها وانهيارها ، وبالرغم من ذلك نجد رعايا الأمبراطورية من سكان الولايات يثقون بالامبراطور سيفيروس ويرفعون شكاواهم اليه من الظالمين من رجاله ، ويترحمون فيما بعد على ايامه التى اعتبروها أسعد الايام ، وزاد من صعوبة مهمة سيفيروس انه ورث خزانة خاوية على عروشها بسبب بهاظة نفقات الحروب التى سادت الامبراطورية قبل وبعد توليه السلطة ، ولكنه تغلب على هذا العجز عن طريق مصادرة ممتلكات اعدائه ، وقد بلغ من ضخامة هذه الممتلكات المصادرة أن تطلبت ادارتها انشاء خزانة خاصة ratio privata اعتبرت اموالها أموال الامبراطور الشخصية ، بالرغم أن الذين اشرفوا عليها كانوا موظفين حكومين تابعين للادارة الامبراطورية ، واستغل ريعها

---

(١) A.G. Birley : Septimius Severus the African Emperor, Eyre and Spottiswoode, London 1971., p. 136 ; p. 217 ff.

لمواجهة نفقــات الحكومة المتزايدة ، ولكن محاولة تحسين احتياطي الخزانة عن طريق مصادرة أموال الناس لم يغني الامبراطورية بل ، على العكس أفقرها(١).

لقد انتشر وكلاء الحكومة المركزية Publicani في كل مكان من الامبراطورية واصبح تجنيد الناس للوظائف امرا اجباريا منذ ايام اسرة آل سيفيروس (٢) لانها وظائف مكلفة وبلا عائد وتسببت في افقار الكثيرين منهم. لقد حاول سيفيروس وضع حلولا شجاعة ولكن قاتلة لمشاكل الامبراطورية الاقتصادية التي أصبحت على شفا العودة الى نظــام الاقتصــاد البدائي المتمثل في نظام المقايضة (٣) ويوما بعد يوم لم تعد الدولة تهتم بالاصلاح الاقتصــادي لانهــا وقفت عاجزة حيالها ثم استسلمت لها قدريا ، ولهــذا لم تحــاول اصلاح نظامها النقــدي (٤) الذي بدا ينهار منذ ايام نيرون (٥) لدرجة ان العملة الامبراطورية لم يعد معترف بها في الولايات الشرقية (٦)، واصبح التعامل مشروطا بقطع العملة الذهبية او الفضية ولهذا توقفت هذه الولايات عن سك عملاتهــا الخــاصة . وعادت الى عهد ما قبل اختراع النقود في القرن الســابع ق.م وهو استخــدام سبائك المعادن الثمينة (٧) او المقايضة المباشرة .

اما بخصوص سياسته الخارجية فقد لمحنــا عنها من قبل . ولكن على أي حال وجـد الامبراطور نفسه في قتــال فرض عليه وحروب مستمرة منذ ١٩٧ ميلادية عندما هاجم دولــة البــارثيين وانتهى باحتــلال كتيسيفون (طيسفون) عاصمتهم ، وانشاء ولاية ما بين النهرين Mesopotamia وجعل قلعة نسبيس Nisibis عاصمة لها ، التي منها أعلن قراره الشهير بالانعــام على ابنه كاراكالا بلقب أغسطس ، وهتف الجيش بهذا الاسم عام ١٩٨ م وبذلك اصبح شريكا في الحكم مع ابيه . وفي نفس الوقت عين ابنه الثاني والذي كان يسمى جيتا Geta . قيصرا أي وريثا للعرش تحت الاختبار ، وكنائب لاخيه الأكبر .

(١) Rostovtzeff : I, p. 423 : cf. T. Frank, vol. V. p. 25.

(٢) Rostovtzeff, op. cit., Ibid. pp. 412-413.

(٣) T. Frank, op. cit., vol. V, p. 299 f.

(٤) Rostovtzeff, Ibid., p. 423.

(٥) Ibid, p. 418.

(٦) T. Frank, op. cit., vol. IV, p. 222.

(٧) Ibid., p. 746.

واخيرا قضى الامبراطور الفترة ما بين ١٩٩ الى ٢٠٢ ميلادية فى تجوال دائم حيث زار مقاطعات الشرق مثل ولاية مصر وسوريا حيث قسم هذه الولاية الأخيرة الى ولايتين مثلما فعل بعد ذلك بولاية بريطانيا . كما زار آسيا الصغرى وولايات الدانوب . وبالطبع أعطى الامبراطور ولاية افريقيا عناية خاصة لانها وطنه الأصلى خاصة مدينة لبدة . ولذلك قضى الامبراطور ما يقرب من عامين فى افريقيا حيث انشأ عدة استحكامات على حدودها كما رفع من الوضع السياسى لعدد من المدن الى درجة المساواة فى الحقوق مع الرومان ، وحسن من وضع السكان واحوال الجنود . ثم فصل اقليم نوميديا (الجزائر) عن الولاية الافريقية وجعله ولاية مستقلة قائمة بذاتها (١) . ومن الملاحظ ان اتجاه سيفيروس كان يتخذ طابع تفتيت ولايات الامبراطورية الكبرى حتى يعطيه ذلك فرصة فى السيطرة المطلقة على كل شبر من اراضى الامبراطورية من ناحية ، ومن ناحية اخرى ليحول دون احلام التمرد والانفصال الذى كان يراود بعض حكام الولايات الكبيرة مما كان يؤدى الى نشوب الحروب الأهلية ، ولعله كان يذكر جيدا تجربته هو نفسه مع الحكم . وفى عام ٢٠٨ ميلادية زار الامبراطور بريطانيا حيث كانت قبائل الكاليدونيون قد زحفت عليها من الشمال مستغلين الفراغ الذى احدثه سحب الجنرال البينوس لفرقتيه عندما ذهب ليحارب سبتيميوس سفيروس وقد تمكن الامبراطور سبتيميوس من رد القوات الزاحفة حتى حدود اسكتلندا ثم جعل حائط هادريان الشهير حدا فاصلا بين بريطانيا الرومانية والقبائل المتبربرة فى الشمال .

ومن هناك انعم على ابنه جيتا بلقب اغسطس فى عام ٢٠٩ م وبذلك رفعه من درجة القيصر اى الوريث المتوقع الى شريك فى حكم الامبراطورية مع اخيه .

وفى شهر فبراير عام ٢١١ م بينما كان يعد لحمله جديدة مات الامبراطور فى مدينة ابيوراكوم Eburacum (يورك الحالية) وهو فى الخامسة والستين من عمره ، وادعى بعض المؤرخين انه نصح ولديه وهو

---

(١) R.M. Haywood, «The Afican Policy of Septimius Severus» Transactions of the American Philological Association, 71 (1940) pp. 175-185. also cf. Duncan Jones «Wealth and Munificence in Roman Africa, Papers of the British School at Rome, 18 (1963), p. 159.

وعن تاريخ زيارة الامبراطور واسرته الى بلدته الاصلية لبتس جنا والآثار الدالة على ذلك انظر A, Birley, op. cit., p. 216-218

كذلك انظر : ليبيا فى التاريخ — الجامعة الليبية بنغازى ١٩٦٨ ، ص ١٤٧ وما بعدها .

على فراش الموت ان لايباليا بشىء ولا يهتما بأحد سوى الجنود فقط ؛ وأن هذه الامبراطورية ستكون قوية اذا كانا قويين ، وضعيفة اذا كانا ضعيفين . وسواء صدق هذا الادعاء (١) أم لا فهو يصور الطريق الحقيقى الذى كانت تسير فيه الامبراطورية والذى أدى بها الى السقوط والانهيار . الا وهو اعتماد الحكام على القوة العسكرية كوسيلة للحكم .

وبعد توليه مباشرة سارع كاراكالا الى عقد الصلح مع القبائل الكاليدونية فى بريطانيا وعاد مع أخيه جيتا ليتما الشعائر الجنائزية الخاصة بأبيهما ولكن يحثا مجلس السناتو على تأليهه ، وقد تم ذلك بالفعل .

حكم الامبراطور كاراكالا (٢١١ – ٢١٨م) وأخيه جيتا (٢١١ – ٢١٢م)

لم يمض على موت سبتيميوس سيفيروس وقت طويل حتى اندلع صراع مرير بين الاخوين الوريثين ، لأن غياب الوالد اطلق الاعنة للحقد القاتل بينهما ، ولم تجدى محاولات الأم جوليا دومنا شيئا فى التوسط بين فلذتى كبدها ، وزاد من مرارة الصراع تدخل رجال البلاط والجنود حتى أصبح لكل شقيق حزب من المؤيدين ، حتى لم يكن هناك احد فى البلاد الا واتخذ جانبا أما مع كاراكالا او مع جيتا . ومن كان مع احد الاخوين كان بالتالى ضد الآخر . ولم يكد ينقضى عام واحد على حكمهما المزدوج حتى دبر الأخ الأكبر كاراكالا اغتيال أخيه مدعيا انه بذلك كان يدافع عن نفسه ازاء مؤامرة كان يدبرها جيتا ، وبسرعة غمر الحرس البرايتورى بالمكافآت السخية ورفع رواتب الجند بمقدار ١٥٪ . ثم بدأ فى تصفية انصار اخيه جسديا ، كان من بين ضحايا هذا الانتقام المجنون الفقيه وقائد الحرس الامبراطورى بابينيانوس ، كما تضمنت قائمة الضحايا ابنة ماركوس أوريليوس نفسه وكانت تدعى كورنيفيكيا Cornificia بتهمة أنها جرات على زيارة الامبراطورة الام وقدمت العزاء لها لموت ابنها جيتا ، وكان ذلك التصرف كافيا لكاراكالا ان يتخلص منها ، وقد تحدثت الاقاصيص الرومانية عن الشجاعة الفائقة التى واجهت بها هذه الاميرة – بنت الاكرمين – سيف الجلاد ، وهممت تسخر من آل سيفيروس الذين يدعون زورا وبهتانا أن أباها قد تبناهم فنسبوا انفسهم اليه مدعين انهم جزء من آل انطونيوس .

الامبراطور كاراكالا وسياسته :

كان كاراكالا ضعيفا ماكرا وبربريا فى انتقامه ، كما كان شديد الاعتقاد بالهواجس والخزعبلات ، محبا للانغماس فى الفسق ، وهو لايختلف

---

(١) Script. Hist. Augu. Severus, XXIII, 5.

كثيرا عن كاليجولا ونيرون وكومودوس فى فسقهم وعدم لياقتهم لتولى العرش . لقد شجع كاراكالا على ذلك رفعه الى منزلة «الاغسطس» وهو فى سن مبكر ودون تعميق لمعنى العلاقات الانسانية فى نفسه وتدريبه على فن الحكم عن طريق التدرج فى سلك الوظائف الطويل ، أو تحميله المسئولية وتعويده على تحملها ، كل هذا جعل كاراكالا ينشأ محتقرا للقوانين والحقوق، ونمت فى عقله اتجاهات استبدادية وانفرادية يكاد ان يكون طغيانا شرقيا . ولقد جعل نصيحة ابيه له بالعناية بالجيش والاعتماد عليه جوهر فلسفة حكمه الاستبدادى العسكرى ، وكان شعاره « مادامت الجنود راضية عنى فليذهب الجميع الى الجحيم » ، وكان يقول « لا احد سواى يجب أن يمتلك المال وذلك حتى اعطيه لجنودى » (١) كما كان شديد العناية بالفقراء (humiliores) الذين منهم جند قواته . بينما ترك كل الشئون الغير عسكرية لتصرف امه الملكة بمساعدة المجلس الامبراطورى الاستشارى (Consilium) ، وانفرد هو بالجيش والعسكرية واحلام الفتوحات وتقليد الاسكندر الأكبر لا فى انتصاراته الحربية فحسب ، بل فى مبادئه السياسية وأفكاره التى سحرت الباب المثقفين فى ذلك العصر . ولكن هدف كاراكالا الحقيقى كان سحق المثقفين وافناء كل من يعترض طريقه ولم يكن رجال السناتو اسعد حالا ، بل ضحية من ضحاياه (٢) .

الدستور الانطونينى Constitutio Antoniniana :

منذ أن عثر على بردية جيسن (٣) P. Gissen التى تحمل عبارة جاءت على لسان كاراكالا تمنح جميع شعوب الامبراطورية من غير الرومان الجنسية الرومانية الكاملة بأستثناء من اسماهم بالمستسلمين والجدل لم يتوقف بين المؤرخين وفقهاء تاريخ القانون وعلماء الوثائق البردية حول المضمون الذى احتوته . وانحصر الجدل فى عدة قضايا اهمها ما هى الأسباب والدوافع لصدوره ؟ وما هى اهميته ؟ ومتى صدر ؟ ومن هم المستسلمون الذين استثنوا من هذا الحق ؟ وهل كان هذا القانون الزاما يجب تطبيقه بالأكراه ام منحه اختيارية لمن يريد ؟

والذى لاشك فيه أن روح الاسكندر الأكبر ومثاليته تركت بصماتها واضحة على افكار الاباطرة الصالحين وعلى اباطرة الأسرة السفيرية التى حاولت أن تسير على نهجها ، فمنذ عصر الاباطرة الصالحين نلاحظ بداية الاتجاه نحو مبدأ الاكثار فى منح الجنسية الرومانية نتيجة لاتساع الأفق السياسى والانسانى Philanthropeia وتحت تأثير الفلسفات الانسانية

(١) Rostovtzeff : op. cit., I, 417 ; Dio Cassius LXXVIII, 3,2.

(٢) Dio Cassius, LXXVIII, 901.

(٣) P. Gissen., 40, Col I = Mitteis, Chrestomatie, 377.

خاصة الراوقية . كما أن كاراكالا نفسه كان شديد التشبه بالاسكندر الأكبر واحلامه فى توحيد العالم وكسر الحواجز العنصرية بين سكانه . الي جانب ذلك فقد تدهورت قيمة الجنسية الرومانية فى القرن الثالث ولم تعد ثمينة لدرجة ابقائها وقفا على الرومان . كما أن الاتجاه نحو منحها لعدد كبير من الشعوب بدأ حتى منذ أواخر عصر الجمهورية وبالتحديد منذ عهد يوليوس قيصر كتشجيع للمستوطنات الرومانية خارج (١) ايطاليا على التمسك بالروح والنظم والفكر الرومانى ، واستمر هذا الاتجاه فى عصر الامبراطورية . ومهما يكن من أمر فان صدور هذا القرار يعد قمة الوصول الى سياسة المساواة بين الرومان وسكان الولايات فى عصر سبتيميوس سيڤيروس وابنه كاراكالا لأنهما لم يكونا رومانا ، بل فينيقيين ، بل وتجرى فى عروق كاراكالا دماء سورية من ناحية أمه جوليا دومنا . وقد سبق ان وصفنا وصول سبتيميوس سيڤيروس وزوجته السورية انتقام قدرى لهزيمة هانيبال جاء بعد أكثر من أربعة قرون من الزمان ان يحكم الامبراطورية الرومانية زوجان شرقيان بل وينتمى الزوج الى العنصر الذى جاء منه هانيبال ، ومن ثم فمن الطبيعى أن يكون هناك اتجاه لدى هذه الأسرة لكسر الحاجز الوهمى الذى اقامه الرومان القدماء ليميز بينهم وبين شعوب الولايات — خاصة الشرقية — واعتبار ايطاليا فى وضع لا يختلف عن سائر الولايات الأخرى . ويرى الأستاذ دى فيشر أن ولاية أفريقيا بالذات قد ازدهرت فى ذلك الوقت حضاريا (٢) واقتصاديا وعمرانيا ، بل واصبحت هى المصدر الأول لأمداد روما بالقمح وبالتالى فان الحفاظ عليها وارضاء سكانها كان بمثابة دعم الأمن الغذائى لأيطاليا . ومن ثم لم تعد شمال أفريقيا فى القرن الثالث مجرد ولاية وشاة بين قطيع أغنام الامبراطورية ، بل قطعة لا تتجزأ من ايطاليا كما يشهد بذلك علماء النقوش والآثار (٣) . اذ يقدر عدد المدن فيها بحوالى ٥٠٠ مدينة بل امتد فضل شمال افريقيا على ايطاليا الى مجالات اخرى مثل المجال الدينى والأدبى والفنى خاصة فن الباروك الافريقى الذى أثر فى الفن الرومانى . كما أمدت شمال أفريقيا الامبراطورية بالقيادات السياسية لدرجة أن الأفريقيين فى القرن الثالث الميلادى أصبحوا يشكلون ٢٦٪ من أعضاء

(١) أنظر ص ٧٠ كذلك أنظر كتابى « تاريخ الرومان من القرية الى الامبراطورية » القاهرة دار النهضة العربية ص ٢٨٥ .

(2) De Visscher, La Constitution Antoinine et la dynastie africaine, Revue International Des Droits De L'Antiquite, serie 3, Tome VIII (1961) p. 240.

(3) Julien (Ch. A) Histoire de l'Afrique du Nord, chapter VII, p. 166-193.

مجلس السناتو القادمين من الاقاليم (١) ، ومن الطبيعى ان تساعد اسرة سبتيميوس سيفيروس الأفريقية القيادات النابغة من موطنها الأصلى وتأخذ بيدها لتساعدها فى قيادة الامبراطورية ، ويؤكد جلبرت بيكارد (٢) على حقيقة هامة هى ان حاشية سبتيموس سيفيروس كانت افريقية مثله ، بل ان العنصر الأفريقى لعب دورا فى تدبير مصرع كومودوس لان القائد البرايتورى فى عام ١٩٠م كان ايميلوس لايتوس وكان افريقيا ، بل ان الصراع بين سبتيميوس سيفيروس ومنافسه البينوس كان صراعا بين قائدين من شمال افريقيا لان البينوس كان من مدينة حضرمنتوم القريبة من قرطاجة وبعد انتصار سيفيروس فى ليون عام ١٩٧ م اختار سواطنا له هو فوليوس بلاوتيانوس ليتولى قيادة الحرس البرايتورى . وكان بلاوتيانوس فقيها مشهورا وله سطوة لا تقل عن سطوة سيانوس فى عصر الامبراطور تيبيريوس خاصة بعد أن دعم مركزه عند سيده الامبراطور بتزويج ابنته بلاوتيللا لولى العهد كاراكالا الذى وضع حدا لسطوة صهره بتدبير موته عام ٢٠٥ م .

ومن ثم فقد كانت حاشيته سبتيميوس سيفيروس ومساعدوه وفقهائه من شمال افريقيا (٣) وانها استغلت هذه الفرصة النادرة التى اولاها لها القدر لهدم الحاجز النفسى بين الرومان والأجانب من سكان الامبراطورية عن طريق الاكثار فى منح الحقوق الايطالية ius Italicum

وهى الخطوة الممهدة لمنح الجنسية الرومانية ، ومن ثم فان كاراكالالم يكن سوى منفذا لأفكار ابيه الذى سبق ان منح فى عام ١٩٩م عواصم الاقاليم المصرية الحق فى تكوين مجالس شورى لتتحمل مسؤلية جمع الضرائب نيابة عن الحكومة المركزية وتتحمل عنها مشقة البحث عن وكلاء بعد تزايد تهرب الأعيان من تولى الوظائف الشرفية . غير أن هذا التفسير يجب الا يتعارض مع القول بأن القانون الانطونينى ليس الا خطوة طبيعية ومنطقية فى مرحلة طويلة سلكتها الامبراطورية من اجل « ترمين » Romanisation العالم الرومانى وتحويل مواطنى الولايات الى مواطنين كاملى الحقوق وجعل سلوكهم يتطابق مع السلوك الرومانى ، لكن سياسة الأسرة السيفيرية زادت فى الدفع نحو هذا الاتجاه ، ويرى اساتذة القانون الرومانى ان النزعة الانسانية فى القانون الرومانى فى عهد هادريانوس ادت

---

(1) M. Hammond, J. R. S. 1957, P. 74.

(2) Piccard, Gilbert Charles, La Civilization romaine de L'Afrique du Nord, Paris, 1959, p. 76 f.

(3) Piccard, op. cit., v. 76.

الى صدور قانون الامم ius gentium الذى اعترف بحقوق غير الرومان ويعللون فشل قانون الامم بسبب قيامه على قواعد القانون المدنى الذى كان لايزال عبدا للشكلية ، ففى نظر الرومان « ان الشكل يعطى جوهر الشيء » Forma dat esse rei . ومن ثم فقد كان قانون الامم اكثر تعقيدا وقسوة فى المعاملات وقد ادى هذا الى فشله (١) .

غير ان بعض المفسرين لهذا القانون يعزون صدوره الى اسباب اقتصادية ويتبعون فى ذلك ماكتبه ديوكاسيوس عن تخفيض كاراكالا لضرائب الارث والميراث والتجارة الى النصف ومن ثم اراد تعويض ذلك عن طريق تحميل الفارق الى شعوب الامبراطورية من غير الرومان وذلك بمنحهم الجنسية الرومانية الكاملة ليدفعوا هذه الضريبة (٢) التى لم يكن يدفعها الا الحاصلون على الجنسية ، ويرى آخرون أن سبب صدور هذا القانون هو تحميل المواطنين الجدد هذه الضريبة ليعوض الخسائر التى تعرض لها الامبراطور ابان حملته فى بحر مرمرة فى شهر اغسطس عام ٢١٤م وانه كان فى ضائقة مالية بعد هذه الهزيمة . بينما يضيف دى فيشر (٣) رايا جديدا كان غائبا عن اراك المؤرخين وهى أن هذا القرار كان منبعه مقاومة انتشار المسيحية فى شمال افريقيا فى ذلك الوقت واقبال سكان شمال أفريقيا عليها بعد ان مزقهم التباين والاختلاف فى القوميات ، وكانت المسيحية بدعوتها المثالية لالغاء الفوارق بين البشر هى البلسم الشافى لهذا التمزق والتفرقة بينهم وبين الرومان ، ومن ثم هدف كاراكالا بقراره جذب الأنظار عن افكار الديانة الجديدة وربط شعوب شمال افريقيا المتنوعة العنصر والثقافة وكذلك سائر شعوب الولايات الشرقية برباط سياسى ودينى واحد خاصة ان القانون الرومانى كان مرتبطا بالديانة الرومانية ، ومن ثم فان هذا القرار كان تصرفا ذا صبغة سياسية — دينية Politico-Religious لربط وتوحيد شعوب الامبراطورية برباط سياسى ودينى حتى لا تغويهم المسيحية بدعوتها الى هدم الحواجز العنصرية والطبقية ، خاصة أن سبتيميوس سيفيروس سبق أن طبق فكرة « السلام الدينى » الذى يجمع بين كل آلهة شعوب الامبراطورية فى مجمع واحد هو البانثيون Pantheon ووضعه تحت رعايته . غير اننا لا نميل الى قبول التفسير الاقتصادى وحده بأن القرار صدر تحت ظروف ضائقة مالية بعد هزيمة كاراكالا فى عام ٢١٤م لأن الأزمة الاقتصادية كانت موجودة قبل

---

(١) محمود السقا : تاريخ القانون المصرى من العصر الفرعونى حتى نهاية العصر الاسلامى مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٤ ص ٤٤١ .

(2) cf Dio Cassius LXXVIII, 905 ; T. Frank, Vol, V, p 87.

(3) De Visscher, loc. cit., p. 241.

ذلك خاصة أن مقدمة القرار تتحدث عن الشكر والامتنان للآلهة بعد نجاة الامبراطور من المؤامرة التى دبرها ضده أخوه جيتا ، ومن ثم فان هذا القرار صدر بعد اغتياله لأخيه لتدعيم شعبيته بين شعوب الامبراطورية وانسائها الجريمة البشعة التى ارتكبها ، وربما بوازع دينى للتوبة والتكفير عن جريمته حتى ترضى عنه الآلهة التى كان يحس بأنه اغضبها بفعلته هذه (١) . غير أننا نستبعد أن تكون الازمة الاقتصادية عاملا دفعه لأختيار التوقيت المناسب لاصدار القرار .

أما بالنسبة لتحديد تاريخ صدور القرار فأن الغالبية من المؤرخين وعلماء تاريخ القانون الرومانى يتفقون على انه صدر فى يناير عام ٢١٣ ق.م واغلب الظن انه صدر فى شهر مارس عام ٢١٢ م . وقد اعتمدوا فى تحديد هذا التاريخ على ضوء الظروف والمصادر وفى ضوء ماذكره ديوكاسيوس وكذلك فى ضوء تتبع القوانين الأخرى التى أصدرها كاراكالا . غير أن رأيا حديثا يرى أن هذا القرار لم يصدر قبل صيف عام ٢١٤م (٢) وقد بنى صاحب هذا الراى استنتاجه على أساس أن اسم اوريليوس Aurelios الذى انتشر بين سكان الريف المصرى بعد صدور قرار منح الجنسية كأسماء رومانية جديدة لهم بدلا من الأسماء الاغريقية والشرقية لا يظهر فى وثائق البردى المصرى الا فى خريف عام ٢١٤م ، كما يربط صاحب هذا الراى بين هذا التاريخ المقترح وبين هزيمة كاراكالا فى بحر مرمره فى صيف عام ٢١٤م ، ويتفق مع ديوكاسيوس فى ان الدافع لصدوره هو الحاجة الماسة الى زيادة دخل الامبراطورية من الضرائب ، ولكنه يختلف مع ديو كاسيوس فى قبول عام ٢١٢ م تاريخا لصدور القرار بانيا اختلافه على أن ديو كاسيوس يضع أحداثا فى مؤلفاته دون الالتزام بانسياقها الزمنى أو تسلسلها التاريخى ، وأن وثائق هذا القرار ليست مرتبة ترتيبا زمنيا واضحا . غير أن رأيا أحدث ناقش الراى السابق فى ضوء قوائم أسماء الجنود التى عثر عليها فى مدينة دورا يوروبوس (٣) (الصالحية فى شمال شرق نهر دجلة) واعترض عليه مؤكدا الراى الأول وهو أن القرار صدر فى ربيع عام ٢١٢م . ويرفض هذا الراى الجديد الربط بين هزيمة كاراكالا فى صيف عام ٢١٤م وبين صدور القرار لأن الأزمة الاقتصادية كانت قائمة حتى قبل الهزيمة . ورغم أن اسم Aurelios لا يظهر فى قوائم دورا يوربوس الا فى عام ٢١٤ م الا أن

(1) J. F. Gilliam, Dura Rosters and the Constitutio Antoniniana, Historia, XIV (1965) p. 91.
Bickermann, Das Edict des Kaisers Caracalla, p. 32.

(2) Fergus Millar, J. E. A., XLVIII, (1962), pp. 124-131.
cf. J. Gilliam, loc. cit., p. 90 ff.

صاحب هذا الرأى يؤكد وجود فارق زمنى بعد صدور القرار وبين تنفيذه على أيدى السلطات الرومانية فى الولايات واستيعاب الأجانب لمضمون القرار ونتائجه خاصة أن الفلاحين المصريين كانت لهم تجربة مريرة مع كاراكالا عندما أصدر قرارا بطردهم من اسكندرية . كما أن القرار بمنح الجنسية الرومانية لجميع السكان لم يكن قرارا سهلا بل قرارا قلب الأمور رأسا على عقب بالنسبة لقوانين الادارة فى الولايات وبالنسبة لحياة وتقاليد ونظم سكانها خاصة أن صدور القرار كان فجائيا ولم يسبقه تمهيد من جانب الامبراطور أو مساعدية ، فمن الطبيعي أن يحتاج سكان الولايات وقتا للتفكير فى الوضع الجديد كما تحتاج الادارات الرومانية وقتا للتنفيذ . هذا بالاضافة الى الأدلة التى ساقها المؤرخون من انصار قبول عام ٢١٢ كتاريخ لصدور القرار . كما أن نص الوثيقة يفصح أن القرار قد صدر بمناسبة نجاة الامبراطور من مؤامرة اخية جيتا وبالتالى فهو قد صدر بعد موت اخيه جيتا عام ٢١٢ كعمل خير يتلو عملا شريرا وكخروج من الأزمة النفسية التى كان يعانيها الأمبراطور بعد قتله لأخيه ومن أجل ارضاء الآلهة وكسب شعبية بين سكان الولايات وتوحيد شعوب الامبراطورية برباط قانونى ودينى متين .

أما بالنسبة لتفسير كلمة «المستسلمين» (dedeticii) الذين استثناهم الامبراطور من هذا الحق فقد دار فيها جدل أيضا ويصف فقهاء القانون عبارة «فيما عدا المستسلمين» بانها قيدا على المبدأ العام الذى جاء بصدر الدستور (١) لانه حرم هؤلاء المستسلمين من حق الحصول على الجنسية الرومانية . أما تحديد نوعية المستسلمين فقد اعتقد البعض خطأ أو قصدا بأن المقصود بهم هم المصريون (٢) وتفسيرهم لذلك أن سكان الريف المصرى لم يكونوا منتمين الى مواطنه أى من المدن الاغريقية الاربعة فى مصر وهى الاسكندرية ونقراطيس وبطلمية وانطينوبوليس ، وأن أساس منح الجنسية الرومانية كان قاصرا على سكان المدن . غير أن هذا الرأى مرفوض شكلا وجوهرا فالقرار لم يصدر بالنسبة لمصر وحدها ، بل بالنسبة لجميع سكان الولايات التى كانت تزخر بقوميات وشعوب تعيش بعيدة عن المدن وبعضها كان دون المصريين حضارة وأصالة ، كما أن المصريين لم يرفعوا السلاح فى وجه الامبراطورية حتى يحرمون من هذا الحق . ان حرمان هؤلاء المستسلمين من هذا الحق لابد وأن ينسجم مع حالتهم فى كونهم فى وضع

---

(١) محمود السقا المرجع السابق ص ٢٤٥ .

(2) cf J. G. Winter, Life and Letters in the Papyri the Jerome Lectures, An Arbor 1933, p. 24.

يجعلهم ادنى من وضع سائر السكان الاجانب ، وهم أغلب الظن فئة قليلة العدد ، ولابد ان يكونوا اولئك الذين رفعوا السلاح فى وجه الامبراطورية سواء كانوا ثوار وطنيين أم خارجين على القانون من أمثال قطاع الطرق ورجال العصابات التى انتشرت فى ذلك الوقت ، وكذلك الغزاة البرابرة مثل الجرمان وغيرهم ممن استولوا بقوة السلاح على اجزاء من الامبراطورية الرومانية واستوطنوها عنوة . كما ان الوثائق التى ظهرت بعد صدور هذا القرار تؤكد تمتع الفلاحين المصريين (١) كغيرهم من سكان الولايات سواء فى حمص او دورا يوروبوس ، ويدلل على ذلك انتشار اسم اوريليوس كاسم اتخذه المواطنون الجدد فى هذه الولايات بما فى ذلك مصر . ومن ثم فان الراى القائل بأن المستسلمين هم المصريون اصبح رأيا قديما ومرفوضا .

ثم نأتى الى المشكلة الأخيرة وهى هل الزم هذا القانون سكان الولايات الأجانب بالتخلى عن نظمهم القانونية المحلية واستبدالها بالنظم الرومانية؟ أم كان لهم الحق فى الاحتفاظ بوضعهم الاقليمى الى جانب الجنسية الرومانية ؟ وهل كان القانون الرومانى يجيز الجمع بين الجنسية الرومانية والجنسية المحلية فى آن واحد ؟ ويجيب الأستاذ الدكتور محمود (٢) السقا على ذلك بأنه منذ عصر الجمهورية كان القانون الرومانى يجيز للأجنبى حق الاحتفاظ بجنسيته الأصلية الى جانب الجنسية الرومانية . ومن ثم فأن القانون ابقى على القوانين المحلية ، لكنه أعطى لهم حق الاختيار بين قوانينهم المحلية والقانون الرومانى . ويرى آخرون أن الابقاء على القوانين المحلية كان أمرا ضروريا بالنسبة للسكان الذين لم يتشربوا بعد مبادىء القانون الرومانى ومسئوليات الجنسية الرومانية ومجال طبيعة قوانينها . وهو الراى الأرجح والذى يتفق وروح الوثائق ، أما الذين يرون أن القرار كان الزاما اجباريا يقتضى الغاء وهجر القوانين المحلية للشعوب مقابل تطبيق القانون الرومانى بطريقة آلية فهو أمر لا يتماشى مع روح الاتجاه الليبرالى عند الرومان فى احترام قوانين الشعوب وديانتهم وعاداتهم والذى نلمسه منذ عصر الجمهورية وخلال عصر الاسرة الفلاقية فى صدر الامبراطورية . لقد كان الرومان حريصين دائما على عدم التدخل فى تشريعات وشرائع الشعوب المحلية خاصة فى الشرق حيث كان مصدرها العقائد الدينية كما هو الحال عند اليهود والمصريين . ولهذا فحتى بعد صدور هذا القرار ظلت اشكال المعاملات والتصرفات القانونية فى الولايات تتم فى ضوء القوانين المحلية ولم تختلف عن التصرفات التى كانت تتم قبل صدوره ، لانه ليس

(1) Fergus Millar, loc. cit., pp. 124-138 ; Gilliam, loc. cit., 74-91.

(٢) محمود السقا العمل السابق ص ٤٤١ .

من اليسير ان تغير قوانين هذه الشعوب العريقة والمستقاة من واقعها المادى والنفسى والتى كانت تخاطب عاداتهم وأحاسيسهم ومن صميم تراثهم بجرة قلم . وبناء عليه لم يكن دستور كاراكالا ملزما أو صارما فى الزامه ، بل أعطى المواطنين الجدد حق اللجوء الى القضاء الرومانى بدلا من محاكمهم الأهلية ، وبمرور الزمن تدهورت المحاكم الأهلية لتفسح الطريق امام الاختصاص الأوحد للقضاء الرومانى ولما جاء ديوقلديانوس وجد الأمور سهلة فلم يجد صعوبة فى الغاء القوانين المحلية من اجل اخضاع شعوب الولايات لسلطة واحدة مركزية يرمز اليها امبراطور واحد قوى ومؤله .

مغامرات كاراكالا العسكرية ونهايته :

حاول كاراكالا السير فى خطى الاسكندر الاكبر ، ولكنه بدأ مغامراته فى الغرب عندما سحق قبيلة الالمانيين Alamanni والتى كانت تقيم عند ملتقى الراين والدانوب ، واصبحت هذه القبائل تهدد حدود الامبراطورية ومن ثم أسرع الامبراطور بقيادة حملة عسكرية قادها بنفسه وتمكن بعدها من سحقهم عام ٢١٣ . واضاف الى اسمه كنية جديدة هى الجرمانى العظيم Germanicus Maximus .

وفى عام ٢١٣ عبر البلقان متجها نحو الشرق متتبعا الطريق الذى سار فيه الأسكندر الأكبر حيث توقف قرب مقدونيا ليجند قواتا منها لتضفى على خياله شيئا من الواقعية ، وسار دون مقاومة حتى وصل الى سوريا ، وحاول التحرش بالبارثيين ، ولكنه حزن عندما وجد انهم غير راغبين فى القتال بتاتا ، وأنهم رجعوا عن حياة الحرب . واضطر ازاء ذلك ان يسير الى الاسكندرية حيث جن جنونه لحرية أهل هذه المدينة فى الحديث والتعبير عن آرائهم التى أصبحت تقليدا عندهم ، وبدون سبب أوآخر جمع زهرة شباب المدينة ثم عمل فيهم ذبحا وتقتيلا(١) . بعد ذلك رجع الى انطاكية Antioch حيث وجد عذرا للتحرش بملك البارثيين وهو انه طلب يد ابنه الملك ارتابانوس ربما مقلدا الاسكندر عندما تزوج بابنة الملك دارا . ولما رفض الملك البارثى سار كاراكالا على رأس قواته الى مقاطعة ميديا عام ٢١٦م وبينما كان يستعد لهجوم آخر فى خريف عام ٢١٧م . خر صريعا تحت طعنات خنجر قاتل .

---

(١) يظن البعض أن العظام البشرية التى وجدت مدفونة فى مقبرة كوم الشقافة بالاسكندرية هى بقايا القتلى فى هذه المذبحة ، لكن التعرف على عظام بعض الخيول بينها يلقى ظلالا من الشك على هذا الرأى .

لقد كان الوقت متأخرا لهذا الامبراطور أن يحقق أحلام الاسكندر الاكبر (١) . حقيقة لقد أصدر السناتو قرارا فى حياته باعتباره مؤلها (٢) ولكن مغامراته كانت على حساب اضعاف الامبراطورية اقتصاديا . لقد أرهق الخزانة بزيادته لرواتب الجيش بمقدار الثلث عما كانت عليه أيام أبيه. ولم يكن فى قدرة اقتصاد الامبراطورية أن يتحمل مثل هذه الزيادة علاوة على بهاظة النفقات العسكرية . ولذا بدد ما جمعه أبوه ظلما من أموال للدولة وتحول ذلك الى عجز فى ميزانيات الامبراطورية ، واضطر ازاء ذلك الى تخفيض قيمة العملة مرة ثانية واستمر التدهور الاقتصادى دون توقف حتي وصل الى مرحلة الافلاس التام .

الامبراطور ماكرينوس وابنه ديادومنيانوس Diadumenianus
(٢١٧ — ٢١٨ م) :

دبر ماركوس اوبيليوس ماكرينوس اغتيال كاراكالا عندما احس ان الامبراطور سوف يتخلص منه ، وعلى مضض حيا الجيش ماكرينوس امبراطورا وصدق السناتو على الاختيار وانعم عليه بالالقاب ومنح السلطات وبالتالى انعم الامبراطور الجديد على ابنه ديادومنيانوس بلقب قيصر ثم اشركه معه فى الحكم بعد منحه لقب اغسطس .

كان ماكرينوس موريتانى الاصل والمولد ومن طبقة الفرسان ، ولم يسبق له الدخول الى السناتو ، ولهذا يعتبر أول امبراطور يصل الى منصب الامبراطور دون ان يكون عضوا فى السناتو .

لم يكن ماكرينوس عسكريا بقدر ما كان فقيها فى القانون ، ولهذا أنهى الحملة العسكرية ضد بلاد البارثيين بدفع مبلغ كبير الى مليكهم لشراء السلام ، وكان هذا اهانة للقوات العسكرية ، كذلك ادى اتجاهه نحو السلام مقابل التنازل عن كثير من الشروط الى زد فعل عنيف عندما قبل أن يتولى أمير من بارثيا عرش أرمينيا ويحتفظ لروما بالولاء الاسمى . وزاد الطين بله أن ماكرينوس حاول خفض النفقات العسكرية مما أدى الى اشعال غضب الجنود الذين اخذوا يتأسفون على أيام كاراكالا وفتوحاته الشجاعة (٣) وحاول ماكرينوس امتصاص غضبهم باعلان كاراكالا الاها ثم منح ابنه ديادومينيانوس لقب اغسطس ونسبه الى أسرة آل انطونينوس . ولكن كل ذلك لم يجدى (٤) شيئا ، وثارت الجنود واخذت تبحث عن

(١) Rostovtzeff, op. cit., I, p. 422.

(٢) Dio Cassius LXXIX, 9,3.

(٣) Dio Cassius LXXIX, 36,2.

(٤) Script Hist. Aug., Macrimus, XIV, 4.

امبراطور جديد ولم يطل غيابها اذ راحت سيدات اسرة آل سيفيروس تسعى لاعادة الحكم الى الاسرة لاول مرة منذ مصرع كومودوس ، ويعرف ذلك بحكم نساء آل سيفيروس السوريات .

دور نساء آل سيفيروس فى استرجاع العرش لابنائهن :

من اشهر نساء أسرة آل سيفيروس جوليا مايسا Julia Maesa وجوليا مايسا هى شقيقة الامبراطورة جوليا دومنا . وكانت امراة ثرية ذات تاثير على الحياة فى روما ، ولما ارتقى ماكرينوس العرش قرر اعادتها الى وطنها الاصلى وهو مدينة حمص فى سوريا . وعاشت هناك مع ابنتيها الارملتين الاولى كانت تدعى جوليا سوايمياس Julia Soaemias والاخرى جوليا ماميا Julia Mamaea .

ولما علمت جوليا مايسا بأن حكم ماكرينوس يترنح قررت أن تحرض القوات الرومانية بالمال وبأدعاء لا أخلاقى هو أن ابن ابنتها الكبرى جوليا سوايمياس — وكان فى الرابعة عشرة من عمره ويدعى ڤاريوس اڤيتوس باسيانوس Varius Avitus Bassianus ما هو الا ابن غير شرعى للامبراطور الراحل كاراكالا ، وعلى ذلك فهو احق الناس بالعرش . وكان باسيانوس شابا ناسكا مخلصا لديانته السورية .

وكغيره من ابناء هذه الاسرة كان يعمل كاهنا لرب الشمس الفينيقى السورى ايلاجبال Ela gabal ، وقد سحرت وسامته الجنود الرومان مما شجعهم على الثورة المسلحة ضد ماكرينوس فى يونيو عام ٢١٨ ميلادية ، والتى انتهت بهزيمة قوات هذا الامبراطور قرب انطاكية على ايد الجيوش المناصرة لباسيانوس ، حيث كانت جوليا مايسا وابنتها جوليا سوايمياس تصحبان الجنود وترقبان القتال من فوق عربيتهما ؛ وسقط الأمبراطور ماكرينوس وولده قتيلين وهتفت الجنود بباسيانوس امبراطورا ؛ ووافق السناتو فى روما على الالقاب كما استأصل الجنود كل من عارض ارادتهم . واصبح اعضاء السناتو اشبه بالعبيد الذين يرتدون عباءات الشيوخ على حد تعبير المؤرخ القديم (١) .

الامبراطور الجابالوس Elagabalus (٢١٨ — ٢٢٢ م) :

ولما كان باسيانوس كاهنا لرب الشمس الفينيقى الجابال فى حمص فقد عرف باسم الجابالوس . ولكنه اتخذ اسما سياسيا هو ماركوس أوريليوس انطونينوس تيمنا باسم هذه الاسرة من الاباطرة ، وبالرغم من

(١) Script. Hist. Aug., Elgabalus, XVIII, 2, ff.

مجهودات جدته ووالدته ومجهودات معلميه الا أن الصبى لم يكن يهتم بشىء سوى ربه الفينيقى الذى حمل تمثاله معه الى روما وراح يبشر بعبادته بين الرومان وينشىء تنظيما كهنوتيا داخل العاصمة .

اما الحكم ، خيره وشره فقد تركه لوالدته جوليا سوايمياس فأقبلت عليه بشغف جعل السناتو يدهش لامراة تحاول ان تدس انفها فى شئونه ، وكان الجابالوس سعيدا وهو يرى جدته جوليا مايسا تقوم بدور الامبراطور الفعلى ليتفرغ لنشر عبادة ربه السورى الذى نقل تمثاله المخروطى الشكل والمصنوع من الحجر الاسود من سوريا الى روما . وزوجه بالربة القرطاجية تانيت Tanit ، واضاف الى القابه لقبا غريبا وهو الكاهن المبجل لرب الشمس الذى لا يقهر الجابالوس ، وقد دهش الرومان لاستعراضات دينية غريبة عليهم وأثارت فيهم الامتعاض وبدا التذمر ينتشر بين الناس .

وفى عام ٢٢١ م بدات جدته جوليا مايسا تحس بأن جنون حفيدها بهذا الرب الشرقى سوف يعرض الاسرة كلها للخطر ، فراحت تحثه على تبنى ابن خالته اليكسيانوس Alexianus وهو ابن ابنتها الثانية جوليا ماما يا Mamaca وتحت اسم ماركوس اوريليوس الكسندر كما حثته على منحه لقب قيصر وذلك عام ٢٢١م ، ولما كانت الجنود قد ضاقت ذرعا بتصرف الجابالوس فقد راحت تنحاز للأمير الجديد وسرعان ما دب الصراع بين الامبراطور وخليفته . وهنا تدخلت قوات الجيش والحرس الامبراطورى فقتلت الجابالوس وأمه فى ربيع عام ٢٢٢ ميلادية واعادت تمثال ربه الى وطنه فى سوريا .

الامبراطور الكسندر سيفيروس (٢٢٢ — ٢٣٥ م) :

وانتقل عرش الامبراطورية الى الكسندر بعد أن أضاف الى اسمه لقب سيفيروس توكيدا لعودة العرش الى هذه الاسرة التى ينتسب اليها النساء السوريات الحاكمات .

كان الكسندر سيفيروس صبيا فى الرابعة عشر من عمره لا يعرف .. شئون الحكم شيئا .. بقادر على تحمل مسئوليته ، ولهذا سيطرت .. .. رجال البلاط وقادة الحرس منهم اولبيانوس Ulpianus القائد البرايتورى والفقيه المعروف والذى كان من الناحية الفعلية (de facto) رئيسا للدولة . كذلك لعبت جدته جوليا مايسا وأمه جوليا ماميا دورهما فى السيطرة والادارة . ولقد ادركت هاتان المراتان أنه من المجازفة أن يقام الحكم على الجنود فحسب ، بل يجب ان يقوم على

اسس دستورية ثابتة خاصة مجلس السناتو ، لأن ذلك سوف يضفى على الحكم صفة شرعية مستمدة من تاريخ هذه المؤسسة العريق . ولهذا يعتبر هذا الحكم اسعد ايام السناتو فى تاريخ الامبراطورية . وعلى ذلك اختير ست عشرة عضوا من السناتو للاشتراك فى مجلس العرش ، كما اختير آخرون ضمن اعضاء المجلس الاستشارى للامبراطور. وكان اولبيانوس الفقيه الرومانى الشهير من ابرز أعضاء الحكومة والذى كان قائدا للحرس البرايتورى فى الفترة ما بين ٢٢٢ ــ ٢٢٨ ميلادية . ولكن التوجيه والقيادة الفعلية كانت فى يد والدة الامبراطور جوليا ماميا خاصة بعد موت أمها جوليا مايسا عام ٢٢٦ م .

ومن الملاحظ ان السيدات السوريات الحاكمات للأمبراطورية الرومانية كن يعشقن الالقاب الفخمة فمثلا سجل أحد النقوش القديم جوليا ماميا فيقول « اغسطا والدة الاغسطس وأم ثكنات الجيش والسناتو والوطن

Augusta, Mater Augusti et Castroum et Sentaus et Patriae

لقد كانت جوليا ماميا امراة آمرة لا تبق على اعدائها ، بسطت نفوذها بشدة على ابنها لمدة احد عشر عاما ثم دمرته فى النهاية . فمثلا ارغمته على أن يتخلص من زوجته التى كانت تغار منها . ولقد ادى شحها فى الانفاق وتهربها من المسئوليات العسكرية الى فوضى شاملة فى الادارة . ولكنها كانت مقبلة على الحكم بشغف ومهارة ، اذ حرصت على استمرار المبادىء التى أوجدها سبتيميوس سيفيروس ، كما شجعت نشر التعليم بقدر معين لكن المواطنين ، واصلحت من الحالات التى يطبق فيها قانون الحرس البرايتورى مع الاحتفاظ بعضويته للسناتو ، كما أصبح من حق قائد الحرس ان يصبح عضوا فى مجلس السناتو مع الاحتفاظ بمنصبه . ولكن القضية الكبرى وهى كيفية التحكم فى الجنود بقيت دون حل . هكذا راحت ماميا تتصرف وتدير بينما الامبراطور متقاعس ، معتمد على امه فى كل كبيرة وصغيرة وذلك لأنه كان ضعيف الشخصية محتقرا فى نظر قوات الجيش الحالمة بالفتوحات والعطايا . لكن خيال الاسكندر الاكبر كان يسيطر عليه من آن لآخر فقد كان يحتفظ فى محرابه الخاص بتمثال للقائد المقدونى العظيم (١) .

بدات القلاقل عام ٢٢٨ ميلادية عندما تمردت قوات الحرس البرايتورى وقتلت قائدها اولبيانوس دون ان يستطيع الامبراطور

(١) Script. Hist. Aug., Severus Alexander, XXXI, 5 ; Ibid., VIII, 4.

ولا البيت الحاكم كله ان يفعل شيئا للانتقام من قتله الرجل الذى قضى حياته فى خدمتهم (١) ، وقد زاد من ضعف الاسكندر سيفيروس قيام الدولة الساسانية فى بلاد الفرس على يد اردشير عام ٢٢٣ ميلادية . وبدأت الدولة الجديدة تطالب بحدود الامبراطورية القديمة وطالبت بأحقيتها فى الاستيلاء على مصر وآسيا الصغرى ، خاصة ان الدولة الساسانية بعثت مع قيام الديانة القومية الزرداشية «Zoroastrainism» التى فرضت على الفرس بعثا قوميا يطالب بطرد الرومان من الشرق من أجل أن ينتصر الخير على الشر ، وحاول اردشير غزو ارمينيا ولكن فشل وفى عام ٢٣٠ - ٢٣١ م غزى ولاية ما بين النهرين الرومانية ، وبالرغم من أن القوة الفارسية كانت لا تزال ضعيفة الا ان ظهورها فى حد ذاته كان يعتبر بادرة لقيام الاخطار فى الشرق الأوسط ، وحاول الاسكندر سيفيروس تجنب محاربة الفرس بكل السبل ، ولكن لما فشلت مساعيه السلمية لم يكن امامه سوى قيادة الجيش الرومانى الغاضب على تدهور سلطان الامبراطورية ، وفى ربيع عام ٢٣٢ حاول الرومان غزو بلاد الفرس ذاتها عبر ثلاث طرق مختلفة ولكنهم فشلوا بعد ان اوقعوا بالفرس خسارة كبيرة ، وبفضل هذا النصر اعيدت حدود الامبراطورية الرومانية الى ما كانت عليها وعاد الاسكندر سيفيروس الى روما ليحتفل بهذا النصر وذلك فى عام ٢٣٣ ميلادية .

ويبدو ان عودة الاسكندر سيفيروس جاءت نتيجة وصول الانباء عن خطر القبائل الالمانية التى بدات تهدد حدود الامبراطورية فى المنطقة ما بين الراين والدانوب خاصة قبائل الالمانى «Alamanni» ، وبسرعة اتخذت الاجراءات على عجل لمواجهة هذا الخطر ، ورحل الامبراطور الى المانيا تصحبه امه والجيش الرومانى ، وعند مدينة ماينز Mainz عسكرت قوات الامبراطورية ، وبينما كانت الجند تستعد لدخول المعركة حاولت الامبراطورة ماميا التأثير على ابنها لكى يسعى الى السلام مقابل دفع مبالغ باهظة للألمان والتفاوض معهم ، وبالفعل تم عقد معاهدة سلام مع الالمان جنبته الحرب ولكنها افقدته احترام جنوده الذين طالما اغضبتهم رضوخ الامبراطور لامه وتدخلها فى الشئون العسكرية البحته . واتهموها بأنها سعت الى تجنب الحرب بسبب شحها وبخلها . وسرعان ما اندلعت الثورة فى التكنات بقيادة جايوس جوليوس فيروس ماكسيمينوس Maximinus Gaius Julius Verus ، وكان فى الاصل فلاحا من اقليم تراكيا تمرس فى الجيش الرومانى حتى وصل الى رتبة عسكرية عالية . وقبضت الجنود

(١) Modrze Jewski et T. Zawadzki, la date de la mort d'Ulpien et la perfectue du pretoire au debut regne d'Alexandere Severe, Revue Historique de droit Française et etranger, 1967, p. 441 ff.

على الاسكندر وامه واعدموهما ، واعلنوا ارتقـاء قائدهم ماكسيمينوس العرش مانحين اياه لقب اغسطس . وذلك فى عام ٢٣٥ ميلادية . ولم تفلح سياسة اغراق الجنود فى الرفاهية واعطائهم دروعا من الفضة (١) ولا ندائهم باسم ايها المواطنين على طريقة القادة العظام ولا رعايتهم والسهر عليهم وتخفيف اعبائهم .

وقد كانت هذه الثورة بداية لخمسين عام من الفوضى اشتعلت فيها الحروب الاهلية وساد التفكك والانهيار الاقتصادى وبدات الامبراطورية تترنح .

نظرة شاملة على الامبراطورية فى عصر آل سيفيروس :

بسبب الفوضى والانحلال الذى حل بالامبراطورية طوال فترة الخمسين عاما التى تلت سقوط الاسكندر سيفيروس من (٢٣٥ — ٢٨٥ م) فقد نظر الرومان الى عصر سبتيموس سيفيروس نظرة الحنين، وبالغوا فى سعادة الحال ايامها وفضائل الامبراطور ، ولكن الحق يقال أن اعتماد هذه الاسرة على الجنود وحدهم فى الحكم قوض اساس الامبراطورية الرومانية لأن ما فعلوه لم يكن ابدا مماثلا لمـا فعله اغسطس نفسـه او فسباسيانوس واسرته او الاباطرة الصالحون ، لان الامبراطور اصبح يختار من قبل الجيش ومقابل رواتب ومزايدات ، واصبحت القوات هى التى تسقط الامبراطور وتقتله دون عقاب أو خوف من احد ، اما السناتو فلم يعد بذى قيمة سوى هيئة صورية تقليدية ، واصبح اعضاؤه مجرد رجال ، أما الشعب فكان بين شقى الرحى ولم يكن فى مقدوره ن يفعل شيئا والسلاح مشهور فى وجهه .

ولهذا نجد الثقافة الرومانية تنهار ، ولا تكاد نسمع عن روائع الادب كما كان للحال فى عصر الاباطرة الصالحين الا من بعض الكتاب والمؤرخين القلائل من امثال هيروديانوس Herodianus (١٧٠ — ٢٤٠ م) وديوكاسيوس (١٥٥ — ٢٣٠ م) ولولاهما لما امكنا من الاستفادة بالمصادر الفنية التى خلفاها لنـا من عصر الاسرة السيفيرية خاصة أن كلاهما كان موظفـا فى الادارة الامبراطورية فى ذلك العصر ، وجـدير بالذكر ايضـا الفيلسوف الاغريقى فيلوستراتوس Philostratus الذى رعته زوجة سبتيميوس سيفيروس الامبراطورة جوليا دومنا فكتب عن السوفسطائين وعن حياة ابوللونيوس التايانى Apollonius of Tayana كما كتب ايضا وصفا مطولا لروائع اللوحات الفنية ، وعدد آخر من الخطابات الادبية ، ومن

---

(١) Ibid. LVI, 2 ; LII, 2 ; XLAII, 1-2.

الملاحظ أن هيروديان زكاسيوس ديون وفيلوستراتوس كانوا اغريق وكتبوا بالاغريقية ، ويعزى البعض افلاس الادب الرومانى فى ذلك لعصر الى يأس الكتاب من المثقفين الذى تضاءل عددهم واصبح التعليم ضحلا بسبب التوسع فيه دون التعمق فى مواده أو التطوير فيها .

ومن ناحية اخرى عصفت الاخطار بالامبراطورية وحاقت بها من كل جانب ، فمن الشمال بدأ الجرمان يعاودون الكرة للهجوم على الامبراطورية ، ومن الشرق قامت الدولة الساسانية فى فارس وهى دولة قوية وطموحة ومتطرفة قوميا بسبب ديانتها "زرداشية مطالبة بالشرق الرومانى كله (١) ، وأخيرا فأن أفراد الشعب الرومانى بداوا يتخوفون من بربرية الجنود الذين يسلبونهم خيرات البلاد ويدفعون لهم الضرائب الباهظة ، وبدأوا يحقدون على الجيش الرومانى بقدر ما كان يحقدون على البرابرة الاعداء .

واذا اردنا تفهم جوهر حكم آل سفيروس وجب علينا أن نضع أمام اعيننا حقيقة هامة ، وهى قيام هذا الحكم على تراث الماضى دون محاولة التجديد والابتكار ، فكل قراراتهم ليس الا تقليدا للاباطرة القدامى من اغسطس المؤسس الأول للامبراطورية وحتى عصر الاباطرة الصالحين ، كما انهم عندما اعتمدوا على تجارب الماضى اعتمدوا على التجارب بكل أخطائها وفشلها دون محاولة الاستفادة من مدى تطبيق هذه التجارب أو تطويرها والتخلص من المعوقات فيها .

أيضا سقط نظام اختيار ولى العهد الصالح وتبنيه وتربيته ، وذلك على يد ماركوس اوريليوس عندما عين ابنه كومودوس وريثا له ، صحيح أن احترام آل انطونينوس كان صفة من صفات آل سبتيميوس سيفيروس، ولكن اهتمام هذا الامبراطور بتاليه كومودوس قضى على مبدأ الاختيار الصالح للامبراطور كما أراده الاباطرة الصالحون ، وأصبح العرش يورث للأبناء سواء كانوا صالحين ام غير صالحين ، وبالطبع كان أغلبهم غير صالحين لقيادة الامبراطورية خاصة فى تلك الفترة المضطربة من تاريخها .

أما السناتو فلم يعد كما كان ، حتى لم يعد يقوم بدوره الاستشارى بسبب اعتماد الامبراطور المطلق على المجلس الاستشارى الأعلى للدولة (٢)

---

(١) J. Gagé, La montée des Sassanides, Paris Albin Michel, 1964.

(٢) G. Alföldy, Septimius Severus und der Senat, Bonn 1968.

(Consiluim) اكثر من اى وقت مضى منذ انشاء هذا المجلس الاخير على يد هادريانوس ، أين ذلك العهد من عهد تيبريوس الذى كان يشتكى من خمول اعضاء السناتو وعدم قدرتهم على التفاعل وتركهم شئون الامبراطورية له وحده ويطالبهم بالمزيد من المشاركة ؟

اما عن ادعاء اباطرة هذه الاسرة الالوهية فليس امرا غريبا لانهم كانوا يشجعون عبادة الاباطرة الراحلين ويقلدونهم . كما أن نساء هذه الاسرة بدان بدورهن يقلدن ليفيا أو سيدات الاسرة اليوليوكلاودية من امثال اجربينا الكبرى والصغرى وأفلوطينا زوجة تراجان وغير هن ، فى التدخل والتحكم فى شئون الامبراطورية .

اما عن تنظيم أصحاب الحرف والصناعات فى نقابات والزامهم بتحمل المسئولية العامة فان ذلك يبدأ من ايام كلاوديوس عندما الزم أصحاب سفن نقل القمح بمد المدينة بالقمح وامن على سفنهم وجعل لهم مقرا .

لقد اهملت هذه الاسرة المتأخرة حرص تراجان واشرافه على المقاطعات ورعايته لها، فتركت رعايتها حتى كادت ان تكون مستقلة، كما ان فكرة هادريان فى وضع الجنود الذين ينتمون الى بعض الولايات ليرابطوا عند حدود ولاياتهم بهدف اشعال الغيرة الوطنية فى الدفاع عن هذه الحدود قد جاءت بنتيجة عكسية ، اذ ادت الى قيام الاحقاد بين القوات ، وتفضيل المصالح القومية الخاصة على مصالح الامبراطورية ، ورأينا كيف ان قوات الدانوب ارغمت الاسكندر سيفيروس على ترك مشروعه وهو احتلال بلاد الفرس ليعود مع هذه القوات الى المانيا لطرد بعض القبائل المتبربرة ، لان فى نظر هذه القوات حماية المناطق التى جاءوا منها وارتبطوا بها ماديا وعاطفيا يجىء فى نظرهم فوق امن الامبراطورية وسلامتها .

اما عن فسق القوات وطمعها فى المال فهو امر قديم منذ ان اعتلى كلاوديوس العرش بعد دفعه مكافاة للجنود ، واصبح ذلك تقليدا متبعا . اما تدهور الثقافة وانتشار الجهل وانحطاط الذوق الرفيع الى درجة البربرية وشراسة الطباع والاخلاق وتهجينها بطباع البرابرة فلم يكن راجعا الى منح الجنسية الرومانية لكافة شعوب لامبراطورية فحسب ، بل الى فشل الامبراطورية فى رفع مستوى الولايات وخلق ثقافة واحدة ترتبط بها اجزاء الامبراطورية فى شكل قومى متماسك على أساس عالى : بل يرجع اللوم الى الشعب الايطالى نفسه الذى تكاسل وتقاعس ولم يتحمس للامبراطورية الواحدة المتماسكة خوفا من أن يفقد امتيازاته الوهمية على شعوب الامبراطورية غير اللاتينية .

كما بدات بوادر مشكلة التخلخل السكانى والقومى تظهر منذ القرن الاول الميلادى ، وحاول الاباطرة تشجيع الايطاليين على الهجرة الى مختلف الولايات الرومانية من اجل التوحيد الفكرى والثقافى للامبراطورية ؛ ولكن اختلاف الطقس وانتشار الامراض ، وفقدان الهوية القومية وسط بحور من البرابرة الغلاظ الجهلاء اضاع الهدف المطلوب ، حتى المهاجرون الرومان الذين حافظوا على ثقافتهم ولغتهم من تيارت الشرق الأوسط أو الشمال الجرمانى فقدوا تدريجيا الاحساس بهذا الهدف وبداوا يتطبعون بطباع هذه الشعوب ويتحدثون بلهجاتها ويسلكون مسلكها .

ان نظام الحكم فى القرن الثالث الميلادى بالرغم من اعتماده على الفقهاء القانونيين ، وخبرة العقليات الادارية والتنظيمية والقضائية ، الا انه لم يكن ذلك الحكم الذى خطط له اغسطس أو فسباسيانوس ، لأن هذا الحكم سار فى طريق الدكتاتورية العسكرية او النظام الاوتوقراطى ، وكاد أن يصبح ملكيا مستبدا بالرغم من مظاهر النظام القديم شكلا ، سواء فى الالقاب أو المظاهر أو الشارات وغير ذلك من المظاهر الصورية مما ادى الى نفور الكثيرين من هذا النظام .

وفى ذلك العصر ايضا بدات الامبراطورية تعود الى تقليد النظام الذى ابتدعه آل سليوكس ابان القرنين الثالث والثانى ق . م وهو انشاء المستوطنات الحربية لحماية اطراف الدولة (١) . واول من ادخل هذا النظام الى الامبراطورية هو هادريان عندما وطن القوات على حدود مواطنها الأصلية ، ثم طور سبتيميوس سيفيروس من هذا النظام ، ووزع الاراضى المنزوعة من العدو على الجنود والضباط لاستيطانها وزراعتها ، لأن سياسة احاطة حدود الامبراطورية بحزام من المستوطنات العسكرية كان حلم كثير من الأباطرة بما فى ذلك ماركوس أوريليوس (٢) الذى حاول ان يوطن المنطقة حول رافنا بعناصر سكانية موالية حتى ولو غير رومانية .

وفى الشرق كانت الحضارة الهللينية تذوب فى بحر الثقافات الشرقية العريقة وانتصر العنصر الاسيوى (٣) على الحضارة الهللينية المتضائلة ، كما انتصر العنصر القبطى عليها فى ودى النيل ، أما فى الغرب فقد ظهرت القوميات المحلية فى بلاد الغال واسبانيا .

---

(١) E.B. Kermann : Institution Seleucides, p. 90.; Rostovetzeff, op. cit

(٢) Rostovetzeff, op. cit., I, 423 ; Dio Cassius LXXI, 11, 4.

(٣) Rostovetzeff, I, p. 187. f.

فى ذلك الوقت ايضا بدأ نظام الاقطاع يظهر وينتشر فى دويلات شرق البحر المتوسط التى انسحبت من حيز الهللينية المنهارة عائدة الى روح الشرق القديم ، وينتهى تاريخ ديوكاسيوس عندما بدأ اردشير يهدد لا بلاد ما بين النهرين فحسب ، بل سوريا كلها معلنا ان آسيا الصغرى حتى بحر أيجه ميراث فارس الشرعى ، ويقول « ديوكاسيوس » لم يكن الخطر يكمن فى عميان السناتو فى أن يرى خطورته (ى أردشير) فى حد ذاته ، بل فى أن يدرك الحالة التى وصلت اليها الجيوش لدرجة أن بعضها بالفعل انضموا اليه (اى الى اردشير) ، حتى قوات ما بين النهرين جرأت على قتل قائدها».

« وكان الاسكندر (سيفيروس) يدرك أنهم سوف يقتلوني لو شاهدوني فى زيى (١) الرسمى ، ولهذا جعلنى أقضى البقية الباقية من قنصليتى فى مكان ما خارج روما » (٢) .

وهكـذا ينتهى مؤلف ديوكاسيوس ، ويتصـارعون كالجلادين على العرش وتتدحرج رؤوسهم بعد سنوات من توليهم ، بل بعد اشهر قليلة ، لكنهم لم يعبأوا ابدا بذلك لأن شهوة السلطة كانت تعمى ابصارهم تماما مثلما كان يهتف الجلادون أمام الامبراطور قديما « سلام أيها الامبراطور المقبلون على الموت يحيونك » . كل هذا كان يحدث والامبراطورية تسير بسرعة نحو الهاوية .

---

(١) Dio Cassius LXXII.

(٢) Ave Imperator : morituri te Salutant.

(٣) هى عبارة كان يصرح بها الجلادون قديما لتحية الامبراطور قبل بداية تقاتلهم والامبراطور يجلس ليرى من الذى سيموت ومن الذى يحيا .

الفصل الثامن

الامبراطورية بين التصدع والصمود (٢٣٥ ـ ٢٨٥ م)
من الأسكندر سيڤيروس حتى ديوقلديانوس

مظاهر التصدع والانهيار فى القرن الثالث :

ان نظرة فاحصة للمحنة السياسية والاقتصادية والفكرية التى مرت بها الامبراطورية الرومانية أبان القرن الثالث الميلادى لتبين بوضوح العوامل التى ادت الى سقوط روما عام ٤١٠ مبلادية وسقوط لامبراطورية الغربية نهائيا عام ٤٧٦ ميلادية حيث قامت دويلات جرمانية صغيرة على اشلائها ، بينما قام على نصفها الشرقى ما يعرف بالامبراطورية البيزنطية .

ويلقى بعض المحللين السياسيين اللوم على الاباطرة أنفسهم ، ويحملونهم مسئولية هذه الدراما المفجعة ، فمثلا يرى « ڤوجت » أن بذور الانهيار ظهرت منذ فترة التوسع فى عصر الجمهورية ، لانه كلما اتسعت الحدود كلما فقد المواطنون المزايا السياسية القديمة التى كانوا يتمتعون بها منذ الأيام الأولى للجمهورية ، وتحولت المجالس الشعبية الى مسرح للتمثيل السياسى بين محترفى السياسة ، بل تحولت هذه المجالس الى العوبة فى أيديهم (١) كما حدث فى عهد الاخوين جراكوس وبالتالى حرمت الامبراطورية من مساهمة مواطنيها الفعالة فى ادارة شئونها .

وكان المفروض أن يقوم اغسطس بثورة اصلاحية لاقتلاع جذور الفساد السياسى ، وبالفعل فعل ذلك ، ولكنه اهمل الشعب الرومانى ذاته ، وتعاون مع السناتو بعد أن جرده من السلطات ، فكان حكمه ثنائيا بينه وبين السناتو (dyarchy) ، ووافق السناتو على الوضع الجديد قانعا بتحويل اغسطس الى شبه ملك دائم ، يقاسمه حكم الامبراطورية ، وتولى رجاله مهام الادارة العسكرية للولايات وهكذا أصبح السناتو هيئة استشارية فقط للامبراطورية كما كان فى أصل نشأته فى عصر الملكية ، واستفاد اغسطس كثيرا من خبرة رجاله الارستقراطيين من الرومان والايطاليين محترفى السياسة

---

cf. Joseph Vogt : The Decline of Rome — The Metamorphosis of Ancient Civilization (Translated from Greman by Janet Sondheimer) Weidenfeld and Nicolson, London 1967), p. 11.

ابا عن جد ، وخلال هذه الصفقة بين اغسطس والسناتو ضاعت حقوق العامة وتضاءل دور الجمعيات الشعبية ، واصبح الامبراطور وصيا على العامة عندما حصل لنفسه على سلطات نقيب العامة ، وربط بين حرية الفرد ونظام حكم المواطن الاول Principatus et libertas هكذا لم تكن ثورة أغسطس ثورة راديكالية بل ثورة اصلاحية توفيقية ، وبالتالى لم تمهد الأرضية جيدا لقيام الامبراطورية عليها .

كذلك يلقى المحللون اللوم على اغسطس فى وضع تقليد اتبعه خلفاؤه من بعده وهو اعتماد الامبراطور على القوة العسكرية لفرض نفوذه القانونى والدستورى وللتخلص من أعدائه ومعارضيه ولتحقيق رغباته .

وظل النظام الثنائى الذى أوجده اغسطس قائما على مدى قرنين من الزمان تعرض خلالها لتعديلات كثيرة ، ونشب صراع مرير بين الاباطرة والسناتو حول مسألة الحكم ، ودار جدل هل يختار السناتو الامبراطور أم ينحصر دور السناتو فى الموافقة على تعيين الامبراطور والانعام عليه بالسلطات اللازمة ؟ وقد ادى هذا الصراع الصامت الى استئصال عدد كبير من شيوخ الاسر الارستقراطية الرومانية والايطالية التى كانت تكون جوهر السناتو القديم ، وحل محلهم رجال جدد مسلوبو الارادة والكرامة جىء بهم من الولايات البعيدة مثل بلاد الغال واسبانيا وافريقيا وآسيا الصغرى ، وأصبح السناتو الجديد خليطا غريبا ، وعلى حد التعبير القديم أصبح رجاله عبيدا « يرتدون عباءات الشيوخ » ، واختلفت نظرة الاباطرة الذين جاءوا أيضا فيما بعد من الإقاليم الايطالية ، ثم الولايات اللاتينية العنصر والثقافة ثم الولايات — الشرقية العنصر والثقافة اختلفت نظرتهم الى السناتو ، ما بين احترام وعطف مثلما فعل أنطونينوس التقى الى كراهية وازدراء مثلما فعل كومودوس ، فضلا عن ازدهار طبقة الفرسان التى فتحت ابوابها على مصراعيها للجنود المسرحين ، واستولت هذه الطبقة على كافة المراكز الحيوية فى الامبراطورية .

وفى نفس الوقت الذى هوت فيه سلطة السناتو صعد نفوذ قادة الجيوش الرومانية ، وقد بدأ التسلط العسكرى بسيطرة قوات الحرس البرايتورى على القصر وقتلها لبعض الاباطرة وتعيين من تراهم ممن يدفعون لها ثمن الجلوس على العرش ، ثم سرعان ما ظهر نفوذ القوات المرابطة عند حدود الامبراطورية خاصة فى المانيا والدانوب والشرق الاوسط ، وتحرك القادة الطامعون فى الحكم يوحون لجنودهم الهتاف بهم أباطرة مقابل وعود ومكافآت ، وأصبحت أوامر العسكريين أكثر وزنا من نصائح الآباء وكشفت الجيوش — كما قال تاكيتوس — عن سر الامبراطورية .

لقد جاء سبتيميوس سيفيروس ، مؤسس الاسرة المنسوبة له من أسرة رومانية الثقافة ، فينيقية العرق والتفكير ، موطنها لبتس ماجنا Leptis Magna (لبــدة الحالية) فى مقاطعة طرابلس (Tripolitania) فى ولاية افريقيا ، بينما جاءت زوجته جوليا دومنا من عائلة كهنوتيــة سورية كانت تقيم فى حمص (Emesa) ، وقد تعاطف ابناؤها جيتا Geta وكاراكالا Caracalla مع الجانب السورى أكثر من الجانب الافريقى الفينيقى ، وكانت سياسة هذه الاسرة متميزة بالتعاطف الشــديد نحو الشرق الاوسط ، خاصة نحو العنصر السورى الفينيقى ، ولهــذا ولوا ظهورهم للتقاليد الرومانية الاوربية البالية ، وهدموا عقدة الاســتعلاء الرومانى القديم ، ووضعوا فلسفة حكمهم فى الجيش وحده . وبهــذا وضعوا اساس الحكم العسكرى المطلق . وربما ساعد فى ذلك ادراكهم أن مهمتهم الاولى هى حماية الامبراطورية من التصدع والعدوان الخارجي ، وهى امبراطورية شاسعة امتدت من حدود اسكتلندا شمالا حتى حدود اسوان جنوبا ، ومن بلاد ما بين النهرين شرقا حتى المحيط الاطلسى غربا . وتحت تهديد الخطر الخارجي وجد السناتو نفسه راضيا بدور المحقق لمطالب الاباطرة والجنود ، ولذا فتحت هذه الاسرة الابواب على مصاريعها لرجال طبقة الفرسان لتولى أعلى المراكز سواء فى الادارة او فى الجيش ، وأصبح من حق اى فرد من رعــايا الامبراطورية ان ينضــم الى الجيش الامبراطورى ويترقى الى رتبة قائد المــائة (Centurion) ومنها يدخل طبقة الفرسان ليتولى اعلى المناصب الادارية والعسكرية ، وبذلك فقد العنصر الرومانى والايطالى السيطرة على حكم الامبراطورية .

لقد أصبح الجيش الرومانى فى القرن الثالث هو الذى ينعم بثمار الامبراطورية ،ولم يعد جيشا للنظام ، موضوعا عند حده كما كان فى عصر اغســطس وتيبريوس وبعض خلفاء الاسرة اليوليوكلاودية ، بل اصبح هو المتحكم الفعلى . فقد زيدت عدد الفرق وضوعفت الرواتب ، ومنح الجنود حق الزواج أثناء الخدمة ، وحق الاستيلاء وزراعة الاراضى الواقعة على حدود الامبراطورية (١) ، كل هذه الامتيازات قتلت غريزة الجندية الحازمة ، سر انتصار روما القديمة ــ واوجدت نوعا جديدا من الجند المتقاعســة المتراخية التى تزاحم الفــلاحين فى زراعة الأرض وتزاحم المدنيين حياتهم وارزاقهم ، ولعل كلمات ســبتيميوس سيفيروس فى يورك وهو على فراش الموت لخير دليل على ذلك عندما قال لولديه « تماسكا وادفعوا للجنود ولا يهمكم بعد ذلك شىء (٢) » .

(١) cf. Watson, The Roman Soldier, p. 111.

(٢) cf. Dio Cassius, LXXVI, 15, 2.

لقد أعطى الحكم العسكرى المطلق للاباطرة حقوقا مدنية ودينية تخول لهم حق سن القوانين دون الرجوع الى السناتو ، حتى الاستشارة حصرت فى مجموعة ضيقة من كبار الفقهاء والمشرعين الذين كانوا يحيطون بالامبراطور مكونين مجلس الامبراطورية (Consilium Principis) . واصبح من حق هذا المجلس سن التشريعات Constitutiones واصبح كبار الفقهاء يتولون قيادة الحرس البرايتورى Praefectus Praetorio . بل أصبح صاحب هذا المنصب بمثابة نائب الامبراطور ، ومن أمثلة الفقهاء الذين شغلوا هذا المنصب الخطير بلاوتيانوس Plautianus وبابيانوس Papianus فى عصر سبتيميوس سيفيروس ، وباولوس Paulus واولبيانوس Ulpianus فى عصر خلفائه ، واصبح لهؤلاء الحق فى الرجوع الى السوابق القانونية والفتاوى الدستورية فى حالة تنازع القوانين ، بل ووضعوا المبادىء الاولى للقانون الدولى عندما وضعوا قانون الامم (ius gentium) — ذلك التراث القانونى الخالد الذى جمعه جستنيانوس Justinianus فى موسوعة القانون (Corpus iuris) ، ولكن هؤلاء الفقهاء العظام هم الذين اعطوا للحكم العسكرى المطلق قاعدة دستورية ، واول من افتى بأن واجب المواطن الاساسى هو التفانى فى خدمة الدولة ، وان الامبراطور هو مصدر السلطات والقوانين والمالك الاول لضياع وممتلكات الامبراطورية ، وهو يملك لانه يحكم ، ويحكم لانه يملك ، بل اصبح الناس يخاطبون الامبراطور بلقب الرب Dominus ، ويشار الى أسرته بآل البيت المقدس domus divina ، واصبح كل شىء له صلة بالامبراطور مقدس (Sacer) ، بل وتحققت أولوهية الامبراطور ولكن بمنطق يختلف عن منطق الشراقيين ، وهو لانه بطل مخلص للوطن برز ليؤدى هذه الرسالة بتفانى وشجاعة فهو اذا مبعوث العناية الالهية (١) .

لقد كان للدكتاتورية العسكرية وتسلط القوات على الحكم مضار ومنافع . فمن ناحية الزم ذلك الجيش بحماية الامبراطورية والدفاع عنها ورد المعتدين عنها ، ولكن دفعه الى الغرور والتسلط والتمادى فى تعيين قادتهم اباطره ، وبدات هذه الالعوبة الجديدة بعد اغتيال سيفيروس الاسكندر عام ٢٣٥ ميلادية وتعين ماكسيمينوس Maximinus — التراقى الاصل وقائد القوات المتمردة — امبراطورا ، وساد الامبراطورية صراع عسكرى بين القوات والقوات ، شبيه بالصراع الذى دار فى عام الفتنة (٦٨ — ٦٩ ميلادية) وفترة الثورات ١٩٣ — ١٩٧ ميلادية ، وتحطم السلام

---

(١) Joseph Vogt, op. cit., p. 13.

الروماني أعظم ما حققه اغسطس والاباطرة الصالحون تحت اقدام الجند المتصارعة . ففى خلال الفترة ما بين ٢٣٥ — ٢٨٥ ميلادية ادعى العرش اكثر من ست وعشرين امبراطورا هلك معظمهم قبل الوصول الى العرش ، ولم يكلف السناتو سوى خمسة منهم فقط ، بينما لم يختار الاباطرة سوى خمسة منهم فقط ، ولم ينج من الاغتيال سوى امبراطور واحد فقط ،وكان المنهزمون من هؤلاء الادعياء يلقبون « طغاة » ، والمنتصرون يصبحون « أباطرة » ، وكان الجنرال المنتصر يشرع بعد الجلوس على العرش فى استئصال معارضيه ، فجاليينوس (٢٥٣ — ٢٦٧ م) مثلا استئصل مالايقل عن ثمانية عشر منافسا . وهى خسارة كبيرة لأن معظم المتصارعين على العرش كانوا من خيرة القواد كفاءة وشعبية بين جنودهم .

كذلك يلقى المحللون اللوم على أغسطس فى انشاء امبراطورية مترامية الأطراف ، متعددة الاجناس والثقافات . ومحاولة حكمها عن طريق حكومة مركزية غير قادرة على الاستفادة من مصادر البشرية والطبيعية لشعوب الإمبراطورية ، كما انشأ نظاما هندسيا اجتماعيا طبقيا عقيما — فشل فى ارضاء أي من الطبقات ، وضم الطبقات العاملة المنتجة والتي من عرقها عاشت الامبراطورية [illegible] ومن الضرائب التى كانوا يدفعونها يتسلم كبار الضباط والموظفين رواتبهم العالية ، وتعيش الغوغاء المتقاعسة عالة عليهم . ولكن اسرة آل سيفيروس حاولت علاج هذه الظاهرة عن طريق إعطاء الامبراطورية [illegible] المطلقة لفرض المساواة بين شعوب الامبراطورية وتحطيم الحواجز الاجتماعية وتحقيق الوحدة السياسية فى شخص الإمبراطور نفسه ، وهو نظام ابتدعه الفرس وحاول الإسكندر الاكبر تطبيقه ، ونتيجة لذلك مات السناتو ، وفقدت روما بل ايطاليا كلها مكانتها المتميزة واصبح الاجانب غير الرومان (peregrini) هم سادة الامبراطورية الجدد ، وذاقت إيطاليا والايطاليين لاول مرة الالم الذى عانته شعوب الامبراطورية للشرقية، بأن عسكرت فيها فرقة مرابطة بالقرب من روما ، واصبح الإمبراطور يحكم من داخل العاصمة القديمة باسم البروقنصل وهى سلطة عسكرية كانت تحكم بها الولايات فقط ، بل وفتح الحرس البرايتورى أمام الاجناس المختلفة للامبراطورية من شرقيين والليريين ولم يعد حكرا على الرومان والايطاليين (١) .

ان فلسفة وضع الولايات على قدم المساواة مع ايطاليا فى الحقوق والواجبات على يد آل سيفيروس هى نهاية قصة نهب ولايات آسيا والشرق

(١) Joseph Vogt, op. cit., p. 15 f.

وخراب اقتصادها على يد المستغلين الرومان ، وهي قصة معروفة منذ ايام عصر الجمهورية . ولقد حاول قيصر ومن بعده أغسطس وقف هذا النهب الجشع لجامعي الضرائب من الرومان (publicani) واستبدال ذلك بتطوير اقتصاد هذه الولايات ثم الاستغلال المنظم العاقل لها ، ولعل كلمة تيبريوس الشهيرة الى واليه ايميلوس ركتوس فى مصر لخير مثال على ذلك عندما عنفه على ارسال جزية أكثر من النسبة المقررة بقوله « أريدك أن تجز غنمى لا أن تسلخها » (١) . كان المحتجون على طريقة نهب واستغلال الولايات يطالبون بتطوير اقتصاد هذه الولايات بالتخطيط السليم ، ومنح شعوبها الجنسية الرومانية ، وتضييق البون الشاسع الذى يفصل بين المواطنين الرومان Cives وبين رعايا الامبراطورية غير الرومان (peregrini) . وبالفعل ساد اتجاه بمنح الجنسية لبعض المستوطنات اللاتينية فى الغرب وبعض مواطنى المدن الاغريقية فى الشرق ، ثم نجد محاولات لتطبيق القانون المدنى الرومانى فى الولايات غير الرومانية ، ثم تطوير قانون يساوى بين هذه الشعوب المختلفة هو قانون الامم (ius gentium) وكان الدستور الانطونينى الذى اسثنه الامبراطور ماركوس أوريليوس أنطونينوس الشهير باسم كاراكالا عام ٢١٢ م والذى بمقتضاه منحت الجنسية الرومانية لجميع شعوب الامبراطورية باستثناء بعض الفئات الخارجة على القانون هو تتويج لسياسة المساواة بين الرومان وغير الرومان فى الحقوق والواجبات ، وقد استقبلت شعوب الامبراطورية هذا القانون بالبشر والسرور اذ لاحظ علماء الوثائق البردية تهافت الاغريق فى مصر على اتخاذ الاسم الرومانى « أوريليوس » كاسم جديد لهم بعد حصولهم على الجنسية الرومانية ، وبصرف النظر عن راى بعض المؤرخين فى أن الدافع وراء هذا الدستور هو الرغبة فى فرض ضرائب جديدة على الناس نظرا لشدة الازمة الاقتصادية خاصة أن الجنسية الرومانية الجديدة لم تعف حامليها الشرقيين من ضريبة الراس ، بل حملتهم الضرائب التى كان يدفعها المواطنون الرومان مثل ضريبة الارث (٢) .

ان ستة قرون ونصف قرن من حكم الامبراطورية للشرق الهللينستى تقريبا لم تنجح فى تحويله الى شرق لاتينى فكرا ولغة وثقافة ، لأن الهللينية كانت ضاربة الجذور فى مجتمعات الشرق ، بل تسللت الافكار الاغريقية والديانات واللغة الاغريقية حتى الى داخل روما نفسها ، فكتب المؤرخون تاريخ روما بالاغريقية مثل هيروديان وديوكاسيوس ، وغزت الفلسفات

---

(١) عبد اللطيف أحمد على — مصر والامبراطورية الرومانية — ص ٦٩ ملحوظة ٣ .

(٢) cf. H.I. Bell. J.E.A., vol. 23 (1942), pp. 39-19.

الاغريقية عقول المثقفين الرومان واصبحت اللغة الاغريقية لغة تخاطب المثقفين الرفيعي الثقافة كما كانت الفرنسية يوما في مصر في العصر الحديث .

وجدير بالذكر ان الشرق ايضا لم يكن اغريقيا بحتا . لأن القوميات واللغات الوطنية استمرت حية ومحتفظة بكيانها الخاص داخل الاطار الاغريقي ، فبقيت اللغات العبرية والعربية والسوريانية والارامية والمصرية لغات حية داخل الاطار الاغريقي وداخل الاطار الاكبر في الامبراطورية الرومانية ، واحتفظت هذه القوميات بدياناتها ، وغزت هذه الديانات الشرقية افئدة الرومان فتربعت ايزيس على الكابتول مع زوجها سيرابيس (اوزوريس في الصورة الاغريقية) ، وجاء الاله الفارسي مثراس Mithras ايضا الى روما ، كما وجدت المسيحية – وهي ديانة سامية شرقية وجدت لها معجبين وعبادا من بين الرومان . وما قيل عن الشرق يمكن ان يقال عن الولايات اللاتينية الغربية بصورة اخف وطأة . فبالرغم من انتشار الثقافة اللاتينية في بعض الولايات الغربية مثل بلاد الغال واسبانيا وبعض المناطق في شمال افريقيا وبريطانيا والمانيا ، الا ان الوجود القومي واللغوي لسكان الاصليين ظل يقاوم وبقي يقاوم – في اطار ضيق – موجه الحضارة والثقافة اللاتينية ، اذ بقيت اللغة الكلتية Celtic لغة التخاطب بين القبائل الغالية والجرمانية والاسبانية ؛ بل وفرضت هذه اللغات تأثيرها على اللغة اللاتينية ، فظهرت لهجات لاتينية اقليمية في هذه المناطق هي التي تحولت الى اللغات الاوربية الحديثة فيما بعد ، وفي شمال افريقيا بقيت اللغة الفينيقية الليبية (البونيقية) مستخدما جنبا الى جنب مع اللغة اللاتينية .

لقد شهد القرن الثالث الميلادي سيطرة الجنود الالليرين (اليوغوسلافيين) والبانونيين (المجريين) على الجيش الروماني وعلى المستوطنات العسكرية عند الحدود ، وفرض قادتهم انفسهم على العرش بقوة السلاح . وتحولت المجالس المحلية التي انشأها الاباطرة بهدف تحقيق الحكم الذاتي بين هذه الشعوب المختلفة الى اجهزة ادارة وقمع للحكومة الرومانية لتحقيق مآربها وسلخ السكان بالضرائب الباهظة . والقى العبء في ذلك على الطبقة الميسورة الحال لتتولى هذه المناصب الشرفية التي كانوا ينفقون عليها من جيوبهم ، وانتشرت مجالس العشرة (dekaprotoi) واصبح يرشح لها الاغنياء في قائمة انتظار خاصة لشغل هذه الوظائف (album decurionum) . وعلى كاهل هذه الطبقات البرجوازية الصغيرة قامت أجهزة الحكم في الولايات ، ومن اموالهم الخاصة راجت عمليات البناء والتعمير والترميم ، واقيمت مهرجانات الترفيه وصيد الحيوانات للتسلية العامة .

هذا هو أصل نشأة البرجوازية فى تاريخ الفكر السياسى العام ، لكن سرعان ما حل الدمار الاقتصادى بهذه الطبقة الثرية ، واهملت الزراعة لقلة العناية بالرى والصرف ولعدم تحسين وضع المزارعين وتخفيف الضرائب عنهم ، ولتمسك الدولة بالنسبة القديمة المعينة من انتاج الغلال دون الوضع فى الاعتبار ان الاجور قد تضاعفت والاثمان قد اصبحت باهظة ، وان ايجار الارض نفسه قد اصبح خرافيا ، فضلا عن عوامل اخرى مثل ارهاق الارض ، وتقلب مناخ البحر المتوسط مما يجعله يؤثر عادة على الانتاج الزراعى والحيوانى . كما أن النقص فى الايدى العاملة فى مجال الزراعة قد ظهر واضحا بسبب الخسائر البشرية نتيجة للهبوط الشديد فى نسبة المواليد وارتفاع نسبة الوفيات نتيجة لسوء التغذية ، وبسبب انتشار الاوبئة الرهيبة ، فضلا عن خسائر الحروب المتعاقبة التى لم تتوقف ، كما أن ظاهرة الهروب الجماعى للفلاحين من القرى بسبب عجزهم عن دفع الضرائب القاسية المفروضة عليهم جعل نسبة الاراضى البور تزداد، ونتيجة لاختفاء الملكيات الصغيرة ، بدات الاقطاعيات تظهر خاصة فى مصر ، وتحول الفلاحون الى عبيد لاصحاب هذه الاقطاعيات ، فمثلا تدل الأحصائيات ان الاقطاعيين فى هرموبوليس ماجنا « الاشمونين » كانوا يمتلكون ١/٩ زمام الارض المزروعة فيها . وقد تضخمت هذه النسبة فيما بعد خاصة فى القرن السادس الميلادى عندما نسمع عن عائلة ارستقراطية واحدة هى آل ابيون (Apions) تمتلك وحدها ٠٠٠ر١١٢ اورورا من زمام منطقة اوكسيرينخوس « البهنسا » البالغ ٠٠٠ر٢٨٠ اورورا . اى أن اسرة واحدة امتلكت ٢/٥ من زمام اراضى هذه المدينة الريفية فما بالك بباقى الاسر الاقطاعية الأخرى(١) .

هكذا عصف الفقر بالناس ، واسقط فى ايدى حكومة الامبراطورية . واضطرت فى عصر سبتيميوس سيفيروس الى زيادة الضرائب والمكوس لتعويض العجز العام فى دخل الخزانة ومجابهة نفقات الحروب المدمرة على الجبهات المتعددة . لقد كان على الناس أن تتحمل نفقات اطعام الجيوش وصناعة ملابسهم وسلاحهم وأن يعبدوا لهم الطرق ويحفروا الخنادق ويبنوا الاسوار الدفاعية مجانا ، ونتيجة للضعف وسوء التغذية انتشرت الاوبئة الفتاكة مثل الوباء الذى انتشر ايام ماركوس أوريليوس وقضى على نسبة كبيرة من السكان ، ثم عاد واندلع فى عهد الامبراطور ديقيوس (Decius) . ولاول مرة شعرت الامبراطورية بنقص فى القوى البشرية

(١) A.H.M. Jones, Thoughts on the Decline of the Roman Empire, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XXIII, Part I, May 1961, p. 14.

المنتجة ، خاصة فى مجال الزراعة — العمود الفقرى لاقتصاد الامبراطورية — وضاق الناس ذرعا بالارهاق المالى والجشع الرومانى والفقر الاقتصادى : ولعل أصدق صورة على مرارة الناس ذلك النقش الذى أقامه أهالى قرية سكابتوبارا Skaptopara فى تراقيا ويرجع تاريخه الى عام ٢٣٨ م وهو يقطر مرارة واحتجاجا على تسلط الجنود وجشع جباة الضرائب ويقولون « لقد ضقنا ذرعا حتى اننا ننوى ترك بيوت آبائنا بسبب قسوة هؤلاء الزوار . لقد كنا نحن — ملاك العقارات — كثيرين فأصبح عددنا الآن ضئيلا » (١) . وفى الفيوم واحة الحضارة والازدهار الاغريقى ، هجرت القرى وانقرضت الارض المزروعة وانتشرت ظاهرة الهروب الجماعى للفلاحين (٢) المصريين واصبح الطعام شيئا باهظا فى مصر التى تعكس أوراق البردى المصرى المعاناة والالم والفقر والحرمان لدرجة أن باعت الام اطفالها لتأكل بثمنهم (٣) .

لقد حاول بعض الاباطرة كما سنرى — اعادة تعمير المدن والقرى الزراعية ، ووضع معايير أكثر انسانية ، لكن لم يكتب لهذه المجهودات النجاح لا التعمير واعادة التسكين شمل قلب المدينة الريفية فقط بينما تركت اطرافها مهجورة (٤) ، كما أن المحاولة توقفت لان جهاز الادارة الامبراطورية كان ينقصه المتخصصون والتخطيط السليم فضلا على أن الامبراطورية كانت مشغولة فى صراع دفاعى مميت وأعمى ضد اعدائها والمعتدين عليها والطامعين فى الاستيلاء على أراضيها .

وكما يحدث فى كل عصر — تستخدم الحكومات سك النقود لتحقيق التوازن بين السيولة والاسعار حسب دراسات اقتصادية هدفها الحفاظ على سلامة الاقتصاد ، ولكن حكومة الامبراطورية فى محنتها استغلت النقص فى الذهب والفضة ورفعت من نسبة النحاس فى العملة الفضية لدرجة أن النقود السكندرية فى القرن الثالث الميلادى التى كانت تسمى بالقطع ذات الأربع دراخمات فضية (Tetradrachma) أصبحت قطع برونزية ؛ وقد بدأ تخفيض نسبة الفضة فى النقود منذ عصر ماركوس أوريليوس فصاعدا،

---

(١) S.I.G. 3rd edition, no. 888. cf. Vogt, op. cit., p. 26.

(٢) A.E.R. Boak and H.C. Youtie, «Flight and Oppression in Fourth-Century Egypt», Studi in Onore di Aristide Calderini et Roberto Paribeni, 2 (Milan-Varese, 1957)., pp. 325-337.

(٣) cf. J.G. Winter, Life and Letters in Greek Papyri, Michigan Ann. Arbor 1933, p. 59 = P. OXY, XVI, no. 1895.

(٤) أنظر سيد أحمد على الناصرى — العرض العلمى لحفائر كوم أوشيم الموسم الثانى ١٩٧٢ — ١٩٧٣ .

وكان من نتيجة تخفيض قيمة العملات فى الامبراطورية ارتفاع الاسعار ، وانخفاض سعر الذهب ، الى جانب هبوط سعر الفضة ، واهتزت الثقة فى الدينار الرومانى والترادراخما السكندرية ، ورفضت شعوب الامبراطورية التعامل بالنقد المخفض ، بينما ارتفعت اسعار العملات العتيقة ذات النسبة العالية من الفضة والتى ترجع الى ايام العهود السابقة ، ففى مصر رجع الناس الى استخدام العملات القديمة منذ ايام البطالسة ذات النسب المرتفعة من الفضة . وظهرت محاولات لتزييف النقود القديمة بطلاء العملات البرونزية بطبقة من الفضة ، واحيانا سك نقود من الرصاص المطلى بطبقة من الفضة ، وصدرت لأول مرة عقوبات ضد المزيفين والمتلاعبين فى العملة مثل الجلد والحبس (١) .

وكما نلاحظ عند التنقيب فى منازل كوم أوشيم « كرانيس » أوباكخياس «ام الاتل» يعكس القلق الاقتصادى وعدم الامان لدى الفلاحين الرغبة فى تخزين اكبر عدد من النقود فى أوانى مدفونة فى الأرض أو تحت ارضية حجرات المنازل (٢) . وقد بلغت الفوضى الاقتصاديه والنقدية أن الناس رفضت التعامل بالنقد الامبراطورى ، ولجأت الى الطرق البدائية فى التعامل الا وهو نظام المقايضة ، واغلب الظن ان هذا النظام انتشر من مصر التى عاشت تاريخها الطويل تتعامل به ، كما أن الطبيعة الزراعية للفلاحين المصريين تشجع على المقايضة كما هو الحال فى بعض قرى الفيوم حتى فى العصر الحديث . ، على اى حال أدى ارتفاع الاسعار والاجور الى تضخم مالى رهيب ، وقد نجح العالم هايكلهايم (Hichelheim) فى دراسة الازمة الاقتصادية بدقة على ضوء كل المعلومات المستمدة من النقوش وأوراق البردى وشقافات الضرائب ، وتوصل الى حقيقة واحدة وهى هبوط مستوى المعيشة للسكان بشكل مقلق خلال القرن الثالث والرابع .

وقد ظهرت رعونة الاجهزة البيروقراطية وغباؤها عندما اصبحت فى حاجة ماسة الى المال من اجل الانفاق على الجيوش ، فقد أجبرت المجالس المحلية فى ولايات الامبراطورية على الاشراف على جمع لنسب العينية المقررة على الأراضى الزراعية دون مراعاة لارتفاع الايدى العاملة وقلة المحصول وتضاعف أسعار الغلال . وكانت الحكومة تطالب بالنسبة على كل زمام قرية كاملا دون اعتبار للأرض المتروكة بورا أو التى هرب

(١) cf. Vogt, op. cit., pp. 26-27.

(٢) R. Haatvedt and E. Peterson, Coins From Karanis, Michigan An Arbor 1966, p. 10. ff. cf. also El-Nassery, G. Wagner A. New Roman Hoard From Karanis, B.IFA.O, LXXV (1975) pp. 25 ff.

اصحابها ، وكانت الضريبة المطلوبة من زمام القرية تقسم على الزارع أى ان يتحمل الذين زرعوا اراضيهم ضرائب الذين لم يزرعوا أو هربوا من القرية ، واذا حدث عجز عند المسئول عن جمع الضريبة كان عليه أن يعوضها من ماله الخاص ، وكانت النتيجة هو رفض الناس أو أبناء الطبقة المتوسطة الاقبال على وظائف الادارة (Curiales) (١) ، وازاء ذلك اضطرت الحكومة الى جعل هذه الوظائف الشرفية اجبارية ، أما بالنسبة للفقراء فقد توسعت الدولة فى تطبيق نظام السخرة عليهم (munera) واستغلالهم مجانا فى تحقيق المشروعات الدفاعية مثل بناء سور روما الكبير فى عصر أوريليانوس عام ٢٧١ ميلادية ، أو فى شق الترع وردم الجسور وبناء الطرق وفى تزويد الجيوش بكل ما تحتاج اليه .

وبسبب تضخم عدد البروليتاريا العاطلة فى روما وانتظارها للمنح والتفائح (Congiaria) وهى تعيش عالة على الحكومة ، ظهرت ازمة خطيرة فى الغذاء خاصة فى المحاصيل الزراعية ، والقت الحكومة مسئولية الأنتاج على عاتق أصحاب النقابات الحرفية Collegia التى اصبحت عضويتها اجبارية منذ القرن الثالث الميلادى ، واصبح الفقراء يقومون بأعمال السخرة الدنيا (munera sordida) التى تحتاجها الحكومة خاصة من أجل اعداد وتسليح الجيوش .

بهذه الحلول حاولت الحكومة الامبراطورية — ذات السلطات العسكرية المطلقة — تأمين الدخول لنفسها ، وتجنيد الطاقات البشرية لشعوبها ، محدثة فوضى اقتصادية واجتماعية لم يسبق لها مثيل ، وعلى حد وصف احد الخطباء فى ذلك الوقت وهو يرحب بقدوم امبراطور جديد ويلعن الامبراطور الراحل « أن الولايات ترتعد فرائصها خوفا وهى فى اغلالها مقيدة ، لقد انتشر المخبرون هنا وهناك يتصنتون الى ما يقوله الناس ، ولا احد يستطيع أن يتحدث بحرية أو يفكر بحرية ، لقد قمعت الجوانب العادلة العاقلة للحرية واصبح كل انسان يخشى حتى ظله » (٢) .

هكذا تحمل المعوزون والفقراء الالم فى صبر ومعاناة ، واحنى البرجوازيون رءوسهم خوفا من سطوة الحكام العسكريين حرصا على ارضائهم حتى يتمكن بعض رجالهم من التسلق الى الطبقة الحاكمة البيروقراطية الاقطاعية ، واصبحت بروليتاريا المدينة عبيدا للفئة

---

(١) اشتق هذا الاسم من كلمة كوريا Curia ومعناها المجلس الادارى لأن معظم هؤلاء الوساطاء كانوا اعضاء فى مجالسهم الاقليمية والتى حولتها حكومة الامبراطورية الى هيئة لتنفيذ مطالبها وممثلة للسلطة المركزية .

(٢) Pseudo-Arstides, Panygric to the ruler, 21 = Vogt, op. cit.,

الارستقراطية المحدودة العدد ، تعمل فى خدمتها وتعيش على خيراتها . ولم يكن الزراع المعدمون (Coloni) احسن حالا من العبيد ، أما جماهير الغوغاء فكانوا ينتظرون الاحسان من الدولة بالخبز والتسلية ، ولا هم لها سوى ان يكون خبزها كفاف يومها بعد أن قتل الأمل فى نفوسها .

ولما يئست شعوب الامبراطورية الكادحة من الاصلاح ، ولما كانت الامبراطورية قد وصلت فى عصر تراجان الى اقصى اتساعها . فى عصر كانت وسائل المواصلات فيه لاتزال بطيئة ، فقد شجع ذلك بعض الشعوب على الاستقلال والانفصال حفاظا على وجودها ، ورفعت السلاح فى وجه الامبراطورية الجشعة المستغلة (١) . وقد استغلت قوى خارجية ضعف الامبراطورية وراحت تعلن عن أطماعها فيها مثل الامبراطورية الفارسية الساسانية ، التى هبت من كبوتها لأول مرة منذ تحطيم الاسكندر لها عام ٣٢٤ ق.م ، وراحت تطالب بارثها فى آسيا الصغرى وفى بحر ايجه ، كما طالبت بممتلكاتها القديمة فى الشرق الأوسط ومصر ، ووجدت روما نفسها لاول مرة فى تاريخها منذ حروب هانيبال تخوض حربا دفاعية مريرة لا تقدر عليها بل وتهدد وجودها ذاته .

وجدير بالذكر أن الفوضى السياسية الاقتصادية الاجتماعية تركت بصامتها على الجانب الفكرى والدينى . فقد شهدت هذه الفترة زعزعة التراث الدينى القديم وازدهرت العبادات الشرقية داخل ايطاليا مثل ايزيس وسيرابيس ومثراس الفارسى ، كما انتشر السحر والتنجيم وكل العبادات الهروبية المحاربة للمادية بالتصوف وتطهير الروح وتحريرها من قبرها الذى هو الجسد . وفى نفس الوقت انتشرت الفيثاغورثية بمزيجها المنطقى والاسطورى . ولكن التحدى الكبير جاء من المسيحية التى لجأ اليها الفقراء والساخطون والثوار كديانة مقاومة للمظلومين . والقت الحكومة اللوم على المسيحيين وطالبتهم بالتخلى عن ديانتهم الجديدة القادمة من الشرق الاوسط والعودة الى ديانة الاجداد لان الآلهة القديمة هى التى قادت روما من قرية غامضة فى سهل لاتيوم الى صاحبة الامبراطورية الكبرى . وبالتالى اتهمت حكومة الامبراطورية المسيحيين بالخيانة والتخاذل وعدم الولاء (٢) وطالبتهم باعلان هذا الولاء فى صورة تقديم القرابين للامبراطور ، ولما عارض المسيحيون الأول ذلك

---

(١) R. Remondon, La Crise du monde romain de Mar-Aurèle à Anastàse, 2nd. edition, Paris 1970, p. 251 f.

(٢) cf. V.J. Vogt, op. cit., p. 47 f. ; A.H.M. Jones, The Decline of Ancient Rome, Longmans 1966.

معتقدين انهم سوف ينتظرون عودة المسيح ليقودهم الى الخلاص من الظلم والجوع والفقر بدات الدولة فى عمليات الاستئصال ضدهم ، ولم يزدهم ذلك الا اصرارا على دينهم الذى بدأ ينتشر فى القرن الثالث فى ولايات الامبراطورية بسرعة مذهلة ، وتكونت الكنائس فى الاسكندرية وانطاكية وغيرها بل وفى روما ذاتها ، وبدأ شعب الكنيسة ينتظم حول الأسقف والقس والشماس فى سلك كهنوتى منظم بعد أن دفعت شهداء كثيرين . ولكن على حد تعبير ترتوليانوس « ان دماء المسيحيين كان بذورا لمسيحيين جدد (Semen Sanguis) (١) وحدث تحالف بين الديانات الوثنية والمسيحية لتشكيل جبهة مقاومة فكرية ضد التحكم العسكرى . كل هذا يدل على الصراع النفسى pychomachia نتيجة للافلاس الروحى والفكرى الذى ساد الامبراطورية ابان القرن الثالث .

كانت هذه هى مقدمات الانهيار (٢) ، ولكن الامبراطورية تمكنت بفضل الجهود الخارقة لسلسلة من الأباطرة المخلصين جاء معظمهم من الليريكوم Illyricum (يوغوسلافيا الحالية) — ابتداء من كلاوديوس انقوطى Claudius Gothicus وحتى دقلديانوس — من اعادة القوات الثائرة الى النظام وتطهير حدود الامبراطورية من الغزاة الأجانب واعادة الجهاز السياسى والادارى الى العمل من جديد ، وفرض هيبة الحكومة على أطراف الامبراطورية . ولكن الامبراطورية دفعت ثمن ذلك باهظا . لقد تغير الوضع السياسى والاقتصادى والمعنوى للامبراطورية تماما عما كان عليه أيام الامبراطورية المبكرة وفى عصر الأباطرة الصالحين . وبدات شمس الحضارة الاغريقية الرومانية تنحدر سريعا نحو المغيب وراح ليل العصور الوسطى يقترب ، وبدات شعوب ذات قوميات متميزة تبرز على أشلاء الامبراطورية وآخر هذه الشعوب هم الفرنجة (Franks) الذين راحوا يقلدون روما القديمة روحا وفكرا وأسلوبا واليهم يعزى وضع أساس حضارة أوروبا الحديثة (٣) . واستمر الانحلال حتى سقوط روما عام ٤٧٦ ميلادية بل وحتى سقوط الامبراطورية الرومانية الشرقية على يد العثمانيين عام ١٤٥٣ ميلادية .

---

(١) Tertulian, Apologeticum, 50, 13.

(٢) J.R. Polanque, Le Bas Empire (Collection Que ... Sais Je ? No. 1955), p. 32 f.

(٣) F. Lot, La Fin du monde antique et les débuts du Moyen, Age, Paris, Albin Michel, new edition, 1968, p. 165 f.

٢ - المصادر التاريخية لهذه الفترة :

ان ندرة المصادر التاريخية لهذه الفترة لا يتفق واهميتها فى تاريخ الامبراطورية الرومانية . فأهم مصادرنا هومؤلف هيروديانوس Herodianus احد معاصرى كاسيوس ديو ولكن هذا المؤلف يتوقف عند عام ٢٣٨ ميلادية فضلا على انه قليل الافادة تاريخيا لانــه شغل نفســه بالموضوعات الجوفاء مثل مؤامرات القصـــور دون أن يتطرق الى الـــدوافع السياسية البعيـــدة وراء هذه الثورات .

ان هبــوط الثقافة والأدب لدرجــة الاسفــاف والجنس الــرخيص والاساطير المجردة فى تلك الفترة مــا هو الا انعكــاس للفقر والامية والقلق النفسى وهبــوط مستوى التذوق الفنى والادبى (١) ، كما أن انصراف النـــاس عن الثقـــافة والادب لم يعط فرصة لازدهار العبقريات الأدبيـــة والتـــاريخية كما كان قديما . وحتى القـــدر اليسير من الاعمـــال الأدبيـــة التى كتبت فى هذه الفترة لم تصل الى أيدينا .

والى جانب هيروديانوس لدينا مقتطفات من سير الأباطرة Historia Augusta التى كتبت ابان القرن الرابع الميلادى . لكنها عديمة القيمـــة كمصدر تاريخى لأنها عبارة عن اقاويل وادعاءات محملة بالتزوير والـــدس والشائعات الرخيصة .

كذلك يوجد لدينا بعض أعمال كتاب الملخصات (epitomators) التاريخية خلال القرنين الرابع والخامس الميلادى وخلال العصر البيزنطى ولكنها أيضا محدودة الفائدة .

ومن مصادر هذه الفترة التى كتبت باللاتينية مؤلف ماريوس ماكسيموس Marius Maximus الذى حاول السير على منهاج سويتونيوس فى كتابه سير الاباطرة المتأخرين ابتداء من نرفا حتى ايلاجابالوس ، ولكن هذا العمل نقد وليس لدينا سوى تعليقات القدماء عليه ، ويبدو أنه كان عملا يعكس محاولات رجال الأدب Literati لكتابة التاريخ دون أن يكون لديهم التفكير السياسى المطلوب .

---

(١) cf. Vogt, op. cit., p. 30.

واخيرا يجد الباحث مجالا جديدا لجمع المعلومات (١) من كتاب المسيحية الأول من أمثال يوسيبيوس Eusebius أسقف مدينة قيصرية Caesarea فى فلسطين والذى كتب التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica كما نجد بعض الفائدة فى مقالة الفيلسوف المسيحى لاكتانتيوس — شيشرون المسيحية — كما كان يلقب (٢) والخاصة بشهداء الاضطهاد الوثنى De Mortibus Persecutorum ، وهذا الأدب المسيحى يرجع الى أوائل القرن الرابع الميلادى ، ولكن على المؤرخ أن يستخدمه بحذر شديد لأنه أدب معاد كتبته فئة مظلومة ضد فئة ظالمة ، مستخدمة المبالغة والتهويل والدعاية للدين الجديد لجذب الوثنيين الباقين تحت لوائهم ، كما يغلب عليه طابع الروحانية الغيبية الزاهدة فى الدنيا وكل ما فيها ، والباحثة عن مملكة الله العليا ، كل هذا افقد هذه المصادر موضوعيتها ووضوح الرؤيا التاريخية فيها .

ان الأثرى وحده هو الذى يعرف جيدا مدى الفقر والجهل نتيجة لانتشار الامية ونتيجة للافلاس الفكرى والمادى (٣) لدرجة أن العثور على الوثائق المكتوبة يصبح أكثر ندرة عن ذى قبل ، وحتى اذا وجدت فان معلوماتها تعكس الحالة المادية السيئة والمعنوية المنهارة حتى أن بيوتا كاملة فى الفيوم بحثنا فيها ولم نعثر حتى ولا على سطر واحد مكتوب (٤) .

تدهور السلام واندلاع الصراع حول العرش (٢٣٥ — ٢٦٨ م) :

ماكسيمينوس التراقى (٢٣٥ — ٢٣٨ م) .

كان ماكسيمينوس فلاحا تراقيا اميا ذا بدن ضخم حتى قيل انه كان قادرا على التهام أربعين رطلا من اللحم فى يوم واحد وأن يشرب

---

(١) cf. J. Fontaine : La littéurature Latine chrétienne, Paris, Presses Universitaires de France, 1970.

(٢) H.J. Rose A Hand book of Later Latin Leterature, Methuen Company 3rd. edition (1954) p. 481 f.

(٣) J. Vogt, op. cit., p. 31.

(٤) انظر د. سيد أحمد الناصرى : التقرير العلمى الأول لحفائر كلية الآداب جامعة القاهرة فى كوم اوشيم ١٩٦١ — ١٩٧٢ .

ستة واربعين قدحا من النبيذ ، وكان جنديا تدرج من تحت السلاح ولذا احترمته قواته وخشيت بأسه ، وكان ماكسيمينوس يعرف جنوده جيدا وما أن هتفوا به امبراطورا حتى أمر بمضاعفة رواتبهم . ثم قاد جنوده ضد الجرمان بعد أن سحقهم وأسر عدد كبيرا منهم ونهب بلادهم ، ثم سحق أهل الصرب وداكيا Dacia وقوط وادى الدانوب الادنى ، ثم راح يخطط للاستيلاء التام على شرق أوربا والمانيا .

وكانت المشكلة الوحيدة التى واجهت ماكسيمينوس هى افلاس الخزانة ، وعدم قدرته على مجابهة نفقات الحملات العسكرية ، ولهذا ارسل جباة الضرائب الى كل ربوع الامبراطورية لنهب الناس خاصة الاثرياء الذين تحول بعضهم الى معدمين بسببه ، وقد أدى ذلك الى ثورة سخط قامت ضده فى شمال افريقيا قتل فيها مندوب ماكسيمينوس ، وأعلن الشوار انطونيوس جورديانوس الثرى امبراطورا بالاشتراك مع ابنه جورديانوس الثانى ، وبارك السناتو هذا الاعلان لانه كان على علاقة سيئة بالتراقى والذى أعلن انه عدوا للشعب الرومانى ، ولما سقط جورديانوس الابن فى القتال ضد حاكم نوميديا الذى كان مواليا لماكسيمينوس وانتحر جورديان الأب بالسم ، عين السناتو اثنين من أعضائه هما بوبينوس ماكسيموس M. Pupienus Maximus وديكيموس كالفينوس بالبينوس Decimus Calvinus Balbinus امبراطورين بالاشتراك ، كما عين جورديانوس الحفيد قيصرا . وكان ذلك أعظم موقف للسناتو فى وجه هذه الاحداث . ولهذا اضطر ماكسيمينوس الى السير بقواته لدخول روما ، ولكنه وجد مدينة اكويلايا Aquileia محصنة فضرب حولها الحصار لمدة طويلة حتى ثارت قواته عليه وقتلته هو وابنه ، وبايعت كلا من بابينوس وبالبينوس ، واستقبلا بالترحاب والهتاف عند دخولهما المدينة . ولكن هذا الهتاف لم يبق طويلا اذ لم يمض على مقتل ماكسيمينوس شهران حتى ثارت قوات الحرس البرايتورى وقتلت الامبراطورين ، وأعلنت أن جورديانوس الثالث الذى كان صبيا فى الثالثة عشر من عمره امبراطورا .

---

(١) عن موجز شامل للمصادر الحديثة انظر :

Andre Chastagnal, Histoire de l'Empire Romain, Revue Historique, 506 (1973), p. 443 ff.

تمثال معبر للجندى الصارم
الامبراطور ماكسيمينوس التراقى

٢ — جورديانوس الثالث (٢٣٨ — ٢٤٤ ميلادية) :

وما أن اعتلى العرش هذا الامبراطور الصبى حتى بدأ أعداء الامبراطورية فى الخارج الهجوم على حدودها الواهية . ومن أخطر هؤلاء الاعداء القوط ، وهم شعب جرمانى من شعوب الشمال موطنه الأصلى سكنديناڤيا هاجرابان القرن الثانى الميلادى من حوض نهر الڤستولا (Vistula) الى أوكرانيا وسواحل البحر الأسود ، ثم اندفعوا الى أسفل وادى الدانوب وتحالفوا مع قبائل الصرماتيين (Sarmatians) وقبائل الكاربى Carpi وبدأوا يهاجمون موسيا (Moesia) فى شمال آسيا الصغرى ومنطقة تراكيا .

وفى الشرق الأوسط بدأ الفرس يهاجمون بلاد ما بين النهرين وسوريا وفى عام ٢٤١ قاد الملك الفارسى شابور العظيم Shapur جحافله تجاه مدينة انطاكية على نهر العاصى (Orontes).

وازاء هذا الخطر كانت الامبراطورية مقبلة على كارثة رهيبة لولا أن الامبراطور الصبى ألقى بزمام المسئولية على صهره جايوس فوريوس تيميسيثيوس Caius Furius Timesitheus الذى كان يشغل منصب قائد الحرس البرايتورى وكان لحسن الحظ قائدا كفىء ومخططا عسكريا رائعا . فنظم قواته وسار معه فى عام ٢٤٢ تجاه الدانوب فأعادوا السلام اليه ، ثم اتجهوا الى سوريا واستعادوا انطاكية وطردوا الفرس من ولاية سوريا وبلاد ما بين النهرين . وكان القائد وزوج ابنته الامبراطور على وشك من الاستيلاء على مدينة طيسفون Ctesiphon الفارسية عندما لقى حتفه تاركا زوج ابنته الأمبراطور حائرا ، ولم يجد جورديانوس الثالث بدأ من أن يرتمى فى أحضان أحد شيوخ عرب منطقة نهر الاردن الاقوياء يدعى فيليب فعينه قائدا للحرس البرايتورى وشريكا معه فى حكم الامبراطورية . ولكن فيليب العربى لم يرض بهذا المنصب وأن يكون شريكا لامبراطور صبى ، فاستغل النقص فى المؤن لدى القوات ودبر انقلابا قتل فيه جورديانوس الثالث وهتفت القوات بفيليب العربى امبراطورا وهكذا تولى عرش الامبراطورية الرومانية رجلا عربيا .

من المراجع الحديثة عن هذه الفترة المتأخرة من الامبراطورية الرومانية :

G. Downey, The Late Roman Empire, New York Holt, Rinhart and Winston, 1969 ; P. Brown, The World of Late Antiquity From Marcus Aurelius to Mohammed, London, Thames & Hudson, 1971

تمثال نصفى للامبراطور فيليب العربى (٢٤٤ ـ ٢٤٩ م)
تعبر ملامحه عن المحنة والقلق الذى كان يعيش فيهما
خلال فترة حكمه القصيرة

٣ - فيليب العربى : ٢٤٤ - ٢٤٩ ميلادية

اول شيء فعله فيليب العربى هو عقد الصلح مع الملك شابور . هذا الصلح ملخصه أن يرفع الملك شابور يداه عن ولاية ما بين النهرين وأرمينيا الصغرى مقابل تنازل روما عن مصالحها فى أرمينيا الكبرى وأن تدفع له ٥٠٠,٠٠٠ دينار كغرامة حرب وفدية وللاسرى الرومان الذين قبض عليهم الفرس .

حاول فيليب كسب السناتو بالرياء وكسب الناس بالادارة الحازمة والرعاية العامة ، لكن فيليب لم يكن قائدا عسكريا ممتازا ولم يستطع أن يقاوم أعداء الامبراطورية فى الخارج ، وكل ما حققه هو كسب نصر هزيل ضد مقاطعة كاربى فى داكيا ، ثم عاد الى روما عام ٢٤٧ م ليستعد للاحتفال بالعيد الألفى لتأسيس روما ، وحتى خلال الاحتفالات كانت حدود الامبراطورية نهبا للقوط والكاربيين عند الدانوب ، ولم تستطع القوات الرومانية المعسكرة عند الدانوب أن تفعل شيئا سوى أنها هتفت بقائدها امبراطورا ونفس الشيء حدث فى قوات الشرق ، وازاء هذا الخطر أرسل فيليب قائده القوى جايوس ديقيوس Gaius Decius لاستعادة الدانوب، وبالفعل تمكن ديقيوس من مطاردة القوط عبر الدانوب ، واعجبت القوات الرومانية بكفاءة الجنرال الحازم الماهر فهتفت به امبراطورا فقبل هذا المنصب تحت الحاح قواته ، وحاول التفاوض مع فيليب فلما فشل سار بقواته لطرد فيليب من على العرش . وعند مشارف مدينة ڤيرونا Verona دارت معركة شرسة بينه وبين فيليب قتل هذا الأخير خلالها . وهكذا انتهت فترة حكم هذا العربى لعرش الامبراطورية الرومانية (١) .

٤ - الامبراطور ديقيوس ٢٤٩ - ٢٥١ م

ما أن أعلن ديقيوس امبراطورا حتى هاجمت جيوش القوط بقيادة ملكها كنيڤا Kniva التحصينات الرومانية فى سهل الدانوب ، وتدفقت الى داكيا (رومانيا) وميسيا السفلى Moesia وثراقيا ، واستولوا على المدن الدفاعية الرومانية هناك وفتكوا بسكانها ، وقبضوا على عدد كبير من الاسرى ونهبوا ممتلكات السكان ، واضطر ديقيوس الى العودة بسرعة الى روما ليبحث الأمر مع السناتو ، ثم سار بقواته التى كان يساعده فى قيادتها جنرال حاقد عليه طامع فى العرش وهو تريبونيانوس جاللوس Trebonianus Gallus ، ولهذا راح يتباطىء فى مواجهة القوط ،

(١) PSI, 1444 and Philip the Arabian, Chronique d'Egypte, Tome XLVII (1972), p. 236-242 (by John Rea).

وبالرغم من أن ديقيوس نجح فى هزيمة احد جيوش القوط الا أن نتيجة لرعونة جاللوس واهماله المتعمد تمكن ملك القوط كنيفا من سحق قوات ديقيوس عام ٢٥١ ميلادية فى منطقة ابريتوس Abrittus المليئة بالمستنقعات والواقعة بالقرب من مدينة أدامكليسى Adamclisi بمنطقة دبروجا Dobrudja (بيوغوسلافيا) وكانت أكبر هزيمة لحقت بالرومان منذ كارهاى ، وسقط ديقيوس وولداه صريعين وهتفت بقايا الجيش الرومانى بالجنرال المتقاعس البليد جاللوس تريبونيانوس امبراطورا . وفى استسلام مهين عقد هذا الامبراطور المتخاذل معاهدة مع ملك القوط قبل فيها أن يعود القوط بما نهبوا وبمن أسروا من كبار الضباط الرومان وأن تتعهد روما بدفع جزية سنوية للقوط ! ياسخرية القدر !!

وبالرغم مما أثار مصير ديقيوس التعس فى نفوس المؤرخين المحدثين أو القدامى من أسى الا أن الكتاب الرومان (١) الوثنيين أكالوا الثناء لحرصه منذ أول وهلة فى حكمه على اقامة أو اصر المودة مع السناتو ، ونظروا اليه على أنه الحاكم الامثل الذى جمع بين شجاعة القائد العسكرى وحزم المدير الادارى وعناد الزعيم الذى لاينثنى ، بينما نظر اليه الكتاب المسيحيون من زاوية مخالفة تماما وانهالوا عليه بالسباب والتجريح اذا لقبه لاكتانتيوس Lactantius بالحيوان النجس animalis exsecratus .

وذلك لانه أول من ابتدع عملية الاستئصال الجماعى للمسيحيين فى ولايات الامبراطورية . وقد بارك الكتاب الوثنيون هذه الأبادة الجماعية لانهم كانوا يعتبرون المسيحيين جماعات هدامة لا تدين بالولاء للامبراطورية الرومانية واتهموهم بالسلبية لتبشيرهم بالسلام الاستسلامى حتى ولوكان على حساب كرامة الانسان ، وجدير بالذكر انه يوجد لدينا عدد من الشهادات التى كانت تمنح للافراد بعد تقديم الصلوات والاضاحى للامبراطور المقدس كاثبات على ولاء الناس للديانة الوثنية الرسمية للامبراطورية وتعرف باسم البراءات (libelli) (٢) ، وقد عثرت جامعة ميتشجان على العديد منها فى مدن الفيوم القديمة ، ونفهم من نصوصها أن الأمبراطور عين فى كل مدينة شخصا مختصا لاستقبال هذه الاضاحى والصلوات ثم يوقع بالتصديق على أن الشخص المذكور ادى فى حضرته هذه الشعائر

---

(١) A. Chastagnol, Le Bas Empire (Collection U. 2, no. 58), Paris, A. Colin 1969, p. 51 f.

(٢) J.G. Winter, op. cit., p. 139 ff.

الوثنية . ويعتقد العلماء أن هذا المرسوم الخاص بفرض الشعائر الوثنية صدر ما بين ٢١ — ١٤ يونيو عام ٢٥ ميلادية (١) . ويبدو ان عددا كبيرا من المسيحيين المصريين قاموا بتقديم الاضاحى حتى يتجنبوا الموت الذى كان عقوبة الرافضين لهذا القرار (٢) .

٥ — الامبراطور ڤاليريانوس وابنه جاليينوس Gallienus (٢٥٣ — ٢٦٨ م) :

لم يمكث جاللوس وابنه فولوسيانوس Volusianus على العرش سوى عامين (من ٢٥١ — ٢٥٣ م) ثم ثارت عليهما قوات الراين بقيادة قائدها الذى اراد الانتقام لجاللوس وهو ليكينيوس ڤاليريانوس Licinius Valerianus ونادت القوات بڤاليريانوس الأول امبراطورا ، وسرعان ما قبل هذا الامبراطور بعد أن اشرك ابنه جالينوس معه فى الحكم وبعد أن منحه كافة السلطات لحكم الولايات الغربية . وحكم الوالد والولد معا فى انسجام تام حتى وفاة الأب عام ٢٦٠ ميلادية .

تعتبر فترة حكم جالينوس من اشد عصور الامبراطورية حرجا . لقد بدات بكارثة قومية مخيفة على يد القوط عندما هاجموا الحصون الدفاعية الواهية على طول الراين والدانوب ، واتحدت القبائل الالمانية فى وادى الدانوب الادنى فى جبهة عرفت باسم لفرنجة (Franks) ، بينما توحدت قبائل الراين فى جبهة الألمان Alemanni والماكرومانى (Macromanni) وبدأوا فى غزو بلاد الغال واسبانيا . وتدفقت قبائل الألمان والماكرومان من سهل الدانوب الأعلى على الولايات الرومانية والى شمال ايطاليا ، بينما راحت قبائل قوط الدانوب الادنى تهاجم مناطق البلقان وآسيا الصغرى وسواحل بحر ايجه .

وفى الشرق الأوسط غزت قوات الفرس بقيادة الملك شابور الأول Shapur ولاية ما بين النهرين وسوريا وكابادوكيا وقلما نجت ولاية من ولايات الامبراطورية من الخراب والقتل والحرائق والاسر .

لقد حاقت الكوارث بالامبراطورية من كل جانب فالقراصنة (٣) ولصوص البحار قطعوا طرق التجارة البحرية بينما ازدهر قطاع الطرق فى الاحراش والصحارى قاطعين طرق القوافل ، بالاضافة الى ذلك حدثت

(١) Ibid, p. 142.

(٢) F. Stark, op. cit., p. 264-265.

(٣) Alfoeldi : Studien zur Geschichte der Weltkrise des 3 Jahrhunderts nach christus. Darmstadt 1967. p. 125 ff.

سلسلة من الزلازل والبراكين فى آسيا الصغرى وايطاليا ، بل زادت المأساة عندما شب وباء قاتل فى مصر وانتشر منها الى جميع انحاء الامبراطورية وظل يفتك بالناس طوال خمس عشرة عاما . ويقول بعض المؤرخين أن مدينة الاسكندرية وحدها فقدت ثلثى سكانها ، وبلغ معدل الوفيات يوميا فى روما خمسة آلاف فرد ، وبالتالى خلق هذا الهلاك نقصا شديدا فى الأيدى العاملة سواء فى المزارع أو المصانع وانعدم الانتاج الزراعى ، وعانت الجيوش من النقص فى الرجال المحاربين ، لقد سببت هذه لكوارث مجتمعة حالة من الانهيار الاقتصادى قصم ظهر الامبراطورية .

وبالاضافة الى ذلك تلوثت روح الجندية الرومانية بالمطالب التشخصية والجشع فى طلب المزيد من الرواتب بعد التساهلات التى حصلوا عليها منذ سبتيميوس سيفيروس وولده كاراكالا ، فأهملوا واجباتهم وركزوا اهتمامهم على حماية مناطقهم المحلية التى اقاموا فيها وراحوا يزرعونها (١) . وسادت روح المحلية والانفعالية فضلا من الأهمال حتى فى تحصين مناطقهم، كما ان قادتهم لم يعودوا يحلمون بالنصر على العدو بل بالجلوس على العرش ، يقال انه خلال فترة حكم جاللينوس وحده ظهر مالايقل عن ثمان عشره مطالب بالعرش .

تفاقم الأخطار الخارجية ضد ولايات امبراطورية :

بدأ الموقف المتفجر فى الشرق الأوسط يقلق بال الامبراطور جالينوس وبدات الازمة قبل توليه العرش بعام واحد عندما دبر شاه الفرس شابور الأول مقتل ملك ارمينيا العميل لروما واحلال ملك آخر عميل للفرس كخطوة أولى لطرد الرومان من آسيا الصغرى والشرق الأوسط .

بعد ذلك بدات الخطة الفارسية بغزو بلاد ما بين النهرين Mesopotamia ثم سوريا (الشام الكبرى) . وفى عام ٢٥٣ م سحق جيشا رومانيا تعداده ستين الفا ودمر الخطوط الدفاعية عند مدينة دورا يوروبوس Doura-Europus (الصالحية الواقعة قرب منتصف ضفاف الفرات واحدى قلاع الحضارة الهللينستيه فى الشرق الأوسط) ثم دخل الملك الفارسى بقواته الى سوريا وولاية كابادوكيا فى شمال سوريا واستولى على انطاكية غير ست وثلاثين مدينة اخرى فى سوريا وآسيا الصغرى ، وفى اثر هذه الكارثة سارعت قوات القوط بنهب

---

(١) Watson, op. cit., p. 91, ff, p. 148.

كل المدن الواقعة جنوب وشرق شواطىء البحر الأسود ، بل بدات سفن القوط تهدد شواطىء آسيا الصغرى ذاتها .

وازاء هذا الموقف المتفجر غادر فاليريانوس روما الى الشرق الأوسط فى غضون عام ٢٥٦ ميلادية ليقاوم الفرس ولكن عبثا وباستثناء بعض المناوشات المحدودة والتى صورها على النقود كانتصارات كبرى لم يكسب فاليريانوس نصرا واحدا يعيد الهيبة العسكرية المفقودة الى روما ، وتنفيثا عن فشله واسقاطا عن هزيمته النفسية بدأ الامبراطور يفتك بالمسيحيين فتكا بربريا ، واخيرا أرسل جيشه الذى فتكت به الاوبئة ليواجه الجيش الفارسى الكبير قرب اديسا Edessa وكان هذا تهورا وانتحارا من جانب الامبراطور اليائس ، اذ هزم جيشه عام ٢٦٠ م والقى شابور القبض عليه وحمله معه حتى قضى بقية عمره اسيرا فى فارس مثيرا الاسى لما وصلت اليه الامبراطورية الرومانية (١) .

فى نفس الوقت كان ابنه جالينوس غارقا منذ عام ٢٥٤ فى تطهير بلاد الغال ووادى الراين من قبائل الفرنجة والالمان ، وتمكن من طردهم الى ما وراء نهر الراين ، ثم حصن الحدود بالقلاع ولكن قبائل الماكرومانى والالمانى ، تسللت عبر القلاع عبر الدانوب جنوبا ومنها الى ايطاليا بل ووصلت قوات الماكرومانى الى مدينة رافنا Ravenna عام ٢٥٤ واستولى الالمان على ميلانو Milan عام ٢٥٨ ميلادية ، وحاول جالينوس وقف تقدم الماكرومانى بعقد اتفاق معهم اعترف فيه بتنازله عن الاراضى الواقعة جنوب الدانوب فى منطقة بانونيا العليا حتى يتفرغ لسحق الالمان قرب ميلان عام ٢٥٨ — ٢٥٩ ميلادية ونجح بالفعل فى ذلك . ولكن فى العام التالى راح يواجه حركات التمرد بين قواته المعسكرة فى بانونيا مستغلين غيابه عنهم وبقائه طيلة الوقت فى منطقة الراين وراحت تمنى غيره من القادة بعرش الامبراطورية الذى أصبح رخيصا .

ووجد جالينوس نفسه بين شقى الرحى . لان قبائل الالمان عاودت الهجوم وعبرت الراين من ناحية الشمال وغزت سهل الرون حتى مدينة اوڤيرن (Auvergne) . بينما غزت الفرنجة وادى الراين الادنى ومنه الى بلاد الغال واسبانيا ووصلت جنوبا الى مراكش فى شمال افريقيا . وراحت قبائل السكسون (Saxon) والجوت Jutes — التى كانت

(1) F. Stark, op. cit., p. 261. also cf. G. Lopuszanski : La date de la capture de Valerian et la chronologie des empereurs gaulois (cahier de l'institut d'etudes polonaise en Belgique, 9) Bruxelle, 1965).

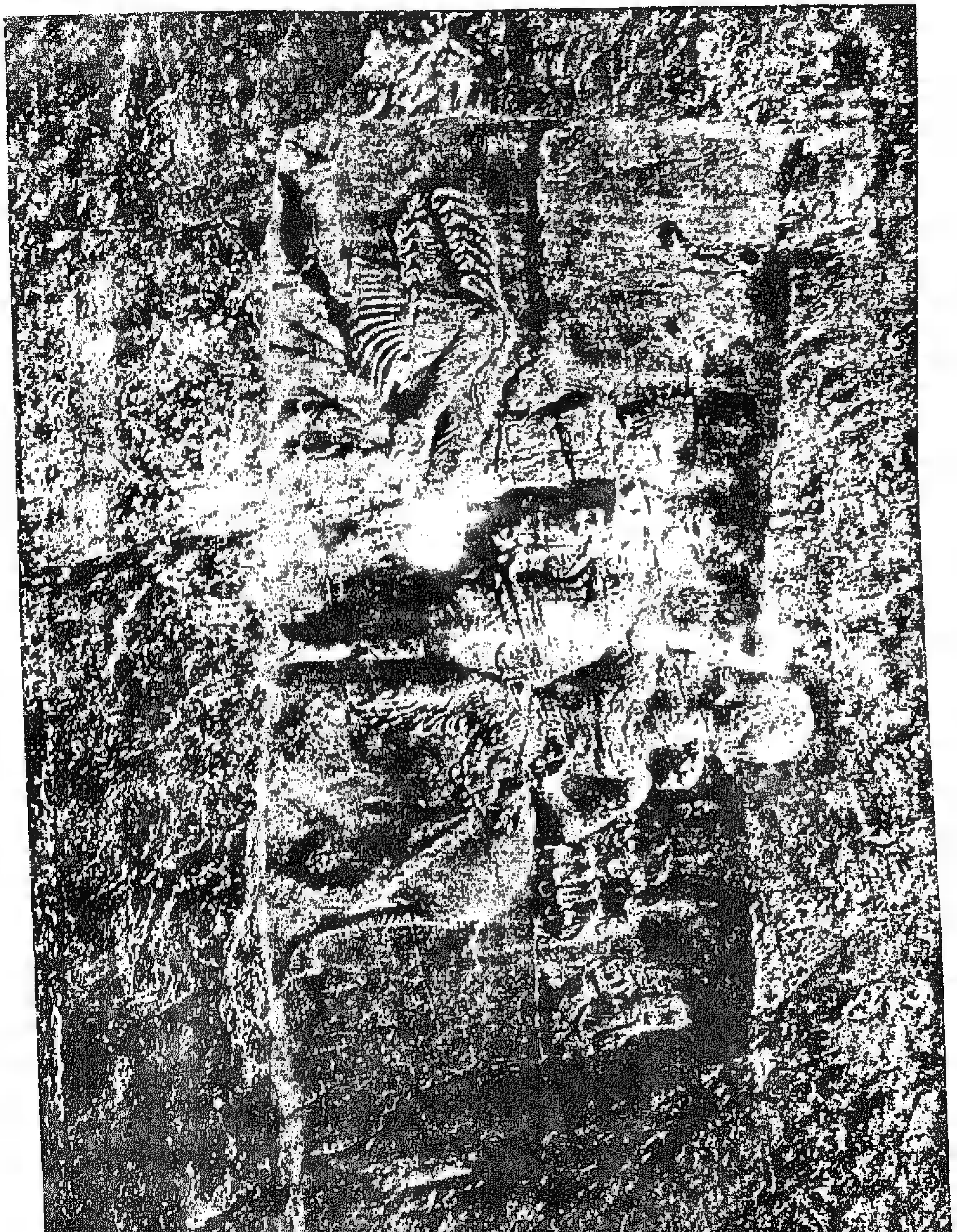

تقطن على طول سواحل المانيا والدنمارك ـ تستولي على المنافذ البحرية هناك وتنهب سواحل بريطانيا وبلاد الغال ، ووسط هذه المآسي تمردت القوات الرومانية فى الراين واعلنت مبايعتها لقائدها المقيم معها وكان اسمه بوستوموس Postumus ، وحذت حذوها القوات الموجودة في اسبانيا وبريطانيا . وفى أول الأمر اعترض جالينوس على هذا الانقلاب ولكنه وجد نفسه في موقف ضعيف لأن قبائل الجرمان والقوط باتت تهدد ولايات الدانوب في حين أن قواته كانت على وشك من الانقلاب عليه فأغمض عيناه عن بوستوموس ، وتركه يطارد الفرنجة والألمان خارج بلاد الغال ويحمي حدود الامبراطورية ، بل وتركه يسك عملته ويقيم ادارة قادرة . وكان تصرفا ذكيا وعاقلا من جانب جالينوس .

١ ـ هزيمة الفرس على يد بالمورا (تدمر) :

منذ هزيمة ڤاليريانوس وسحقه راحت الجيوش الفارسية تعربد فى الشرق الأوسط وفى آسيا الصغرى ، وتعرضت انطاكية بالذات للسلب والنهب ، واحتلت ولاية ما بين النهرين وتسللت عبر كيلكيا وكابادوكيا ونفذت عبر آسيا الصغرى حتى شواطىء البحر الاسود وكان يمكن للفرس أن يحتلوا آسيا الصغرى كلها ويطهروها من جيوب الجيوش الرومانية لولا ان الفرس كان ينقصهم القيادة العسكرية التخطيطية ذات الأهداف الاستراتيجية الواضحة لانهم كانوا لا يعرفون ماذا يريدون ، لهذا تحولت قواتهم الى جماعات صغيرة متفرقة غايتها السلب والنهب ومنعزلة كل عن الأخرى .

وبينما كانت روما تستجمع قواها الخائرة ، راح قائد روماني اسمه ماكريانوس Macrianus يساعده قائد صغير اسمه كاليستوس Callistus يجمعان فلول جيوش ڤاليريانوس المتفرقة فى الشرق الأوسط ثم حملا هذه القوات على سفن وابحروا بها الى كليكيا حيث فاجئوا الجيش الفارسي هناك وفتكوا بشطر كبير منه واسروا عربة الملك شابور ومتاعه وبعضا من حريمه . وكان انتقاما محدودا ضد الفرس الذين اضطروا الى اخلاء آسيا الصغرى والتراجع الى طيسفون Ctesiphon . ولكن فجأة وجد الملك الفارسي عدوا عنيدا ينتظره عند ضفاف الفرات ذلك هو أوديناتوس (أوذينه) ملك بالمورا احدى الدويلات التابعة لروما والتى ظلت على ولائها وعلى العهد باقية . وكانت الهزيمة التى الحقها أوديناثوس بالملك شابور كبيرة لدرجة انه لم يعد صالحا للفتوحات والغزوات فقضى بقية عمره فى البناء والتعمير فى بلاده تاركا مستقبل آسيا الصغرى فى يد

اوديناثوس وجاللينوس (١) .

كانت تدمر او بالمورا Palmyra كما يتضح من اسمها واحة نخيل تقع فى صحراء البادية بين سوريا وبابل ، ويمر بها طريق القوافل التجارية من شرق البحر المتوسط الى قلب آسيا والى الخليج الفارسى . ولذا فقد كانت سوقا دولية للتجارة فى العالم القديم لمنتجات بلاد الصين والهند وفارس وبلاد العرب ومصر والنوبة وشمال افريقيا ، وكانت مركزا لبيع البضائع الهامة مثل المنسوجات والعطور والتوابل والاحجار الكريمة والمعادن الثمينة المصنعة للزينة . وازدهرت بالمورا ابان القرن الثانى الميلادى بالذات حتى اصبحت من اعظم واهم مدن الشرق الأوسط . اذ كانت مدينة ذات شوارع مرصوفة يزينها الاروقة المسقوفة على جانبيها (Porticos) والبواكى الجميلة وتمر الشوارع عبر عدد من البوابات المقوسة المحلاة بأبدع الرسومات والزخارف . وكانت مدينة ذات ابنية اغريقية الطراز وشرقية الروح (١) ولذا يتفق بعض مفسرى القرآن الكريم بأن تدمر هى المدينة المقصودة بقوله تعالى « ارم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

لم تكن تدمر ترتبط بروما على انها دويلة عميلة ، ولا من باب الصداقة التقليدية بين الرومان والعرب ، بل لأن عددا ليس باليسير من سكانها كانوا من اصول اغريقية ورومانية ، بل ان ملكتها زينوبيا Zenobia (الزباء عند العرب او بات زاباى عند الأراميين) ادعت انها تنخرط من سلالة الملكة المقدونية المصرية كليوباترا وان مدينة الاسكندرية هى المدينة الأم بالنسبة للأسرة المالكة فى تدمر (٢) .

لقد توثقت أواصر الصلة بين بالمورا وروما منذ عهد تراجانوس عندما اصبحت هذه الواحة ـ الدويلة مركزا لتجنيد الراغبين فى الخدمة فى الجيش الرومانى ، بل ان وحدات بالمورا فى الجيش الرومانى من انفرسان النبالة (archers والفرسان المبارزين ادت خدمات جليلة للامبراطورية الرومانية ، وتقديرا لهذه الدويلة الصحراوية انعم آل سبتيميوس سيفيروس وخلفاؤه بامتيازات عليها مثل جعلها مستعمرة رومانية الحقوق مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، وانتخاب بعض وجهائها لعضوية السناتو

---

(١) cf. Michaelowsky, Palmyra, Polish Archeological Centre Damascus. (1962).

(٢) cf. Zosimus XXI-XXII.

الرومانى ووضع نواة فرقة عسكرية من أبنائها تعمل فى سوريا باسم الجيش الامبراطورى ، واتت نواة هذا المشروع الأخير بالثمار عندما سحقت هذه الفرقة جيش الملك الفارسى شابور على ضفاف الفرات ، وداست كبرياءه لدرجة انه لم تعد لهذا الملك قائمة بعد ذلك التاريخ .

كان سبب العداء بين فارس وبالمورا هو احتلال الملك شابور لشرق الجزيرة العربية لأن ذلك الحق اضرارا تجارية جسيمة بتدمر وقطع علبها شريان الحياة التجارية وهو الخليج الفارسى ، وبذلك تاثرت طرق القوافل الآتية من الشرق بهذا الاحتلال . وحاول الملك اوديناثوس الكبير (أو أوذينه كما سماه العرب) أن يفاوض شابور ويتفاهم معه ، ولكن الملك الفارسى رفض ذلك بكبرياء وانفه مما دعى الملك التدمرى الى القاء الأمر على الغارب والدخول فى معركة حياة أو موت مع شابور ، ونتج عنها هزيمة الملك الفارسى على ضفاف الفرات . ولم ينتظر اوديناثوس ولم يعط غريمه فرصة استعادة قواه فتابعه مطاردا حتى أبعد فارس تماما من ارمينيا وبلاد ما بين النهرين ، بل انه عبر حدود فارس القديمة فى عام ٢٦٣ و ٢٦٧ ميلادية وحاول احتلال طيسفون وحاصرها ولكنة ينجح فى الاستيلاء عليها .

لم يصدق الامبراطور الذكى جاللينوس أن ملكا على محميه صحراوية صغيرة تابعة له يستطيع هزيمة عدو باغ هزم جيوش الامبراطورية واسر امبراطورا رومانيا لأول مرة فى التاريخ ، ولذا انهال عليه بالالقاب الشرفية والتكريمية مثل لقب «مصلح كل الشرق» Corrector totius Orientis ، واصدر مرسوما بتعيينه القائد الأعلى لجميع القوات التابعة لروما فى الشرق الأوسط .

فى هذه الأثناء ثار ماكريانوس على جاللينوس وأوغر الى قواته بأن الامبراطور الشرعى فى انتظارهم بقيادة اوديولوس Quietus امبراطورين ، وابتهج الشرق بعد ان زالت عنه غمة الفرس ، وكان يمكن للأب ماكريانوس ان يطهر الشرق الأوسط ويضمد جراحه ولكنه ترك فيه ولده الضعيف كويتوس وحده ، وسار هو وابنه الأكبر متجها صوب الدانوب وما كاد أن يصلا الى هناك حتى كانت القوات الموالية لجالينوس الامبراطور الشرعى فى انتظارهم بقيادة اوريولوس (Aureolous) وفتك الأخير بالوالد والولد ، بينما قضى اودينـاثوس على كويتوس فى الشرق وعلى قائده كاليستوس قبل أن يعلن نفسه امبراطورا .

ومن الطريف أن أوديناثوس ملك الصحارى قرر أن يجرب قواته فى وديان آسيا الصغرى لطرد القوط منها وتحرير مدن خلقيدونية

ونيقوميديا من شرورهم واستعادة خزائن معبد الربة ارتيميس . Artemis (ديانا عند الرومان) ، ولكنه لم ينجح فى استعادة هذه الاسلاب لأن القوط نهبوها ووضعوها فى سفن وابحروا بها من ميناء هيراكليا البنطية Heraklea Pontica عائدين الى بلادهم • .

ولم يمض على تلك المغامرة وقت طويل حتى تمكن احد الجناة من(١)طعن الملك اوديناثوس بخنجر سام فقتله ، ويقال ان زوجته الساحرة الجسورة بات زاباى Bat Zabbai والمعروفة عند / الرومان بأسم سبتيميا زنوبيا (Septimia Zenobia) (وعند العرب باسم الزباء) هى التى دبرت مقتل زوجها قبل أن يعين ولدا له من زواج آخر خليفة له وقد قتلته هو الآخر حتى تضمن عرش المملكة لولدها المدلل ڤابالاثوس Vaballathus (الذى يعرف عند العرب باسم وهب اللات) (٢) • ولكى تبقى زنوبيا وصية عليه وتحكم بالمورا بذكاء وكفاءة حتى هزيمتها على يد الامبراطور اوريليانوس .

الجولة الأخيرة بين جاللينوس والقوط (٢٦٨ م) :

انتهز القوط احداث القلاقل فى الشرق الأوسط ليقوموا باكبر هجوم لهم على الامبراطورية الرومانية ، اذ اعدوا قوة بحرية قوامها خمسمائة سفينة (يبالغ البعض ويقولون انها كانت الفى سفينة) فضلا عن جيش برى بلغ حجمه ٣٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، واندفعوا نحو منطقة البلقان وحوض بحر ايجه وبلاد اليونان خاصة شبه جزيرة المورة ونهبوا مدن الأغريق الشهيرة مثل اثينا وارجوس واسبرطة وكورنثا ثم اتجهوا شمالا عبر مقاطعة ابيروس Epirus الى مقدونيا الى ان وصلوا الى مدينة نايسوس (نيش) الحالية فى ميسيا Moesia (بين البانيا وبلغارية) .

استعد جاللينوس لاعتراض جيوش القوط الهائجة عام ٢٦٨ حيث دارت ابشع معركة عرفها القرن الثالث الميلادى فقد فيها القوط خمسين الف قتيل • وكان يمكن ان يكون نصرا يحيى الروح القومية المفقودة للامبراطورية لولا ان جاللينوس هرول الى ايطاليا لقمع حركة تمرد قام بها نائبه اوريولوس فى ايطاليا وبالفعل سحق جاللينوس خصمه قرب

---

(١) من المراجع المفيدة عن الشخصيات الهامة فى تلك الفترة :

A.H.M. Jones, J. Martindale and J. Morris The Prosopography of the Later Roman Empire, Vol. I, A.D. 260-535, Cambridge University, Press. 1971.

(٢) اللات هى الشمس فى ديانة عرب اليمن القدماء وهى زوجة الرب الاكبر ود اى القمر وأم ابنته — العزى او عشتر — (كوكب الزهرة اوڤينوس) ، ومن ثم فانه اسم ڤابالاثوس يعنى هبة الشمس وهو الترجمة الارامية للاسم الاغريقى الشائع هليودوروس .

ميلانو ، ولكنه سقط قتيلا نتيجة لانقلاب قواده الاليريين عليه والذين اعلنوا غضبهم من الامبراطور لاهماله حماية موطنهم الأصلي في الدانوب .

اصلاحات جاللينوس :

والى جانب الانتصارات العسكرية المذهلة التى حققها جاللينوس فقد قام بحركة اصلاح شاملة كانت النواة الكبرى لحركة اليقظة المتاخرة ولاصلاحات دقلديانوس وقسطنطين . وكان هدف هذه الاصلاحات استعادة سيطرة الجهاز السياسي للدولة على القوات الجامحة واعادتها الى النظام والالتزام للأوامر ، وقطع الطريق على الجنرالات الحالمة بالعرش ، كل هذا من أجل انقاذ الامبراطورية من اعدائها البرابرة .

ويجيء على راس هذه الاصلاحات قرار الامبراطور باعفاء اعضاء السناتو من وظائف الجيش القيادية لرعونتهم واحل محلهم رجال طبقة الفرسان الأكثر حركة وخبرة بشئون الولايات ، وكان معظمهم عصاميين ترقوا من تحت السلاح الى هذه الطبقة المفتوحة لكل الكفاءات . ويبدو أن الامبراطور لاحظ أن القيادات العسكرية السيناتورية قيادات أنانية وطموحة تسعى للاستيلاء على العرش بأى ثمن بينما قيادات الفرسان قيادات محترفة للقتال فقط ، وقادرة على تحمل المشاق الحربية حتى فى اقاصى الولايات الرومانية ، كما انها ملتزمة بالضبط والربط وقلما خرجت عليه ، كما أن الهدف المنشود لهذا القرار هو ابعاد الجيش عن السياسة ووضعه فى مكانه الحقيقى وهو خدمة وحماية الدولة وليس التحكم فيها .

وتدريجيا أصبح رجال طبقة الفرسان يتولون القيادة فى غالبية الولايات التابعة للامبراطورية وبعض الولايات التابعة للسناتو وحيثما وجدت القوات فى اى ولاية فان القيادة فيها اصبحت فى يد الفرسان وحدهم دون أعضاء السناتو ، وبذلك ادمجت السلطة الادارية والعسكرية فى الولايات التى حكمها الفرسان ، بينما فى الولايات التى حكمها اعضاء السناتو فقد كان هناك مبدأ الفصل بين السلطة العسكرية والقيادة الادارية والمدنية ، وكانت سلطات الحكام السيناتوريين محددة فى الشطر الثانى .

كذلك اتى جاللينوس بثورة كبيرة فى مجال الدفاع والتحصين عندما طور نظام الخط الدفاعى القديم الذى أوجده دوميتيانوس وزاد عليه هادريانوس والذى كان عبارة عن سلسلة من الحصون والقلاع المبعثرة التى يمكن التسلل من بينها ، فضلا على أن امتدادها عبر مساحة طويلة يجعلها

واهية ، طور جالليتوس هذا النظام الدفاعى الذى طبقته الامبراطورية ابان القرن الثانى الميلادى بأن خلق خط الدفاع الثانى فى العمق ، حتى يمكن صد العدو اذا تسلل من الخط الدفاعى الأول ، وجعل نواته المدن ذات القلاع التى يقف العدو حيالها عاجزا بعد ان يكون قد ارهقه التسلل عبر خط الدفاع الاول عندئذ يمكن القضاء عليه بسهولة .

اماالتطوير الدفاعى الثانى فكان خلق قوة عسكرية متحركة (vexillationes) وخفيفة توضع بالقرب من مناطق الخطر بحيث تتحرك بسرعة رهن اشارة من الامبراطور ، ووضعت فى حالة الاستعداد الكامل بحيث تكون جاهزة للتحرك والعمل قبل ان يستفحل الخطر (١) ، وجعل ايطاليا هى مركز قيادة هذه القوات . ولكنه فى نفس الوقت نقل مركز الثقل من مدينة روما الى مراكز استراتيجية بعيدة عنها مثل مدن اكويليا Aquileia وفيرونا Verona وميلانو ، ونقل الى هذه المدن دور سك النقود ومصانع السلاح وقصور الأباطرة والقادة ، وفقدت روما أهميتها السياسية وكان هذا بداية لانزوائها وتنازلها عن عرشها .

وتحت تفهم الظروف التكتيكية الدفاعية الجديدة الغى جالليتوس الاعتماد على نظام الفرق legiones والمشاة لانها بطيئة التحرك وعندما تصل الى منطقة الخطر يكون السيف قد سبق العزل ، ولهذا استبدلها بعناصر خفيفة متحركة فعالة تتحرك بالجياد السريعة . وكانت وحدة الفرسان الجديدة تتكون من فصيلة الفرسان المور (المراكشيين) من رماة الحراب ، والفرسان الدلماتيين Dalmatans السلافيين والفرسان النبالة الذين جندوا من بالمورا ، واخيرا انشأ جالليتوس سلاحا من الفرسان المدججين بالسلاح على الطريقة الفارسية وسماه باسم (Cataphractarii) إى القوات المدرعة وقد بلغ اعجابه بهذه الفرقة ان وضعها فى عام ٢٦٣ ميلادية على قدم المساواة فى الأهمية مع فرقة الحرس البرايتورى ، بل سرعان ما فاقت هذه الفرقة الاخيرة واصبح قائد الفرسان المدرعين اهم منزلة من قائد الحرس البرايتورى ،بل اصبح الرجل الثانى فى الامبراطورية بعد الامبراطور رغم انه كان عادة من طبقة الفرسان من تحت السلاح . وعن طريق فرق الفرسان المدرعين امكن لعدد من القادة من أمثال كلاوديوس القوطى واورليانوس وبروبوس ودقلديانوس من الوصول الى عرش الامبراطورية .

---

(١) عن تطور فكرة هذه القوات الخاصة انظر :

R. Saxer : Untersuchungen zu den vexillationem des roemisch Kaiserheers von Augustus bis Diokletian (Epigraphische Studien, 1), Koeln, Boehlau 1967.

لم يكن جالليتوس عبقريا عسكريا فحسب ، بل كان فيلسوفا مثقفامحبا للثقافة الاغريقية متيما بفنونها . ولذا فانه يشبه الامبراطور هادريانوس فى الذكاء وعمق الثقافة ، وسعة الادراك ، وبعد النظر ، وقوة الارادة ، وحيوية الطاقة ، وسرعة اتخاذ القرار القاطع ، ولهذا واجه نفس المشاكل الذى واجهها هادريانوس وهى معاداة السناتو ، والتهكم التشاؤمى من نظمه البالية ، وضرورة القضاء عليها ، وبذلك وضع الأسس التجديدية لحركة الاصلاح الجديدة فى أواخر عهد الامبراطورية .

لكن الشيء الجدير بالذكر هو عشق الامبراطور جالينوس للفلسفة الافلاطونية ومحاولة تحقيق المدينة الافلاطونية الفاضلة فى منطقة سهل كمبانيا ، وكان بذلك ثانى سياسى بعد ديونيسيوس حاكم سيراكوز يحاول تحقيق الايدولوجية الافلاطونية ، ومن أجل ذلك استدعى صديقه المصرى المتأغرق الأسيوطى المولد ، الفيلسوف افلوطين Plotinus (٢٠٥ — ٢٧٠ ميلادية) ليؤسس مدينة افلاطون (Platonopolis) وكان افلوطين آخر أساتذة الفلسفة الوثنية فى روما ومؤسس مذهب الافلاطونية الجديدة Neo-Platonism ، وخلاصة مذهبه أن العامل الحيوى والخلاق فى الانسان والكون على السواء هو « الروح » ، وأن أعظم وظيفة للروح هى الحق والعدل ، وشرح الحق بأنه هو القدرة على استخدام الأفكار عن طريق الحس والتذكر (re-collection) والتخيل والتفكير من أجل تحقيق المعرفة ، واذا كان أن «الحق» فوق الروح الانسانية Psyche فان العقل الربانى الأكبر (Nous) فوق الوجود ذاته ، وفوق العقل الربانى الخالق الأوحد تأتى «ذاته» وهى لا يمكن ادراكها لا بالفكر او المنطق ، بل عن طريق التجربة الصوفية التى تفوق الوصف الوضعى . ومن الواضح أن فلسفة افلوطين هى أصل الجدل الوجدانى الذى استخدمه المسيحيون فيما بعد ثم بنى عليه فلاسفة المسلمين نظرياتهم لاثبات وجود الله ، ومنه اشتق المتصوفة نظريتهم فى البحث عن الذات (١) .

اليقظة المتأخرة على يدى الأباطرة الألليريين :

هكذا وضع جاللينوس اساس الدعوة الى الانتفاضة من السبات

---

(١) ترى الباحثة هيلارى ارمسترونج أن افكار أفلوطين لم تكن كلاسيكية اصلية بل كلاسيكية مشوبة بالروح الشرقية :

A. Hilary Armstorong : Elements in the Thoghts of Plotinus at Variance with classical inellectualism J.H.S., Vol. XCIII (1973) pp. 13-22.

(٢) «Self exploration is the heart of plotinism, and it is in the analysis of the self that plotinus made his most original discovery» (Dodds in J.R.S., (1960), p. 7).

العميق باعادة النظر فى النظام الرومانى من اساسه . وقد القى القدر بهذه المسئولية على اكتاف مجموعة ماهرة من القادة العسكريين العظام جاء معظمهم من الليريا (يوغوسلافيا) حيث قاموا بمجهود يفوق طاقة البشر ، ونجحوا فى النهاية من جمع شمل الولايات المتفسخة وتحقيق الوحدة للامبراطورية ولكن فى النهاية وجدوا انفسهم قد قضوا تماما على الوجود الفكرى والحضارى الرومانى واضعين بداية عالم جديد هو فجر العصور الوسطى ، وخلاصة القول أن هذه اليقظة اشبه باليقظة التى تسبق سكرة الموت ؛ والآن لنعالج هؤلاء الاباطرة الالليريين العظام .

١ — كلاوديوس القوطى Claudius Gothicus (٢٦٨ — ٢٧٠م)

كان كلاوديوس القوطى احد مجموعة القادة الالليريين الاكفاء الذين رقاهم جاللينوس من تحت السلاح ، وهو الأول بين هذه المجموعة الممتازة من اباطرة روما المتأخرين الذين لولاهم لانهارت الامبراطورية قبل ذلك بكثير ، وأول عمل قام به كلاوديوس هو طرد قبائل الألمانى الذين غزوا ايطاليا من الشمال وتوغلوا جنوبا فيها حتى بحيرة جاردا Garda .

ثم حاصر القوط الذين افلتوا من جاللينوس ، كما طارد القبائل القوطية التى هبطت بالبلقان ، ولم يمانع فى أن يسالم بعضها ويجندها فى خدمة الامبراطورية واسكن البعض الآخر فى الأراضى الزراعية المهجورة على حدود تراكيا وميسيا ومقدونيا ، وبهذه الاجراءات الذكية تخلص كلاوديوس من خطر القوط ولم يعودوا منذ ذلك التاريخ يهددون الامبراطورية بشكل خطير لمدة قرن من الزمان على الأقل ، ولهذا كرمه الرومان واعتبروه المؤسس الأول لحركة احياء الامبراطورية بل انعموا عليه بلقب القوطى Cothicus نظرا لنجاحه فى التخلص من خطر هذه القبائل .

٢ — أوريليانوس Aurelianus (٢٧٠— ٢٧٥ ميلادية) :

مات كلاوديوس القوطى متأثر بوباء الطاعون — وخلفه كوننللوس (Quintillus) ولكن القيادة الجديدة انتخبت لوكيوس دوميتيوس أوريليانوس Lucius Domitius Aurelianus امبراطورا ، وكان أوريليانوس يشغل منصب قائد الفرسان المدرعة Cataphractarii واشترك فى الحرب ضد القوط ، وكان ريفى المولد ، عملاق القامة ، قوى البنية ، تمرس فى الجندية حتى أصبح خبيرا بالحرب ، صارما مستعدا لها فى اى لحظة لدرجة ان اطلق عليه رفاقه كنية هى « اليد على السيف » Manus ad Ferrum ، كما كان لا يرى حلا سوى العنف ،

ولا يعرف التفاهم ، ولا الدبلوماسية ، وبهذا المنطق الصارم بدأ فى استعادة ممتلكات الامبراطورية ، ولذا أطلق عليه لقب مستعيد العالم (الرومانى) restitutor urbis .

كانت المهام التى تنتظر أوريليانوس كثيرة ومعقدة . فكان عليه حماية جبهة الدانوب من العدوان ، وحدود ايطاليا الشمالية من الغزو ، وقبل كل هذا وذاك أن يستعيد للامبراطورية ولاياتها فى الشرق والغرب ، كما كان عليه أن يوجد حلولا متعددة للمشاكل السياسية والاقتصادية وعلى رأسها انقاذ النظام النقدى للامبرطورية من الفوضى .

بدأ أوريليانوس بتطهير ايطاليا ــ قلب الامبراطورية ــ من خطر البرابرة الشماليين . وبينما كان الامبراطور فى طريق عودته الى روما من منطقة الدانوب سمع عن غزو قبائل الوندال Vandals وقبائل الصرب Sarmatians لمنطقة بانونيا Panonia فسارع اليهم وحاصرهم ، وبعد مقاومة شرسة استسلم المهاجمون وطلبوا السماح لهم بالعودة من حيث أتوا ، ووافق أوريليانوس على ذلك بعد تجنيد عدد من فرسانهم فى الجيش الامبراطورى. وقبل أن يستريح من عناء هذه المعركة وصلت الانباء أن قبائل الجوثونجى (Juthungi) احدى القبائل الالمانية هاجمت ايطاليا من الشمال وحاصرت ميلانو . وعند سهل البو لاقاهم أوريليانوس فى عدد من المعارك الصغيرة كسب بعضها وخسر الآخر منها ولكن فى النهاية نجح فى ردهم الى ما وراء الدانـوب .

عندئذ اضطر أوريليانوس الى العودة الى روما ليقضى على الفتنة التى احدثها بعض أعضاء السناتو والمشرفون على دار سك النقود . وكان هؤلاء قد اعلنوا احتجاجهم على ما اصابهم من خسارة شخصية بسبب قرار أوريليانوس بوقف سك النقود ذات القيمة الفضية المخفضة ، وكان هؤلاء المسؤلون قد اثروا من وراء تزوير العملة ، وازاء ذلك اضطر أوريليانوس الى اغلاق دار سك النقود كخطوة أولى نحو اصلاح نظام النقد من أساسه .

وفى روما لاحظ أوريليانوس أن تحصينات روما القديمة منذ حروب هانيبال قد اهملت ، وامتدت المدينة الى ما وراء هذه التحصينات ، ولذا أمر فى عام ٢٧١ م ببناء سور ضخم حول المدينة طوله أثنى عشرة ميلا وارتفاعه عشرون قدما وسمكه أثنى عشرة قدما ويتخلله ثمانية عشرة بوابة [illegible] ج والتحصين تدافع عنه ضد أعداء روما فى المستقبل.

ونظرا لضخامة هـذا المشروع فلم ينتهى العمـل فيـه الا بعد وفـاة أوريليانوس .

الانسحاب من داكيا :

وبنظرة ذكية لاحظ أوريليانوس انه لافائدة من الاحتفاظ بـولاية داكيا لضعف تحصيناتهـا ، ولبهاظـة الحشود العسكريـة على حدودها مما يفوق طاقة الامبراطورية ، فقرر الانسحاب من داكيا ، وهجر سكـانها الرومان واوطنهم فى ولايات بانونيا وميسيا وثراكيا التى اصبحت شبـه مهجورة بعد هجمات القوط ، وبذلك وفر شطرا كبيرا من قواته ليستخدمها فى جبهات اخرى ، فضلا على أن تقصير الخط الدفاعى للامبراطورية خلق خطا جديدا اقصر ولكن اقوى .

الحرب ضد زنوبيا ملكة تدمر : ٢٧٢ م

وبعد أن أمن ايطاليا من خطر الوندال والجوثونجى ، وبعد ان امن ولايات الغرب ، بدأ أوريليانوس مشروعه الخاص باعادة غزو الشرق الأوسط واعادته الى حوزة الامبراطورية . ولم يكن العدو فى هذه المرة الفرس بل الملكة سبتيميا زنوبيا ، تلك الملكة الفاتنة الذكية والطموحة وسيـدة دويلة بالمورا ، وكانت زنوبيا لا تقل عن الملكة البطلمية كليوباترا ذكاء وارادة وطموحا . بل كانت تفوقها جمالا وجاذبية . واكثر من هذا ادعت انهـا من سلالتها . ولهذا نظرت الى مدينة الاسكندرية على انها المدينة الأم (Metropolis) . وقد احاطت هذه الملكة نفسها ببلاط من الابهة وفخفخة الشرق وبوهيميته ، كما بسطت رعايتها على الفنانين والادباء والباحثين واتخذت من الاديب الشهير لونجينوس مستشـارا خاصا لها ، واغلب الظن انه نفس الاديب الشهير صاحب المؤلف البلاغى الخالد « عن الرقاء (البلاغى) «on the Sublime» . وان كان بعض العلماء يرجعون هذه المختارات البلاغية الى احد كتاب عصر المسيحية المغمورين .

انتهزت زنوبيا فرصة انشغال أوريليانوس فى حماية ايطاليا والدانوب من خطر الدانوب فانفصلت بدويلتها الصحراوية عن الامبراطورية الرومانية؛ وبدات فى خلق نواة لامبراطورية شرقية تملأ الفراغ الرومانى فى الشرق الأوسط ، وبدات توسعها غربا حيث استغلت فرصة نداء وجهه اليها احد المعجبين بها فى الاسكندرية واسمه تيماجينيس Timagenes ، فسارعت بارسال وزيرها القوى زابداس Zabdas ، واحتلت مصر الوسطى ، وكانت قواتها فى طريقها لاحتلال مدينة الإسكندرية بعد انتصـارها على قوات

الوالى الرومانى بروبوس عند حصن بابيلون.. وقد اعيد حديثا نشر وثيقة بردية عثر عليها فى البهنسا (اوكسيرينخوس) فى مصر الوسطى ، يعتقد انها الخطاب الذى كان يزمع ابنها وابلاثوس وهب اللات القاءه عند مدخل مدينة الاسكندرية مانحا أهلها الوعود والامتيازات والامانى التى كانت تجيش بها صدور شعب الاسكندرية ، ولكن لم يقدر لهذا الأمير الشاب ان يحتل هذه المدينة . كما توسعت الملكة شرقا حتى شمال بابل ، وشمالا فى آسيا الصغرى .

وازاء تهديد سقوط مصر كلف الامبراطور أوريليانوس بروبوس واليه على مصر للدفاع عنها ، بينما تقدم هو بقواته صوب آسيا الصغرى ودخل سوريا حيث رحب به السكان الاغريق هناك .وقرب انطاكية (Antioch) على نهر العاصى (Orontes) التحم بقوات الجيش التدمرى وفرسانه المسلحين ونبالته الراكبين ذوى المهارة العالية ، فهزمهم وتقدم صوب حمص (Emesa) حيث التحم مع جيش تدمرى آخر تعداده سبعين الف مقاتل ، وحقق أوريليانوس انتصاره الثانى رغم ظروف الصحراء الصعبة والغريبة ، فضلا عن خطر البدو ، وتقدم ليحاصر مدينة بالمورا ذاتها ، والتى كانت تقع على بعد ثمانية عشر ميلا من حمص ، وقاومت المدينة الحصار الرومانى بعناد شديد ، واخيرا حاولت زنوبيا الهرب الى بلاد الفرس ، ولكنها وقعت اسيرة فى ايدى قوات أوريليانوس ، واستسلمت المدينة عام ٢٧٢ ميلادية والقى القبض على وابالاثوس ووجهاء قومه وارسلوا جميعا مع زنوبيا الى روما ، وقد نجحت زنوبيا فى تبرئة نفسها بالقاء اللوم على مستشارها لونجينوس ورفاقه بأنهم هم الذين أوحوا اليها فكرة تحدى الامبراطورية ، فاقتنع الامبراطور بذلك ، وانتحر لونجينوس ، وعامل الملكة وابنها معاملة رقيقة كريمة ، كما حرص على العفو عن شعب المدينة ، وتركهم لشأنهم بعد أن وضع حامية صغيرة فيها ثم غادر سوريا عائدا الى اوروبا .

بينما كان أوريليانوس منهمكا فى معركة شرسة مع قبائل الكابى فى الدانوب فى نفس العام ، جاءت اليه الانباء بأن اهل بالمورا قد ثاروا وذبحوا الحامية الرومانية ، وبسرعة خاطفة عاد أوريليانوس الى سوريا عام ٢٧٣؟ م وبطش بالمتمردين بطشا رهيبا ، اذ لم ينج من غضبه حتى النساء والاطفال ، وامر بنهب كل ثروات المدينة ونقلها الى روما ، وهدم اسوارها وحصونها ، وشتت أهلها ، وحولها من مدينة عظيمة الى قرية صحراوية مهجورة لا تزال أطلالها باقية حتى اليوم ، وفى نفس الوقت قام أنصار الملكة التدمرية بثورة فى مدينة الاسكندرية عام ٢٧٣؟ وقطعوا القمح المصرى

عن روما ، وبسرعة قمع أوريليانوس هذه الثورة بعنف ودمر اجزاء كبيرة مدينة الاسكندرية (١) .

استعادة بلاد الغال ٢٧٣ ـ ٢٧٤ م :

أعاد أوريليانوس بلاد الغال الى الامبراطورية الرومانية بمجهود يسير لانه هاجمها فى الوقت المناسب ، فبعد اغتيال الثائر بوستوموس Postumus تولى عرش الغال ملك اسمه فكتورينوس Victorinus ومن بعده تيتريكوس Tetricus ، وكان هذا الأخير شخصا طيبا ضعيفا ، فشل فى طرد القبائل الالمانية المتسللة ، كما فشل فى السيطرة على قواته الثائرة ، وكان غير راض فى قلبه على انفصال بلاد الغال عن الامبراطورية ، ولهذا استقبل تحريض المتطرفين الغاليين باعلان الحرب على الامبراطورية ببرود شديد ، ويقول البعض انه كان على صلة بأوريليانوس نفسه ، وربما هو الذى دعاه عام ٢٧٣ أو ٢٧٤ الى اعاده غزو بلاد الغال وعبور الالب اليها من ايطاليا ، وعند مدينة « شالون » (Chalons) أرغمته قواته على دخول أول مواجهة مع أوريليانوس ، وسرعان ما هجر هذه القوات واستسلم الى الامبراطور الرومانى ، وتحقق بذلك النصر الكامل للامبراطور أوريليانوس ، وعادت بلاد الغال وبريطانيا الى حوزة الامبراطورية الرومانية ، وتحققت الوحدة والاستعادة الكاملة لروما على ولايتها فى الغرب والشرق .

وعاد اوريليانوس ليحتفل بنصره الكبير ، ولكى يعرض على الناس اثنين من كبار اعداء الامبراطورية هما زنوبيا ملكة تدمر وتيتريكوس امبراطور الغال ، ولكنه عامل أسيراه بكرم وعطف ، اذ عين تيتريكوس مفتشا على منطقة لوكانيا بجنوب ايطاليا Corrector Lucaniae ، بينما منح زنوبيا فيلا جميلة فى منطقة تيفولى (Tivoli) وضمن لها اعاشة راقية حيث تزوجت فى النهاية من احد شيوخ السناتو ، واعترافا بمجهود

---

(١) كانت زنوبيا اول من اعترفت بالامبراطور كونتللوس Quintillus كخليفة للامبراطور الراحل كلاوديوس القوطى كما انها عارضت استيلاء اوريليانوس للعرش وربما كان ذلك سبب الخلاف .

cf, Stark, op. cit., pp. 295-300.

(٢) وقد دمر حى Brucheion اغنى وارقى احياء الاسكندرية خلال سحق هذه الثورة . Milne, op. cit p. 76.

اوريليانوس في اعادة الوحدة الى الامبراطورية فقد منح لقب مستعيد العالم (لروما) .Restitutor Orbis وسك الامبراطور هذا اللقب على العملة التي حملت اسمه وصورته (١) .

الاصلاح الاقتصادى :

وفي عام ٢٤٧ م شمر أوريليانوس عن ساعديه للعمل من أجل اصلاح الاقتصاد المنهار ، وكانت رأس الازمة هو اعادة نظام النقد الى وضعه الطبيعي ، فقد كانت العملة الرومانية قد مرت بسلسلة من الانكماش والتخفيض في القيمة منذ عام ٢٦٧ م لدرجة ان استخدم الدينار الروماني كعملة نقدية كان قد توقف تماما ، واصبح الناس يستخدمون الدينار الروماني القديم والدينار الانطونيني بالوزن أو الوزن الاجمالي (كيس واحد لكل ١٣٢٥ وحده نقدية من فئة الدينارين) . ولكي يوقف تضخم الدينار امر اوريليانوس بتخفيض قيمة الدينار الانطونيني (Antoninianus (Denarius من ثمانية ستركيس (sesterces) الى ستركيس واحد ، حتى يجعل قيمة الدينار يتناسب وارتفاع الاسعار التي بلغت تسعة أضعاف ما كانت على عام ٢٦٧ م ويشك علماء الاقتصاد عما اذا كان هذا الاجراء قد نجح في وقف التضخم النقدى بالفعل .

ولكي يمنع التلاعب في تزييف العملة امر بأغلاق دور سك النقود المحلية والغى دار السك المركزية التي كان يشرف عليها السناتو في روما ، وكان هذا الاجراء ضربة قاصمة للاستقلال الذاتي للمقاطعات الرومانية والى امتيازات واشراف هيئة السناتو التقليدية على المالية العامة .

ولكي يخفف من وطاة الغلاء على الناس امم أوريليانوس المخابز وجعلها تحت الاشراف المباشر للدولة ، حتى يوقف التلاعب في رغيف العيش وجعل الدولة تبيع القمح المسعر لنقابة المطاحن والمخابز العامة . تحت شروط معينة ، وحدد ثمن الرغيف ، وتحت الحاجة الماسة والنقص في كميات القمح الغى نظام توزيع القمح المسعر واحل محله توزيع رغيفين من الخبز يوميا لكل مواطن بالغ ، الى جانب كميات أخرى من التموين مثل الزيت والملح واللحم والنبيذ .

---

(١) E.W. Merten : zwei Herrscherfeste in der Historia Augusta . Untersuchungen zu den pompae der Kaiser Gallienus und Aurelianus, Antiquitas, Reihe 1 Band 5, Bonn. R. Habelt, 1968.

كما سار أوريليانوس على نهج الكسندر سيفيروس وجعل [illegible] نقابات المهنيين والعمال التى لها علاقة بنقل او تخزين او صناعة او [illegible] الطعام والمواد التموينية الأخرى ـ تحت الاشراف المباشر للدولة . وبذلك حونها من نقابات ذات تاثير على حياة الناس الى وكالات حكومية للخدمات العامة ، ويجب أن نضع فى الحسبان ان الاتجاه نحو السيطرة البيروقراطية للدولة على مصـادر الحياة الانتاجية والاقتصادية فيها ليس ضربا من ضروب الاشتراكية لان المفهوم لكلمة اشتراكي لم يكن معروفا فى العصور القديمة ، بل ان الكلمة ذاتهـا ونظامهـا من خلق العصر الحديث ، ولان الاقتصاد القديم لن يكن لاراسماليا ولا اشتراكيا بالمفهوم الحديث ولان لكل عصر اسلوبه الاقتصادى والسياسى الخاص به .

اوريليانوس وعبادة رب الشمس الواحد الذى لا يقهر :

وكما اقتنع اغسطس بأن ابولون هو الذى حارب بجواره فى اكتيوم اقتنع اوريليانوس بأن رب الشمس الذى لا يقهر Sol Invictus هو الذى نصره على تدمر . ولهذا بنى له معبدا كبيرا واوحى الى الناس انه الرب الحامى للامبراطورية . وكان رب الشمس هو رب سورى . وبالتحديد رب مدينة حمص Emesa القديمة ، وهو ايلاجابالوس Elagabalus ، ومن الواضح أن أوريليانوس لم ينقل العبادة السورية فى شكلها الكهنوتى الآرامى نصا وروحا كما فعل الامبراطور (١) المعروف باسم ايلاجابالوس ، بل قدمها فى شـكل رومانى وجعـل لهـا هيئة من الكهنـة السيناتوريين للاشراف على عبادة الرب الجديد للامبراطورية الرومانية ، وصـورة على انه الرب الاسمى الذى يمكن ان يتحد مع اى رب آخر ويدخـل فى عبادة واحـدة .

ان اهتمام الامبراطور بعبادة الرب الاوحـد قرص الشمس الذى لا يقهر يعكس الاتجاه نحو السلطة المطلقة والمؤلهة للامبراطور الذى سك عملته تحمل لفظ « المولود سيدا وربا » Dominus et Deus natus ، وهى عبادة يرجع جذورها الى مصر منذ ايام الفرعون اخناتون ، بل ان بطليموس الخامس حاول تطبيق عبادة واحدة على الناس متاثرا بفكرة الفراعنة ، ثم هجرت عبادة آتون قرص الشمس فى مصر ، ولكنها انتقلت الى الشرق الاوسط القديم ، ومنها طور العبرانيون صورة يهوة ، وطور السوريون القدماء والفينيقيون صورة رب الشمس الذى لا يقهر Sol Invictus ،

---

(1) Theodore Optendrenk : Die Religionpolitik des Kaisers Elgabal in Spiegel der Historia Augusta, diss. Bonn 1968.

وظل هناك حتى تلقفته الامبراطورية الرومانية فى اتجاهها الجديد نحو تركيز السلطة المطلقة والسلطة الدينية فى شخص الامبراطور ، ولكى تساير الاتجاه العام نحو وحدانية الارباب المختلفة . وكذلك نحو اتجاه العصر نحو العالمية Cosmopolitanism ، ولقد ادى نجاح هذه العبادة الى اندثار الآلهة القومية الرومانية القديمة . واكتساح عبادات الشرق وشعائره للولايات الغربية وخاصة ايطاليا ، وبداية قبول الوحدانية monotheism بدلا من تعدد الارباب والرباب (Polytheism) اذا ان الاتجاه نحو الوحدانية الربانية ظهر مع ظهور الاتجاه نحو السلطة المطلقة للاباطرة المتأخرين بصورة تذكرنا بسلطة فراعنة مصر القدامى . اول من وضعوا بذور التوحيد فى شكل قرص الشمس الذى يسطع على الكون باسرة ولا يدانيه فى القوة احد ، وهو فى نفس الوقت الواحد الذى لا مثيل له (Solus et non Similis est).

اغتيال اوريليانوس ونهايته :

وبالرغم من هذه الاعمال العظيمة التى قام بها أوريليانوس الا انه لم ينج من المصير المحتوم الذى آل اليه جميع اباطرة القرن الثالث الميلادى ، اذ اغتيل على يد كبار الضباط بعد ان ضللهم احد المقربين اليه بأن الامبراطور ينوى اعدامهم ، وسارع كبار الضباط بالاجهاد على الامبراطور قبل أن يتخلص منهم وذلك فى مدينة كاينوفروريوم (Caenophrurium) بين بيزنطة وبيرنثوس وذلك فى خريف عام ٢٧٥ م ، ولما علم هؤلاء الضباط بالحقيقة سادهم الالم والحزن وحاولوا التكفير عن جريمتهم ولكن الوقت كان متأخرا .

الامبراطورتاكيتوس (٢٧٥ — ٢٧٦) :

وتكفيرا عن ذنبهم واسفهم ترك قادة الجيش للسناتو حرية اختيار الامبراطور الجديد ، وبعد تردد ومراوغة اختار السناتو رئيسه الكهل ماركوس كلاوديوس تاكيتوس Marcus Claudius Tacitus ، وكان فى منتصف الحلقة الثامنة من عمره ، ولم يكن هذا الشيخ الكهل مستعدا لقيادة الجيوش ، فقضى فترة حكمه التى لم تتجاوز ستة اشهر مركزا على عوده مجد السناتو القديم الذى اشرق وضاء من جديد ، ولكن سرعان ما حدث العكس وانتهت فترة مجد السناتو كشهاب ضاء وهنا وخمد عندما سقط تاكيتوس صريعا نتيجة لمؤامرة قام بها بعض الضباط للاطاحة به .

الامبراطور بروبوس Probus (٢٧٦ - ٢٧٢ م) :

وبعد اغتيال اخيه تاكيتوس اعلن فلوريانوس Florianus نفسه امبراطور واستولى على العرش وعلى الامبريوم دون أن يأخذ لا راى القوات ولا رأي السناتو .

ولكن قوات الشرق الاوسط سارعت واختارت قائدا معروفا فى مصر وسوريا وهو ماركوس اوريليوس بروبوس Marcus Aurelius Probus وكان بروبوس جنديا قديرا من اصل الليرى مثل اوريليانوس ، بل كان يفوقه ذكاء وثقافة ورغبة فى اصلاح لامبراطورية واكمال المشوار الذى بداه اوريليانوس وهو جمع شتات الولايات وتوحيدها فى حوزة الامبراطورية ، وحماية السلام باعادة النظام والامن الى جميع الولايات ، وما أن شاع خبر اختيار قوات مصر وسوريا لهذا القائد حتى تمردت قوات فلوريانوس وفتكت بسيدها قبل ان تمر ثلاثة شهور على حكمه ، وبدأ بروبوس فى تنفيد مخطط الاصلاحى الكبير من اجل السلام والوحدة بعد أن تخلص من منافسه فلوريانوس .

بدا بروبوس بتحرير بلاد الغال من عدوان الفرنجة والالمان الذين استغلوا مقتل اوريليانوس فهاجموا الولاية باعداد غفيره واستولوا على سبعين مدينة وخربوا مساحات شاسعة من الحقول الخضراء ، ولم يمض عام على توليه حتى سار بروبوس ليسحق هؤلاء المغيرين ويقضى عليهم بالآلاف ، ويطرد الباقين الى ما وراء الراين شمالا .

ثم اقام سلسلة من الحصون على ضفاف الراين الشرقية فى مواجهة المدن الرومانية الواقعة على الضفة الغربية لهذا النهر ، كما انه نجح فى تجنيد ستعشرة الفا من الجرمان للخدمة فى جيش الامبراطورية ومنذ ذلك التاريخ بقيت بلاد الغال ولاية مسالمة هادئة فيما عدا حركتا تمرد سحقها بروبوس بقسوة منقطعة النظير .

وفى عام ٢٧٨ ميلادية طهر آسيا الصغرى من قطاع الطرق ، كما طهر بانونيا (النمسا والمجر) من خطر الوندال واوطن على حدود ثراكيا القبائل السكيثية Scythians وقبائل الباستارناى Bastarnae التى طردها القوط من موطنها الاصلى فى جنوب الروسيا ، واقام عددا من مستوطنات الجنود المسرحين فى آسيا الصغرى ، وجعلها مناطق تجنيد يجند منها الشباب للخدمة فى الجيش الرومانى ، كما قام بطرد قبائل البشاربة Blemmyes التى هاجمت مصر من السودان وتوغلت حتى

قنا وبطلمية (المنشاة) شمالا (١) .

وعلى النقيض من اوامر الامبراطور دوميتيانوس بالحد من زراعة الكروم والافساح لزراعة القمح سواء فى ايطاليا او الولايات امر بروبوس بالاهتمام بزراعة الكروم خاصة فى مناطق الدانوب وبلاد الغال وحتى فى بريطانيا . واستغل جنوده فى أوقات السلام للعمل فى تجفيف البرك والمستنقعات وزراعتها بالكروم ، وفى تطهير الترع ، وشق قنوات الرى والصرف ، وبناء الطرق ، مما أثار عليه حنق رجاله الذين ارهقوا من كثرة العمل ومن النظام الحازم . وسرعان ما انتشر خبر بأن القوات فى رايتيا Rhaetia قد ثارت ، وهتفت بقائد الحرس البرايتورى ماركوس أوريليوس كاروس امبراطورا ،و لم تمض أيام حتى ثارت القوات على بروبوس واغتالته وهى لا تدرى أنها اغتالت واحدا من أعظم القادة كفاءة واخلاصا للامبراطورية وفى وقت هى فى اشد الحاجة اليه .

الامبراطور كاروس وولداه كارينوس ونومريانوس (٢٨٢ — ٢٨٥ م) :

كان الامبراطور الجديد كاروس Carus جنديا محترفا من أصل الليرى ، ونظرا لكفاءته وشجاعته فقد ارغمته قواته على قبول منصب الامبراطور رغم انفه ابان حياة سيدة الامبراطور بروبوس ، وقبل كاروس ذلك مضطرا ، ولكنه اصدر عشية تولية قرارا بتعيين ولديه كارينوس Carinus ونومريانوس Numerianus نوابا له بدرجة قيصر ، وعين كارينوس لحكم وحماية ايطاليا وبلاد الغال ، أما نومريانوس فقد اصطحبه معه فى حملة نحو الشرق التى بداها عام ٢٨٣ بعد هزيمة قبائل القادى Quadi ، وقبائل الصرب Sarmatians ، وكان الهدف من حملته نحو الشرق هو سحق الفرس . وبالفعل تمكن من عبور الفرات ، واستولى على سليوكيا Seleucia ، ثم عبر دجلة واستولى على كتيسيفيون (طيسفون) ، ولكن نجاح هذه الحملة توقف لموت الامبراطور الغامض والمفاجىء ، وقد أشيع أن صاعقة هبطت عليه فقتلته ، ولكن من المؤكد ان يكون مقتله قد دبر على يد قائد الحرس البرايتورى آبر Arrius Aper وهو نفس الرجل الذى دبر مقتل ابنه نومريانوس فيما بعد .

وعلى اثر ذلك اجتمع مجلس القادة لاختيار امبراطور جديد متجاهلين اعلان الابن الاكبر كارينوس لنفسه امبراطورا ، لانه كان شريرا . ولم

---

(١) J.G. Milne, op. cit., p. 76.

يختار المجلس آريوس آبر ، بل اختار قائد الحرس الخاص للامبراطور الراحل ، وكان اسمه ديوكليس Diocles المعروف باسم ديوقليديانوس Diocletianus واول عمل قام به ديوقليديانوس كان اعدام قائد الحرس البرايتورى آريوس آبر بنفسه .

لكن كارينوس لم يعترف بدقلديانوس امبراطورا ، وقاد قواته ضد قوات الشرق ، وعند سهل مارجوس (مورافيا) التقى الجيشان ، ودارت معركة رهيبة كاد كارينوس ان ينتصر فيها لولا طعنه خنجر مسموم صنعه احد الترابنة الذين اغتصب كارينوس زوجته ، عندئذ اضطرت قواته الى قبول ديوقليديانوس امبراطورا عام ٢٨٥ م . ولم تدر هذه القوات انها اختارت أعظم الاباطرة جميعا لاكمال العمل الكبير الذى بداه الاباطرة الألليريون العظام .

نظرة شاملة على أوضاع الامبراطورية قبل تولى ديوقلديانوس :

(ا) بداية الصراع بين المسيحية والدولة :

ما أن اقترب منتصف القرن الثالث الميلادى حتى كانت الكنيسة الرومانية قد ازدهرت ، واصبح لها شعب يشمل كل الطبقات وكل الحرف، ووجدت الديانة الجديدة صدى اقوى بين الطبقات الدنيا والوسطى فى المدن الرومانية ، وكانت ديانة شرقية أكثر منها غربية ، كما ان قادة العقيدة الجديدة كانوا من رجالات الفكر والادب ، ونلاحظ ان الكنيسة فى القرن الثالث غيرت سياستها المبكرة الخاصة بمملكة الله المعزولة عن الواقع ، وبدأت تشارك وتلعب دورا فى المجتمع . كما ان اعداد المسيحيين تزايدت لدرجة راحت تقلق بال الدولة ، لان المسيحيين فى نظرهم كانوا خونة وسلبيين ، وخارجين على عبادة الدولة ورافضين لحرق البخور امام تماثيل الامبراطور رمز الامبراطورية ؛ وتشكلت الجماعات المسيحية تحت قيادة الاساقفة ، مكونة كيانا مستقلا داخل الدولة ؛ وبالرغم من ان قادة المسيحية كانوا على استعداد لدعم الامبراطورية معنويا الا انهم حرموا على ابناء عقيدتهم المشاركة فى الخدمات المدنية والعسكرية للامبراطورية ، رغم أن ان هذا الحظر لم يطبق بجدية بين المسيحيين ؛ وازاء هذا الموقف نظرت الدولة الى المسيحيين على انهم أعداء الدولة ؛ وألقوا عليهم مسئولية التدهور والفشل والتى فسروها على أنها غضب من آلهة روما القديمة بسبب اهمال عبادتها (١) والسماح للديانات الجديدة بغزو الامبراطورية .

---

cf. Le Declin du monde antique 284-610 A.D. traduit par A. Sevandoni Duparac (Histoire de l'Europe, t. 1). Paris, Sircy 1970, p. 12 ff.

ثم أول اضطهاد للمسيحيين على يد ماكسيمينوس التراقي ، عندما صب هجومه على القيادة الكهنوتية والقى عليها مسئولية انتشار هـذه العقيدة الجديدة ، ولكنه لم يضطهد اتباعها ، بل حصر اضطهاده فى دائرة معينه سواء في روما أم فى فلسطين . وبعد موته عام ٢٣٨ م اعيدت سياسة تراجان وهى حرية العقيدة للجميع ، وتمتعت الكنيسة بأزهى عصورها ابان حكم فيليب العربى ، ولكن هذا الازدهار لم يكن سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ثم بدا ديقيوس عام ٢٥٠ — ٢٥١ تطبيق سياسة الابادة الجماعية للمسيحيين ، ففى عام ٢٥٠ م اصدر قراره الشهير للناس بتقديم القرابين الوثنية علنا لالهة الدولة وللامبراطور ، والحصول على سك بذلك من الجهات المسئولة ، وجعل الموت عقوبة لمن يرفض ذلك . وكان هذا الاجراء على وشك من هدم وتشتيت سلطة وشعب الكنيسة ، لأنه كان موجها ضد السلك الكهنوتى وضد الاتباع على السواء . وكان الأضطهاد الثالث على يد ڤاليريانوس ٢٥٧ — ٢٥٩ م . الذى سار على نفس طريق ديقيوس حيث أصدر حظرا على تجمعات المسيحيين واغلق مقابرهم وفرض عليهم تقديم الشعائر الوثنية ، وفى العام التالى لحكمه اصدر قرارا بمحاكمة الاساقفة والكهنة والشمامسة وجعل عقوبة معينه لكل واحد حسب موقعه الكهنوتى اذا ما أصر على التمسك بالعقيدة الجديدة . ولكن اضطهاد ڤاليريانوس كان محدودا وانتهى بمأساة هزيمته وأسره على يد الفرس عام ٢٥٩ م وبالرغم من أن المسيحية فقدت بعضا من عبادها سواء بالعودة الى الوثنية خوفا من الموت ، او بالموت بسبب الثبات على العقيدة ، الاأنها نهضت من هذا الاضطهاد اقوى مركزا وتأثيرا وعلى حد القول « كان دماء الشهداء هو بذور العقيدة » .

وعندما تولى جالليينوس الحكم ألغى كل ما فعله ڤاليريانوس وسمح للمسيحيين بالعودة الى اقامة الشعائر ودفن الموتى وأوقف عمليات الاضطهاد وتمتعت الكنيسة بالهدوء والسلام طوال الفترة من جالليينوس حتى ديوقلديانوس .

(ب) توقف المؤسسات واجهزة الحكم التى وضع أساسها اغسطس :

مات النظام الذى وضعه أغسطس لحكم الامبراطورية وذلك فى الفترة ما بين ٢٣٥ — ٢٨٥ وكان آخر مسمار دق فى نعش هذا النظام هو الغاء

سلطة السناتو كعامل مؤثر فى رسم سياسة البلاد ، وكهيئة تمنح الامبراطور السلطات التى يحكم بها ، وحرمان اعضاء السناتو من الوظائف العسكرية والى حد كبير من الوظائف الادارية الخاصة لحكم الولايات ، وكان هذا فى الحقيقة اتجاها تدريجيا نتج عن المواجهة الحتمية بين الأباطرة والسناتو ، وبالرغم من هذا فقد لعب السناتو ادوارا نشطة فى بعض الاحيان ، مثل اعترافه بجورديانوس الاول وابنه جورديانوس الثانى اباطرة بالرغم من وجود الامبراطور ماكسيمينوس حيا ، ولما قتلا أعلن السناتو أنهما مؤلهان (Divi) وعين مكانهما آخرين هما بالبينوس وبوبينوس ، ولكنه فشل فى حمايتهما من غدر ضباط الحرس البرايتورى الذين ارغموا السناتو على الاعتراف بجورديانوس الثالث الذى كان لا يزال طفلا (٢٣٨ م) .

وبعد موت أوريليانوس طلب الجنود من السناتو اختيار الامبراطور الجديد ولكن السناتو تباطىء لولا اصرار الجنود على ذلك فاضطر السناتو الى ترشيح تاكيتوس اكبر اعضائه سنا امبراطورا . وفى الحقيقة لم يكن للسناتو اى قوة للمطالبة برد الاعتبار اليه ووقف تعدى الامبراطور على سلطاته الا باعلان السخط مثلما فعل مع جاللينوس وأوريليانوس .

وبالرغم من ان تاكيتوس عمل على رد الاعتبار للسناتو الا أن ذلك لم يدم طويلا على يد الاباطرة الآخرين .

ولكن من الجدير بالذكر أنه حتى عصر كاروس كان الاباطرة يعترفون بحق السناتو فى الانعام عليهم بالسلطات اللازمة للحكم مثل الامبريوم والتربيونية وغيرها من ألقاب الشرف بصرف النظر عما اذا كان السناتو يفعل ذلك مختارا او مطاعا ، أما كاروس فقد اعلن حقه فى الامبريوم بمقتضى اعلان الجيش له امبراطورا ، واخبر السناتو بهذا القرار من باب العلم بالشىء فقط .

وعندما جاء ديوقليديانوس حذى حذو كاروس ، وبالتالى أصبح منح الامبريوم من اختصاص الجيش وسحب هذا الحق من السناتو ، وقد صاحب ظاهرة عجز السناتو عن منح الاباطرة السلطات الخاصة بالحكم ظاهرة أخرى وهى تضخم شخصية الاباطرة حتى اصبحوا آلهة ، ويحملون لقب الله Deus رسميا سواء على النقود أو النقوش ، وكان أوريليانوس أول من طبق هذا الاتجاه . حيث اعلن أنه « رفيق هرقل » ، بل وارتدى الاكليل المقدس رمز السلطة الالهية فى العالم القديم . ثم حذى خلفاؤه

حذوه . وأصبح الامبراطور يحكم معتمدا على موظفيه البيروقراطيين وجنوده الاجانب وجواسيسه الفاسدين والمرتشين .

(جـ) ازدهار طبقة الفرسان :

كان هدف جاللينوس من حرمان اعضاء السناتو من الوظائف العسكرية والى حد كبير من حكم الولايات هو اتاحة الفرصة لعناصر اكثر كفاءة وقدرة من رجال طبقة الفرسان . فمنذ عصر هادريانوس وخلال عصر آل سيفيروس كان على رجال السناتو والفرسان أن يختاروا بين العمل فى المجال العسكرى أو المدنى ، ولكن ابان أزمة عام ٢٥٠ م أعطى الاولو... لشغل المناصب العسكرية لمن كان مجالهم الاصلى عسكريا وبالتالى فضل جاللينوس الفرسان لأنهم جميعا جاءوا من تحت السلاح . وكانت هذه الفكرة موجودة حتى منذ عصر اغسطس لأنه نفسه اختار "...ادة الفرق الرومانية فارسا وليس عضوا من السناتو وكان هذا وضعا جديدا (١) . وقلده سبتيميوس سيفيروس القيادة بالنسبة للفرق الجديدة الثلاث التى اوجدها. وفى عصر جاللينوس أصبح جميع قادة الفرق من الفرسان. كما احل جاللينوس رجال الفرسان محل مندوبيه من رجال السناتو legati لحكم الولايات السيناتورية . ومنح هؤلاء الحكام الجدد لفظا جديدا هو الرؤساء (praesides) معتمدا على سابقة تسمح بأن يحل الفرسان مؤقتا محل أعضاء السناتو لحكم الولايات السيناتورية .

وحذى خلفاء جاللينوس حذوه بالرغم من بقاء عدد ضئيل من أعضاء السناتو ممن بقوا يحكمون الولايات عند مجىء ديوقلديانوس الى الحكم . كما صاحب ذلك تعيين امناء Curators للاشراف الادارى على مقاطعات ايطاليا كبداية لتقسيمها الى مناطق ادارية . كما صاحب ذلك أيضا ازدياد سلطات قائد الحرس البرايتورى الى درجة وضع اللوائح والقوانين التى تتعلق بالعسكرية والجيش والضرائب الخاصة بها (annona) ولدرجة أن منصب قائد الحرس البرايتورى (praefectus praetorio) أصبح بمثابة الرجل التالى للامبراطور والخطوة قبل الاخيرة لاعتلاء العرش . وقد شغل الفرسان هذه الوظيفة دائما بالتالى كان معظم الاباطرة من رجال هذه الطبقة .

---

(١) ويتمثل ذلك فى واليه على مصر الذى كان عادة من طبقة الفرسان وكان يقود الفرق الرومانية الثلاث المعسكرة فى مصر .

تطوير الجيش الرومانى :

فشـل نظام الاستحكامات الدفاعية الثابتة الذى طبق ابان القرن الثانى ولهذا لجأت الاباطرة الجدد الى ابتداع النظام الدفاعى المتحرك الذى كان متبعا فى عصر الامبراطورية المبكر . وبذلك أوجدت قوات متحركة Vexiliatones (١) وضعت على أهبة الاستعداد والتحرك قرب المناطق الاستراتيجية . كما تحولت قوات الحدود الى ميليشيا limitanei واقيم خط دفاعى ثان لصد العدو اذا ما نجح فى اختراق الخط الدفاعى الاول .

كما شمل هذا التطور التسليح والتدريب . فمثلا ابطل نظام بناء المعسكرات المحصنة عند كل تحرك ، واستخدم الجلد السميك بدلا من الحديد بالنسبة لدرع الصدر ، واستخدم درع خفيف لليد ؛ واهملت الاسلحة القديمة الثقيلة مقابل حراب قصيرة وسيوف مثل التى كانت تستخدمها قوات الحلفاء (auxiliarii) .

ومن التطور الذى شمل الجيش اختفاء العنصر الرومانى الخالص او المتشبع بالروح الرومانية . واحلال محله عناصر من الولايات على قدر ضئيل من الثقافة والتعليم الرومانى ، وبذلك هبط مستوى الجيش سواء من ناحية النظام او الحفاظ على التقاليد العسكرية ، او من ناحية التدريب او المهارة القتالية ، او من ناحية الولاء القومى نظرا لتزايد المرتزقة الاجانب . وفرض على الناس ضرائب جديدة مثل ضريبة التجنيد aurum tirocinium لمساعدة الاباطرة على دفع رواتب هؤلاء الجنود .

ظلت الفرقة الرومانية هى وحدة القتال ولكنه منذ عصر جاللينوس بدأ الاتجاه نحو تفضيل الفرسان كقوة قادرة على العمل وبدون معاونة الفرقة ، وكان نواة « فرق المفرسان » الفرسان المور والفرسان الذين كانوا يعملون مع الفرق وبدأ تجنيد فرسان جدد من دلماتيا ، وقلدوا الجيوش الأجنبية مثل نبالة بالمورا وفرسان الفرس ، واصبحت ميلانو هى قاعدة قوة الفرسان ، واهتم أوريليانوس بالفرسان المسلحة (Cataphractarii) وزاد من عددهم لدرجة انهم اصبحوا على قدم وساق مع قوات الحرس البرايتورى ، واصبح قائدها منافسا لقائد الحرس البرايتورى أن لم يكن قد تخطاه ، ويكفى أن نشير الى أن كلا من كلاوديوس القوطى وأوريليانوس صعدا الى العرش من موقع قائد الفرسان المسلحة .

---

(١) cf. Saxer, op. cit.,

وهناك عامل خطير طرأ على الجيش الرومانى فى القرن الثالث وهو الاكثار من تجنيد الجرمان ليس فى القوات النظامية legiones أو فى القوات المساعدة والمتحالفة (Foederati) بل فى الوحدات النظامية للقوات المساعدة numeri ونحن نعرف أن أورليانوس جند وحدات كبيرة من الوندال والقوط والالمان . وفى ذلك الوقت أصبح لفظ دوكس (الدوق Dux) لقبا عسكريا يحمله كبار قادة الفرق والاسلحة والفرسان فى النظام العسكرى الجديد خاصة فى المناطق العسكرية الجديدة فى الولايات وعلى الحدود وخلاصة القول اصبح الاباطرة سجناء لقواتهم وأصبح هناك فجوة بين المواطنين المدنيين وقواتهم المسلحة ليس فى الامانى القومية بل فى العنصر واللغة والتقاليد والاهداف والوضع الاجتماعى والقومى .

التدهور الاقتصادى :

كان من الطبيعى أن يؤدى خطر الغزو الاجنبى والصراع الداخلى على السلطة الى انكماش المدن بعد تدهور الزراعة والتجارة والصناعة ، فضلا عن الدمار ، والنهب وقطع طرق المواصلات ، التى يحدثها المهاجمون والغزاة .كما ظهر لاول مرة النقص الشديد فى الايدى العاملة سواء فى الزراعة ، أم فى الجيش بسبب الحروب والثورات الداخلية ، وبسبب تفشى الاوبئة التى اندلعت فى فترات مختلفة ، ولكن النقص الاكبر كان فى عدد العاملين بالزراعة التى هى المصدر الاساسى لضرائب الامبراطورية ودخولها ، لأن ما كان يتبقى لهم بعد دفع ايجار الارض وضرائب الدولة لا يشجع على الاطلاق على استمرارهم فى مهنة الزراعة ، كما أن الدولة لم تدرك اهمية الفلاحين كمصدر أساسى للدخل العام ، وان من الضرائب التى كانت تثقل كواهلهم كانت تعيش فئات عاطلة غير منتجة من أمثال الجنود وغوغاء العاصمة وكبار الموظفين البيروقراطيين ، واصحاب الضياع التى يؤجرونها بأسعار باهظة للمزارعين أو يستخدمون العمال الأجراء للعمل فيها حيث ارتبط هؤلاء الأجراء بالارض ارتباط الرقيق بأسيادهم .

وهذا هو نواة نظام الاقطاع الذى ساد فى القرن الرابع الميلادى وقد انعكس التدهور الاقتصادى فى فوضى نظام النقد الفضى . ففى أيام الامبراطور جاللينوس لم يعد الدينار الانطونينى يحتوى الا على ٢٪ من نسبة الفضة والباقى كان برونزا . وأصبحت الدولة تسك الآلاف من العملات ذات القيمة الفضية المخفضة لتحل محل العملات القديمة بنفس النسبة الشرائية ومن ثم فقدت أهميتها فى التعامل التجارى مما أدى الى ارتفاع الاسعار ارتفاعا باهظا ، ففى مصر مثلا حيث تساعدنا المصادر

الوثائقية على معرفة الدقائق من الأمور — ارتفعت الأسعار ما بين أربعة عشر وعشرين مرة عما كانت عليه فى أول عصر الامبراطورية وبالتالى ارتفعت معها رواتب الجند . والسبب هو النقص فى معدن الفضة وتدهور التجارة الدولية وزيادة النفقات الحربية وكلما انخفض دخل الامبراطور من الضرائب بسبب افلاس الناس وهجرتهم للاراضى كلما ازدادت الحكومة اصرارا على تعويض هذا النقص بالاصرار على جمع الضرائب العينية وفرض ضرائب جديدة ومجحفة ، كما استخدمت القوة فى السيطرة على الولايات مما ساعد على تغلغل البيروقراطية والقهر العسكرى ، وهو شىء لم يكن معروفا فى بداية عصر الامبراطورية ، ولكن أصبح شيئا عاما ابان القرنين الثانى والثالث ، كما فرضت الدولة وصايتها على نقابات أصحاب الحرف وجمعيات التجار وحولتها الى أجهزة لها ، بينما فرضت الخدمات المدنية بالامر على ابناء الطبقة المتوسطة فى الاقاليم والولايات ، مما ادى الى تحويلها الى طبقة معدمة ، ولم تدرك الدولة مدى عواقب افلاس الطبقة المتوسطة ولكنها لم تكن تعرف ماذا تفعل للخروج من الورطة الاقتصادية والانهيار العام . صحيح ان أوريليانوس حاول اعادة نظام النقد الى حالة شبه طبيعية ، وكذلك حاول الامبراطور بروبوس اعادة تمليك الاراضى المهجورة الى ملاك جدد كما تكشف حفائر جامعة القاهرة فى كوم أوشيم ولكن وجدت الدولة نفسها تفرض تسلطها على أصحاب الملكيات الصغيرة وعلى نشاط المواطنين الاقتصادى مما ادى الى شلل فى النشاط التجارى والمهنى الحر ولجأ بعضهم الى صفوف الهاربين من الظلم من الموظفين والفلاحين والعمال وقطاع الطرق (١) . كما أن المصادرات المستمرة لاموال الاغنياء من أجل الانفاق على المشروعات العسكرية اضعف رؤوس الاموال العاملة وقضى عليها كما قضى على طبقة الأعيان فى الريف وحولها الى طبقة معدمة .

اضمحلال الثقافة والفنون :

وقد انعكس الفقر الاقتصادى الذى ساد فى الفترة ما بين ٢٣٥ حتى ٢٨٥ ميلادية على الثقافة والفنون . ولم يجد لا الفن ولا الادب أحد يشجعه ، ولذا لم يظهر فى هذه الفترة اى مواهب ادبية أو فنية الا القليل

---

(١) وفى مصر سمحت التقاليد للفلاحين المصريين بالالتجاء الى المعابد هربا من ديون الدولة وظلم الحياة anachoresis . ولكن فى القرن الثالث حرم هذا الالتجاء ولم يجد الفلاحون الذين ضاقت بهم الحياة سوى الالتجاء الى التلال والمستنقعات والادغال يعيشون على قطع الطرق ونهب الناس وخلق مشكلة جديدة وهى حماية الطرق ومحاربة قطاعها وهذا كلف الدولة نفقات باهظة فضلا عن فشل هذا النظام نظرا لفساد العسكر المكلفين بذلك .

النادر . وجدير بالذكر أن اللغة الاغريقية الركيكية (Koine) غطت على اللغة اللاتينية ، كما أن الكتاب الذين استخدموا اللغة الاغريقية فاقوا أولئك الذين كتبو باللاتينية عددا وجودة ، حتى فى الموضوعات التى تخص الرومان ، ومن بين مشاهير كتاب هذه الفترة المؤرخ هيروديانوس الذى سبق الاشارة اليه والمؤرخ ديكسيبوس Dexippus الآثينى مؤلف الكتاب المعروف «هزيمة الغزاة القوط» الذين نهبوا أثينا عام ٢٦٧ كما ألف ديكسبوس كتابا آخرا عن التاريخ العالمى ولكنه فقد ، ومؤلفا آخر من تاريخ أهل سكيثيا لم يصل الينا سوى فقرات وشذرات منه .

ومن اعلام فلاسفة هذه الحقبة الفيلسوف المصرى افلوطين الذى ولد فى أسيوط Lycopolis وعاش فى عصر جاللينوس حيث راح يعلم الناس الفلسفة فى روما ما بين ٢٥٣ و ٢٧٠ ميلادية .

وقد تحولت الفلسفة الاغريقية على يديه الى فلسفة دينية بعد أن مزجها بمعتقدات الشرق الروحانية ، ولم تعد فلسفة ميتا فيزيقية مجردة ، بل تقوم على العقيدة والالهام وليس على المنطق الرياضى . وفى هذا العصر ايضا لمع نجم اغريقى سورى اسمه كاسيوس لونجينوس Longinus وكان مثل افلوطين من نتاج مدرسة الاسكندرية ، ولكنه تخصص فى مجال البلاغة والفلسفة والنقد الادبى ، وقد دعته زنوبيا الى بالمورا حيث أصبح من اقرب المستشارين اليها . ولكن الملكة ضحت به عندما غزى أورليانوس بالمورا عام ٢٧٢ والقت عليه اللوم فأخذ حياته بيده .

كما قدمت الكنيسة عددا من الادباء خاصة أن عددا كبيرا من الاساقفة كانوا ادباء ، أو رجال فكر ، وخطباء ، أو فلاسفة أخلاقيين ، وفقهاء فى علم اللاهوت المسيحى ، ويجيء على رأسهم القديس قبريان St. Cyprian (القديس القبرصى) اسقف قرطاجة الذى لاقى حتفه كشهيد ابان حركة اضطهاد المسيحيين على يد قاليريانوس عام ٢٥٨م (١) ، كما قدمت الوثنية اعمالا مشهورة مثل يامبليخوس (Iamblichus) الذى جمع مجموعات من السحر والخرافات وآلهة الشرق بهدف منافسة المسيحية . ومن أعظم اعمال ذلك العصر المؤلف الادبى الطريف « الحارس الساهر على ڤينوس » Per Vigilium Veneris الذى يعتبره الادباء أصل الذوق فى الحضارة الاوربية الحديثة لما سجله من جمال وذوق عال فضلا عن روح اليأس التى خيمت على المعمورة آنذاك .

(1) cf. J. Fontaine : La Littérature Latine chretienne, Paris, Presses Universitaires de France, 1970.

. كان الفن المعمارى أكثر الفنون تأثرا بحالة الفقر والامـلاق ابان القرن الثالث ، وبخلاف المبانى الضخمة التى كان الأباطرة يقيمونها فى روما والأقاليم كمرافق عامة ، مثل المسارح واقواس النصر والمعابد والحمـامات العامـة لا يوجد هناك مبان تذكر بنـاها الأفراد .. وكان الأسـلوب المعمـارى فى المرافق العامة تقليدى الا من بعض المحاولات التجديدية مثل التغلب على مشكلة اقامة قبة فوق مبنى دائرى . كما كان هناك محـاولات تجـديدية فى النحت خاصـة فى مجـال التماثيـل النصفيـة والنحت فوق التوابيت الحجرية Sarcophogi وهو العودة الى الكلاسيكية القديمة الهادئة خـلال عصر اليقظة ابان حكم جاالينوس ، ولكن سرعان ما تطور اتجاه فنى جـديد قادم من الشرق الأوسط وهو اكثر ميلا الى التجريد منه الى القواعد المقننة فى الفن « لاغريقوروماني » .

وكان الفن المعمارى اكثر الفنون تأثرا بحالة الفقر والامـلاق ابان القرن هناك اهتمام بالمقـابر الخفيـة Catac حيث كان المسيحيون يدفنون موتاهم سرا . وهى عبارة عن سراديب معقدة الوحدات يوجـد بها تجارب لدفن الموتى عبر ممرات تؤدى أحيانا الى مقصورات جنائزية للشخصيات البـارزة أو للاسرة الجماعيـة . كما كانت المدافن مزينـة بالرسومات وبلوحات الجص ويتخللها بعض النقوش الانجيلية . وان دل هذا الفن فانما يدل على وجود فنانين محترفين فى ذلك العصر وفنانين قديرين . أما موضوعات الفن فلم تعد الاساطير الكلاسيكية بل موضوعات من التوراة ورموز المسيحية المبكرة (١) .

F. Tolotti : II cimitro di priscilla, studio di Topogratia architettura, pontif. istituto di Archaeologia Cristiana, p. 12 ff.

الفصل التاسع

ديوقلديانوس واصلاحاته الجذرية

المصـــادر :

بالرغم من أن مصادرنا عن القرن الرابع الميلادى تفوق مصادرنا عن القرن الثالث الا أن هذه المصادر لا تزال مهملة وفى حاجـة الى الفحص والتحليل .

ويجىء على رأس هذه المصادر مؤلف زوسيموس Zosimus (١) المؤرخ الاغريقى الذى الف موسوعة جديدة لتاريخ روما فى ستة أجزاء تغطى الفترة ما بين ٢٧٠ ميلادية حتى ٤١٠ م . ومن المعتقد أن زوسيموس انتهى من مؤلفه هذا حوالى ٦٠٠ ميلادية . وهذا المؤلف يكاد أن يكون استمرارا واستكمالا لمؤلف آخر هو موسوعة التاريخ الرومانى التى كتبها باللاتينية المؤرخ الرومانى اميانوس ماركيللينوس Ammianus Marcellinus (٢) فى القرن الرابع .

وقد سار اميانوس على نهج المؤرخ الكبير تاكيتوس بل وقلده لكى ينجز تاريخا دقيقا للفترة من حكم الامبراطور نرفا حتى حكم الامبراطور ڤالينس (٣٧٨ م) فى واحد وثلاثين كتابا لم يتبق للأسف منهـا سوى الثمـانية عشر كتابا الاخيرة والتى تغطى الفترة ما بين ٣٥٢ الى ٣٧٨ م .

---

(١) A. Cameron, «The date of Zosimus New History, Philologus CXIII, 1969, p. 106-110.

(٢) عن اميانوس ماركيللوس كمصدر تاريخى أنظر الدراسات التالية :

P.M. Camus : Ammien Marcellin. temoin des courants cultures et religieux à la fin du quatrieme siecle, Paris, les belles 1967 ; Ronald Syme : Ammianus and the Historia Augusta. Oxford, The Clarendon Press 1968 ; A. Demandt : Zeitkritik und Geschichtbild in work Ammianus, Bonn, R. Habelt 1965.

وعن زيارته لمصر أنظر البحث التالى :

وهيب كامل : أميانوس ماركيللوس فى مصر – مصر فى القرن الرابع – مكتبة الانجلو المصرية – ١٩٦٦ . ويلاحظ أنه بالرغم من نشأته فى مدينه انطاكية الاغريقية الا أنه كتب باللغة اللاتينية مثل كلاوديانوس .

ولما كان ديوقلديانوس هو حجر الزاوية فى تاريخ الامبراطورية فى القرن الرابع الميلادى فان المصادر عنه بالذات تعتبر اساسية ، وسيجدها الباحث فى الجزء الاخير من تاريخ الاباطرة Historia Augusta (١) فضلا عن عدد من الموجزات التاريخية Brevaria عن حياته ، وهذه الاخيرة هى مجموعة من الابحاث المتنوعة عنه مكتوبة باللاتينية والاجزاء الاخيرة منها ذات اهمية خاصة لأن مؤلفيها عاصروا حياة هذا الامبراطور ورصدوا ظواهر عصره . فهم اقرب الى آراء شهود العيان .

ويجىء فى مقدمة هذه المقالات سكستوس أوريليوس فكتور Sextus Aurelius Victor عن موجز لسير الاباطرة ابتداء من اغسطس حتى الامبراطور جوليانوس ابوستاتا Julianus Apostata ثم موجز يوتروبيوس Eutropins عن التاريخ الرومانى الذى يتوقف عند عام ٣٦٤ ميلادية ، ثم موجز روفيوس فستوس Rufius Festus (٢) الذى ينتهى عند عام ٣٧١ ميلادية ، وأخيرا ... آخرا يأتى المؤلف الهام عن خلاصة حياة القياصرة Epitomae Caesarum الذى لا يعرف مؤلفه حتى الآن الذى يتوقف عند موت ثيودوسيوس الأول فى عام ٣٩٥ م .

واذا تركنا المصادر الوثنية واتجهنا الى المصادر الكنسية لوجدنا العديد من المصادر التى يجب أن نستخدمها بحرص وتحفظ ، لكنها بالرغم من ذلك فهى مصدر هام لا غنى عنه ، خاصة وانها تحوى نصوصا أصلية وثائقية منقولة بالحرف لواحد مثل القرارات الامبراطورية واللوائح والقوانين والاوامر لعليا ، ومحاضر جلسات مجالس الكنائس والمراسلات بين الاباطرة وزعماء الكنيسة ، ورسائل الاساقفة وغيرهم من المسئولين عن ادارة الكنيسة .

---

(١) عن الهستوريا اغسطا أنظر الابحاث الاتية :

«Historia Augusta Collquium, Bonn (1963-1968 1970), Collection Antiquitas, Bonn, R. Habelt 1971 ; Atti de Colloquio Patavino sulla Historia Augusta Roma, l'Erma di Bretschneider, 1964 ; Die Ausserpolitik in der Historia Augusta, diss Bonn, R. Habelt 1970 ; R. Syme : Emperors and bibliography-studies in the Historia Augusta, Oxfod, The Clarendon Press 1971 ; (by the same author) The Historia Augusta : a call of clarity, Bonn, R. Habelt, 1971 (Antiquitas Reihe 4, Band 8).

(٢)

J.W. Eadie : The Brevarium of Festus A critical edition with historical commentary, University of London Athone Press, 1967.

واروع اعمال ذلك الجانب مؤلفات شيشيرون المسيحية الشاعر لاكتانتيوس Lactantius خاصة مؤلفه العاطفى « عن موت الظالمين » De mortibus persecutorum وفيه وعظ لاكتانتيوس بني عقيدته كيف ان الاباطرة الذين اضطهدوا المسيحيين لاقوا ميتة مؤلمة جزاء وفاقا على ما فعلوا ، وكان لاكتانتيوس راهبا شغاف الحساسية ، صوفى النظرة ؛ ولكن مؤلفه جاء كالبحر يحوى فى احشائه دررا أصلية وأصيلة لاحداث الفترة منذ أن توفى دقلديانوس الى موت الامبراطور ماكسيمينوس دايا Maximinus Daia (١) عام ٣١٢ ميلادية .

كذلك لدينا مقالات القديس اثناسيوس اسقف الاسكندرية (٢٩٦ — ٣٧٣ م) النارية والمليئة بالوثائق المنقولة حرفيا والخاصة بالعراك العقائدى ضد آريوس واتباع مذهبه .

ويعطى المؤرخون اهمية خاصة لمؤلفات يوسيبيوس Eusebius (٢٦٤ — ٣٤٠ م) أسقف مدينة قيصرية Caesarea فى فلسطين لانه من اعظم آباء الكنيسة الاغريقية نفوذا وعلما ، بل واعظم العبقريات الادبية فى تاريخ الامبراطورية الرومانية فى عصر أفولها . ويبدأ يوسيبيوس مؤلفاته بشروح متنوعة للكتاب المقدس ، ثم سرعان ما يجد نفسه مؤرخا يمزج الدين بالدنيا فيكتب تاريخا شاملا للانسانية منذ ابراهيم الى قسطنطين . وقد أشاد الامبراطور فى الجزء الخاص بحياة قسطنطين بتقوى هذا الامبراطور واخلاصه للكنيسة . ثم أصدر لاول مرة فى تاريخ الانسانية دورية Chronica تروى وسجل امور العقيدة منذ ابراهيم حتى مجلس الكنائس المنعقد فى نيقيا Nicaea عام ٣٢٥ م . وقد ظلت هذه الدورية من بعده حتى العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن نذكر أعظم أعماله جميعا الا وهو موسوعة التاريخ الكنسى Historia Ecclesiastica والتى تعتبر مصدرا وثائقيا لتاريخ الكنيسة منذ قيامها وحتى المجلس الكنسى فى نيقية Nicaea كما أنها مصدر صادر عن شاهد عيان لاعمال الاضطهاد خاصة مذابح المسيحيين الكبرى فى عصر دقلديانوس .

هذه هى المصادر المنقولة عن الآخرين ، لكن هناك جانب آخر من المصادر وهى المصادر المباشرة التى نعتبرها الحقيقية الاصلية . وهى المصادر التى تخرجها من الارض سواء كانت وثائق من أوراق البردى او قطع العملة فرادا كانت او مجموعات . الى جانب المصادر الاثرية

---

(١) H. Castritius : Studien zur Maximinus Daia (Kas. ? Kallmuenzuber · Regenburg, M. Lassleben, 1969, p. 7 ff.

الاخرى خاصـــة [illegible] مكتوب منهـــا مثل الفرمـــانات (١) الامبر[illegible] Constitutiones Principum التى كانت تسجل على النقوش ، أو على أوراق البردى ، أو كانت تدون ضمن الموسوعات القانونية مثل موسوعة ثيودوسيوس Theodosius Code التى صدرت عام ٤٣٨ ميلادية ابان عصر ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) ، وموسوعة جستنيانوس Justinian Code التى صدرت عام ٥٢٩ ميلادية ابان عصر جستنيانوس الاول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) .

ويعطى الباحثون اهمية خاصة الى اثنتين من الوثائق النقشية أولهما وثيقة دقلديانوس الخاصة بالحد الاعلى للاسعار Edictum de maximis Pretiis ووثيقة الملك الفارسى نرسيس الاول Narses (٢٩٣ — ٣٠٢) التى عثر عليهـــا فى بايكولى Paikuli ، وفيهـــا عـــدد الملك الفـــارسى انتصاراته المختلفة والمناسبات التى أذل فيها الوفود الرومانيـــة وملوك دويلات آسيا الصغرى التى اعلنت أمام هذا الشاه العظيم مبايعتها وقدمت كل واجبات الطاعة والولاء .

واخيرا نشير الى وثيقة هامـــة عن شـــئون الادارة فى أواخر عصر الامبراطورية [illegible] Notitia Dignitatum أى «قائمة الوجهاء» وهى عبارة عن كشف بالمناصب ترجع الى القرن الخامس وتحمل قائمة المناصب العليا المدنية والعسكرية والهيئات التابعة لها .

ديوقلديانوس يفرض سيادته على الامبراطورية :

لقد رأينـــا كيف أنه بفضـــل الاباطرة الالليريين أمـــكن للامبراطورية الرومانية من التماسك ومقاومة التصدع ، وحماية حدودها ، لكن خطر السيطرة على الجيوش الجامحة ظل قائما فاغتيـــال الامبراطور كاروس وابنه نومريانوس ثم انقلاب ديوكليس Diocles الذى أطاح بحكم وحيـــاة كارينوس أثبتت ان الدولة قد فقدت السيطرة على قواهـــا العســـكرية

---

(١) لم أجد أصدق من هذا التعبير رغم أن كلمة «فرمان» تركية لكنها أقرب بمعنى الى المفهوم العام . بالرغم من أن المصـــادر القانونية الرومانية لكلمـــة Constitutio متعددة الجوانب ، فهى تسجل الفرمـــانات edicta التى كان يصدرها الامبراطور بصفته رئيسا للدولة ، أو القرارات decreta التى تصدرها محاكم القصر الامبراطورى وكان لها قوة القانون ، أو الفتاوى المكتوبة rescripta التى كان يرد بها الامبراطور على الاداريين فى حالة عدم انطباق القوانين على بعض القضـــايا . وبالنســـبة الى الفرمانات الرومانية فقد كانت باقية ومتبعة الا اذا ألغيت بفرمان لاحق من امبراطور آخر لان الامبراطور كان عادة يلجأ الى رأى الفقهاء قبل اصدار رأى منها .

تماما . ونتيجة لانشغال الجيوش فى تدبير الانقلابات ضـد الاباطرة عاد أعداء الامبراطورية الى مهاجمة حدودها والنيل من سيادتها .

وفى نفس الوقت تفاقمت المشكلة الاقتصادية وضـاق النـاس ذرعا بالامبراطورية وبالاباطرة . وفى قلب هذه الاحداث برز ديوقلديانوس .

ولد ديوقليس (ديوقلديانوس) حوالى عام ٢٤٥ م فى ولاية دالماتيا Dalmatia ، ويرجع المؤرخون أن مسقط رأسه كان فى سالونا (حاليـا قرب سبالاتو فى يوغوسلافيا والمطلة على بحر الارياتيك) . على أى حال كان أبواه فقيرين ، وربما كان ابوه يشغل وظيفة صغيرة كغيره من طبقـة المعتقين ، ولكن ذلك لم يعق الابن الطموح عن التدرج فى الوظائف العسكرية، فقد انضم الى قوة الفرسان تحت قيادة جاللينوس Galhenus ووصل الى رتبة دوق dux (أى قائد الفرسان) فى ولاية ميسيا Moesia ثم اصبح قائدا لقوات الحرس الامبراطورى الخاص . — — —

ولكن شهرة ديوقليس كمنظم ومخطط ورجل دولة فاقت شهرته كعسكرى فذ ، فضلا عن حصافته التى جعلته يمد يده لكل الكفاءات سواء مستشارين كانوا ام جنرالات من اجل انقاذ الامبراطورية .

من الواضح ان ديوقليس فكر وخطط لمستقبل الامبراطورية قبل أن يقوم بانقلابه ضد الامبراطور كارينوس ، لأنه انـدفع فى تنفيذ خطـوات اصلاحية جذرية لا يمكن أن تكون تلقائية أو عشوائية بل نتاج تفكير طويل ودراسة دقيقة ومتفهمة لمشاكل الامبراطورية . هذه الخطوات التصحيحية جعلت منه مؤسسا لعهد جديد . لقد كان وضعه مشابها لوضع الامبراطور اغسطس نفسه ، لانه كان عليه أن يقيم حكما جديدا فى أعقاب فترة من الفوضى . انتهكت خلالها القوانين والحقوق . وكما وفق اغسطس نفسه مع الجمهورية بخلق سلطة جديدة هى سلطة المواطن الاول أو الرئيس (Princeps) أوجد ديوقليس نظام السيادة (Dominatus) (١) بأن عين نفسه سيدا مؤلها على الامبراطورية ، بيده القوانين والسلطات ، ومبعوثا ومؤيدا من قبل الآلهة ، بهدف مواجهة الفوضى العسكرية التى اجتاحت الامبراطورية ، ثم غير اسمه الى ديوقلديانوس Diocletianus وهو ما عرف واشتهر به عبر كل العصور .

---

(١) وذلك كبديل لنظام الامارة أو المواطن الاول Principatus الذى وضع أساسها اغسطس .

أولا — تقسيم السلطة واختيار ماكسيميانوس شريكا :

ادرك ديوقلديانوس أن الطاقة اللازمة لحماية الامبراطورية من العدوان الخارجي والاضمحلال الداخلي تفوق قدرة رجل واحد ، ومن ثم فكر فى البحث عن نائب يتولى مسئولية الدفاع عن الولايات الغربية حتى يتفرغ هو بنفسه لحماية منطقة الدانوب والجبهة الشرقية ،وبالتالى يوزع مسئولية الحكم ، ويحل مشكلة البحث عن خليفة له ولنائبه . ولهذا وقع اختياره على رفيق سلاح قديم هو ماكسيميانوس Maximianus الذى رقاه الى رتبة قيصر Caesar اى نائب الامبراطور وولى عهده ، ثم بعث به الى ولاية الغال حيث كانت هذه المنطقة مهددة من قبل قبائل الفرنجة (Franks) وقبائل بورجونديا Burgundia والالمانى Alemanni ، التى لم تتوقف عن النهب والسـ ـب التدمـ ـسبب مجاعات محلية متعددة . وبالتالى ثارت بعض فـ ـل الغال خاصـ ـى الباجوداى Bagoudae والتف حولها الفلاحون اليائسون من العدوان الخارجى ، ومن الضرائب الباهظة ـ ـستـ ـلال أصحاب الاقطاعيات .

كان ماكسيميانوس الرجل المناسب الذى وضع فى مكان مناسب ، فقد كان فلاحا الليريا صلبا ، قاسيا وعنيفا ، ترقى من تحت السلاح بعد خبرة طويلة فى فنون الحرب والقتال ، كما كان شديد الولاء لسيده ديوقلديانوس ، ولهذا اندفع الى بلاد الغال فسحق الثورة وطارد الالمان الى غابات شرق الراين بعد حملتين متتاليتين ، واعترافا بهذا الفضل امر ديوقلديانوس بترقيته الى مستوى « الاغسطس » فى عام ٢٨٦ م . وبذلك اصبح شريكا فى حكم الامبراطورية ولكن بدرجة تقل فى النفوذ عن وضع ديوقلديانوس رجل الامبراطورية القوى والأول .

وبالرغم من نجاحه الباهر فى بلاد الغال فقد فشل ماكسيميانوس فى السيطرة على بحر الشمال والقنال الانجليزى وتطهيره من القراصنة السكسونيين والفرنجة التى كانت هاجم سواحل بريطانيا وبلاد الغال من آن لآخر ، وكان ماكسيميانوس قد اقام قاعدة بحرية فى بولونيا اوكل قيادتها الى قائد بحرى المانى الاصل اسمه ماوسايوس كاراوسيوس Mausaius Carausius ، الذى تمكن بفضل معرفته بالبيئة وبالشعوب

ديوقلديانوس وشريكه ماكسيميانوس يظهران وكل منهما يحتضن الآخر . لاحظ التدهور الذى طرا على الفن الرومانى فأضحى أقرب الى الفن البربرى البدائى

هناك من القضاء على خطر القراصنة فى وقت قصير . وسرعان ما دفعه هذا الى الغرور فكون لنفسه اسطولا بعد اضافة السفن التى استولى عليها الى اسطوله الاصلى ، ثم وسع من نفوذه فاستولى على بولونيا وبريطانيا واعلن نفسه امبراطورا «اى اغسطس» ، ولم يفعل ديوقلديانوس شيئا لأنه كان مشغولا بمشاكل الشرق ، ولما حاول ماكسيميانوس مواجهة كاراوسيوس دمر اسوله تماما ، وظل هذا الأخير امبراطورا لا ينافس على بحر الشمال لمدة سبع سنوات .

ولم يكن امام ديوقلديانوس سوى الاحتجاج والتهديد . فقد كان يقاتل من ولاية الى ولاية ، يؤمن الحدود ويطرد المتسللين والغزاة ، ليعيد السيادة الرومانية على منطقة الدانوب وبلاد العرب والقوط ، والقبائل العربية التى هاجمت سوريا وقبائل البشارية Blemmyes التى غزت مصر من السودان . كما نجح فى عام ٢٩٠ م فى جعل ارمينيا مملكة تابعة لروما وعين عليها ملكا عميلا هو تيريداتيس الثالث Tiridatis III . كما نجح فى ارغام الفرس على التنازل عن مطالبتهم بولاية بلاد ما بين النهرين .

اقامة السلطة الرباعية Tetrarchia (٢٩٢ — ٣١٢ م) :

وعندما ادرك ديوقلديانوس مدى النتائج الايجابية سواء فى المجال السياسى أو العسكرى التى عاد بها نظام توزيع المسئولية على أكثر من فرد . قرر فى عام ٢٩٣ م توزيع السلطة الامبراطوزية على اربعة ، وبذلك خلق النظام المسمى بالسلطة الرباعية أو التترارخيا Tetrarchia وذلك بتعيين نائب له . ونائب لشريكه ماكسيميانوس ، وهذان النائبان كانا بدرجة قيصر أو ولى العهد . وفى الحقيقة لم يكن هذا النظام غريبا بل كان نظاما فارسيا طبقه ديوقلديانوس ، كما أن فكرة التبنى كانت فكرة معروفة مارسها الاباطرة الصالحون ابان القرن الثانى . وتنفيذا لهذا النظام الجديد اختار ديوقلديانوس ولى عهده أو نائبه (قيصرة) وكان فلاحا الليريا أيضا جاء من تحت السلاح وهو جايوس جاليريوس Gaius Galerius ، وكان جايوس جاليريوس على دراية كبيرة بالشئون العسكرية والاستراتيجية بالرغم من تغلب الطابع البربرى على سلوكه وتفكيره ، وبالطبع أوكل ديوقلديانوس حكم الشرق الى النائب الجديد .

أما ماكسيميانوس الامبراطور الشريك لديوقلديانوس فقد اختار نائبه وولى عهده ، وكان أيضا فلاحا الليربا ترقى من تحت السلاح وهو كونستانتيوس (قسطنطيوس) Constantius المشهور باسم خلوروس Chlorus اى ذو « الوجه الشاحب » . وذلك لمساعدة الامبراطور

اعضاء الحكومة الرباعية أو الاوتوقراطيين الأربعة
يظهرون متحدين كدعاية سياسية للعهد الجديد

الشريك فى حكم ولايات الغرب . وقد أثبت النائب الجديد مقدرة فائقة فى مجال العسكرية والادارة ، جعلته جديرا بأن يكون والدا لأعظم أباطرة روما المتأخرين الا وهو الامبراطور قسطنطين الاكبر .

وتدعيما للاومر والروابط بين الأباطرة (Augusti) وبين نوابهما فقد تزوج كل نائب من ابنة سيده الامبراطور ليكون زوج ابنته ونائبه وخليفته من بعده . وبدأ النائبان (Caesares) فى التعلم بسرعة والتمرن على أصول الحكم والادارة تحت اشراف الاباطرة ، وسرعان ما عوملوا على قدم المساواة معهم واصبح الحكم جماعيا بين الاربعة ، وان كان ديوقلديانوس ظل يلعب دور الزعيم فيه . فالقوانين والقرارات كانت تصدر باسم الاربعة وأى انتصار يحرزه أحدهم كان الاربعة يحتفلون به ، وكان من حق أى امبراطور أن يمر بقواته داخل حدود الامبراطور الآخر دون اعتراض أو استئذان منه . وفى نفس الوقت كان لكل واحد شخصيته المستقلة ، مثل سك النقود باسمه وعليها صورته واقتناء حرس خاص لحمايته ، أو البلاط الخاص بقصره .

وقد قسمت الامبراطورية بين الاربعة ، واوكل لكل واحد منهم جزءا يحميه ، ويديره من عاصمة له ، فمثلا أوكل الى ماكسيميانوس حماية المناطق الشمالية من الراين والدانوب وجعل عاصمته مدينة « ميلانو » فى شمال ايطاليا . اما كونستانتيوس الاشحب (Chlorus) فقد اوكل اليه ولاية بلاد الغال وبريطانيا وجعل مركزه هو مدينة تريفيس Augusta Treverorum) Treves جنوب بلجيكا الشرقى) . أما جاليريوس فقد اشرف على حماية منطقة البلقان وجزءا كبيرا من آسيا الصغرى ، وجعل مقره مدينة صيرميوم Sirmium (عاصمة الصرم) على الحدود بين بانونيا ودالماتيا ، اما ديوقلديانوس فقد تولى حماية المقاطعات الشرقية وجعل مقره مدينة نيقوميديا Nicomedia المواجهة لمدينة بيزنطة على الناحية الاخرى لبحر مرمرة .

ولكن بالرغم من هذا التقسيم كانت الامبراطورية وحدة سياسية متحدة لأن الادارة فيها كانت جماعية والقيادة واحدة .

لقد كانت فكرة السلطة الرباعية عملا ناجحا بفضل حكمة ديوقلديانوس وحسن اختياره للرجال الدين تقاسم معهم المسئولية . كما أن هذا النظام أمن العرش لسلسلة من الاباطرة المدربين ، واصبح بموت الامبراطور ينتقل العرش الى نائبه وصهره . ثم يختار الامبراطور الجديد نائبا له وهلم

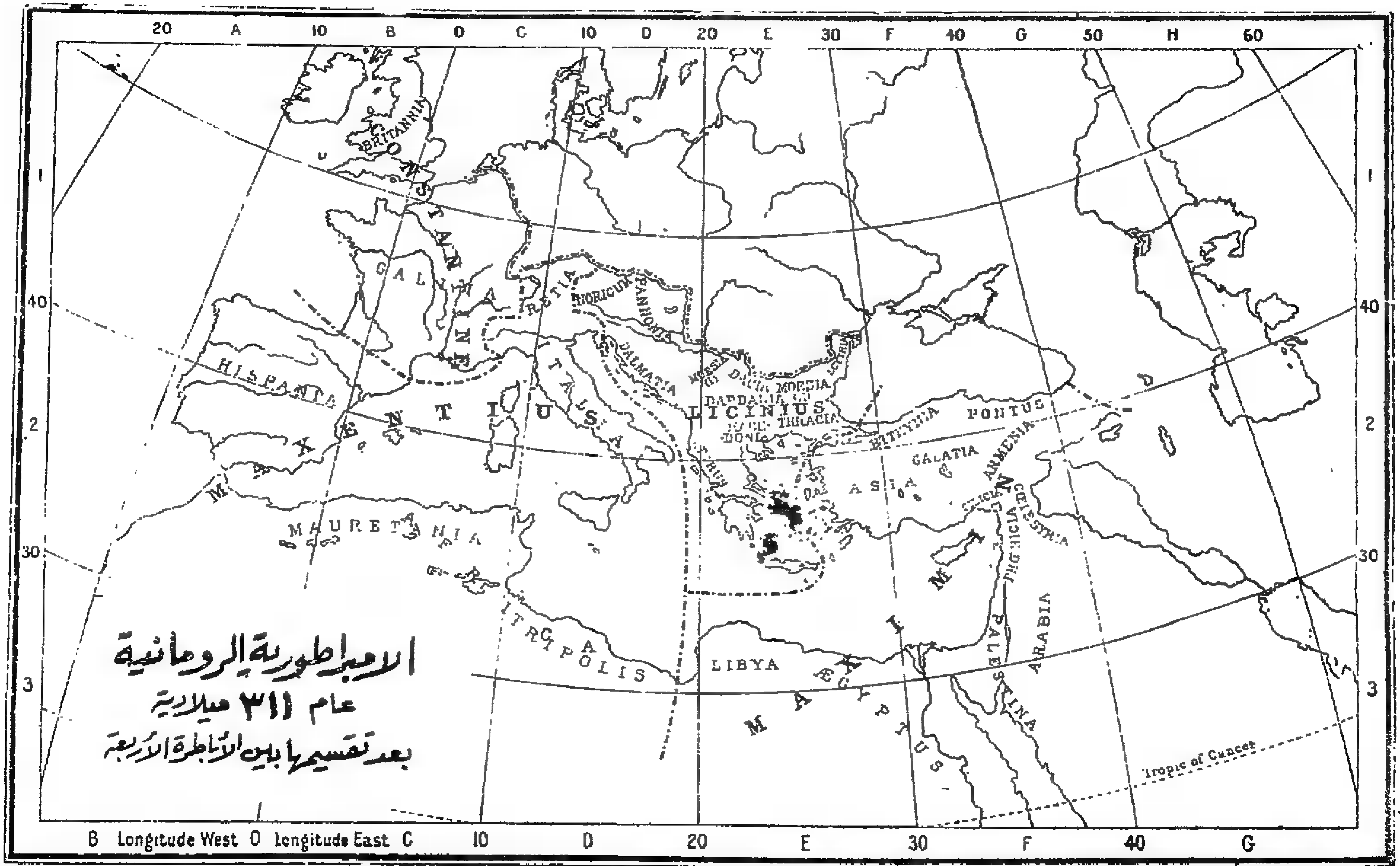

Cambridge University Press

W. & A.K. Johnston Ltd.

جرا . وكانت فكرة اختيار كل امبراطور لنائبه واقتسام العرش معه فكرة ليست غريبة على الرومان لأن ماركوس أوريليوس حاول تطبيقها فى القرن الثانى الميلادى عندما اختار لوكيوس ڤيروس شريكا معه . ولكن الاختيار لم يكن موفقا .

السلطة الرباعية وتأمين الامبراطورية :

وما أن تم قيام السلطة الرباعية ووزع الحكم على الاباطرة والقياصرة النائبين لهم حتى بدا كل واحد فى اثبات قدرته على تأمين حدوده . فمثلا بدأ كونستانتيوس على الفور بعملياته ضد كاراوسيوس فى بحر الشمال وهزمه واستولى على بولونيا قاعدته ، وطرد الفرنجة وحلفاءهم الجرمان القاطنين قرب شواطىء بحر الشمال ونقل الاسرى الى مناطق تعمير فى شرق بلاد الغال لزراعتها واستيطانها . واخيرا اغتيل كاراوسيوس عام ٢٩٣ م وانتهت مشاكل الامبراطورية معه .

وفى عام ٢٩٦ م غزى كونستانتيوس بريطانيا واعاد السيطرة الرومانية عليها من اقصى الجنوب حتى حائط هادريان شمالا ، وامن شواطئها المطلة على بحر الشمال وعلى المحيط الاطلنطى ضد القراصنة الساكسونيين ثم كلف مسئولا من الساكسونيين بالاشراف على الدفاع عنها عرف باسم « كونت الشاطىء الساكسونى » . ثم عاد الى مقر قيادته فى مدينة تريڤيس وشرع يوسع فيها ويجمل من مبانيها حتى اصبحت واحدة من اكبر المدن الجميلة فى الامبراطورية الغربية .

اما جاليريوس فقد قضى الفترة ما بين ٢٩٤ الى ٢٩٧ م فى حملات دفاعية فى منطقة الدانوب ضد القوط والصرماتيين ، ثم امن جنوب الدانوب بأقامة عدد من القلاع الدفاعية ثم اصلح الاراضى الواقعة فى جنوب حوض الدانوب ، ووزعها على المستوطنين الجدد .

اما ديوقلديانوس فبعد أن انتهى من مساعدة جاليريوس ، سارع الى مصر ليسحق ثورة اندلعت عام ٢٩٦ م وقادها زعيمان هما اخيليوس Achilleus ولوكيوس دوميتيوس دوميتياتوس Lucius Domitius Domitianus بسبب الغلاء الباهظ واجحاف الضرائب . ولكن صمود الثوار لم يبق طويلا فى وجه جيوش الامبراطورية . وتمكن ديوقلديانوس من دخول الاسكندرية بعد حصار دام ثمانية أشهر وكان ذلك فى مارس عام ٢٩٧ م واعدم الثوار وقضى على الثورة الاجتماعية التى عرفت باسم

الثورة المانيخية Manchaean (١) . واعدم كل من انضم اليها . ثم الغى ديوقلديانوس دار سك النقود المحلية فى مدينة الاسكندرية وتوقفت دار سك النقود الخاصة بمصر لأول مرة منذ ضم مصر الى حوزة الامبراطورية (وكان ذلك لاعطائها وضعا فريدا يبقيها مستقلة نظرا لظروفها السكانية والثقافية الفريدة فى نوعها) ثم أعاد ديوقلديانوس تنظيم مصر اداريا . ومن الواضح أن ديوقلديانوس عامل السكندريين معاملة طيبة ووزع القمح على الناس بعد الحصار ، واعترافا بفضله بنى والى مصر الجديد بوستيموس نصبا تذكاريا له رمزا لاعتراف المدينة بجميله عليها وعلى شعبها ، فأقام عمودا داخل السيرابيوم المقدس فى منطقة الحى الوطنى بكوم الشقافة (١) والذى لا يزال من اهم معالم مدينة الاسكندرية حتى الآن ويعرف عند المصريين بعمود السوارى وعند الاوربيين بعمود بومبى Pompey's pillar ولكى يوقف هجوم قبائل البشارية Blemmyes على حدود مصر الجنوبية تنازل ديوقلديانوس عن بعض الاراضى الواقعة جنوب الشلال الاول ليوطن فيها احدى القبائل المتعاونة مع الرومان .

ديوقلديانوس والفرس :

استغل الملك الفارسى نرسيس انشغال ديوقلديانوس بسحق الثورة الاجتماعية فى مدينة الاسكندرية فهاجم ممتلكات الامبراطورية فى الشرق الاوسط عام ٢٩٧ م اذ غزى ارمينيا وسوريا . ولما استدعى ديوقلديانوس مساعده جاليريوس لرد الخطر لاقى هذا الاخير هزيمة ساحقة فى كالنكيوم Calhnicium قرب كارهاى (Carrhae) عام ٢٩٧ م وضاعت ولاية بلاد ما بين النهرين . ولكن جاليريوس استعاد قوته فى العام التالى ٢٩٨ م فهاجم ارمينيا وهزم نرسيس ودخل كتيسيفون حيث اسر زوجات وأبناء

---

cf. A.E.R. Boak, and Ch. Youtie, The Archive of Aurelius Isidorus, 1960, no 62.

وسميت بهذا الاسم نسبة الى النبى « مانى » الذى ظهر فى بارثيا وبشر بالصراع الدموى ضد الحكم الظالم ويرجع العلماء أن دعوته وصلت الى مصر كما يعتقد العلماء أن اخيليوس رجل آخر غير دوميتيانوس .

(١) العمود قطعة واحدة من حجر الجرانيت المجلوب من اسوان يبلغ ارتفاعه بالتاج والقاعدة ٢٦٫٨٥ مترا ويقال أن تمثالا للامبراطور ديوقلديانوس كان موجودا فوق التاج ودمره المسيحيون بعد ذلك ، ويطلق الاوربيون خطئا على العمود اسم عمود بومبى أما العرب فقد سموه بعمود « السوارى » اشتقاقا من « سارية » أى سارية السفينة التى كان يشبهها . وعن الجديد فى زيارة دقلديانوس للاسكندرية بعد الثورة أنظر :

La révolte de Domitius Domitianus et le voyage en Egypte de Dioclection d'apres le témoignage des papyrus et des Ostraka, Revue des Etudes Grecques, 97, (1966), p. IX-X.

الملك . واضطر الفرس الى التصالح ، واستردت روما ولاية ما بين النهرين كاملة ، بل أنها اقتطعت بعض الاراضى الواقعة شرق دجلة واضافتها الى مملكة ارمينيا التى وضعتها تحت نفوذها . كما ضمنت روما لنفسها الطريق البرى من سوريا حتى الخليج الفارسى ، ووافق الملك الفارسى بأن يدفع التجار الذين ينتقلون بين فارس وممتلكات الامبراطورية الضرائب والمكوس الى روما عند قلعة نيسيبس قرب نهر دجلة ، كل هذه التنازلات المهينة من جانب الفرس كانت من أجل استرداد زوجة الشاه وأولاده من الاسر الرومانى .

لقد كان انتصار الرومان ساحقا ومذهلا لدرجة ان الفرس لم يجرأوا على تحدى الرومان لاكثر من خمسين عاما . كما أضفى هذا النصر على جاليريوس أهمية معينة فى السلطة الرباعية واصبح يتمتع فيها بنفوذ كبير .

هكذا اثبتت السلطة الرباعية وجودها بالانتصارات الكبرى التى حققها كونستانتيوس فى الغرب وجاليريوس فى الشرق . ودعم مركز الامبراطورية فى بريطانيا وعلى طول الراين والدانوب والفرات والنيل . كما أن توطين الاسرى على حدود الامبراطورية لزراعة الاراضى هناك والدفاع عن حدود الامبراطورية كانت فكرة صائبة حقا .

ولقد كان هؤلاء الحكام الاربعة نموذجا اعلى للحكم الجماعى بالرغم من احتفاظ كل منهم بشخصيته الفردية ، وبقيت الامبراطورية متحدة بالرغم من تطبيق سياسة اللامركزية decentralization كل هذا حما الامبراطورية وجعلها قادرة على أن تستعيد قوتها وثباتها ، بل انهم وضعوا الدعائم الدستورية لامبراطورية جديدة قدر لها أن ترث روما لمدة تزيد على الالف عام ، الا وهى الامبراطورية البيزنطية .

اصلاحات ديوقلديانوس :

بالاضافة الى المجهودات العسكرية التى بذلها ديوقلديانوس من اجل دعم الامبراطورية وتماسكها ، فقد قام بعدد من الاصلاحات التى شملت كل جوانب الادارة والقيادة . ومن الجدير بالذكر أن ديوقلديانوس لم يأت بجديد وانما استفاد من تجارب من سبقوه أو طور تجاربه واصلاحات لكى يحصل على نتائج يبدو كما لو كانت جديدة بعد أن طورها بطريقة دقيقة تخدم اغراضه . ولهذا استفاد من اعمال القادة العظام الذين سبقوه من امثال الاسكندر الاكبر وأغسطس وكلاوديوس وهادريانوس وسبتيموس

سيفيروس وجاللينوس واوريليانوس . لقد كانت اصلاحاته ذكية وهادفة مثلا قضت فكرة السلطة الرباعية على الانقلابات العسكرية التى كان يقوم بها بعض العسكريين الطموحين . وفى نفس الوقت فكرة ليست بجديدة بل مطورة من التراث الفارسى والرومانى القديم .

١ — اعادة المهابة والقداسة الى منصب الامبراطور :

قضى ديوقلديانوس وقتا طويلا فى الشرق لدرجة جعلته يتأثر بأفكاره وتقاليده ، ولذا لم يكن غريبا عليه أن يختار الشرق ليقضى فيه معظم حكمه. لقد اعجب ديوقلديانوس كما اعجب الاسكندر الأكبر يوما ما . بملوك الشرق وحياة الابهة والترف والتعالى والتأله ؛ لأن ذلك يحيطهم بهالة مقدسة تحول دون ثورات جنودهم عليهم ومن ثم احاط ديوقلديانوس نفسه بكل مظاهر قصور الشرق الخرافية من بلاط ووصيفات وخدم وحشم وياورانات ومستشارين عسكريين وحرس وأصبح القصر ادارة وقلعة قائمة بذاتها . واحاط نفسه بقداسة وانعزالية (seclusion) وأصبح نادر الظهور بين الرعية والجنود ، واذا حدث وظهر فانه كان يرتدى الاكليل الملكى diadem ويمسك بالصولجان ويستقبل الناس وهو جالس على العرش مرتديا العباءة الملكية الحمراء المزركشة بالذهب والمعروفة باسم Paragauda والبذة الملكية (regalia) . وأصبح كل ما يمت له بصلة يوصف بأنه مقدس Sacer حتى الامبراطورية أصبحت مقدسة . وقلد ديوقلديانوس الاسكندر عندما اصدر اوامره بوجوب السجود امامه (proskynesis) عند المثول بين يديه . ثم يقبلون اطراف ثيابه ويعرف ذلك بعبادة adoratio paragaudae العباءة بل انه فرض على اعضاء مجلس الدولة الوقوف عند دخوله القاعة لهذا السبب اسمى بمجلس الواقفين المقدس sacrum consistorium.

وزيادة فى التالية اضاف دقلديانوس الى اسمه لقب جوڤيوس Jovius اى ممثل الرب جوبتر كبير الارباب على الأرض من اجل اعادة احياء مجد الامبراطورية ، كما اضفى على شريكه ماكسيميانوس لقب هرقليوس Herculius اى تجسيد هرقل البطل الاسطورى الذى كان الساعد الأيمن لجوبتر ؛ ولهذا طالب ديوقلديانوس وشريكه بكل مظاهر التالية مثل مخاطبة الامبراطور بكلمه dominus noster أى يا ربنا . واصبح كل شيء يخصهم مقدس ومبارك ، واصبح الرسامون يحيطون صورهم بالهالة القدسية التى تشم النور الربانى كما نرى فى [illegible] البيزنطى . وبهذ[illegible] [illegible] قدا[illegible] على شعبه وجنوده . رجعلهم يحسون نحوه

بالرهبة والخوف ، وكان هذا كفيلا بوقف عمليات اغتيال وقتل الاباطرة واستمر تقديس الاباطرة متبعا طوال القرن التالى وخلال العصر البيزنطى.

٢ ــ اعادة تنظيم وادارة الولايات :

وحتى يتفادى الثورات المحلية التى قد يقوم بها الجنرالات الطموحين فى أجزاء الامبراطورية الشاسعة ، قرر ديوقلديانوس اعادة تنظيم الولايات واجراء المزيد من التقسيمات عملا بسياسة قسم وآحكم (Divide et impera) ونتيجة لهذه السياسة الجديدة زاد عدد الولايات الرومانية من حوالى الخمسين ولاية فأصبح يتجاوز المئة . وكان سبتيميوس سيڤيروس قد فعل ذلك بالنسبة لبعض الولايات التى رأى فى اتساعها تهديدا له ، كما الغى ديوقلديانوس التقسيم الذى وضعه اغسطس بين ولايات السناتو وولايات الامبراطور ، وأصبح الامبراطور هو الذى يتحكم فى كافة الولايات ويعين حكامها وان احتفظ لبعض الولايات بحكام من رجال السناتو ، والبعض الآخر برجال من طبقة الفرسان .

وعلى اى حال سلب ديوقلديانوس حكام الولايات من السلطات العسكرية ومن التحكم فى قيادة الجيوش المعسكرة داخل ولاياتهم مما زاد من سلطة الحكومة المركزية وقضى على خطر التمرد ورفع السلاح فى وجه الدولة ، كما اتبع ديوقلديانوس سياسة سبتيميوس فى الغاء وضع ايطاليا المتميز القديم وسواها تماما بوضع الولايات الاخرى واصبح سكانها يدفعون الضرائب ، بل انه قسم اراضيها الى ست عشرة مقاطعة مثلها مثل بقية ولايات الامبراطورية فى الشرق والغرب .

ولكى يعطى الحكومة المركزية فرصة فى التحكم فى سير العمل فى الولايات قسم ديوقلديانوس الولايات الجديدة الى اثنى عشرة دوقية Dioceses أو تقسيم ادارى كبير ؛ وجعل على راس كل دوقية نائب حاكم (Vicarius) يدير الدوقية نيابة عن احد قواد الحرس البرايتورى الاربعة ــ نواب الاباطرة الاربعة ، واصبح حكام المقاطعات يعرفون بأسماء جديدة مثل الرؤسا (praesides) او القضاة (iudices) (١) وهذا دليل على

---

(١) وأحيانا كانوا يسمون بالمفتسين Correctores اوالحكام القنصلين Consulares وكان لكل واحد من هؤلاء هيئة مكتب officium مليء بموظفين officiales وتكون ادارة مستقلة ويرأسه رئيس المكتب princeps عادة ما يكون رجل القصر الملكى ، وكان موظفو المكاتب يتمتعون بنفس مزايا الجنود مثل الاعفاء من الضرائب وعدم المثول امام المحاكم . وبذلك تخلقت البيروقراطية برعونتها وبهاظة تكاليفها وجشعها وتعقيدها للأمور ، وميلها للفساد والرشوة والمحسوبية . وهى عامل من عوامل سقوط الامبراطورية

ان مناصبهم كانت مدنية او قضائية بحتة ، وانطبق ذلك على حكام الولايات الثلاث التى جرت العادة على تعيين حكام عليها من طبقة السناتو بدرجة بروقنصل وهى افريقيا وآسيا واخيا فى بلاد اليونان .

كان معظم حكام الدوقيات (Vicarii) من رجال طبقة الفرسان الذين لا سلطة لهم ولا علاقة لهم بقوات الجيش وذلك لان ديوقلديانوس او كل قيادة القوات الموجودة فى المقاطعات او الدوقيات الى قيادة عسكرية منفصلة ومحترفة عرفت كل منهما باسم الدوق Dux واخضع سلطات الدوق العسكرية الى سلطة الحاكم المدنى فى المقاطعات خاصة ازاء مطالب الامداد والتزويد والدعم المالى ، بل اخضع القادة العسكريين فى بعض الدوقيات الى سلطات عسكرية عليا عرفت باسم الكونت (Comes)

وهكذا بفصل السلطة العسكرية عن المدنية فى الولايات وجعل كل منها يعتمد على الآخر فى نفس الوقت ، قضى ديوقلديانوس بتاتا على خطر المؤامرات والانقلابات ضد السلطة المركزية . كما أن التفتيت الادارى الجديد جعل الحكام قادرين على السيطرة على مقاطعاتهم والاشراف عليها بدقة مباشرة لم يسبق لها مثيل .

ولكن بعض المؤرخين وان كانوا يعترفون بنجاح هذا التقسيم فى دعم ورسوخ سلطة الامبراطورية فى الولايات الا أنهم يرون أن هذا التقسيم المعقد ادخل البلاد فى دوامة الطبقات البيروقراطية وزاد من اعداد الموظفين الكبار ذوى الرواتب الكبيرة (١) مما أرهق الدولة . فمثلا كان هناك قائدا الحرس البرايتورى praefecti praetoriani اللذان كانا يترأسان الجهاز المدنى ، ثم يليهما الاثنى عشرة نائبا Vicarii الذين كانوا يلون فى الدرجة قائدا الحرس البرايتورى وينوبون عنهم فى حكم الدوقيات الاثنى عشر ، ثم يلى ذلك حكام المقاطعات التى جاوزت المائة ، فضلا عن الجهاز العسكرى باداراته المنفصلة كل هذا فرض على الدولة نفقات باهظة وخلق جهازا بيروقراطيا عديم الجدوى (١) ، ولما شعر الامبراطور بخطر البيروقراطية وقيامها كحاجز بين الامبراطور والشعب واخفاء شكاوى الناس عنه اعاد جهاز المخبرين السريين القديم الى العمل والذى كان يتخفى تحت اسم وكلاء القمح Frumentarii فغير اسمه الى وكلاء الانباء agentes-in-rebus لنقل كل ما يهم الحكومة من أخبار الولايات .

---

(١) كما ظهرت الالقاب التكريمية المتعددة التى كانت [illegible] الوضع الوظيفى ابتداء من [illegible] والحكام واعضاء المجلس البلديين ومن الملاحظ أن صيغة المبالغة استخدمت دائما بدلا من الصيغة العادية .

٣ ـ الاصلاحات العسكرية :

وفى مجال الاصلاح العسكرى سار ديوقلديانوس على نهج جاللينوس وأوريليانوس ، فضاعف عدد القوات العسكرية حتى وصل الى ٥٠٠,٠٠٠ جندى ومعنى ذلك أن النفقات العسكرية ضوعفت بالنسبة الى الدولة والدولة حملت الناس هذه الزيادة . كما قوى ديوقلديانوس من نظام حرس الحدود (limitanei) الذين كانوا يستوطنون الاراضى الواقعة على حدود الامبراطورية ويزرعونها ؛ ويدافعون فى نفس الوقت عنها ؛ أما القوة الرئيسية للجيش فقد كانت الفرقة المتحركة الخفيفة ؛ والتى كانت تعسكر فى المدن الاستراتيجية المتقدمة ، ومنها تنقل بسرعة الى مناطق العمليات ولم يعد للفرقة القديمة الثقيلة legiones ذات الستة آلاف رجل اى قيمة . بل أصبحت القوات المتحركة Vexillationes التى كانت تحوى ما بين الف والف وخمسماية جندى خفيف السليح هى القوة الاساسية . ويمكن أن يقال ان الظروف ومتطلبات الدفاع هى التى خلقت هذه الوحدة الدفاعية الجديدة . كما زادت اهميه قوات الفرسان الثقيلة التسليح كثيرا عن ذى قبل . ولاول مرة نسمع عن فرقة جديدة هى قوات رفاق الامبراطور Comitatenses او بمعنى آخر قوات الحرس الخاص . وكان افرادها ينتقون من الرجال الاشداء ويعاملون معاملة راقية سواء من ناحية التسليح أو الرواتب أو الغذاء . فضلا عن انهم كانوا يخدمون عشرين عاما فقط بدلا من الخمس والعشرين فى الفرق الاخرى . ان خلق هذه القوات الجديدة كان بداية اعلان انتهاء دور الحرس البرايتورى من التاريخ الرومانى الذى لم يعد يحمى الامبراطور كما كان قديما ، بل تركت قواته كحامية لحراسة روما وتقطعت علاقة هذه القوات بالامبراطورية تماما.

بالرغم من كل هذا فقد ظهرت لاول مرة مشكلة النقص فى التجنيد كجزء لا يتجزأ من مشكلة النقص فى القوى البشرية العاملة فى مجالات الانتاج ، ولكى يتغلب ديوقلديانوس على هذه المشكلة لجأ الى أساليب مختلفة مثل الاستدعاء للتجنيد عند سن معينة ، وفرض التجنيد الاجبارى بالميراث بمعنى أن ابن الجندى يجند ؛ والاعتماد على المرتزقة وعلى نظام التطوع الاختيارى .

لقد فرض دقلديانوس التجنيد الاجبارى على الذكور الذين لا يشغلون مناصب رسمية وابناء الفقراء العاطلين والخارجين على القانون ، كما الزم ابناء المستوطنين الجرمان على الحدود بدخول الخدمة العسكرية عند سن التجنيد ، وكذلك ابناء الجنود المسرحين وابناء الجنود الذين لا يزالون

تحت السلاح . كما ألزم أصحاب الاقطاعيات بامداده بنسبة معينة من المتطوعين الذين يعملون كمزارعين أو اجراء عندهم واذا عجزوا عن ذلك سددوا مبالغ معينة تعادل رواتب العدد المقرر عليهم من المرتزقة .

أما بالنسبة لنظام التطوع فلم يكن يقبل عليه احد الا الهاربون من المشاكل الاجتماعية أو الاقتصادية أو الباحثون عن الامتيازات العسكرية مثل الاعفاء من الضرائب ومن السخرة ومن الالزام الوظيفى : وهم قليلون. كذلك كان اسرى الحرب يتطوعون فى الجيش الرومانى هربا من حكم الاعدام او البيع فى سوق الرقيق . وبدخول البرابرة فى الجيش الرومانى الامبراطورى . طويت صفحة من تاريخ العسكرية الرومانية التى اذهلت العالم القديم بمهارتها وجسارتها وانكبابها الدائم على التمرين وحبها الشديد للانضباط والنظام . واصبح كفاءة الجيش منذ ذلك الوقت ليس فى اللياقة والتمرين والنظام بل فى اقامة الحصون والقلاع الدفاعية وسرعة الامداد والتموين . وقد تمتع الجنود المسرحون بمزايا الاعفاء من الضرائب وتسلم قطع من الأرض لزراعتها بعد التسريح كما تمتع الضابط بمكانة اجتماعية عالية وكثيرا ما اقاموا أنفسهم حماة للاقطاعيين ضد جامعى الضرائب . اما الجند الساخطة فكانت تنضم الى عصابات قطاع الطرق .

٤ ـ الاصلاح المالى والضرائبى :

من المعروف ان ديوقلديانوس شرع فى تنفيذ خطة كبرى للانشاء والتعمير وحذى حذوه شركاؤه ، ومن هذه المشروعات الكبرى مشروع بناء الحمامات داخل مدينة روما والمعروفة باسم حمامات ديوقلديانوس الكبرى ، ومن اهم مشروعاته ايضا بناء قصر كبير فى مدينة سبالاتو Spalato المطلة على بحر الادرياتيك فى اقليم دلماتيا ليستقر فيه بعد اعتزاله الحكم : وكذلك بناء الطريق الصحراوى الكبير بين دمشق ونهر الفرات لتسهيل نقل الجيوش وتشجيع التجارة بين روما والشرق الاوسط ، ومن الطبيعى ان تحتاج هذه المشروعات الى زيادة فى الاعتمادات المالية فى ظروف كانت فيها الامبراطورية مرهقة بسبب النفقات الدفاعية ومضاعفة عدد قوات الجيش ، فضلا عن نفقات الادارة التى تضاعف حجمها ، ونفقات القصور الاربعة التى كان يشغلها اعضاء السلطة الرباعية .

وكان الحل الوحيد لزيادة مصادر الانفاق هو اعادة النظر فى نظام الضرائب الغير مباشرة والاتاوات العشوائية التى أرهقت الناس وسببت فوضى فى [illegible] الرومانى ابان القرن الثالث . لهذا قرر ديوقلديانوس اعادة تنظيم الضرائب على أساس علمى ووضع جداول حسابى ثابت لا يتغير

وعادل فى نفس الوقت . فجعل الضرائب عينية generatim أن تجبى فى شكل محصولات زراعية أو حيوانية أو مصنعات زراعية مثل زيت الزيتون أو النبيذ ، وبالتالى اصبحت ضريبة القمح (annona) التى كانت تجبى من وقت لآخر حسب الحاجة أصبحت فى عصر ديوقلديانوس ضريبة اساسية ودائمة . وكان هدف ديوقلديانوس هو ضبط الدخل العام فى شكل عادل وثابت فى كافة انحاء الامبراطورية ، وان تقدر هذه الضرائب فى ميزانية سنوية وعلى ضوء قرار امبراطورى (indictio) يحدد كمية الضرائب التى يجب أن تجبى من كل ولاية او دوقية كل عام .

كان هذا القرار الامبراطورى يعتبر بمثابة الاحصاء الدورى الذى يجرى كل خمس سنوات خاصة فى الفترة ما بين ٢٩٧ — ٣١٢ ميلادية ثم أصبح بعد ذلك يجرى كل خمسة عشر سنة ، وعلى طريقة المصريين القدماء أصبحت هذه الدورة الاحصائية iugatio تستخدم كعامل لتأريخ الاحداث .

لقد بدء تحرير النظام الضرائبى عام ٢٨٧ ميلادية ثم ظهرت ملامحه عام ٢٩٧ م ووصل الى قمة اكتماله فى عام ٣١٢ ميلادية ، وبالرغم من دراسات العلماء والمتخصصين الا أن هذا التطوير لا يزال محيرا وغير مفهوم فى بعض جوانبه ؛ لأنه يبدو أن ديو لديانوس تردد أول الامر فى فرض نظام ضرائبى واحد على ولايات الامبراطورية حسب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتباينة . ثم وضع التقدير الضرائبى على أساس وحدة انتاج للاراضى iuqatio او حسب وحدة انتاج بشرى Capitatio

وكلمة Capitatio التى هى وحدة الانتاج البشرى للفرد ، مشتقة كما هو واضح من الكلمة اللاتينية Caput ومعناها « الراس » أى أنها اقرب الى ضريبة الراس لكنها لم تكن ضريبة ، بل وحدة تقدير الضريبة لانها وحدة قياس الانتاج الفردى سواء بالنسبة للمزارع الصغير او الاجير الزراعى Colonus أو للمؤجر ارضه عن طريق مشاركة المحصول مع مزارعيه ، وقد تباينت هذه الوحدة الانتاجية حسب ظروف البيئة والمناخ والخصوبة والمحاصيل المناسبة فكانت المراة مثلا تعتبر نصف وحدة (demi caput) والماشية اقل من ذلك بقليل .

وقد ذكرت المخطوطات السوريانية فى العصر الرومانى ان وحدة التقدير الضرائبى فى سوريا مثلا لم تكن الراس Caput بل انتاج مساحة معينة من الأرض بالقمح وتعرف باسم iugatio وكانت مساحة هذه الوحدة تختلف حسب نوعية الارض فهى تعادل انتاج عشرين

فدانا (١) من الأرض الجيدة أو أنتاج اربعين فدانا رومانيا من الأرض المتوسطة الجودة ، أو ستين فدانا من الأراضى الرديئة الانتاج » وكانت هذه الوحدة الانتاجية الزراعية تعادل ايضا محصول انتاج خمس أفدنة مزروعة بالكروم أو انتاج مساحة من الأرض السوداء مزروع عليها ٢٢٥ شجرة زيتون أو أرض رملية مزروع عليها ٤٥٠ شجرة زيتون . وباختصار كان « اليوجوم » iugum هو المساحة من الأرض المنتجة والمعادلة فى انتاجها للراس Caput .

ومن الملاحظ ان وحدتى الحساب الضرائبى متداخلتان ، وعن طريق ذلك استطاع المسؤلون عن الضرائب اجراء الحساب الدقيق لتحديد القيمة الضرائبية المطلوبة على الانسان او ما يملك من عقار او ماشية وحسب ظروف مقاطعته أو دوقيته (٢) . ويقرر الامبراطور بالتشاور مع قائدى الحرس البرايتورى كل عام القيمة التى يجب أن تفرض على كل راس أو عقار .

هكذا جعل ديوقلديانوس معظم الضرائب عينية ، لكن سمح أبان القرن الرابع والخامس بتخويل هذه الكمية العينية الى مبالغ من المال ؛ ويرى الاقتصاديون أن دفع الضرائب عينا كان فى صالح الناس لأن التجارة فى ذلك الوقت كانت فى تدهور والمعروض أكثر من المطلوب لدرجة أن الفلاح كان يجد صعوبة فى تسويق ما لديه من محاصيل زراعية من أجل الحصول على المال المطلوب منه كضرائب .

وكانت الهيئة المسئولة عن جمع الضرائب تختار من هيئة أعضاء المجالس والبلدية curiales فى الولايات المختلفة (٣) والذين كانوا عادة أعضاء بارزين فى مجالس الشورى فى بلادهم . وكثيرا ما عرضوا باسم

(١) وحدة الفدان (iugum) هنا رومانية والفدان الرومانى أكثر قليلا من نصف الفدان المصرى . ولكن فى شمال أفريقيا كان وحدة الانتاج هى millena أو ما يعادل مائتين فدان رومانى اما فى جنوب ايطاليا فكانت الوحدة هى centuria التى لا نعرف عنها شيئا » وفى مصر وصفه الوالى عام ٢٩٧ بأنه حصة من كل أرورا مع وضع الاعتبار لنوعية الأرض وحصة كل فرد من الفلاحين
cf. A Boak and W. Sinnigen, op. cit., p. 462.

(٢) طبق هذا النظام بحذافيره فى ولايات آسيا الصغرى وبنطوس وذلك لقربهما من نيقوميديا حيث كان يقيم ديوقلديانوس ، وطبق الى حد كبير فى ولايات تراكيا والليريا وبلاد الغال وطبق جزئيا فى مصر وفى شمال أفريقيا ووسط جنوب ايطاليا .

(٣) تشتق كلمة Curialis من الكلمة curia اى المجلس ويعنى مجلس الشورى أو المجالس المحلية التى كانت تقوم بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وشعوبها.

هيئة العشرة decem Viri . ولم تكن هذه الهيئة سوى ضحية من ضحايا الأجحاف الرومانى لأنها كانت تدفع من اموالها الخاصة اى عجز فى المبالغ المقررة على المناطق المسئولين عنهـا نتيجة لسوء الأحـوال الانتـاجية أو لهروب المزارعين من الريف عند عجزهم عن دفع الضرائب .

ولاول مرة طبق ديوقلديانوس على ايطاليا ما كان يطبق على الولايات اذ قسمها الى عدد من المقاطعات وفرض على كل منها نوعية معينة من الضرائب شأنها فى ذلك شأن اى مقاطعة فى الامبراطورية . وهكذا اختفى الخط الوهمى الذى كان الامبراطور اغسطس يحرص على وجوده ليفصل بين ايطاليا وبين توابعها من بقية الولايات .

تقييم النظام الضرائبى الجديد :

لقد كان لهذا النظام الضرائبى مزاياه وعيوبه ، فمن ناحية اصبح للامبراطورية ميزانيـة ثابتة وشروط يحسب حساب نفقـاتها مستقبلا وتصحح ميزان مدفوعاتها مما اعاد الى الاقتصاد بعض الاستقرار والى النقد شيئا من القيمة ، كما سـاعد هذا النظام دافعى الضرائب انفسهم [illegible] هناك ظلم او اجحاف لولاية دون اخرى ، كما انه عرف الناس مقدما بما يدفعون من حيـازة او مال . كمـا ان نظام الضريبـة العينية شجع على زيادة الانتاج الزراعى وتسويقه (١) وبالتـالى ساعد الزراع على التوسع فى الانتاج ، ففى فترة الركود التسويقى عندما عجز الفلاحون عن بيع الفائض من انتاجهم حجموا عن زراعة مساحات كبيرة من الأرض الا بما يكفى حاجاتهم وما يقايضون به جيرانهم مقابل منتجات استهلاكية اخرى .

ومن ناحية ثانية ، كان هذا النظام بداية لتصفية الطبقه المتوسطة فى المقاطعات والولايات المختلفة وتحويلها الى طبقة دنيا او الى اجـراء زراعيين تحولوا الى العمل فى اقطاعيات الاغنياء وهو بداية عصر الاقطاع الذى عرفتـه العصـور الوسطى . ولهـذا يعتبر بعض المؤرخين عصر ديوقلديانوس كنقطة التحول من العصر القديم الى العصر الوسيط بالنسبة لتـاريخ أوروبا .

لم يعلم دقلديانوس — عندما قلد سبتيميوس سيفيروس وحمل اعضاء المجالس المحلية فى اجزاء الامبراطورية مهمة جمع الضرائب — ان عملـه هذا سوف يدمر الطبقة البرجوازية ويحولها الى اجراء عند الاقطاعيين

(١) كما كان يسمح بتحويل الضريبة العينية الى ضريبة نقـدية (adaeratio) وكانت الدولة تصدر تباعا قائمة بالقيم الشرائية لنقودها لتيسير ذلك على موظفى الضرائب.

القلائل ويدمر بذلك بهجة الحياة فى مدن الامبراطورية الغربية ، والتى كان مصدرها تلك الطبقة التى لعبت دورا حيويا فى المجالات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية فى عصر الامبراطورية المبكر ، لانهم كانوا ينفقون من أموالهم الخاصة على تجميل مدنهم بآيات الفن والمعمار ، وانشاء مرافق الخدمات العامة ، والانفاق على وسائل التثقيف والتسلية ، واطعام المعوزين ، بل كانوا يزودون قوات الامبراطورية العابرة بالمؤن واماكن الراحة (hospitium) بل وكانوا يتولون تبديل خيول عاملى البريد الامبراطورى عند وصولهم الى مدنهم ، فضلا عن القيام بدور وكلاء الحكومة المركزية للامبراطورية كل هذا كانوا يقومون به طواعية ومن أموالهم الخاصة ، ولم يعبأوا بذلك ما داموا ميسورى الحال ، وقد صدق الامبراطور مايوريانوس Maiorianus (٤٥٧ — ٤٦١ م) عندما وصفهم بأنهم عصب الامبراطورية بالرغم من أن عددهم فى ذلك الوقت كاد أن يكون قد انقرض بفعل نظام ديوقلديانوس الذى جلب عليهم الافلاس والدمار الاقتصادى ، لأنه فرض عليهم دفع العجز فى النسب المقررة على مقاطعاتهم من أموال الخاصة ، ولما كان هؤلاء المسئولون عاجزين عن جباية الضرائب من ذوى النفوذ من أصحاب الاقطاعيات ، فقد شددوا قبضتهم على ذوى الملكيات الصغيرة والطبقات الدنيا واستخدموا معها أبشع الطرق فى سلخها وتحصيل الضرائب والمتأخرات منها (١) . ولما ضاقت هذه الطبقة ذرعا تهربت من مسئولية الالزام الوظيفى بالعمل أما كجنود أو كأجراء فى الاقطاعات الكبرى او الهروب الى سلك الكهنة والرهبان ، ولهذا حاول الاباطرة تقييد هروب هذه الطبقة من مسئولية جمع الضرائب بالزامهم بمناصبهم فى مقاطعاتهم ، وجعل هذا المنصب وراثيا والزاميا .

وكما جلب نظام ديوقلديانوس الخراب على الطبقة البرجوازية فقد جلب البؤس والفقر على أصحاب الملكيات الصغيرة من الفلاحين والأجراء (Coloni) لأنهم هربوا من الارض عندما أصبحت الزراعة لا تعود عليهم بفائدة بعد تسديد الضرائب المطلوبة ، ووجدوا أنه من الايسر لهم أن يرهنوا ارضهم ، وان يعملوا كعمال زراعيين فى الاقطاعات الكبرى ، أو يلجأوا الى عصابات قطاع الطرق . ولهذا اضطرت حكومة الامبراطورية فى عصر قسطنطين الاكبر الى اصدار قرار فى عام ٣٣٢ ميلادية يفرض على الأجراء الاستمرار فى الزراعة وبذلك أصبحت طبقة عبيد الارض طبقة دائمة . واصبح الاقطاعى لا يملك الارض فحسب بل الارض والعبيد العاملين فيها واذا باع الارض انتقلت ملكية العبيد المزراعين Coloni الى المالك الجديد .

---

(١) يقول احد كتاب القرن الرابع tot curiales, tot tyranni كل أعضاء المجالس البلدية طغاة .

ومن الجدير بالذكر ان الامبراطورية البيزنطية ورثت هذا الاقطاع الذى استمر قائما فى بعض الـولايات الاوربيـة الغربيـة حتى مطلـع القرن العشرين .

٥ ـ اصلاح نظام النقد :

سبق أن ذكرنا أن الحروب ونفقات الدفاع دفعت أباطرة القرن الثالث الميلادى الى سك عملات كثيرة تزيد كثيرا عن الرصيد الموازى لها من المعادن الثمينة وذلك من أجل دفع رواتب الجنود الخاصة المرتزقة وللانفاق على الحملات الحربية والاستحكامات الدفاعية وكانت النتيجة هو تدهور قيمة العملة الرومانية ، لأن مناجم الفضة لم تعد تنتج وبالتالى تضاءلت نسبتها فى العملة بشكل ملحوظ لدرجة انه لم يعد يفصل بين العمـلة البرونزية والفضية شيء يذكر كما يظهر من النقود السكندرية التى عثرنا عليهـا فى الفيوم من ذلك العصر . ونتيجة لذلك رفضت الناس قبول التعامل بهذه العملات ولجأوا الى تفضيل نظام المقايضة ، مما عاد بالاقتصاد الرومانى الى البدائية .

وانقاذا لنظام النقد المنهار لجأ ديوقلديانوس الى حركـة الاصـلاح النقدى فى نهاية القرن الثالث ، فأصدر قرارا باغلاق دور سك النقـود المحليـة فى ولايات الامبراطورية المختلفـة (١) وركز عملية اصـدار وسك العملة الموحدة لكل ولايات الامبراطورية فى دور سك النقـود المركزية . وسك عملتين رسميتين واحدة من الذهب والأخرى من الفضة الخـالصة الى جانب ثلاثة فئات من الوحدات والكسور الصغـرى التى سكت من خليط الفضة بالبرونز أو من البرونز الخـالص . ففى عام ٢٨٦ بدا اصلاح النقد بأن الغى الجنيه الذهبى الرومانى القـديم والذى كان يعرف باسم aureus واحل محله جنيه ذهبى جديد وجعل وزنه ١/٦٠ من رطل الذهب الرومانى (والذى كان يزن ٣٢٧ جرام تقريبا من الذهب الخالص) ثم صك الجنيـه الفضى argenteus وجعل وزنه ١/٩٦ من رطل الفضة الرومانى وبذلك أصبح مساويا للدينار الرومانى فى مصر فى عصر نيرون تقريبا . اما الكسور الصغرى فاكبرها هو (Follis) واصغرها هو الدينار ذو القشرة الفضية وكانت « الفولليس » تساوى عشرين من هذه الدنانير القشرية .

---

(١) ومنذ ذلك التاريخ تنتهى نقود الاسكندرية التى بدات مع بداية الحكم الرومانى لمصر أنظر :

Louis. C. West & Alan Chester Johnes : Currency in Roman and Byzantine Egypt Princeton, 1944, p. 2.

وفى عام ٣٢٤ خفض قسطنطين من وزن جنيه ديوقلديانوس aureus وغير اسمه الى السوليدوس Solidus ونجحت هذه الفكرة لأن السوليدوس اصبح عملة مقبولة فى كل انحاء الامبراطورية . حتى فى العصر البيزنطى وخلال العصور الوسطى حيث عرف باسم البيزانت (Bezant) ، ويقول علماء النقود ان السوليدوس وصل الى فارس شرقا ، كما عثر على قطع النقد الجديد فى مناطق مختلفة بالولايات الغربية مثل المانيا وأيرلندا واسكوتلندا واسكاندنافيا وفى الشرق عثر عليه فى مصر والشرق الأوسط بل وفى الهند وسيلان شرقا ، وهذا دليل على نجاح حركة الاصلاح النقدى التى قام بها ديوقلديانوس والتى اعاد بها الاستقرار الى نظام النقد ، بينما يرى بعض علماء الاقتصاد ان هذا الاصلاح ادى الى تدهور فى قيمة العملة الشرائية ويرجعون ذلك الى ان الناس عندما علموا مقدم الغاء النقود القديمة لجأوا الى التكالب على التخلص مما لديهم من عملا قديمة واستبدلوها بسلع ومواد مختلفة وقد ادت حمى التكالب على الشراء الى ارتفاع باهظ فى الأسعار ، وارتفاع فى مستوى المعيشة بشكل مخيف .

لائحة الحد الأقصى للاسعار :

انزعج الامبراطور لهذا الارتفاع المجنون فى الأسعار وانعكاس ذلك على مستوى المعيشة لجنوده وموظفيه الذين لم تزد رواتبهم ، ومن ثم اصدر فى عام ٣٠١م لائحة تتضمن الحد الاقصى لأسعار السلع الاستهلاكية Edictum de maximis pretiis وهى تعتبر أعظم وثيقة اقتصادية يفخر بها علماء التاريخ الاقتصادى بعد تجميع أجزائها من النقوش فى الولايات الشرقية . شملت اللائحة اسعار السلع المختلفة مثل القمح والشعير والدجاج واللحوم والخضروات المتنوعة (حتى البصل والفجل) والفواكه المختلفة والسمك والنبيذ بكل انواعه ومواطن انتاجه ، كما شملت هذه اللائحة كل انواع المنسوجات ابتداء من الثياب الصوفية الغليظة الى حرير الصين الفاخر ، بل وشملت ادوات الكتابة مثل الحبر والورق وجلد الكتابة parchment ، حتى اجور الحرف المهنية حددت أجورها (حتى قص الشعر حدد اجره) وجعل ديوقلديانوس عقوبة المخالف لهذه التسعيرة سواء كان البائع أم المشترى ـ هى الموت . وان كان من المحتمل ان يكون هذا الاجراء قد نجح مؤقتا ولكنه يقض مطلقا على صانعى الأزمات التموينية وتجار السوق السوداء الجشعين لأن الدولة لم تكن هى المنتجة للسلع وبالتالى لم تستطع التحكم فى اسعارها ومصادر انتاجها ولهذا يعتقد علماء التاريخ الاقتصادى أن التجار أجبروا الحكومة

على أن تلعق هذه اللائحة خاصة بعد اندحار العملة القديمة وانتشار العملة الجديدة . لكن بالرغم من هذا ظلت هذه اللائحة هى مقياس تحديد الأسعار بالنسبة للحكومة خاصة عند تحويل الضريبة العينية الى ضريبة نقدية (adaeratio) وبالتالى عند تحديد الضرائب العينية .

ان دراسة هذه الوثيقة الهامة تضع بين أيدينا صورة « تقديرية » لاثمان السلع والمهن والخدمات ، والتى عن طريقها تستطيع تبين مدى التغير الذى طرأ على الاقتصاد الرومانى منذ أواخر عصر الجمهورية وأوائل عصر الامبراطورية . مثلا نلاحظ أن القمح زاد ثمنه كثيرا بينما هبطت أسعار اللحوم وارتفعت أسعار المنسوجات والمصنوعات المعدنية والأجور ويشرح علماء الاقتصاد أسباب هبوط أسعار اللحوم الى زيادة مساحات المراعى على حساب الأراضى المزروعة كما يفسرون ارتفاع الأجور الى اختفاء العبيد كمنافس للعامل الرومانى ويعللون ارتفاع أثمان المصنعات المعدنية الى تدهور الانتاج فى المناجم .

الاضطهاد الظالم للمسيحيين :

شعر الرومان ان المسيحيين يقفون موقف المنطويين على انفسهم والرافضين فى التعاون من أجل حماية الامبراطورية من الأخطار المحدقة بها ؛ كما هاجمهم بشدة المتطرفون الوثنيون الذين أحاطوا فكرة التقديس والحق الالهى فى الحكم التى بنى عليها ديوقلديانوس حكمه - احاطوها بالحماس والايمان لانهم كانوا يدركون اهمية توحيد العقيدة الوثنية فى شخص الامبراطور كعامل من عوامل الوحدة الوطنية فى رحاب التراث الدينى القديم الذى بنى عليه الاسلاف الامبراطورية . وبالتالى نظر هؤلاء الى المسيحيين نظرة الخارجين على الاجماع الوطنى والمنشقين عن التراث القومى القديم فى سبيل عقيدة جديدة وافدة من الشرق .

لكن ما الذى جعل ديوقلديانوس ينهى فجأة اربعين عاما من التسامح الدينى الذى ساد منذ قرار الامبراطور جاللينوس عام ٢٦٠ م الخاص بالتسامح مع أصحاب الديانات المختلفة وينهى حكمه المسالم الانسانى ويقوم بأكبر عمليات التصفية الجسدية التى عرفها التاريخ لدرجة ان الكنيسة المرقسية القبطية فى الاسكندرية قررت فيما بعد جعل تاريخ تولى ديوقلديانوس بداية للتقويم القبطى .

يرى بعض المحللين ان هذا التصرف الذى قام به ديوقلديانوس لا يتنافى ومنطقة وطبيعته الميالة الى الحفاظ على التقاليد والتراث وان

هذا النمط من البشر يصبح اكثر تعصبا كلما تقدمت به السن ، ونحن نعرف كيف أن ديوقلديانوس أعلن انه جوبتر فى صورة البشر Jovius وانه فعل ذلك لانه لا يمكن احياء الامبراطورية عسكريا بدون أحياء العقائد الوثنية التى قامت عليها . ولهذا لابد وانه قرر تصفية المسيحيين بناء على ذلك خاصة وان المسيحية تسللت داخل الجيش الامبراطورى وداخل أجهزة الدولة الادارية بل وتسللت داخل القصر الامبراطورى نفسه ، كما أن التنظيم الدقيق الذى قامت عليه الكنيسة جعل من الشعب المسيحى دولة داخل الدولة . وقد نظر الرومان الوثنيون الى خلايا المسيحية على انها عناصر هدامة مخربة تريد هدم التراث الدينى والمجد الرومانى العريق لتقيم على حطامه ديانة غريبة ولهذا يعتقد بعض المؤرخين أن ديوقلديانوس أجل عملية تصفية المسيحية الى بعد الانتهاء من باقى اصلاحاته وبعد الانتصار على الفرس وهى جزء مكمل لمخططه العام بأحياء المجد الرومانى المترنح .

ومن ناحية اخرى يدافع بعض المؤرخين عن ديوقلديانوس ويبرؤنه من تهمة الاضطهاد العالقة به ، ويقولون انه كان رجلا متحررا من اى تطرف دينى أو فكرى بل انه فتح الأبواب على مصاريعها لكل جديد ، وانه من النمط الهادىء المفكر ، صاحب الرؤيا الواضحة ، وانه كان مشغولا بشىء واحد فقط وهو عودة السلام وحماية الامبراطورية من أعدائها فى الخارج ؛ وانه كان يعرف مدى فشل فكرة الاستئصال وكيف ان المسيحيين نهضوا اشد قوة وبأسا بعد تصفيات دقيوس وفاليريانوس فكيف يقوم الامبراطور الذكى بمحاولة اخرى فاشلة ؟ ولماذا يحول الهدوء والسلام الذى حتته الى فوضى ورعب وقتل ضد طائفة من شعبه وبشكل وحجم مرعب لدرجة انه اعتبر أطول واقسى عملية تصفية ضد المسيحيين على طول تاريخ الامبراطورية الرومانية ؟

لقد وجه لاكتانتيوس Lactantius المفكر المسيحى — الذى كان يقيم فى قصر ديوقلديانوس فى نيقوميديا ليشرف على تربية الأمير قسطنطين (Constantinos) ابن قسطانتيوس نائب الامبراطور فى الغرب — وجه اصبع الاتهام الى جاليريانوس Galerianus نائب ديوقلديانوس فى الشرق والى هيروقليس Hierocles حاكم ولاية بيثينيا وصاحب الرسالة المشهورة والقائمة على منطق الافلاطونية الجديدة والتى بعث بها الى ديوقلديانوس طالبا منه الشروع فى الحال فى تصفية المسيحيين . وكان القيصر جاليريانوس قد كسب سمعة وشعبية كبيرة بين الرومان منذ انتصاره على الفرس وكان بالفعل من الد اعداء المسيحية .

بدات عملية الاضطهاد عام ٢٩٩م اثنــاء تقــديم الاضــاحى وفحص العرافين لامعــاء الحيوانات المنحــورة لقــراءة المستقبل ، حيث أعلــن العرافون فجأة أن وجود عناصر غير مؤمنة ابطل القــداسة المطلوبة القيام بهذا العمل ، عندئذ غضب ديوقلديانوس واصــدر أمرا بأن يقوم كل من فى قصره بتقديم القرابين للالهــة الامبراطورية القــديمة ابتداء من زوجتــه حتى اصغر حراسه ومن يخالف أمره يجلد .

وقد استغل جاليريوس هــذا الحادث وراح يضغط على الامبراطور المسن بضرورة تصفية المسيحية من الامبراطــورية ، ومن ثم سمح له بأن يعلق الأوامــر الامبراطــورية فى كل مكان تلزم جنــود وضبــاط الجيش الامبراطورى بتقديم الاضــاحى والقرابين لالهة الامبراطورية القــديمة وجعل الطرد من الخدمة هو عقوبة من يرفض ذلك ، ثم تلى ذلك باصدار قرار امبراطورى (Edict) بتدمير الكنائس المسيحية وحرق الاناجيل أوجمعها من النــاس ، وتحــريم القيــام بأى صلوات أو شعائر مسيحيــة والغى قرارا سابقا كان يسمح للمسيحيين بالدفاع عن انفسهم فى المحاكم والالتجاء الى القضاء الرومانى . لكن حتى هذه اللحظة لم يسمح دقلديانوس .. بأى سفك للدماء بل حرص على ان تتم اوامره سلميا .

ولكن فجأة وفى ليلة من ليالى شتاء عام ٣٠٣ ميلادية وقبل ان يصدر القرار الامبراطورى هاجمت قوات الحرس الامبراطورى الكنيسة الصغيرة التى كانت تقف فى مواجهة القصر الامبراطورى فى نيقوميديا وهى لاتزال قائمة حتى الآن فى سبالاتو فى يوغوسلافيا وخربوها . ثم اذيع القــرار فى اليوم التالى وحدث أن ثار احد المسيحيين على هــذا القــرار ومزق أحدى الملصقات الخاصة به فقبض عليه الحرس واشعلوا فيه النــيران حتى الموت .

وزاد الأمر سوءا اشتعال النيران مرتين على مدى اسبوعين فى قصر الامبراطور ديوقلديانوس فى نيقوميديا بفعل حريق غامض ، وبالطبع وجهت اصابع الاتهــام الى عدد كبير من المسيحيين ، لأن الحرائق نشبت فى أعقاب القرار الأول الخاص بهدم الكنائس وسحب الاناجيل وتحريم الشعــائر المسيحية خــاصة ان المسيحيين ارتبطوا بفكر اشعــال الحــرائق منــذ بــداية المسيحية وبالتحــديد منــذ حريق روما الكبير عام ٦٤ فى عهــد نيرون . وذلك لأن بعض المتطرفين منهم باتوا يتحــدثون عن النيران التى سوف تأكل العــالم بمن فيه من آثار تقوم بعدها القيامة . وعلى أى حال فقد تم القبض على عدد كبير من المسيحيين وسجنهم وتعذيبهم وموت عــدد

كبير منهم . ثم اندلعت ثورات صغيرة قيل أن المسيحيين هم الـذين قاموا بها فى ولايات سوريا وكابا دوكيا ولم يستغرق القضاء عليها سوى وقت قليل ، ولكن رد فعل ديوقلديانوس عليها جاء عنيفا ، اذ اصدر قـرار الاضطهاد الثاني بالقبض على القسس والكهنة وايداعهم السجون . ولما امتلأت السجون بهم ولم يعد هناك مكان لهم اصدر قراره الثالث والأخير فى مطلع عام ٣٠٤ وكان ذلك أثناء مرضه وهو يقضى بالعفو عن المسجـونين المسيحيين اذا ما قبلوا تقديم الاضـاحى الى الالهة الرومانية ، اما الـذين يرفضون فينفذ فيهم حكم الاعدام . ويدعى المسيحيون أن حقد جاليريانوس هو الذى كان وراء هذا القرار الأخير لأن الامبراطور كان مريضا لا يقـدر على الحكم آنذاك .

ومن الجدير بالذكر أن القرارات الثلاثة التى صدورت ضد المسيحيين طبقت فى أقاليم الامبراطورية بدرجات متفاوتة ، فمثلا طبقها جاليريانوس بدقة وقسوة فى الشرق اما فى الغرب فان قسطانطيوس لم ينفذ سوى القرار الأول وتباطىء فى القرارين الثانى والثالث لانه لاحظ أن فريقـا من الوثنيين خاصة فى مصر والشرق بداوا يتعاطفون مع المسيحيين ويخفونهم حتى لا يقعوا فى أيدى جنود الامبراطور .

مرض ديوقلديانوس واعتزاله :

اخيرا قـرر ديوقلديانوس أن يحتفل بمرور عشرين عام على توليـه العرش فى روما ، وبعد أن تم له ذلك حدث أن اشتدت عليه وطأة المرض لدرجة أن اقعدته حبيسا فى قصره فى نيقوميديا ، ولم يعـد قـادرا على الظهور فى المناسبات العامة . ويقول يوسيبيوس Eusebius ان جاليريوس انتهز الفرصة ليصـدر قرارا رابعـا يفرض على كـل المسيحيين تقـديم القرابين للالهة الوثنية والا اعدموا أو قضوا حيـاتهم فى عمل شـاق فى مناجم الـدولة . وعندما تنازل ديوقلديانوس عن الحكم كانت عملية تصفية المسيحية قائمة على اشدها .

وفى الفاتح من شهر مايو عام ٣٠٥ ميلادية وفى حضور قواته مجتمعة فى نيقوميديا أعلن ديوقلديانوس رسميا اعتزاله الحكم وخاطب جنـوده والـدموع تسيل على وجنتيه قائلا لهم أنه لم يعد قـادرا على الحكم لمرضه وتقدم السن به . وفى اليوم ذاته أعلن ماكسيميانوس فى ميلان اعتزالـه الحكم أيضا وفاءا لعهد قطعه على نفسـه أمـام ديوقلديانوس أن يغـادر الحكم معه فى وقت واحد . حتى يعطيا الفرصـة للنظام الذى أقاماه ليثبت نفسه بدونهما .

وعين ديوقلديانوس قسطنطيوس ذا الوجه الشاحب Chlorus ليشغل منصب ماكسيميانوس فى الغرب ، كما عين جاليريوس ليشغل منصبه فى الشرق . واعطيت الزعامة فى الغرب لقسطنطيوس الاشحب اذ منح حق الاشراف على ولايات بلاد الغال ؛ وبريطانيا واسبانيا وموريتانيا ؛ بينما تولى جاليريوس على منطقة البلقان ومعظم أجزاء آسيا الصغرى . كما اختار جاليريوس ابن شقيقه ويدعى ماكسيمينوس Maximinus Daia نائبا له بدرجة قيصر لحكم الشرق وأن يوكل اليه ولايات آسيا الصغرى وسوريا ومصر . واضطر قسطنطيوس أن يتخطى ابنه ويختار رجلا آخر هو فلافيوس فاليريوس سيفيروس Flavius Valerius Severus ليشغل منصب نائبه فى الغرب وأن يوكل اليه حكم ايطاليا وافريقيا وبانونيا . وبذلك اهمل ماكسينتيوس Maxentius ابن ماكسيميانوس كما اهمل قسطنطين ابن قسطنطيوس .

ويبدو أن ماكسيميانوس غضب لاهمال أبنه كما كان غير راض عن تنازله عن العرش مبكرا فسافر الى لوكانيا لينتهز أول فرصة للعودة الى العرش ، أما ديوقلديانوس فقد اعتزل الحياة وعاش فى قصره فى سبلاتو يزرع حديقته الخاصة وينعم بالهدوء والراحة الى أن وافته منيته فى عام ٣١٢ ميلادية .

تقييم لحياة وأعمال ديوقلديانوس :

مات ديوقلديانوس فى قصره المطل على بحر الادرياتيك فى سبالاتو عام ٣١٦ بعد أن طال به العمر ليشاهد نظامه ينهار والصراع حول العرش يعود من جديد . ويبدو أنه احس بأنه فشل فى النهاية ، ولكن اصلاحاته قدر لها أن تشكل الحكم والسلطة للقرن التالى كله بعد ان اصقلها وطبقها قسطنطين الكبير .

كان مبدأ ديوقلديانوس ان السلطة لا تصلح بالانفراد بل يجب أن تكون بالمشاركة واحترم خلفاؤه هذا المبدأ . كذلك بقى من معالم نظامه النزعة السلطوية للحكم والابهة الشرقية للقصر . وفى القرن التالى لم يجد الاباطرة بدأ من أعادة تطبيق سياسة ديوقلديانوس العسكرية والادارية والمالية والنقدية بعد أن طوروها .

لم يدر ديوقلديانوس عندما جعل للامبراطورية اربعة قواعد للحكم هى : نيقوميديا وسرميوم فى الشرق وميلان وتريفيز فى الغرب ، انه بدأ الاتجاه نحو تقسيم الامبراطورية اداريا وبذلك سلب روما مركزها القيادى

القديم وأصبحت عظمتها ماضيا بعيدا عن الواقع . ولم تعد سوى مدينة كبيرة بين مدن الامبراطورية الكبرى فى الشرق والغرب .

ويمكن أن نقول ان نقطة الضعف الوحيدة فى اصلاحات ديوقلديانوس هى نظام الضرائب الذى ترك انطباعات كبيرة على مجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى القرون التالية ، مثلا أدى الزام المسؤلين عن جمع الضرائب من أعضاء المجالس المحلية (Curiales) بدفع النقص الناجم عن تاخر الفلاحين او عجزهم أو هروبهم ، من أموالهم الخاصة وان توضع ممتلكاتهم كرهينة عند الدولة مقابل ذلك اذ ادى ذلك الى تهرب الطبقة الميسورة الحال فى مختلف اجزاء الامبراطورية من تولى مثل هذه المناصب الشرفية واضطر قسطنطين الى أصدار قرار يجعل تولى هذه المناصب اجبارية ووراثية . وكان ذلك يعنى عملية افقار للطبقة الوسطى أدى الى القضاء عليها .

أيضا وجد مستأجرو الأرض ان انتاجهم لا يكفى القدر المطلوب منهم لتسديد الضرائب فلجأوا الى تغيير محال اقامتهم من قرية الى اخرى أو ترك مهنة الزراعة الى مهنة اخرى . ولكن الدولة لم ترحق بذلك وذلك لانها كانت تبنى سياستها على تقدير ضرائبها كل عام وتطالب بكل مليم قررته حتى لاتحدث فوضى لمشروعاتها التى تحددها بناء على التقدير الضرائبى؛ ولهذا قررت الدولة ربط مصير الفلاح بالأرض والانتاج وجعل هذه الحرفة وراثية وربط الفلاحين بقراهم . ولم يسمح بالتغيير أو التبديل ، كما طبق ذلك على أصحاب الضياع وبذلك ظهرت طبقة أقنان الارض Serfdem وسادتها الذين اصبحوا يملكون ويتوارثون الاقطاعيات ومن عليها .

ولم يكن اصحاب الملكيات الصغيرة او اصحاب المهن والتجار وكبار الموظفين والجنود أسعد حالا من الفلاحين لان الدولة قيدتهم بأوضاعهم التى جعلتها وراثية واجبارية وتحولت نقابات اصحاب المهن الى هيئات (Corpora) واصبح أعضاؤها يعرفون باسم أعضاء الهيئة Corporati وذلك لكي تضمن الامبراطورية مطالبها وتسيير شؤنها .

وهكذا تحولت فلسفة العمل من التعاقد الحر (Free Contract) الذى ساد ابان عصر الجمهورية واوائل عصر الامبراطورية الى فلسفة الوضع الثابت ... (١) . هذه الفلسفة هى المسؤلة عن تحجر (petrification)

---

(١) أى أن عضو المجالس الشعبية Curia اصبح مقيدا بالمجلس Colonus كما ... والجندى بالجيش والفلاح Curialis بالعمل فى الأرض ، وتحول ذلك الى وراثة واصبح الاصل Origo المهنى وظيفة .

الامبراطورية وانهيارها ، لان وكلاء الدولة Curiales وأعضاء الهيئات الحرفية Corporati لجأوا الى الهروب من مهنهم بدخول الجيش أو الانضمام الى هيئات المكاتب البيروقراطية (officiales) او التحول الى أقنان للارض Coloni يعملون عند اصحاب الاقطاعيات .

عودة الصراع حول العرش ٣٠٦ – ٣٢٤ م :

عصفت الاحداث بعد اعتزال ديوقلديانوس بنظام السلطة الرباعية فهزته من جذوره ، وعاد الصراع والحروب الأهلية بين المتصارعين على العرش وكأن ذلك صراع قدرى لابد أن يحدث طبقا لفلسفة البقاء للأصلح .

بدات بشائر الصراع عندما مات قسطنطيوس خلوروس فجأة عام ٣٠٦ ، وهتفت قواته بابنه قسطنطينوس وريثا له دون أن تستشير جاليريانوس الامبراطور الشريك ، ولم يجد هذا الأخير بدا من أن يقبل الأمر الواقع fait accompli ويعين قسطنطينوس بدرجة قيصر مثله مثل ماكسيمينوس دايا بينما رقى سيفيروس الى درجة الامبراطور الشريك Augustus . الى هنا كان الأمر مقبولا . ولكن ماكسنتيوس ابن ماكسيميانوس الامبراطور المعتزل أعلن أن له هو الآخر حق فى تولى العرش مثل قسطنطينوس تماما .

واعلن انه سوف يقاتل من اجل ذلك الحق ، ثم دعى أباه من تقاعده ليساعده فى تحقيق هذا المطلب ، ونجح ماكسيميانوس وأبنه مكسينتيوس فى اثارة ايطاليا وكسب تأييدها بوعده اياها باعادة المركز المتميز بها على باقى ولايات الامبراطورية ، كما كسبا الى جانبهما ولاية أفريقيا ، وغرقت الامبراطوريةفى حروب وانقلابات ومؤمرات ومؤتمرات ومعاهدات وتحالفات عديدة ، ورفع القياصرة (النواب) السلاح فى وجه الاباطرة . لقد حدث ذلك وديوقلديانوس لا يزال حيا . وفى خلال الفترة ما بين ٣٠٧ – ٣١١م تصارع على العرش خمسة رجال هى : جاليريوس وماكسنتيوس وماكسيمينوس دايا ، وليكينيوس Licinius (الذى حل محل سيفيروس) وقسطنطين .

ففى عام ٣١١ مات جاليريوس من مرض خبيث وسقط ماكسنتيوس صريعا (١) أبان القتال ضد قسطنطين عند جسر ميلفيا على نهر التيبر

---

(١) وصف « دى ديكر » ماكسنتيوس بانه كان مسيحيا فى الاصل ثم ارتد للوثنية .
De Decker : «La politique religieuse de Maxence», Byzantion, XXX AIII, 1968.

وأن السبب هو السياسة ذات الهدف وهو احياء عبادة الربة روما ارضاءا لشعبها

عام ٣١٢ ، وسقط ماكسيمينوس دايا بعد هزيمة قواته على يد ليكينيوس ولم يتبق فى ساحة الصراع سوى أثنان هما قسطنطينوس وليكينيوس . وقد تزوج الأخير من شقيقة الأول دعما لاواصر المصاهرة . وكان ذلك فى عام ٣٢٤ م .

وهكذا انحصر الصراع على عرش الامبراطوريه بين هذين العائدين . وراح كل منهما يتربص بالآخر . وكان قسطنطين ذكيا طموحا لأنه حرص على لياقة قواته بالمران والقتال فى حملات مشتركة مع ليكينيوس ضد الجرمان ولكى يكسب التأييد المعنوى للمسيحيين أعلن انه شاهد علامة الصليب تظهر فى سماء روما عام ٣١٢ اثناء معركة جسر ميلفيا وحولها عبارة « بهذا الرمز سوف تنتصر » : in hoc Signo Vinces .

وفى عام ٣٢٣ حدث ما كان متوقعا عندما اتهم ليكينيوس شريكه قسطنطينوس بانتهاك اراضيه اثنا معاركه ضد القوط وتبادلا الاتهامات ثم حدثت الحرب بينهما وطارد قسطنطينوس غريمه حتى قبض عليه وقتله وأصبح مصير الامبراطورية فى قبضة رجل واحد هو قسطنطينوس الاكبر أو كما يعرفه الاوربيون قسطنطين الكبير .

الفصل العاشر

حكم قسطنطينوس (قسطنطين) وخلفاؤه

نشأته :

كان قسطنطين ابنا غير شرعى للامبراطور قسطنطيوس خلوروس Contantius Chlorus (١) من عشيقته هيلينا (والمعروفة باسم هيلانة فى المصادر العربية) التى قد التقى بها فى بيثينيا Bithynia واقام معها لمدة سنوات ثم هجرها عام ٢٨٩ ليتزوج من ثيودورا Theodora ابنه زوجة الامبراطور ماكسيميانوس Maximianus . وتربى الطفل قسطنطين فى القصر الملكى فى نيقوميديا حيث ألم بأحداث الامبراطورية واسرار القصر الامبراطورى فنشأ متفهما لاسرار السياسة .

وعندما تنازل ديوقلديانوس وماكسيميانوس عن العرش تولى مكانهما جاليريوس وقسطنطيوس وأعطيت المكانة الاولى لهذا الأخير لكن جاليريوس كان صاحب النفوذ الحقيقى منذ هزيمته للفرس عام ٢٩٨ . كما كانت له اليد الطولى فى اختيار النائبين (القيصرين) وهما فلافيوس سيفيروس فى الغرب وماكسيمينوس دايا فى الشرق . ولهذا كان الاثنان تحت نفوذه وعن طريقهما كان جاليريوس يسيطر على معظم اجزاء الامبراطورية . . كما استغل جاليريوس وجود ابن قسطنطيوس الصغير فى قصره ليلوح به كرهينة فى وجه ابيه وليجعل منه مساعدا له فى تحقيق مخططه .

ظهور نجم قسطنطينوس فى سماء الاحداث ٣٠٦ م :

فى عام ٣٠٦ م غزت القبائل الاسكتلندية جنوب بريطانيا عندئذ طلب قسطنطيوس من جاليريوس ان يبعث له بولده ليساعده فى هذه الحرب . وحاول جاليريوس المماطلة خوفا مما قد يفعله الامير الشاب ولكنه رضخ

---

(١) R. MacMullen, Constantine, London, Weidenfield and Nicholson, 1970 ; also Herman Doerries, Constantine, The Great (trans. by R.H. Bainton) London, Harper and Row 1972.

فى النهاية ووافق على سفر قسطنطينوس الى ابيه ، وعندما احس الامير الذكى أن جاليريوس قد يغير من رأيه تسلل هاربا ليلا فى طريقه الى أبيه الذى التقى به عند بولونيا ومنها أبحرا الى بريطانيا معا .

وبعد عدة معارك قادها الاب والابن ، مات قسطنطيوس الاب فى يورك فى نفس البلد الذى قضى فيه الامبراطور سبتيميوس سيڤيروس نحبه وتجمعت القوات حول الامير اللامع وهتفت به امبراطورا « اغسطسا » مكان ابيه .

وفى الحال بعث قسطنطين برسالة الى جاليريوس يطلب منه الموافقة والاعتراف به امبراطورا شريكا مكان أبيه .. ورضخ جاليريوس تفاديا لنشوب الحرب الاهلية ولكنه بعث موافقا على تعيين قسطنطينوس نائبا للامبراطور بدرجة قيصر (Caesar) ورد الامير بالموافقة بدوره تفاديا للصراع وحرصا على بقاء السلطة الرباعية . وازاء ذلك صدر جاليريوس قرارا بترقية سيڤيروس اغسطس وتعينه امبراطورا شريكا له لانه كان من انصاره

ماكسينتيوس يتحدى السلطة الرباعية :

وما ان علم ماكسينتيوس ابن الامبراطور المعتزل ماكسيميانوس بتولى قسطنطينوس حتى أعلن احقيته فى وراثة منصب ابيه أسوة بقسطنطينوس. بل اعلن أنه ابن شرعى للامبراطور وليس أبنا غير شرعى مثل القيصر قسطنطينوس. ولكن جاليريوس اعترض على طلبه بشدة، لأنه لم ير فيه الشخص المقاتل الكفء والقادر . ومن ثم استدعى ماكسينتيوس أباه لمساعدته وتسلل الى ايطاليا حيث استغل سخط روما من تصرفات سيڤيروس الذى كان قد الغى الحرس البرايتورى بعد محاولة انقلاب فاشلة ضده كما أن فرض الضرائب . بـجدول الجديد جرح كبرياء الرومان . ومن ثم تمكن ماكسنتيوس من تدبير انقلاب هادى تولى به الحكم فى ايطاليا تحت وعده بعودة المكانة المتميزة الرومان على سائر شعوب ولايات الامبراطورية (١) ؛ وانضمت اليه ولاية أفريقيا التى كان سكانها يشكلون عنصرا رومانيا خالص المولد والثقافة . ووجه ماكسيميانوس نداء لديوقلديانوس بالعودة الى الحكم من اجل حماية نظامه ولكن ديوقلديانوس رفض التدخل وآثر الاعتكاف فى قصره ومراقبة الاحداث من بعيد .

وسرعان ما بدأ الشقاق يدب بين ماكسيميانوس وولده ماكسنتيموس

---

(1) B. Staknecht : Untersuchugen zur roemiscen Aussenpolitik in der Spaetantike (306-395. A.D.), Bonn, R. Habelt, 1963, p. 5 ff.

لان الاب والابن كانا يتنافسان على لقب أغسطس . ومن أجل ذلك سافر الاب الى تريڤيز حيث يقيم قسطنطين وقدم له ابنته الصغرى فاوستا Fausta كخطيبة له ــ وعرض عليه مساعدته للدخول فى معارك ضد كل من ماكسنتيوس والامبراطور جاليريوس وأن يعلن نفسه أغسطسا . ولكن قسطنطين الذكى اعتذر عن هذه الصفقة المشبوهة مفضلا الانتظار والتريث . فعاد ماكسيميانوس الى روما محاولا اثارة القوات ضد ابنه ولكن القوات رفضت ذلك فانسحب الى تريڤيز ليقيم فى بلاط قسطنطين . تاركا ابنه سيدا على ايطاليا وحده .

مؤتمر كارنونتوم Carnuntum .

ولما ادرك جاليريانوس ان كل ما فعله ديوقلديانوس على وشك من الانهيار وجه دعوة الى جميع الاباطرة القائمين على السلطة بالحضور الى مدينة كارنونتوم الواقعة على نهر الدانوب (فى منطقة ادنمسا حاليا) كما وجه الدعوة الى كل من ديوقلديانوس وماكسيميانوس وتخلف عن الحضور كلا من قسطنطين وماكسيمينوس دايا . واسفر الجدل فى هذا المؤتمر عن وجهات نظر مختلفة . فمثلا رفض ماكسيميانوس العودة الى الاعتزال؛ وحل ليكينيوس Licinius محل سيڤيروس الذى سقط قتيلا فى المعارك ضد ماكسينتيوس . وأعلن المجتمعون أن ماكسينتيوس عدوا للدولة يجب محاربته ، ووافقوا على تعيين كل من قسطنطينوس وماكسيمينوس دايانوابا للاباطرة . بينما وافقوا على تعيين كلا من جاليريانوس وصديقه ليكينيوس اباطرة شركاء . اى ان المستفيد من هذا المؤتمر كان جاليريانوس وصديقه ليكينيوس الامبراطور الجديد الذى احتج على تعين كل من قسطنطينوس وماكسيمينوس دايا نوابا له ولشريكه فى الحكم .

مؤامرة ماكسيميانوس ضد قسطنطينوس :

وبعد انتهاء مؤتمر كارنونتوم سافر ماكسيميانوس الى بلاط قسطنطينوس الذى استقبله بفتور شديد . وعندما غادر قسطنطينوس مقره فى تريڤيز ليقوم بحملة رادعة ضد الفرنجة فى عام ٣١٠ انتهز ماكسيميانوس الفرصة واعلن نفسه امبراطورا فى مدينة ارليس Arles ولما سمع قسطنطينوس بما حدث عاد وهو غاضب لمثل هذه الخيانة من رجل فتح له قصره . وضرب الحصار حول قواته وراح يطارده حتى استسلم فى مارسيليا . ولما وجد ماكسيميانوس ان الطريق امامه مسدود ، شنق نفسه فى حجرته وبذلك خرج من الصراع واحد من اكبر اقطابه .

بداية الصراع بين ماكسنتيوس وقسطنطينوس :

وردا على مؤامرة ماكسيميانوس أعلن قسطنطينوس الغاء عبادة هرقل الذى كان رمزا لعرش ماكسيميانوس واحل محله رب الشمس الذى لا يقهر (Sol Invictus) والذى كانت عبادته منتشرة فى بلاد الغال حيث كانوا يعتبرونه صورة لابوللون .

وقد صاحب ذلك اعلان قسطنطينوس بأنه يحكم بحق نسبته الى كلاوديوس القوطى الذى أدخل عبادة هذا الرب السامى وبذلك وجد قسطنطينيوس سندا يقيم عليه ادعاءه بأحقيته فى تولى عرش الامبراطورية كلها كما كان الحال أيام كلاوديوس القوطى . ثم اعلن معارضته على ما يفعله ماكسينتيوس بل واعتبره طاغيا يجب خلعه .

ورد ماكسينتيوس متهما قسطنطينوس بأنه هو الذى قتل اباه ماكسيميانوس ويجب أن يدفع ثمن هذه الجريمة .

فى عام ٣١٠ بدأ الصراع باستيلاء قسطنطينيوس على اسبانيا التى كانت المصدر الوحيد لاطعام الايطاليين بعد انفصال افريقيا عن ايطاليا عام ٣٠٨ ، وقد أحدث ذلك مجاعة كبرى فى روما صاحبها قلاقل وأعمال العنف سقط فيها ستة آلاف رجل . ولم يجد ماكسينتيوس طريقا آخر سوى مهاجمة افريقيا والاستيلاء عليها واعادتها الى ممتلكاته . وقد حسن عودة افريقيا الوضع الاقتصادى فى ايطاليا واختفت ازمة القمح . كما أن ضمها أعطى ماكسنتيوس قاعدة متقدمة ووضعا عسكريا أفضل ومن ثم راح يخطط لملاقاة وهزيمة قسطنطينوس .

جاليريانوس يصدر قرار التسامح الدينى :

ظل الاضطهاد الوثنى للمسيحية قائما حتى بعد اعتزال ديوقلديانوس واستمر يمارس بعنف فى الدوقيات التابعة لجاليريوس وهى الليريكوم وتراقيا وآسيا الصغرى ، كما طبقها بقسوة مشابهة ماكسيمينوس دايا فى الدوقيات التابعة له وهى مصر وسوريا . وكان ماكسيمينوس يصدر أحكامه ضد المسيحيين ابتداء من التشويه والتمثيل بهم الى الاعمال الشاقة فى المناجم والمحاجر . ووصلت به الشراسة حدا انه كان يقتل النساء والاطفال والشيوخ الذين يرفضون تقديم الاضاحى للالهة الوثنية ويتخلون عن العقيدة الجديدة . بل حاول انشاء كنيسة وثنية على نفس التنظيم الكهنوتى الذى قامت عليه المسيحية وعن طريق احياء المعابد القديمة وبناء معابد كبرى جديدة للالهة الوثنية .

والواقع ان ماكسيمينوس كان ينفذ تعاليم عدو المسيحيين الأول الامبراطور جاليريانوس .

وفى عام ٣١١ سقط جاليريانوس فريسة لمرض خبيث ، وصفه بعض الكتاب المسيحين بأنه انتقام من الله للظلم الذى أوقعه بالمسيحيين .

وفى أثناء مرضه ادرك جاليريانوس عدم جدوى عمليات الاضطهاد بل انها اتت بالنتيجة العكسية ، اذ ازدادت الكنيسة قوة وسرت فى المسيحيين « شهوة الاستشهاد » والاصرار لى العقيدة . فقرر وقف المذابح البشرية ضدهم لعدم جدواها ولانها خلقت عوامل خراب فى اجزاء الامبراطورية وادت الى تعطيل مصادر الايراد من زراعة وصناعة وتدهورت الحالة الاجتماعية وانتشرت المجاعة (١) . فأصدر فى عام ٣١١ قرار التسامح الدينى Edict of toleration والذى بمقتضاه سمح للمسيحيين بممارسة شعائرهم وفتح كنائسهم فى كل ارجاء الامبراطورية بشرط أن يذكر الامبراطور والامبراطورية فى الصلوات بالخير وبالدعاء بالنجاح . وشرح الامبراطور قراره بأنه وجد من الخير لشعب الامبراطورية أن يمارس عقيدة باخلاص بدلا من الفراغ الروحى فى النفوس ولم تمض أيام على اصدار هذا القرار حتى مات جاليريانوس .

وبموت جاليريانوس انحصر الصراع فى اربعة متنازعين على العرش ويتربص كل منهم بالآخر . وبدات القلاقل عندما سارع ماكسيمينوس دايا بالاستيلاء على الولايات الآسيوية التابعة لجاليريانوس الراحل وبذلك أصبح يهدد ليكينيوس وولاياته فى البلقان . ومن ناحية أخرى أسرع قسطنطينوس بالتحالف مع ليكينيوس ضد ماكسينتبوس ودعم هذا التحالف بتقديم اخته كونستانتيا Constantia زوجة للحليف الجديد ، ورد ماكسيمينوس دايا على ذلك بالتحالف مع ماكسنتينوس .

قسطنطينوس يغزو ايطاليا (٣١٢ م) :

بدأ قسطنطينوس حملته الكبرى فى ربيع عام ٣٢١ عندما انطلق من قاعدته فى بلاد الغال بجيش جرار بلغ تعداده أربعون الف رجل ، فى طريقة لغزو ايطاليا وتحريرها من قبضة ماكسنتيوس ، وعبر الألب وقرب تورين التقى بقوة من الفرسان التى أرسلها ماكسنتيوس لصده وحماية شمال

---

(١) د. مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى . مطبعة دار العالم العربى ـ القاهرة ص ٣٢ ـ ٣٣ .

ايطاليا فسحقها واستولى على مدن ايطاليا الشمالية مثل تورين وميلان واكويلايا Aquileia ومودينا Modena ثم تقدم جنوبا الى روما . وكان ماكسنتيوس يتوقع هذا الغزو فحصن المدينة من قمة راسها الى اخمص قدمها مستغلا الحوائط الضخمة التى كان اوريليانوس قد بناها وما كان للغازى ان يقدر على دخول المدينة غير ان ماكسنتيوس غير من خطته — ربما خوفا من اندلاع الثورة ضده — وخرج من تحصيناته ليقابل قوات قسطنطينوس وعبر نهر التيبر على جسر من القوارب بعد أن كان قد دمر جسر ميلفيا (١) القديم الذى كان قائما على نهر التيبر ضمن خطة التحصنات الدفاعية ثم تقدم عبر طريق فلامينيوس مسافة عشرة أميال من شمال روما حتى وصل الى منطقة الصخور الحمراء Saxa Rubra وهناك وجد قسطنطين فى انتظاره بقواته الكبيرة .

ويروى لنا لاكتانتيوس كيف أن قسطنطينوس أتاه هاتف فى ليلة المعركة يطلب منه أن يأمر جنوده بأن يكتبوا على دروعهم الحرفين الخاء والراء وهما الحرفان الاولان من اسم خريستوس Christos وهو اسم السيد المسيح بالاغريقية ، بينما يروى يوسيبيوس ان قسطنطينوس روى له انه شاهد قبل المعركة علامة الصليب ترسم عبر الشمس ومن تحتها برقت عبارة ! ! en touto nika وتعنى بالاغريقية بهذا سوف تنهر (By this sign thou shalt conquer !)

وذهب الى المعركة باسم الصليب واندفعت قوات فرسانه وفى أثرها المشاة لتحاصر قوات ماكسنتيوس أمام التيبر الذى كان وقتئذ ممتلئا بمياه امطار فشتت شملهم ، وفى اليوم التالى دخل قسطنطينوس روما منتصرا ليستعرض قواته وسار فى مقدمتها ضابط كبير يحمل راس ماكسنتيوس معلقة على طرف عربة طويلة وهتفت الجماهير بحياة قسطنطين المحرر . واجتمع السناتو على الفور ليبارك قسطنطين ويصب اللعنات على ماكسنتيوس وليسحب شرعية كل ما قام به من اعمال وليعلن مبايعته لقسطنطين كامبراطور أعلى على كافة ولايات الامبراطورية .

كان المنتصر الحقيقى هو المسيحية التى صورت قسطنطين منتصرا بفضل الصليب الذى ظهر يحمله وادعى المسيحيون ان قسطنطين انتصر بفضل قوة عقليته mentis magnitudine) التى هى نتاج قوى ربانية

---

(١) ومكانه الآن جسر موللى Ponte Molle .

(٢) ونقلت باللاتينية الى ! in hoc Signo Vinces ! او ! in hoc Vinces! ومعناها بهذه الشارة سوف تنتصر أو بهذا ستنتصر .

(Instinctus divinitatis) ، أما قسطنطينوس نفسه فقد أعلن أن انتصاره تم بفضل تدخل المسيح الى جانبه . على الرغم من أنه استمر فى احترام العقائد الوثنية ، اذ انه كان الكاهن الاعظم لها ، بل وبنى قوس نصره لرب الشمس الذى لا يقهر وظهرت صورة الالهة الوثنية القديمة على النقود التى سكها . اذا كان حكم قسطنطينوس نقطة الالتقاء بين الوثنية الذاهبة والمسيحية الصاعدة . ومن الواضح أن هدفه كان تجنيد كافة المذاهب والعقائد الدينية لتقف من خلفه وتدعم من مركزه (١) .

لقد كان فتح روما اشباعا عاطفيا وانتصارا نفسانيا لقسطنطينوس على اعدائه ولكنه لم يفكر فى جعل هذه المدينة مقرا لامبراطوريته . وضاعت عبثا احلام الرومان فى أن تستعيد المدينة مجدها ووضعها القديم الذى وعد به ماكسينتيوس ؛ وعلى عكس ما توقع الرومان الغى قسطنطينوس الحرس البرايتورى وهدم ثكناته وبذلك انتهى تاريخ هذا الحرس الذى كان يعين الاباطرة ويتخلص منهم ، كما كان ذلك نهاية تحكم الاليريين فى هذا الحرس .

ثم أصدر قسطنطينوس بصفته الاوغسطس الاعلى أوامره الى ماكسيمينوس دايا بوقف اضطهاد المسيحيين فى الشرق الاوسط واذعن هذا الاخير لذلك المطلب . ثم تلى ذلك اصداره امرا فى ٣١٣ الى حاكم ولاية أفريقيا باصلاح الكنائس التى هدمت وتسهيل تقديم الاموال التى يحتاجها أسقف قرطاجة كايكيليانوس Caecilianus من اجل توزيعها على كهنة الكنيسة الارثوذكسية فى شمال أفريقيا (نوميديا وموريتانيا) ؛ واعفاء الكهنة من الضرائب وكافة الاعمال والمناصب الالزامية . بعد ذلك غادر قسطنطينوس روما فى طريقه الى ميلان للاجتماع بحليفة ليكينيوس .

مؤتمر ميلان ٣١٣ ميلادية :

عقد المؤتمر بين الحليفين فى ميلان حيث أسفر عن اتفاق تام بينهما واصدرا قرار ميلان الشهير الخاص بحرية العبادة والاعتراف بالكنيسة وسلطانها فى كل اقليم من اقاليم الامبراطورية . بما فى ذلك اعادة حقوقها وممتلكاتها واعفاء الكهنة من الالزامات الاجبارية وتطبيق ذلك على كافة

---

(1) J.W. Eadie : The Conversion of Constantine (European Poblem Studies), New York, Holt, Rinhart and Winston, 1971, p. 35 ff.

الكنائس سواء فى الغرب ام فى الشرق الاوسط حيث عانت الكنيسة فيه طويلا من وطاة اضطهاد ماكسيمينوس دايا .

نهاية ماكسيمينوس دايا ٣١٣ ميلادية :

بالرغم من أن الكتاب المسيحيين بالغوا فى تحقيرهم لهذا الرجل ووصفوه بأنه « عبد الرذيلة » الا أنه كان رجلا له وزن فى السياسة والعسكرية . حاول أن يثبت نفسه أمام جاليريانوس بالمغالاة فى تطبيق قرارات الاضطهاد ضد المسيحيين . وعندما اصدر قسطنطينوس أمره اليه بالكف عن ذلك قبل على مضض هذا القرار .

كان ماكسيمينوس يعانى من الفشل وعدم الثقة فيه من جانب أطراف القيادة فمن ناحية عامله ديوقلديانوس باحتقار ولذا لم توجه اليه الدعوة حتى لحضور مؤتمر كارنونتوم لان جاليريانوس رفض الاعتراف بترقيته الى منصب الاوغسطس (أى الامبراطور الشريك) ، كما كان عدوا لدودا لليكينيوس لان ماكسيمينوس تسرع واستولى على الولايات الآسيوية بعد موت جاليريانوس ، كما أن موقفه أصبح ضعيفا بعد هزيمة حليفة ماكسينتيوس ومقتله ، لانه أصبح وحيدا أمام تحالف قسطنطينوس وليكينيوس . رغم هذا لم ييأس ، اذ انتهز فرصة انشغال قسطنطينوس فى غزو الراين وقرر الانقضاض على ليكينيوس . وفى شتاء عام ٣١٣ انقض بجيش تعداده سبعون الفا على منطقة البسفور حيث حاصر بيزنطة التى استسلمت له بعد أحد عشر يوما فقط . ولم يسكت ليكينيوس على هذا العدوان فسار اليه من قاعدته فى ميلان وعند مدينة هادريانوبوليس تقابل الجيشان وهزم ليكينيوس غريمه ماكسيمينوس الذى ولى هاربا متخفيا فى زى عبد وراح ليكينيوس يطارده عبر آسيا الصغرى حتى قبض عليه مريضا واسره حتى مات .

وبموت ماكسيمينوس دايا أصبح الشرق كله فى يد ليكينيوس . واصدر ليكينيوس قرارا بتطبيق اعلان ميلان الذى يقضى بمنح الحرية للكنائس المسيحية ورد الاعتبار اليها واعادة ممتلكاتها المصادرة اليها واعفاء رجالها من الخدمات الالزامية .

تقسيم الامبراطورية بين قسطنطينوس وليكينيوس ٣١٣ — ٣٢٤ م :

هكذا اسفر الصراع عن فوز من كانا قد تحالفا ابان الصراع . واصبح من المحتم أن يدخل هذان الحليفان بدورهما فى صراع لينفرد واحد منهما

بحكم الامبراطورية . هذه الظاهرة تعيد الى الاذهان تحالف أوكتافيوس وانطونيوس ضد قتله يوليوس قيصر حتى اذا ما نجحا فى تصفيتهم دخلا فى صراع فاصل .

فبالرغم من تحالفهما معا الا أن قسطنطينوس لم يثق أبدا يوما ما فى حليفه ليكينيوس كما كان هذا الاخير يكره الاول ويحقد عليه ويخاف من مخططاته .

بدات المناوشة عندما حاول قسطنطينوس تعيين شريك يحكم منطقة فاصلة بين ممتلكاته فى الغرب وممتلكات ليكينيوس فى الشرق واختار قسطنطينوس باسيانوس زوج أناستاسيا Anastasia اخته من أبيه ليشغل منصب حاكم ايطاليا وبانونيا وافريقيا . ومما شجع قسطنطينوس على ذلك وجود شقيق لباسيانوس يقيم فى بلاط ليكينيوس ويحظى باحتراسه وهو سينيكيو Senecio ولكن ليكينيوس رفض تصرف قسطنطينوس وتحول الخلاف الى رفع السلاح وكان قسطنطينوس سريعا فى هجومه عام ٣١٦ وهزيمته لقوات غريمه فى بانونيا . ولكن الجيشين المتقاتلين تعادلا فى تراكيا مما تجعهما على عقد هدنه بينهما . بمقتضاها تنازل ليكينيوس عن حقوقه فى ولايات الامبراطورية فى أوروبا فيما عدا تراكيا . ووافق قسطنطين على الاعتراف بليكينيوس امبراطور شريكا ، ذا وضع مساو لوضعه تماما وان يسحب اعلانه بأنه الاغسطس الاعلى .

ولكن هذا السلام كان مؤقتا لان العلاقات سرعان ما بدات فى التدهور وكان المسؤل عن ذلك هو قسطنطينوس الذى كان يشعر بوجوب التخلص من ليكينيوس فى الوقت المناسب حتى يجلس بمفرده على عرش الامبراطورية المتحدة . الذى كان يؤكد ذلك تمسكه بأنه سليل كلاوديوس القوطى موحد الامبراطورية . وان هذا هو قدره الذى لا يستطيع التخلى عنه .

فى اثناء ذلك كان قسطنطين قد اعتنق المسيحية رسميا وأصبح من اخلص مريديها وقد بدأ قلبه يهفو الى هذه الديانة الجديدة منذ انتصاره فى موقعة جسر ميلفيا . وتعبيرا عن شكره للمسيح الذى آذره فى هذه المعركة اعترف بحق الكنيسة فى البقاء وكشريك مسؤل معه فى حكم الامبراطورية . لكن من الملاحظ أنه لميعلن رسميا أن ديانة الامبراطورية

---

(١) من الملاحظ ان اختيار الامبراطورية ليوم الاحد (dies solis) الذى هو يوم رب الشمس يمكن أن يكون حلا وسطا لارضاء عباد رب الشمس من ناحية وارضاء المسيحيين من ناحية أخرى حيث أن الامر يمكن تفسيره بكلتا الحالتين . وعن الاصول الوثنية للاعياد المسيحية خاصة ورأس السنه انظر : .

هى المسيحية حتى لا يغضب الوثنيون الذين كانوا يمثلون السواد الاعظم من شعب الامبراطورية ومن جنودها وموظفيها وسائر أجهزتها البيروقراطية. لكنه استعاض عن ذلك بمنح المسيحيين المزيد من الامتيازات والحصانات والاعفاءات ، بل انه شجع زعماء كنيسة روما وكنيسة الشرق بتحديد معنى الايمان المسيحى وتشريعات الكنيسة التى يطلبون من الدولة اقرارها وفرضها كقانون اجبارى . ففى عام ٣١٨ اعترف بشرعية الاحكام التى تصدرها محاكم الاساقفة وعلى الدولة تنفيذها . وفى عام ٣٢١ اصدر قرارا باقرار الاوقاف التى يهبها الرومان للكنيسة وحق الكنيسة فى وراثة ممتلكات الشهداء بشرط الا يكونوا قد كتبوا وصاياهم بغير الكنيسة . وفى نفس العام أعلن أن يوم الاحد (١) هو يوم الرب ويجب أن يكون عطلة للمحاكم وللعاملين فى مصانع الدولة واجهزتها . كما أن اختار شعار الجديد Labarum وهو الصليب الذى يحمل أعلاه حرفى الخاء والراء وهما الحرفان الاولان لكلمة خريستوس Christus اى المسيح .

قسطنطينوس وموقفه من الصراعات الكنسية :

بزوال الاضطهاد بدات الكنيسة تشهد صراع عقائديا كاد أن يهدد وجودها بل واحدث انقساما شاسعا بين مريديها قضى على فكرة الكنيسة المسكونية الواحدة لكل المسيحيين .

ولكننا نلاحظ ان قسطنطينوس آثر الابتعاد عن هذه الصراعات المذهبية والتفسيرية وحاول التوفيق بقدر الامكان بين العقائديين المتصارعين .

ظهر اول انشقاق بعد اعتناقه المسيحية بقليل وفى أفريقيا وقادة أحد رجال الكنيسة المتطرفون واسمه دوناتوس Donatius الذى أعلن انشقاقه عن كنيسة افريقيا احتجاجا على تعيين كايكيليانوس Caeclianus اسقفا على قرطاجة لانه هذا الاسقف اعلن عن نيته العفو عن كل الكهنة الذين خانوا العقيدة اثناء اضطهاد ديوقلديانوس وسلموا الاناجيل لسلطاته لكى

M. Mestin : La fête des Kalends de Janvier dans l'Empire romain études d'un rituel de nouvel an (Coll. Latomus vol. 115), Bruxelles, 1970.

كما يرى الفولدى أن عيد الشكر الذى يقام فى الثالث من يناير هو بعينه عيد تقديم البحارة لقرابين الشكر لايزيس Navigium Isidis حيث تقدم القرابين على مستوى الدولة Vota publica فى يوم ٥ مارس الذى كان اول شهر فى السنة الرومانية وهو موعد بداية ابحار السفن الرومانية الى مصر لشحن القمح المصرى الذى كانت أيزيس ربته انظر :

A. Alfoeldi : Di Alexandrinischen Goetter und die «Vota publica am Jahresbeginn, (Jahrbuch für Antike und Christentums, vol. VIII-IX), 1965-1966, p. 53-87.

تحرق . وتجمع حول دوناتوس بعض من مريديه الذين انتخبوه أسقفا بديلا للأسقف الذى عينه بابا الكنيسة فى روما نظرا للالام التى تحملها دوناتوس فى سبيل تمسكه بعقيدته إبان عهد ديوقلديانوس . واتسمت هوة الخلاف عندما رفض قسطنطينوس تطبيق امتيازات المسيحيين لتشمل اتباع دوناتوس . ولكن فى عام ٣١٣ تقدم انصار الاخير يطلبون بالحاح شديد من الامبراطور تعيين قاض محايد من بلاد الغال ليحكم بالعدل فى قضيتهم . وبالفعل اختار الامبراطور ثلاثة أساقفة غاليين كقضاة وليس قاضيا واحدا ، بل أنه طلب من بابا الكنيسة فى روما أن يتراس جلسات المحكمة . ولكن بابا روما ادخل الى المحكمة خمس عشر أسقفا ايطاليا من انصاره واستصدر حكما بادانة اتباع دوناتوس . ولكن الاخرين اتجهوا الى الامبراطور للتحكيم فى قضيتهم . وبالفعل دعى الامبراطور أساقفة ممثلين عن كل المناطق التى تقع تحت حكمه واجتمعوا فى مدينة أرليس وجاء قرارهم يؤيد الاحكام الصادرة ضد دوناتوس واتباعه . وكان من الطبيعى أن يعلن الدوناتيون (donatists) رفضهم لهذا القرار . وطالبوا الامبراطور نفسه بأن يقبل مهمة التحكيم فى الخلاف . وقبل الامبراطور هذه المهمة . ولكنه بعد ان استعرض القضية أصدر قراره بادانة دوناتوس وانصاره وكلف السلطات العسكرية بسحق هذه الحركة . وفى عام ٣٢١ أدرك قسطنطينوس عدم جدوى هذا الاضطهاد لانه يزيد المنشقين عنادا على عنادهم فأصدر قرار بوقفه « تاركا الحكم لله » لينتقم بنفسه من دوناتوس واتباعه (١) . وبذلك فشل فى القضاء على الانشقاق الدينى وتوحيد الكنيسة . ولكنه خرج أقوى مركزا لانه بمحاولاته وضع تقليدا سياسيا وهو اخضاع الكنيسة للدولة ولسلطته شخصيا حيث أصبح له حق التحكيم فيما ينشأ من منازعات لاهوتية وأصبح يتمتع بحق دعوة مجالس الكنائس الى الانعقاد وحق طرد وابعاد الاساقفة وممتلكات الكنائس المنشقة واضفاء مكانه مقدسة على نفسه . اذ أصبح خادم الكنيسة المختار من عند الله والشبية بالرسل Isapostolos والقديسين .

ظهور المذهب الاريوسى (١) :

وبينما كان يحدث هذا فى الغرب ، واجه ليكينيوس هو الآخر ظهور الصراعات الكنسية رغم انه التزم بقرار ميلان الخاص بالتسامح الدينى .

(١) انظر أحدث ما كتب عن هذا الموضوع :

M. Meslin, Les ariens d'occident (335-430). Paris Edition du Seuil, 1967, p. 8 e.

وكان ليكينيوس اقل ايمانا بالمسيحية من قسطنطينوس المتدين فلم يسمح بالانشقاقات كما لم يتريث مع الاطراف المنشقة . فلما قامت مثلا حركة اريوس وهددت السلام فى مصر عاد ليكينيوس الى استئصال المسيحيين بلا رحمة او تمييز .

يرجع جذور انشقاق آريوس وهرطقته الى مخلفات عصر اضطهاد ديوقلديانوس للمسيحيين . فقد أعلن ميليتوس Melitius اسقف اسيوط Lycopolis اعتراضه على التسامح الذى قام به القديس بطرس أسقف الاسكندرية وخاتم شهداء الكنيسة نحو المسيحيين الذين كفروا ابان اضطهاد ديوقلديانوس وعادوا الى التوبة . وانشق ميليتيوس مكونا جماعه له كان أحد أعضائها ناسك ذكى اسمه آريوس .

كان آريوس صوفيا نقى الصريرة وناسكا طاهرا ، يحيا حياته فى تعفف من كل مذلة او خطأ ، كما كان واعظا مؤثرا يجيد الاقناع الهادى كما أن مظهره الشاحب الهزيل ونفسيته المنكسرة اكسبته عطف مريدين كثيرين من حوله .

لقد اطلق آريوس نارا سرت فى العالم المسيحى كله وفجر بركانا هز الكنيسة ورجها رجا من قرطاجة الى البلقان عندما عبر عن آرائه فى طبيعة المسيح وهدد وحدتها بل وكان بداية انفصال أبدى .

وقد عبر آريوس عن آرائه اثناء وعظه للناس بأنه ليس من المعقول ان يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الله homousios لانه من صنيعته وبالتالى فهو اقل منه مرتبة ، وبالرغم من تسليمه بان المسيح خلق قبل خلق الخليقة الا انه لابد أن يكون هناك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقا ، وكان فيه الله الخالق وحده . ولهذا أعلن أن المسيح له طبيعة مشابهة لطبيعة الله homoiousios . لكنه ليس الله فى صورة البشر .

ذعر الانبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسه اثناسيوس من هول المفاجأة بالرغم من ان هذا الراى لم يكن جديدا على المسيحية ، اذ قال به الآباء الثلاثة الأول للكنيسة فى القرن الثالث وهم أوريجين والقديس ديونيسيوس السكندرى وترتوليانوس فى آخر حياته (١). ورد الانبا الكسندروس بأن الابن من نفس طبيعة الأب (homoûsios) وأن الاب والابن والروح القدس مادة وقوة واحدة تمثل الصفات الثلاثة لقوة الله على الكون Filius atque pater et sanctus spiritus لهذا لايمكن فصلها عن بعضها او تقديم أحدها زمنيا عن الآخر ثم أصدر الكسندروس قرارا بحرمان آريوس من الكنيسة وبطرده من دوقية مصر . وسافر

W.H.C. Frend. The R... of ... Monophysite Movement Cambridge Cambridge University Press 1972. ; p. 12 ff.

آريوس الى فلسطين ليعرض رايه على يوسيبيوس اسقف قيصرية واحد اقطاب الكنيسة ومؤرخيها ، ثم سافر الى نيقوميديا ليعرض القضية على اسقفها الذى كان اسمه أيضا يوسيبيوس فسخرها بمنطقة بل انه سحر الامبراطورة كونستانتيا كما سحر عددا من رجال البلاط والكنيسة هناك وبعض كبار رجال الدولة الذين تحت تأثيرهم عملوا على أصدار مرسوما Synodes (١) فى بيثينيا وآخر فى فلسطين ادانا قرار أسقف الاسكندرية الكسندروس بطرد آريوس من الكنيسة ، كما نصا على ان آراء آريوس تتفق وروح الاناجيل وتعاليم المسيح ولذا يأمر الكسندروس بنقض قراره واعادة آريوس الى وضعه الكهنوتى . فما كان من الكسندروس الا انه أعلن رفضه لقرارات المجمع المقدس وامعانا فى الرفض جمع مؤتمرا من مائة من الاساقفة المصريين والليبيين ليؤكد طرد آريوس واضاف الى قائمة الطرد اثنين من الاساقفة الليبيين تعاطفا مع آريوس . واشتعل الموقف بين مصر والشرق . وصدرت رسائل نارية وابحاث تناقلت بين الدوقيات المختلفة . دافع آريوس عن نفسه دفاعا مستميتا بل والف اناشيد واهازيج شعبية تدعو الى نصرته والايمان بمبدئه .

اما ليكينيوس فقد نفذ صبره من الصراع الكنسى وهو الذى لا يخفى فى نفسه سوى غيظا من المسيحية التى يقوم عليها سلطان غريمه قسطنطينوس خاصة وأن الاخير ادعى انه لولا الصليب الذى ظهر فى السماء ولولا أن المسيح شد أزره لما انتصر فى موقعة جسر ميليفيا ضد ماكسينتيوس . كما أن ليكينيوس كان ينظر الى المسيحيين على أنهم عملاء قسطنطينوس ومن ثم اعداءه ، وعلى أى حال انتهز هذه الفرصة فأصدر فى عام ٣٢٠ قرارا بالغاء القرارات الكنيسية وحرم اقامة الشعائر المسيحية من وراء الجدران بل أصر على ان تقام الشعائر فى الهواء الطلق وخارج أسواء المدينة . كما حرم على النساء حضور الصلوات مع الرجال ثم قام بطرد رجال البلاط فى قصره ممن اعتنقوا المسيحية وطبق نفس الشىء على الجيش واجهزة الدولة المدنية وهدمت بعض الكنائس . ولم يميز لكينيوس فى قمعة بين اى من المذهبين المتصارعين بل أمر بالقبض على زعماء الانشقاق وسجنهم وتعذيبهم .

نهاية ليكينيوس ٣٢٤ م :

ـ أغلب الظن أن سياسة ليكينيوس وتصرفاته العدوانية ازاء المسيحيين

---

(١) قرار من مجمع رؤساء الكنائس .

اغضبت قسطنطينوس فراح يتحين الفرصة للتخلص منه وجاءته الفرصة عندما هاجمت قبائل القوط منطقتى ميسيا وتراكيا عام ٣٢٣ م . ولم يجد قسطنطينوس بدا من رد هذا الهجوم واضطر الى المرور عبر الولايات التابعة لغريمه ليكينيوس الذى احتج على هذا التصرف . وتطور الموقف الى رفع السلاح . وكأن قسطنطينوس كان ينتظر هذه الحرب لانه سرعان ما حشد لهـا ماية وعشرين الفا من المشاه وعشرة آلاف من الفرسـان الى جانب اسطول بحرى يتكون من مائتى سفينة ، أما ليكينيوس فقد أعد فى مواجهة ذلك جيشا قواميه ماية وخمسين الفا من المشاة وخمس عشرة الفا من الفرسان ، وثلاثماية وخمسين سفينة حربية .

بدات المناوشات فى صيف عام ٣٢٤ عندما هزم قسطنطينوس قوات ليكينيوس قرب هادريا نوبوليس كما الحق أبنه الامير كرسبوس Crispus الذى كان لا يزال فتى هزيمة ساحقة بأسطول ليكينيوس قرب البسفور والدردنيل واصبح له السيطرة على البحار .

بعد ذلك عبر قسطنطينوس البسفور من الغرب فى اتجاه الشرق وعند خريسوبوليس Chrysopolis قضى على البقية الباقية من جيوش ليكينيوس الذى استسلم وكاد قسطنطينوس أن يقتله لولا تدخل زوجته كونستانتيا شقيقة الامبراطور فعفى عنـه ونفاه الى سالونيك . ولكن لم يكد يمض ستة اشهر حتى أصدر قرارا باعدامه بحجة انه مازال يتآمر ضده .

هكـذا أصبح قسطنطينوس الامبراطور الاوحد على كافة ولايات الامبراطورية ، وتوحدت تحت أمرته الامبراطورية الرومانية لأول مرة منذ اربعين عاما واصبح شعاره الجديد « حاكم واحد وعالم واحد وعقيـدة واحدة » .

مجمع نيقيه ٣٢٥ :

لقد نجح انتصار قسطنطينوس العسكرى فى توحيد الامبراطورية سياسيا ولكن هذا الأنتصار لم يؤثر ايجابيا على حالة الصراع المذهبى والانشقاق العقائدى الذى أحدثه آريوس . وفى الحقيقة لم يكن قسطنطينوس مهتما بفحوى الصراع المذهبى ولم يكن يهمه عما اذا كان الثالوث جوهر واحد أم ثلاثة عناصر منفصلة ومتفاوتة فى الأهمية ، انما كان يهمه وحـدة الكنيسة وانسجامها مع الدولة فى زواج ابدى موفق . ومن ثم كتب رسالة الى آريوس واخرى الى الانبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية يطالبهما بترك الصراع والمهاترات واللجوء الى التفاهم للوصول الى وفاق مذهبى ولكن للأسف لم تنجح محاولته فى وقف الصراع المذهبى .

رأس قسطنطين الأكبر وقد عبر الفنان عن قسوته بنظرات
عينيه النافذة كما أن المبالغة فى حجم الرأس يوحى
بخلوده فى نظر أتباعه حيث أصبح قديسا

وفى نهاية عام ٣٢٤ دخل الصراع ضد الاريوسية مرحلة حاسمة ومعقدة عندما اصدر مجلس الكنيسة فى انطاكية قرارا بطرد آريوس ونصيره يوسيبيوس اسقف قيصرية فى فلسطين واثنين آخرين من الاساقفة المؤيدين لآريوس . وقد تم هذا الهجوم بعد ان استولى الكهنة الاورثوذكسيون على مجلس الكنيسة واصبحوا غالبية فيه . كما انهم نجحوا فى تنظيم اجتماع مماثل فى كنيسة انقرة باقليم جلاتيا حيث يقوم حصن الارثوذكسية المنيع فى آسيا الصغرى . ولكن قسطنطينوس تدخل وأوقف هذا الاجتماع المعادى لآريوس حتى لا يزيد الصراع حدة ودعى الى اجتماع مسكونى أكبر يعقد فى نيقيه Nicaea ودعى اليه كافة الاساقفة الممثلين لكنائس الامبراطورية على أن تتحمل الامبراطورية نفقات السفر والتجهيز لهذا المؤتمر التاريخى . واعلن قسطنطينوس انه سوف يحضر ويترأس اجتماعاته .

وفى العشرين من مايو عام ٣٢٥ اجتمع ثلاثماية وثمانية عشر اسقفا من اساقفة العالم المسيحى وكان من ابرزهم الانبا الكسندروس بطريرك الاسكندرية وشماسة النابغة اثناسيوس الذى لم يكن يتجاوز التاسعة والعشرين من عمره . كما حضر اساقفة روما وقرطاجة وانطاكية وقيصرية واراليس وقرطبة Cordova وانقرة ونيقوميديا . وقد تضمن هؤلاء الزعماء الدينيين مشاهير فى علم اللاهوت والفضيلة ، وآخرون كسبوا شهرتهم من قوة التحمل ومواجهة الآلام فى سبيل العقيدة وفريق اشتهر بحبه للفضيلة والمثل الرواقية التى امتزجت بالمسيحية .

افتتح الامبراطور المؤتمر بكلمة عبر فيها عن ايمانه الشديد بقوة الرب ثم رجا المجتمعين الى العمل متعاونين معا من أجل اعادة وحدة الكنيسة والقضاء على الانشقاق الذى يهدد وجودها ورجاهم أن يضعوا هذه القضية فى الدرجة الأولى وان كل ما عدا ذلك ثانوى لا يهم ، ثم فتح باب النقاش معلنا أنه لن يتدخل الا لضبط الجلسات حتى لا يتحول أعمال المؤتمر الى موضوعات خارجة عن الهدف الاساسى .

وتقدم الشماس اثناسيوس ليتحدث بمنطق لا يقل عن منطق آريوس واستطاع هذا الشماس السكندرى ان يشرح لممثلى كنائس العالم الثلاثماية وثمان عشر معنى الايمان ، ثم فند آراء آريوس فى براعة واقناع وقدم للمجتمعين اجتهاداته فى تصوره لمعنى قانون الايمان وادهش الحاضرين براعته حتى أنهم أخذوا بكثير من آرائه واتفقوا على عزل آريوس من عضوية الكنيسة واقر الامبراطور هذا الحكم . ومن هذا الاجتماع اكتسب

قسطنطين

نفس الراس فى زاوية اخرى حيث تعكس

الانف الشامخ المعبر عن التصميم

اثناسيوس الشماس شهرة عالمية رفعته الى مكانة الزعامة الفكرية للكنيسة بل واهلته لان يخلف الانباالكسندروس ويصير بطريركا لكنيسة الاسكندرية فيما بعد رغم معارضة الاريوسيين .

ومن المناقشات الحيوية تبلورت الكنيسة الكاثوليكية (١) وحددت نظريتها فى قانون الايمان المسيحى لانها شملت مشاكل ابعدمن الصراع الاريوسى وضحت فى هذا المجمع العقيدة المسيحية التى يؤمن بها جميع المسيحيين الى يومنا هذا . واتفق المجمع على أن الثالوث واحد لا ينقسم ومن ثم امروا بحرق الابحاث والمؤلفات اللاهوتية التى نشرها آريوس بعد طرده من الكنيسة المسكونية .

ومن اهم القرارات التى أصدرها هذا المجمع تحديد يوم عيد الفصح (Pasca) فى أول يوم احد يجىء بعد اكتمال القمر بعد حدوث تساو الليل والنهار فى فصل الربيع (أى بعد ٢٣ مارس) . وانفض المجمع بعد ان نظر فى امور اخرى وأصدر عشرين قانونا كنسيا (Canons) من أجل تنظيم الكنيسة العالمية وتحديد علاقتها بالدولة . وباختصاريرى البعض ان مجمع نيقيه يمثل بداية احلال المسيحية تدريجيا محل الوثنية كديانة رسمية للامبراطورية الرومانية وفى راى البعض أن ذلك يمثل نقطة التحول من تاريخ الامبراطورية الرومانية القديمة الى الامبراطورية الرومانية المسيحية التى نعرفها فى العصور الوسطى .

اصلاحات قسطنطينوس الدنيوية :

١ — تنظيم الجهاز الادارى والتنفيذى :

قام قسطنطينوس بعدد من الاصلاحات والتغييرات فى مجال الجيش والادارة وفى المجالين السياسى والاجتماعى يرى بعض المؤرخين انها تشكل وجه التحول الجديد الذى نسميه بالعصور الوسطى .

نبخصوص الجيش أكمل الاصلاحات التى بدأها ديوقلديانوس . فمثلا خفف من كثافة قوات الحدود المستوطنة (limitanei) بأن نقل الكثير منها الى القوات المتحركة الخفيفة Comitatenses والتى اضاف اليها قوة خفيفة اخرى منتقاة من خبرة فرسانها وبعضها من مشاتها وسميت باسم حرس البلاط (palatini)

---

(١) أى العالمية وحتى القرن الخامس لم يكن هناك فرق بين هذا الاسم وبين لفظ أرثوذكسى (أى المستقيمة) بل كان كلاهما يطلق على الكنيسة باعتبارها كنيسة جامعة ومتحدة .

كما شجع قسطنطينوس ادخال الجرمان فى الجيش الرومانى و... لهم الترقى فى الرتب العليا حتى وصل بعضهم الى أعلاها . وصاروا على رأس قائمة المتحكمين فى الامبراطورية . ولما كان قسطنطينوس قد الغى الحرس البرايتورى عام ٣١٢ فقد قرر انشاء حرس خاص لحمايته بدلا منه وانتقى هذه القوة من خيرة المقاتلين الجرمان وأطلق عليها اسما غريبا هو مريدى القصر Scholae Palatinae (١) .

كما شملت اصلاحات قسطنطينوس العسكرية تنظيم قيادة القوات العليا وفصل السلطة العسكرية عن السلطة السياسية فصلا تاما . كما استبدل قائدى الحرس البرايتورى Praefecti Praetoriani بقائدى الفرسان Magister equitum نظرا لاهمية هذا السلاح الجديد .

كما شملت الاصلاحات الغاء سيطرة حكام المقاطعات على المسئولين العسكريين عن حماية الحدود ... كانوا يحملون لقب دون أو كونت (Count)

غير ان قائدى الحرس البرايتورى اصبحا يشغلان وظائف اخرى غير عسكرية . اذ كان كل منهما يقوم مقام الامبراطور فى احدى الولايات الأربعة وهى بلاد الغال وايطاليا والليريكوم والشرق . وزادت سلطاتهم بعد عام ٣٣١ م واصبحت احكامهم القضائية فاصلة ونهائية ولا يجوز الطعن فيها حتى ولو امام الامبراطور .

كذلك شملت اصلاحات قسطنطينوس العسكرية تنظيم قيادة القوات مثل الاشراف على البريد الامبراطورى وادارته . والاشراف على مشروعات التعمير وبناء المرافق ، والاشراف على جمع وتشوين الضرائب العينيـة التى تجمع من الفلاحين خاصة اذا كانت غلالا . كذلك شملت اختصاصاتهم مراقبة أصحاب النقابات والحرف المهنية والتجارية ومراقبة الاسعار وحفظها او تثبيتها . وكذلك الاشراف على التعليم وعلى الاساتذة الفلاسفة الذين يدرسون لتلاميذهم ومريديهم . ولعل اهم شيء فى نفوذهم هو الاشراف على عملية التجنيد والخدمة العسكرية واقامة الاستحكامات العسكرية وتموين الجنود فى الخطوط الامامية هذه السلطة العسكرية بالذات كانت مانعا ضد طموح القواد فى السيطرة على الجيش واستخدامه لأغراضهم السياسية .

---

(١) كانت كلمة Schola تطلق فى الاصل على مريدى المدارس الفلسفية انظر :

R.I. Frank, Scholae Palatinae. The palace guards of Later Roman Empire (Papers and monographs of the American Academy in Rome, vol. 23), Rome 1969, p. 16 ff.

ومن المراكز القوية الجديدة التى ظهرت منصب رئيس الموظفين magister officiorum الذى زادت مسئولياته بعد عام ٣٢٠ ليصبح مشرفا عاما على جميع أقسام الشئون الادارية والتنفيذية وعضوا دائما فى الهيئةالتنفيذيةالعليا أومايعرف بالمجلس المقدس Sacrum consistorium. أى أن مهامه كانت متنوعة ، فهو مفوض الحكومة الذى يدير سياسة الدولة وعلاقاتها الخارجية والمسئول الأول عن مراسيم الدولة ومسئول التشريفات ، والمشرف العام على ادارة المراسلات والبريد والمسئول عن مصانع السلاح وترساناته والرئيس الاعلى لقوات حرس الفرسان الامبراطورية ورئيس مكتب التقصى والتحقيق ورئيس هيئة البوليس السرى agentes-in-rebus الذى ينقل كافة المعلومات عن الاجهزة وعن شكاوى الناس ومطالبهم كما كان رجال هذا الجهاز يدلون برايهم فى الاماكن التى تحتاج الى دعم عسكرى ويشتركون فى التخطيط العسكرى وتوزيع القوات .

ب ـ تنظيم جهاز النقد :

كان تنظيم قسطنطينوس لنظام النقد لا يقل أهمية عن تنظيمه لأجهزة الدولة الادارية والتنفيذية ففى عام ٣١٢ ثبت قيمة السوليدوس الذى اصدره ديوقلديانوس وجعل وزنه ١/٧٢ من رطل الذهب (وكانت قيمته النقدية حوالى ثلاث عشر شلنا انجليزيا الا قليلا) وبفضل هذا التعديل ثبتت قيمة السوليدوس بل وظل وحده التعامل فى الامبراطورية حتى فى العصر البيزنطى .

كما اصدر عملة فضية سماها الميليرنس (Miliarense) أى أنها جزء من الألف من رطل الذهب الرومانى ؛ وبهاتين العملتين استقام نظام التعامل الرومانى ودبت فيه الحياة وساعدت الحكومة على جمع قيمة الضرائب العينية نقديا ، بل انها ساعدت على نهضة التعامل والتجارة ليس فى داخل الامبراطورية بل على الصعيد العالمى مما خلف للدولة البيزنطية نظاما نقديا قويا ساعدها على الوقوف فى وجه التحديات التى حاقت بها .

جـ ـ تبلور نظم الأقطاع وأقنان الأرض والنقابات المهنية :

غير ان الباحثين يركزون على نتائج اصلاحات قسطنطينوس والأثر التى تركته على ملامح المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى وهى ثلاثة ظواهر . الاقطاع (الاقطاع الاوروبى Feudalism) ، ونظام عبودية الفلاحين

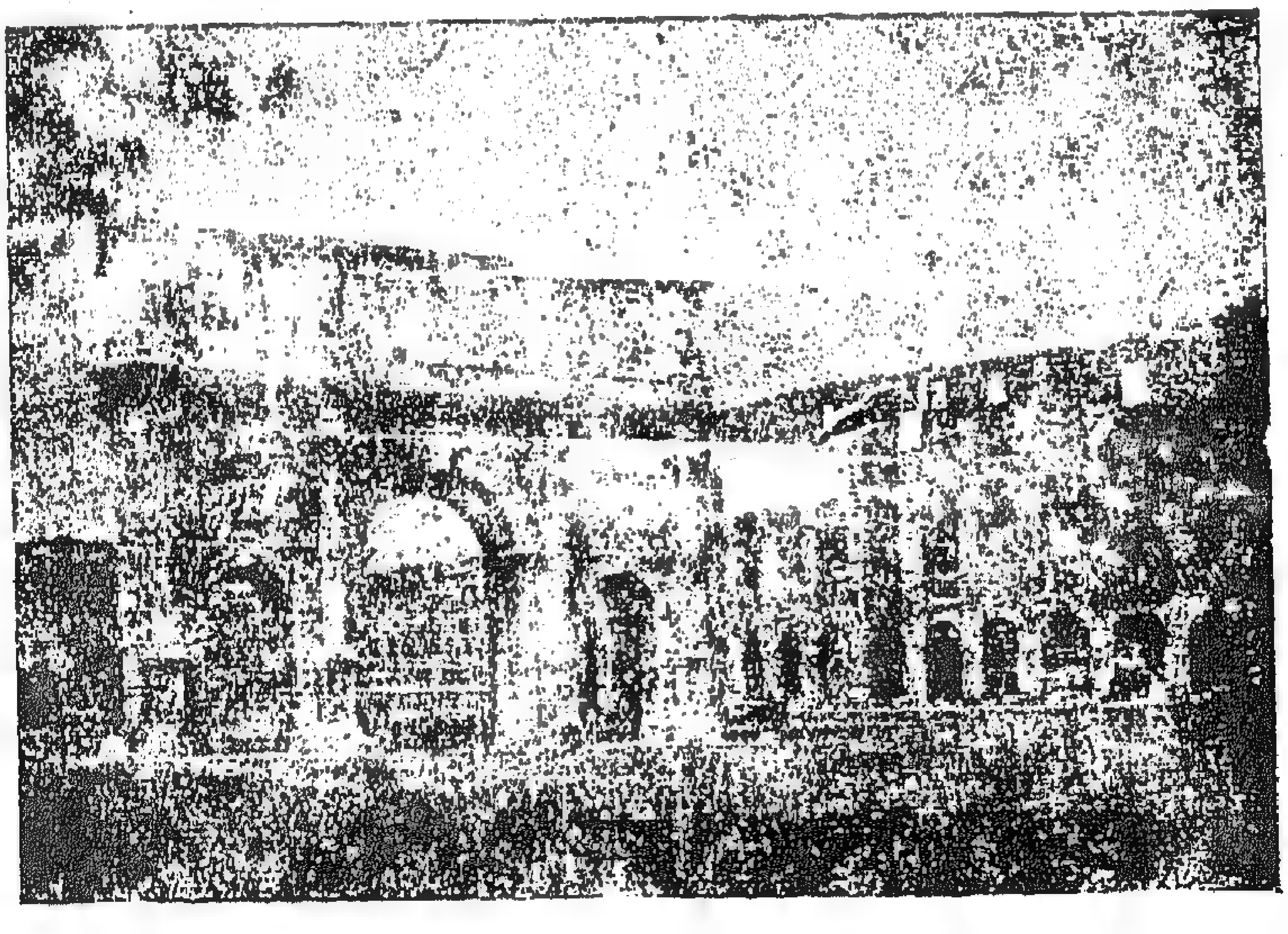

قوس قسطنطينوس ـ روما

للارض ومسالكها (Serfdom) (١) ، ونظـام النقابات الحرفية والمهنيـة (guild system)

لقد استغلت طبقة من طبقات المجتمع الكوارث الاقتصادية النـاتجة عن الحروب الاهلية والغزو البربرى لحدود الامبراطورية والنقص البشرى بسبب الأوبئة الفتـاكة وبسبب المجاعات التى مات بسببها ملايين من الناس ، وكانت النتيجة أن توسع نفوذ بعض أعضاء الطبقة السيناتورية وكبار الموظفـين البيروقراطيين واصبحوا يمتلكون الاقطاعيات الشاسعة بعد أن انخفض ثمن الأرض كثيرا . ثم تلى ذلك اقبال أصحـاب رءوس الاموال على شراء الارض لأنها الضمان الوحيد لاموالهم ، وكثيرا ما افتنوا ضياعا شاسعة واقطاعيات بثمن زهيد . وهكذا نشأ نظام الاقطاع واختفت طبقة الفلاحين المالكة للأرض لأنها لم تجد فائدة تجنيها من الزراعة بسبب ندرة الايدى العاملة وضعف الانتاج وبهاظة ضرائب الدولة .

ويرجع بعض الدارسين السبب الى نظام الضرائب الجـديد الذى وضعه ديوقلديانوس ودعمه قسطنطينوس ، لأن هذا النظام القاسى جعل الأمور صعبة بالنسبة لصغار الزراع والمستأجرين فهجروا الأرض ، وفى كثير من الأحيـان سلموها بتراضى تام الى الاقطاعى ليزرعها مقـابل أن يحميهم بنفوذه من القلاقل وغزوات البرابرة وظلم الحكام وجباة الضرائب، وكثيرا ما كان هؤلاء الاقطاعيون بارونات عسكرين يقيمون فى منازل جميلة محصنة كالقلاع وتتمتع زوجاتهم بنفوذ مماثل . وسمى هذا النظام باسم Patrocinium والذى تحول الى فيوداليه عصر الاقطاع فى حضارة أوروبا فى العصور الوسطى . ولقد حاول بعض الاباطرة ابتداء من قسطنطينوس وحتى جستنيانوس وقف انتشار هذه الظاهرة التى يسلم فيها الفلاحون اراضيهم طواعية للاقطاعى مقابل الحماية والرعاية وحاول بعضهم اتخاذ خطوات تشريعية ضد ذلك . ولكن تشريعاتهم تدهورت من بعدهم لأن الأباطرة كانوا فى حاجة الى الاموال ولم يكن يضمن ذلك سواء البارونات وأصحاب الاقطاعيات

لقد ظلم قسطنطين صغار الزراع والمستأجرين (Coloni) عندما أصدر عام ٣٣٢ قرارا بربط مصيرهم وذريتهم من بعدهم بالأرض التى يزرعونها ، وفرض عليهم دفع الضرائب المستحقة عليها وتجنيد أبنـائهم فى الجيش وفرض عليهم أبشع العقوبات اذا ما خالفوا هـذا القرار . ونتيجة لذلك تحول المزارع Colonus الى درجة ادنى الى عبد زراعى مملوك لمن يملك الارض وهو كما قلت جوهر نظام الاقطاع الأوروبى فى

(١) واحيانا يعرف هذا النظام فى اللغة العربية باسم الأقنان ومفردها قن .

العصر الوسيط . ولم يكد يمض قرنان على هذا التاريخ حتى اصبح اصحاب الاقطاعيات من بارونات ودوقيات يحكمون اشلاء من الامبراطورية المنهارة ويرثونها كما لو كانوا ملوكا عليها . وكانت مساحة بعض الاقطاعيات شاسعة لدرجة لا تقل عن مساحة مملكة صغيرة . واصبحت هذه « الممالك » مستقلة سياسيا واقتصاديا دفاعيا ولا علاقة لها بالامبراطورية ولا تعتمد عليها فى شىء ، ويصور لنا اعمال الفسيفساء التى كانت تزين فيللات الاقطاعيين والتى عثر عليها فى ايطاليا وبلاد الغال وفى شمال افريقيا حياة صاحب الاقطاعية فى اقطاعيته يستمتع بخيرات الأرض وجمال لريف وسط عبيده واقنانه واتباعه وكأنه مليك على مملكة .

اما سكان المدن فكان معظمهم من التجار والحرفين واصحاب الحرف والمهن ، وقد ساءت حالتهم أيضا ولم يكونوا فى وضع احسن من وضع الفلاحين . فقد كان عليهم دفع ضريبة مهنية باهظة كلّ خمسة اعوام (وربما فيما بعد كل عام) سواء نقدا أو عينا هذا فضلا عن بعض الضرائب الاضطرارية والمفاجئة التى كانوا يدفعونها من انتاجهم او اعمالهم . ولما حاول هؤلاء الحرفيون الهروب من شرور المهنة اصدر قسطنطينوس قراره عام ٣١٤ الذى يفرض عضوية النقابة على ابناء الطائفة الحرفية الواحدة ، واصبحت الحكومة تتحكم فيهم عن طريق هذه الجمعيات أو الهيئات او النقابات . بل انه جعلَ المهن والحرف وراثية يتوارثها الأبن عن الأب . وقد طبق ذلك عام ٣١٤ على العاملين فى بناء السفن ، ثم تعداه فيما بعد الى اصحاب المهن الأخرى مثل اصحاب المطاحن والخبازين والنجارين والاسكافية وصناع الطوب والبنائين وسائر الطوائف الحرفية . وقد ورثت الامبراطورية البيزنطية هذه النظم .

قسطنطينوس يؤسس القسطنطينية : ٣٢٤ — ٣٣٠

يقول المؤرخون ان اهم حدث قام به قسطنطينوس بعد اعلان المسيحية ديانة معترف بها ورسمية ، هو تأسيس عاصمة جديدة سماها على أسمه اى القسطنطينية ، واقامها فوق مستوطنة بيزنطة Byzantium تلك المستعمرة الأغريقية القديمة التى تقع عند مدخل البسفور والدردنيل (١) . وكانت هذه المدينة تتمتع بمزايا استراتيجيةهامة فهى تقع على شريط غائر فى البحر تحدها المياه من ضلعيها . وعند شمالها الغربى يمتد ميناء طويل أسماه الأغريق قديما بالقرن الذهبى ،

(١) انظر كتابى : الأغريق تاريخهم وحضارتهم الطبعة الثانية — دار النهضة العربية ١٩٧٧ ، ص ١٦٦ الى ١٧١ .

أما فى الجنوب منها فيقع بحر مرمرة Propontis وبين هذين البحرين يقع بوغاز البسفور الذى عنده تلتقى اوربا بآسيا وفيه يجد البحر الأسود منفذا له الى البحر المتوسط . كما كان يتفرع من هذه المدينة طرق التجارة الرئيسية سواء الى الشرق الأوسط أو الى آسيا الصغرى والى البلقان وأوربا الغربية . كما كانت هذه المدينة الاغريقية تربط بين وادى الدانوب الأدنى وشمال نهر الفرات وهما من اهم جبهات الامبراطورية الدفاعية .

كانت المدينة محصنة دفاعيا فهى تقع على شبه الجزيرة الفائص فى البحر Promontory ويحميها البحر من ضلعيها ، كما تكون الصخور الداخلية من حولها قلعة ثالثة . كما ميزتها الطبيعة بميناء طبيعى ممتاز يمكن أغلاقه بسهولة ساعة الخطر فلا يقدر على دخوله احد . كما كان يحميها بحر مرمرة من اى هجمات بحرية .

ونبت الطبيعة هذه المدينة موقعا ممتازا فكانت ملتقى التجارة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، فكانت أسواقها عامرة بكل ما يخطر على بال من فراء الشمال البارد ، وتوابل الهند الاستوائية ، وعطور الشرق الساحرة ، وخمور البحر المتوسط الشهيرة ، ومما جعل الحياة فيها راغدة ومحببة مناخها المعتدل فما هو شديد الحرارة صيفا ولا شديد البرودة شتاء . كما كانت مثل مدينة روما تحيط بها تلال سبع .

كانت الدوافع التى جعلت قسطنطينوس يختار هذه المدينة كمكان لمدينته روما الجديدة أبعد من المميزات الاستراتيجية والعسكرية والبحرية والتجارية . لقد انتشرت المسيحية فى هذه المدينة بسرعة واصبحت كنيستها رائدة بين كنائس المجمع المسكونى . ومن كنائسها كنيسة السلام المقدس Pax Sacra والحكمة المقدسة Hagia Sophia وكنيسة الرسل الاثنا عشرة . وهذا جعلها تبدو فى عين الامبراطور المكان الأمثل لروما المسيحية المنافسة لروما الوثنية . وبداية تاريخ جديد للامبراطورية من عاصمة جديدة (١) .

وهكذا اختار قسطنطينوس موقع بيزنطة ليقيم عليه مدينته التى قدر لها أن تظل عاصمة للامبراطورية البيزنطية ، وحصنا للحضارة الرومانية المسيحية طيلة قرون عشرة . ولقد حاول الامبراطور منذ عام ٣٢٤ تعميرها بالابنية الضخمة محاولا جعلها صورة طبق الأصل من مدينة روما القديمة أيام مجدها وعزها . كما جعل لها سناتو على غرار السناتو

(1) E. Kaegi : Byzanlium and the Declium of Rome, Princeton University Press, 1968.

الرومانى واقام له مبنى فى قلب المدينة . كما كان قسطنطينوس يدعو الى اجتماعاته فيها عليه وكبار الاسر ووجهاء وزعماء الولايات الشرقية .

ولما راى ان روما الجديدة يجب ان يكون لها شعب رومانى راق Populus Romanus يتمتع بامتيازات خاصة تميزه عن غيره من الشعوب حتى يحس الناس انهم يعيشون فى مجتمع عظيم لبلد عظيم ولهذا قرر أعفاء الناس من الضرائب . بل انه قرر تقليد روما القديمة بضمان الخبز والتسلية للفوغاء (Plebs) ، ومن ثم اصبح من حق كل فرد من الفوغاء أن يتسلم من مخبز الدولة خبزا طازجا كما كان يتسلم معه مخصصات غذائية مجانية مثل اللحوم والزيت والنبيذ خالقا مجتمع الترف الخرافى .

لقد بدأ قسطنطينوس العمل فى أعداد مدينته عام ٣٢٤ حيث بنى سورها وظل يداوم عمليات البناء والتشييد حتى دشن المدينة فى الحادى عشر من شهر مايو عام ٣٣٠ . ومن اجل تجميل هذه المدينة لم يتردد الامبراطور فى نهب المعابد الوثنية القديمة من آيات الفن الجميل والاتيان بها الى عاصمته . حتى مدينة دلفى القديمة نقل الامبراطور منها تمثال أبوللو الشهير والمقعد الذهبى ذا الثلاثة قواعد الذى كانت تجلس عليه كاهنة أبوللون بيثيا قديما ، ومن هذه الأموال والكنوز التى استولى عليها استطاع أن يبنى لنفسه قصرا خرافيا وملاعب لسباق الخيل hippodrome وكنائس رائعة لاتزال شاهدا على آيات المعمار ، ومدارس ومكتبات ومعهدا للعلوم والفنون يمكن أن نسميه جامعة .

ولكى يجذب أنظار العالم الى مدينته احتفل بتدشينها طوال اربعين يوما ، امتزجت فيها الطقوس الوثنية بالطقوس المسيحية . وأقام الامبراطور ورجال بلاطه ومجلس دولته وهيئة كبار موظفيه البيروقراطيين فى العاصمة الجديدة بعد تدشينها ، وبتشجيع من الامبراطور هاجر اليها الاغنياء وأرباب الثراء من كافة انحاء الامبراطورية ، بل وهاجر شطر كبير من سكان روما الى المدينة الموعودة تاركين الماضى بتراثه وباحثين عن المستقبل الجديد ، واخذت الثروات تتدفق عليها من جميع مدن الامبراطورية مع جموع المهاجرين الذين اغرتهم المشروعات الخيالية التى قام الامبراطور أو وعد بتنفيذها . وعلى مرور الزمن اتسعت المدينة بسبب التدفق المضطرد عليها من المهاجرين الجدد ويقال ان عدد القصور التى شيدت بها فيما بعد بلغ الاربعمائة ؛ كما بلغ عدد الحمامات العامة ما يقرب من مائة وخمسين حماما . وبقيت القسطنطينية مركزا للحضارة الرومانية

الاغريقية المسيحية وخالقة لفن وفكر جديد عرف بالحضارة البيزنطية الى أن سقطت تحت اقدام جحافل الامبراطور العثمانى محمد الفاتح فى ربيع عام ١٤٥٣ (١) .

نهاية قسطنطينوس الأول : ٣٣٧

رغم النجاح الكبير الذى حققه هذا الامبراطور الا ان النكبات حلت بأسرته ، محدثة نهاية تعسة وحزينة لبيته . اذ كان الامبراطور متزوجا من سيدة لعوب هى الامبراطورة فاوستا Fausta ويبدو أن هذه السيدة نجحت فى اغواء ابن الامبراطور الأكبر من زوجته السابقة وهو الأمير كرسبوس الذى لعب دورا كبيرا فى انتصارات ابيه على أعدائه : ولما شعرت أن أباه قد يختاره وريثا له وكان ذلك يعنى حرمان أبناءها الثلاثة : قسطنطينوس الثانى وقسطنطيوس الثانى وكونستانس ، قررت الوقيعة بينه وبين ابيه ولم تجد صعوبة فى أثارة غيرة الامبراطور الاب فيأمر بقتل كرسبوس بتهمة محاولة أغتصاب الامبراطورية ، والغريب ان الامبراطورة لاقت حتفها باغراقها فى حوض الماء الساخن وذلك بعد ان أثارت هيلانة لامبرطورة الأم قصة خيانة جديدة لتلك السيدة مع احمد عبيد القصر فدبرت مقتلها .

وفى عام ٣٣٧ ، وبينما كان يستعد لقيادة جيشه لتأديب الفرس لتعديهم على مملكة ارمينيا العميلة للامبراطورية ، سقط الامبراطور قسطنطينوس فريسة لمرض غامض . ولما أحس بأن نهايته تقترب وأن لا امل فى شفائه ، أمر باحضار الاسقف يوسيبيوس أسقف نيقوميديا ، وكان اريوسيا ، ولكن الامبراطور لم يكن يعنيه الصراع العقائدى ، وطلب من الاسقف أن يقوم بتعميده بالشعائر الخاصة حتى يصبح مسيحيا كاملا ، وبعد ان تمت شعائر التعميد ارتدى الارواب البيضاء التى كان يرتديها المسيحيون الجدد ثم أسلم الروح فى شهر مايو عام ٣٣٧ . وقد دفن الامبراطور فى ضريح مقدس داخل كنيسة الحواريين الاثنى عشر .

وهكذا تنتهى سيرة قسطنطينوس العظيم بعد أن خلق عصرا جديدا . وبالرغم من انه لم يتدرب على فنون الحكم والادارة الا انه كان يتمتع بطاقة وقوة شخصية جعلت منه القائد الاوحد على الامبراطورية الموحدة .

---

(١) انظر البحث القيم : فتح القسطنطينية — دكتور عبد العزيز عبد السلام فهمى سلسلة المكتبة الثقافية — العدد ٢٢٨ . وهو بحث مبسط ولكنه شامل ومفيد .

كان اعظم اعمال قسطنطينوس هو تحويل الامبراطورية من الوثنية القديمة الى المسيحية ولهذا كرمه المؤرخون المسيحيون بلقب العظيم ؛ وقد قدسته الكنيسة الشرقية الارذوثوكسية التى اعتبرته قديسا ورفعته الى منزلة الرسل (Isoapostoles) كما يفهم من احد النقوش الكنسية (١) .

لقد اكمل قسطنطينوس ما بداه ديوقلديانوس فى اعادة صياغ الأجهزة الادارية والعسكرية خالقا الملامح العامة للامبراطورية فى ايامها الأخيرة مثل سلطوية الحاكم ونظام البيروقراطية ووضع الجيش وجعل الطبقات الاجتماعية وراثية وينتقد بعض المؤرخين هذه التغييرات بانها ساعدت على انهيار الامبراطورية ولم تعالج المشاكل بل زادتها تفاقما وخطرا .

خلفاء قسطنطينوس ٣٣٧ — ٣٦٣ :

ترك قسطنطينوس ثلاثة ابناء هم قسطنطينوس الثانى وقسطنطيوس وكونستانس ، هتف بهم القوات خلفاءا لابيهم بعد أن قتلت كل أقرباء الامبراطور الراحل ممن قد يدعون احقية فى الوراثة ، ولم ينج من هذه المذبحة سوى اثنين من ابناء شقيقة هما جاللوس Gallus وجوليانوس Julianus ويقال أن قسطنطينوس هو الذى أوعز قبل موته الى القوات بهذه المذبحة .

قسم الأخوة الثلاثة الامبراطورية وحمل كل واحد منهم لقب اغسطس وجعل قسطنطينوس الثانى — بصفته أكبر الأخوة — الأغسطس الأكبر . وقد اختار حكم الولايات الغربية بينما حكم اخوه قسطنطيوس الشرق بعد أن اضاف اليه تراكيا . أما الاخ الثالث كونستانس فقد حكم الليريا وافريقيا والليريكوم . على ان يشرف عليه أخوه الأكبر ، ولما ضاق الأخ الأصغر ذرعا من وصاية اخيه عليه أعلن العصيان والتمرد مما ادى الى غزو أخيه لايطاليا ولكن الأمير الصغير تمكن من هزيمة أخيه الأكبر فى معركة ضارية وهكذا سقط قسطنطينوس الثانى وخرج من حلبة الصراع على العرش . وتولى كونستانس حكم الولايات الغربية كلها . واصبح حكم الامبراطورية مقسما بين قسطنطيوس وكونستانس .

---

(١) Quod duce te mundus surrexit in astra trrimphans Hanc Constantius Victor tibi condidit aulam.

« لانك كنت القائد عندما نهض العالم الى السماء منتصرا فقد أقام لك قسطنطيوس هذا البهو » .

cf. Vogt : op. cit., p. 107.

ولكن سرعان ما واجه كونستانس حركة تمرد كبيرة قادها احد الجرمان وأسمه ماجننتيوس Magnentius وأيدته قوات الجيش بسبب حزم كونستانس وتشدده أبان معاركه ضد البرابرة فى وادى الراين فضلا عن سوء سلوكه وجرائمه البشعة ؛ وأعلن ماجننتيوس نفسه أغسطسا على الولايات الغربية فيما عدا الليريكوم التى أعلن فترانيو Vitranio نفسه عليها أغسطسا . حدث ذلك أبان انشغال قسطنطيوس فى حروبه ضد شابور الثانى ملك الفرس ، فلما علم بذلك سارع بسحق المغتصبين ودخل الليريكوم حيث سلم له فترانيو المقاطعة مقابل ان يترك ليحيا وان يمنح معاشا من الدولة . ولما طلب ماجننتيوس من الامبراطور قسطنطيوس أن يعترف به أغسطسا شريكا رفض الأول ، عندئذ حاول ماجننتيوس غزو الليريكوم ولكنه هزم عند مورسا Mursa عام ٣٥١ وهرب ماجننتيوس الى شمال ايطاليا وتبعه قسطنطيوس حتى لحقه فى بلاد الغال وهزمه مرة اخرى وانتحر ماجننتيوس وهكذا وجد قسطنطيوس نفسه الأغسطس الأوحد على الامبراطورية .

قسطنطيوس الأغسطس الأوحد : ٣٥٣ – ٣٦٠ :

كان قسطنطيوس قد عين جاللوس Gallus ابن عمه قيصرا ونائبا له أثناء قتاله ضد ماجننتيوس ، كما زوجه من أخته كونستانتيا ، ثم بعث به للدفاع عن حدود الامبراطورية فى الشرق عام ٣٥١ ولكن جاللوس اساء التصرف ودخل فى صراع مع قواد الجيش ، وأعدم رسل الامبراطور الذين جاءوا ليدعوه للمثول بين يديه ، كما أن مركزه ساء بعد موت كونستانتيا . ولهذا تخلص منه قسطنطيوس عام ٣٥٤ بعد أن دعاه اليه ثم قبض عليه وأعدمه .

وبينما كان قسطنيوس منهمكا فى رد الغزاة عن الدانوب والراين حدثت ثورة فى بلاد الغال قادها احد زعماء قبائل الفرنجة واسمه سيلفانوس Silvanus ، ثم هاجمت قبائل الفرنجة والألمانى وادى الراين هذه الأخطار جعلت الامبراطور يشعر انه فى حاجة الى مساعد لدعم السلطة الامبراطورية ومن ثم وبناء على نصيحة من الامبراطورة يودوكسيا Eudoxia استدعى ابن عمه جوليانوس الذى كان يدرس الفلسفة فى اثينا — الى ميلان وعينه قيصرا (اى نائبا للامبراطور) وزوجه بابنته هيلينا . ثم ارسله الى بلاد الغال فى عام ٣٥٥ وعينه قائدا فى عام ٣٥٧ ، ونجح جوليانوس بالفعل فى صد موجة غزو قامت بها قبائل الألمان قرب ستراسبورج الحالية وما ان اتى عام ٣٥٩ حتى كان قد نجح فى أن يعيد

الى روما قلاع الراين التى كانت قد سقطت ، ثم ثبت قبائل الفرنجة التى استوطنت جنوب وادى الراين الأدنى وحولهم الى حلفاء للامبراطورية Fœderati

موت قسطنطيوس وتولى جوليانوس ٣٦٠ — ٣٦١ :

وفى عام ٣٥٩ غزا الملك الفارسى شابور الثانى ولاية ما بين النهرين ودمر مدينة اميدا Amida أهم المدن فيها ، واندفع قسطنطيوس لصد هذا الغزو عام ٣٦٠ . وقبل أن يصل جاءته الانباء أن القوات العسكرية التى يقودها جوليانوس فى بلاد الغال هتفت به امبراطورا ، ولكنه لم يعبأ وسار فى طريقه لملاقاة سابور . ويقال أن السبب فى هذا الانقلاب هو اصداره امرا الى جوليانوس بارسال تعزيزات من قواته لتشترك معه فى الحرب ضد الفرس ، ولم يكن الامبراطور فى حاجة الى تعزيزات ولكنه اراد أن يضعف من مركز جوليانوس العسكرى خاصة وأنه بات يتشكك فيه ، ويتجسس عليه ، بينما اثبت جوليانوس انه قدير بالقيادة ، وكان على استعداد لتلبية طلب قسطنطيوس ولكن قواته التى كانت ترفض الذهاب الى الشرق هتفت به امبراطورا وأرغمته على قبول هذا القرار وذلك فى عام ٣٥٠ . ولما اعترض قسطنطيوس على ذلك وسار لخلعه ووجد جوليانوس نفسه فى موقف التحدى وسار لاحتلال القسطنطينية ولكن القدر وضع حدا لهذا الصراع عندما مات قسطنطيوس فى طرسوس . ورغم ذلك أوصى قبل موته بأن يكون جوليانوس خليفته . وهكذا وجد جوليانوس نفسه امبراطورا بمفرده .

قسطنطيوس وسياسته :

نشأ قسطنطيوس مثل اخويه مسيحيا ، ولكنه اعتنق المذهب الأريوسى . وحاول جمع شمل الكنيسة . وبالرغم من ان قدراته ومواهبه محدودة ، وكفاءته العسكرية قليلة ، وشخصيته واهية ، حيث ترك رجال البلاط يتحكمون فيه ويسيطرون عليه ، الا انه حاول بقدر الامكان أن يعمل جاهدا لانقاذ الامبراطورية . فوسع من دائرة الحكومة ، ودعم رجال البوليس السرى ، وزاد من ترف حاشيته ، وبالغ فى ترف قصره . وهو بالرغم من هذا كان يدرك خطر البيروقراطية وفسادها فحاول فى نهاية حكمه الحد من سيطرتها عن طريق تشريعات خاصة . كما حاول حماية السلطة المدنية من النفوذ العسكرى لبعض القواد ، وحاول كسر حدة التضخم فى نظام النقد ، ولكن كل محاولاته ذهبت معه الى القبر .

حكم جوليانوس المرتد عن المسيحية :

بالرغم من أن جوليانوس تلقى تربية مسيحية الا انـه درس الأدب والبلاغة والفلسفة الأغريقية الوثنية ، حيث درس فى أثينا وبرجامون على يد معلمين وثنيين . ولهذا عاد سرا للديانة الـوثنية كنوع من الاحتجـاج على ما فعله اسلافه من الأباطرة المسيحيين من حمامات الدم وما جلبوه على الامبراطورية من دمار ، وبعد موت قسطنطيوس أعلن ارتداده عن المسيحية علنـا ، ثم اتبع ذلك بقـرار قصـد بهـا تضيق الخنـاق على المسيحية مثل القرار الخاص باعادة خزائن المعابد الوثنية والتى كانت الكنيسـة قد استولت عليها وسخرتها لخدمتها ، ومثل القرار الخـاص بوقف دعم الدولة للمسيحية ، كما حرم على المسيحيين التعرض للآداب والفلسفات الوثنية فى مدارسهم . كما حاول غرس الصراع بين الطـوائف المسيحية وذلك بدعوة الاباء والاساقفة المطرودين من الكنيسة الى العـودة لممارسة دورهم الدينى ، ثم قاد حملة أدبية ضد الكنيسة وضد المسيحية، وفى نفس الوقت حاول أعادة الهيبة والوقار الى الديانة الوثنية ، واعتبرها ديانة وحدانية لكافة العقائد الدينية وكافة المثل الاخلاقية . كما حـاول انشاء كنيسـة وثنية مناهضة للكنيسة المسيحية مثلما فعل ماكسيمينوس دايا من قبل .

وبالرغم من التأييد العاطفى الشديد للوثنية الا أن مجهودات وخطط الامبراطورية باءت بالفشل بعد موته لأن المسيحية كانت قد تغلغلت فى نفوس الناس ، وابتعدت الوثنية عن وجدان الاجيـال وانحسرت فى دائرة محدودة من الارستقراطيين والمثقفين ، أما الذين قلدوه وارتدوا الى الوثنية فكانوا هم طائفة المتملقين الذين كانوا يبغون كسبا ماديا ومنافع شخصية ، ولكن الحق يقال احيت حركته الثقافية الأغريقيـة ودعمت من مركـز الحضارة الوثنية وتراثها العريق .

أعمال جوليانوس واصلاحاته :

تمتع جوليانوس بعدة فضائل اخلاقية ، اذا كان رجلا متعففا ، عادلا شجاعا بالرغم من انه كان ينقصه الحكمة فى بعض المواقف وعند اتخـاذ بعض القرارات . كما اتخذ من أباطرة الرومان العظام من أمثال اغسطس وتراجانوس وماركوس أوريليوس مثلا اعلى لسلوكه . ولهـذا كان يسيطر عليه الحنين لأفكار الجمهورية القديمة وديمقراطيتها . بالرغم من ان ذلك [illegible] الحكم الانفرادي الذي يقوم عليه نظامه . كما حـاول الحد من نفوذ البيروقراطية وسيطرتها على الأدارة ولكن اصلاحاته لم

تلمس وجود البيروقراطية ذاته بل نفوذها فقط . كما حاول وقف التضخم الاقتصادى بالحد من النفقات ومن التبذير ، كما حدد عدد رجال البوليس السرى واصلح نظام البريد ، وحاول اعادة الحياة الى المجالس البلدية (Curiae) كما اهتم جوليانوس بتثبيت القيمة المعدنية للنقود الرومانية خاصة نسبة الفضة بحيث لايدع البرونز يطغى عليها . وقد أولى جوليانوس اهتماما كبيرا لتطبيق العدالة بين الرعية وأحيا بعض القوانين القضائية الوثنية التى كان اسلافه المسيحيون قد الغوها . وحفاظا على بسط العدالة وضمان سيرها حرص جوليانوس على اختيار موظفيه من الشباب الذين درسوا فنون البلاغة والخطابة فى المدارس الوثنية .

حملة جوليانوس ضد بلاد الفرس وموته ٣٦٣ :

لقد اثرت الأفكار الوثنية فى شخصية جوليانوس لدرجة انه حاول تقليد الاسكندر الأكبر بمحاولة القيام بغزو بلاد الفرس وتعيين ملك موال للرومان عليها ، وبهذا يضع نهاية لاعتداءات الفرس على مملكة ارمينيا وبلاد ما بين النهرين . وفى عام ٣٦٣ قاد جوليانوس جيشا قوامه خمس وستين الف رجل عبر بهم نهر الفرات ومستعينا بحليفته ملك ارمينيا . ثم سار مخترقا ولاية بابل ثم عبر دجلة حيث احرز انتصارا على الفرس تحت حوائط كتيسيفون ولكن سرعان ما ظهر جيش سابور الذى جعل مهمة الجيش الرومانى شاقة . وقد تقهقر الجيش الرومانى بعد أن تلقى جوليانوس جرحا أودى بحياته فى يونيو سنة ٣٦٣ وليس من المستبعد ان يكون قد أ.تيل على يد احد رجاله الذين كانوا يسخطون من تحيز الامبراطور للوثنية ضد المسيحية وبموته انتهت اسرة قسطنطينوس الأكبر .

جوفيانوس يتولى الحكم : (٣٦٣ — ٣٦٤)

كان على القوات الرومانية أن تختار زعيما يقودها واجمع الجنود على اختيار قائد الحرس الخاص للامبراطور القتيل وهو جوفيانوس . وقد تسرع جوفيانوس فعقد صلحا مهينا لكرامة الرومان مع الفرس من اجل أن يسرع الى الأراضى الرومانية ليدعم من مركزه الجديد فتنازل للملك سابور عن كافة الأراضى الواقعة شرق دجلة بما فى ذلك قلعة نيسيبس Nisibis (الحصن الشرقى لحدود الامبراطورية عند بلاد مابين النهرين) ، كما تنازل عن ارمينيا الشرقية التى كانت محمية

رومانية كما تعهدت روما بدفع اعانة سنوية لمساعدة الفرس فى حماية القوقاز من خطر هجوم القبائل البربرية .

وعلى النقيض من جوليانوس كان جوفيانوس مسيحيا ولهذا الغى كل القوانين المضادة للمسيحية التى كان سلفه قد أصدرها ولكن اكد على حرية العبادة للجميع وكان حكمه حكما مسالما فى عمومه . وبعد تسعة شهور مات جوفيانوس فى بيثينيا وبموته انتهت صفحة من الحكم وبدا حكم اسرة جديدة .

الفصل الحادي عشر

حكم أسرة ڤالنتيانوس وثيودوسوس الكبير

٣٦٤ ـ ٣٩٥ ميلادية

حكم الأخوين ڤالنتيانوس الأول وڤالنس :

بعد موت جوڤيانوس اتفق قواد الجيش وكبار الموظفين على اختيار فلاڤيوس ڤالنتيانوس وكان محاربا قديما يرجع اصله الى بانونيا ولم يتول من قبل مناصب عليا فى الجيش وتحت الحاح الجيش بوجوب اختيار شريك له بدرجة اغسطس أعلن ڤالنتيانوس عن اختيار اخيه الاصغر ڤالنس اغسطسا . وبعكس ديوقلديانوس وقسطنطينوس الكبير اختار ڤالنتيانوس الغرب ليجعله مقر حكمه وجعل عاصمته ميلان .

ولم يمض وقت طويل حتى وجدت هذه الأسرة نفسها محاصرة بالعداء فالقوات الغالبة كانت لا تزال على ولائها لجوليانوس كما كان هناك الانصار المعجبون بقسطنطينوس الأكبر وبيته ، والوثنيون كانوا لايزالون يذكرون جوليانوس وانصافه لهم ، ولهذا تجمعت هذه العناصر حول بريكوبيوس Procopius احد كبار الشخصيات فى عهد قسطنطينوس الأول واحد اصدقاء جوليانوس فى نفس الوقت ، بل يقال أن هذا الاخير كان ينوى اختياره خليفة وذلك قبل موته ، ومن ثم اعلن بريكوبيوس نفسه امبراطورا من القسطنطينية وذلك فى نهاية عام ٣٦٥ ولم يلبث أن غزا تراقيا وبيثينيا وضمهما اليه . لكن جيشه هجره فجاة وانضم الى ڤالنس فى عام ٣٦٦ ، بعد أن أعدم بريكوبيوس ، لكن حركته لم تمت لان احد اصدقائه وهو ماركيللينوس Marcellinus حل محله وتجمع حوله انصار بريكوبيوس . لكن هذه الحركة الجديدة سرعان ما سحقت وقضى عليها ڤالنس .

ڤالنتيانوس الأول وحروبه ٣٦٥ ـ ٣٧٥ :

أولى ڤالنتيانوس الأول اهتمامه الأكبر لحماية الجبهة الغربية للامبراطورية خاصة بلاد الغال التى ساء وضعها بسبب غزوات الالمانى

والفرنجة والسكسونيين . ولذا قضى الامبراطور عشر سنوات فى بلاد الغال ٣٦٥ — ٣٧٥ حيث استطاع بمساعدة قائده الشهير ثيودوسيوس ان يجعل بلاد الغال تستمتع بهدوء واستقرار لم يعرف لهما مثيل. كما قام ثيودوسيوس بتأمين ولاية بريطانيا من خطر القبائل الاسكتلندية . كما سحق ثورة اخرى قامت فى بانونيا بزعامة رجل اسمه ڤالنتينوس .

وفى عام ٣٦٧ سقط ڤالنتيانوس فريسة لمرض طويل وشفى منه بعد مشقة ، ولهذا قرر تعيين ابنه الصبى جراتيانوس Gratianus الذى كان لايزال فى التاسعة من عمره كاغسطس ثالث حتى يقطع خط الرجعة على الطامعين فى العرش بعد موته . ثم شرع فى تحصين جبهة الدانوب محصنا رايتيا وبانيا بالذات التى زارها بعد قيام ثورة قبائل الكادى Quadi فى عام ٣٧٥ . وفى أثناء اجتماع مع زعماء الكادى انتاب الامبراطور غضب شديد اودى الى اصابته بأزمة قلبية قضت عليه .

وما ان اشيع نبأ موته حتى ثارت أفريقيا التى كان الامبراطور قد اهملها فعانت من الغزو وسوء الادارة وانعدام الأمن حيث قاد فيرموس Firmus المراكشى ثورة فى نوميديا وموريتانيا ضد الحكم الرومانى . ومن العجيب ان المستوطنين الرومان انضموا اليه تعبيرا عن سخطهم على ما يجرى فى الامبراطورية . ولكن القائد ثيودوسيوس سحق الثورة وقضى على فيرموس عام ٣٧٤ الذى أخذ حياته بيده ، ثم كشف ثيودوسيوس عن فساد الادارة الرومانية فى أفريقيا ولكن أصدقاء هؤلاء الذين فضحهم ثيودوسيوس تآمروا ضده ودسوا بينه وبين القصر الامبراطورى فالصقت به تهمة واعدم عام ٣٦٧ ولا نعرف من الذى دبر ذلك أهو ڤالنتيانوس أم جراتيانوس ؟

الامبراطور ڤالنس وحكم الشرق : ٣٦٥ — ٣٧٨ :

واجه ڤالنس منذ اول أيام حكمه غزوات القوط لاقليم تراكيا وقاومهم حتى هزمهم عام ٣٦٩ واملى عليهم شروطه ، كما واجه سابور الثانى ومحاولاته لاحتلال أرمينيا وصد محاولة الفرس لاحتلال بلاد ما بين النهرين . ولكن انتصارات ڤالنس فى الشرق لم تكن حاسمة واضطر الى العودة عام ٣٧٧ الى اوربا ليواجه خطر القوط المغيرين على ولايات الامبراطورية العربية .

القوط يهاجمون الامبراطورية ويحتلون البلقان :

يرجع سبب اندفاع القوط نحو حدود الامبراطورية الى تحرك قبائل

الهون Huns المنغولية من سيبريا مندفعين نحو آسيا الصغرى وأوربا وخاصة المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود دافعين أمامهم القبائل الجرمانية سواء فى شرق أو وسط أوروبا . وفى عام ٣٧٣ غزا الهون مملكة القوط الشرقية (Ostrogoth) فى أوكرانيا واستولوا عليها ثم هاجموا مملكة القوط الغربية (Visigoth) وعجزت الحكومة الرومانية عن صد القوط الهاربين من الهون فلجأت الى التفاهم معهم وفشلت ، فحاولت اغتيال زعماء القوط مما أدى الى اشتعال الحرب عام ٣٧٧ . وسار ڤالنس لصد القوط ولم ينتظر قوات جراتيانوس ابن أخيه التى كانت فى طريقها لمساعدته وكانت النتيجة أن هزم جيش ڤالنس هزيمة ساحقة ولاقى الامبراطور حتفه بعد أن اتحد قوط الشرق وقوط الغرب ضده واحتلوا منطقة البلقان بأكملها .

فلسفة حكم ڤالنس وڤالنتيانوس :

كان ڤالنتيانوس الأوغسطس الأول بالنسبة لاخيه ڤالنس وابنه جراتيانوس بالرغم من أن القرارات كانت تصدر بأسماء ثلاثة تعبيرا عن وحدة الامبراطورية . ولكن ڤالنتيانوس كان شخصا بربرى السلوك عديم الثقافة ولذا عادى الطبقات المثقفة ونظر اليهم بعين الشك . كما كان يختار مساعديه من الاجلاف القساة الذين تركوا انطباعا سيئا بين الناس . وقد تامل الامبراطور الارستقراطيين من طبقة رجال السناتو فى روما بمنتهى القسوة لأن هذه الطبقة كانت تمارس شعائر السحر سرا وكان الامبراطور يخاف من الشعوذة والسحر ولذا أتهم هؤلاء الناس بالتآمر عليه وعذب وقتل عددا كبيرا كما صادر أموال الكثيرين منهم ونفى آخرين .

واذا كان ڤالنتيانوس قد اتبع سياسة العنف والجبروت ضد المثقفين والارستقراطيين فقد حاول أن يعين الفقراء من الفلاحين ورعاع المدن على مواجهة مشقة الحياة برفع ظلم جباة الضرائب عنهم وتأمين تطبيق العدالة عليهم بالرغم من انه اضطر تحت الحاح الحاجة الماسة لزيادة الضرائب حتى يتمكن من تدعيم خطوط الدفاع وحماية المدن واصلاحها واعادة تعميرها . ولم يفعل ڤالنتيانوس ذلك الا بعد أن وجد أن الاموال التى صادرها من اعضاء السناتو والارستقراطيين لا تكفى لهذا الغرض حتى بعد أن طبق سياسة التقشف على قصره وبلاطه .

كما انه اعاد الانضباط الى الجيش بالعنف وجعل القوات تلتزم بالنظام التقليدى ، كما انه انعم بأسمى المناصب على كبار مساعديه من

الجرمان كما منحهم الالقاب الشرفية والامتيازات الخاصة . كما استمر فى سياسة توطين البرابرة فى المناطق المهجورة على الحدود .

اما ڤالنس فقد كان اقل بأسا من ڤالنتيانوس ، اذ كان ينقصه الشجاعة والارادة فعوض هذا النقص بالانغماس فى الجرائم البشعة ، وكان عديم الخبرة بالعسكرية فضلا عن جهله التام بالثقافة وسعة الادراك لأنه كان مثل اخيه لم يتلق تعليما قط فى حياته . لم يكن لڤالنس سياسة معينة فحذى حذو أخيه . وفى عهده تغلغلت البيروقراطية فى كل نواحى الادارة وتدعم نظام الطبقات المتوارثة . ومثل أخيه حاول الاخذ بيد الفقراء وتخفيف الضرائب عن كاهلهم بمراقبة جباة الضرائب للحد من جشعهم وفسادهم . كما نجح فى اعادة الانضباط الى قواته بالحزم وأدخل الكثير من قبائل القوط فى الخدمة العسكرية .

ولما هدم الزلزال عام ٣٦٥ مدن شرق البحر المتوسط سارع بتقديم المعونات من اجل اعادة تعمير هذه المدن التى خربت . وبالرغم من ان النصف الشرقى الذى حكمه ڤالنس كان اغنى مواردا من الشطر الغربى للامبراطورية الا ان النفقات العسكرية الباهظة ارهقت الخزانة وحرمت المواطنين من مزايا اقتصاد الامبراطورية القوى مثل تخفيف الضرائب وتقديم الخدمات المجانية للجمهور .

وبالرغم من ان ڤالنتيانوس كان مسيحيا أرثوذكسيا الا أنه سلك سياسة التسامح الدينى مع باقى الديانات الاخرى . ولم يعر الخلافات العقائدية أى اهتمام ، ولكنه اهتم باستخدام الكهنة فى المحافظة على الروح المعنوية العامة وتطبيق العدالة . وقد تمتع الوثنيون بحرية العبادة الا أنه حرم عليهم بعض الشعائر التى اعتبرها سحرا ودجلا ، اما ڤالينس فقد ورط نفسه فى الصراع الكنسى لأنه كان أريوسيا وحاول فرض هذا المذهب على الكنيسة الارثوذكسية واضطهد اعداء الاريوسية . أما سلوكه نحو الوثنيين فكان يتسم بالتسامح والحرية الا من بعض الشعائر الغامضة مثل السحر والروحانية التى وقفت منها موقف العداء .

ثيودوسيوس الاول وصراعه ضد القوط : ٣٧٩ - ٣٨٢ :

كان ڤالنتيانوس قد عين ابنه جراتيانوس عام ٣٦٧ اغسطسا شريكا له ، ولهذا عندما مات الاول تولى الثانى بلا منازع حكم ولايات أبيه فى أوربا الغربية . ولكن جراتيانوس كان صبيا فى الرابعة عشرة من عمره قليل الدراية بفنون الحكم وعديم الخبرة بالاستراتيجية وقيادة الجيوش

ولهذا كان الامر في أيدى مستشاريه الذين أشاروا عليه بتنصيب الطفل ڤالنتيانوس الثاني وكان فى الرابعة من عمره كأغسطس شريك له على ان يتولى ولاية الليريكوم فقط ويحكمها بمساعدة امه الوصية عليه وبمساعدة قائد من الفرنجة اسمه ميروباوديس Merobaudes.

ولما مات ڤالنس عام ٣٧٨ استدعى جراتيانوس من اسبانيا ابن الجنرال ثيودوسيوس الذى اعدم منذ ثلاث سنين وكان الابن معتكفا فى أسبانيا ، ومن الطريف انه كان يحمل نفس اسم أبيه ، وعينه قائدا للفرسان magister equitum ثم رقاه الى درجة اغسطس عام ٣٧٩ ، وكان ثيودوسيوس فى الرابعة والثلاثين من عمره ولكنه كان متمرسا فى شئون الجيش والاستراتيجية . وكانت أول مهمة أوكلها جراتيانوس اليه هو حكم ولايات الشرق وحل مشكلة القوط . وقد تغلب ثيودوسيوس على هذه المشكلة بذكاء اذ انه تجنب الدخول فى مواجهة شاملة مع القوط متعظا من الماضى ، ثم شجع [illegible] بين زعمائهم حتى يصفوا انفسهم بأنفسهم ، ثم لـ[illegible] الى نتـ[illegible] [illegible]ط على الدخول فى خدمة القوات الرومانية (١) ولما [illegible]ضعف القوط عرض عليهم عام ٣٨٢ صلحا يقضى بمنحهم الاراضى الواسعة بين الدانوب والبلقان ليحكموها كدولة مستقلة ذات سيادة بشرط ان ترتبط بالامبراطورية عن طريق المعاهدات وان تمنحهم روما معونة سنوية من الغذاء مقابل أن تجند منهم قواتها ، وكان تصرفا غاية فى الذكاء لأن ثيودوسيوس ادرك انه من العبث بل من المحال طرد القوط فلماذا لا يحتويهم فى كيان الامبراطورية ويجندهم للدفاع عنها ؟

ثيودوسيوس ينتقم لقتل جراتيانوس :

كان حكم جراتيانوس لولايات الغرب حكما فاشلا لأنه لم يكن مؤهلا لهذا العمل مما شجع الثورة ضده ، وتمكن حاكم ولاية بريطانيا ماجنوس ماكسيموس Magnus Maximus من تحريض قواته على الهتاف به امبراطورا وظهرت رعونة جراتيانوس الذى اسقط فى يده فهجرته قواته فهرب وطاردته قواته حتى قتلته . واصبح ماكسيموس امبراطورا على بريطانيا وبلاد الغال واسبانيا . وبعث الى ثيودوسيوس يطلب منه الاعتراف بأنه أغسطس شريك . ولما كان ثيودوسيوس فى وضع لا يمكنه من تحدى

---

(١) E.A. Thompson : The Visigoth in the time of Ulfila Oxford, The Clarendon Press, P. 78 ff.

ماكسيموس فقد تباطأ فى الرد . ولكن ماكسيموس اعلن فى عام ٣٨٨ تعيين ابنه فكتور قيصرا ثم استولى على ايطاليا .وهرب ڤالنتيانوس الصغير الى سالونيك .

وكان ثيودوسيوس فى ذلك الوقت قد تزوج من شقيقة جراتيانوس واسمها جاللا Galla ومن ثم صمم على الانتقام لمقتل جراتيانوس من ماكسيموس . ولكي يتفرغ لذلك عقد صلحا مع الملك الفارسى سابور الثانى وهو أن تقتسم ولاية ارمينيا بين روما وملك الفرس . فى هذه الأثناء كان الفرور قد ركب ماكسيموس فعين ابنه فكتور اغسطا وتلى ذلك هجومه على الليريكوم ووصل اسطول ثيودوسيوس الى ميناء أوستيا يحمل ڤالنتيانوس فى حمى قواته مما اضطر ماكسيموس الى لتراجع عن ايطاليا وفى الليريكوم سحق ثيودوسيوس جيوش ماكسيموس وقضى عليه عند اكويلايا قرب بحر الادرياتيك عم ٣٨٨ . ثم تقدم جنرال ثيودوسيوس واسمه ابروجاستوس Arbrogastus الى بلاد الغال . واعدم ڤكتور ابن ماكسيموس . وهكذا انتهى ماكسيموس الذى حاول أن يقلد اباطرة الرومان فى طريقة حكمه ولكن حاجته الشديدة الى الاموال جعلته يلفق التهم الى الاغنياء ويصادر اموالهم بعد قتلهم . كما أن سحبه للقوات التى كانت فى بريطانيا أدى الى هجر التحصينات الشمالية واصبح بريطانيا غير محمية وبلا قوات .

ثيودوسيوس والقديس امبروزيوس St Ambrose :

جعل ثيودوسيوس مقر حكمه فى ميلان وارسل ڤالينتيانوس الثانى الى بلاد الغال ليحكمها فى حماية قائده أربوجاستوس Arbogastus بينما جعل مقر ابنه اركاديوس الذى عينه أغسطا فى عام ٢٨٣ — فى مدينة القسطنطينية .

ولكن حدثت مواجهة بين ثيودوسيوس والكنيسة التى كان يتزعمها وقتئذ القديس امبروزيوس Ambrosius عام ٣٨٨ وسبب الازمة أن رهبان كالنكيوم Callincium فى بلاد ما بين النهرين حرضوا جمهورا من المسيحيين على مهاجمة المعبد اليهودى وحرقه انتقاما لصلب المسيح . ولما بلغ ثيودوسيوس الخبر غضب واصدر أمرا الى الاسقف سانت امبروزيوس بأن يصلح المعبد اليهودى . وكان سانت امبروزيوس أسقفا على ميلان . وغضب وابى أن يصدر الامبراطور أمرا مهينا مثل هذا ورد بأن انذر ثيودسيوس بأن يسحب أمره والا سحبت الكنيسة القداسة من الامبراطور ورضخ ثيودوسيوس للاسف بالرغم من انه اعلن انه لا يريده

مستشارا له . ومرة أخرى حدث ان ثارت الغوغاء فى سالونيك وقتلت القائد الرومانى بوثيريك Butheric لانه رفض اطلاق سراح أحد أبطال سباق الخيول وفقد ثيودوسيوس وعبه من الغضب ولهول الكارثة أصدر أمره الى الحامية الرومانية بذبح السكان فى سالونيك وقامت مجزرة قتل فيها ثلاثة آلاف نسمة . ولم يشعر الامبراطور بالندم الا بعد أن سبق السيف العزل . وجاءه انذار القديس أمبروزيوس بأن الكنيسة سوف تطرد الامبراطور ما لم يعلن توبته وندمه على ما فعل ، ومضت ثمانية شهور والامبراطور يعاند ويكابر ثم أعلن اسفه وندمه تحت تأنيب ضميره واحساسه بعقدة الذنب وبهذا كسبت الكنيسة سابقة بحقها فى السيطرة على الامبراطور اى أن تخضع الدولة لقانون الكنيسة ، وأصبح من حق الاسقف أن يدين الامبراطور اذ ما خرج على القوانين الاخلاقية للكنيسة . وهذه بداية احدى ظواهر العصور الوسطى .

انقلاب أربوجاستوس ويوجينيوس ٣٩٢ — ٣٩٤ :

كما سبق ان ذكرنا ، عين ثيودوسيوس الامير فالينتيانوس حاكما على بلاد الغال تحت اشراف قائده اربوجاستوس ولكن عندما حاول فالنتيانوس التحرر من سيطرة اربوجاستوس حدث صراع بينهما ادى الى طرد الامبراطور لهذا القائد الغالى الاصل ، ورفض أربوجاستوس اخلاء منصبه وتجمع الغاليون حوله . وفى احد أيام شهر مايو عام ٣٩٢ عثر على ڤالينتيانوس الثانى قتيلا فى قصر ، واغلب الظن أن ذلك كان من تدبير اربوجاستوس الذى اعلن نفسه امبراطورا واختار احدى الشخصيات الرومانية وهو يوجينيوس شريكا له . وحاول يوجينيوس الحصول على اعتراف من ثيودوسيوس ورفض الاخير ، وامعانا فى رفضه اصدر قرارا بتعيين ابنه هونوريوس Honorius امبراطورا مكان ڤالنتيانوس وذلك فى عام ٣٩٣ . وادى ذلك الى صراع . اذ سارع يوجينيوس واحتل ايطاليا حيث رحبت به بقايا الارستقراطية الوثنية فى روما وأعلنت اسبانيا تأيدها له وحذت افريقيا حذوها . وسارع ثيودوسيوس على راس قواته وعند نهر فريجيدوس Frigidus فى شمال ايطاليا تقابلت القوات واحرز ثيودوسيوس نصرا اذ سقط يوجينيوس صريعا وهرب اربوجاستوس يائسا الى أن اخذ حياته بيده (١) وتوحدت الامبراطورية أخيرا تحت قيادة ثيودوسيوس ولكن لم يعش طويلا ليستمتع بذلك النصر اذ وافته منيته فى ميلان فى مطلع عام ٣٩٥ م.

---

(1) A. Cameron, Harvard Studies in Classical Philology, LXXIII, 1968, p. 251.

تقييم ثيودوسيوس الكبير وسياسته :

لقد نجح ثيودوسيوس فى تحقيق سيادة الامبراطورية على كافة ممتلكاتها (١) بفضل الذكاء مثل الوقيعة بين قيادة القوط وبفضل اعتماده على خبرة رجال محنكين مثل قائد الحرس البرايتورى روفينوس Rufinus والجنرال ستيليكو Stilicho ، لكن بالرغم من هذا لم يستطع ثيودوسيوس بكل ذكائه وحنكته لامن وقف تدهور الامبراطورية . ولامن معالجة المشاكل التى كانت تعصف بهـا مثل النقص فى القـوى البشرية وانتشـار الفقر والفساد والرشوة وتغلغل البيروقراطية وانتشار نفوذ الاقطاع وتدهور المدن وهجرة الناس منها . لقد نجح هذا الامبراطور فى قبول الامر الواقع والتسليم بحق القوط فى انشاء دويلة مستقلة داخل الامبراطورية ، وبذلك خلف تركة مثقلة من المشاكل لمن يأتى بعده . وكان القوط يسكنون المنطقة الواقعة شمال الدانوب فى المنطقة المعروفة باسم داكيا Dacia (رومانيا حاليا) وبدأوا يتعودون على حياة الاستقرار والتحضر هناك حتى أصبحوا فى حوالى عـام ٢٧٠ شعبا متحضرا وانتشرت المسيحية بينهم . لـكن سرعان ما بدات قبائل الهون التى تقطن فى سيبريا والتى نشرت الرعب فى قلوب اهل الصين القدماء وهى قبائل منغولية الاصل . هذه القبائل بدات تزحف غربا وعبرت نهر الفولجا واستولت على الشواطىء الشمالية للبحر الاسود دافعين القوط امامهم مما دفع القوط الى عبور الدانوب ليجدوا لانفسهم مكانا داخل الامبراطورية الرومانية وعلى حسابها .

ويعاب على ثيودوسيوس انه تملق القوات العسكرية نظرا لحـاجته الشديدة اليها بسبب النقص فى القوى البشرية وهذه السياسة أضرت بالامبراطورية مستقبلا وساهمت فى اسقاطها . كما أن ثيودوسيوس اعتنى بعاصمته القسطنطينية وبالغ فى تجميلهـا واعتنى بقصره وأغرق نفسه وبلاطه فى البذخ والترف الشرقى دون مراعاة للأزمة الاقتصادية .

لقد كان ثيودوسيوس مسيحيا وعمد وهو طفل ولهذا الغى الديانة الوثنية وحول المعابد القديمة الى كنـائس . وكان مسيحيا أرثوذكسيا متطرفا مؤمنا بأن واجبه هو وحدة الدولة تحت قداسة العقيدة ولهـذا حاول ضرب الوثنيـة والطوائف المسيحية الاخـرى التى تثير الفرقة والهرطقة ، بالرغم من انه كفل لليهود حرية العبادة — ووقف الى صفهم عندما تعرض لهم الرهبان المتطرفون فى بلاد ما بين النهرين . كما وضع تقليدا جديدا بأن من حق الامبراطور أن يرعى العقيدة وأن يتدخـل فى شئون الكنيسة بالرغم من انه يخضـع لهـا . ولهـذا قدره المسيحيون الارثوذوكس ولقبوه بالكبير .

(١) A. Lippold : Theodosius der Grosse und Seine zeit (Urbanbueche, 107), Stuttgart, Kohlhammer, 1968, p. 80 ff.

الفصل الثاني عشر

سقوط الامبراطورية فى الغرب
واستمرارها فى القسطنطينية ٣٩٥ ــ ٤٧٦

تقسيم الامبراطورية الى شطرين منفصلين :

كان ثيودوسيوس قد عين ولداه هونوريوس البالغ من العمر احدى عشر سنة امبراطورا على الولايات فى الغرب ، وأركاديوس البالغ من العمر ثمانية عشر سنة امبراطورا على الشرق ، ولكنه بعد موت ثيودوسيوس ثبت أن هذين الاميرين لم يكونا على مستوى المسئولية والقدرة على الحكم ولهذا وقعا تحت سيطرة وتأثير وزرائهما الجرمان . فهيمن على الشطر الشرقى للامبراطورية روفينوس القائد البرايتورى ولاية الليريكوم بينما هيمن على الغرب ستيلكو القائد الواندالى للجيش والذى كان ثيودوسيوس قد اختاره وصيا على ابنه هونوريوس .

ولما حاول استيلكو الواندالى استعاده ولاية الليريكوم للغرب نشب صراع بينه وبين روفينوس وزير اركاديوس أدى الى انقسام الامبراطورية الى شطرين منفصلين ومستقلين ومتنافسين . ولم يبق من وحدة الامبراطورية سوى موضوعات اسمية مثل تنصيب تماثيل الامبراطورين معا فى كافة انحاء الامبراطورية ، أو الاتفاق على تعيين قنصلين احدهما يحكم فى روما والأخر فى القسطنطينية ، لكن فيما عدا ذلك اصبح لكل شطر وضعه المستقل وسيادته وادارته المستقلة ، فمثلا قبل عام ٣٩٥ كان يتوجب على الامبراطور أن يأخذ موافقة الامبراطور الآخر قبل تولى الحكم ــ أى ما يعرف بالاعتراف المتبادل ، لكن اهمل ذلك التقليد منذ ذلك التاريخ وأصبح كل شطر يصدر تشريعاته بما يتناسب وظروفه ، ولم يعد مقيدا بنشر هذه التشريعات فى الشطر الآخر للامبراطورية . كما لم يعد الاغسطس الآخر فى عرش الامبراطورية كما كان قديما بل أصبح لكل شطر وريث لا علاقة له بالشطر الآخر ، وخلاصة القول أصبحت الامبراطورية

فعليا منقسمة الى شطرين مستقلين ويمكن أن نسميهما دولتين لكل منهما سيادة مستقلة .

كما شهدت هذه الفترة انهيار الامبراطورية فى الغرب وعجزها عن صد ومقاومة الغزاة الجرمان الذين استولوا على ايطاليا . واصبح العنصر الجرمانى هو الذى يحكم بينما انزوى العنصر الرومانى ، وانقلبت الآية وأصبح الحكام والملوك جرمان وتحول الرومان الى رعايا من الدرجة الثانية ونشأت مملكة جرمانية فى ايطاليا ونصب قائد جرمانى نفسه ملكا عليها (١) .

وقد صاحب هذا كله ظاهرة الطغاة العسكريين البرابرة الذين كانوا يتحكمون فى مصير الولايات الغربية عن طريق القوات التى يملكون زمام قيادتها ، بل اصبح مصير الاباطرة فى يد هؤلاء القادة العسكريين الجرمان الذين تحولوا الى صانعى الملوك والاباطرة ، وقتلتهم فى نفس الوقت ، واصبحوا بحكم منصبهم يتمتعون بألقاب الشرف العليا وكان هؤلاء القواد هم المتحكمون الفعليون فى الامبراطورية واضحت سلطة الاباطرة اسمية فقط . ولما كان معظم هؤلاء القواد العسكريون اما برابرة أو العوبة فى يد البرابرة الجرمان فقد وجدوا معارضة من الشعب ومن كبار الموظفين الاداريين فى الدولة ، واصبح هناك صراع دائم بين السلطة المدنية والعسكرية ، ولم تنجح السلطة المدنية الرومانية فى وقف سيطرة السلطة العسكرية الجرمانية والحد من سلطات قواد الجيوش لانه كلما تخلصوا من قائد عسكرى ظهر آخر ، فضلا عن حاجة المدنيين الى هؤلاء القواد الجرمان لصدّ الغزوات الجرمانية عن حدود الامبراطورية .

نجاح الامبراطورية الرومانية فى الشرق :

وبينما كانت الامبراطورية الغربية تغرق تحت سيطرة العنصر الجرمانى نجت الامبراطورية الشرقية من خطر الغزاة ونجحت فى فرض سيطرتها ونفوذها على مقاطعاتها ، والقضاء على حركات الانفصال المحلية التى كان يثيرها كبار الاقطاعيين وكبار القواد العسكريين الاجانب . ويرجع ذلك الى كفاءة الحكومة الشرقية فى تنظيم الحكم الداخلى بصورة افضل بكثير من الوضع الذى كان يسود فى الشطر الغربى للامبراطورية . ففى الغرب كانت ادارة الهيئات ومناصب كبار الموظفين وقفا على دائرة ضيقة ومحدودة بين ذوى النفوذ ممن ينتمون الى الطبقة الأوليجارخية السيناتورية

---

(١) M. Waas, Germanen in roemischen Dienst (in 4 Jahr.) 2nd edition, Bonn. R. Habelt, 1971.

ايبوراكوم
دوقية
بريطانيا
لندينيوم
مقاطعة
ليون
أغسطا تريفيروم
بلاد الغال
قبائل ما وراء الرين والدانوب
كارنونتوم
فيرونا
دوقية
الليريا
جاليكيا
طاراكونسيس
لوسيتانيا
اقليم قرطاجنة
كوردوبا
باتيكا
قرطاجنة
جزر الباليار
كورسيكا
روما
سردينيا
صقلية
سيراكوزة
قيصرية
موريتانيا
طنجة
نوميديا
أفريقيا
زيوجيتانا
بيزاسيتا
قرطاجة
لبتس ماجنا
طرابلس
الامبراطورية الرومانية
(القسم الغربي)
دكتور سيد أحمد الناصري

القديمة ، وكان رجال هذه الطبقة يهتمون قبل أى شيء آخر بمصلحتهم الشخصية مثل استثمار أموالهم وتشجيع قيام الاقطاعيات بصورة اساءت الى اقتصاد البلاد . أما فى الشطر الشرقى فقد حدث عكس ذلك تماما فالوزراء وكبار هيئة الموظفين كانوا من اصول اجتماعية متواضعة كما كانوا مرتبطين بالجهاز البيروقراطى الذين أتى بهم الى الحكم وليس لاغراضهم الشخصية وان كان بعضهم مرتشين وفسدة .

كذلك نجحت الامبراطورية فى الشرق فى فرض الانضباط على الجيش بوضع القيادة العليا فى يد أكثر من قائد وعدم تركيزها فى يد شخص واحد كما نجحت الامبراطورية الشرقية فى تصفية الجيش من العناصر البربرية والحفاظ على نقائه بحركات الطرد والتطهير الدائمة ، ثم بالاهتمام بتجنيد ابناء المناطق المتحضرة مثل مناطق البلقان وآسيا الصغرى وارمينيا .

وكان من حصيلة هذا كله ان برزت الامبراطورية الرومانية فى الشرق قوية مدعمة ، واصبح اباطرة الغرب يتلهفون على رضاها وحمايتها؛ بل وصل الامر أن امبراطور الشرق أصبح هو الذى يعين امبراطور الغرب ولا يجوز لاى امبراطور فى الغرب ان يحكم بدون موافقة القسطنطينية .

آلاريك يحتل روما : ٤١٠ :

يقول جيبون أن حكم أركاديوس وهونوريوس أبناء ثيودوسيوس الحق أعظم الاذى بالامبراطورية لأنهما تركا الكنيسة للرهبان والدولة للأوليجارخيين والولايات للبرابرة الجرمان (١) .

وقد حاول ستيلكو جاهدا وقف زحف القوط بقيادة الاريك ونجح فى ذلك ، ولكن نجد الامبراطور هونوريوس يأمر فجأة بقتل ستليكو عام٤٠٨ مع الكثير من اعوانه وذلك بتحريض من الوزير أوليمبيوس الذى وشى به عند الامبراطور بأنه يتآمر على العرش وذلك بالتواطيء مع القوط الغربيين ؛ ولاذ بالفرار عدد من انصار ستيلكو ولجأوا الى زعيم القوط الغربية آلاريك Alaric ، وقد انتهز هذا الزعيم القوطى الفرصة فطالب هونوريوس بالاسراع فى دفع الاتاوات التى كانت تقدر بحوالى أربعة آلاف

---

(١) Gibbon (Abridgement of Low, Middlesex 1966), p. 40.

P. Rich, «Grandes invasions et empires», Larousse Paris, 1968 Universtairees de France, 4 ème edition 1968 ; P. Courcèelle : Histoire Litteaire des grandes invasions germanique, 3 ed. Paris, Etudes, Augustiniennes, 1964.

دينار ، كما طلب آلاريك ان يعين حاكما على ولايات الادرياتيك الشمالية ، ولما رفض هونوريوس طلبه زحف على روما وحاصرها حصارا شديدا حتى المجاعة ، ووصل الحال ان قتل الناس بعضهم البعض من اجل كسرة من الخبز (١) عندئذ قام سكان روما بالتفاوض مع آلاريك من أجل الصلح . واشترط آلاريك ان يسلموه كافة ثرواتهم المنقولة . ويروى أن الوفد المفوض تساءل ماذا يتبقى لنا ؟ فأجاب آلاريك « يتبقى لكم أرواحكم » . واخيرا تم الاتفاق على عقد هدنة مقابل حصول آلاريك على خمسة آلاف رطل من الذهب والف رطل من الفضة واربعة آلاف ثوب حريرى وثلاثة آلاف رطل من التوابل (٢) . غير أن الهدنة لم تستمر طويلا عندما قبل الرومان احد اعدائه الفارين واسمه ساروس Sarus وضموه الى صفوفهم املا فى ان يقودهم ضد جيش آلاريك . فاعتبر آلاريك ذلك التصرف خرقا لنصوص الاتفاقية فاقتحم روما عام ٤١٠ واباح أموال سكانها على مدى ثلاثة ايام فيما عدا حرية الكنائس ، والقى القبض على آلاف الاسرى ومن بينهم الأميرة جالا بلاكيديا (٣) Gala Placidia شقيقة الأمبراطور ثم غادر روما فى اليوم السادس متوجها الى جزيرة صقلية لفتحها وللعبور الى افريقيا ولكن منيته وافته هناك فدفن فى مكان يقال له كوزانزا وسط شعائر دينية تليق بمكانته بين القوط .

كان وقع سقوط روما عنيفا ومؤثرا على نفوس الرومان لأن هذه المدينة لم تسقط قط حتى عندما غزا هانيبال ايطاليا واعتبروها كارثة معنوية وعسكرية ودينية وفوق كل شيء سياسية اذ علت أصوات الاحتجاج من الوثنيين بأن اللوم يجب ان يوجه الى أولئك الاباطرة الذين ضحوا بالمعتقدات الرومانية والتراث الرومانى الذى صنع الامبراطورية فى سبيل ديانة غريبة وافدة من الشرق الاوسط وقالوا أين ذهب رب المسيحية ولماذا عجز عن حماية المدينة من البرابرة ؟ ومن ثم ظهرت موجة نقد شديدة ضد المسيحية واتهمت بانها السبب فى تثبيط روح الأمة وقتل الطموح السياسى والقومى فى نفوس الرومان وتحويلهم الى أناس سلبيين اذا صفعهم احد على خدهم الايمن أعطوه الايسر ومن ثم وجد انصار الوثنية فى المسيحية كبش الفداء واتهموا تعاليمها بانها سبب الكارثة، ولذا نجد القديس اغسطين ينبرى للدفاع ويرد على هذه الاتهامات ويفند

(١) A. Piaganoil, «Le sac de Rome (memorial des Siecles), Paris, Albin Michel, 1964, p. 398.

(٢) E. Gibbon, op. cit., p. 445.

(٣) S.I. Oost, «Galla Placidia Augusta. A Bibliographical essay, Chicago University Press, 1968.

مزاعمه فى كتابه الخالد مدينة الله Civitas Dei .

القوط يحتلون بلاد الغال واسبانيا :

خلف آلاريك شقيق زوجته اتولف Ataulf كأمير على اتحاد أمارات القوط الغربية ، وقاد اتولف قوات القوط صوب بلاد الغال عام ٤١٢ ، ويبدو انه لم يكن فى نية القوط الغربية اسقاط الامبراطورية ولكن وراثتها

واقتطاع اجزاء من أراضيها وامتصاص خيراتها ، وقد تمكن اتولف أن يحقق ما يريد ، وعندما حاول التفاهم مع الرومان رفض قسطنطينوس قائد الفرسان والذى راح يقاوم القوط ، واخيرا وافق اتولف على الانسحاب من ايطاليا مقابل ان يتزوج بلاكيديا Placidia شقيقة الامبراطور هونوريوس وان يحتل مناطق الغال الجنوبية بشرط ان يصبح تابعا للامبراطورية ووافق هونوريوس على زواج جاللا بلاكيديا لأنها كانت فى يد القوط منذ ان دخلوا روما ، ولأن الأميرة نفسها وافقت على الزواج من اتولف كما وافق هونوريوس على اقتطاع الاجزاء الجنوبية من بلاد الغال لحكم اتولف وبالفعل اقام هذا الاخير عاصمته فى تولوز عام ٤١٤ .

ثم انسحب اتولف وقواته من بلاد الغال عبر البرانس الى اسبانيا وهناك وافته منيته عام ٤١٥ وخلفه والليا Vallia الذى فشل فى غزو ايطاليا بسبب المجاعة التى تعرضت لها قواته فقبل الصلح مع الرومان وبمقتضى هذا الصلح اعاد جاللا بلاكيديا الى اخيها الامبراطور هونوريوس حيث تزوجت من قسطنطينوس قائد الفرسان وانجبت منه طفلا هو ڤالينتيانوس الثالث والذى اصبح امبراطورا فيما بعد . وكان من شرط الصلح ايضا ان يعمل والليا لصالح الرومان ، ويطارد قبائل الوندال التى كانت قد اقتطعت لنفسها بعض اجزاء اسبانيا ، ونجح والليا فى ذلك مما اثار عليه حقد قسطنطينوس قائد الفرسان فاستدعاه الى بلاد الغال حيث وافق على توطينهم فى منطقة اكويتانيا وهى المنطقة الواقعة جنوب غرب بلاد الغال .

قيام مملكة القوط فى بلاد الغال :

حكم القوط بلاد الغال على النسق الخاص بهم ، وهو اقامة ممالك صغيرة ولكن متحدة فيدراليا Foederati فيما بينها ومرتبطة مع روما بمعاهدات وبشرط الا يكون لملوك القوط اى سلطة على المواطنين الرومان المقيمين داخل المناطق التى احتلها القوط من بلاد الغال . ولم يعجب هذا الشرط القوط وطالبوا بأن يكون لهم مملكة مستقلة ذات سيادة .

ولما جاء ثيودوريك الاول Theodiric اجبر الرومان على الاعتراف الفعلى بمملكة القوط فى اكويتانيا . وحاول احتلال بلاد الغال النربونية ولكنه فشل ، ولما وجد روما تستعد لمواجهة اتيلا Attila ملك قبائل الهون السيبيرية انضم الى روما وكان من نتيجته ذلك ان وقف ضد اتيلا وصده فى معركة سهل موريالث عام ٤٥١ . وفيها سقط ثيودوريك صريعا . وقد احس الرومان باخلاص ثيودوريك ولهذا سادت علاقة من الوئام بينهم وبين القوط لفترة وجيزة .

ولما تولى يوريك Euric الملك عام ٤٦٦ عاد العداء القديم ضد الرومان وبدا القوط يتوسعون وتمكن يوريك عام ٤٧٥ من احتلال المنطقة الواقعة من المحيط الاطلنطى غربا الى سهل الرون واللوار والبرانس شرقا فضلا عن بعض مناطق اسبانيا لشمالية واعترف الامبراطور الرومانى بهذا الحق . وبعد مرور عامين من هذا الاحتلال توسع القوط الغربيون Visgothic فاضافوا اليهم المنطقة الواقعة بين وادى الرون والالب .

قبائل الوندال تهاجم ايطاليا وتحتل اسبانيا :

كانت حكومة الامبراطورية قد سحبت حاميتها من مناطق الحدود النائية لتقليص حدود دفاعاتها والتركيز على حماية روما وذلك اثناء تهديد القوط لها . وقد انتهزت بعض القبائل الجرمانية هذه الفرصة واندفعت الى داخل حدود الامبراطورية . ومما ساعدهم أن بعض المتنافسين على السلطة من الرومان استعانوا فى بعض الأحيان بهذه القبائل من أجل الوصول الى (١) أطماعهم السياسية .

وكان الوانداليون من أوائل تلك القبائل التى نفذت الى بلاد الغال ثم اسبانيا ومنها الى افريقيا .

كان أول هجوم شنه الوانداليون على ايطاليا عام ٤٠٥ ولكن ستيلكو صدهم ، وفى العام التالى هاجمت موجة اخرى من الوانداليين بالتعاون مع قبائل السويفى Suevi منطقة الراين وعبرت النهر بالقرب من ماينز Mainz وتوغلت فى بلاد الغال حتى البرانس ، وفى عام ٤٠٩ تسللوا من بلاد الغال الى اسبانيا التى سرعان ما سيطروا على شبه جزيرة ايبريا كلها . وتحت وطأة نقص العتاد والمؤن اضطروا الى التصالح مع الامبراطورية الرومانية فى الغرب الاوروبى واصبحوا حلفاء تعاهديين Foederati معها

---

(1) Procopius, History of the Wars, III, (Loeb Classical library, London

عام ٤١١ ، ومنحوا حق الاستيطان ، وبناء على هذا التصالح احتل الوانداليون وقبائل السويفي المنطقة الشمالية الغربية من شبه جزيرة ايبريا بينما استوطنت قبائل السلنجيان Silingian منطقة الوسط . ولكن الحكومة الرومانية اعتبرت الوانداليين ضيوفا غير مرغوب فيهم وراحت تتحين الفرصة لطردهم . ففي عام ٤١٦ كلف الامبراطور قسطنطينوس الزعيم القوطي واليا Wallia بمهاجمة الوانداليين وكاد واليا أن يقض على الواندال لولا استدعاء قسطنطينوس لهذا الزعيم قبل أن يتم مهمته . ولم يمض وقت طويل حتى استرد الوانداليون قوتهم وهاجموا قبائل السويفي التى كانت تتعاون مع الرومان واحتلوا أسبانيا كلها .

مملكة الوانداليين فى افريقيا :

وفى عام٤٢٩ غادر الوانداليون اسبانياتحت قيادة جايسيرك Gaisarie وعبروا مضيق جبل طارق الى افريقيا التى كانت احدى المصادر الحيوية للقمح الذى تعيش عليه الامبراطورية الرومانية ، ومن الواضح أن غنى هذه المنطقة بالقمح والكروم وزيت الزيتون هو الذى اغرى الوانداليين لغزوها . ولم يجد هؤلاء الغزاة مقاومة تذكر بسبب تدخلهم فى الصراع الذى كان قائما بين الكونت بونيفاكيوس Bonifacius الحاكم العسكرى لولاية افريقيا والامبراطور ڤالنتيانوس الثالث . ويقدر عدد القوات الوندالية التى غزت افريقيا بثمانين الفا ولا يقل عدد المقاتلين منهم عن مائة وخمسين الفا . وبالرغم من تصالح الكونت بونيفاكيوس مع الامبراطور ڤالنتيانوس الا أن الوانداليين رفضوا الانسحاب بل على العكس قادهم جايسيرك محاولا احتلال المدن الحيوية فى شمال افريقيا ولكنه فشل واخيرا عقد الصلح بين الامبراطورية والوانداليين عام ٤٣٥ وسمحت الامبراطورية للوانداليين بأحتلال نوميديا بشرط أن يصبحوا حلفاء تعاهديين Foederati للامبراطورية . ولكن جايسيرك نقض الاتفاق واحتل قرطاجة عام ٤٣٩ ، بل انه كون قوة بحرية وراح يهاجم شواطىء صقلية . ومرة اخرى اذعن الامبراطور ڤالنتيانوس الثالث واعترف بمملكة الوانداليين فى شمال أفريقيا . وساد السلام مؤقتا حتى عام ٤٥٥ .

ولما اغتيل الامبراطور ڤالنتيانوس الثالث عام ٤٥٥ واستنجدت ارملة الامبراطور بالوانداليين ضد خصومها ، انتهز جايسيرك القائد الواندالى الفرصة وهاجم ايطاليا واحتل روما ومكث فيها احد عشر يوما ونهب معابدها وكنوزها ودمر شطرا كبيرا من مبانيها ومرافقها وأسر عددا من وجهائها من بينهم يودوكسيا Eudoxia ارملة ڤالنتيانوس الثالث وبناته

واخذهم معه كرهائن يملى بهن شروطه : ولولا جهود البابا ليو الاول لتضاعفت أعمال جايسيرك الاجرامية (١) .

لقد ساعد التباعد وعدم التعاون بين الامبراطورية الشرقية والغربية الوانداليين على التوسع . واصبح اسطولهم يسيطر على البحر المتوسط ويهاجم وينهب موانيه الشرقية والغربية . ولما حاول الامبراطور الشرقى ليو الاول Leo, استعادة افريقيا لاقى هزيمة بشعة واجبر خليفته زينون Zeno على الاعتراف بحق الواندالين فى احتلال المناطق الواقعة تحت سيطرتهم . وعندما مات جايسيرك عام ٤٧٧ ترك مملكة شاسعة للوندالين تشمل كل ولاية افريقيا الرومانية وجزر الباليار Baleares الواقعة فى البحر المتوسط بين موريتانيا واسبانيا وكذلك جزر كورسيكا وسردينيا الواقعة الى الشرق من جزر الباليار وكذلك قلعة ليليبايوم Lilybaeum الواقعة فى الركن الشمالى من جزيرة صقلية .

ولكن بعد موت جايسيريك تفرقت الوحدة الوندالية وقامت الفتن بين ورثته مما أضعف الدولة الوندالية فى شمال افريقيا . كما أن سياسة الاضطهاد الدينى التى اتبعوها ضد اتباع كنيسة روما وتعسفهم فى جباية الضرائب زادت السخط عليهم حتى تمكن الامبراطور جستنيانوس بمساعدة قائده بليساريوس من تقويض حكم الوندال وذلك عام ٥٤٣ (٢) .

ممالك البورجونديين والفرنجة والسكسون :

تلى هجمة الوندال على بلاد الغال عام ٤٠٦ هجمات برية أخرى قادها قبائل البرورجونديين Burgundians والفرنجة الساحليين والالمان Alamanni وسيطر الالمان والفرنجة على الجانب الغربى لنهر الراين بينما توغل البورجونديون جنوبا ولكنهم هزموا على يد ايتيوس Aetius القائد الرومانى على بلاد الغال وارغموا على الدخول فى تحالف تعاهدى مع الامبراطورية وذلك فى عام ٤٣٣ وسمح لهم باستيطان منطقة سافوى Savoy وحول بحيرة جنيف . ولكنهم راحوا يتوسعون منذ عام ٤٥٧ حتى احتلوا وادى الرون كله حيث شكلوا مملكة عرفت باسمهم .

ولكن على العموم بقى البورجونديون حلفاء مخلصين للرومان . ففى

---

(١) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe, 476-911, A.D. (London 1960), p. 28.

(٢) انظر دكتور عبد القادر احمد اليوسف ـ العصور الوسطى الأوروبية ـ سلسلة دراسات تاريخية ٢ ـ المكتبة العصرية صيدا بيروت ١٩٦٨ ص ٤٦ ـ ٤٧ .

عام ٤٥١ انضموا للحرب ضد اتيلا Attila تحت قيادة ايتيوس وابلوا بلاء حسنا . وكان ملوك البورجونديين يحملون لقب سيد الجند magister militium حتى عهد جندوباد Gundobad (٤٧٣ — ٥١٦) الذى منحه الامبراطور اولبيريوس Olybrius لقبا نبيلا .

أما قبائل الفرنجة الساليانية (الذين كانوا يسكنون الاراضى الواطئة حول نهر سالا) فقد عبروا الراين قبل عام ٣٥٠ ، واحتلوا منطقة توكساندريا Toxandria ، وبقوا فيها كحلفاء تعاهديين مع الرومان وكانوا مخلصين لهم لانهم حاربوا معهم ضد الهون عام ٤٥١ . وظل ملكهم تشنلدريك وفيا لروما حتى موته عام ٤٨١ . ولكن خليفته كلوفيس Clovis توسع فى وادى اللوار وبذلك اصبحت بلاد الغال كلها تحت سيطرة قبائل الفرنجة الجرمانية .

أما بريطانيا فقد تركها الرومان عندما انسحبوا منها فى نهاية القرن الرابع ذلك عندما اضطر ستيلكو الى استدعاء القوات من بريطانيا لحماية ايطاليا وذلك فى عام ٤٠٢ ، ولما اعلن قسطنطينوس نفسه امبراطورا اصطحب معه البقية الباقية من القوات الى بلاد الغال ليفرض نفسه ويحصل على اعتراف رسمى بمركزه . ولما انشغلت روما بالصراع مع القبائل المهاجمة لبلاد الغال أهملت بريطانيا ، ومن ثم كان على سكانها ان يعتمدوا على أنفسهم فى حماية أنفسهم . واخيرا تنبهت الامبراطورية الى هذا الخطر فأعادوا الحامية الرومانية فى بريطانيا تحت قيادة ضابط كبير Comes Britanniarum ولكنها لم تصمد فى مواجهة القبائل الانجليزية والسكسونية وقبائل الجوت Jutes الذين بدأوا يستوطنون الجزيرة منذ عام ٤٢٨ واضطرت الحامية الرومانية الى التقهقر والانسحاب من الجزيرة حوالى عام ٤٤٢ ، ولم تعد اليها روما ابدا منذ ذلك التاريخ . حتى عندما استنجد السكان بالامبراطورية ، من زحف القبائل عليهم . واستمرت عمليات تدفق القبائل الانجليزية والسكسونية والجوتية على الجزيرة خلال قرن ونصف قرن ، وادى القتال خلالها الى اختفاء ملامح الحضارة الرومانية فيها واختفت اللغة اللاتينية تدريجيا منها ومعها كل التراث الذى حاول الرومان تنميته عبر أربعة قرون من الاحتلال .

آخر الاباطرة الذين حكموا روما فى الغرب :

١ — الامبراطور هونوريوس : ٣٩٥ — ٤٢٣

كما سبق ان ذكرنا خلف ثيودوسيوس ابنه الامبراطور هونوريوس

منفصلة الى أن اتحدت فيما بينهم عام ٤٤٤ تحت قيادة ملك قوي اسمه آتيلا . وبزعامة هذا الملك القوى دفع الهون القبائل الجرمانية الى الوراء عبر الدانوب واحتل اراضيهم كما فرض سيطرته على أهل سكيثيا . ويعتبر آتيلا من اقوى الحكام فى أوربا آنذاك ، فكانت تدفع له الاتاوات من شطرى الامبراطورية الشرقى والغربي وقدر جيشه بنصف مليون مقاتل وعاث خرابا فى منطقة البلقان (١) .

لم تستمر الصداقة بين آتيلا واتيوس طويلا لأن ملك الهون كان ذا طموح لا يحده حدود ، ويتطلع لاحتلال بلاد الغال كلها . ويروى عن السبب المباشر لتحركه نحو الغرب ان هونوريا Honoria شقيقةالامبراطور فالنتنيانوس الثالث كانت قد نفيت من روما الى القسطنطينية بسبب فضيحة اخلاقية ، ومن القسطنطينية ارسلت هونوريا « خاتمها » الى آتيلا طالبة منه التدخل لانقاذها . فظن الملك البربرى ان ذلك يعنى انها تقترح أن يتزوجها لذا طالب اخاها أن يوافق على زواجه منها وأن يدفع له دوطة قدرها نصف الامبراطورية الغربي ولما رفض الامبراطور هذا الطلب قاد آتيلا قواته وعبر الراين مندفعا الى بلاد الغال التى توغل فيها عام ٤٥١ . عندئذ شعرت القبائل الجرمانية أن مصيرها هو مصير الرومان ولذا تكونت جبهة من الرومان والفرنجة والقوط الغربيين بقيادة آتيوس وتمكنت من هزيمة اتيلا فى موقعة شالون Chalon عام ٤٥٢ ، غير أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية بالنسبة للهون ، اذ انه اجتاح ايطاليا مدمرا العديد من مدنها الشمالية ثم زحف على روما عام ٤٥٢ . وتتحدث المصادر الكنسية عن المعجزة السماوية التى حققها البابا ليو الثالث عندما أنزل الرهبة بصليبة وردائه الأبيض فى قلب اتيلا فقبل الانسحاب . ولكن الحقيقة هى أن آتيلا انسحب تحت وطأة المجاعة والطاعون ، وتحت ضغط قوات آتيوس وخوفا من وصول امدادات من القسطنطينية للرومان . ولهذا استمع الى الوفد الرومانى بقيادة البابا ليو الثالث وانسحب دون أن يحتل روما .

ومات آتيلا عام ٤٥٣ وسرعان ما دب الخلاف بين أولاده ادى الى حروب اهلية بين قبائل الهون ، كما ثارت عليهم القبائل الجرمانية التى كانوا قد اخضعوها خاصة قبائل القوط الشرقية والتى استعادت قوتها عام ٤٥٤ ومن ثم انهارت امبراطورية آتيلا من بعده وذبلت قوة الهون .

---

(١) W. Durant, The Age of Faith, 325-1800, A.D. (New York, 1950), p. 33 f.

لكنه قبل اخيرا تسريح هذه القوات مقابل أن يمنح لقب كونت علاى بلاد الغال . وحصلت بلاكيديا لاول مرة على لقب امبراطورة Augusta وظلت تحكم حتى موتها .

٣ - ايتيوس :

يلعب أيتيوس الدور الاساسى ابان حكم ڤالنتيانوس الثالث ويعرف ايتيوس بأنه آخر الشخصيات الرومانية اللامعة . وقد أصبح ايتيوس نجما على مسرح الاحداث بعد عام ٤١٩ عندما تخلص من منافسه فيلكس Felix الذى حاول أن يرث مكانه كاستينوس قائد الجيش ، وسرعان ما تولى ايتيوس هذا المنصب واصبح الامبراطور الفعلى على ولايات الغرب . ولما خشيت بلاكيديا اغسطا من نفوذه دبرت مؤامرة للقضاء عليه فاستدعت الكونت بونيفاكيوس حاكم افريقيا العسكرى الى روما وعينته قائدا للجيش بعد عزل ايتيوس . واضطر الاخير لرفع السلاح فى وجه الامبراطورة وقائدها الجديد ولكنه هزم قرب اريمينيوم وفر للاحتماء بأصدقائه الهون . ولكن بونيفاكيوس لم يعش طويلا بعد ذلك الانتصار ؛ ومن ثم راح ايتيوس يضغط على الامبراطورة بمساعدة الهون حتى قبلت تعيينه فى منصبه القديم عام ٤٣٣ ، وراح يصرف شئون الامبراطورية الخارجية فى الغرب حتى موته عام ٤٥٤ .

اتيلا يغزو بلاد الغال : ٤٥١

اكانت سياسة ايتيوس تتركز فى احتفاظ الامبراطورية بوسط بلاد الغال وجنوبها الشرقى بأى ثمن وقد نجح فى ذلك بعد أن أوقف تقدم الفرنجة فى الشمال والبورجونديين فى الشرق والقوط فى الجنوب الغربى وبذلك انقذ بلاد الغال للامبراطورية ، ولكن افريقيا ذهبت الى الونداليين ، كما ذهبت بريطانيا لقبائل الساكسون ، واستولت قبائل السويڤى على معظم أجزاء أسبانيا . ويعزى نجاح ايتيوس فى بلاد الغال الى اعتماده على قبائل الهون السيبيرية مستخدما صداقته بقوادهم الذين كان يعرفهم منذ أن كان أسيرا عندهم .

وفى ذلك الوقت كانت قبائل الهون الشرسة والتى ظلت لقرون طويلة تلقى الرعب فى قلوب الصينيين بدأت تتحرك غربا بعد أن عبرت نهر الڤولجا واجتاحت المناطق الشمالية من البحر الأسود (محتلة فيما يعرف الآن برومانيا والمجر وجنوب روسيا) . واقامت القبائل الهونية فى تجمعات

منفصلة الى ان اتحدت فيما بينهم عام ٤٤٤ تحت قيادة ملك قوي ا سمه آتيلا . وبزعامة هذا الملك القوى دفع الهون القبائل الجرمانية الى الوراء عبر الدانوب واحتل أراضيهم كما فرض سيطرته على اهل سكيثيا . ويعتبر آتيلا من أقوى الحكام فى أوربا آنذاك ، فكانت تدفع له الاتاوات من شطرى الامبراطورية الشرقى والغربى وقدر جيشه بنصف مليون مقاتل وعاث خرابا فى منطقة البلقان (١) .

لم تستمر الصداقة بين آتيلا واتيوس طويلا لأن ملك الهون كان ذا طموح لا يحده حدود ، ويتطلع لاحتلال بلاد الغال كلها ، ويروى عن السبب المباشر لتحركه نحو الغرب أن هونوريا Honoria شقيقةالامبراطور ڤالنتنيانوس الثالث كانت قد نفيت من روما الى القسطنطينية بسبب فضيحة اخلاقية ، ومن القسطنطينية ارسلت هونوريا « خاتمها » الى آتيلا طالبة منه التدخل لانقاذها ، فظن الملك البربرى ان ذلك يعنى انها تقترح ان يتزوجها لذا طالب اخاها أن يوافق على زواجه منها وان يدفع له دوطة قدرها نصف الامبراطورية الغربى ولما رفض الامبراطور هذا الطلب قاد آتيلا قواته وعبر الراين مندفعا الى بلاد الغال التى توغل فيها عام ٤٥١ . عندئذ شعرت القبائل الجرمانية أن مصيرها هو مصير الرومان ولذا تكونت جبهة من الرومان والفرنجة والقوط الغربيين بقيادة اتيوس وتمكنت من هزيمة اتيلا فى موقعة شالون Chalon عام ٤٥٢ ، غير ان هذه الهزيمة لم تكن قاضية بالنسبة للهون ، اذ انه اجتاح ايطاليا مدمرا العديد من مدنها الشمالية ثم زحف على روما عام ٤٥٢ . وتتحدث المصادر الكنسية عن المعجزة السماوية التى حققها البابا ليو الثالث عندما انزل الرهبة بصليبية وردائه الأبيض فى قلب اتيلا فقبل الانسحاب ، ولكن الحقيقة هي ان آتيلا انسحب تحت وطأة المجاعة والطاعون ، وتحت ضغط قوات اتيوس وخوفا من وصول امدادات من القسطنطينية للرومان . ولهذا استمع الى الوفد الرومانى بقيادة البابا ليو الثالث وانسحب دون أن يحتل روما .

ومات آتيلا عام ٤٥٣ وسرعان ما دب الخلاف بين أولاده ادى الى حروب اهلية بين قبائل الهون ، كما ثارت عليهم القبائل الجرمانية التى كانوا قد اخضعوها خاصة قبائل القوط الشرقية والتى استعادت قوتها عام ٤٥٤ ومن ثم انهارت امبراطورية آتيلا من بعده وذبلت قوة الهون .

W. Durant, The Age of Faith, 325-1800, A.D. (New York, 1950), p. 33 f. (1)

زوال الامبراطورية فى الغرب :

دفع الحقد ووشاية هيراكليوس وزير الامبراطور ڤالنتنياتوس الثالث ان قتل هذا الأخير الجنرال آتيوس ، ويقال أن السبب الحقيقى هو ان آتيوس Aeteus طلب الزواج من يودوكيا Eudocia ابنة ڤالنتنيانوس الثالث ، وذعر الحاضرون لهذه الجريمة لدرجة أن احد الحاشية الذين شاهدوا الجريمة خاطب الامبراطور متحسرا وهو يقول « سيدى » لقد قطعت يمناك بيسراك ! (١) .

وبعد اشهر قليلة اغتال اتباع آتيوس الامبراطور ڤالنتينياس الثالث وبذلك اسدل الستار عن أسرة ثيودوسيوس الكبير فى الغرب .

كان الامبراطور الجديد هو بترونيوس ماكسيموس عضو مجلس السناتو وصديق هيراكليوس مدير المؤامرات . واول ما فعله بترونيوس هو انه اجبر ارملة الامبراطور يودوكسيا Eudoxia على الزواج منه وزوج ابنتها يودوكيا من ابنه بالاديوس ، ويروى بريكوبيوس أن يودوكسيا استغاثت بجايسيريك ملك الواندال وسرعان ما عبر هذا الأخير البحر الأبيض وليظهر على ابواب روما عام ٤٥٥ واستسلم ماكسيموس بترونيوس وسلم الاميرتين فاصطحبهما جايسيريك عائدا الى قرطاجة حيث زوج الابنة الى ابنه وارسل الأم الى القسطنطينية بناء على طلب الامبراطور ليو الأول (٢) .

وبعد سقوط بترونيوس ماكسيموس تولى اڤيتوس Avitus احد انصار آيتيوس ولكنه لم يمكث فى الحكم سوى بضعة اشهر لأن قائد قواته البربرى ريكيمر الذى ينحدر من سلالة جرمانية قوطية . تمكن من احتلال منصب قائد القوات وبذلك اصبح صانع الاباطرة والمحرك الفعلى للامبراطور من الفترة ٤٥٦ وحتى وفاته عام ٤٧٢ . لم يكن ريكيمر يسمح لمن يعينهم اباطرة أن يبقوا اكثر من بضعة سنوات على الأكثر ، فمثلا عين مايوريانوس Maiorianus امبراطورا عام ٤٥٧ ولكن ريكيمر اضطره الى التنازل عام ٤٦١ ليعين مكانه أحد عملائه وهو سيڤيروس Severus الذى اتهم بالوثنية . وبعد موت سيڤيروس عام ٤٦٥ بقى منصب الامبراطور شاغرا لمدة عامين ، كان الامبراطور الشرقى ليو خلالها يشرف صوريا على الشطر الغربى بينما كان المتصرف الفعلى هو ريكيمر . ولما

---

(١) cf. E. Gibbon, op. cit., p. 495.

(٢) Precopius, op. cit., A, 4.

حاول ليو تعيين احد اعيان بلاطه واسمه انثيميوس Anthemius بعد أن زوجة ابنة ريكيمر ليضمن بقاءه لكنه فشل لان ريكيمر اكتشف ان انثيميوس يحاول الاتصال من وراء ظهره بمجلس السناتو الرومانى وحاصر ريكيمر مدينة روما وشنق انثيموس علنا ، ثم عين مكانه أو ليبريوس Olybrius زوج ابنه ڤالنتنيانوس الثالث ولكنه لم يبق فى الحكم سوى شهران فقط لأنه مات عام ٤٧٢ . وفى نفس السنة مات ريكيمر الرجل القوى .

وفى عام ٤٧٣ عين جندوباد Gundobad (ابن شقيق ريكيمر) جليكريوس Clycerius لكنه خلع فى نفس العام نظرا لمعارضة ليو امبراطور القسطنطينية الذى عين نبوس Nepos وبقى نبوس على العرش عامين فقط ، اذ تمكن الجنرال اوريستيس Orestes من خلعه وتعيين ولده رومونوس Romulus مكانه وذلك فى عام ٤٧٥ .

هكذا اصبح الجنرالات الجرمان هم المتحكمون الفعليون فى العرش الامبراطورى فى الغرب ولم يعد الأباطرة سوى اشباحا هزيلة لا تملك من الحكم غير الاسم . وسرعان ما تسقط دون أسف عليها (١) . ثم انهالت على الامبراطورية غزوات القبائل البربرية محدثة الفوضى ومطالبة الامبراطور الهزيل اورستيس ان يمنحها ثلث الأراضى الايطالية . مثلهم فى ذلك مثل ابناء عمومتهم الفرنجة . ولما رفض اورستيس قتله زعيمهم اودوڤاكار Odovacar عام ٤٧٦ وكان اودوڤاكار ابن احد وزراء آتيلا ويدعى اديكون وعين نفسه امبراطورا عام ٤٧٦ ثم وطن قواته فى ايطاليا وبذلك سقطت الامبراطورية الغربية رسميا وفعليا فى يد القبائل الجرمانية .

وهكذا اصبح أودوڤاكار ملكا وحصل على الاعتراف الرسمى من الامبراطور زينون فى القسطنطينية ومن خلال بقايا مجلس الشيوخ فى روما (٢) تحت حجة حكم الامبراطورية الغربية نيابة عن امبراطور الشرق وبذلك انتهى حكم الاباطرة فى الغرب نهائيا (٣) وازدهرت الممالك الجرمانية والفرنجية والسكسونية والقوطية على اشلائها واختفت ايطاليا الرومانية من على مسرح الاحداث بعد أن تشربت بالعنصر والفكر والثقافة الجرمانية .

هكذا سقطت الامبراطورية الرومانية فى الغرب بينما استمرت بيزنطة تمثلها فى الشرق .

---

(١) S. Katz, The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (Conell University, 1963), p. 87.

(٢) A. Chastagnol, Le Sénat romain sous le règne d'Odoacre, Recherches sur l'epigraphie du colisee au cinquieme siecle (Antiquitas, Reihe 3, Band 3,), Bonn. R. Habelt, 1966.

(٣) M.A. Wes : Das Ende desKaisertums in Westen des roemischen Reiches, La Haye, Staatsdruckerei, 1967, p. 216 f.

الفصل الثالث عشر

تحليل للمجتمع الرومانى أبان القرنين الرابع والخامس ولاسباب سقوط الامبراطورية

كان المجتمع الرومانى أبان القرنين الرابع والخامس صورة معبرة للتحلل والانهيار ، مجتمع الفوضى الفكرية ، واليأس السياسى ، والفقر الاقتصادى ، والظلم الاجتماعى ، والتسلط البيروقراطى ، النظم المتحجرة التى لم تتطور ، لقد اختفت فى هذا المجتمع الطبقة الوسطى وهى ى اى مجتمع او فى اى حضارة القوة الديناميكية الحقيقية وأسفر الموقف عن طبقتين هما : البروليتاريا الجائعة اليائسة التى باتت تبحث عن الخلاص أو الهروب من مشاكل العالم المادية الى التخدير الغيبى والى السحر والخزعبلات . مما ادى الى انحطاط الفكر الثقافى وتفشى البربرية حتى فى التعبير الفنى والجمالى ،اما الطبقة الثانية فهى الطبقة الارستقراطية الحاكمة والمتحكمة عن طريق السيطرة على الأجهزة البيروقراطية وعن طريق اقتناء الاقطاعيات الشاسعة بمن عليها من فلاحين وعبيد .

ثم دخلت المسيحية وتلهفها الفقراء الكادحون فى الريف أو بروليتاريا المدن بحثا عن الخلاص ، بينما تمسكت الارستقراطية بالتراث الوثنى الذى راحت تطوره بالافكار التى تجمع بين الفلسفة والدين ، تجمع بين الرواقية والفيثاغورثية والافلاطونية الجديدة من اجل منافسة المسيحية التى اعتبروها حركة هدامة وخطرا على التراث القومى العريق ، ومن ثم هم الذين أوعزوا الى الأباطرة بحركات التصفية والاستئصال بصورة بشعة تختلف عن حركات القمع البسيطة والمحدودة التى حدثت أيام نيرون بعد حريق روما الكبير عام ٦٤ وفى عهد دوميتيانوس عام ٩٦ وفى عهد تراجانوس وماركوس أوريليوس ، وذلك لأن الارستقراطية الوثنية كانت تقاتل دفاعا عن وجودها ومكاسبها ضد الفقراء ابناء الله اى ان الأمر تحول من صراع بين الوثنية والمسيحية الى صراع اجتماعى وطبقى . وتعرض المسيحيون لأقسى انواع الاضطهاد ولكن الكنيسة قاومت ببطولة منقطعة النظير حتى استسلم الاباطرة بمهادنتها اولا ثم تزعم قيادتها ثانيا وذلك على يد قسطنطينوس الأكبر .

وما ان كسبت الكنيسة وانتصرت حتى نبت أن الخطر كان يوجد بين عناصرها وما أن زال الخطر حتى بدأ التفسخ والصراع العقائدى الذى هو نتيجة لتناقضات اجتماعية واقليمية وفكرية وعنصرية بين مسيحى العالم وفشلت فكرة الكنيسة المسكونية الواحدة .

لكن هذه الفترة تمثل مرحلة اكتمال قانون الايمان المسيحى ووضع القواعد واللوائح العملية مثل تحديد يوم الأحد كيوم الرب ، وتحديد عيد ميلاد المسيح (Natalis Domini) وهو السابع من يناير فى الشرق والخامس والعشرين من شهر ديسمبر (١) فى الغرب وتحديد عيد القيامة .. الخ . وقبل هذا وذلك ظهر فى مصر أولا نظام للرهبنة على يد القديس انطونيوس المولود فى بلدة كومى بمصر الوسطى حيث لجأ عام ٣١١ الى الصحراء الشرقية فى وادى عرابة قرب البحر الأحمر وتبعه مريدوه للتأمل وتطهير الروح ، ثم تلى ذلك امونيوس الذى أوجد أول الاديرة فى صحراء وادى النطرون ومعه مريدوه يسكنون الكهوف أو يقيمون فى الخلوات الضيقة (cells) يتعبدون ويتنسكون ويقرأون الأنجيل يعيشون على الكفاف . وفى القرن الرابع أيضا انشأ القديس باخوم Pachomius عام ٣٢٠ ديره فى صحراء الأقصر الشرقية ، ويتميز القديس باخوم عن غيره بأنه أول من وضع اللوائح والنظم التى سارت عليها الاديرة فى باقى انحاء العالم المسيحى واكمل ذلك شنوت الاتريبى عندما وضع نظاما جديدا للرهبنة فى ديرة الذى اقامه قرب نهاية القرن الرابع فى صحراء الاقصر (٢) . كما يرجع الى هذه الفترة أيضا بناء الكنائس الخالدة التى لاتزال قطعا من آيات الفن بروحه الجديدة .

ولنعالج الآن بشىء من التفصيل اهم الملامح التى شكلت المجتمع الرومانى أبان القرنين الرابع والخامس .

أولا — الصراع الطبقى أو الصراع الاجتماعى :

يتمثل هذا الصراع فى اختفاء الطبقة الوسطى وتحول المجتمع الى طبقتين متناقضتين بينهما هوة سحيقة ، وهما الطبقة الارستقراطية والنبيلة والطبقة الكادحة المستغلة بأبشع درجات الاستغلال . وكان أفراد الطبقة الأولى يكونون الأعيان الذين كثيرا ما نسبوا انفسهم الى

---

(١) يعتقد بعض المتخصصين فى الدراسات المصرية القديمة أن اختيار يوم ٢٥ ديسمبر كتاريخ للاحتفال بعيد ميلاد السيد المسيح هو استمرار للعيد المصرى القديم يوم ميلاد رع حيث أن هذا اليوم كان نهاية السنة المصرية القديمة أنظر :

Jaroslav Cerny, Ancient Egyptian Religion, 1952, pp. 148-149.

(٢) cf. Vogt, oj. cit., p. 124-125.

الطبقة السيناتورية ورغم تدهور السناتو الا انه بقى اسما ولقبا طبقيا يحمله الاستقراطيون والاقطاعيون والنبلاء واصحاب السلطة البيروقراطية ؛ بل انهم حرصوا على حمل هذا اللقب ولو بشرائه بالثمن لما كان يعطيه لحامله من نفوذ وامتيازات مثل الاعفاء من دفع الضرائب واداء الخدمات الالزامية والخدمات فى الجيش بل انه كان يعطيهم وحدهم احقية تولى المناصب العليا .

كان معظم رجال الطبقة السناتورية اقطاعيين وذلك لأن السياسة الامبراطورية فى القرنين الثالث والرابع وضعت قانونا غريبا يحرم على النبلاء العمل فى التجارة والصناعة وقصر هذه المهن على الحرفيين وصغار التجار ولأن التجارة والصناعة لعبتا دورا هزيلا فى اقتصاد الامبراطورية لانها كانت تختص بالكماليات التى لا يطلبها سوى قلة من القادرين (١) ؛ ومن ثم لم يكن امام النبلاء سوى استثمار اموالهم فى شراء الأراضى الزراعية وكونوا اقطاعيات شاسعة (Latifundia) يتوسطها بيت الاقطاعى الحصين (Villa) وقد عرفت الفيللا كوحدة سكانية واجتماعية وانتاجية بل وادارية مستقلة يتحكم فيها صاحبها بكل ما فيها من اجراء زراعيين (Coloni) وعبيد (Servi) وارباب حرف . وهو صاحب الأمر والنهى فيما يملك من الأرض ومن يعيشون عليها ويتوارث ابناؤهم من بعدهم هذا الالتزام .

كان الرقيق هم ادنى الطبقات الاجتماعية فى مجتمع الفيللا . وكانت كلمة الرقيق Servi تشمل الخدم سواء فى قصر الاقطاعى أو فى أرض الاقطاعية التى كانوا يزرعها لصاحبها وقد تحسن وضع الرقيق فى القرن الثالث وما تلاه نظرا لنضوب المصادر التى كان الرومان يأتون منها بالرقيق وبذلك اضطر اسيادهم الى المحافظة عليهم ، كما سنت الحكومة عدة قوانين لتحسين وضعهم كطاقة استراتيجية هامة فاختفت المعاملة غير الانسانية التى كنا نسمع عنها ايام الجمهورية . ووصل الحال ان منح بعض الاقطاعيين عبيدهم قطعا صغيرة من الأرض يتوسطها كوخ يقيم فيه العبد ويشرف منه على زراعة هذه القطعة وكان هذا البيت صورة مصغرة من بيت الاقطاعى واقطاعيته وبذلك ظهرت طبقة عبيد الاكواخ . وارتبط العبيد بالأرض ارتباطا ابديا يورث حتى للأبناء واصبحوا يسجلون مع الأرض وتنتقل ملكيتهم الى من تؤول اليه ولا يجوز بيع الأرض بدونهم أو بيعهم بدون الأرض . وبالرغم من أن أحوال الاجراء الأحرار (Coloni) لم تكن

---

(1) A.H.M. Jones. Thoughts on the Decline of the Romat Empire Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, Vol. XXIII, Part I, May 1961. decuriones

احسن حالا من هؤلاء الا انه حظر على العبيد جمع الثروات لانفسهم أو الخروج عن الحدود الطبقية التى رسمتها القوانين والعرف لطبقتهم .

كان الاجراء الزراعيون (Coloni) فى الحقيقة بمثابة عبيد للمالك ولكن فى نظر القانون كانوا أحرارا بالمولد . وكانوا يكونون غالبية سكان الاقطاعية ، فهم كالعبيد يملكون مع الأرض . وكان يحق لهم زراعة قطعة من ارض الاقطاعية نظير نصف (١) المحصول وامتلاك مبلغ معين من المال ولم يكن القانون يسمح للاجير بترك الأرض التى يزرعها أو هجرة الاقطاعية أو تغيير مهنته واذا حدث وهرب فان السلطات ترجعه بالقوة الى حيث كان يعمل . وبالرغم من أن الاجراء كانوا احرارا بالمولد الا أنه كان يحق لصاحب الفيلا أن ينزلهم الى طبقة العبيد عقابا لهم . وكان وضعهم الاجتماعى ينتقل الى ابنائهم بالميراث فابن الاجير يجب ان يكون اجيرا لكن الفارق البسيط الذى كان يميز الأجير عن العبد هو انه كان من حق الأجير امتلاك المال وتوريثه لابنائه ، كما كان من حقه ان يلتجأ الى القضاء ويقيم الدعوى بيتما حرم العبد من هذه الحقوق . ويجيء الاجراء اما من الفلاحين الذين لم يكن فى حيازتهم اى اراضى زراعية ، أو ممن نسميهم بالعمال الزراعيين ، أو من اسرى الجرمان ، او من البرابرة الذين وطنهم الرومان فى المناطق المهجورة او فى داخل الامبراطورية ، او من العبيد الذين اعتقوا واصبحوا احرارا ، لكن غالبية الاجراء الزراعيين كانوا فى الأصل من صغار الملاك الذين ساءت أحوالهم بسبب بهاظة الضرائب وقلة المحصول وارتفاع التكاليف الزراعية ، فعجزوا عن زراعة الأرض ، كما كان محرما عليهم الهروب منها ومن ثم لجاوا الى تسليم اراضيهم طواعية للاقطاعى نظير حمايتهم بنفوذه من ظلم جباة الضرائب ومن جشع الموظفين ، وهذا النظام يعرف بنظام « الوصاية » Commendatio وقد حاول بعض الأباطرة وقف هذه العملية اللااخلاقية بسن تشريعات ضد نظام الوصاية الا أنهم عادوا واغمضوا عيونهم نظرا لانهم كانوا فى حاجة الى الاقطاعيين كمصدر تمويل للامبراطورية . وقد تطور هذا النظام فى العصور الوسطى ليصبح نواة للمجتمع الفيدرالى Feudalist (٢) .

---

(١) هذا بالاضافة الى الضريبة التى كانت تقدر فى مصر بثلث المحصول اى ان مايتبقى للاجير هو سدس المحصول ومن العجيب ان هذا النظام كان موجودا فى مصر الى عصر قريب مما يعرف بطبقة السداسة .

(٢) استخدمت كلمة فيودالى لاختلاف وضع الاقطاع الاوربى فى العصر الوسيط عن ونسمه فى مصر فى العصور الوسطى والحديثة .

كانت المدينة هى الوجه المقابل للريف ، وكان يسكن المدينة عادة طبقة كبار الموظفين . خاصة الذين كانوا يتولون نيابة عن الاقطاعيين تنفيذ اعمالهم وجمع الضرائب للامبراطورية . وكانوا هؤلاء وكلاء الامبراطورية وعادة يمثلون الطبقة التى تملك قدرا من المال ودون الاعيان . ومن ثم فرضت عليهم الحكومة تولى عضوية المجالس البلدية municipia أو مجالس الشورى الاقليمية فى بلادهم وقد عرفوا باسم Curiales (١) نسبة الى عضوية المجلس Curia وفى اوائل عصر الامبراطورية كان هذا المنصب مرغوبا فيه بالرغم من ثقل الالتزام على من يتولاه . لانه كان لايزال براقا ويعطى لحامله امتيازا طبقيا محدودا ، ودليلا على سعة حال حاملة كما كان بمثابة البوابة التى يعبر منها صاحبها الى المناصب الأعلى .

غير ان اصلاحات ديوقلديانوس وقسطنطينوس قصمت ظهر هذه الطبقة واصبحت اعباؤها لا تطاق ، اذ اصبحوا ينفقون على منصبهم من اموالهم الخاصة ، بالاضافة الى دفع العجز فى الضرائب من اموالهم الخاصة التى اعتبرتها الدولة ضمانا مرهونا لديها مما ادى الى افقارهم وبالتالى حاولوا الهروب بتغيير مواطنهم او الالتحاق بالجيش او الانخراط فى سلك الكهنة المسيحيين . واضطرت الحكومة الامبراطورية من جانبها الى اصدار تشريعات تربطهم بمناصبهم وتضيف آخرين الى قائمة الشرف وفرضت عقوبات صارمة على المتهربين من هذه الوظائف الشرفية . وكما كان هؤلاء الموظفون ضحية لظلم النظام الحاكم فقد وجدوا فى المزارعين الفقراء ضحية وكبش فداء فاستخدموا معهم ابشع الطرق من اجل تحصيل الضرائب المطلوب لدرجة ان كلمة Curialis اصبحت مرادفة لكلمة « المتعسف » وجرى مثل يقول كل موظف شرفى ، طاغية tot curialis, tot Tyranni.

وبالرغم من قوانين الدولة الصارمة بشأن الحفاظ على طبقة الموظفين الشرفيين الا انها انقرضت ابان القرن الخامس عندئذ ادركت الحكومة مدى اهمية هذه الطبقة وحاولت اعادة الحياة لها ولكن فان الوقت كان متأخرا .

ثانيا ـ الفوضى الفكرية :

طحن الفقر السواد الاعظم من الناس ، وشغلهم الحرمان عما يدور من حولهم من تقلبات سياسية ، بل اصبحوا فى واد والدولة فى واد آخر .

---

(١) واحيانا عرفوا باسم الديقوريون decuriones

وكما يحدث عادة فى مجتمعات التخلف والحرمان الاقتصادى يلجأ الفرد الكادح اليائس الى الخرافات والسحر والشعوذة والغيبيات هروبا من الواقع المر وبحثا عن البلسم الشافى لآدميته المهانة ولكبريائه المجروح . ويزدهر عادة فى هـذا المجتمع ، ديانة الزهد والتقشف والتبشير بيوم الآخرة والدعوة الى خلاص النفوس وانتظار ظهور المخلص واحيانا يلجأ الفرد الكادح الى عقائد دينية ايجابية النظرة تدعو للثورة الاجتماعية وقلب المجتمع راسا على عقب ، ولكن هذا الاتجاه الأخير بقى محدودا فى حركات اقليمية وفى المناطق النائية من أجزاء الامبراطورية .

هذا الهروب (escapism) للنفوس الحائرة جعل النـاس تقبـل على بضاعة المبشرين الملوحين بنعيم يوم الآخرة ، اما بالنسبة للمثقفين فقـد ازدهرت حركة الصوفية المتسامية عن اللذة المادية والتى هى فوق ما يعيه الجمهور السـاذج ، لأن حركة الصـوفية هى التفلسف فى جوهر الخلق والمخلوق والخالق ، وفى البحث عن القانون الأزلى الذى يحكم الوجود . أو فى تحقيق السعادة القصوى Summum bonum عن طريق ضبط النفس . والالتزام المطلق بقوانين الفضيلة ، كالحق المطلق والبعـد عن الخطيئة وهى مفاهيم فلسفية تحتاج الى استعداد عقلانى راق . ولقـد تركت الرواقية تأثيرا عميقا على فكر المثقفين بمناداتها بالاخوة العـالمية والمساواة بين البشر وايمانها بقانون الطبيعة الازلى الذى ينطبق على كافـة البشر وما دام الموت يساوى بين جميع الكائنات mors omnia aequat فلا فائدة اذا من الفروق الطبقية الاجتماعية لأنها من صنع العالم المادى الوضعى وهو عالم محدود ومؤقت (١) .

هكذا تبلورت فلسفة جـديدة تجمع بين الفـكر الرواقى الصـارم والروحانية الافلاطونيـة والرياضـية الفيتاغورثية فى قالب جديد يمزجها بالدين والتراث الوثنى فيما يعرف بالافلاطونية الجديدة Neo. Platonism ووجدت لها عشاقا ومريدين وتبناها الاباطرة لحركة مناوئة للمسيحية ، ولكن لم تنجح هذه الفلسفة لانها عسيرة فى الفهم ، عالية فى التفلسف ، صعب ادراكها على الغوغاء السـاذجة ، ومن ثم اتجهوا الى ديانات الشرق بروحانيتها ودعوتها بالعالم الآخر متمثلة فى عبادة مثرا Mithra ورب الشمس الذى لا يقهر Sol Invictus.

---

(١) cf. G. Sabine, A History of Political Thought (New York, 1964), pp. 149-150.

أنظر : عثمان أمين — الفلسفة الرواقية — مكتبة الانجلو — القاهرة ١٩٧١ — ص ٢٥٧ وما بعدها .

(أ) العقيدة المثرائية :

كما سبق أن ذكرنا عند معالجتنا لمظاهر الحياة الفكرية ابان القرن الثانى الميلادى أن عبادة مثرا رب الشمس والنور الفارسى الاصل والذى يتمثل فيه الحق وتسوده الفضيلة : ضد الظلام والظلم والرذيلة وهو رب مقاتل ايجابى النظرة ،اعتقد عبيده بانه الوسيط بين الرب الابدى الاسمى والانسان الضال (١) ولهذا جاء مثرا ليهديهم سواء السبيل ، كما بشرت المثرائية بقدرة الانسان فى أن يتصل بالرب الاسمى عن طريق التنسك والتصوف والطهارة والعبادة حتى يرفع عنه الحجاب ، كما مارست التعميد baptism والتثبيت على العقيدة (confirmation) والمسترية او الشعائر والعبادة السرية . ولما انتظمت العقيدة الجديدة أصبح لها تقويم يحدد الايام المباركة وايام الاعياد . فمثلا اختارت يوم الشمس (الذى اصبح يوم الاحد فيما بعد) عطلة اسبوعية مقدسة ، واختاروا الخامس والعشرين من ديسمبر كعيد لقيامة مثرا وصعوده الى السماء ، وهذان العيدان بقيا تراثا خالدا فى المسيحية حتى عصرنا هذا (٢) .

ولما كان مثرا ربا نشيطا يحارب الشر ويتمتع بروح قتالية عالية على الدوام فقد انتشرت عبادته بين صفوف الجنود جنبا الى جنب مع جوبتر دوليخنوس الفولاذى والذى قيل أنه ولد حيث ولد الفولاذ Nato ubi ferrum nascitur (٣) .

(ب) الافلاطونية الجديدة :

كان على الفلسفات القديمة ان تنزل من عليائها لتنافس الديانات الشرقية وتخاطب الجماهير بشىء من البساطة حتى يقبلون عليها ، ومن ثم اتحدت الفيتاغورثية والافلاطونية والرواقية فى قالب دينى روحانى من اجل انقاذ تراث الوثنية الاغريقى الرومانى . وكان الفيلسوف الروحانى أفلوطين الاسيوطى أول من ارسى قواعد هذا الاتجاه الجديد فى كتابه « التاسوعات » (Enneads) والذى حاول فيه ان يوفق بين تناقض العالم الميتافيزيقى المجرد والعالم الارضى المحسوس ، مستخدما منطق الافلاطونية فى ان الحقيقة هى الفضيلة والفضيلة هى الروح ، والروح هى

---

(١) Joseph Vogt, op. cit., p. 132.

(٢) Burgh, Legacy of the Ancient world, Vol. II, (Middlesex 1953), pp. 339-341 ; also cf. John Ferguson, The Religions of the Roman Empire (Thames and Hudson 1970), p. 54 ff., also Joseph Vogt, op. cit., p. 36. f.

(٣) cf. G.R. Watson, The Roman Soldier, Burgh, op. cit., 245 f. p. 132 f.

الخلود لانها ازلية ، اما الجسد فهو انعكاس للروح أى انه صورة وليس اصلا . وكل ما يصدر عن الروح التى هى الاصل هو بمثابة البداية والنهاية للكون الذى يعيش فيه (١) .

وعلى اى حال نجح افلوطين الفيلسوف المصرى القادم من قلب الصعيد فى ان يعرض فلسفته على الامبراطورية الرومانية . ولذا استدعاه الامبراطور ليبشر ويعظ على مدى ربع قرن فى قلب العاصمة روما ويقوم بدور الراعى الصالح لاتباعه ، حتى نجح فى انشاء كنيسة تحت رعاية الامبراطور الذى تحول الى مريد له وهو جاللينوس . وكانت هذه الكنيسة الأفلاطونية وثنية بالطبع ، لكنها متدينة تدعو الى وحدانية كل الآلهة فى جوهر واحد ديناميكى Dynamic Pantheism.

ومات افلوطين الفيلسوف الروحانى عام ٢٧٠ م من جراء مرض اصاب فمه يرجح العلماء بانه سرطان الفم ، واستقبل الموت بكلمات فلسفية رقيقة مرحبا به وهو يقول « اننى فى انتظارك قبل ان اتحدت روحى المقدسة بروح الوجود المقدس (٢) . ومات تاركا فلسفة دينية قوية لها عبادها ومريدوها بفضلهم ظلت مزدهرة حتى قرر الامبراطور الشرقى جستنيانوس اغلاقها مع سائر المدارس الوثنية عام ٥٢٩ م (٣) .

(ج) المسيحية أيدلوجيتها وطوائفها :

باءت كل المحاولات الوثنية والفلسفية بالفشل فى محاولتها القضاء على المسيحية التى برزت فى تحد كمنافس خطير للافلاطونية الحديثة فحسب بل لكل التراث الوثنى الذى هو محصلة الحضارة الاغريقية الرومانية على مدى آلاف السنين .

لقد انتشرت المسيحية فى الوقت المناسب واطلقت ثورتها الانسانية ذات المبادىء البسيطة فهزت الامبراطورية الرومانية هزا وقوضت مجتمع الارستقراطية والبيروقراطية والاقطاع . ولهذا حاولت الوثنية وانصارها

---

(١) انظر : عثمان امين — المرجع السابق — ص ١٢٩ .

(٢) cf. Ferguson, op. cit., p. 206-207. Buregh, op. cit., p. 339-346.

(٣) أنظر : فؤاد حسن زكريا — التسوعة الرابعة لافلوطين — الدار القومية ١٩٧١ القاهرة ، كذلك انظر :

Hilary Armstrong, J.H.S. vol. XCIII (1973), p. 15-22 ; J. Dodds, J.R.S., (1960), p. 1-7.

الارستقراطيين سحق هذه الحركة وتحمل المسيحيون الاول ابشع انواع التعذيب والاضطهاد ولكنها تحملت فى صبر واصرار وسارت فى طريق الآلام حتى النصر . ويرجع المؤرخون الاسباب التى ادت الى انتصار المسيحية وانتشارها الى عدة أسباب ، فمن ناحية راى رجال اللاهوت والكنيسة انها ارادة الله وارادة الله كان لابد وان تنتصر بعد التضحية من اجل خلاص النفوس ، أما العقلانيون الذين يمثلهم ادوارد جيبون Gibbon فيورد خمسة تفسيرات أولهما غيرة المسيحيين الاول واصرارهم على التمسك بالعقيدة ، وثانيهما انجذاب الناس بفكرة الجنة والحياة الآخرة حيث يعيشون حياة مثلى ، وثالثهما بطولة الكنيسة وصمودها والمعجزات التى حققتها ، ورابعهما حياة الزهد والتقشف التى ضرب بها المسيحيون الاوائل المثل الاعلى فى البعد عن متاع لدنيا مما جذب الناس اليهم ، وخامسهما دقة لتنظيم والخلايا (١) فى السلك الكنيسى ابتداء من الشعب الى الخدام والشمامسة والكهنة الى المجلس والقس ثم الاسقف .

وتتلخص المسيحية فى الايمان بالاب الذى هو الله والابن المسيح والروح القدس Spiritus Sanctus الذى عن طريقه انجب الله المسيح من مريم العذراء . وأن الهدف من قدوم المسيح الى العالم هو خلاصة . وقد جاء لخاصته ولكن خاصته (أى بنى اسرائيل) لم تقبله ، فصلبوه ولكنه قام فى اليوم الثالث وخرج من القبر وصعد الى السماء عند أبيه حيث يجلس عن يمينه ولن يعود المسيح الى الارض الا قبل قيام الساعة حيث يقود الفقراء والمظلومين الى المملكة السماوية التى سوف يحققها لهم . ووضعت المسيحية شروطا للدخول فيها مثل التعميد والغفران أو التوبة ثم الايمان بقيامة المسيح وبيوم القيامة .

هذا من ناحية العقيدة ، أما من ناحية الواقع فان المسيحية تقوم على التراث اليهودى والشريعة الموسوية . فالمسيح ولد فى فلسطين وختن فى اليوم الثانى من مولده كان يهودى ، وتربى على الثقافة العبرانية ، بل واصبح احد حاخامات اليهود وقام بالوعظ فى المعبد الكبير بالناصرة Nazareth وانه جاء لخاصته ليكمل رسالة موسى حسبما قالت نبوءة التوراة .

لكن دعوة المسيح خرجت من نطاق التخصص الضيق التى تتسم به

---

(١) Gibbon, Ibid, p. 141.

اليهودية الى العالمية .وفى ذلك تأثر بالرواقية ما من شك (١) . ولم يصدقه اليهود لانه قال أن المملكة اليهودية التى بشرت بها التوراة بالنسبة له مملكة سماوية عليا ومن ثم ناصب اليهود المسيح العداء وظلوا يطاردونه ويحرضون الرومان عليه حتى تم صلبه . لهذا ناصب المسيحيون اليهود العداء لانهم قتلة المسيح .

ولم تكن الافكار العالمية هى وحدها التى ساعدت على انتشار المسيحية وسط ربوع العالم المسكون ، بل لان المسيحية تشربت بالافكار الاغريقية واستخدمت اللغة الاغريقية العامية (Koine) لغة العالم المسكون ولم تستخدم الارامية اللغة التى وعظ بها السيد المسيح نفسه . وفى نفس الوقت اعتنقها كثير من اليهود المتأغرقين لانها توافق نفسيتهم اذ أنها مزيج من الافكار الاغريقية والسامية .

كانت بروليتاريا المدن وعبيد الريف الأجراء اسرع طبقات الامبراطورية الرومانية الى الايمان بالعقيدة الجديدة لانها كنت طبقات ساخطة على الظلم الذى حاق بها . وكانت المسيحية متطرفة فى تعاملها مع الامبراطور الذى انكرت الوهيته علنا ، وعلى الوثنية (١) التى ناصبتها العداء . ولهذا أتهمت السلطات الرومانية المسيحيين بأنهم هدامون يتآمرون على قلب الامبراطورية وكان ذلك منذ ايام نيرون ، وساعد على ذلك أن نظرة المسيحية الى المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت مختلفة تماما مع نظرة الوثنيين . ولهذا بينما تعصب الارستقراطيون للوثنية تعصبت الطبقات الدنيا الكادحة للمسيحية ، وتحول الصراع بين الكنيسة والدولة الى صراع طبقى واجتماعى قبل أن يكون صراعا عقائديا . ودفعت الكنيسة ثمن عقيدتها بالدم وقاومت الاضطهاد والاستئصال المنظم . ومن اشهر الاضطهادات التى مرت بالمسيحية اضطهاد تراجانوس عام ٩٨م واضطهاد سبتيميوس سيفيروس عام ١٩٣م واضطهاد ديقيوس عام ٢٤٩ م ثم اضطهاد ڤاليريان عام ٢٥٤ م . وكان اعنفها جميعا أضطهاد ديوقلديانوس . كانت المذابح التى انزلها ديوقلديانوس بالمسيحيين خاصة فى مصر رهيبة حتى أن الكنيسة القبطية المرقسية فى مصر جعلت بدء تقويمها عام ٢٨٤ م وهى السنة التى تولى فيها ديوقلديانوس حكم الامبراطورية الرومانية ويسمى هذا

(١) انظر : عثمان امين — المرجع السابق — ص ٢٧٣ وما بعدها . ويقول الرسول بولس فى رسالته الى اهل حالاتيا « لا يهودى ولا اغريقى ، لاعبد ولا حر ، لاذكر ولا انثى ، كلكم واحد فى يسوع المسيح » (الاصحاح الرابع س ٢٨).

(٢) Aldo Momighano, The Conflict between Paganism and Christianity.

التقريع بتقريم الشهداء (١) . ولكن الاضطهاد زاد المسيحيين اصرارا وقابل شهداؤهم الموت بشهوة الحياة .

وقدمت الكنيسة عددا من بطاركتها واساقفها ورهبانها وعلمائها شهداء ، واغلقت مدارسها اللاهوتية واحرقت الكنائس والكتب المقدسة ، ومع ذلك صمد المسيحيون بل على العكس كان عدد المؤمنين يزداد باضطراد لأن الوثنيين كانوا ينضمون الى المسيحيــة متأثرين ببطولات شهدائها من أجل العقيدة . واخيرا يئس الاباطرة من حلم استئصال المسيحية واضطروا الى وقف المذابح البشرية لعدم جدواها ولانها خلقت الخراب وادت الى اضعاف الانتاج الزراعى ونقص اليد العاملة وتدهور الاقتصاد فى كثير من اجزاء الامبراطورية (٢) . واعترفوا بالامر الواقع واعادوا للمسيحيين حرية العبادة . ثم راى قسطنطين انه من الافضل ان يكسب المسيحيين الى جانبه لانهم بمرور الزمن اصبحوا نسبة لا يستهان بها فاعتنق المسيحية وانتهى على يديه عهود الاضطهاد (٣) .

ولما وجد البيروقراطيون والاقطاعيون واصحاب المصالح أن الاباطرة اصبحوا مسيحيين تحولوا من الوثنية الى المسيحية حفاظا على استمرار مراكزهم وثرواتهم ووضعهم المميز مما أدى الى سخط طائفة من المسيحيين على قبول هذا النوع من العباد الجدد ويتمثل ذلك فى تمرد الكنيسة الدوناتية فى شمال افريقيا .

بداية الصراع الفكرى والعقائدى بين طوائف المسيحية :

غير ان وصول الكنيسة الى شاطىء الامان كان بداية لانفجار الصراع اللاهوتى بين طوائف المسيحية المختلفة . وطفت على السطح المتناقضات العنصرية والاجتماعية والفكرية التى اختفت فى القاع وقتها . وكانت الكنيسة تتعرض لخطر الاضطهاد . وتفكك عرى الكنيسة المسكونية الواحدة الى طوائف وفرق متصارعة فظهرت الدوناتية والاريوسية والمونوفستية والبلاجيوسية واتباع مانى « المانيخية » .

ولد مانى Mani مؤسس الطائفة المانيخية فى بابل عام ٢١٧م من أسرة نبيلة ومن سلالة بارثيــة مسيحية لانه عمد وثبت فى طفولته

---

(١) مراد كامل ـ المرجع السابق ـ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) مراد كامل ـ المرجع السابق ـ ص ٣٢ وما بعدها .

(٣) المرجع السابق ـ ص ٣٤ .

كمسيحى . ولكنه لما شب وكبر اعلن أن وحيا سماويا أبلغه رسالة من السماء لينشرها بين البرية ؛ وأنه مبعوث جاء ليكمل رسالة بوذا وزرادشت والمسيح ، وسافر الى الهنـد لينشر دعوته التى نجح فى نشرها بين البارثيين والفرس بل ووصلت دعوته الى مصر .

كانت دعوة مانى فى الحقيقة توفيقا بين المسيحية والمثرائية ومحورها الذى هو الصراع الابدى بين الرب الذى هو النور والمعرفة ، وبين الشيطان الذى هو الظلم والظلام(١) . ووصف العهد القديم بأنه من صنع رب الظلام اهريمان Ahriman بينما العهد الجديد من صنع رب الشمس والنور اهورا مازدا Ahura Mazda ؛ اى ان جوهر الفكرة يقوم على الغنوسية « وهى الايمان بالخلاص الذى يجىء عن طريق المعرفة دون لا الايمان » . وتدعو المانية « أو المانيخية » الى وجوب محاربة الشر والظلم بمساعدة هداية رب النور والخير . ودعت الى الامتناع عن اكل اللحوم وشرب النبيذ ومجانبة النساء لانها تساعد الناسك على اجتياز الامتحان الصعب الذى ... فى نهـايته الى مرتبـة القديسين وسرعان ما يتبعه ... يريد ... من ظلم النفس .

ولما كانت هذه الدعوة يغلب عليها الطابع والفكر الايرانى فقد انتشرت بسرعة قرب هذه المنطقة بل ... برعاية الملك الفارسى شابور ، ومن بلاد الفرس خرجت الدعوة المانيخية شرقا الى الهند والصين « لان مترا جاء من الهند أصلا واستوطن بلاد الفرس » ، واتجهت غربا الى بلاد ما بين النهرين وسوريا ودخلت مصر . وتشير الادلة أن المسيحية المانيخية وجدت لها فريقا كبيرا من المريدين فى مصر . اذ عثر حديثا فى نجع حمـادى على نصوص قبطية بلهجة صعيدية تتحدث عن الفكر المـانى المسيحى نشرها بويش Puech وودنجرن Widengren (٢) . وكان انصارها يمثلون دعاة الثورة الاجتماعية ضد الظلم الرومانى أو ما يعرف بالثورة المانيخية .

لقد لقيت المانية هوى فى نفوس شعوب مصر والشرق الاوسط حيث ترك الظلم والاستغلال الرومانى بصماته ، وكانت هذه الشعوب فى حاجة الى عقيدة تدعو للثورة والاصلاح الاجتماعى ضد الظلام والظلم المتمثـل فى صراع اهورا مازدا لخير ضد أهريمان الشرير . ففى مصر لم تكن اسطورة الصراع بين الخير والشر غريبة لان الاساطير الفرعونية سبق وان تحدثت عن أسطورة مشابهة وهى الصراع بين أوزوريس وزوجته ايزيس اللذان

---

(١) John, Ferguson, op. cit., p. 47. also, cf. Eusebius, The History of the church From Christ to Constantine, translated by Williamson (Middlesex 1965), pp. 319-320.

(٢) كذلك انظر ٦٥ cf. Vogt, op. cit., p. 54.

يمثلان الخير ضد ست وزوجته نفتيس اللذان يمثلان الشر ، ويضيف ڤوجت أن نجاح الكنيسة المانية يرجع الى دقة تنظيمها وبراعة الشعائر والطقوس التى تجند الاتباع وتجمع شمل المريدين . فأصبح لها كنيسة منظمة يتراسها كاهن يعمل تحته رسل مبشرين ، وأساقفة وكهنة ووعاظ . فضلا عن شعائرها وقواعد عبادتها مثل الصيام والعزوف عن أكل اللحوم وشرب النبيذ ، والترانيم الصوفية التى الفت باللغة السوريانية والى لغات عديدة حيث سحرت عبقرية « مانى » الادبية وصفاء أفكاره كثيرا من شعوب الشرق الاوسط . بل وتسللت الى الكنيسة الرومانية ذاتها عن طريق شمال افريقيا ثم الى اسبانيا لاننا نجد القديس أوغسطين « أسقف مدينة هيبو Hippo فى شمال افريقيا والمبشر بالمسيحية فى جنوب بريطانيا ومؤلف مدينة الله » (١) يتحدث عن صراع الكنيسة الغربية ضد الطائفة المانيخية والتى اعتبرها مؤامرة أجنبية مدبرة ضد الكنيسة الرومانية .

وليس هناك ادنى شك فى ان الثورة المانيخية التى اندلعت فى مدينة الاسكندرية عام ٢٩٧ م والتى قادها زعيمان هما : أخيليوس ورفيقه دوميتيوس دوميتيانوس والتى بذل ديوقلديانوس جهدا كبيرا فى سحقها ادى الى حصارة الاسكندرية حتى المجاعة ، ثم دخلها وأعدم كل من اشترك فيها ـ كانت اول محاولة لتطبيق فكر العقيدة المقاتلة ضد الظلم الاجتماعى ، وكانت ثورة موجهة ضد الامبراطورية الرومانية لاننا نجد ديوقلديانوس يبعث فى عام ٢٩٧م برسالة صارمة الى حاكم شمال افريقيا الرومانى ضد المانيخيين وصفهم فيها بأنهم عملاء دولة معادية ، وبأنهم شياطين يثيرون الفوضى ويعكرون صفو السلام الرومانى أو يدعون الشعب للثورة ويسممون أفكار الناس ، ثم أصدر قراره بوجوب تصفية هذه الحركة وحرق زعمائها احياء مع كتبهم المقدسة وقطع رقاب اتباعهم ، أما الرومان الذين دخلوا فى هذه العقيدة فقد اصدر امره بأن يسجنوا مدى الحياة ويقومون بالاعمال الشاقة فى المناجم والمحاجر (٢) .

ومن ناحية اخرى نجح المجوس فى الكيد لزعيم الطائفة مانى عند ملك الفرس واقنعوه بأنها مؤامرة لتلويث التراث المجوسى فحكم على مانى بالسجن الذى بقى فيه حتى موته عام ٢٧٦م . لكن موته لم يمنع عقيدته من الانتشار شرقا وغربا . ولم يمنع الاضطهاد الوثنى ثم المسيحى الغربى هذه الحركة من الانتشار حتى داخل الكنيسة الغربية ذاتها . ففى

---

(١) P. Brown : Augustine of Hippo — A bibliography, London Faber & Faber 1967, Passim.

(٢) cf. Mosaicarum et Romanorum legum collutio 153, I, ff = Vogt. Ibid, p. 54.

عام ٣٨٥م أعدم الاسقف الاسبانى بريتسيليانوس بتهمة الانتماء الى الطائفة المانية واحرق اتباعه احياء . ورغم ذلك تركت تراثها فى الطوائف المسيحية المتأخرة والتى ظهرت فى العصور الوسطى (١) .

ومن المذاهب المسيحية التى دعت الى الثورة أيضا مذهب الدوناتية التى قادها دوناتوس ضد مسلك اسقف قرطاجة فى أوائل القرن الرابع وتطورت الى الثورة على نزاهة لاساقفة والمندسين على لعقيدة من الارستقراطيين والبيروقراطيين الذين دخلوا الكنيسة لحاجة فى نفوسهم وللحفاظ على مكاسبهم ومراكزهم ، ثم تطورت اكثر واكثر الى اختلاف عقائدى متخذا طابع الثورة الاجتماعية ضد الارستقراطية المسيحية والسلطات الرومانية ودعت الى وجوب تحرير العبيد واجبار الاسياد على القيام بدور العبيد كشرط للقبول فى الكنيسة . وبالرغم من أن ادانة الكنيسة الرومانية للدوناتية الا انها بقيت قوة مؤثرة فى شمال افريقيا منذ عهد قسطنطين حتى الفتح الوندالى لشمال افريقيا عام ٤٢٩ . وقد استقبل الدوناتيون الغزاة الونداليين بالرحاب واعتبروهم محررين لهم من بطش الرومان وكنيستهم (٢) حيث ثبت ان الصراع ليس مرجعه الخلاف على بعض تفسيرات العقيدة المسيحية وانما مرجعه الى الشخصية السامية للكنيسة الافريقية ولافكارها ولرغبتها فى الثورة على ظلم الاستعمار الرومانى المتمثل فى الكنيسة الكاثوليكية ، ولهذا السبب وكيدا فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية رحبوا بالوندال الذين ينتمون الى المذهب الاريوسى (٣) .

كانت الاريوسية أشد الطوائف المسيحية خطرا على كنيسة روما . لتجاوب منطقها مع المنطق العقلانى للشعوب الجرمانية التى اغارت على روما ، بل ان الامبراطور قسطنطينوس نفسه آمن بها وتعاطف معها بالرغم من تراسه لمؤتمر نيقية عام ٣٢٥م والذى حرم الاريوسية وطرد الاريوسيين من الكنيسة الا ان الراهب الذى عمده وهو على فراش الموت عام ٣٣٧ م هو يوسيبيوس الاريوسى . وقد خرجت الاريوسية من الاسكندرية . ويقوم منطقها على ان الابن رغم انه وجد قبل الخليقة الا انه يأتى بعد الاب ولا يجب ان يسمو الى منزلته جوهرا وقدسية وازلية ، ومن الغريب أن معارضتها الشديدة خرجت من الاسكندرية أيضا على يد الكسندروس وشماسة اثناسيوس . واصبح المسيحيون منقسمين (٤) . اما مع اريوس أو مع مؤتمر نيقية . وفى ذلك الوقت تبنت كنيسة الاسكندرية مذهب

(١) cf. W. Durant. The Age of Faith, 325-1300, p. 47.

(٢) S. Neil, A History of Christian Missions (1964) p. 38.

(٣) cf. Vogt, op. cit., p. 92 and p. 227 ; Gibbon, ibid, vol. II, p. 580.

(٤) Vogt, op. cit p. 114.

المونوفيزية الذين قالوا فيه بالطبيعة الواحدة الالهية للمسيح ويؤمنون انه هو الله ظهر فى صورة البشر وينكرون وجود اى طبيعـة بشرية له . وبالرغم من أن مؤتمر خلقدونية عام ٤٥١ ادان المونوفيزية الا انه أصبح دعامة الكنيسة القبطية وفروعها فى الحبشة وسوريا .

وعلى النقيض من المونوفيزية جاءت النسطورية نسبة الى نسطور Nestor كبير اساقفة القسطنطينية عام ٤٢٨ . وقـد قادته دراساته اللاهوتيـة الى أن الطبيعة البشرية هى التى تطغى على المسيح حيث أن مريم العذراء ام المسيح من البشر . ولكن مؤتمر افيسوس الكنسى دحض هذه المزاعم وحرمها عام ٤٣١ ولكن هذه الدعوة استمرت وانتشرت فى سوريا وبلاد ما بين النهرين وايران واواسط آسيا الصغرى والى كهنة النساطرة يرجـع الفضل فى ترجمـة وحفظ التراث الهلليني ونقلـه الى الاماكن التى ذهبوا اليها .

اما الطائفة البيلاجوسية التى أوجـدها الراهب البريطـانى المولد بيلاجيوس Pelagius عنـدما ذهب الى روما عام ٤٠٠ ، ثا هاجـر الى قرطاجة ثم اقام فى فلسطين مهد المسيح . وذهب بيلاجيوس وأن الانسان مخير وليس مسيرا ، وبالتالى شك فى قدرة الانسان أن يحرر نفســه من الشر والخطيئة بمشيئته الذاتية وبناء على ذلك انكر فكرة توارث الخطيئة منذ أيام آدم ابى البشر (١) . وقـد تصـدى القـديس اغسطين للرد على البيلاجوسية . وبالرغم من أن المجمع الكنسى الافريقى أدانها عـام ٤٢٠ م واعتبرها هرطقـة . ثم ايد ذلك مؤتمـر افيســوس عـام ٤٣١ الا أن البيلاجيوسية وجدت لها عشاقا بين رهبان بلاد الغـال . ومن هنـاك انتشرت الى بريطانيا حيث عجزت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية أن تملى شروطها فى هـذه الولاية التى لم يعـد للامبرطور الرومانى اى سـلطان عليها .

هـذه صـورة موجزة للصراع التفكك الفكرى الذى سـاد ولايات الامبراطورية فاضعف وحدتها فى وقت راحت القبائل الجرمانية تهـاجم الامبراطورية وتقتطع منها اجزاء تستقل بها الى ان استقلت تماما بالشطر الغربى للامبراطورية مكونة دويلات لها شخصية مستقلة وهى أصل بعض دول أوروبا الحديثة .

---

(١) J. Vogt. op. cit p. 278.

(د) تفسيرات المؤرخين القدامى والمحدثين لسقوط الامبراطورية :

منذ أن سقطت الامبراطورية الرومانية والمؤرخون لا يكفون عن البحث والتقصى عن الاسباب التى ادت الى سقوط الامبراطورية الرومانية . واختلفت الآراء حسب نظرة المؤرخ من زاوية محددة وحسب المناخ الفكرى والسياسى الذى سيطر على العصر الذى عاش فيه . ومن ثم لدينا تفسيرات مختلفة ومتباينة ونظريات متنافرة عالجت موضوع سقوط الامبراطورية من زوايا متعددة دينية وعقلانية واقتصادية وطبيعية . وكما يقول جونز « كان لكل عصر تفسيره لاضمحلال وسقوط الامبراطورية » (١) .

ففى جو التوتر الدينى بين الوثنية والمسيحية تبادل مؤرخو كل من الفريقين التهم فقال زوسيموس Zosimus أحد كبار مؤرخى القرن الخامس ومؤلف موسوعة التاريخ الجديد أن المسيحية هى المسؤلة عن تردى الاحوال الاقتصادية فى الامبراطورية . وأن سقوط روما على يد الارك هو رد فعل لغضب الآلهة الوثنية التى صنعت روما وبنت عظمتها ثم القى اللوم على الامبراطور قسطنطينوس بأنه المسئول الاول عن هذا السقوط لانه دحر الوثنية واحل المسيحية محلها .

ويرد أوروسيوس أن الرومان ابان عصورهم الوثنية لاقوا من انهزائم ما هو أقسى مما لاقاه الرومان فى العصر المسيحى اذا فلا ذنب للمسيحية فى ذلك . ولكنه يتنبأ بأن الله لن يترك البرابرة فى غيهم بل سرعان ما سيهديهم ويتحولون الى خدام للامبراطورية .

ويتلقف الاخلاقيون المسيحيون الموضوع فيعلن سالفيانوس فى كتابه De gubernatione Dei «عن حكومة الله» أن حكمة الله وحكومته ضد أى انعواج خاصة الانعواج الاخلاقى ويفسر سقوط الامبراطورية بأنه عقاب من الله بسبب الخطايا والضلال والانحراف الذى يعيش فيه الرومان . أما القديس أوغسطين مؤلف كتاب مدينة الله فقد ذهب بأن سقوط روما — التى شبهها بسقوط بابل كما جاء فى التوراة — هو نتيجة الارادة الالهية التى تدير الكون وتوجه مصائر البشر حتى تنتصر مملكة الله الابدية وهذا مصير كل الدول والبشر (٢) . أما المؤرخ الوثنى المتسامح اميانوس

A.H.M Jones, Thoughts on the Decline of the Roman Empire, Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University, vol. XXIII, pat I, May 1961, p. 9 f.

(٢) St. Augustine, The City of God, translated and abridged by G. Walsh and Others, New York 1958, pp. 16-31.

لقد استفدت كثيرا من التعليق الذى قدمه الدكتور عبد القادر أحمد اليوسف فى كتابه العصور الوسطى الاوربية (الفصل الاول من ١٣ الى ٢٧) مع التحفظ على طريقة عرض بعضها والتى هى فى الواقع تلخيصا لما عرضه موميليانو فى كتابه .
The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century pp. 1-12.

مارسيللينوس Ammianus Marcellinus المولود عام ٣٣٠ فى انطاكية ولذى امتدحه جيبون كثيرا لتحريره من الانجاز والتطرف الذى ساد فى عصره فقد نسب المصائب التى حلت بالرومان الى انعدام الوازع الاخلاقى عندهم (١) . واخيرا يتناول يوحنا اسقف نيقية نفس الفكرة الاخلاقية فى العصر البيزنطى ليشرح سبب انتصار العرب على الرومان بعد فتح عمرو بن العاص لمصر بأن ذلك تم عقابا على ما اقترفه جستينانوس وهراقليوس اباطرة بيزنطة » من اضطهاد ضد الاقباط الاوزثوذركسين فى مصر .

وفى عصر الثورة الصناعية وانتشار العقلانية الالحادية خاصة بعد الثورة الفرنسية نجد تفسيرات مؤرخى هذه الفترة لسقوط الامبراطورية تتخذ الطابع الالحادى العقلانى الذى يهاجم المسيحية لعدم مسايرة الكثير من جوانبها للتحليل العقلانى والتى تعتبر تراث العصور الوسطى المسيحية فترة انتكاس فى تاريخ الحضارة الاوربية . ويجىء على رأس هذه المدرسة المؤرخ اذوارد جيبون مؤلف العمل الكبير والخالد « اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية . وخلاصة رأى جيبون أن التسلط العسكرى والدكتاتورى قتل الفضائل التى كان يتحلى بها الرومانى القديم وجاءت المسيحية واسبطت روحه المعنوية . وحولت هذا الشعب الرومانى الى شعب سلبى انهزامى ، وأن الرهبنة والكنيسة جذبت اليهما الآلاف من أبناء الرومان القادرين على العمل فى وقت كانت فيه الدولة فى حاجة الى طاقاتهم ، ثم أضاف أن الصراعات الطائفية المسيحية هى المسئولة عن تفكيك عرى الوحدة الوطنية وهى التى أدت الى انقسام الامبراطورية وتفككها .

وهناك فريق من الأساتذة من يعزون تدهور الامبراطورية الى تقلبات مناخية تولد عنها نكبات أصابت المحاصيل الزراعية بسبب الجفاف . ويشير هنتنجتون Huntigton الى أن الاحصائيات تبين أن العالم تعرض(٢) فى الفترة ما بين ٢٠٠ — ٤٠٠ ميلادية الى فترة جفاف مريرة نتج عنها مجاعات وهذه المجاعات أدت الى الثورات ، وقبل كل شىء الى تحرك القبائل البربرية من الجرمان والقوط بحثا عن الطعام وهى القبائل التى

---

(١) Ammianus Marcellinus, translated by J. Rolfe (Cambridge 1935). XVI.

(٢) Ellsworth Huntigton «Climatic change and Agricultural Exhaustion as Elements in the Fall of Rome» Quarterly Journal of Economics, 1916.

هاجمت الامبراطورية فى الغرب ووضعت نهاية لها (١) ولكن جونز يرد على هذا الرأى بأنه لا يقوم على ادلة ثابتة .

ويعـزى سيمكوفتش Simkhovitch سـقوط الامبراطورية الى الافلاس الزراعى الناتج من انهاك التربة واهمال الحكومة فى اى مشروعات لتحسين الزراعة مثل الرى والصرف ، وقلة الانتـاج وزيادة التكـاليف وبهـاظة الضرائب ممـا شجع النـاس على ترك المزارع . فتحولت الى مراعى . وقد لوحظ ذلك من قائمة الاسعار التى أصدرها ديوقلدنانوس حيث لوحظ هبوط سعر اللحوم بينما ارتفعت اثمان المحاصيل الزراعية ويضيف سيمكـوفيتش الى تفـاقم خطـر الأوبئـة التى راح ضحيتهـا الآلاف من سكان الريف مما نتج عنـه النقص الشديد فى الايدى العاملة خاصة فى مجال الزراعة (٢) . ويرد الاستاذ جونز على اصحاب هذا الرأى بأنه يحوى بعض الحقيقة وليس كل الحقيقة لانه بالفعل حدث هـذا فى بعض الحالات ولكن حكومة الامبراطورية اتخذت اجراءات لمعالجة ذلك مثل الاعفاء الضريبى للمعمرين الجدد للاراضى المهجورة اما فيما عدا ذلك فالارض كانت جيدة والانتاج وفير بدليل ان الايجارات ارتفعت عن ذى قبل وبدليل أن الرحالة العرب يتحدثون عن رخاء بعض الولايات الرومانية مثل مصر وشمال افريقيا عندما انتشروا ابان القرن السابع . ويضيف جونز أن هذا الرأى ربما قد ينطبق على العصور الوسطى (٣) . كمـا يعترض على هـذا الرأى باينز مبينا أن الدمـار الزراعى لم يلحق بكـل ولايات الامبراطورية وانما ببعضها فقط ، ويضرب المثل ببلاد الغال حيث بقيت زراعتها مزدهرة حتى القرن الخامس الميلادى ولكنه يلقى اللوم على نظام ادارة الاراضى الزرعيـة . وذلـك ان اصحـاب الاقطاعيـات الكبـرى Latifundia تركـوا زمام الادارة الى وكلائهم وبقـوا هـم فى المـدن (absent landlords) يعيشون من دخلها فنتج عن ذلك اهمـال هؤلاء الوكلاء وعدم حرصهم على رفع الانتاج او المستوى الزراعى للضياع (٤) .

---

(١) Jones, Loc. cit., p. 11.

(٢) G. Simkhovitch Rome's Fall, Re-considred", Journal of political science, 1916.

(٣) Jones, loc. cit., p. 11.

(٤) N. Baynes, The Decline of the Roman Empire in Western Europe, Journal of Roman Studies, 1943; also of The transformation of the ancient world. Gibon's problem after two centuries (Ucla center for Medieval and Renaissance Studies, Contribution III), published by White. Jr., Berkeley los Angeles, University of California, Press 1966.

اما الذين ذهبوا الى أن دمار الاقتصاد فى الامبراطورية ادى الى تدهورها وسقوطها فهم كثيرون . نورد منهم اندريه بيجانيول André Piganiol الذى لخص السبب فى نقص الايدى العاملة خاصة العبيد — الطاقة الاساسية لاعمال الانتاج الزراعى ، ثم الحروب الاهلية واعمال التسرد المتعددة التى قام بها الجنرالات ومحاولتهم الانفصال والاكتفاء ذاتيا بمقاطعاتهم مما ادى الى عودة النظام الاقتصادى البدائى وتدمير راس المال بالطاقة المنتجة . ثم تدهور مركز روما التجارى الدولى بسبب فقدها السيطرة على الطرق الدولية للتجارة نتيجة لظهور الفرس كقوة جديدة فى منطقة الخليج والشرق الأوسط ، ونتيجة لنجاح طريق الراين — الدانوب ومنافسته لطريق الخليج — البحر المتوسط وذلك بعد حكم تراجان واخيرا ، اورد بيجانيول رعونة الدولة فى ادارة اقتصادها عندما حاولت التدخل فى المشروعات وقامت بدور الراسمالى المستغل الذى يجند العمال اجباريا ويستغلهم شر استغلال ويفرض الضرائب الباهظة على الفلاحين مما ادى الى الهروب الجماعى او تسليم اراضيهم الى الاقطاعيين الذين كان معظمهم لا يدفعون الضرائب نظرا لمراكزهم الاجتماعية العالية . وبالرغم من الامبراطورية حاولت فى ايامها الأخيرة التخفيف من قبضتها على الاقتصاد ووقف زحف الاقطاع الا أن عدم الاستقرار المتمثل فى هجوم البرابرة الجرمان والقوط على حدود الامبراطورية فى الغرب وفى البلقان .

كماأن بعث الامبراطورية الفارسيةفى الشرق أغرق الامبراطوريةفىحروب باهظة ومكلفة واضطرت الى رفع الضرائب لتعويض نفقات الحرب فتدهور الاقتصاد بينما فشلت الامبراطورية فى مقاومة الغزاة (١) . ويؤكد وولبانك على مسئولية الاقطاع الذى كان مرجعه الى نقص الايدى العاملة خاصة العبيد ، فضلا عن الاعتماد على بدائية الوسائل المستعملة فى الانتاج مما جعل العمل مرهقا والمحصول ضئيلا بينما الضرائب باهظة . أما الصناعة فكانت لا تكاد تذكر فالصوف كان يعزل بالمغازل اليدوية والنسيج ينسج بنولات ايضا يدوية لدرجة ان نسيج ثوب واحد كان يستغرق مجهود شهر من العمل الشاق اما الاسلحة والمطروقات عن طريق الكير فبدائية طرق الانتاج هو الذى ادى الى خراب اقتصاد الامبراطورية ومن ثم الى سقوطها (٢) .

---

(١) André Piganiol : L'Empire Chrétien, Paris 1947 1947, pp. 411-422.

(٢) F. Walbank, The Decline of the Roman Empire in the West New York 1935, p. 3-7.

وقد اعاد نشر كتابه حديثا قبل وفاته وبعد أن غير قليلا من آرائه القديمة أنظر :

أما وسترمان Westerman فلا يرى فى تدهور طبقة العبيد المنتجة سببا فى تدهور الإقتصاد ، بل يرى أن قتل الاقتصاد الحر والقضاء على المشروعات التى يقوم بها الافراد هو الذى قضى على الاقتصاد ففى مجال الزراعة ساعدت سياسة الدولة على ظهور ونمو نظام الاقطاع وذلك على حساب اصحاب الملكيات المتوسطة والصغيرة الذين تحولوا الى ادوات انتاجية يستحلبون لصالح الاقطاعى بل حلت هذه الطبقة محل العبيد . مما قوض دعامة الطاقة المنتجة (١) .

ويذهب فريق آخر من الاقتصاديين الى ان السبب هو ان التجارة الدولية لم تكن فى صالح الاقتصاد الرومانى (٢) لانها كانت تجارة كماليات مثل العاج والحرير والتوابل والعطور وبالتالى لم تكن روما تصدر أشياء مقابلة لان صناعاتها كانت بدائية وللاستهلاك الداخلى فقط فضلا على ان الحكومة لم تشجع على الصناعة التى كان الرومان يحتقرونها كما أن السلطات حرمت على الرومان توظيف أموالهم فى التجارة التى اعتبروها من شيمة العبيد وليست من شيمة الاحرار . ومن ثم كان عليها أن تدفع ثمن هذه الكماليات ذهبا . ولما كانت المناجم قد هجرت أو نفذت فقد كان من الصعب على الرومان تعويض هذا المعدن أو حتى وقف استنزافه فكانت النتيجة تقلص العملة بتخفيض نسبة الفضة والذهب فيها لدرجة مفزعة وبالتالى انخفضت قيمتها مقابل ارتفاع فى الأسعار بل ورفض الناس فى كثير من الحالات قبول هذه العملة المخفضة وفضلوا العودة الى نظام التعامل البدائى وهو نظام المقايضة وفى كثير من الاحيان عجز المنتج عن تسويق بضاعته مما ادى الى انكماش الانتاج بحيث أصبح الفلاح مثلا لا يزرع الا ما يكفيه وبعضا يقايض عليه نظير المستهلكات الأخرى . والحق يقال أن هذه نظرية متقدمة جدا فى الفكر الاقتصادى . وبالغت فى حجم تجارة الكماليات التى لم يكن يطلبها سوى أقلية ضئيلة من الأثرياء فى بلد يعج بالفقراء .

F.W. Walbank, The awful Revolution. The Decline of the Roman Empire in the West, Liverpool University Press, 1969, p. 2 ff.

(١) W. Westerman «The Decline of Ancient Cultures» The American Historical Review, 1915.

(٢) cf. J. Strayer and D. Munro, The Middle Ages, 395-1500. New York 1942, p. 5-7. also cf. James Miller : The Spice trade of the Roman Empire 29 B.C. to 641 A.D. Oxford, The Clarendon Press 1969, p. 227-241.

بما يرفض وسترمان هذه الفكرة مدللا على ان التجارة مع الهند وبلاد العرب التى تحدث عنها بلينى فى كتابة « التاريخ الطبيعى » Histoia Naturalis (١) كانت فى صالح روما بقدر ما كانت فى صالح الطرف الآخر خاصة أن بلاد العرب كانت تحت النفوذ الرومانى ، ولكنه يأتى برأى غريب وهو أن ندرة المعادن الثمينة هو الذى أدى الى تقلص العملة وضعف قيمتها الشرائية ناتج من الاتجاه نحو اكتناز الاثرياء الرومان (٢) للذهب والفضة وعدم تشغيلها فى نواحى الاستثمارات المختلفة وهو رأى غير مقنع بالنسبة لتفسير الاستاذين ستروير ومونرو اللذان يضربان المثل باضطرار قسطنطينوس الى تخفيض وزن الذهب فى السوليدوس الرومانى عما كان عليه أيام ديوقلديانوس والذى كان قد خفض وزن السوليدوس الذهبى الى ١/٦٠ من الرطل الرومانى ثم جاء قسطنطينوس وجعل وزنه ١/٧٢ من الرطل الرومانى . بينما كان فى استطاعة كل من الامبراطورين السابقين مصادرة الذهب أو الفضة المكنوزة فى وقت كانوا يعلمون كل شىء عن الناس عن طريق جواسيسهم . agents-in-rebus

أما جونز فيرى أن سبب سقوط الامبراطورية هو هجمات الشعوب المعادية مثل الجرمان والهون والفرس و ... ب ولا يرى أن الاقتصاد هو السبب الرئيسى او حتى الأكثر اهمية فى سقوط الامبراطورية . ويشرح جونز نظريته بأن السبب المباشر لسقوط الامبراطورية الغربية هو هزيمتها على يد القبائل البربرية الجرمانية ، فضلا على ان هؤلاء البرابرة قد فرضوا على الامبراطورية حملا ثقيلا فى تكبد نفقات باهظة والاحتفاظ بجيوش كبيرة طوال القرنين السابقين على تاريخ السقوط ، مما نزف اقتصاد الامبراطورية حتى الموت . ولما كان دخل الامبراطورية الأساسى يجىء من الضرائب التى تجبى من الأراضى الزراعية فقد تكبد الفلاحون هذه النفقات التى قضمت ظهورهم فتخلصوا من اراضيهم سواء بالبيع أو الرهن أو تسليمها للاقطاعى نظير الحماية منه Commendatio مما أدى اختفاء الملكيات الصغيرة والمتوسطة التى هى الطاقة الخبيرة بفنون الزراعة واستغلال الرض وحل محلها الاقطاعيون الذين يتعيشون من تأجير اراضيهم وهم غائبون عنها (absent landlordism) اومقيمون فى المدينة ، أو كانوا يعهدون ادارتها الى وكلاء قلوبهم ليست على زيادة انتاج الأرض ، بل على استغلال العاملين عليها . ويدافع جونز عن نظريته القائلة بأن تدهور القوة العسكرية هو السبب الأساسى بأن الجزء الغربى

(١) Piiny, Historia Naturalis, vol, VI, 101

(٢) Westerman. op. cit., p. 370.

من الامبراطوريه سقط اولا لأنه كان أكثر معرضا للخطر من ناحية الراين والدانوب من النصف الشرقى ، ولأن مصادره الاقتصادية ارهقت بسرعة .ولم تعد قادرة على العطاء بالقدر الذى تحتاجه الامبراطورية للحفاظ على وجودها ولكن جونز يؤكد أن الانهيار فى القوة العسكرية ليس راجعة الى الارهاق الاقتصادى أبدا ولكن الى فقدان القدرة على الدفاع عن ولايات الامبراطورية . ويقول أن الاستعمار الرومانى ونظامه قتل احساس سكان الولايات بالانتماء الوطنى لتراب بلادهم وبوجوب حمايته والدفاع عنه واستسلموا لحكم الرومان ، تاركين مهمة الدفاع عنهم لجيش الامبراطورية . ولهذا لم تكن هناك مقاومة شعبية ضد المغيرين الأجانب لان الاحساس بالاعتماد على الجيش الامبراطورى اصبح متغلغلا فى نفسية هذه الشعوب ، بل أن روما حرمت على سكان هذه الولايات حمل الاسلحة خوفا من ان ترفع ضدها .

ويلقى جونز بعض اللوم على المسيحية لانها ساعدت على تزايد هذا الاحساس السلبى اما بارجاع كل ما يحدث الى ارادة الله التى يريد بها امتحان عباده المؤمنين فى التحمل والصبر ، أو الى دعوتها لرجالها بالابتعاد عن تولى الوظائف الحكومية تفاديا للخطيئة وحتى لا يوقع الاذى باخوته الأخرين مما حرم الادارة من عنصر نظيف وفى وقت ساد فيه الفساد والرشوة والابتزاز كل قطاعات الادارة البيروقراطية (١) .

ومن الجدير بالذكر أن رأى جونز يكاد يتفق فى جوهره مع الرأى القديم الذى فسر به جيبون تدهور وسقوط الامبراطورية والذى يجىء فى الجزء الرابع من كتابه حيث يشير الى ان الانحلال الذى اخذ يدب فى الامبراطورية بعد موت ماركوس أوريليوس عام ١٨٠ ميلادية مرجعه تفاقم خطر الهجمات البربرية التى انقضت على الامبراطورية فى الجزء الغربى وتسبب عنه تحول المجتمعات الرومانية فى هذه الولايات نحو الطابع البربرى واستنزاف للقوى البشرية الرومانية والاقتصاد الرومانى . كما أن انتصارات هذه القبائل البربرية زعزعت الايمان بالامبراطورية فى الداخل وكسرت هيبتها فى الخارج مما شجع المعتدين والطامعين فى التمادى فى العدوان . واخيرا يحمل جيبون المسيحية وزر كل ما حدث اذ اعتبرها

---

(١) Jones, loc. cit. pp. 9-18.

مثلا ينفى المؤرخ النمسوى دوبيش Dopsech ان الجرمان كانوا سببا فى انهيار الامبراطورية وان ما حدث لا يعدو أن يكون عملية اعادة توزيع للارضى على نطاق واسع حسب التقليد الرومانى وينفى أن استيطان الجرمان ادى الى انقطاع التجارة وعودة لاقتصاد البدائى .

cf. Momigliano op. cit., p. 6.

معاول هداما لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية ، فمن الناحية السياسية وقفت المسيحية موقفا سلبيا من نظام الامبراطورية القديم ولم تعترف بألوهية الامبراطور كرمز للسيادة الرومانية ووحدة كل شعوبها المتباينة عنصرا ودينا ، ومن الناحية الاقتصادية ثبطت المسيحية الهمم وقتلت الطموح بدعوتها لاتباعها فى صلاتهم الا يطلبوا من الرب سوى كفاف يومهم وفى نشر الزهد والتعفف عن العالم المادى الذى فى نظرها سوف ينتهى أجلا أم عاجلا لتبقى مملكة الرب الخالدة ، ومن الناحية العسكرية فان دعوتها الى المسالمة والاستسلام السلبى قتل روح الزهو الايجابى وقضى على الكبرياء القومى الذى هو المحرك الأول لطاقة الجنود وقدراتهم القتالية . كما يتهم جيبون المسيحية بأنها المسئولة عن تفكك عرى الوحدة الفكرية بعد انتشارها وذلك بسبب التطاحن بين المذاهب والفرق والطوائف مما أدى الى فوضى فكرية وبلبلة ايديولوجية شغلت الامبراطورية عن ميدان القتال فى وقت هو ذروة المحنة ، بل ان الطوائف المضطهدة دفعها سخطها الى التعاون مع العدو كما حدث عندما استقبل الدوناتيون فى شمال أفريقيا الغزاة الونداليين بالترحاب واعتبروهم محررين لهم من بطش الرومان وكما حدث عندما استقبل الاقباط العرب بالترحاب انقاذا لهم من البطش الدينى البيزنطى (١) . ولكن جيبون يعترف للمسيحية بشىء واحد هو انها خففت من حدة سقوط الامبراطورية لانها كانت قد هذبت من بربرية وسلوك الجرمان والقوط (٢) .

والشىء الوحيد الذى يختلف فيه جونز مع جيبون هو أن الأول أيد وجهة نظر أنصار المدرسة التاريخية ابان القرن التاسع عشر القائلة بعدم مسئولية الجرمان ولا القبائل الجرمانية عن سقوط الامبراطورية ، بل على العكس كان الجرمان اداة قوة فى قيادة وجيوش الامبراطورية . ويصف جونز كيف أن القادة الجرمان كانوا مخلصين فى خدمة الامبراطورية وان الجنود الجرمان كانوا المصدر الأول للتجنيد بعد ان نضبت العناصر اللاتينية بل يذهب جونز الى حد امتداح القدرة القتالية عند الجرمان (٣) .

---

(١) بلغ حقد الملكانيين الرومان ضد الاقباط المصريين انهم لم يعباوا بجيوش عمرو بن العاص عندما اقتحمت حصن بابليون فى السادس من ابريل عام ٦٤١ ، وضيعوا يوما كاملا من ايام المهلة الثلاث التى منحها لهم عمرو فى تعذيب الاقباط المسجونين فى الحصن ولما اخلوا الحصن ودخل العرب وجدوا هؤلاء المخلصين لعقيدتهم وقد انقطعت ايديهم وارجلهم وشوهت جثث قتلاهم .

(٢) E. Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV. (London 1901), pp. 160-163.

(٣) Jones, loc. cit., pp. 16-17.

ومن ناحية اخرى ينتقد المؤرخون الالمان آراء جيبون ويبينون كيف أن القبائل الجرمانية التى هاجمت الامبراطورية دفعوا الى ذلك دفعا بسبب اجتياح قبائل الهون السيبيرية وأن هدف الجرمان كان هو الاحتماء داخل حدود الامبراطورية وليس العدوان عليها . ويبين انصار المدرسة التاريخية الجرمانية ان الامبراطورية كانت تعرف الجرمان منذ وقت طويل ولها تاريخ فى التعامل معهم سواء فى السلم اوالحرب وأنهم كانوا عنصرا مفيدا منتجا سواء فى زراعة الارض أو فى الدفاع عن الامبراطورية ، وأنهم كانوا يحظون باحترام وتقدير الرومان لدرجة ان المؤرخ تاكيتوس أشاد بالجرمان ووصفهم بالشجاعة والاقدام وامتدح فضائل نسائهم بل وفضلهن على نساء الرومان فضلا عن تقدير الجرمان للحضارة الرومانية (١) .

اما آلدو موميليانو فينبرى للرد على هجوم جيبون على المسيحية واتهامه لها بانها كانت السبب وراء تدهور وسقوط الامبراطورية مشيرا الى ان المسيحية رسالة خيرة اصلاحية قصد بها صالح الانسانية،ومبادئها تقوم على التضحية والمساواة والسلام وقبل كل شيء المحبة حتى تجاه العدو ، كما أن المسيحية اصبح لها ثقافة انسانية حضارية هى التى حولت الجرمان من أجلاف برابرة الى أناس متحضرين ملتزمين باخلاق ومبادىء انسانية كسرت شراستهم وحدت من بربريتهم كما ان الكنيسة لم تقف موقف المتفرج او المنسحب من مشاكل الامبراطورية ، بل على العكس اذ كثيرا ما وقفت الى جانب الاباطرة ساعة الخطر وتوسطت بينهم وبين الجموع الغازية . ومن ينكر فضل الكنيسة الكاثوليكية فى الحفاظ على نقل التراث الرومانى واللغة اللاتينية عبر ظلام العصور الوسطى الى العصر الحديث . كما أن الامبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن سوى دعوة الكنيسة المسيحية (٢) .

ومن المدارس التاريخية التى تناولت بالتحليل اسباب سقوط الامبراطورية الرومانية مدرسة الصراع الاجتماعى اى المدرسة التى تفسر مسار التاريخ على انه صراع طبقى واجتماعى ويتزعم هذه المدرسة ميخائيل روستوفتزف Rostovtzeff وان كان تفسيره فى الحقيقة معتدلا الى حد ما بالنسبة الى غيره من المتطرفين لهذا التفسير .

يرجع رستوفتزف تدهور الامبراطورية الى الصراع الطبقى العفوى الذى نشأ بين البروليتاريا من سكان الريف والتى كان يؤازرها ويؤيدها

(1) Strayer and Munero, op. cit., pp. 25-8. lg. Momigliano, op. cit., p. 12.
(2) cf A. Mobiglano, op. cit., p. 12.

الجيش وزعماؤه ، وبين الارستقراطية الرومانية صاحبة الاقطاعيات الزراعة والتي كانت عادة تعيش فى المدن وتعيش على ما تجنيه من أراضيها دون الاشراف الصالح عليها ، ويؤيدها طبقة كبار الموظفين البيروقراطيين والذين كانوا يعيشون من رواتبهم الكبيرة التى كان يدفعها الفلاح المسكين من عرقه ودمائه . ويعزى روستوفتزف سقوط الامبراطور الى حركات الانقلابات العسكرية التى سادت أبان القرن الثالث الميلادى حيث اخذ قادة الجيش يقفزون على العرش وسط هتاف جنودهم لمدد قصيرة . ولما كان هذاالنوع من الاباطرةغير رومانى الاصل ولايعتمدعلى اى تأييدسوى البطش العسكرى فقد ابطلوا كافة المؤسسات الديمقراطية وجعلوا العرش وراثيا .

وقد ايد الجيش هذا التطوير لان البروليتاريا عادة يهيمن عليها التفكير الديماجوجى ، او لأن هذه العناصر التى جاءت من الطبقات غير الرومانية المحرومة لم يكن يعنيها الحفاظ على موازين الديمقراطية الارستقراطية الرومانية ، واقول الرومانية أى التى كانت وقفا على العنصر الرومانى وليس لرعاع الامبراطورية فيها أى دور خاصة أولئك الذين كانوا من ولايات غير لاتينية .

يعتبر عهد سبتيميوس سيفيروس الامبراطور الفينيقى السورى نقطة التحول الحقيقية نحو فقدان العنصر الرومانى والايطالى السيطرة على زمام الامبراطورية ، خاصة فى الجيش الذى لم يعد فى القرن الثالث رومانيا ، وكذلك منصب الامبراطور الذى كان يتولاه عادة قائد الجيش ، ونحن نعلم انه تولى بعد أسرة سيفيروس أسرة سورية أخرى دام حكمها حتى حكم الكسندر سيفيروس عام ٢٢٥ ميلادية ، ثم تولى اباطرة متنوعو العنصر (احدهم كان عربيا وهو فيليب ٢٤٤ — ٢٤٩) حكموا حتى مجىء الاباطرة الالليريين من كلاوديوس القوطى (٢٦٩م) حتى حكم قسطنطين، ثم سيطر بعد ذلك قادة الجيوش الجرمان والقوط ، اى أنه منذ حكم سبتميوس سيفيروس وحتى حكم قسطنطين لم نعد لا الأباطرة ولا الجيش ملكا للعنصر الرومانى والايطالى ، بل سيطرت عليه بروليتاريا الريف التى هى فى الاصل عناصر ساخطة تركت الارض مرغمة ، هربا من ظلم جباة الضرائب وخسارة الزراعة ولهذا كانت تحس بالمرارة والحقد ازاء الطبقة الارستقراطية صاحبة النفوذ الاقطاعى فى الزراعة ، وضد طبقة كبار الموظفين البيروقراطيين الذين كانوا يتسلمون رواتبهم الكبيرة من عرق الفلاحين الكادحين الممولين لضرائب الامبراطورية مقابل لا شىء سوى الظلم والتعسف . كما اصبحت المدينة فى نظر الريفيين ليس مركزا للنور والمعرفة والترقى ، بل

مركز السلطة والظلم ، ومعقل الارستقراطية وجامعى الضرائب من وكلاء الامبراطورية الممثلين فى اعضاء المجالس البلدية Curiales والذين سلكوا سلوكا تعسفيا ضد الفلاحين فى جمع الضرائب التى تطلبهـا الامبراطورية كاملـة .

ويرفض روستوفتزف بشدة راى أصحـاب فكرة الصراع السياسى اى الصراع بين السنـاتو ذو الاتجـاه الديمقراطى الجمهـورى ، وبين الامبراطور الذى اراد ان يسير السناتو فى ركابه وحسب ارادته ، بينما كان السناتو يرى العكس . ونشب هذا الصراع السياسى بالفعل ابـان الفترة المبكرة من تاريخ الامبراطورية والتى تنتهى عام ٢٣٥ م ، ثم ذبل السناتو . واصبح اعضاؤه على حد قول القائل « عبيد فى ارواب اسياد » . وخلاصة القول ان السناتو مات فى نفس الوقت الذى لم يعد فيه الجيش ممثلا للعنصر الايطالى ، ثم تحول الصراع الى مجال آخر بين الجيش ممثل الكادحين لكافة الاجناس غير الرومانية ، وبين الارستقراطية الاقطاعيـة الممثلة للجهاز الظالم الذى يمتص دماء الفلاحين . ودار هذا الصراع مريرا وقاسيا وانتهى بتدمير المدينة وانتصـار الريف بفكـره البسيط وحضارته الباهتة ، والتى شوهتها الاتجاهات البربرية الدخيلة ، ومن ثم صاحب هذه الظاهرة تدهور الحضارة الاغريقية الرومانية والتى كانت منذ وقت سابق قد بدا يصيبها الهزال والوهن بسبب غيـاب الخيـال الراقى والتجديد والابداع الفنى ، وبسبب التقليد الاعمى للقديم ، والركود والتحجر ، ثم الهبوط الى مستوى الاسفاف البربرى .

وبالرغم من هذا ينتهى روستوفتزف من نظريته بان هذا الصراع الطبقى المرير والذى نزفت منه الامبراطورية طويلا لم يات بفائدة واحدة على اى من الطرفين المتصـارعين . فمن ناحية دمرت المدن وفقدت رونقها ومركزها القائد ، وتدمر بعدها الاقتصاد الذى كان مركزه المدينة ، بينمـا لم تحقق البروليتاريا اى مكسب طبقى حسن من وضعها ، اذ بقـوا على اوضاعهم الاجتماعية البائسة والمزرية (١) والتى نحس بهـا من الوثـائق البردية ابان القرنين الرابع والخامس ، والتى تعكس صـدى المأسـاة الحقيقية . ويبدو أن وضع البروليتاريا الريفية ازداد سوءا عندما تولى الاباطرة الالليريون الذين فتحـوا الجيش امـام ابنـاء عنصرهم ، ولم يكن الالليريون الاجلاف لا يهتمون بشىء بقدر تحقيق الانتصارات العسكريـة وحماية وحدة الامبراطورية تحت سيادتهم . ولمـا جـاء قسطنطينوس

(1) M. Rostovtzeff, The Social and Economic History of the Roman Empire, (4th. edition Revised by P.M. Frazer, New York, Oxford University Press 1959), Volume 1, pp. 491-501.

بدات العناصر الجرمانية تسيطر على القيادة والحكم الفعلي للامبراطورية وخسرت البروليتاريا الريفية نفوذها .

وهناك فريق من المحللين الذى اعطو تفسيرات بيولوجية تعرف بالنظريات العضوية Organic Theories التى تشبه حياة الحضارات بدورة الحياة التى يمر بها النبات والحيوان والانسان والمتمثلة فى قانون الطبيعة الابدى الذى يسير بها من الولادة الى الطفولة ، ومن الشباب الى المشيب ، وينتهى كل شيء بالموت ويتزعم هذه المدرسة المؤرخ الالمانى المعاصر أوزوالد شبنجلر Oswald Spengler والتى عبر عنها فى كتابه الشهير Untergang des Abendlandes ، كما يأخذ بها ايضا الاستاذ اسكويث Asquith والذى يعلنها صراحة وبالحرف الواحد « أن خلايا الامبراطورية الرومانية وانسجتها قد بلغت نهايتها المحتمة كأى شيء حى (١) .

أما أرنولد توينبى فالبرغم من أنه يدين بالكثير الى شبنجلر فى بلورة نظريته الا أنه لم يرفض فكر شبنجلر الفلسفى الذى يعتبر المجتمع الحضارى كائنا حيا مثل باقى المخلوقات ، ويرفض الاخذ بفكر الاستمرار التوارثى بين الحضارات الآفلة والحضارات الوليدة ، وان الحضارات الوليدة ترث كل ما سبقها من الحضارات وليس سابقتها فقط ، وسمى ذلك بنظرية تلاقى الحضارات . ومحل اعتراض توينبى على شبنجلر ان هذا الاخير فيلسوف وليس مؤرخ (وهذه قضية قديمة قائمة بين الفلاسفة والمؤرخين حول فلسفة التاريخ) ومن ثم ركز توينبى بتخطيط المؤرخ القدير على المنهج التجريبى حيث بين أن المجتمعات ليس فى نظره سوى الذرات التى تكون فى مجموعها التاريخ . وأن تطور ونمو هذه المجتمعات الحضارية يقرر مصير الارادة الانسانية والزعامة المبدعة وليس الى القانون العضوى الازلى كما يقول شبنجلر واسكويث ، ويزيد توينبى على ذلك نظريته القائلة بأن هناك تحدى دائم challenge بين الطبيعة لابد وأن يقابله استجابة response يتوقف على أساسها طبيعة البنيان الحضارى للمجتمع فاذا كان التحدى ايجابيا ازدهرت الحضارة أما اذا كان التحدى سلبيا فانها تضمحل وتنهار (٢) .

وبناءعلى هذه النظرية يحلل توينبى سقوط الامبراطورية الرومانية بقوله أن

---

(١) H. Asquith, The lagacy of Rome (Oxford 192). chapter 1.

(٢) تدم الاستاذ فؤاد شبل عرض موجز لنظريات توينبى يمكن الافادة منه انظر فؤاد محمد شبل — منهاج توينبى التاريخى — سلسلة المكتبة الثقافية العدد ٢٠٩ (نوفمبر ١٩٦٨) .

الامبراطورية عندما وصلت الى أوج قمتها واجهت تحدى من البروليتاريا الداخلية وهى الجماهير الحاشدة التى يحكمها الاقلية المسيطرة بالعنف ، وكان رد البروليتاريا هو انها أولت ظهورها للدولة محاولة التنفيث عن آلامها باعتناق ديانات غيبية وآلهة جديدة مثل الالهة الشرقية ، وكانت النتيجة ان فشلت الحضارة الرومانية فى ترويض هذه البروليتاريا التى لم تجد فى الحضارة الرومانية الراقية أى مصلحة نفعية او واقعية . اما التحدى الثانى فمصدره الشعوب المحيطة بالامبراطورية مثل التراكيين واهل سكيثيا والفرس والعرب والجرمان وقد سماهم توينبى بالبروليتاريا الخارجية التى بالرغم من اعجابها وتقديرها للحضارة الرومانية الا أنهـا باتت تتربص بالامبراطورية المريضة وتسعى للانقضاض عليها وتقويض مجتمعها لتقيم عليه مجتمعات جديدة . وقد أدى عجز الحكومة الرومانية فى الاستجابة للتحديات من الداخل والخارج الى انهيـار الامبراطورية . وبعد فوات الاوان ظهرت الاستجابة ممثـلة فى المسيحية كديانة عالميـة لكل الاجناس . والمسيحية لم تأت من خارج الفضاء بل ولدت من رحم الحضارات القديمة ، وظهر نجاح الاستجابة فى خلق المسيحية لمجتمعـات جديدة أولها الحضارة المسيحية الغربية الحضارة الام لمـا نسميه الآن بالحضارة الاوروبيـة ، وثانيها الحضارة الارثوذكسية الشرقية من بيزنطة والتى كونت فيما بعد روسيا وجيرانها (١) .

وهناك فريق من المؤرخين يعزى انهيـار الامبراطورية الى عوامل عنصرية . ومن هؤلاء الاساتذة فرانكس الذى يفسر سقوط الامبراطورية بأنه نتيجة لطغيان الدماء الشرقية على الدمـاء الرومانيـة وهى فـكرة مرفوضة تماما لأن الحضارة الرومانية ذاتها ليس الا مزيجا من التراث الغربى وخلاصة تجارب الحضارات الشرقية القديمة وأن يوليوس قيصر تحدث عن عالمية الحضارة الرومانية وبالتالى عالمية الامبراطورية الرومانية، ناهيك عن قول توينبى فانه لا توجد حضارة الا وساهمت اجناس أخرى فيها ، وأن الحضارة ليست من خلق الجنس وحده ، بل نتيجة لتفاعله مع البيئة . ويبدو رأى فرانكس اكثر ضآلة عندما نبحث عن الطريقة أو التجربة التى توصل بها الى مثل هذا الراى ، فيقول انه أجرى دراسته على اسماء الموتى على شواهد القبور الرومانية ، توصل فيها الى أن نسبة المواليد فى الفترة الاخيرة من الامبراطورية كانت عشرة فى المائة رومان وتسعين فى المائة من غير الرومان ، ونتيجة لفقدان الصفات المميزة والموروثة للعنصر

---

(١) A. Toynbee A Study of History (Abrdgemeent) by D. Somervell (Oxford 1926), p. 402-412.

الرومانى وطغيان العنصر لشرقى عليهم فقد سادت القيم والمفاهيم الشرقية التى تظهر فى الاتجاهات الدينية وظهور التسلط والاستبداد على الطريقة الشرقية وتدهور التراث واللغة اللاتينية واختفاء القيادة الموهوبة الخلاقة (١) .

وقد ردت باحثة اثرية على المنهج الذى اتبعه فرانكس بأن دراسة الاسماء مضللة تاريخيا ، فالناس يطلقون على أبنائهم ما يشتهون من أسماء، ولم يحدث قط ان تقيد الاسم بالعنصر الوراثى الا فى حالات نادرة ، وتضرب مارى جوردون الامثلة بأن الاسياد كانوا يسمون عبيدهم أحيانا بأسماء رومانية ، بل أن العبيد المحررين كانوا يتخذون رسميا أسماء رومانية ؛ حتى وان قبلنا افتراض وجود علاقة بين الاسم والعنصر فان النموذج الدراسى المحدود (وهو ثلاثة قرون ممثلة فى ١٣٩٠٠ شاهد قبر) لا يمثل القطاع الحقيقى للمجتمع الرومانى بشكل علمى قاطع (٢) .

وقد هاجم كاتز Katz اصحاب التفسير العنصرى لسقوط الامبراطورية وهو أن التدهور كان نتيجة لاستنزاف العنصر الرومانى الراقى بسبب الحروب المتعاقبة وبسبب الانخفاض المتلاحق فى معدل المواليد بين الرومان الخالصين ، ويتساءل من قال أن الحروب المتلاحقة أهلكت العنصر الرومانى وحده ؟ خاصة أننا نعرف أن الرومان بدأوا يعزفون عن دخول الجيش منذ عصر أغسطس نفسه ؛ كما أن الحضارة الرومانية والثراء الرومانى لم يكن من خلق العنصر الرومانى وحده بل لقد ثبت أن الاباطرة الذين انخرطوا من عناصر غير رومانية كانوا أصدق وأخلص بكثير من غيرهم الذين ينخرطون من عرق رومانى خالص ، كما أن الافتراض القائل بأن الرومان الخالصين كانوا يضربون عن الانجاب او عن الاكثار فى الانجاب هراء اذ ليس هناك من دليل على أنهم كانوا يريدون لعنصرهم أن ينقرض (٣) . وقد هاجم « بيورى » هذا الزعم مؤكدا انه لا يوجد اى دليل على أن تعداد سكان ايطاليا فى القرنين الثالث والرابع كان اقل تعداد ابان القرنين الاول والثانى الميلادى ، ويردد ما ردده كاتز فيما بعد بأن موجات الاوبئة التى

(١) T. Franks «Race Mixture in the Roman Empire», American Historical Review, XXI (1916), pp. 140 ff.

(٢) Mary Gordon «Nationality of Slaves Under the Early Roman Empire». J.R.S., XIV (1924).

كذلك انظر رد Baynes على نظرية Nilson العنصرية

المماثلة : انظر J.R.S. 1943.

(٣) S. Katz, The Declne of Rome and the Rise of Medieval Europe, (Cornell 1963). p. 77 f.

عصفت بسكان الامبراطورية لم تكن بالخطيرة لدرجة ان نعزى اليها تدهور واضمحلال الامبراطورية (١) .

أما الاستاذ دى بورج فيخالف مدارس المحللين فى تحليله السياسى لسقوط الامبراطورية ، وذلك انه اتبع المنهج المباشر الذى لا يبحث عن جذور التحلل العميقة بل يعتبر اصلاحات ديوقلديانوس هى نقطة التحول نحو الانحدار والسقوط وهى نقطة يأخذ بها كثير من المؤرخين من غير أصحاب النظريات . وفحوى نظريته أن اصلاحات ديوقلديانوس جاءت بعكس المطلوب . فهو مثلا فصل بين السلطتين العسكرية والمدنية ولكن ذلك أدى الى ارباك الوضع الداخلى وخلق ثغرة فى الجهاز اتسعت لتصبح هوة قوضت الكيان الامبراطورى ، كما أن تقسيم الامبراطورية الى اربعة اقاليم وتقسيم كل اقليم منها الى عدد من الوحدات الادارية خلق ارتباكا فى الادارة وعرقل المصالح والاعمال وساعد البيروقراطية على التضخم لتصبح آفة قاتلة متغلغلة فى ادارت الامبراطورية وفى اعداد الموظفين التى ملئت الاجهزة الجديدة المعقدة ، فضلا عما تكلفته الامبراطورية من نفقات باهظة فى الاجور والمرتبات . ويلقى دى بورج على ديوقلديانوس مسؤلية الانهيار الاقتصادى لانه جعل الصناعات والحرف التجارية تحت الاشراف الحكومى والمباشر ، بل جعل هذه المهن وراثية محولا نقابات الحرفيين وجمعياتهم الى اجهزة خدمات تابعة للدولة فقتل الابداع والخلق ، وتحولت طاقة الامبراطورية من الديناميكية الدافعة الى الجمود والتحجر ، كما انه لم يحاول تخفيف عبىء الضرائب عن الطبقات الكادحة المنتجة مصدر السخط والثورة . اذا فجوهر اصلاحات ديوقلديانوس دفاعية وليست احيائية طموحة . عاد معظمها بالنتائج العكسية تماما والمثل على ذلك واضح فى فكرته الخاصة بتقسيم الامبراطورية الىشطرين شطر شرقى وشطر غربىوتعيين امبراطور على كل شطر يسانده نائب ، كان هدفه من ذلك هو منع قيام الصراع حول العرش وغرس مبدأ السلطة الجماعية ، ولكن الاحداث التى عصفت بالامبراطورية بعد اعتزاله عام ٣٠٥ وحتى تولى قسطنطينوس عام ٣٢٤ كانت كلها حول الاستئثار بالعرش والنزاع على السلطة ، بل واستمر ذلك حتىبعد وفاة قسطنطينعام ٣٣٧ عندما تولى العرش ثيودوسيوسعام ٣٥١ ثم اندلع بعد وفاة ثيودوسيوس واستمر حتى سقطت الامبراطورية نهائيا عام ٤٧٦ ميلادية (٢) .

تم بعون الله

---

(١) J. Bury, History of the late Roman Empire 395-565 A.D., vol. I (London 1923), pp. 308-318. = Katz, op. cit., p. 78.

(٢) W. De Burgh, The Legacy of the Ancient World, vol. II, (Middlesex 1953), p. 390. f.

مراجع وبحوث اضافية

لتاريخ الامبراطورية الرومانية *

*استثنينا من هذه القائمة المصادر والبحوث والمراجع التى أشرنا اليها فى هوامش الكتاب وخصصناها للمراجع والبحوث التى لم تذكر فى الهوامش اما لعدم وجود المناسبة أو لان بعضها وصل الى علم المؤلف بعد أن مثل الكتاب للطبع .

أولا ــ دراسات عن المصادر الأدبية لتاريخ الامبراطورية :

* M Grant, «The Ancient Historians, London, Weidenfeld & Nicolson 1970, paperback reprint 1974.

وهو مجموعة مقالات عن المؤرخين القدماء هيرودوت حتى أميانوس

* F. Millar : A Study of Cassius Dio, Oxford, The Clarendon Press, 1964.
* K. Buechner : Studien zur roemischen literatur, vol. IV, Tacitus und Ausklang, Wiesbaden, F. Steiner 1964.
* J. Tresch, Die Nerobuecher in der Annalen des Tacitus Tradition und Leistung. Heidelberg, Winter 1965.
* R. Hauessler, Tacitus und das historische Bewusstsein, Heidelberg. Winter 1965.
* A. Michel, Tacite et le destin de l'Empire, (Coll. Signes des temps), Paris, Arthaud 1966.
* J. Laugier, Tacite, (Coll. Ecrivains de touiours) Paris, ed., du Seuils 1969.
* M. Streng : Agricola, Das vorbild rœmischer stathalterschaft nach dem urteil des Tactius, Bonn, R. Habelt, 1970.
* R. Urban, Historische untersuchungen zum Domitianbild des Tacitus, diss Muenich 1971.
* W. Den Bœr, Rome a travers trois auteurs du IV Siedes, Mnemo Syne, XXI, 1968, p. 254-282.
* J. Matthews, Olympiodorus of Thebes and the history of the West (A.D. 407-425), Journal of Roman Studies, LX, 1970, p. 79-97.
* G. Clement, la Notitia Dignitatum. Cagliari. Ed., Sarda, Fossataro 1968.
* R. C. Blockley, Ammianus Marcellinus-A Study of his historiography and Political Thought, Collection Latomus 141, Brussels, Latomus 1975.
* T. D. Barns, Tertullian-A. Historical literary study. Oxford, The Clarendon Press. 1971.

ثانيا مصادر النقوش والبردى والنقود :

* R. G. Collingwood and R. P. Wright, The Roman Inscriptions of Britain, vol. I Inscriptions of stone. Oxford University Press, 1965.
* Alan Bowman, «Papyri and Roman Imperial History 1960-1975». Journal of Roman Studies, LXVI (1976) pp. 153-173

وهو مقال دقيق يبين [illegible] التواريخ وأسماء الأباطرة وتحديد السوانين وقد اسهمت وثائق البردي [illegible] في ذلك

* Ch. Ternes. les Inscriptions antiques du Luxembourg, Luxembourg, 1965.
* L. Maretti, Inscriptiones Graecae Urbis Romae, t. I, Rome Istituto Italiano per la storia antica 1968.
* C.H.V. Sutherland and R.A. Carson : The Roman Imperial Coinage, vol. VI, From Diocletianus reform (A.D. 294) to the Death of Maximinus Daia (A.D. 313), London Spink 1967 ; vol. VIII, by P. Brunn : Constantine and Licinius A.D. 313-337, (1966).

ثالثا : المصادر التشريعية والقانونية :

* R.F. Girard et F. Senn : Textes de droit romain, t. I, 7th edition, Pais, Dalloz, 1967.
* J. Gaudement, Institutions de l'Antiquite, Paris Sirey, 1967.
* F. De Martino, Storia della Constituzione romana, Roma 1965-1967.
* R. A. Bauman, Impietas in principem (Muenchen Beitrage 67) Munich, C. H. Beck, 1974.

وهو يناقش العلاقة القانونية بين الخروج عن التقوى ومخالفة القانون وذلك في ضوء بعض القضايا الهامة خاصة المتعلقة بالخيانة العظمى .

* J. Rougé, Les Institutions romaines (Coll. V. 2, no. 73), Paris, A Colin 1969.
* Hugh. Mason, Greek terms, for Roman Institutions, a Lexicon and Analysis (American studies in Papyrology, Vol. 13), Toronto, 1974.

مراجع عامة عن الامبراطورية والاباطرة

E.A. Albertini, l'Empire romain, deuxieme edition, Paris Presses Universitaires de France, 1970.

J. Cagè, Les Classes Sociales dans l'Empire romain Paris, Payot 1964.

M.I. Finley (editor) Studies in Ancient Society (Past and Present Series) Routledge and Kegan Paul 1974.

P. Petite, La Paix romain (Coll. Nouvelle Clio no 9). Paris Presses Universitaires de France, 1967.

P. Levêque, Empires et barbaries, troisieme Siecle av. J.C. au premier Siecle apres J.C. Paris, Larousse de poche 1968.

A. H. M. Jones, Augustus (Coll Ancient Culture and Society), London, Chatto and Windus 1970.

R. Etienne, Le Siecle d'Augustus (Coll. V. 2, no. 139), Paris, A. Colin 1970.

D. Earl: The Age of Augustus, New York, Crown 1968.

W. Schmitthener (Editor), Augustus, Darmstadt Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1968.

Theodoré W. Africa: Rome of the Caesars (Coll. New dimensions in history: Historical Cities, New York, John Wiley & Fils, 1965.

E. Meise: Unterschungen zur Geschichte der Julisch-Claudisch Dynastie (Col. Vestigia, Band 10), Munich 1968.

D. L. Henning, D. L, Aelius Seianus, Unterschungen Zur Regierung des Tiberius (Vestigia Beitraege Zur alten Geschichte. 21) Munich, Beck 1975.

P. A. L. Greenhalgh. The Year of The Four Emperors, London Weidenfeld & Nicolson 1975.

De Timpe: Der Triumph des Germanicus, Bonn. R. Habelt, 1968.

D G. Weingaertner, Die Aegyptenreise des Germanicus, Bonn, R. Hablet 1968.

E. Meissner: Sejan, Tiberius und die Nachfolge in Prinzipat, Erlangen J. Hogel 1968.

W. Orth, Die Provinzialpolitik des Tiberius, diss Muenchen, 1970.

Robia Seager: Tiberius, Eyre Methuen 1972.

B. H. Warmington, Nero: reality and legend (Coll Ancient Culture and Society), London Chatto and Windus 1969.

E. Cizek, l'Epoque de Neron et ses Controverses idealogiques. (Roma aeterna, 4) Leiden, E. J. Brill 1972.

J. Rs. LXVI, 1976, p. 229.

وهو كتاب شيق لكنه لم يأت بجديد

M. Grant Nero: London, Weidenfield and Nicolson 1970.

P. Petite: Le premier siecle de notre ere (Coll. V. 2, no. 47), Paris A. Collin 1968.

M. Speidel: The Captor of Decebalus: a New Inscription from Philippi, J.R.S., [illegible], 1970 p. 142-153.

Alföldi: Studien zur Geschichte der Weltkrise des 3 Jahrhunderts nach Christus, Darmstadt 1967.

- P. Petit, Histoire generale de l'Empire romaine (l'Univers historique) Paris, edition du Seuil 1974.
- G. Lopuszanski, la date de la Capture de Valerian et la Chronologie des empereurs gaulois (Cahier de l'instiut d'etudes polonaise en Belgique 9), Bruxelle 1951.
- J. Goudy : La Chute de l'Empire Romain (Coll. il ya toujours un reporter) Paris Julliard 1967.

ابحاث وكتب لبعض جوانب خاصة
فى الامبراطورية الرومانية

عن صور وشعارات والقاب القياصرة :

- Alloeldi : Die monarchische Representation in romischen Kaiser-veiche, Darmstadt, Wissenschofliche, Buchgesellschaft 1970.
- P. Kneissel : Die Siegesetitulai der roemischen Kaiser, Untersuch-[illegible], Goettingen, Vandenhoeck und Ruprecht, 1969.

عن نظام حكم المواطن الاول وأصوله :

- P. Herrmann, Der roemische. Kaisereid. Untersuchungen zu seiner Herkunft und Entwicklung, Goettingen, Vandenhoek and prinzipatideologie (Koelner historische Abhandlung 18) Koeln-vienna, Boehlau 1970.
- Kloft, Liberalitas principis : Herkunft und Bedeutung. Studien zu Ruprecht, 1968.

عن مجلس السناتو ووضعه وشخصياته البارزة فى صدر الامبراطورية .

- A. Bergener : Die Fuehrende Senatorenschicht in Fruehen pinzipat (14-68 [illegible] christ), Bonn Habelt 1965.

عن المرشحات والتزكيات الامبراطورية لبعض الشخصيات ومشروعية [illegible] (Commendatio Imperiale)

- R. Frei-Stolba : Unterzuchungen zu den Wahlen in der roemischen Kaizerzeit. diss Zurich, Juris Verlag 1967.

عن [illegible] الاباطرة فى صدر الامبراطورية [illegible] :

- Le culte des S[illegible] dans l'Empire romaine [illegible] l'anti-quete Classique [illegible]

عن الشخصيات البارزة وكبار الموظفين فى الفترة ما بين فسباسيانوس وحتى حكم هادريان :

* W. Eck, Senatoren von Vespasian bis Hadrian, Prosopographische Untersuchungen mit Einscluss der Jahres und Provinziafa-sten der Statthalter (Vestigia 13), Munich, C.H. Beck 1970.

عن الاجراءات المتبعة من اجل الحصول على مقعد فى السناتو فى عصر اغسطس وحتى عام ٧٣ م .

* A Chastagnol, Recherches sur l'histoire Auguste Bonn 1970.

عن العلاقة بين الوضع الاجتماعى والمراكز السياسية وتطور ذلك بالنسبة للسناتو حتى القرن الرابع الميلادى .

* Recherches sur les structures sociales dans l'Antiquite Classique, Paris, C.N.R.S. 1970.

عن الادارة والحكم المحلى فى المقاطعات والولايات والتطور فى منح الجنسية الرومانية :

* Essais Critiques (Publication de l'Institut de Droit romain de Ch. Saumogne, Le droit Latin et les cites romaines sous l'Empire. de l'Universite de Paris XXIII), Paris Sirev 1965.

عن الدستور الانطونينياتى انظر : *

* Ch. Saumagne : Quelques observations sur la constitutio Antoniniani, Melanges. J. Carcopino, Paris Hachette, 1966.

وفيه يعيد تفسير القانون بأنه كان يعنى منح الاجانب الحقوق اللاتينية الرومانية وهذا تفسير اعترض عليه العلماء . وعن الجنسية الرومانية وقضيتها :

* W. Seston, La Citoyennete romaine, Actes du XIIIème Congres international des Sciences historiques, Moscow 1970.

وعن المجالس المحلية فى الولايات الرومانية خاصة فى افريقيا فى القرن الثالث الميلادى وما بعد انظر :

* T. Kotula, Les assemblees provinciales dans l'Afrique, societé des sciences et des lettres de Worclaw no. 108, Worclaw, 1965.

وهو بحث مكتوب بالبولندية لكنه مشفوع بملخص بالفرنسية .

* J. Deimager, Der Provinziallandtage der roemischen Kaiserzeit. Von Augustus Bis zum Ende des dritten Jahrhunderr nach Christ (Vestigia 6), C.H. Beck, Munich 1965.

عن الادارة الدينية لولايات الامبراطورية الغربية :

* D. Ladage, Stadtische Priester und Kultaemer im Lateinischen Westen des Imperium romanum zur Kaiserzeit diss, cologne, 1971. 1971.

العتقاء والعبيد ووضعهم الاجتماعى ودورهم المهنى والاقتصادى فى الامبراطورية الرومانية :

* G. Boulvert. Esclaves et affranchis Imperiaux sous el Haut Empire romain : rôle politique et administratif, Naples, Jovene 1970.

* H. Chantraine : Freigelassene und Sklaven in Dienst der roemischen Kaiser, Studien zur ihrer Nomenklature (Forschngen zur antiken Sklaverei I) Wiesbaden, F. Steiner 1967.

وعن دراسة سكانية للعبيد من خلال شواهد القبور الخاصة بهم انظر :

* G. Fabre : La démographie des esclaves et affranchis imperiaux (Thèse de 3 ème Cycle) Bordeaux, 1970.

* R. Etienne et G Fabre : Demograhie et classe sociale l'example du cimitiere des officiales de Carthage, Recherches sur les Structures Sociales dans l'Antiquite classique, Paris C.N.R.S. (1970)

وعن الدراسة الديموجرافية لسكان الامبراطورية انظر :

* P. Salmon : Population et depopulation dans l'empire romaine, Collection Latomus 137, Bruxelles, 1974.

الاقتصاد فى المجتمع الرومانى : الزراعة والتجارة والتكنولوجيا المهنية :

* G. Charles Picard et J. Rougé : Textes et documents relatifs à la vie économique et sociale dans l'Empire romaine 31 av. J.C.- 225 apres J.C.), (Coll. Regards sur l'histoire), Paris 1969.

M.I. Finley : The Ancient Economy, Chatto and Windus, London 1973. [= cf J.R.S, LXV, 1975 pp 164-171 (M.W. Frederisken]

وهي دراسة دقيقة للاقتصاد الاغريقي والروماني عامة من ناحية راس المال ، والعمل والعمال والاستثمارات والتسويق واحتياطي النقد فضلا عن الطبقات الاجتماعية بصورة مقارنة مثل السادة والعبيد ، ملاك الاراضي والاجراء الزراعيون ، المدن والقرى .. الخ وعن الاتجاه الحديث في دراسة اقتصاد الامبراطورية انظر :

Duncan-Jones : The Economy of the Roman Empire, University of Cambridge Press 1974.

A.H.M Jones, The Roman Economy : Studies in Ancient Economic and adminstatrative history, edited by B. Brunt, Oxford Blackwell 1974.

وهو آخر كتاب صدر للعالم الراحل وهو تجميع لبعض مقالاته التي سبق ان نشرها عن الاقتصاد الروماني خاصة في فترة التدهور وقد اعتمد على مصر كثيرا وقد قام الاستاذ برنت باضافة كثير من الملاحظات والحواشي .

وعن فن الزراعة واقتصادها في الامبراطورية انظر :

K.D. Whiter, A bibligraphy of Roman agriculture, University of Reading, Institute of Agricultural History 1970.

K.D. White, Agricultural implements of the Roman World, Cambridge University Press 1967.

عن الصناعة وتنظيم العمل المهني وفلسفة الاقتصاد :

N. Brockmeyer, Arbeitsorganisation und œkonomisches Denken in der Gutswirtschaft des rœmischen Reiches, Bochum Brockmeyer 1968.

R. Martin, Recherches sur les agronomes Latins et leur conceptions économique et sociales, Paris, Les Belles Lettres, 1971.

J.P. Wild, Textile manufacture in Northern Roman Provinces, Cambridge Unversity Press 1970.

عن العبيد كطبقة مهنية وحرفية تقوم عليها الصناعة الرومانية انظر :

F. Kiechle : Sklavenarbeit und teknischer Fortscritt in rœmischen Reich (Forschungen zur antiken sklaverei, III) Wiesbaden. F. Steiner 1969.

R.J. Forbes, Studies in Ancient Technology, vol. i à IX, Lyben, Bril 1965. Brill 1965.

عن دور العبيد في الصناعة والنقل انظر :

P. Vigneron, Le cheval dans l'Antiquite greco-romaine, des guerres mediques aux grandes invasions, Contribution à l'histoire des technique (Annales de l'Est Nancy, Faculté des lettres, 1968.

عن السياسة النقدية للامبراطورية منذ التدهور حتى اصلاحات ديوقلديانوس وقسطنطينوس :

J.P. Callu, La politique monetaire des empreurs romains de 238 à 311 A.D (Bibliotheque des Ecoles Francaises d'Athenes et de Rome. Fasc. 214), Paris E. de Boccard 1969.

عن النقود البرونزية والفضية التى سكت فى ولايات آسيا الصغرى الرومانية :

Robert, Monnaies grecques : types, Legends, magistrats : monétaires et geographie, Genéve, Paris, Droz et Minard 1967.

عن التجارة فى البحر الابيض المتوسط وتنظيمها فى عصر الامبراطورية :

B.J. Rougé : Recherches sur l'organisation du Commerce martime en Mediteranée sous l'Empire romain. Paris, 1966.

عن طريق التجارة فى عصر الامبراطورية الرومانية :

M.P. Charlesworth : Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge 1926.

عن تجارة التوابل بين الشرق والامبراطورية واستنزاف الشرق للذهب الامبراطورية :

Innes Miller : The Spice trade of the Roman Empire : 29 B.C. to 641. A.D., Oxford, The Clarendon Press 1968.

عن البحرية الرومانية :

L. Casson, Ships and Seamanship in the ancient world. Princeton, University Press 1971.

: الجيش والعسكرية الرومانية :

H.G. Pflaum, Forces et faiblesses de l'armée romaine du Haut-Empire (Problèmes de la guerre à Rome), Paris Mouton 1969.

E. Gabba, Per La Storia del esercito romano in eta imperiale (il mondo antico 3) Bologna 1974.

Robert. O. Fink: Roman Military Records on Papyrus [The American Philological Association, Monograph 26], 1971.

G. Webster. The Imperial army of the mst and Second centuries A.D. London, Charles Black 1969.

عن الجيش فى الفترة المتأخرة من تاريخ الامبراطورية الرومانية ونوعية الضباط والجنود :

D. Hoffmann, Das Spaetroemisehe Bewegungshecr und die Notitia Dignitatum, 2 vols, (Epigraphische studies 7) Dusseldorf, Rheinland, Velag 1969.

عن المزايا الاجتماعية لدخول الجيش للفرد ولابنائه من بعده :

B. Dobson : The Centuriate and Social mobility during the prin-ciate, Recherches sur les structures sociales dans l'Antiquite classique, p. 99-116.

عن تطور فكرة القوات الخاصة :

R. Saxer : Untersuchungen zu en Vexillationem des rœmischen Kaiserheeres Von Augustus bis Diokletian (Epigraphische Studien 1), Koeln, Boehlau 1967.

E.W. Marsden., Greek and Roman artillery, Historcal development Oxford, The Clarendon Press, 1969.

وهو كتاب شامل لتطور الجيوش فى بلاد اليونان خلال العصر الكلاسيكى وخلال العصر الهللينستى ويعالج الجيش الرومانى فى عصر الجمهورية ولكن الفصل الثامن من هذا الكتاب (حوالى ٢٥ صفحة) تعالج الجيش الرومانى فى عصر الامبراطورية : وحتى القرن الرابع الميلادى :

M. Durry : Les cohortes prétoriennes, 2 ed,i,tion, Paris 1968.
A. Fries, Die, Cohortes urbanae (Epigraphische Studien 2), Cœln-Graz, Bœhlau, 1967.

M. Spiedel : Die Equites Singulares Augusti, Begleitrippe der roemischen Kaiser der Zweiten, und dritten Jahrhundert (Antiquitas, Reihe I, Band II), Bonn, R. Habelt 1965.

عن البحرية الحربية الرومانية ولمعارك القليلة التى خاضتها انظر :

D. Kienst, Untersuchungen zu den Kriegsflotten der roemischen Kaiserzeit, (Antiquitas Reihe I, Band 13), Bonn R. Habelt, 1966.

الديانات والعبادات المختلفة فى ولايات الامبراطورية :

J. Beaujeu et J. Defradas et H. Le Bonniec : Les Grecs et les Romaines (Trésor Spirituel de l'humanite) Paris Ed. Planete 1967.

M. Le Clay, La religion romaine (Coll. V. 2, no. 168), Paris A. Colin 1971.

عن انتشار عبادة ايزيس وسيرابيس وهاربوكراتيس (الثالوث السكندرى) فى أرجاء الامبراطورية انظر دراسات فيدمان واهمها :

L. Vidman : Syllcge Inscriptionum religionis Isiacae et Sarapiacae Religionsgeschichtliche versuche und vorarbeiten, Band 28), Berlin. W. de Gruyte, 1969.

Isis und Sarapis bei den Griechen und Romern (Epigraphische Studien zur Vebreitung und zu den Tragern des aegyptischen Kultes, Band 29), Berlin 1970.

J. Leclant, Bibliographique des Isiaca. Repertoire analytique d travaux relatifs à la diffusion des cultes isiaques, Leyden, Brill 1972.

M. Muenster : Untersuchungen zur Goettin Isis, Berlin 1968.

وكذلك مقالة C.B. Welles Historia, II (1962) من ص ٢٧١ — ٢٩٨ التى فيها يخرج برأى جديد وهو ان سيرابيس من خلق الاسكندر نفسه وليس من خلق البطالمة وقد رد العلماء بشدة على هذا الادعاء بالرفض :

H.W. Mueller : Der Isiskult in antiken Beneuent und Katalog der Skulpturen aus den aegyptischen Heigtuemern in Musco del Sannio zu Bevévent (Muenchener Aegytologische Studien, 16). Berlin 1969 ; I Becher : Der Isiskult in Romee. Ein Kult der Habwelt ? (Zeitschrift für Aegyptische Sprache und Altertumskunde, 96 (1970), p. 18-90 ; Theodor Kraus : Alexandrinischen Triaden der roemischen Kaiserzeit. Mitteilungen des Deutschen Archaeologischen Instituts. Abteilung Kairo 19, 1963.

A. Bernard : Influence de l'Egypte et innovation d'Eschyle dans la repesentaton d' Io. Annals of the Faculty of Arts Ein Shams University, III, Cairo, 1955, p. 77-103. ; G. Grimm : Die Zeugnisse aegyptischen Religion und Kunstelmente in rœmischen Deutschland, Lyden, 1960.

وعن زيارة فسباسيانوس الى معبد سيرابيس بالاسكندرية انظر :

Derchain et J. Hubeaux, Latomus, XII, 1953, p. 38 52.

اما عن زيارة هادريانوس الى معبد سيرابيس انظر :

S. Follet, Hadrien en Egypte et en Judea, Revcue de Philologie, XLII, 1968, p. 54-77.

وعن تاثير عبادة ايزيس على الديانة المسيحية انظر :

Baltrusaitis, «Essai sur la legende d'un mythe. La Conquete d'Isis. (Introduction à l'egyptomanie edit. O. Perrin), Paris 1967

عن عبادات الشرق الاخرى وتسللها الى شعوب الامبراطورية انظر المراجع الآتية :

فى سلسلة كتب :

«Etudes preliminaires aux religions orientales dans l'Empire romain»

واهمها :

M.J. Vermasern : The Legends of Attis in Greek and Roman art (1966) ; A. Leroy Campbell : Mithraic iconography and ideology (1968) ; R. du Mensil Du Buisson, Etudes sur les dieux phéniciens herités par l'Empire romain (1970) ; M. Floriani Squarcapino : i culti orientali ad Ostia (1962) ; E and J Harris : The Oriental cult in Roman Britain (1965) ; L. zotovie : Les cultes orientaux sur territoire de la Mésie supetieure (1966) ; W. Blawatsky et G. Kochelenko : Le culte de Mithra sur la côte septentrionale de la mer Noire (1966) ;

R. Turcan, Mithras Platonicus, rescherches sur l'hellenisation Philosophique de Mithras (etudes Preliminaires aux religions orientales dans l'Empire romaine, 47) Leiden Brill 1975.

A. Garoia Y. Bellido, les religions orientales dans l'Espagne romaine (1967) ; R. Salditt-Trappmann : Tempel der aegyptischen Goetter in Griechenland und in der Westkueste Kleinasiens (1970).

عن تاريخ الديانة اليهودية والمسيحية فى الامبراطورية الرومانية :

M. Meslin, Le Christianisme dans l'Empire romain, Paris Prsses Universitaires de France 1970 ; M. Meslin et J. Polanque, Le Christianisme antique, Paris, A. Colin 1967 ; M. Simon et A Benoit, Le Judaïsme et le christianisme antique, Paris, Presses Universitaires de France (1968), A. Hamman, La vie quotidenne des premiiers chrétiens (95-197) Paris, Hachette, 1971.

عن سياسة القمع والاستئصال والاضطهاد الرومانى للمسيحية انظر :

R. Freudenberger, Das Verhalten der roemischen Behœden gegen die christen im 2 Jahrhundert, (Muenchner no. 52) Munich, C.H. Geck 1967 ; W.H.C. Frend, Martyrdom and persecution in the early church. A study of a conflict from the Maccabees to Donatus, Oxford Blakwell, 1965.

وعن انتشار المذهب الاريوسى فى الغرب الرومانى انظر :

M. Meslin, les ariens, d'occident (335-430 A.D.), Paris, Ed. du Seuil 1967.

وعد قيام مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزية) انظر :

W H.C. Frend, The Rise of The Monophysite Movement, Cambridge University Press, 1972.

واخيرا عن سياسة الاضطهاد المسيحى التى قام بها الاباطرة المسيحيون ضد المهرطقين واليهود والوثنيين فى القرن الرابع انظر :

K.L. Nœthlichs, Die gesetzgeberischen Massnahmen der christlischen Kaiser des vierten Jahrhunderts gegen Haeretiker, Heiden und Juden, diss. Kœln, 1971.

الفكر التاريخى والسياسى والقانونى فى عصر الامبراطورية :

S. Mazzarino : il pansero storico classico, III : l'età romana imperiale, Bari Laterza, 1966 ; A. Momigliano : Studies in historiography, London. Weidenfeld and Nicolson 1966 ; A. Michel.

la philosophie politique à Rome d'Auguste à Marc-Aurele (Coll. V) Paris Collin 1969 ; J. Briddet, Les idées politiques des Lucain, Paris Belles Lettres 1964 ; D. Gliardi, Lucano Pœta della Liberta. Naples, Loffredo 1968 ; R. Turean Sénèque et les religions orientalees (Coll. Latomus, vol. 91). Bruxelle 1967 ; Sherwin-White : The letters of Pliny : a historical and social commentary, Oxford, The Clarenden Press, 1966 ; J. Schwartz, Biographie de Lucien de Samosate (Coll. Latomus, vol. 83) Bruxelle 1965 ; T.D. Barnes, Tertulian : A. historical and literary study, Oxford University Press 1971 ; R. Klein : Tertulian und das rœmische Reich, Heidelberg, Winter 1968 ; C. Dragon l'Empire romain d'orient au quartrieme siècle et les tradition politiques de l.hellenisme, Le temoignage de Themistos (Travaux et Memoires du centre de Recherch d'histoire et civilization byzantines III) Paris E. de Boccard 1968.

عن القانون الرومانى ونصوصه فى عصر الامبراطورية انظر :

J.A. Grook, Law and life in Rome (Aspects of Greek and Roman Life), London, Thames and Hudson, 1967.

عن العقود وشروطها انظر :

S.E. Winner : Contractus. Sein wortegebraurch und Willensgehalt im Klassischen rœmischen Recht, 19) Koeln-Graz Boehlau 1964.

وعن التعويضات وتقديرها حسب ظروف الحادثة انظر :

H. Honsell : Quod interest in bonae — Fidei — iudicium (Muenchener Beitrage zur Papyrusforschung und antiken Rechtsgeschichte, 55) Munich C.H. Beck 1969.

وعن شروط المقاضاة والخصومة فى القانون انظر :

F de Marini Aronzo, I limiti alla disponibilita della «res litigiosa

وعن طبيعة التحكيم الدولى فى صدر الامبراطورية انظر :

M. lemosse Le, regime des relations internationales dans Le HautEmpire romain (Publications de l'institut de Droit romain de l'Univ. de Paris. 23) Paris, Sirey 1967.

عن تعاقد الدولة على استئجار عقارات من الافراد عن طريق وكلائها انظـر :

C. Alzon, Problème relatifs à la location des entrepots en droit romaine, Paris. Ed. Cyja 1965.

وقد يساعد على فهم هذه القضية استئجار الصوامع والمخازن انظر :

G. Rickman : Roman granaries and store buildings, Cambridge University Press 1971.

وعن المواصفات والشروط الخاصة باقامة المبانى والمنشآت العامة انظر :

Y. Jannier : La legislation du Bas-Empire romain sur les edifices publics (Publications des Annales de la Faculté des lettres d'Aixe Aixe-en Provence, la pansée Universitaire 1969.

وعن قانون واجراءات رفع الدعوى فى المحاكم الرومانية انظر :

J.M. Kelly : Roman litigation, Oxford The Clarender. Press 1966.

وعن تطور ذلك فى عصر جستينسان انظر :

D. Simon : Untersuchungen zum Justinianischen zivilprozes (Papyrusforschung und antiken Rechtsgeschichrte, 54) Munich. C.H. Beck, 1969.

الفنون والآثار :

وللمهتمين بطبيعة الفن الرومانى واثره وطبيعته فى عصر الامبراطورية يمكن الرجوع الى الدراسات التالية :

G. Picard, Empire romain (Architecture Universelle) Freibourg 1965, W.L. MacDonald ; The Architecture of the Roma

Empire — A introductory Study, New Haven, Yale University Press, 1965 ; R. Biandinelli, Rome Le Centre du Pouvoir, Paris Gallimard 1969 ; also his : Rome, la fin de l'art antique ; H. Kaehler Der rœmische Tempel, Berlin 1970.

وعن الدراسات التفصيلية لبعض الآثار الكبرى فى روما انظر :

B. Brilliant : The Arch of Septimius Severus in the Roman Forum, Rome, Te American Academy in Rome 1967 ; Wataghin-Cantino, La Domus Augustana, personalità probleini dell architettura Flavia, Turmo, Giapechelli, 1966 ; P. Zanker Forum Augustum. Tübingen 1968 ; K. de Fine licht : The Rotunda in Rome : A Study of Hadrian's Pantheon, Selkab, 1968 ; P. Fidenzoni, il teatro di Marcello, Roma, 1970 ; G. Cozzo, II Colosseo, Roma. Palombi, 1971 ; Scott Ryberg : Panel reliefs of Marcus Aurelius, New York : Archaeological Institute of America 1967 ; H. Stern : La mosaïque gercoromaine, Paris, 1965.

اما عن العمران الرومانى فى الولايات خاصة افريقيا وولايات الشرق الاوسط انظر :

L. Homo : Rome lmperiale et l'urbanisme dans l'Antiquité, 2 edition Albin Mchiel 1971 : M. Wheeler : Roman Africa, London Thames and Hudson, 1966 ; M. Rachet, Rome et les Berbéers. Un probléme militares d'August à Diocletien (Coll. Latomus, vol. 110), Bruxelle 1970 ; cf. Actes du congrès d'Halle, Africa und Rom in der Antike, editédby H.J. Dieser, H. Bath and H.D. Zimmermann, Halle Wittemberg, Martin Luhther Universitaet, 1968-9.

اما عن شمال افريقيا انظر :

H.G. Pflaum : La romanisation de l'ancien territoire de Carthage punique à la Africaines, IV, 1970 ; A. Beschaousch : Mustitana, Recueil des nouvelles inscription's de Mustis, citd. Squarciapino : Leptis Magna. Bâae Raggi 1966 ; P.A. Fevrier, romaine de Tunisie, Carthago, XIII, Paris 1968 ; Oaks Center for Byzantine Studies, washington, 1973-1974.
Tunis Institut national d'Archeologie et d'Art and Dumbarton Corpus des Mosaique de Tunisie, Edit. M A. Alexandre & Ennaifer,

M. Floriani Art d'Algerie antique, Paris de Boccad 197٦ ; M. Le Clay. Saturne Africain : monuments, 2 vols, Paris 1961-1966, also cf. his Saturne africain, histoire (Bibliotheque des Ecoles Francaises d'Athenes et de Rome, Fase : 205) Paris de Boccard 1966.

وعن تدهــور الحضـــارة الرومانية فى شمال افريقيــا مع تدهــور الامبراطورية انظر :

H.J. Diesner : Der untergang der rœmischen Herrschaft in Nord-afica, Weimar, Boehalu 1964. also G. Charles Picard : La Carthage de Saint Augustin (Coll. Résurrection du passé) Paris,

وعن المسلات المصرية فى روما انظر :

G. Panimolle, Gli obelischi di Rome antica, Stadeini 1965.

اما عن جسور المياة فى روما القديمة انظر لنفس المؤلف :

Gli acquedotti di Roma antica, Milano 1970.

وعن الحياة اليومية فى مدينة بومبى القديمة على ضوء آثارها انظر :

R. Etienne, la vie quotidinne a Pompei, Paris, Hachelte 1966.

دراسات حديثة عن ولاية الامبراطورية الغربية والشرقية :

(١) بلاد الغــال :

P.M. Duval, La Gaule Jusqu'au milieu du cinquiéme Siecle (Les Sources de l'histoire de France, t. 1) Paris, Gaule romaine de 120 av. christ au 451 apres christ — Colonisation ou Colonialism ? Paris, Payot, 2 edition 1966 ; M. Bordet, La Gaule romaine Paris, Bordas 1971; M. Audin, Levon, miroir de Rome dans les Gaules (Coll. Resurrection du passé Paris, Fayyard 1965 ; E.M. Wightmann : Roman Trier and the Treveri, London, Rupert Hart-Davis 1970.

(٢) المــانيا :

B. Ruger : Germania Inferior : Untersu-chungen zur Territo ial und Verwaltugs gethichte Niedergermaniens in der prinzipatszeit.

Cologne, Bœhlau 1968 : G. Alfoeldy : Die Legionslegaten der roemischen Rheinarmeen (Epigraphische Studien, 3) KoelnBœhlou 1967, also by the same author : Die Hilfstruppen der roemischen Povinz Germania inferior (Epigr. Studieen, 6) Dusseldrof Rheinland-Verlag 1968. P. La Baum : Die Roemer am Rhein : Bonn W. Stollfuss 1970.

(٣) بريطانيا :

G. Simpson : Britons and the Roman army — A Study of wales and the Southern Pennines in the lst-III rd. Centuries. London The Cregg Press 1964 ; P. Salway : The Frontier People of Roman Bitain, Cambridge Univ. Press 1965 ; D.R. Wilson : Roman Frontier of Britain, London, Heinemann 1967 ; I.D. Margary Roman roads in Britain, New York, Humanities Press 1967 ; A.L.F. Rivet : Town and Country in Roman Britain, London Hutchinson University Library 1968 ; also by the same author : Roman Villa in Britain, London Routledge and Kegan Poul 1969.

(٤) اسبانيا :

G. Alfoeldy : Fasti Hispanienses — Senatorische Reichsbeante und offiziere in den Sapnischen Provinzen des roemischen Reiches, Von Augustus bis Diokletian. Wiesbaden, F. Steiner 1969. aslo. Madrid's Colloquium on the Roman Emperors of Spain, 31 Mars — 6 th April, 1964). Paris 1965. ; J.M. Blazquez : Estrctura economicay social de Hispania durante La Anarquia military el Bajo Impeerio, Madrid, Facultad de Filosofia letras de la Univeritad Madrid 1964. also cf., Estructura economica de la Betica al Final de la Republica romanmny a comienzos del impero (anos 72 a.c. — 100) Hispama XXVII, 1967, p. 7-62.

(٥) البلقان والدانوب وبلاد اليونان :

G.J. Wikler : Die Reichsbeamten Von Noricum und ihr personal bis zum Ende der roemischen Herrschaft, Vienna Boehlau,

1969, J.J. Wilkes : Dalmatia (History of the provinces of the Roman Empire), London, Routledge and Kagan Paul 1969; A. Dobo, Die verwaltung der rœmischen Provinz Pannomen Von Augustus bis Diocletianus, Amsterdam, Hakkert 1968.; S. Mrozek, Les mines d'or de la Dacie au deuxieme siecle : aspects sociaux et administratifs (in polish but with a French resumé) Torun 1966.; Ph. Bruneau, Recherches sur les cultes de Delos à l'epoque hellenistique et a l'epoque impériale (Bibliotheque des Ecoles Francaise d'Athenes et de Rome, Fasc. 217) Paris. E. de Boccard, 1970.

(٦) آسيا الصغرى وسوريا ومصر :

P.R. Frank, Kleinasien zur Rœmerzeit. Griechisehes Leben in Spiegel der Muenzen, Munich, C.H. Beek 1968.; B. Levick, Roman Colonies in Southern Asia Minor, Oxford, The Clarendon Press 1967; Clark Hopkins, (Ed.) Topography and Architecture of Seleucia on the Tigris, Ann Arbor, University of Michigan, 1977.

J. Ch. et M. Sournia. L'Orient des preimers chrétiens Histoire et archélogie de la Syrie byzantine (Résurrection du passé) Paris, Fayard 1966.; J.H.W.G. Libeneschuetz : Antioch. city imperial administration in the Later Roman Empire, Oxford. The Clarendon Press 1972.; A. Bernard : Alexandrie la Grande (Signes des temps, 19) Paris Arthaud 1966.; P.H. Frazer Alexandria Ptolemaica, Oxford 1972.; E. Bernard : Inscription métrique de l'Egypte greco-romaine, Recherches sur la poesie epigrammatique des Grecs en Egypte (Annales litter, de l'Univ. de Besancon, vol 98) Paris, Les Belles-lettres 1969. H.C.Youtie, Between literacy and illiteracy as aspect of Greek Society in Egypt, Akten Des XIII Internationalen Papyrologen Kongress, Munchen 1974; J. Lindsay, Leisure and Pleasure in Roman Egypt, New York, Barnes & Noble, 1966. E. Wipszycka : l'industrie textile dans l'Egypte [illegible] worclaw Ossilineum. P.R Swarney : The Ptolemaic and Roman iodios logos : (American Studies in Papyrology vol 8) Toronto

1970 = cf. J.E.A, 58 (1970), pp 329-330 (by J. David Thomas), N. Lewis, An Inventory of Compulsory services in Ptolemaic & Roman Egypt, Toronto 1968; D. Crawford «Garlic growing in Graeco-Roman Egypt, Chronique d'Egypte no 96 (1973) pp 350-363; A Straus, Le statut Fiscal des esclaves dane l'Egypte romaine, Chronique d'Egypte, no. 96. pp 361-369 ; Biezunska-Malwist, l'esclavage dans l'Egypte greco-romaine (Archiwam Filologiczne 30) Warsaw 1974 ; Alan K. Bowman : The Town-Councils of Roman Egypt [American Studies in Papyrology] Toronto 1971 ; J.D. Thomas, The Epistrategos in Ptolemaic and Roman Egypt, Papyrologicae Coloniensis, 6, Opladen Westdeutscher Verlag 1975 ; Bernard, Recueil des inscriptions grecques du Fayôum, I. La Meris d'Herakleides, Leiden, Brill, 1975. Erwin Seidl, [Unter Mitarbeit von Dr. Lothar Müller] Rechtsgeschichte Aegyptens als roemischer Provinz (Die Behauptung des aegyptischen Rechts neben dem roemischen) sankt Augustin 1973.; G. Chalon : l'edit de Tibere Julius Alexander, Paris 1964 ; M. Humbert, La Juridiction du prefet d'Egypt «d'Auguste à Diocletien» Aspects de l'Empire romaine, Paris 1964. ; O.W. Rheinmuth, The prefect of Egypt From Augustus to Diocletien, Klio, Beiheft XXXIV, (1935): A. Stein, Die Praefekten von Aegypten in der rœmischen Kaiserzeit (1950) ; S. Wallace Taxation in Egypt From Augustus to Diocletian. 1938.

وعن مشاكل الادارة الرومانية لمصر وعدم كفاءة الولاة لنقص الخبرة الكافية ولان الاباطرة اعتمدوا على رجال الثقة الضعفاء خوفا من استقلال مصر ، فضلا عن صعوبة ادارة ولاية مزدحمة بالسكان مثل مصر ومصدرا يمد الامبراطورية بثلث ما تستهلك من القمح ، وضرورة ان يلم واليها بالخبرة العسكرية والقضائية والادارة المالية ولقصر مدة توليهم التى لم تتجاوز ثلاث سنوات ، مما ادى الى اعتمادهم على موظفين بيروقراطيين مستقلين انظر المقال الطريف :

P A. Brunt, «The Administrators of Roman Egypt, J.R.S, LXV (1975) pp 124-147.

فضلا عن قائمته بأسماء وتواريخ توالى الولاة من ٣٠ ق.م وحتى عام ٢٣٦ م .

وعن الفنون فى مصر الرومانية : انظر :

Harden : Roman glass from Karanis, An Arbor, 1963.

Parlasca. «Reportorio d'arte dell, egitto greco-romana, vol. I, (Palermo 1969).

H.W. Peck. Mummy Portraits From Roman Egypt (Detroit 1967).

H. Zaloscer, Portraits aus den Wüstensand, (Vienna — Munich 1961).

Kater-Sibbs (G) and MF Vermaseren : Apis, I The monuments From Hellenistic and Roman period, From Egypt; II monuments outside outside Egypt (etudes preliminaires aux religions orientales dans l'empire romain, 48) Leiden, Brill, 1975.

وعن الحمامات الرومانية فى اقليم الفيوم والضرائب المفروضة عليها خاصة حمام مدينة كرانيس (كوم أوشيم) انظر الدراسة الاثرية الوثائقية :

S. EL-Nassery et G. Wagner et G. Castel, Un Grand Bain Greco-Romaine à Karanis, B.I.F.A.O, Tome LXXVI (1976) pp, 231-275,

وعن القبور وهندستها فى مصر الرومانية وبالذات فى مقبرة كوم أبو بللو مع انواع واشكال شواهد القبور والنقوش التى عليها انظر :

S. EL-Nassery, G. Wagner, et Abdul Hafeez Abdul-Al, «Nouvelle Stelae d' Abou Bellou,» B.I.F.A.O, LXXVIII, 1978.

وعن النقود فى مصر الرومانية انظر :

West and Johnson, Currency in Roman Egypt. London 1952. ; J.G. Milne, Roman Coinage in Egypt in relation to native economy, Aegyptus vol 32, (1952) pp 143 ff.

فهرست الكتاب

رقم الصفحة

تقـديم ٥

الفصل الأول : المصادر الادبية والتاريخية . . . ١٣

الفصل الثانى : قيصر أكتافيوس يقيم دعائم النظام الامبراطورى ١٨

اكتيوم والتحول العظيم ١٨ ، اكتافيوس يرسى دعائم الحكم الأمبراطورى ٢٢ ، اكتافيوس يتنازل عن سلطاته الأستثنائية ٢٣ ، السـلطات التى حكم بمقتضاها اكتافيوس ٢٥ ، اصلاحات اغسطس فى المجال السياسى ٣٤ ، الأصلاح العسكرى ٤٣ ، اصلاح الادارة وتحقيق الأمن فى العاصمة والولايات ٤٩ ، الولايات الأمبراطورية والولايات السيناتورية ٥٣ ، اصلاح حكم الولايات ٥٥ ، مصر ٥٧ ، شمال افريقيا ٦٧ ، الشرق الأوسط ٧١ ، سوريا وشبه الجزيرة العربية ٧١ ، مملكة يهودية فى فلسطين ٧٧ ، بلاد الرافدين وآسيا الصغرى ٨٢ ، أوروبا الغربية ٨٤ ، أسبانيا ٨٤ ، الألب والبلقان ٨٥ ، بلاد الغال والمانيا ٨٦ ، اخماد الثورات فى الليريا والمانيا ٨٩ ، اصلاحات أغسطس فى المجال الأجتماعى والأخلاقى والدينى ٩٢ ، حركة البعث القومى والأحياء الدينى ٩٢ ، نشر الأفكار السياسية عن طريق الأدب والفن والمهرجانات العـامة ١٠٧ ، ڤرجيـل ١٠٨ ، هوراتيوس ١١٠ ، اوڤيديوس ١١١ ، كتاب النثر ١١٢ ، قضية الخلافة على العرش ١١٣ ، تعليق على شخصية اغسطس ١١٩ ،

الفصل الثالث : اباطرة الأسرة اليوليو كلاودية . . ١٢٧

تيبريوس ١٢٩ تمرد القوات ١٣٤ ، علاقته بأبن أخيه جرمانيكوس ١٣٥ ، رحلة جرمانيكوس الى الشرق ١٣٦ ، مؤامرة سيانوس ، تحليل لشخصية تيبريوس ١٤٠ ، جايوس كاليجولا امبراطورا ١٤٤ ، صدامه مع اليهود ١٤٧ ، كلاوديوس ١٥٠ ، سياسته واصلاحاته ١٥٢ ، محاكم القصر ١٥٧ ، نيرون ١٥٩ ، حريق روما وبداية اضطهاد المسيحيين ١٦٢ ، الولايات الامبراطورية وسياسة نيرون ١٦٥ ، مؤامرة بيسو ١٦٨ ، ثورة ڤندكس وسقوط نيرون ١٦٩ ، نظرة شـاملة على الأحـوال السياسية والثقافية والدينية فى عصر اباطرة الأسرة اليوليو كلاودية ١٧٠ ،

الفصل الرابع : عـام ثـورات الجيوش وتولى الأباطرة الأربعه
ثورة اليهود في فلسطين ١٧٨ ، ثورة الغاليين بقيادة يوليوس ڤندكس ١٨٠ ، الجنرال جالبا يتولى الامبراطورية ١٨١ ، الامبراطور اوتو ١٨٣ ، الامبراطور ڤيتللوس ١٨٤ ، الجنرال ڤسباسيانوس يتولى الحكم ١٨٥ ، ثورة اهـل بتاڤيا والغال ١٨٧ ، تيتوس يضع نهاية لثورة اليهود فى فلسطين ١٨٨ ، صراع القوات الرومانيـة ومستقبل الامبراطورية ١٩٣ ،

الفصل الخامس : حكم الأسرة الفلاڤية . . . ١٩٦
ڤسباسيانوس ١٩٦ ، اتجاهاته واصـلاحاته ١٩٨ ، الاصلاح العسكرى ١٩٩ ، الاصلاح المالى ٢٠٠ ، البناء والتعمير ٢٠٠ ، سياسته ازاء ولايات الامبراطورية ٢٠٣ ، ڤسباسيانوس والشرق الأوسط ٢٠٤ ، العناية بالتعليم والخدمات ٢٠٦ ، الخلافة والمعارضة ٢٠٧ ، ڤسباسيانوس والسناتو ٢١٠ ، تحليل لشخصية ڤسباسيانوس ٢١٢ ، خلفاء ڤسباسيانوس ٢١٣ ، تيتوس ٢١٣ ، دوميتيانوس ٢١٥ ، الاتجاه الأوتوقراطى فى حكمه ٢١٥ ، سياسته واصلاحاته ٢١٦ ، سياسته الدفاعية والعسكرية ٢١٩ ، المعارضة والمقاومة لحكمه ٢٢١ ، اغتيال دوميتيانوس ٢٢٣ ، تقييم للأسرة الفلاڤية وعهدها ٢٢٤ نظام حكم المواطن الأول بين النظرية والتطبيق ٢٢٨ .

الفصل السادس : عصر الأباطرة الصالحين . . . ٢٣١
المصادر التاريخية ٢٣١ ، نرفا ٢٣٣ ، تراجانوس ٢٣٥ ، الامبراطور وحياته ٢٣٧ ، سياسته تجاه السناتو ٢٣٨ ، أعماله ٢٣٩ ، الادارة الانسانية الحازمة ٢٣٩ ، توسيع حدود الامبراطورية ونشر الحضارة والعمران ٢٤٢ ، حروبه فى الشرق ٢٤٤ ، القضاء على ثورة اليهود الثانية ٢٤٥ ، موت تراجانوس ٢٤٥ ، تقييم تاريخى لحياة الامبراطور وأعماله ٢٤٦ ، هادريانوس ٢٤٧ ، سياسته الخارجية ٢٤٩ ، رحلاته الطويلة فى الولايات ٢٥٣ ، هـادريانوس يزور الشرق الأوسـط ومصر ٢٥٤ ؛ هادريانوس يسحق ثورة أخرى لليهود ويشتتهم نهائيا من فلسطين ٢٥٧ ، تدعيم حدود الامبراطورية ٢٥٨ ، اصلاحاته العسكرية ٢٥٨ ، تنظيم الادارة فى الولايات ٢٦٠ ، اعادة تنظيم جهاز الحكم ٢٦٢ ، اصـلاحاته القانونية والتشريعية ٢٦٤ ، علاقته بالسناتو ٢٦٥ ؛ الرعـاية الاجتماعية للفقراء والمعوزين ٢٦٦ ، حركة النشاط العمرانى فى روما وايطاليا ٢٦٧ ، هادريانوس فى أيامه الأخيرة ٢٦٨ ، هادريانوس يختار خليفته ٢٦٩ ، انطونينوس بيوس ٢٧٠ ، علاقته بالسناتو ٢٧١ سياسته

وأعماله ٢٧٢ ، تطوير التشريع الانسانى ٢٧٣ ، سياسته الداخلية والخارجية ٢٧٤ ، موت الامبراطور انطونيوس بيوس ٢٧٥ ، ماركوس أوريليوس ولوكيوس فيروس ٢٧٦ ، الحرب ضد البارثيين ٢٧٩ ، حرب الدانوب ٢٨١ ، تمرد أفيديوس كاسيوس ٢٨١ ، سياسة ماركوس أوريليوس الداخلية ٢٨٤ ، ماركوس أوريليوس والخلافة ٢٨٥ ، كومودوس ٢٨٦ ، الأحوال الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فى عهد الأباطرة الصالحين ٢٨٨ ، ازدهار الثقافة والعلوم ٢٩٢ ، ملامح التقدم الحضارى فى المجتمع الرومانى ٢٩٨ ، تطور فن الادارة والتوسع فى وضع اللوائح والتشريعات التنظيمية ٣٠٠ ، تطور الفكر الدينى ٣٠٢ .

الفصل السابع : اندلاع الصراع بين قادة الجيوش وقيام حكم سيفيروس ٣٠٦

الامبراطور بيرتيناكس ٣٠٧ ، الفوضى تسود الامبراطورية ٣٠٨ ، سبتيميوس سيفيروس امبراطورا ٣١٠ ، تخلصه من منافسيه ٣١٠ ، اخضاع البارثيين ٣١٢ ، أعماله واصلاحاته ٣١٣ ، دعم الجهاز الادارى والتنظيمى لمواجهة بوادر الانهيار ٣٢١ ، كاراكالا ٣٢٥ ، سياسته ٣٢٥ ، الدستور الأنطونينى ٣٢٦ ، مغامراته العسكرية ونهايته ٣٣٣ ، ماكرينوس وابنه ٣٣٤ ، دور نساء آل سيفيروس فى استعادة العرش ٣٣٥ ، الجاباالوس ٣٣٥ ، الكسندر سيفيروس ٣٣٦ ، نظرة شاملة على الامبراطورية فى عصر سبتيميوس سيفيروس وخلفائه ٣٣٩ .

الفصل الثامن : الامبراطورية بين التصدع والانهيار (من الاسكندر سيفيروس حتى تولى ديوقلديانوس . ٣٤٤

المصادر التاريخية لهذه الفترة ٣٥٧ ، اندلاع الصراع حول العرش ٣٥٨ ، ماكسيمينوس التراقى ٣٥٨ ، جورديانوس الثالث ٣٦١ ، فيليب العربى ٣٦٣ ، ديقيوس ٣٦٣ ، ڤاليريانوس وابنه جاللينوس ٣٦٥ ، تفاقم الأخطار الخارجية ٣٦٦ ، هزيمة الفرس على يد دويلة بالمورا تدمر ٣٦٩ ، جاللينوس والقوط ٣٧٢ اصلاحات جاللينوس ٣٧٣ ، اليقظة المتأخرة على أيدى الأباطرة الالليريين ٣٧٥ ، كلاوديوس القوطى ٣٧٦ ، أوريليانوس ٣٧٦ ، حروبه ضد زنوبيا ملكة تدمر ٣٧٨ ، استعادته لبلاد الغال ٣٨٠ ، اصلاحاته الاقتصادية ٣٨١ ، عبادة رب الشمس الذى لا يقهر ٣٨٢ ، نهاية اوريليانوس ٣٨٣ ، الامبراطور تاكيتوس ٣٨٣ ، بروبوس ٣٨٤ ، كاروس وكارينوس ونومريانوس ٣٨٥ ، الامبراطورية قبل تولى ديوقلديانوس ٣٨٦ ، بداية الصراع بين

المسيحية والدولة ٣٨٦ ، ازدهار طبقة الفرسان ٣٨٩ ، تطوير الجيش الرومانى ٣٩٠ ، التدهور الاقتصادى ٣٩١ ، اضمحلال الثقافة والفنون ٣٩٢ .

الفصل التاسع : ديوقلديانوس واصلاحاته الجذرية . . ٣٩٥
المصادر ٣٩٥ ، ديوقلديانوس يفرض سيادته ٣٩٨ ، منجزاته ٤٠٠ ، تقسيم السلطة واختيار ماكسيميانوس شريكين ٤٠٠ ، اقامة السلطة الرباعية ٤٠٢ ، ديوقلديانوس والفرس ٤٠٧ ، اصلاحاته ٤٠٨ ، إعادة المهابة والقداسة الى منصب الأمبراطور ٤٠٩ ، تنظيم الولايات ٤١٠ ، اصلاحاته العسكرية ٤١٢ ، اصلاحاته المالية ٤١٣ ، وضع لوائح للضرائب ٤١٦ ، اصلاح نظام النقد ٤١٨ ، لائحة الحد الأقصى للأسعار ٤١٩ ، اضطهاد المسيحيين ٤٢٠ ، مرضه واعتزاله ٤٢٣ ، تقييم لحياته واعماله ٤١٧ ، عودة الصراع حول العرش ٤٢٦ .

الفصل العاشر : حكم قسطنطينوس وخلفاؤه . . . ٤٢٨
ظهور نجم قسطنطينوس فى سماء الأحداث ٤٢٨ ، ماكسيميانوس يتحدى السلطة الرباعية ٤٢٩ ، بداية الصراع بين ماكسنتيوس وقسطنطينوس ٤٣١ ، جاليريانوس يصدر قرار العفو الدينى ٤٣١ ، قسطنطينوس يغزو ايطاليا ٤٣٢ ، مؤتمر ميلان ٤٣٤ ، نهاية ماكسيمينوس دايا ٤٣٥ ، تقسيم الامبراطورية بين قسطنطينوس وليكينيوس ٤٣٥ ، قسطنطينوس وموقفه من الصراعات الدينية ٤٣٧ ، ظهور المذهب الأريوسى ٤٣٣ ، نهاية ليكينيوس ٤٤٠ ، مجمع نيقية ٤٤١ ، اصلاحات قسطنطينوس الدنيوية ٤٥٤ ، تنظيم الجهاز الادارى والتنفيذى ٤٤٥ ، تنظيم النقد ٤٤٧ ، تطور نظام الاقطاع وأقنان الأرض والطبقات المهنية ٤٤٧ ، تأسيس القسطنطينية ٤٥٠ ، نهاية قسطنطينوس الاول ٤٥٣ ، خلفاؤه ٤٥٤ ، قسطنطينوس الأغسطس الأوحد ٤٥٥ ، موته وتعليق على شخصيته ٤٥٦ ، حكم جوليانوس المرتد عن المسيحية ٤٥٧ ، اعماله واصلاحاته ٤٥٧ ، موته ٤٥٨ ، جوڤيانوس يتولى العرش ٤٥٨ .

الفصل الحادى عشر : حكم ڤالنتيانوس وثيودوسيوس الكبير . ٤٦٠
حكم الاخوين ڤالنتيانوس الاول وڤالنس ٤٦٠ ، القوط يهاجمون الامبراطورية ويحتلون البلقان ٤٦١ ، فلسفة حكم ڤالنس وڤالنتيانوس ٤٦٢ ، ثيودوسيوس الاول وصراعه ضد القوط ٤٦٣ ، ثيودوسيوس ينتقم لمقتل جراتيانوس ٤٦٤ ، ثيودوسيوس والقديس امبروزيوس ٤٦٥ ، انقلاب اربوجاستوس ويوجينيوس ٤٦٦ ، تقييم لثيودوسيوس الكبير وسياسته ٤٦٧ .

الفصل الثانى عشر : سقوط الامبراطورية فى الغرب . . ٤٦٨

تقسيم الامبراطورية الى شطرين ٤٦٨ ، نجاح الشطر الشرقى ٤٦٩ ، الاريك يحتل روما ٤٧١ ، القوط يحتلون بلاد الغال واسبانيا ٤٧٣ ، قيام مملكة القوط فى بلاد الغال ٤٧٣ ، قبائل الوندال تهاجم ايطاليا وتحتل أسبانيا ٤٧٤ ، مملكة الوندال فى أفريقيا ٤٧٥ ، مملكة البورجونديين والفرنجة والسكسون ٤٧٦ ، آخر الأباطرة الذين حكموا فى الغرب — هونوريوس ٤٧٧ ، ڤالنتيانوس الثالث ٤٧٨ ، أيتيوس ٤٧٩ ، أتيلا يغزو بلاد الغال ٤٧٩ ، زوال الامبراطورية فى الغرب ٤٨١ .

الفصل الثالث عشر : تحليل للمجتمع الرومانى ولأسباب سقوط الامبراطورية ٤٨٣

الصراع الطبقى ٤٨٤ ، الفوضى الفكرية ٤٨٧ ، العقيدة المثرائية ٤٨٩ ، الأفلاطونية الجديدة ٤٨٩ ، المسيحية وطوائفها ٤٩٠ ، الصراع الفكرى والعقائدى بين طوائف المسيحية ٤٩٣ ، تفسيرات المؤرخين القدامى والمحدثين لسقوط الامبراطورية ٤٩٧ .

مراجع وبحوث اضافية لتاريخ الامبراطورية ٥١٢

فهرست لمحتويات الكتاب ٥٣٥

رقم الايداع ٣٥٤٥ سنة ١٩٧٧
الترقيم الدولى ٢ – ١٦٦ – ٢٥٦ – ٩٧٧